سلسلة عام 2000

انتفاضة العقل العربي

الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا

دار عويدات الدولية
بيروت - باريس

انتفاضة

العقل العربي

الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا
أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية

انتفاضة العقل العربي



منشورات عويدات الدولية
بيروت - باريس

الطبعة الأولى 1994

مقدمـــة الكتـــاب

هذا الكتاب هو محاولة أولية لإنصاف واقـع تاريخي حضاري يمس حياة الفكر العربي الاسلامي قبل أن يكون دفاعاً عنه ، ذلك الفكر الذي طالما تعسفت عليه المصادر الغربية وكالت له تهماً صيغت في أحكام ماسخة قطعية تعبر في مجملها عن شهادة بسوء الأحدوثة مستخرجة من سجل غير عادل يخلو من دلائل الإثبات وضعته أيدٍ أثيمة لا غرض لها إلا التزييف والتضليل والتوهين والإدلاء بشهادات الزور لإضعاف الثقة بالذات والتاريخ .

فمنذ انتصار شارل مارتل على العرب في معركة بواتييه تكونت لدى أوروبا عقدة العرب والاسلام . هنالك ظهر شعار (حماية الحضارة الغـربية من البـرابرة العرب)، أما البربرية الغربية في ڤيتنام والهند والصين وأفريقيا والبلاد العربية ، فهي خدمة إنسانية، وعملية تمدينية، ورسالة حضارية، وليست أبداً «أبداً» ـ بل معاذ الله أن تكون ـ عملية ابتزاز للشعوب واستنزاف لدمائهـا، ونهب لخيراتهـا، وتركها قاعاً صفصفاً . . وكانت حُصَّة البلاد العربية من هذه « الرسالة » أكبر من غيرها ، إذ لم تكد موجة الاستعمار تنحسر عن الوطن العربي ـ في الظاهر على الأقل ـ حتى ابتُلي بإسـرائيل ، ومـا أدراك ما إسـرائيل ! إنهـا استعمار من نـوع جديد هو الاستعمار الاستيطاني . إنها حضور دائم للغرب في المنـطقة ، وعين ساهرة على مصالحه ، كلب حراسة لا يغفـو ولا ينام . هـذه هي رسالـة أوروبا الحضارية .

لقد علمتنا هذه الحضارة ولا تزال أن المُثل الأخلاقية لا قيمة لها ولا وزن في المعادلات السياسية والدولية . فإنما الشأن كل الشأن للقوة وعلاقات القوة .

إنها حضارة رأس المال ودكتاتورية البروليتاريا ، وليست أبداً حضارة الإنسان . فرغم التقدم الكبير الذي أحرزته هذه الحضارة في جناحيها الاشتراكي والرأسمالي ، فإن إنسانها لم يتقدم قيد أنملة . هناك تقدم علمي وتكنولوجي هائل ، ولكن ليس هناك أي تقدم في جوهر الانسان .

هناك إنسانان اليوم يتنازعان حضارة الغرب : الإنسان « الانساني » والإنسان الآلي . فقد غزا الانسان الآلي الانسان الانساني ، وهو الآن بسبيل أن يطيح به . بل لقد أخلى الانسان الانساني موقعه للانسان الآلي في كثير من عواصم الغرب ، حتى لتكاد العدوى تسري اليوم من الرجل الأبيض الى الرجل الأصفر . فاليابان تريد حالياً أن تنافس أوروبا وأمريكا في صناعة إنسانها الآلي ، وهي الآن جادة في هذا السبيل .

وهكذا فبينما نحن نشهد الفصول الأخيرة من عصر استعباد الإنسان للانسان ـ أو هذا على الأقل ما يراد أن يوحى إلينا به ـ إذ أننا نشهد عصر استعباد الآلة للانسان . وهكذا انتقل الانسان من استعباد إلى آخر . فبدلاً من أن تحرره هذه الآلة من شقاء العصور والدهور زادت في سحقه وتحطيمه كأنما قد كُتب عليه أن يظل في شقاء دائم: شقاء الفقر والمعاناة وشظف العيش، وشقاء الغنى والرفاهية والنعيم. إن هذه الحضارة الصناعية الشرهة التي تكاد تبلغ القرنين من العمر توشك أن تجر العالم إلى كارثة كتلك التي حلَّت بكوكب الزهرة ؛ فإني كثيراً ما أتساءل ألا يمكن أن يكون المطر الحامضي في جو هذا الكوكب الخانق وليد حضارة صناعية كحضارتنا التي بدأت ظواهر المطر الحامضي تتكون في كثير من حواضرها في هذه الأيام ؟ إن هذه المسألة ليس من المستطاع أن يقطع المرء فيها برأي قبل المزيد من التصوير والدراسة الميدانية، بعد أن يطوف الانسان بنفسه على سطح الكوكب كما طاف على سطح القمر ، ويعانق هناك إلّهة الجمال التي ينتسب إليها الكوكب . وأنا بعد ذلك زعيم بأنه سيرى هناك بأم عينه آثار حضارة قديمة سادت ثم بادت. لقد غزت الكوكب شياطين حضارة المطر الحامضي ، فحملت الإلّهة أمتعتها وغادرت الكوكب إلى غير رجعة تريد السلامة والعافية .

إن جميع الدلائل تدل على أن حضارتنا لن تُعمَّر طويلاً ،إنها لم تُثبت قدرتها على البقاء ، وكل شيء يشير إلى أنها لن تفعل . إن حضارة المصريين القدماء عاشت زاهرة ثلاثة آلاف سنة ، وحضارة الصين عاشت ألفين من السنين .

القيم هي حامية الحضارات ، وهيهات أن تعيش حضارة بلا قيم !

أجل ، لقد أثبتت الحضارة الغربية أنها عاجزة عن قيادة العالم . هذا ما يؤكده الكثيرون اليوم وتثبته الأحداث يوماً بعد يوم . فإذا ما أرادت أن يُنسأ لها في الأجل ويُكتب لها البقاء ، فيجب أن تدرك حجمها الحقيقي بلا زيادة ولا نقصان ، وأن يقوم حوار بين الحضارات تتبادل فيه مفاهيمها ومثلها وقيمها وتجاربها ، وأن تتعاون جميع الحضارات على توفير الحرية لجميع المواطنين من بلاد الله الواسعة، وتقديم العون لهم، وإتاحة الفرص المتكافئة للجميع، والبحث عن الأفراد الموهوبين أينما وُجدوا ، وإلى أي جنس انتموا ، دونما التفات إلى العِرق أو اللون أو المذهب ، وتقريبهم بعضهم من بعض ، ومساعدتهم في عملية تحقيق الذات وتغذية الحوافز الخلاقة بدلاً من خنق مواهبهم لاعتبارات عنصرية أو مذهبية أو طائفية ضيقة . وبذلك يمكن لهذه الحضارة أن تعيش ويتسنى للآخرين أن يعيشوا العيش الكريم والحياة الوادعة المطمئنة ، ويستطيع العالم أن يهدأ بسلام وأمان ، وإلاَّ فعلى العالم العفاء !

هذه دعوة صادقة يوجهها روجيه غارودي في كتابه القَيِّم (حوار الحضارات) . ولكن على من تقرأ مزاميرك يا داود ؟

أنا من المؤمنين بالفكر العربي الاسلامي ، وبالأشخاص الذين صنعوه ، لقد شادوا صرحاً عظيماً سنرى في كل فصل من فصول هذا الكتاب والكتب التي ستتوالى بعده ، جناحاً جديداً منه ومشاهد جديدة ووجوهاً جديدة متناثرة هنا وهناك لم نرها من قبل . بالدم والعرق رفعوا قواعده ، وبالإرادة والايمان بالذات وضعوا لبناته ، وبالدأب والثبات أكملوا بناءه وطاولوا به العصور والدهور .

*

هناك امتهان متواصل للعرب وتحقير لشأنهم مصدره شعور الاستعلاء

الغربي والسيطرة الغربية . لقد كانت الذريعة الدائمة المتكررة للنَّيْل من العرب ومنجزات العرب أن نظام التصورات اليوناني كان هو الأساس لجميع الأعمال الفكرية العالية التي قام بها العرب ، وأن المبادىء الفلسفية والآراء التي جاء بها هؤلاء إنما هي ترجمة مشوشة لفلسفة اليونان ومنطق اليونان ومنهج التفكير عند اليونان . فليس للعرب قدرة على التفكير الأصيل ، وليست لهم أي إضافة هامة مستقلة عن أساتذتهم اليونان ، وذلك إنما يرجع إلى نقص في خصائصنا العرقية . هذا ما يردده الباحثون الغربيون باستمرار وبهذا تأمرهم أحلامهم ، حتى ملَّت الأسماع منه وصدئت الآذان لتكراره . فالرقي هو وليد العرق الأبيض الذي إنما خُلق ليسود العالم ، لأنه يحمل في أصلابه وذرياته قوى فعالة يفتقر إليها غيره هي سر تفوقه ، وهو الجدير وحده بفهم جهود المبدعين من ذويه ، وقادر على خلق جميع القيم وتمييزها والإفادة منها . وهذه النظرية باطلة مهما تمسَّح القائلون بها بمسوح العلماء وتزيوا بأزيائهم ، لاستدراج السذج والأغرار . ليست العبرة بالمظهر ، إنما العبرة بالمخبر إنهم علماء بحاثة في كل شيء إلاّ ها هنا . فجميع الشعوب والأمم قادرة على إنجاز الأعمال العظيمة إذا توافرت لها مجموعة من الظروف والملابسات الاكتسابية الخارجية التي لا شأن لها بالعرق أو اللون أو الدين والمولد ؛ بل الشأن فيها كل الشأن للتاريخ والجغرافيا وأحوال الزمان والمكان والبيت والمدرسة والمجتمع ونظام الحكم . . . كما سنرى في حينه ، وكلها عوامل خارجية صرف تستطيع قتل النبتة أو إثارة حوافز النمو فيها .

إن العلم والفلسفة وجميع عناصر الحضارة وإنجازاتها ، لا تقوم إلاّ على تراث الأقدمين ومكتشفاتهم ، ولا يمكن تصورها إلاّ بتجارب الأقدمين ومنتجاتهم ولا غرو في ذلك ، فهي بناء رفعت لبناته بتجارب الأجيال جيل بعد جيل . ولذلك فإن جميع الحضارات تدين بالكثير مما فيها للاقتباس والنقل والاستعارة ، ولم يتطاول بناء الفكر والحضارة إلا بالأخذ والعطاء . فكما كان اليونان تلامذة المصريين والبابليين والهنود وغيرهم ، فأخذوا عنهم ثم تجاوزوهم ، كذلك كان العرب أيضاً تلامذة لليونان والفرس والهنود وغيرهم . بأفكارهم اغتذوا ، ومن لبانهم رضعوا ، ثم لم يلبثوا أن تجاوزوهم وحلَّقوا في عوالم وآفاق جديدة . لسنا هنا بازاء إضافة عددية كمية ، إنما هي نقلة نوعية تمخضت عن عقلية جديدة

تغيرت على أثرها نظرة الانسان العربي إلى نفسه والى محيطه ، مما جعله يعيد النظر في قيمه ومكتسباته وفي معنى الحياة والوجود والمصير . ولا يعود الفضل في ذلك إلى اليونان بقدر ما يرجع إلى العرب والى البيئة التاريخية والظروف السياسية والاجتماعية التي كانوا يعيشون فيها والتي هي من صنع أيديهم هم . لقد انتشرت أفكار اليونان في كل أفق، ولكن تأثيرها انحصر في أفق دون أفق . فالعوامل الخارجية لا تجدي نفعاً إذا لم تدعمها العوامل الداخلية ، وإذا لم تجد تربة خصبة فيها.

فليس من القسط إذن إرجاع كل تقدم فكري أو ظاهرة حضارية جديدة في عصر من العصور أو بيئة من البيئات إلى عوامل خارجية صرف ، وإهمال العوامل الداخلية التي هي أساس كل تقدم وسر الطاقة الدينامية التي تدفع إلى التقدم إذ لا فكرة من الأفكار ترد من خارج وتسعى لأن يكون لها سلطان على الناس دون أن يكون لها سند من الداخل وما لم يكن لها فيهم وجود ما بالقوة . فالعامل الخارجي إنما يوقظ الحوافز الداخلية ـ إذا وُجدت ـ ويستحثها ويستجيشها . ولكنه لا يخلقها بل ـ ماذا أقول ؟ ـ إن الأفكار التي تُقحَم من خارج دون أن تؤخذ البنية الداخلية بالحسبان ، إثمُها أكبر من نفعها ، لأن من شأنها قتل روح الابتكار وخنق الذوق الفطري لدى الناشئة، وإن أرضَتْهم ـ وهذا من أفدح الأذى ـ بالحصول على بعض الشهادات والألقاب والمناصب الإدارية والمقاعد الوثيرة الفاخرة والثروات الطائلة ، فقتلت طموحهم وأطفأت ما يشتعل فيهم من وحي وإلهام ، وطمست كل روح مبدعة وثابة تنبض بين جوانحهم . لقد كانت وبالاً عليهم كما يكون الماء البارد العذب وبالاً على العطشان إذا شَرَقَ منه مات ، أو اجترعه وجسمه يتصبب عرقاً . لكن هذه الأفكار ذاتها قد تكون غذاء دسماً لبلد يعيش انتفاضته أو يمر بعصر تحول كبير. هنا تؤتي الأفكار ثمارها. هنا يرقص الرجل المبدع ويهزج، وهنا تتحقق أحلامه. ها هنا وادي عبقر، الوادي المعشوشب الممراع ، وادي الآمال والأحلام ، هنا فقط تتمخض الأحداث عن مولود جديد . . .

إن عصور التحول الكبرى هي عصور الطاقات المتفجرة ، والمواهب

المتكشفة، والقدرات الجياشة الهائلة، والإرادات التي لا تعرف المستحيل. هنا المرجل الذي يصنع الرجال. هنا يُصنع التاريخ. فكل مادة خارجية، وكل عنصر وافد يصُبُّ في البوتقة، فهو منذ الآن قادر على الدخول في نسيج الجماعة وعلى أن يكون جزءاً من بنيتها الأصليَّة مهما كان مرفوضاً من قبل. هنا فقط يؤتي أُكُلَه ويحقق أغراضه كالبذرة وقعت في تربة خصبة، بينما لا ينتج عنه في أوقات الجدب والقحط، وفي عصور الركود والتخلف ـ أي حيث يُقحم إقحاماً ـ إلا العجز والعقم، كالبذرة وقعت على صخرة. أرأيت كيف يكون الاقتباس مفيداً خصباً في آن، وضاراً عقيماً في آن. إنها العوامل الداخلية هي التي تفرق بين الآن والآن. فالعوامل الخارجية لا تعمل إلّا على إيقاع العوامل الداخلية، وبالقدر الذي تسمح به العوامل الداخلية، وإلّا فإن أجود ما في العالم من بذور لا يمكن أن تنبت على حجر صوان. إن عصور التحول وهي تصنع ذاتها تحتاج إلى بعض المواد الأولية. فإن عثرت عليها في بيئتها كانت لها نِعْمَ المؤونة، وإلّا استوردتها من الخارج. هنا فقط تكون المادة المستوردة ذات نفع وفعالية، لأنها تندمج في البنية الأصلية وتصبح جزءاً منها.

وهذا ما حدث للعرب عندما هجمت عليهم إمدادات الأفكار من خارج، فصادفت أرضاً تتفجر فيها الأفكار. واصطرعت الأفكار بالأفكار وتفاعلت الأفكار والأفكار، وانبثقت عوالم الأفكار وانتصبت صروح الأفكار[1]. فالتغير إنما يكون بصنع الأفكار وضخِّ الأفكار، والنخبة هم دائماً صناع الأفكار ومضخات الأفكار. فلا تغيير بلا أفكار ولا إصلاح ولا ثورة بغير تدفق الأفكار، وكل أولئك إنما يبدأ بالأفكار.

أجل إن الأفكار قادرة بذاتها على إحداث التغيير يهيء له بعض القيادات المخلصة الواعية التي يتفق وجودها بأعداد كبيرة نسبياً في منطقة محظوظة من العالم فتثور وتتحفز للوثوب وتحقيق التطور المنشود. هنالك يبدأ التصدع في

---

(1) وهذا ما يفسر نشأة الفرق والمذاهب قبل انتصاف القرن الأول للهجرة، قرن ثورة الأفكار واندلاع شرر الأفكار كما سنرى ذلك مفصلاً في الجزء الثاني من كتابنا الفكر العربي في مخاضه الكبير.

البنية العامة للجماعة، وهناك تبرز الشروخ. والتصدع يستتبع التصدع والشرخ يعقبه شرخ مثله. وهكذا تزداد الشروخ والتصدعات حتى يخرَّ البنيان كله.

إن الجماهير غافلة عما يجري حولها، لكن القيادات الواعية المخلصة تسمع وترى ما لا يدركه الآخرون، لأنها أقدرهم على التفكير والتحليل واستيعاب الأمور بنظرة تركيبية كلية سريعة. تلك هي وظيفة النخبة التي تدق ناقوس الخطر وتبث الوعي بين الجماهير العمياء، وتشحن بالأفكار الأجواء. لقد بدأت المعركة بين القديم والجديد ولا يصمد إلّا الأقوى، وكم من ثورة أجهضت وكم من ثورة نجحت، والأمر مرهون بمجموعة من العوامل الذاتية والظروف الموضوعية والصدف والمفاجآت التاريخية إذا أمكن السيطرة على بعضها فقد لا يمكن السيطرة على بعضها الآخر. فإذا تحققت الثورة الفكرية أعقبتها الثورة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية عاجلاً أو آجلاً. وهكذا تسري من القمة(1) إلى القاعدة باستمرار تيارات جديدة تحمل أفكاراً جديدة وتدعو إلى إصلاحات جديدة. ولا تزال هذه التيارات تُضخّ من علٍ وتتخلل القاعدة حتى تتشبع هذه الأخيرة بها أو تكاد. هنا يحتدم الصراع بين القوى التقليدية والقوى الثورية. ولكن النصر معقود دائماً لقوى الثورة وإن طال المدى. فلا بد للّيل أن ينجلي ولا بد أن يستجيب القدر. فكلما اشتد الكفاح والنضال وحمي وطيس القتال والصيال، اقتربت ساعة النصر...

*

المهم أنه عندمَا انْصَبَّت على العرب سياط الأفكار كانت القوى الداخلية مهيَّأة جداً للإخصاب والتلقيح.. وحدثت المعجزة الثانية بعد المعجزة الكبرى التي ألهبت شبه الجزيرة العربية وفجرت فيها وقود الأفكار. وأخذت تترى معجزات الأفكار.

لقد كانت الثقافات الأجنبية معيناً لا ينضب استقى منه الفكر العربي

---

(1) لا أعني هنا بالقمة القمة التقليدية التي تتألف من تحالف الطبقة الحاكمة والإقطاع والكهنوت ورجال المال والأعمال، وإنما أعني بها النخبة المخلصة الواعية التي تنبثق من أوساط الجماهير وتراهن على الثورة وتلتزم بايديولوجيا الثورة.

الاسلامي كثيراً من مقوماته وعناصر وجوده ، وهذا مما لا ينكره أو يشكك فيه إلا مكابر . فقد وضعت هذه الثقافات بين أيدي المسلمين ما توفر لدى الأمم الأخرى من علوم وآداب وفلسفات ، وأمدَّتهـم بفيض غزير مما كانت تحتفظ به من ذخائر ونفائس . وكان إخصاب وكان عطاء .

ولا غرو في ذلك . فقد كان العرب نموذجاً للانفتاح على العالم واقتباس الصالح منه ، بلا حساسية ولا عقد ولا رواسب . فأخذوا عمن سبقهم ولم يتهيبوا ، وأغنوا تراث الإنسانية ولم يبخلوا ، وكانت لهم جولات وجولات في ميادين الخلق والابداع .

ولا تقتصر مآثر العرب في العلم والفلسفة وسائر وجوه الحضارة على ما أضافوه من الابتكارات الفكرية والاجتهادات العقلية ، حتى لقد فاقوا في ذلك سائر الأمم المعروفة آنذاك ، فتأثّروا بها وأثّروا فيها ، وأخذوا منها وأعطوها ، في عملية فذة رائدة من التبادل الفكري والحضاري الكثيف ، حقيق بها أن يُفرد لها دراسة شاملة تتناولها مـن جميع جوانبها ـ بل إنهم فضلاً عن ذلك حفظوا لنا كنوز الحكمة القديمة . فالمسلمون لم يكتفوا بإغناء الثقافة العربية الاسلامية ، بل لقد أغنوا أيضاً الثقافة اليونانية والفارسية والهندية معاً ! إذْ بُعثت هذه الثقافات جميعاً من مرقدها بعد أن كانت على شفا الموت تلفظ أنفاسها الأخيرة دون أن يبالي بها أحد أو يسرع إلى نجدتها إنسان . فلولا عناية العرب بها وحفاظهم عليها ، ولولا إنقاذها من التلف والحشرات والديدان . . . ولولا تنقيحهم لها وترميمها وإصلاح فاسدها وتحقيق نصوصها ، وشرحها والتعليق عليها . . لولا ذلك كله إذن لغابت في ظلمات الماضي وانقطعت وشائج التاريخ . فإذا كانت قد وهبتهم ثروتها الفكرية الضخمة وتراثها العظيم ، فقد زودوها بلغتهم وأقلامهم ومُهجهم ، واستولدوها أجيالاً جديدة من الخواطر والآراء والأفكار ، بمناقشاتهم ومطارحاتهم وتأملاتهم وثمرات عقولهم ، وهيأوا لها فُرصاً جـديدة لـلانتشار والتـوسع . وهكذا ، لم يقتصر النفع والانتفاع على فريق دون فريق ، بل لكلٍّ فضلُه ومزيتُه . فالحياة إنما هي تبادل بالمصالح والمنافع ، ولا يستقيم أمرها إلا بالغذاء والاغتذاء ، في حركة دائمة لا تتوقف إلا بتوقف أنسام الحياة .

أجل ، إن هذا المجتمع الناشىء المتطور الذي بدأت نواته تتكون قبل القرن الأول للهجرة ثم تعاظمت عملية النمو فيه بعد ذلك ، كان بطبيعته مجتمعاً مفتوحاً لجميع الأجناس والأقوام والألوان واللغات ، بلا عائق من جنس أو لون أو لغة أو طبقــة أو دين . . . وكان رجاله عشاقاً للعلم والمعرفة . فاقتحموا كل ميدان ، وخاضوا كل لجة ، وكانت لهم محاولات رائدة في كل مضمار دفعت بهم إليها طبيعة التطور وحاجات التقدم . وقد اتفقوا في أشياء كثيرة واختلفوا في أشياء كثيرة أيضاً ، إلا أن اتفاقهم واختلافهم لم يكونا محكومَيْن بعوامل الجنس والسلالة ، بل بعوامل أخرى متعددة أهمها الاسلام الذي به يدينون ، واللغة التي بها يتفاهمون ويكتبون ويفكرون ، والبيئة التي في كنفها يعيشون وفي أجوائها يتنفسون ، والعصر الذي إليه ينتمون ، والمُثل التي بها يؤمنون ، والآمال التي إلى تحقيقها يصبون ويطمحون ، والثقافات الغنية الوافـدة التي بها ينمـون ويغتذون ، ويعوامل أخرى مشابهة تفاعلت ونمط الحياة الجديدة وما يجيش فيها ويموج من استعدادات فطرية ومواهب عقلية وعبقريات فنية . . . فتأثرت بها جميعاً ، وأثرت فيها جميعاً ، ومنحتها هويتها العربية وشخصيتها الاسلامية ، وصيغتها الفريدة المتميزة .

وهكذا ترك الآباء للأبناء نتاجاً ضخماً غنياً بالقيم الحضارية ، والمُثل الانسانية. وهذا النتاج عـربي كله، مهما كانت الأصول العرقية للرجال الذين اشتركوا فيه . وهو إسلامي كله ، مهما كانت دياناتهم وعباداتهم . فهو عربي من حيث إنه قد كُتب بالعربية ومن حيث إن بنيته اللغوية هي في الوقت ذاته بنية فكرية اجتماعية سياسية ، وهي أيضاً بنية فيلولوجية وانطولوجية وسَيْكولوجية . وأما صيغته الاسلامية فهي مرتبطة بهذه البنية ، بجميع تشابكاتها وعلاقاتها الداخلية ارتباط تفاعل وتجـاوب ومصير . فلا فصل بين الإسلام والعروبة في هذا النتاج ، الاسلام بالمعنى الحضاري المنفتح ، لا بالمعنى الديني الزمِّيت الضيق ، والعروبة بمضمونها الثقافي والتاريخي والاجتمـاعي الخصب ، لا بمدلولها البيولوجي المحدود العقيم . لذلك لا يجوز النظر إلى أصحاب هذا النتاج على أساس أن هذا عربي وهذا أعجمي ، وهذا مسلم وهذا كافر ، بل

على أساس أنهم جميعاً عرب مسلمون فكراً ومجتمعاً ومُناخاً وتاريخاً وحضارة . وهكذا اتّحد الاسلام بالعروبة ، والدين باللغة اتحاد المعنى بالمبنى ، والجسم بالروح ، والمادة بالصورة ، فتفجرت الطاقات ، وبرزت العبقريات ، وتفتقت القرائح والمواهب في جميع الحقول والميادين كما سنرى في حينه ، وظهر على مسرح الأحداث أبطال وأفذاذ يُعدُّون من مفاخر التاريخ الانساني بعامة ، والعربي الاسلامي بخاصة .

إن الفرص التي أتاحها الاسلام لأبنائه وغير أبنائه ممن جاءوا يطلبون رفده ويعيشون في حماه في عصوره الذهبية - بل حتى في بعض عصور الانحطاط - كانت فُرصاً نادرة رائعة حقاً لا نكاد نجد لها نظيراً إلا في بعض الشعوب المتقدمة في العصر الحديث ، حتى إن كل من عاش في هذا الجو ، واستظل بظله ، وتنفس في رحابه ، وصار قمة من قممه ، فإنما يدين له - وله وحده ، لا لأصوله العرقية ، وشجرة أنسابه الإثنية - بما تفجر عنده من طاقات وما برز فيه من مواهب كان لا بد أن تذهب هدراً لولا انتماؤه الجديد وتنفسه في المناخ الجديد . وهذا لا ينطبق على المسلمين الملتزمين وحدهم ، أي الذين آمنوا بالقرآن ورسالة محمد وقاموا بجميع التكاليف الشرعية أو بعضها ، بل إنه لينطبق أيضاً وبالمقدار نفسه على المسلمين غير الملتزمين ، أي أولئك الذين آمنوا بحضارة الاسلام ونشأوا فيها وتفيأوا بفيئها وتغذوا بلبانها ، دون أن يدخلوا في الاسلام الرسمي ، بل حتى أولئك الذين خاصموا الاسلام وناصبوه العداء . وهكذا ، فالفلاسفة ، والعلماء ، والمفكرون النصارى واليهود والوثنيون . . وكذا الزنادقة، والملاحدة والماجنون والساخرون . . الخ - ممن يعزو إليهم السطحيون وجميع أولئك الذين يبتعدون عن مواقع النظرة الموضوعية أو يروغون عن الحقيقة، ويندفعون نحو رؤية مريضة للأحداث العربية الاسلامية - إن جميع هؤلاء الذين تُعزى إلى كثير منهم عظمة الفكر العربي الاسلامي لأن لهم نفحة آرية مزعومة أو بركة رسولية مفتعلة ، أو رطانة أعجمية ظاهرة ، إن جميع هؤلاء مهما تكن أصولهم وانتماءاتهم ، ليسوا سبباً من أسباب الحضارة العربية الاسلامية وإنما هم نتاج لها وبراعم غضة من براعمها ، وثمرات يانعة من ثمارها فهم بجملة ثقافاتهم وكتاباتهم ولغتهم إنما يدينون للحضارة الجديدة الناشئة التي

يرجع الفضل إليها في تفوق من تفوَّق منهم وبروز من برَز . لقد أطلقت لهم حرية الفكر والعمل ، ودفعت بهم في أتون الأحداث ، وقالت لهم : حققوا وجودكم ، وافتحوا صفحة جديدة من الايمان بالذات والتعبير عن الذات . ها نحن قد وضعنا حداً للمعاناة والحَجْر والإذلال العقلي والسياسي الذي كان الحكم السابق قبلنا يمارسه في حقكم . ألا فتولَّوا بأنفسكم زمام أمركم ولننظر ما أنتم فاعلون . فحقكم علينا أن نقدم لكم العيش الكريم والفُرص المتكافئة ، وحرية القول والفكر بلا إعنات ولا تمييز ولا تفرقة بين الملل والنِّحل والمذاهب والأديان . فلا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لمسلم على غير المسلم إلاّ بالعلم والفكر والإسهام المنتج الفعال . هذا حقكم علينا ، وأما حقنا عليكم فأن تكونوا مواطنين صالحين وأعضاء منتجين ، وأن تكونوا خير عون على أشرف مهمة . فحيَّ على خير العمل . شكر الله سعيكم ، وأعظم أجركم ، وسدد خطانا وخطاكم ، وهدانا وإياكم إلى سواء السبيل .

*

يخلص معنا من كل ما تقدم أن حضارة العرب لم تقم على أكتاف الأعاجم وحدهم . فإن من دخلوا في الإسلام من الفرس والروم والقبط والسريان والإسبان وغيرهم إنما درسوا في مدرسة العرب ، وتعلموا لغتهم وثقافتهم وعاداتهم ، وتبنوا قيمهم ومثلهم. كما أنها لم تقم على أكتاف العرب وحدهم، فإن العرب قد درسوا علوم الفرس والروم والقبط والسريان وغيرهم وتسربت إليهم علومهم وثقافاتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، ونتج عن ذلك كله مزاج جديد لا هو بالعربي صرفاً ولا هو بالأعجمي محضاً ، وإنما هو كلاهما وأكثر منهما . بمعنى أن هذا المزاج ليس مجموعاً كمياً تحتفظ الأجزاء فيه بقيمها وأقدارها وأحجامها ودلالاتها ووظائفها الجزئية التي كانت لها قبل الدخول في المزاج ، وإنما هو مجموع نوعي جديد تفاعلت فيه الأجزاء والعناصر ، فأنتجت كلاً هو نسيج وحده لا ينتمي إلى هذا الفريق أكثر منه إلى الفريق الآخر . فإذا كان ابن سينا والغزالي والرازي والبيروني و . . أعاجم تعرَّبوا ، فإن الكندي والجاحظ وابن رشد وابن زُهر وابن النفيس وابن خلدون و . . عرب أقحاح لا يقلّون عن الأولين منزلة وكرامة . وعلى الرغم من هذا التفاعل العميق بين الفريقين ، فقد ظلت الصيغة العربية

هي هي الصيغة العربية ، وإن كانت قد اغتنت واكتسبت المزيد من القوة والثراء . ولذلك فالفريقان عرب بلغتهم ودينهم وتربيتهم وثقافتهم . ومن هنا يمكن القول ان العروبة ليست في الدم والعرق بقدر ما هي في خدمة لغة العرب وآداب العرب وعلوم العرب ، كما أن الاسلام ليس في الفروض والتكاليف المطلوبة بقدر ما هو في الجو والمناخ والحضارة .

إن هؤلاء جميعاً هم في حقيقة أمرهم نتاج عربي اسلامي حتى ولو لم يعتنق بعضهم الاسلام، بل حتى لو ندد هذا البعض بالاسلام وخاصمه . فإذا لم يعتنق الاسلام فقد اعتنق لغته وتنفس في جوه وتنقل في أرضه وتبادل الفكر والرأي والمشورة مع أهله في وهجه وتحت سقفه وسمائه ، وشاركهم المسؤوليات والأعباء والمغانم والمغارم في ظله ورحابه . فعظمته إنما ترجع إذن لا إلى دينه ونسبه ـ وإن كان الدين والنسب لا يخلوان من بعض الفعل والتأثير ـ وإنما ترجع إلى انتمائه الجديد ، إلى المجتمع الذي أنجبه ، والجو الذي غذّاه بأنسامه ، والبيئة التي فيها وبها ومن أجلها عاش ونبغ .

فأبو عمران موسى بن ميمون الأندلسي مثلاً ، الذي ظن اليهود أنهم يضاهئون به أبا محمد علي بن حزم المفكر الأندلسي العظيم، فسعوا حتى أقاموا له تمثالاً في قرطبة كما لابن حزم تمثال ـ ان موسى بن ميمون هذا عالم عربي إسلامي قبل أن يكون يهودياً ، وبالعربية لا بالعبرية إنما كتب أكثر كتبه ، وفي بلاد العروبة والاسلام إنما نبغ وتفتقت مواهبه ، وعندما هاجر من الأندلس لم يذهب إلى فرنسا وايطاليا ، بل ذهب إلى مصر وفلسطين ، وهناك أصبح من أطباء صلاح الدين . لقد كان عَلَماً من أعلام اليهود الذين نشأوا في دار الاسلام ، فأغنوا واغتنوا، وأخذوا وأعطوا وكان من القلائل الذين نشروا الفكر العربي الاسلامي والفلسفة العربية الاسلامية في أوروبا ، وإن كان وهو يفعل ذلك إنما يخدم دينه ويكتب لأبناء ملته ، ويُخلّف لهم أعظم آثاره . وهكذا الحال في غيرهَ من المفكرين غير المسلمين الذين عاشوا في بلاد الاسلام ، بل هكذا أيضاً حال الذين هاجموا الاسلام وأنكروا القرآن وسخروا من عقائد المسلمين كأبي بكر الرازي وابن الراوندي .

ولكن يأبى العنصريون والمستكبرون إلا أن يظلوا في ضلالهم يعمهون . إنهم لا يريدون أن يتخلوا عن مواقعهم المستعلية وينزلوا من صياصيهم ليسمعوا ويعوا . إنهم يرفضون أن يعترفوا بالحق لأهله فيتشبثون بمواقف وايديولوجيات ذاتية متشنجة قذف بها العلم منذ زمن الى قرار سحيق . فهُم - مأخوذين بفتنة التفرقة السطحية بين الشعوب - ليسوا بقادرين على أن يتصوروا أن تظهر عبقرية مفكر إسلامي أو فيلسوف عربي دون أن يمتّ ، بسبب أو بآخر ، إلى أصول أجنبية غير عربية . ومن ثم راحوا ينبشون في مجاهل الماضي عن ميراث وهمي أو نسب بعيد في الروم واليونان والعجم لشعراء ومفكرين وفلاسفة وعلماء لا يعرف لهم التاريخ منبتاً في غير بيئتهم العربية الإسلامية .

وفي أخذة الفتنة ، انضم إلى هذه الجوقة بعض العقول العربية الجامعية التي إنما ينحصر دورها في نقل ما رثَّ وتعفَّن من الفكر الاستشراقي واللاهوتي الغربي ، والتبشير ببعض القيم المنحلة من الثقافة الغربية ، والدعوة إليها باسم العلم الموضوعي ، متجاهلة تحديات هذا العلم ذاته وزحفه السريع في كل مكان ليفضح أكاذيب الأدعياء والمبطلين وزيف ما يبشرون به من نظريات ظاهرُها العلم وباطنها التخريب والتجهيل .

لقد غاب عن أصحاب هذه الدعوات المرجفة ما لا يجوز أن يغيب عن أي مثقف واع يعتز بشهادة التاريخ الثابتة ، وهي أن النظريات العلمية والفلسفية لم تكن في يوم من الأيام حكراً على الروم واليونان والعجم . فقد أسهم مفكرو الإسلام وعلماء العرب بنصيبهم الوافر في هذه النظريات وصاغوها من ذوْب عقولهم ونبضات قلوبهم . ولا غرو في ذلك فهم بشر كسائر البشر ، ولكنهم جاءوا في عصر تحول كبير يستنبط الماء من الحجر . وهم جميعاً عطاء بيئتهم العربية الاسلامية بكل خصبها وثرائها وما تلقت من روافد التراث الفكري القديم - اليوناني وغير اليوناني - وهضمته بعقليتها المتميزة ، وتمثلته بمنطق تفكيرها وروح عقيدتها .

إن المشكلة الكبيرة بالنسبة إلى كثير من الدارسين المتخصصين في الفكر العربي الاسلامي والتي كانت من أسباب إنكاره والتنكر له أنه « لم تكن له طفولة

بل لقد برز [فجأة إلى حيز الوجود] في عنفوان المراهقة »[1] دون أن يمر بالمراحل « المعيارية » التي مر بها الفكر اليوناني أو الفكر الأوروبي مثلاً . ويشكو آخرون من غموض بواكيره الأولى[2] . ولعل أقدم من انجرف في هذا الاتجاه أيضاً أرنست رينان عميد حركة الاستشراق في فرنسا وأوروبا كلها في القرن الماضي . فهو يقول في كتابه القيم (تاريخ اللغات السامية) :

« ومن الخطأ وسوء الدلالة بالألفاظ على المعاني أن يُطلق على فلسفة اليونان المنقولة إلى العربية لفظ (فلسفة عربية) مع أنه لم يظهر لهذه الفلسفة في شبه جزيرة العرب مبادىء ولا مقدمات »[3] . وبالتالي فإن الفكر العربي الاسلامي لما لم تكن له طفولة ، ولا مقدمات ولا مبادىء ، ولما كانت بواكيره الأولى غير واضحة المعالم، وبتعبير آخر أكثر صراحة ، لا بواكير له ، فإنما هو فكر تراكمي تجميعي غير أصيل ، لا تلقائية له ولا ذاتية . لقد أتخمته الأفكار الخارجية ، فانتفخ وانتفخ كالاسفنجة تشربت الماء ، لا كالينبوع يتدفق منه الماء . والخلاصة ، أنه وليد غير طبيعي بدأ حياته مِزَقاً فوق مِزَق ، فكان فسيفساء من المِزق !

إن هؤلاء الباحثين ، ليسوا مؤرخين بقدر ما هم علماء نفس على الطريقة الأميركية، أي هم سلوكيون من أتباع مدرسة وطسون. فخطؤهم إنما يكمن دائماً في إخضاع الوقائع لنزعاتهم المذهبية الضيقة ، على حين أن العكس هو المطلوب في مثل هذه الأحوال . فهم على ما يبدو يشككون في ذاتية الذات ، وينكرون عليها فعاليتها وتلقائيتها وآمالها ومطامحها وصراعها من أجل أن تتحقق وتكتمل، وبخاصة إذا كانت هذه الذات غير أوروبية، أو لا تنتسب الى الأوروبيين بنوعٍ من النّسب أو الوشيجة . فكيف إذا كانت عربية إسلامية !

أجل ، لقد سلبوا هذه الذات ذاتيتها . لقد أفقدوها نبضها ودفئها ومبرر

(1) G. Quadri : La philosophie arabe dans l'Europe médiévale p. 16.

(2) Encyclopédie de l'Islam, art. Kalam.

(3) Histoire générale et système Comparé des langues sémiliques P.10 (Œuvres complètes de Ernest Renan) 12/3.

وجودها ، فماذا عسى أن يبقى بعد ذلك منها ؟ وهكذا أصبحت موضوعاً . فهي في حسبانهم لا تنمو من الداخل كشأن الكائن الحي ، إنها إنما تنمو من الخارج بالتراكم والتجميع على طريقة البلوريات والرواسب . وبذلك جمَّدوا الفكر العربي وأفقدوه أصالته وطاقاته الإبداعية ومنازع الخلق فيه ، لا لشيء إلّا لأنهم لم يكتشفوا بواكيره الأولى ، وإذن فهي غير موجودة أصلاً . وسنرى كيف أن نواة التفكير العربي والاسلامي قد تكونت بانتفاضة إبن الجزيرة العربية محمد بن عبد الله في أوائل القرن السابع للميلاد ، وذلك قبل أن تهبط على العرب بركات اللقاء اليوناني السرياني بوقت طويل . فلولا أن التفكير العربي الاسلامي قد تكوَّن قبل اللقاء المبارك لما أثمر هذا اللقاء شيئاً ولما ترك أي أثر فيه البتة، فجميع كتب الدنيا ، وكل أكاديمياتها ومجامعها العلمية لا تجدي من لم يكن مهيئاً لها وأهلاً للدخول في حوار معها .

هذا من جهة أولى، ومن جهـة أخرى، مـاذا عسى أن يعني هؤلاء بكلمة (بداية) و (طفولة) و (بواكير) و (مبادىء ومقدمات) ؟ ترى ، هل معناها أن كل جماعة كيما يوصف تفكيرها بأن له بداية وطفولة وبواكير ومبادىء ومقدمات ، لا بد لها بالضرورة أن تمر بنفس المراحل النموذجية المثلى - بزعمهم - التي قد مرَّ بها اليونان ؟ لا أعتقد ذلك .

ليس ثمة أي تشابه ثابت بين طرائق الأمم في التطور والتقدم ، فما ينطبق على أمة من الأمم قد لا ينطبـق بالضرورة على أمة أخرى . فإن هناك أنماطاً شتى من التقدم وطرائق قدداً ، تختلف بعضها عن بعض تبعاً لظروف كل أمة وأوضاعها التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية الخ . . . فللأمم تجارب وخبرات ، وتطرأ عليها أحداث وأوضاع ، وتكون لها تطلعات ومواقف وآمال ، لا يمكن أبداً وقوع التشابه بينها ، وبالتالي لا يمكن اتخاذ إحداها معياراً للأخرى . ومن هنا فلا معنى للقول بوجود مسيرة نموذجية مثلى يجب أن تحتذيها جميع الأمم والشعوب في كل زمان ومكان وتجعلها نبراساً لها ، إذا أرادت بلوغ أمرها وتحقيق ذاتها . فلكلٍ شرعةٌ ومنهاجٌ .

فالقول بأن كل جماعة - كيما يوصف تطورها بأنه سليم - يجب بالضرورة

أن تمر بنفس المراحل والأدوار « النموذجية » و« التقدمية » التي قد مرَّ بها الشعب اليوناني أو أي شعب راق آخر كالشعوب الأوروبية اليوم مثلاً ـ هذا القول مرتبط بوجود قوانين طولية (أو خطية) واحدة للتطور والتقدم ، تشمل الانسانية جمعاء. لكن هذه القوانين لا وجود لها بالمعنى العلمي الدقيق للكلمة، إلا في المجتمعات الراكدة ، إذا صح وجود هذه المجتمعات حقاً . ولئن وجدت هذه القوانين في المجتمعات الراقية فإنما توجد لفترة قصيرة جداً من الزمن. ذلك بأن العملية التاريخية لا تجري في اتجاه واحد مطلق كما لو كانت تحدث في الفراغ المطلق ، بعيداً عن كل تدخل للقوى الداخلية والخارجية فبعض الظواهر الاجتماعية الثقافية المحدودة نسبياً يجري في اتجاه طولي ، وذلك لفترة قصيرة من الزمان تختلف باختلاف هذه الجماعة أو تلك . لكن بقية الظواهر لا تجري وفق هذا الاتجاه ولا تتقيد به . فنظراً الى التغيرات التي تحدث داخل الجماعة ، وكذلك نظراً إلى التأثير المستمر للقوى والضغوط الخارجية التي تقع عليها ، فإن اتجاهها لا يبقى على حال واحدة طويلاً وإنما هو ينقطع من وقت إلى آخر ، فيلتوي ويتعرج هنا ، وينحرف هناك عن خطه المرسوم ، ويرجع إلى الوراء هنالك ناكصاً على عقبيه ، فينشأ عن ذلك تغيرات اجتماعية ثقافية حضارية غير طولية لم تكن بالحسبان .

حقاً ، ليس هناك طريقة واحدة ـ وواحدة فقط ـ يصح اتخاذها أنموذجاً وإماماً لنشوء الأمم وتطورها . وكل ما يمكن أن يقال في هذا الباب هو أن هناك مجموعة من الشروط والأوضاع والعلائق إذا انعدمت جمدت الجماعة ولو كانت قد بلغت تمام تطورها ، ومهما يكن من عراقة أصلها. وإذا توافرت هذه الشروط في جماعة ما ، برزت هذه الجماعة جملةً واحدة بجميع مميزات المراحل المتقدمة وخصائصها ، بل من غير أن تعرف المراحل البدائية . وإذا توافر بعضها دون البعض الآخر بعد عصور متطاولة من توافر جميعها ، هوت من عليائها أو انتكست بقدر ما فاتها من هذه الشروط ، ولم يشفع لها ماض عريق وأمجاد تليدة . فإذا جاء أجلها فإن كل ذلك لن يغني عنها من السقوط شيئاً . فهناك جماعات لا تحصى من البشر عاشوا في الماضي وماتوا دون أن يتمكنوا من الوصول إلى أي مرحلة متقدمة من التطور . كما أن هناك أيضاً الألوف المؤلفة من

الجماعات الإنسانية الأخرى لا تزال تعيش حتى يومنا هذا في عصور ما قبل التاريخ . وهناك أيضاً جماعات لم تكد تعرف المراحل البدائية قط ، بل لقد برزت فجأة على مسرح الأحداث دون أن يفوتها شيء من مزايا الأطوار المتقدمة . وهناك كذلك عدد لا يستهان به من الأقوام مروا بمراحل تختلف عما يسمى اعتباطاً بقوانين التطور والتقدم ، وعلى وتيرة تختلف أيضاً عن تلك التي تفترضها هذه القوانين المتعسفة . وهناك جماعات قد عادت القهقرى ونكصت على أعقابها كأن لم تَغْنَ بالأمس ، فانحسر مدها وجزَرَ ماؤها ، وتقلبت بها تصاريف الزمان والمكان. وأخيراً ليس من المتعذر أبداً أن نعثر في كل وقت ، وفي داخل الجماعة الواحدة من الجماعات البشرية على مراحل متعددة وأطوار متباينة تتعايش معاً وتتفاعل في البلد الواحد وفي آن واحد ، ابتداءً من أشد المراحل تخلفاً حتى أكثرها تعقيداً ، بل هذا ما نراه بالفعل كل يوم في مجتمعات الفصول الأخيرة من القرن العشرين . ماذا أقول ؟ إن كلمة (القرن العشرين) إنما تعني الزمان الفلكي لا الزمان النفسي أو الاجتماعي والتاريخي الذي يختلف من إنسان إلى آخر في البلد الواحد والقبيل الواحد والبيت الواحد ، فضلاً عن اختلافه من بلد إلى آخر ، ومن شعب إلى آخر ، لا فرق في ذلك بين شعب بلغ السِّماكين ، وآخر لا يزال يحبو على الركبتين .

إن تاريخ الفكر الانساني قد صنعته عصور زاهرة وأخرى راكدة ، بل لقد صنعته عصور ناكصة إلى الوراء في أحيان كثيرة . فالعملية التطورية قد تخلفت وتعثرت أحياناً في طرق مسدودة ، وأحياناً أخرى قد شقت لنفسها طرقاً جديدة وقفزت إلى آفاق جديدة . وهكذا فإن عصور التاريخ لم تكن في يوم من الأيام عصوراً متماثلة . إن هذه العصور هي أشد ما تكون تفاوتاً واضطراباً فيما بينها ، سواء من حيث المدة أو الشدة أو الحدة أو الجدة ، أو من حيث الكثافة بالأحداث والوقائع التي تختلف كمًّا ونوعاً ، كل ذلك تبعاً لظروف كل بلد وما يحفل به كل عصر وأفق ، وما يجيش في كل قطر ومصر .

فليست العبرة إذن بما حدث في هذا البلد أو ذاك بقدر ما هي بجملة الحقائق التاريخية والظروف الموضوعية لمجتمع من المجتمعات في حقبة

تاريخية معينة . إن هذه الحقائق هي التي تنمو على أراضيها ووفق قوانين تطورها أي حركة سياسية أو تحول اجتماعي يتفجر في هذا البلد أو ذاك ويتفاعل وإياه ، ويلتحم بقضاياه وبقضايا العصر الذي نشأ فيه ، وما ذلك إلاّ لأن كل نظام إجتماعي حضاري هو وحدة دينامية حية قائمة برأسها ، تحمل في تضاعيفها بذور تحولاتها الخاصة وانحلالها الخاص[1] .

*

هذا والتطور على نوعين : تطور طولي عادي ، وتطور أفقي ثوري .

فالتطور الأول هو مجرد تبدل كمي تدريجي بطيء لا يتمخض عن شيء جديد ذي بال أو يكاد .

وأما التطور الثوري فهو تبدل نوعي جذري صاعق .إنه عبارة عن قفزة ، عن انتقال من نوعية الى أخرى ،ولا يتأتى ذلك إلا في الهزات والانقلابات الثورية الشاملة . فكل تبدل نوعي إنما يتم قفزاً وبوثبات تاريخية تتقلص فيها أبعاد الزمان والمكان ؛ فإذا كان التطور الأول يلتزم خطاً واحداً لا يحيد عنه ، ومن هنا تسميته بالتطور الخطي développement linéaire ، فإن التطور الثاني هو خروج عن الخط . وله عوامل داخلية وأخرى خارجية . والعوامل الداخلية تأتي أولاً بالأصالة كما رأينا وكما سنرى ذلك مراراً في هذا الكتاب ، وبها إنما تتاح الفرصة لتأثير العوامل الخارجية التي إنما تلي العوامل السابقة في الأهمية وتأتي تبعاً لها . فالعوامل الخارجية لا تكفي وحدها للفعل والتأثير ، بل لا بد من المنبت الطيب ، من المناخ المشحون بعوامل الانفجار المكبوت الذي ينتظر الشرارة ، لا بد من نضج الظروف الداخلية لكي تخترقها المؤثرات الخارجية وتؤتي فيها ثمارها . بهذا اللقاء ، وبهذا الصدام تسرع عملية الخروج

---

(1) للمزيد من التفاصيل في هذا الموضوع نحيل القارىء على المقال القيم الذي أسهم به سوروكان في كتاب .

La sociologie au XX^e siècle تحت عنوان Dynamique socio-culturelle et évolutionisme tome I chapitre V.

عن الخط ، بل إن الخروج عن الخط كثيراً ما يتحقق بـلا أي عامـل خارجي ، ثم يأتي العامل الخارجي ليعطي هذه العملية المزيد من الحركة وحرية الحركة وانزلاق الحركة . قد انـدلعت الشرارة وتفجـرت الطاقـات ، وحدث المخـاض التاريخي العظيم . هنا تبدأ انتفاضات الشعوب وهنا ينعطف مسار التاريخ .

لقد أصاب سان سيمون كبد الحقيقة عندما تنبه إلى أهمية القفزات في حياة الأمم والشعوب . فقد أكد هذا الرائد العظيم أن حياة المجتمعات تتكون من أدوار تتعاقب فيها الفترات « العضوية » والفترات « الحرجة » : الأولى تكون بطيئة ، بينما تكون الأخرى مليئة بالتغيرات السريعة والقفزات المفاجئـة . إن ملاحظة سان سيمون هذه ملاحظة قيمة جداً لأنها تؤكد أهمية الثورات والانتفاضات في حركة التاريخ . هذا أولاً ، وثانياً لأنها تثبت بطلان النظريات الاجتماعية التي تتصور الأمور كأنها هي تجري دائماً على منوال واحـد ونسق واحد ينطبق على جميع الأمم والشـعوب في كل مكان وزمان ، وبالتالي تلك النظريات التي تريد بأي ثمن أن تضفي على العلوم الاجتماعية ـ وهيهات ! ـ نفس الدقة الرياضية التي لعلوم الطبيعة والمادة الجامدة .

هذا ، ولا يستغني التطور الطولي العادي عن التطور الأفقي الثوري في المجتمعات الراقية ، بل إن كلاً منهما شرط للآخر في تلك المجتمعات ، إنه طرف من المعادلة أو جزء من عملية تطور واحدة . فالتبدلات الكمية تهيء للقفزات ، والقفزة تخلق شروط التبدلات الكمية التالية . فإن المجتمعـات المتقدمة لا بد لها هي أيضاً من الارتقاء البطيء المتدرج ومن القفزات السريعة المفاجئة معاً ، أي لا بد أن يتوقف التدرج فيها تأهباً للوثوب . وبذلك تجدد الثورة ذاتها وتبقى باستمرار واعية متحفزة مستعدة لكل طارىء . لكن هذه القدرة على تجديد الذات لا تستمر إلى غير نهاية ، فلا بد للمعين أن ينضب في يوم من الأيام . فالرِّدات والأزمات والانتكاسات يمكن تلافي آثارها بسهولة في أول الشوط ، ولكن ذلك يزداد صعوبة وتعقيداً بعد ذلك عندما تكون المسيرة قد قطعت أشواطاً بعيدة حيث تتزايد المشاكل والصعوبات وتتراكم تراكماً لا يتناسب

أبداً مع القدرة على مواجهتها . ولا تزال هذه المشاكل تتعاظم ، والقدرة على مواجهتها تضعف حتى يهوى النَّسرُ من عليائه وتقع النهاية المحتومة .

وهذا ما حدث لأجدادنا العرب بعد عُلُوٍّ كبير . فقد ذهبت ريحهم ومضوا كما مضى غيرهم وامحلت الشخصية العربية بعد طول خصوبة وانطفأت شعلتها ، وضعفت حوافز الخلق والإبداع فيها ، مهما كانت الأصول التي تحدر منها أصحابها وبُناتُها ، لا فرق في ذلك بين عربي من أصل عربي أو عربي متعرب من أصل أعجمي ، كأن يكون أعجمياً تعرَّب باللغة والدين والنشأة والتوجيه والمشاعر ، أو باللغة والنشأة والمشاعر دون الدين والعقيدة . فإنما العبرة باستفحال الحضارة واستبحار العمران أو بانعدامهما .

فالفاعلية الحضارية ـ أو التعبئة السَّيْكو سوسيودينامية ، وهو التعبير الذي نفضل استعماله منذ الآن ـ هي التي فجرت الطاقات العربية الاسلامية وتفجرت بها في نفس الوقت . كما أن ذبول الحضارة والعمران ـ أو الاستنزاف السَّيْكو ـ سوسيوديناميكي ـ قضى على الطاقات العربية وعلى تلك التي تعربت سواء بسواء . فلا شأن للأصول والأعراق في كلا الحالين : تفجر الطاقات أو جفافها ، وإنما الشأن كل الشأن لاستفحال الحضارة والعمران أو ذبولهما . فالعربي والفارسي والهندي والتركي والرومي والمصري والأسباني والبرتغالي والبربري والصقلبي والصقلي و . . . الذين صنعوا الحضارة العربية الاسلامية قد برزوا معاً في أثناء المد العربي ومع انتفاضة الاسلام ، كذلك معاً ذهبت ريحهم وغابوا عن مسرح الأحداث عند انحسار هذا المد وغروب شمس العرب والمسلمين ، لا فرق بين عربي قح وعربي بالتعرُّب ، ولم يشفع لأحدٍ منهم كرم محتد أو عراقة أصل أو نفحة عنصرٍ، فالكل في المحنة سواء، كما كانوا من قبل في النعمة سواء.

*

إن الفكرة الأساسية التي يدور عليها هذا الكتاب هي إبراز أهمية الانتفاضات والثورات والتحولات الكبرى في استحثاث خطى التاريخ والتعجيل بحركة التاريخ ، إنها المهماز الذي ينخس التاريخ ويلهب ظهر التاريخ . من هنا يبدأ التاريخ فهي المنطلق والمبدأ لكل تاريخ ، والسَّيكو سوسيوديناميكا هي نظرية تفجير التاريخ .

إن عصور التحول الكبرى هي عصور تفجر الأفكار واندلاع شرر الأفكار ، فالتاريخ إنما تصنعه الأفكار ، فلا إصلاح ولا تقدم ولا إبداع بلا أفكار . والأفراد هم صناع الأفكار . إنهم مراكز حية متحركة لبثّ الأفكار ، بل قُل هم مضخات لضخ الأفكار . والأفكار شحنات من الطاقة تنمو وتزيد وتتفجر بالاحتكاك والنقاش والحوار ، « فالعلم ينبت بين اثنين » كما كان يقول أجدادنا . كيف تفعل هذه الأفكار وكيف تؤثر وكيف تنبثق وتتوالد ، وما هي قوانين عملها ؟ ذلك هو موضوع السَّيْكو سوسيوديناميكا .

عصور التحول هي عصور الطاقة . قبل التحول لم تكن طاقة ، وبعد التحول كانت طاقة . فإذا لم يكن تحول لم تكن طاقة ، والتحول هو الذي يهب الطاقة . . وبعبارة بسيطة أكثر وضوحاً : التحول يوقظ طاقات كانت هاجعة ، فيستفزها ويثير كوامنها ، ويحرك ما سكن منها . وهكذا تقدح الزناد بطريق الانفجار المتسلسل . لقد حمي وطيس الأفكار واندلعت معارك الأفكار . فإذا رأيتَ ثمَّ رأيتَ أفكاراً تجندل أفكاراً ، وأفكاراً تطحن أفكاراً ، وأفكاراً تبدع أفكاراً ، وأفكاراً تولد أفكاراً . هذا المفهوم الساخن للأفكار هو الذي يفسر ما يسمى بالمعجزة اليونانية ، وهو ـ بزعمي ـ يفسر أيضاً ما يمكن تسميته بالمعجزة العربية ، والمعجزة التي تمَّت في أعقاب الثورة الفرنسية ، هذا إذا كانت معجزة . عصور التحول هي عصور المعجزات والآيات البينات . محطات كبريات في التاريخ سبقتها محطات وأعقبتها محطات أقامت شبكات للبث السَّيكو سوسيوديناميكي لم تنحصر آثارها في أفقها الضيق بل لقد اخترقت كل أفق وعمت آثارها العالم المعمور بأسره . ولقد نعلم امتعاض الكثيرين من نَظْم المعجزات الثلاث من سلك واحد وجمعها في إطار واحد وتحت عنوان واحد . وهو امتعاض استعلائي فارغ ليعلمُنَّ سُخفه بعد حين . فلا وربك لا يؤمنون حتى يروا المرجل الذي تغلي فيه قواطع الأفكار وحتى يلفحهم وهج الأفكار ، وحتى يخطف أبصارهم سنا برق الأفكار .

الأفكار هي صانعة المعجزات ، فإذا رأيتَ أفكاراً فارتقب يوم تأتي المعجزات ، فلولا أن في هذه الأفكار كل عظيم وقوي وأصيل ، لما استطاعت

أن تقلب الموازين والمعادلات وتبدل المعادلات غير المعادلات .

*

العرب « عَرَبان » : عرب ما قبل الإسلام وعرب الإسلام . والفرق بينهما هو كالفرق بين الاسفنج الجاف والإسفنج المشبع الملآن ، تُرى هل يستويان ؟ لكن على حين أن الفرق بين الاسفنجَيْن يُدرك بالعين الباصرة ، فإن الفرق بين « العَرَبَيْن » لا يُدركه إلا بعض البصائر النادرة ، بل هيهات أن يُدركه إلا بعد المزيد من الفحوص والتحليلات القادرة . فعرب الاسلام هم عرب ما قبل الاسلام بحكم بادي الرأي والسحنة الظاهرة ، ولكنهما عالمان مختلفان أحدهما أرض قفر والآخر واحات عامرة . وترى الأرض تحسبها ميتة بائرة ، فإذا نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت الثمار والرياحين الزاهرة . هكذا تفعل الأفكار في العقول السادرة .

طوفان من الأفكار غمر الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، فآشرأبت عقول وخاصمت عقول ، وصادمت عقول ، وكان صيال وكان نزال ، وأشرقت الأرض بنور العلم والفكر ، فاستقبلت عهداً واستدبرت عهداً .

القوم هم القوم إذا أردت ظاهر القوم ، ولكن القوم غير القوم إذا أردت حقيقة القوم . مسافات شاسعة تفصل القوم عن القوم وتفرق بين القوم والقوم . شتان بين القوم والقوم . قوم بلا أهداف ولا غايات غير غزو القوم للقوم وافتعال المعارك مع القوم وإثارة النعرات وتبديد شمل القوم ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى فبئس القوم . وهجمت الأهداف والغايات وصحَّت عزيمة القوم ، وجاءت المهمات والتبعات والحقوق والواجبات لتقويم آعوجاج القوم وتصحيح مسيرة القوم وملء فراغ حياة القوم ، وأعقبتها الآمال والأحلام والوعود لتمد في حياة القوم ولتزيد كذلك في أحجام القوم ، وتمنحهم أبعاداً وتفتح لهم آفاقاً وعوالم لم تكن لتخطر على بال القوم ، وتستبدل بما رثَّ وهان ما يحيي القوم ويجدد نشاط القوم ، ويفجر المواهب والطاقات المستكنَّة في أعماق القوم ، ويشحن القوى والمشاعر بما يستجيش حوافز القوم ، هذا هو السِّر في بينونـة القوم عن القـوم . الأرض هي الأرض والأجسام هي الأجسام ولكن القوم ليسوا القوم . أرأيت كيف

يختلف القوم عن القوم . هكذا تفعل الأفكار في القوم وتجعل القوم غير القوم !!

إنَّ السَّيْكو سوسيوديناميكا لا شأن لها بالأجسام وإنما شأنها فقط بهذا الصاعق الجديد الذي أصاب القوم ، أي بالأفكار وعلاقات الأفكار وعرائس الأفكار ومواليد الأفكار واصطراع الأفكار بـالأفكار . فتنشـأ أفكار وتبـور أفكار ، فإذا أنت أمام أجيال جديدة من الأفكار .

والأفكار هي التي تصنع الشعوب والأمم . أعطني أفكاراً وخذ سياسة واقتصاداً وعلماً وفلسفة وأدباً وفتوحاً وانتصارات و . . . أفكار من كل لون وصنف انطلقت من كل حدب وصوب انتشر فيه العرب والمسلمون ورافقت مسيرتهم في حلهم وترحالهم . وما كنتَ لديهم إذ يلقون أقلامهم أيُّهم يفسر آية ، وأيُّهم يطلب حديثاً ، وأيُّهم يجتهد رأياً ، وأيُّهم يقيم مذهباً ، وأيُّهم يردّ على فرقة ، وأيُّهم يبحث قضيـة ، وأيُّهم . . وأيُّهم . . . وما كنت لـديهم إذ يختصمون . فـإذا سمعتَ سمعتَ هدير الأفكار ، وإذا رأيتَ ثَمَّ رأيتَ سنا برق الأفكار . حتى السماء انهمرت بالأفكار وأمطرت الوابل بعد الوابل من الأفكار . واحتشدت الأرض بالأفكار ، طبقـاتٍ بعضها فـوق بعض حتى بلغت عنان السمـاء الأفكارُ ، وتفجرت قوى الأفكار واندلع حريق الأفكار . وإلّا فقل لي بربك كيف عسانا نفسر الحركة العقلية الضخمة التي برزت بغتة مع الإسـلام لولا سُعـار الأفكار . كيف تُرانا نفسر نشأة الفرق والمذاهب والمدارس لولا مدُّ الأفكار ؟ كيف نفسر ذلك التوق للأفكار وذلك التلهف الشديد على الأفكار ، عند قوم لا عهد لهم بالأفكار ، حتى غدوا جياعاً عطاشـاً غراثـاً للأفكـار ، ولا طعام لهم إلّا من ثمـار الأفكار ، ولا حياة لهم بغير موارد الأفكار ! الفكر العربي الاسلامي إنما صنعته هذه الأفكار ، وما فرَّق بين عرب ما قبل الاسلام وعرب الإسلام إلّا هذه الأفكار . هذه خلاصة سريعة عامة لسَيْكوسوسيوديناميكا الأفكار يوم أن كان في دار الاسلام مرجل يغلي بالأفكار ، وبوتقة لتشكيل الأفكـار وإفراغ سبـائك الأفكار .

السَّيْكوسوسيودناميكا ليست نظرية في الفراغ ، وإنما هي نظرية للرصد والتفسير والتقويم ، رصد حركة الأفكار وتفسير نشأة الأفكار وتقويم الأفكار

وسنشهد تطبيقات لها في تضاعيف هذا الكتاب ، ولكن التطبيق الكبير سيكون في الجزء الثاني من كتابنا (**الفكر العربي في مخاضه الكبير**) . لقد عرض الجزء الأول للنظرية كاملة ، ولكن الجزء الثاني مخصص للتطبيق . أما الكتاب الحالي فإنه يعرض لبعض النتائج التي تمخض عنها الإنفجار السَّيْكوسوسيوديناميكي الكبير الذي زلزل شبه جزيرة العرب في القرن السادس للميلاد ، فإذا أنت أمام حركة عقلية دينية هائلة ، وفتوح علمية حضارية لم تشهد الإنسانية لها مثيلاً قبل عصر النهضة في أوروبا . وفي ضوء هذه النظرية كانت لي مواقف وآراء في الفلسفة اليونانية والفلسفة الاسلامية تناثرت هنا وهناك في تضاعيف الكتاب ، ولاسيما تلك التي سنحت لي وأنا أودع الكتاب ، أي عندما كنت أكتب الخاتمة . فقد انتهى بي التفكير إلى أحكام خالفتُ فيها جميع الأحكام السائدة ـ إسلامية وغربية ـ بل الأحكام التي كنت أنا نفسي قد أصدرتها في كتاباتي السابقة . ولئن دل ذلك على شيء فإنما يدل على صحة النظرية الأساسية ـ السَّيْكوسوسيوديناميكا . وهذا مما زادني إيماناً بها ومنافحة عنها . لقد كانت هذه الأحكام من وحي النظرية الأساسية . إنها نفحات سَيْكو سوسيوديناميةً قد يحدّ من انتشارها هذه التسمية التي قد تبدو ناشزة ثقيلة على السمع لما فيها من رطانة أعجمية يأباها الذوق العربي ولكن لا مشاحة في الأسماء . ألم يقل أجدادنا في بدء عهدهم بالنقل عن اليونانية قاطيغو ـ رياس وباري آرمينياس وأنالوطيقا وأسطرنوميا واسطقس . . . لكن هذه الألفاظ سرعان ما استُبدل بها غيرها وحل محلها اللفظ العربي الصافي .

لقد كانت لي فيما مضى آراء في الفلسفة الاسلامية ، أعلن على رؤوس الاشهاد براءتي من الكثير منها اليوم . بئس الرأي يتشبث به صاحبه رغم فساده ، فما ظنك إذا كان انعكاساً لآراء سائدة مستهلَكة . والحق إني لم أكن صاحب رأي بقدر ما كنت مجترًّا للرأي ومرآة تعكس الرأي . إن الذين كتبوا في الفلسفة الاسلامية إمَّا مهاجمون قدَّاحون أو هتافون مداحون . وسيراً على قاعدة أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، فقد اخترت الانضمام الى جوقة المداحين ، والتطبيل بطبولهم والرمي بنبالهم ، إذ لم يكن لي طبل ولا نَبْل . وأريد الآن أن أطبل بطبلي وأنبُل بنبلي ، بعد أن صنعت لنفسي طبلاً ونبلاً . فليس طبلهم خيراً من

طبلي ، كلا ولا نبلهم أفضل من نبلي . . . لقد كنت قبل اليوم أجيراً عند صُناع الأفكار ، وفي أحسن الأحوال زبوناً لباعة الأفكار . ثم بدا لي أن أعمل لحسابي ولو في كشك صغير ، فالعمل الحر المستقل خير من عمل التابع الأجير . كنت مُبخِّراً وناثر بخُور ، واليوم تؤذيني وتُزكم أنفي رائحة البخور . ما أجمل أن يكون الإنسان صاحب رأي وأن يتحمل تبعة الرأي ، بدلاً من أن يهتف لما يسمع من رأي ويكون عالة على أصحاب الرأي. أطرح للنقاش ما ترى من رأي، ولا عليك بعد ذلك أن يُرفض الرأي. كن صاحب رأي، ولا تخش أن يكون لك رأي ، حسبك أن يكون لك رأي ، فأنت إنسان ما دمت ذا رأي ، وإلاّ فبئست الحياة بلا رأي !

ورغم حرصي الشديد على استقلال الرأي فإني أحسّ أني لم أوفق في انتزاع نفسي انتزاعاً تاماً من ربقة أصحاب الرأي والهتاف لهم. أنا على كرسي الإعتراف ، يجب أن آتي هنا على ما صحَّ وما زاف . لا قطيعة ـ بالمعنى المنطقي الحاد ـ بين ما فات من كتبي وما هو آت : بل إنك واجد ، حتى في تضاعيف هذا الكتاب نفسه، تبعية لعلّي لم أستطع التخلص منها، وربما انزلق بها القلم على غير وعي مني. ولا ابرىء نفسي، فلعلك واجد في الكتاب أيضاً بعض التناقص ـ بل والتهافت ـ مما يُفترض بمثلي النأيُ عنه . ولكن ما حيلتي إذا لم أفعل، أولم أستطع أن أفعل ، أولم يخطر لي أن أفعل ؟ تسنح لي هذه الفكرة أو تلك ، فتثير أفكاراً، وتثير الأفكار أفكاراً ، وينعقد لي مجموعة متكاملة من الأفكار ، فأبادر الى تدوينها في فصل من الكتاب ، أو جزء من فصل ، بصرف النظر عما سبقها من أفكار ، إلا في بعض الحالات التي تبدو لي ذات أهمية خاصة ، إذ يشق عليَّ إعادة النظر في الكتاب كله كلما سنحت لي فكرة جديدة . وبذلك قد لا يسلم الكتاب من بعض التناقض. فلعلّي آثرت السلامة في أمري ، فانجرفت في تيار لا أملك فيه زمام أمري . أنا في عنفوان قوتي أقرُّ بضعفي في كثير من أمري . فلا يفجأنّك إذن ما سترى من ضعف أمري . أنا أقوى الأقوياء وأنا أضعف الضعفاء ، هذه حقيقة أمري . أنا حائر ، تالله ليس أمري بأمري . عجيب أمري حقاً ، وأمرك هو أمري . فاعتبر بي وبأمري !!!

*

قلنا إن عصور التحول هي عصور الطاقة ، فإن أهم ما تتمخض عنه هذه العصور هو ضخُّ الطاقة بحساب وبغير حساب . وبهذا المعنى فإن عرب ما قبل الاسلام هم عرب بلا طاقة أو عرب النزر اليسير من الطاقة ، وأما عرب الاسلام فهم عرب الشحنات الكبيرة من الطاقة ، تلك الشحنات التي تكاد تتفجر ولم تمسها نار ! نار ونور . نور على نور ، فلا ترى غير مواكب النور ، والناس يتلألأون كأنهم شلالات تتدفق بالنور .

نار ونور. نار تحرق الشوائب والخبائث، ونـور يضيء الطريق، وكـلاهما طرف في معادلة الطاقة الكبيرة. لقد اجتمعا معاً في بطحـاء مكة وأم القـرى وما حولها وحـواليها ، وانتشـرا في شبه الجـزيرة كلهـا بل لقـد جاوزاها إلى الآفاق البعيدة القاصية .

لقد أصبح بين أيدي العرب الآن طاقة كبيرة. وهذه الطاقة ـ كأي طاقة ـ قابلة للتحويل . وصودف أن المشكلة التي كانوا يواجهونها هي المشكلة الدينية ، فتعبأت هذه الطاقة ، وتجندت كلها لحلها . كما إن الطاقة التي تعبأت في عصر التحول اليوناني الكبير صادفت مشكلة من نوع آخر وهي المشكلة التي أثارها طاليس ، أي المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة أصل العالم ، فتجندت هذه الطاقة لحلها . وبقدر ما طبعت المشكلة الأولى التي صادفها عصر الطاقة اليوناني ، أقول بقدر ما طبعت هذه المشكلة العقل اليوناني بالطابع الميتافيزيقي ـ لأن الطاقة تبحث دائماً عن منافذ لها فوجدتها في الميتافيزيقا ـ كذلك طبعت المشكلة الدينية العقل العربي بالطابع الديني . فليست الميتافيزيقا من مستلزمات التكوين اليوناني ، كما ليس الدين من مستلزمات التكوين العربي ، وإنما الأمر في الحالَيْن طاقة هائلة تبحث عن منافذ لها . فنما الدِين على أطراف الميتافيزيقا عند اليونان ، ونمت الميتافيزيقا على أطراف الدين عند العرب . نعم ليست الأمور ميدانياً بهذه البساطة . إنها أعقد من ذلك بكثير ، ولكن بعد تصفيتها وتنقيتها من جميع عوالقها وتشابكاتها واستخلاص خالصها تبقى شذور كشذور الذهب أسميتها (قانون المشكلة الأولى) أو (سَيْكوسوسيوديناميـة المشكلة

الأولى)[1] فلم يُخلق اليونان للميتافيزيقا ، ولم يُخلق العرب للدين ، وإنما كان ذلك بحكم الظروف والملابسات الخارجية العارضة المستقلة عن كلا الفريقين، أي إنما كان ذلك بمحض الصدفة والاتفاق ، ثم جاءت الوراثة الإجتماعية ـ وهي غير الوراثة البيولوجية ـ[2] لترسيخ حكم الصدفة وإعطائه امتدادات وجذوراً وأبعاداً ظلت تتمكن وتستطيل على الأيام .

*

لقد جاء الاسلام بفيض زاخر من الأفكار وأنشأ عالماً ضخماً يموج بالأفكار . واستتبع ذلك قيام مدارس كاملة من القادة والرادة والمفكرين العظماء . فالاسلام كما سنرى كشاف للمواهب التي برزت الى السطح جملةً واحدة بمجيء الإسلام وانبثاق عصر الإسلام . هكذا تفعل التحولات الكبرى في التاريخ . إن عصور التحول تهب الطاقة وتجدد الطاقة وتضُخُّ الطاقة ، والطاقة تولدها الطاقة . فإذا كان الماء يغيض بكثرة النزح ، فإن الأفكار لا تغيض بالنزح بل يزيدها النزح تدفقاً وعذوبة . واستمر التدفق حتى آتى أُكُلَهُ وحقق جميع أغراضه .

أجل ، لقد كان لهذا التحول الكبير آثار عظيمة في نفوس العرب لعل أهمها أنه بعث فيهم الإيمان بقواهم الذاتية وبطاقة العقل البشري وضرورة الارادة الحرة في الفكر واختيار الأعمال والمنجزات . وجاء القرآن ليشد عزائمهم في هذا السبيل وينأى بهم عن منطق أولئك التافهين الغارقين في التبعية والاستخذاء ، الذين يخشون أن يكون لهم رأي أو موقف من الأحداث والوقائع التي أخذت تنزل بساحتهم . فكل ما كان يسعهم قوله : «إنَّا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنَّا على آثارهم مهتدون »[3] . لقد كان التقليد عدو محمد

---

(1) من أراد التوسع في هذه المسألة فليرجع الى كتابنا : الفكر العربي في مخاضه الكبير صفحة 165-169 .

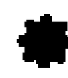
(2) عرضنا لهذه الوراثة في كتابنا المدخل إلى تاريخ الفكر اليوناني وهو الجزء الثاني من كتابنا المرجع في تاريخ الأخلاق وهو الآن تحت الطبع ينتظر انفراج أزمة الحرب الأهلية في لبنان . كما لا أدري متى يبصر النور كتابي الحالي في هذه الأجواء !

(3) قرآن كريم 22/43

الأكبر وعدو كل عظيم من معدن محمد . ولذلك كان القرآن ينعى عليهم تخلفهم عن عصر العقل وعدولهم عن حكم العقل، فيرد عليهم قائلاً: «أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟ »[1] . ولذلك لم يكن غريباً أن يُشبِّه القرآن هؤلاء العبيد بالدواب فيقول : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ! »[2] .

لقد بدأ عصر العقل بالنسبة إلى هؤلاء القوم بقدر ما بدأ عصر الروح أو الإيمان . لقد انطلقا معاً كَفَرَسَيْ رهان . فلا تعارض بين العقل والإيمان في منطق القرآن . أو على الأقل هذا ما فهمته طائفة كبيرة من مسلمي ذلك الزمان .

وهكذا طُرحت مشكلة العلاقة بين العقل والسمع (العقل والنقل ، الفلسفة والشريعة) منذ العصور الأولى للإسلام . وسيحتدم الصراع بين الفريقين ، وسيتمخض الصراع عن مدارس ومذاهب وفلسفات كثير عديدها . وعلى أطراف هذا النزاع ستنشأ علوم وآداب وأنظار ومواقف ومنازع سنقف على بعضها في هذا الكتاب . وسرت عدوى العقل في كل مكان واشتدت حُميا العقل وتعصب الكثيرون لحكم العقل ، وناهض الكثيرون أيضاً حكم العقل وتعصبوا على العقل . وبينهما درجات وظلال وألوان لا تقع تحت حصر . ومن هنا ستنشأ علوم الدين وعلوم الدنيا ، ومن هنا أيضاً سينشب النزاع بين الدين والدنيا ، ولكل منهما جنوده ورسله . معارك دامية بين الأفكار ، تنتصر فيها أفكار وتنهزم فيها أفكار ، ولا يصمد إلا الأقوى ، ولذلك كله قوانين وسنن تزعم السَّيْكوسوسيوديناميكا أنها قد أحاطت بالكثير منها . ومن يعش يره ! .



(1) المصدر السابق 170/2 .

(2) المصدر السابق 22/8.

وعلى كـل حال ، ومهمـا اختلف الرأي في حضـارة العرب وفكـر العرب وفلسفـة العرب وعلوم العـرب ، فقد كـان كل أولئـك مصدراً هـاماً من مصـادر الحضارة الأوروبية الحديثة وعنصـراً لا يستهان بـه من عناصـرها ، ومستقى ثـرًّا للكثيـر من جـوانب حيـاتهـا . فهي التي شقَّت الـطريق أمـام الثقـافـة غـربـاً ، وسـاعـدت على انتقـال علوم اليـونـان والهنـود . . . وفلسفتهم ومجمـل آرائهم وأفكـارهم الى أوروبا . وكـذلك هي التي حـررت الفكر الـلاتيني وأطلقتـه من عقـالـه ومن قيـود السلطات الـدينيـة ومحـاكم التفتيش وهيـمنـة الأسـطورة والـلامعقول . . . وهي أخيـراً التي أغنت العلوم القديمـة بما أضـافت إليها من مبتكـرات هي وليدة أفكـار العـرب وثمـرة من ثمـرات عبقـريتهم ، حتى ليمكن القـول إن الحضارة الحـديثة لم يصنعهـا التأمـل اليونـاني بقدر مـا صنعها العلم الحديث الذي كان للعرب نصيب وافر في تأسيسه وإرساء قواعده كما سنرى في حينه .

لذلك فإن تجاهـل العرب واغفـال دورهم في التاريـخ من شأنـه أن يترك فجـوات هائلة في مسيـرة الفكـر الإنسـاني والحضـارة الإنسـانيـة ، ويـزيـد في صعوبات كل من يتصدى لدراستها وفهمها واستيعابهـا بعمق وشمول . إن هـذا التجاهل لا نتيجة له سوى تعقيد مهمـة الدارسين لهـذه الحضارة وإضـافة أعبـاء جديدة الى جهودهم لا طائل تحتها .

ومن المسلَّم بـه اليوم ، أنـه لولا إنقـاذ العـرب لتـراث الأوائـل وإحيـائـه وتجديده وتطويره ، ولولا تسامحهم المنقطع النظير في تلك العصور المتعصبة ، ولولا تمجيدهم للعقل ومناداتهم بحرية الفكر والعقيدة ووحدة الأديان ، إذن لما كانوا سدنة الفكر والحضارة في عصور الظلام الأوروبي ، ولتأخرت النهضـة في الغـرب أجيالاً طـوالاً . ففي تاريخ العرب مواقف حضـارية رائعـة ، وصفحـات مشرقة نـاصعة البيـاض تكشف عن مستوى رفيـع من التفكير واستيعـاب العقيدة والشرع لا تشوبه عُقد ولا حساسيات ، مما لا نجد له مثيلاً في العصور الوسطى الـلاتينية ، عصـور التعصب الأعمى وصكـوك الغفـران والحقـد الـديني البشـع الذميم . فالعرب هم أساتـذة أوروبا في جميـع فروع المعـرفة . فليست هنـاك

وجهة نظر من وجهات العلم الأوروبي لم يكن للعرب وللثقافة العقلية العربية تأثير أساسي فيها . ولكن أكبر أثر للعرب وللثقافة العربية في العلم الأوروبي كان من حيث العلم الرياضي والطبيعي وكذلك من حيث المنهج العلمي وروح البحث ؛ كما إن هذا الميدان الأخير كان من أخصب الميادين التي ولجها العرب . لقد كانوا قبلة رجال الفكر والرأي في العالم ، وكانوا هم القيِّمين على كعبة العلم ومحراب الحقيقة . وقد انتقلت علوم العرب إلى اللاتين من طريق الأندلس وصقلية وجنوب فرنسا والحروب الصليبية . وتسابق الموهوبون وأصحاب القرائح إلى بلارما وطليطلة لتلقي اللغة العربية وآدابها ودراسة العلوم والفلسفة الاسلامية . وفي أواخر القرن الثاني عشر الميلادية كانت أوروبا قد استولت على محصول العلم الإغريقي والعربي بحذافيره .

*

ومع أن العلوم والمعارف قد تقدمت تقدماً مذهلاً تخطى خيال المفكرين العرب السابقين وتجاوز انتاجهم العلمي والفكري بمراحل وأشواط لا تُحصى، إلا أن هذا لا ينفي أبداً فضل الأسلاف على الأخلاف ولا يقلل من دَيْن اللاحق للسابق .

ليس العلم وليد اليوم أو الأمس ، بل له تاريخ طويل ، طويل جداً ، بدأ منذ بدأ الانسان يعمل ويفكر . ولم تنحصر نشأته في بيئة بذاتها أو شعب بعينه . إنه تراث الإنسانية كلها وسجل حافل بالأعمال والمآثر والتضحيات . إن تاريخ العلم هو تاريخ معركة متصلة مع الأسطورة والوهم، وقد كان لأجدادنا العرب نصيب وافر في هذه المعركة .

وسأحاول في الفصول التالية فتح صفحات عربية مشرقة طُويت منذ ما ينوف على خمسة قرون وذهب أبطالها إلى غير رجعة ، مخلِّفين وراءهم العطر والشذى يفوح في كل مكان . وسأسترجع ما أمكن أحداث الملحمة الرائعة التي سجلوها بعصارة أدمغتهم وذوب أعصابهم ونُسغ نفوسهم وقلوبهم ، وانفقوا عليها أعزَّ ما يملكون من وقت ومال ومتعة . وسأعمد من حين إلى آخر الى تصحيح هفوات من أساءوا ـ وما برحوا يسيئون ـ الى الفكر العربي وما مُني به من خُصماء غير رُحماء ، فالتأثت أحواله وتنكرت معالمه ، لن آلو الجهد

للالماع الى ما يجدر بأبنائه اليوم أن يقوموا به بعد طول الهجعة يلوبون على استعادة مجد أضاعه . والرجاء من هذه الصفحات أن تنفع كثيراً في باب اعتبار الأحفاد بذكرى الأجداد ، وان تنتصف بها حضارتنا ممن ثلموها وما رحموها !

فإذا أضافت هذه الصفحات شيئاً الى معرفة القارىء العربي ومعلوماته فقد حققت بعض أهدافها ، وإذا استثارت فيه مشاعر العزة والكرامة وتحقيق الذات ، واقحمت به في مسيرة العلم والحضارة ، فقد حققت كل أهدافها . أما إذا دغدغت غروره وحركت فيه أيَّ حسٍّ من أحاسيس عبادة الآباء والأجداد والتغني بالامجاد والأحساب ، والاستلقاء بعد ذلك على المقاعد الوثيرة والاستسلام للرؤى والأحلام ـ إذا فعلت فيه ذلك وكفى اللّه المؤمنين القتال ـ فقد قتلت همته وشدته إلى عالم القبور . وأملي وطيد أن تبلغ هذه الصفحات بعض أغراضها على الأقل إن لم تبلغ جُلَّها ، فذلك أدنى ألا تفتَّ في العضد وتثبط في العزيمة .

إننا في أمس الحاجة الى تلك المشاعل التي أوقدها الأجداد لتضيء مسيرتنا ، ولكننا لا نريد أن نعشى بتلك المشاعل التي تبهر اعيننا حتى لا نرى ما وراءها ، بما في ذلك مواطىء أقدامنا، إنما نريد فقط أن نستضيء بها ونتقدم الى الأمام .

وها إني أضع فصول الكتاب ـ بكل ما يحيط بها من قصور وتقصير ـ بين أيدي القراء ليحكموا لها أو عليها . واستميحهم العذر عما سيجدونه فيها أحياناً من شرود واستطراد . فلم يكن من دأبي أبداً أن أقف نبضات الفكر وسبحاته وشطحاته حرصاً على قوالب مصطنعة، بل لقد تركت الخواطر تجري على أعنَّتها خشية أن يفلت مني بعض ما أحب أن يتداعى منها . إني لم أدخر وسعاً في سبيل التبسيط والوضوح الكامل . لذلك لم اسلم من التكرار بين الحين والحين. أحب وضوح الفكرة ونصاعتها حتى لا تلتبس في ذهن القارىء بشوائب وطفيليات تمنعه من الرؤية الواضحة السليمة . ومن أجل ذلك قد أعمد الى التكرار ، ولكنه تكرار لا يعيد الفكرة ذاتها ، بل يُركِّز في كل مرة على جوانب منها لم تكن ظاهرة من قبل . بل لقد أصبح ذلك لي إلفاً وعادة . وعلى كل

حال ، هذه بضاعتي وأرجو ألا تكون بضاعة مزجاة .

وأخيراً أتمنى لهذا الكتاب أن يتيح للقارىء وسيلة سهلة يحقق بها أمله في دراسة الفكر العربي ان لم تكن موسعة شاملة فإنها تقدم له الجهاز العلمي الذي تتطلبه مثل هذه الدراسة . وإني لأرجو أن يثير الكتاب حوافز كثيرة تضع حداً للإذلال الفكري الذي فُرض علينا أو فرضناه على أنفسنا ، فنكون منذ الآن منتجين للأفكار بعد أن كنا مستهلكين لها . وهذا يفترض وجود شعور واضح بالهوية وحرص شديد على الإيمان بالذات، والتقليل من الخنوع لعملية الإستهلاك الشائنة . لا يفهم فكر العرب غير أبناء العرب ، لا مصلحة لغيرنا في إنصاف تاريخنا وحضارتنا . ومهما أدعى الآخرون الحرص علينا فإنما على مصالحهم يحرصون ، وبقرةً حلوباً إيانا إنما يريدون . ولا أمل لنا إلا بالاعتماد على أنفسنا ، لإرساء وجودنا على قاعدة راسخة من الايمان بالذات ليتسنى لنا بعد ذلك الانتقال الى ما يؤودنا من الأعمال والتبعات . فنحن في حاجة الى اكتشاف أنفسنا أولاً وتوضيحها وقبولها لنتمكن من اكتشاف العالم من حولنا وتسخيره لأغراضنا . لابد لنا في هذه المرحلة المصيرية من حياتنا من العمل على إيجاد أفراد مبدعين موهوبين يضُخُّون بالأفكار أينما كانوا ، والبحث عن الوسائل الكفيلة بمساعدتهم وتقريبهم بعضهم من بعض، وتعزيز قدرتهم على ضخِّ الأفكار وبثِّ الأفكار ، وتشجيعهم على تغذية الحوافز الخلاقة بدلاً من خنق مواهبهم باسم الوضع الراهن . إن هؤلاء كثيرٌ ما هم ، ولكن قليلاً ما نعبأ بهم ، مؤثرين منفعة عاجلة على مأثرة آجلة . إن مستقبلنا منوط بالإفادة من الطاقات المبدعة الخلاقة التي تزخر بالفكر والقيم في بلادنا والتي كانت حتى الآن مهدورة معطَّلة. فحياة هذه الطاقات حياة لنا، وبوارها بوار لنا، كما نكون تكون لنا . فإنما القرار قرارنا ، ولنا الخِيَرَة من أمرنا

الفصـــل الأول

عقوق الغرب

لا أحـد ينكـر اليـوم أن البحث عن الحقيقـة مـطلب شـريف ، وأن المـوضـوعيـة والتجـرد همـا من الصفـات الأسـاسيـة التي يجب أن يتحلى بهـا العلماء . ولقد توصل العلمـاء إلى هذه النتيجـة بعد النـظر في العلوم الطبيعيـة والرياضية فأخذوا أنفسهم بها ورعوها حق رعايتها في إطار هذه العلوم ، لكنهم عندما تجاوزوها الى العلوم الانسانية خرجوا عن الجادة . فإنه مما يؤسف له أنه حين يتـطرق البحث الى تاريـخ الفكر ـ أيّ فكـر ـ لـدراستـه وإصـدار الأحكـام عليـه ، فـإن الكثيـر من الاحسـاس القـومي الـديني يتـدخـل في إصـــدار هـذه الأحكام . لقد اختلّت المقاييس وتبدلت الحقـائق فجاءت مشـوّهة أو مبتـورة . لقد انقلب الحكم فأصبح تحكُّماً !!

ان مزج المشاعر القومية والدينية بالأحكام العلمية عمـل مضلل يدل على الجهل والغباء إن لم يدل على الخبث وفساد الطوية . فما دخلت المشاعر أرضاً غير أرضها إلا أفسدتها . فتفسير وقائع التاريـخ وظواهـر الاجتماع والحضـارة ، وإصدار الأحكام عليها، عملية دقيقة جداً لا تتأتى إلا بالمعاناة الـطويلة والمران الشديد ، ولا بد فيها من صدق العزيمة والصبر والأناة ، فضلاً عمـا تتطلبـه من سعـة في الأفق ، وعمق في التفكير ، ودأب على البحث والنـظر . إذْ كثيراً مـا يفسُدُ الرأيُ إمـا لسوء فهم ، أو مشـايعة وهم ، أو لتعمـد في تـزييف الحقـائق ومجانبة الصواب . فيتسرب الضعفُ الى العقول ويتأصَّل فيها بمرور الأيام حتى ليكون من الصعب محو آثاره أو دفع غوائله . فالضلالة إذا مـا رسخت احتاجت

الى جهود طويلة مضنية لتَنتزع من الأذهان ، والحق إذا ما اختلط بالباطل وامتزج باللحم والدم، أصبح من العسير التفريق بينهما واستبانة هوية كل منهما . فإن من أصعب الأمور كشف القناع عن وجه الصواب الذي غشيته الغواشي ورانت عليه الأوهام . ولذلك فكما تكون الأحكام علمية جادة رصينة ، يجب ألا تتصف بالسذاجة والتسرع وقصر النظر ، وأن يكون رائدها الحق الذي لا جَمْجَمة فيه ، وأن تكون مبنية على التجربة والملاحظة ، وألا تشوبها شائبة من عاطفة أو هوى ، ولا يكون فيها جموح أو جنوح أو تعسف . . . . وإلاَّ انقلب الحكم تحكماً .

ولذلك يُحمد قصد من ينصفون في أحكامهم ، ويصدعون بالحق الذي تبيَّن لهم ؛ فإنما العاقل من أنصف غيره من نفسه ، واجتنب الهوى والخلط في صياغة رأيه. ولشد ما يضر بالعلم عدم الرجوع إلى الوقائع في إصدار الأحكام، والإغراق في التأملات العامة والصيغ الجوفاء التي لا تُغْني من الحق شيئاً لقلة بضاعتهاوضعف مؤونتها . وحسب المرء أن يلقي عليها نظرة متفحصة لينكشف له أمرها ويتبين حقيقتها وما تنطوي عليه من زيف واعتباط . فمن أسهل الأشياء على الإنسان أن يهرف بما لا يعرف ، لكن من أصعب الأشياء أن يكون لكلامه معنى إيجابي يمكن استخلاصه منه . ليست العبرة بإصدار الأحكام ، إنما العبرة أن تتسم هذه الأحكام بالتجرد والموضوعية وأن تكون مبنية على معطيات وحقائق ملزمة .

والشواهد على ذلك لا تُعد ولا تُحصى في بلاد الغرب . فلا يكاد يمضي يوم دون أن يدلي بعضهم بأحكام فيها جهل صريح بالمبادىء الأساسية للبحث العلمي والمنهج الموضوعي . هذا فضلاً عما فيها من مغالطات وتناقضات لا تفتأ تضيف جديداً الى سجل « أدب » التشهير والتجني العنصري، على قوم لا ذنب لهم إلا أنهم مروا على هذا العالم كما يمر الغمام على الأرض العطشى بعد سنوات عجاف جف فيها الضرع وهلك الحرث والنَّسل . فاهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج . لقد أتاهم عام لا كالأعوام ، عام مدرار ، فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون . وأقبل بعضهم على بعض يرقصون ويهزجون ، ويتبادلون

التهاني والهدايا ويحبَرون !!

هكـذا كان العـرب بعد احتضـار أثينا وانـطفاء الشعلة التي كـانت تمسك بها . وأشرقت الأرض بنور العلم والفكر ، ووُضع الكتاب ، وجيء بـالفلاسفـة والعلمـاء والمفكرين وقـادة الرأي يتلونـه ويُعلّمونـه للناس ، بعـد أن كفر القـوم بالكتاب واضطهدوا الكتابة والكتاب .

لا ذنب للعرب ولا إثم إلا أنهم آمنوا بـالكتاب وصـدقوا مـا عاهـدوا عليه أهل الكتاب . لقد صنعوا أنفسهم بأنفسهم ، وخرجوا من البادية على حين غرة من التاريخ ، فأسقطوا امبراطوريتي القهر والتسلط وتولوا قيادة التاريخ . أجل ، إن ذنب العرب هذا جريمة لا تُغتفر . كيف لا وهم شعب « ساميّ » اجترأ على شعبين « آريين » عـريقين طبقت شهرتُهـما الآفاق همـا الروم والفـرس . وكانت ثالثة الأثافي أنهم سطوا على ثقافة آريـة مضنون بهـا على غير أهلهـا هي ثقافـة اليونان وعلم اليونان وفلسفة اليونان ! ومن الأندلس هـددوا عرين « الآرِيَّة » في أوروبا . لقد جـاءوا شيئاً إدًّا ، أن جعلوا أنفسهم « لـلآريين » ندًّا ، ومـدوا لهم في الهـزيمة والعـار مدًّا فيـا للويل والثبـور وعـظائم الأمـور! ألا فليخسـأ هؤلاء « السـاميّون » الـطارئون ! فـلا وربـك لا حكم إلاَّ لآريـا والآريين ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين !

ان التجني على العـرب هو كتجني الـطغاة والعتـاة والجبارين وأصحـاب الامتيـازات والاحتكـارات على المقهـورين والمحـرومين والمسحـوقين الـذين تحـدَّوا سادتهم وكشفـوا زيفهم وغرورهم وعـرَّوْهم من زخارف المجـد الكاذب المبني على الأشـلاء والجماجم. إنـه من قبيل التجني التـاريخي على الثائـرين والمصلحين وأصحـاب الرسـالات الـذين انبثقـوا من سـواد الشعب وأغمـاره ، وثـاروا لحقوق الشعب ، ونـدبـوا أنفسهم لتحقيق أمـاني الشعب . إنـه كبـريـاء الارستقـراطيـة على الـديمقـراطيــة ، ورجـال المـال والأعمـال على الفقـراء والمحتـاجين والمعوزين . لقـد أصبح هؤلاء أنـداداً لسـادتهم ، نـظراء لهم في المال والرجـال وقوة الشكيمـة . فأسـرَّها السـادة في أنفسهم ، واضطغنـوا على الثائرين الجدد ، ولا يمضي يوم دون أن ينفّسوا عن أحقادهم المكبـوتة بـإصدار

الأحكام المتشنجة التي تنطوي على الحقد الأسود ، والتي لا تزال تتردد في صحفهم وإذاعاتهم وجميع وسائل إعلامهم ، بل حتى في بعض كتاباتهم « العلمية » ودراساتهم « الأكاديمية » .

إنها النفس الأمارة بالسوء لا تطيق التجرد والتنزه عن الأغراض والمصالح والمآرب ، والنظر الى الأمور نظرة علمية لا تتطرق اليها الأهواء والنزوات ، ولا يمليها التعصب وكراهية الشعوب . فالإنسان في حقيقة أمره مجموعة من الغرائز والميول والعواطف والشهوات ، تغطيها غلالة رقيقة هشة من العقل والمنطق والأدب المصطنع الكاذب ، وهذه الغلالة تنفضُّ لأقلِّ رعشة وتتمزق بألطف خلجة . فإذا انفطرت تكشف وحش في إهاب إنسان . فيالهول المشهد ! !

*

لا يزال في كتب التاريخ العقلي تصور فاسد سيطر بضعة قرون ـ بل ما انفك يسيطر على الكثيرين حتى الآن ـ أملته العنصرية وحب الاستعلاء ، مؤداه أن تطور الفكر ـ ولا سيما في بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط ـ قد مرَّ بمرحلتين أوروبيتين أساسيتين : هما مرحلة الإغريق القدماء ومرحلة عصر النهضة الحديثة ، أما ما بين المرحلتين ففراغ في فراغ .

إن هذا التصور يدل على مبلغ الاستهتار بالحقائق العلمية وأصول البحث الموضوعي المنهجي فهو ينكر بكل صفاقة تأثر الاغريق بالفكر الشرقي ليجعل من هؤلاء شعباً نسيجاً وحده، شعباً بدْعاً من الشعوب صنع ذاته بذاته دون أن يدين لأحد بدَيْن . فلا فضل لأحد عليه ، وله الفضل على كل أحد . هذا ما يعنيه القائلون بالمعجزة اليونانية . ولما كانت بلاد اليونان ـ وبالأحرى بلاد اليونان الأوروبية ـ تنتمي الى أوروبا ، فهي الجد الأعلى للحضارة الأوروبية .

لقد نسي أصحاب هذا الرأي ان اليونان يونانان : شرقية (أو آسيوية) ، وأوروبية ، وأن هذه امتداد لتلك ، وان تلك امتداد لحضارات شرقية سابقة مصرية وبابلية وفارسية . . . وأن هذه الحضارات التاريخية امتداد لعصور طويلة من عصور ما قبل التاريخ . فلا فراغ في العملية التاريخية وان كانت

هـذه العمليـة لا تخلو من قفـزات نـوعيـة من حين إلى آخـر كمـا سنرى. ورغم الجهـود التي بُـذلت لتصحيـح هـذا التصـور المـوروث ، فـإن الغـرض يُعمي ويُصم ، أو ـ كما يقول العامة ـ « الغـرض مرض » . حتى لقـد اشتكى الباحث الـدانمركي أوتـو نيبورOtto Neugebauer من أن « كـل محاولـة لربط إنجـازات الإغريق بما قبلهـا من الأمم تصطدم بمعـارضة حـادة ، وليس هناك من يـرضى بتصحيح صورة وضـع الإغريق التي اعتـاد عليها ، رغم جميـع الدراسـات التي أثبتت أن ألفين وخمسمئـة من السنين قد سبقت عصـر اليونـان » . وقـد فصلنـا القول في هذه المسألة من جميع نواحيها في كتابنـا (**مدخل الى دراسة الفكـر اليوناني**) الذي سيصدر قريباً فلا تعود اليها مرة أخرى .

وإذا كان الفكر اليوناني مكتفياً بذاته منذ أول النشـأة كما يُـروِّج البعض ، فإن الفكر الأوروبي الذي هو إطاره الجغرافي مكتفٍ بـذاته هـو أيضاً . فـالولـد كـأبيه . والنتيجـة الطبيعيـة لـذلـك هي استغنـاء الفكـر الأوروبي عن كـل مـدد خارجي . فلا منَّة لأحد عليه ، ولا صحة لتسرب أي رفد إليه . فهو صانع ذاتـه بذاته بقدر ما صنعت اليونان ذاتها ، وما المعجزة الأوروبية سـوى صورة أخـرى للمعجـزة اليونـانية وامتـداد لها ، رغم مـا بين المعجزتين من مسـافـات زمـانيـة شاسعة كانت فراغاً في فراغ !! ومعنى ذلك بصريـح العبارة أن الفكـر الأوروبي لا اتصـال له بـالفكر العـربي الإسلامي من قـريب أو بعيد ، وأن كـل محـاولـة للربـط بينهما هي محاولة فاشلة غير مشروعة ولا مبرر لها .

ان هؤلاء الذين لا يريدون تعديل صورة وضع الإغريق التي اعتادوا عليها لا يقبلون أبداً تعديل صورة وضع العرب التي التصقت بـأذهانهم وتـرسخت في عاداتهم وتقاليدهم ، اللهم إلا اذا استثنينا قلة ضئيلة منهم تطهرت من الأدنـاس والأرجـاس ، وتخلصت من الأوشاب والأوضـار والرواسب أو كـادت ، حتى لم يكن لهـا دون الحق مطلب ولم يبق لهـا سواه مـطمع . وهيهـات أن يقـدر على ذلك غير الآحاد . إن أجيالاً لا تُحصى قـد سبقت عصر اليـونان ، وهي حـافلة بالأعمال والمآثر التي إنما تضع اليونان في منتصف الطريق لا في أوله ، كما إن سبعمئة سنة أو تـزيد قـد سبقت عصر النهضـة في أوروبا ، فيهـا من الإنجازات

والمآثر ما يضع العرب بين اليونان والأوروبيين. ولكن أولئك الذين في قلوبهم مرض لا يريدون أن يصدعوا بالحق . إنهم لا يقبلون بالتنازل عن حقوق السيادة العقلية لليونان على العالم بأسره . فلا فضل لأحد على اليونان ، كما لا فضل لأحد على أوروبا إلا اليونان . وما أوروبا سوى امتداد لليونان وثمار يانعة من دوحة اليونان!! بهذا تأمرهم أحلامهم، ألا ساء ما يحكمون. لقد مردوا على التعصب والاستعلاء والأنانية واحتقار الشعوب . هكذا كان دأبهم في القرون الوسطى ، وهو دأبهم اليوم أكثر من أي وقت مضى ، وسيظلون كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها . فما في الصدور لا تبدله السطور ، وما في النفوس لا تؤثر فيه النصوص ، إلاَّ قليلاً منهم ، فاعفُ واصفح ولا تأس على القوم الظالمين !

وهكذا نرى مدى الغبن والعقوق في الفكر الأوروبي عندما يصر على مقولة الانفصال بينه وبين الفكر العربي الإسلامي ، ويتشبث بالقول بأن لحضارة الغربية الحديثة التي بدت طلائعها في القرن الرابع عشر الميلادي إنما كانت امتداداً للحضارة اليونانية ـ الرومانية . وأما الفراغ بين الحضارتين فقد وصموه بوصمة (القرون الوسطى المظلمة) احتقاراً لهذه القرون ودلالة على عدم أهميتها للفكر الأوروبي الحديث . والحق ان كلمة (مظلمة) هنا غير صحيحة لأن هذه القرون لم تكن تخلو من بعض الأضواء التي تناثرت هنا وهناك بفضل بعض العقول ـ عقول النخبة ـ التي لم تنفك تجاهد للخلاص من وطأة الكابوس الذي يجثم فوق الصدور والسعي في سبيل عالم أفضل . حتى إنها ما كادت تسمع بانبثاق الأضواء في عالم بعيد، مخالف لها في الدين والقومية هو العالم العربي الاسلامي حتى هُرعت اليه تتلقفه وتدور معه حيث يدور كما يفعل دوار الشمس . إنها لم تتأثر بالإيديولوجية العدائية القائمة بين العالمين الاسلامي والمسيحي ، بل لقد تعالت على الجرح ومضت تبحث عن الحقيقة تلتقطها أنَّى وجدتها وفي جميع مظانها . لقد خلبها الضوء فأعلنت الحرب على الظلام، وكم لاقت في هذا السبيل من مقْتٍ وعَنَتٍ ونكران . لقد وضعت مصلحة بلدها وأمتها فوق الحزازات العارضة والمشاعر البغيضة . من

هنا سينبثق الضوء . ومنذئذٍ انضم الضوء إلى الضوء واستقوى الضوء بالضوء حتى انتشر الضوء . وما زال الضوء ينتقل من أفق الى أفق حتى عم هناك كل أفق . إن التماس الضوء ، والقدرة على رؤية الضوء والاستزادة من الضوء ليست في مقدور كل أحد. فإن كثيرين يفرون من الضوء فرارهم من المجذوم، إيثاراً للظلام واستمراءً لحياة الظلام، ولكن قلة ضئيلة جداً لا تفتأ تطلب الضوء حتى تجد الضوء . وبعد أن كانت مرآة ينعكس عليها الضوء أصبحت مصدراً للضوء . ولا تزال تشع الضوء حتى ينفد الضوء بعد أن تنتقل منه اقباس الى أماكن ـ وما أقلها ـ تطلب الضوء . وتتكرر العملية ذاتها في هذه الأماكن ويعيد التاريخ نفسه حتى يعود المكان أدراجه من حيث بدأ ، فيجف النُسغ وينضب المَعين . ولن يستأنف التاريخ هنا مسيرته بعد اليوم لأن الضوء لا يعود الى مكان واحد أكثر من مرة . فإن جميع أطباء الدنيا لا يملكون إعادة الحياة الى الجثة الهامدة ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . هذا ما حصل لليونان القديمة ، وهذا ما حصل للعرب ، وهذا ما يحصل لأوروبا اليوم . وهي مسألة استفرغت القول والجهد فيها في كتابي السابق خاصة ، حتى تكاد تتجلى في كل صفحة من صفحاته .

وعلى كل حال لا يخلو المعمور من الأرض من مكان يشع بالضوء يبدأ بصيصاً ثم يعظُم ويشتد، كالقمر يكون هلالاً ثم يكون بدراً ثم ينتهي محاقاً. وقد سطع القمر مرة في بلاد العرب والإسلام ، فتقلب في جميع المنازل حتى عاد كالعرجون القديم . تلك كانت مرحلة إبداعية ضخمة بين مرحلتي الإغريق وعصر النهضة لا ينكرها إلاّ مكابر. فليس هناك فراغ بين المرحلتين ، وإنما الفراغ في أصحاب النفوس المريضة الذين يرون كما يرى الناس ولكنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض . إنهم مَثَل على جميع أولئك الذين يكتمون الحق وهم يعلمون . يريدون ليطفئوا الضوء والضوء مُتم نوره ولو كره الكافرون. إنهم يظنون بالعلم غير الحق، ظن السَّوْء، ظن الجاهلية، أفحكم الجاهلية يبغون؟ ليسوا سواءً، منهم أمة صدقوا ما عاهدوا العلم عليه، فأصرّوا على إحقاق الحق وقول الحق والشهادة للحق ، مهما كان في ذلك من إساءة إلى المتّجرين بالحق والعابثين بحرمة الحق . إنهم في هيكل العلم ولا

يؤمن العلم بغير الحق . إنهم سدنة الهيكل ، والهيكل لا يتعبد القانتون فيه إلّا للحق ولا يدينون إلا دين الحق .

أنا لست ممن يحبون أن يكيلوا التُهم جزافاً للمستشرقين الغربيين فيما يقولون ويكتبون عن الفكر العربي الإسلامي . بل إني لآسف كثيراً حين أفعل ذلك. فللمستشرقين بغير شك خدمات لا تُنكر أسدوها الى العرب والمسلمين، لعل أهمها أنهم أعانونا على فهم أنفسنا مضموناً ومنهجاً وقضيةً ومعنى وجود . فإن إسهامات المستشرقين في دراسة المسلمين والعرب وتاريخهم قد أضافت الكثير إلى المادة العلمية المتوافرة لدينا الآن ، كما انها بينت لنا موقف الفكر الغربي من الإسلام وأسلوب دراسته ونظرته إليه. وفضلًا عن ذلك فقد فتحت مجالات كبيرة جادة ورصينة جديدة لمعالجته من زوايا قد لا ينتبه العلماء المسلمون إليها. فالذي يرصد الظواهر من خارج يطلع على أشياء لا تتاح دائماً لمن هم في الداخل ممن تعنيهم هذه الظواهر في المقام الأول . فهؤلاء مشدودون دائماً إلى أشياء في هذه الظواهر على حساب أشياء أخرى . إنهم إنما يهتمون بما هو مباشر وقريب وعاجل بقدر ما ينصرفون عما هو بعيد وغير مباشر . فإذا انضمّت الرؤية الى الرؤية ، وأغتنت الرؤية بالرؤية ، تعددت مواقع الرؤية وتنوعت زوايا الرؤية ، فصدق الحكم وصدقت الرؤية . تلك هي الرؤية الرؤية !

تلك هي ميزة الدراسة الإستشراقية ، وقد أفاد منها الدارسون العرب أعظم الفائدة حتى إن أهم الأفكار التي عُرف بها نفر من قادة الرأي العرب في الوقت الحاضر وكانت من أسباب شهرتهم وتردد اسمهم على كل لسان وسيرورة ذكرهم في كل أفق ، إنما كانت أفكاراً استُعيرت في الأصل من هؤلاء المستشرقين الذين يعود إليهم الفضل في معالجة قضايانا ودراستها دراسة علمية موضوعية قد تكون مدعاة للشبهة ومثيرة للقلق ، لما بينها وبين طرقنا التقليدية من شسوع في البون واتساع في مسافة الخُلف ، وهي طرق تتسم في العادة بالوعظ ، وتعج بالخوارق والغيبيات ، وتتحدث بمنطق إعلامي يبتغي الإثارة وغزو المشاعر أكثر منه التثقيف والتكوين . إن قصاراه تحقيق الذهول لا تربية

العقول واقتناص الأَتباع لا تخريج الأنداد . فلو لم يكن في مجاري أحكام المستشرقين وأقوالهم إلا ما يشككنا في طرقنا التقليدية البالية فناهيك بها نفعاً . إذ الشكوك هي الموصلة الى الحق فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلالة . تلك هي شريعة الغزالي ، وهذا هو منهاجه في الحكم والنظر . حسبُ المستشرقين فضلاً أنهم بهذا الطريق الذي كان حجة الإسلام أبو حامد الغزالي أهم من اختطه في تاريخنا ، قد وصلوا ما انقطع في سياق تفكيرنا ، وأعادوا الاعتبار إلى ما هو أصيل وعريق في مناهجنا ، وشقوُّا لنا طريقاً كان بالأمس هو طريقنا . وهذا ما يفسر التحول الكبير في كُتَّابنا ومفكرينا وقادة الرأي فينا . فرغم مصادمتهم لمشاعر الكثيرين منا فقد أشاعوا الأساليب العلمية في دراسة تاريخنا وتراثنا . وهذا كسب كبير يجب أن يُسجَّل للمستشرقين بغاية الشكر والامتنان، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟! لقد ردونا الى صوابنا بعد قرون من الغفوة أكلت أعمارنا . إنها الصحوة بعد الغيبة أشعرتنا بالأرض تميد تحت أقدامنا بعد أجيال من الطمأنينة الكاذبة داعبت أحلامنا .

لذلك لا يحق لنا أن نصب جام غضبنا عشوائياً وبلا تروٍ على رؤوس هؤلاءْ الذين أعادونا إلى رشدنا، لا لشيء إلا لأنهم يخالفوننا في الرأي، مع أن من أهم مأثوراتنا تواصي أجدادنا « اختلاف الرأي [يجب أن] لا يفسد للود صلة » . إننا أصحاب هذه الصيحة فلا نكونن أول من يكفر بها أو يتنكر لها ، بل يجب التزام الحذر والتؤدة والأناة ، ودراسة كل حالة على حدة قبل إصدار الحكم على كل مخالف لنا . فمن الجحود والإجحاف في الحكم أن نعزو الى المستشرقين جميعاً وبلا أي تمييز نزعة التعصب العرقي أو الحقد الديني أو الاستعلاء القومي في كل ما كتبوه وقالوه ونشروه في أنديتهم العلمية أو في مؤلفاتهم وصحفهم ووسائل إعلامهم .

وإذا كنا نسجل للمستشرقين ـ وبكل أمانة وإخلاص ـ هذا الفضل الذي لهم علينا ، فإن ذلك لا يبرىء فريقاً كبيراً منهم من تهمة التحيز والهوى والشطط في الرأي والفكر ، بل أكاد أقول : من العمى الذي يصيب أمثال

هؤلاء الباحثين أو أشباه الباحثين ، حتى ليخال المرء أنه أمام صبية أغرار أغمار يتناوشون ويتسابُّوْن بأقذع الألفاظ ، لا أمام علماء كبار أو بحاثة أكاديميين يرصدون ظواهر الفكر والكلم ، ولا ينبسون بقول أو رأي إلا بعد إحكامه وإطالة النظر فيه . فإذا كانت أكثر كتاباتنا في فكرنا وتاريخنا وتراثنا حتى الآن متخلفة بدائية فعذرنا واضح ، وهو أننا لما نكدْ نهبُّ من رقادنا وننفض عنا غبار الأجيال . إننا لا نزال نعيش في أحلام عصور الانحطاط تدغدغنا أطياف الغيب ، وتثيرنا الأسطورة والخوارق ورؤى الجن والحان السحر والأعاجيب ، ولكن ما عذر أولئك الذين ينتسبون الى أهل الإشعاع ، ويعيشون في مراكز الإشعاع ، وينتحلون صفات أهل الإشعاع ، ويفكرون في إبَّان عصر الإشعاع ؟!

*

إن صراع الفكر العربي الإسلامي في هذه الأيام مع مستغليه وناهبي خيراته ليس صراعاً على بلد استلبه المستعمر وسام أهله سوء العذاب بقدر ما هو صراع على تاريخ وحضارة ومفهوم ورسالة وقضية ورمز . . . فإن كل ما ذكرناه عن نعمة الاستشراق والدراسات الاستشراقية لا ينفي أن فريقاً كبيراً من الدارسين الغربيين يلبسون مسوح الاستشراق ولكنهم يستقوون بقوى غازية ضخمة متسلطة شريرة مؤيدة بسلطان النفوذ الإستعماري الذي يسعى الى تحقيق غرضين على الأقل :

الأول هو انتزاع الفكر العربي الإسلامي من عالمه ، بالتشكيك فيه وإثارة الشبهات من حوله ، لفرض منطق الفكر الإستعماري ومقومات ثقافته ، وبذلك تسيطر الثقافة الغربية وتصهر في بوتقتها مختلف الثقافات ، وفي مقدمتها الثقافة العربية الإسلامية التي تختلف اختلافاً جوهرياً في جذورها ومقوماتها عن الثقافة الأوروبية المستمدة من الوثنية اليونانية والقانون الروماني والكاثوليكية الغربية .

الثاني إسقاط نفوذ الفكر العربي الإسلامي الذي استطاع يوماً ما وفي أقل

من قـرن من الزمـان ـ وبقواه الـذاتية ومقـوماتـه الخاصـة ـ أن يسيطر على عالم ضخم واسـع، وأن يغير كثيـراً من المفاهيم ومـوازين القـوى ابتـداءً من القـرن السابع للميلاد . فلعل من أشد ما يخشى الإستعمار أن يتكرر ذلـك مرة أخـرى في جولة جديدة تعيد الأمور إلى نصابها ، بالتسلح بالعلم والتكنـولوجيـا وانتهاج سياسة تقدمية رشيدة .

والحق أن تخلف العـرب والمسلمين اليوم بعـد قرون طـويلة من التقـدم والزيادة قـد نشر ضبـاباً كثيفـاً حول الفكـر العربي والحضارة الإسلاميـة حجب الـرؤية الـواضحـة عن أعين الكثيـر من المفكـرين الغـربيين ، لا سيمـا أولئـك المعروفين بمشاعرهم العدائية للعرب والإسلام . وهناك أيضـاً حجاب آخـر زاد في صعوبة الرؤية وهو أن صورة الإسلام في الغرب كان لا بد لها أن تتأثـر لعدة قرون بتشويهـات المنافسـة الايديـولوجيـة التي اشتدت بين العـالَمين الإسلامي والمسيحي . فقد كان هناك صدام مستمر بينهما لا يكاد يتوقف حتى يُستـأنف . لذلك كان العالم الإسلامي بالنسبة الى أوروبا بنية سياسيـة إيديـولوجيـة عدائيـة يجب القضـاء عليها . وهنـاك حجـاب ثـالث أيضـاً وإن لم يكن لـه أي طـابـع عدائي ، وهو أن العالم الإسلامي ينتمي إلى حضارة مختلفة وإلى إقليم غـريب وإلى منهج في الحياة ونظام من المثل والقيم والمفاهيم مغاير لما كان سائداً في الغرب . هذه الموانع المختلفة ، وإن حجبت الرؤيـة عن أكثر الغـربيين ، فقد أثارت فضول قلة من المفكرين الذين كان رائدهم دائماً الوصول الى الحقيقة . لكن قسماً لا يستهان بـه منهم أطلقوا لمشـاعرهم العنـان فانـدفعوا في حمـلات التشهير بالعرب والتجني عليهم وتشويه تاريخهم بشتى الوسائل والسبل .

في هذه الأجواء بالذات كثرت الأوهام وشـاعت عن تخلف الأمة العـربية حتى لَوَقَـر في أذهـان الكثيرين أن التخلف من طبيعـة الجنس العربي الـذي لم يُخلق للتقدم وهو عاجز عن القيـام بأي إنجـاز عظيم . فقيـل عن العرب « إنهم جاءوا بالدين ولم يجيئوا بالعلم ». وقيل « لا يفلح عـربي إلاَّ مصحوبـاً بنبي ». والعرب « لا يفلحون في دولتهم وفي غير دولتهم إلا محكومين » . وقال بعضهم « إن العـرب لا يحسنون صنـاعة الحكم ، وإلاَّ لمـا خرجـوا من الأنـدلس بعـد

الغلبة عليها عدة قرون». وقال آخرون «إنهم لا يحسنون فنون الحضارة، وإلّا كان لهم فن جميل غير نظم القصيد» . وقال قائل منهم أيضاً : « إن العرب لا يحسنون من أعمال المعاش غير ما تعودوه في البادية من رعي الإبل». واشتكى آخر من أن « العرب ظلوا شرقيين [لا يجدي فيهم علم أو ثقافة] ، فإنهم رغم اتصالهم باليونان [الغربيين] لم يتأثروا بالصيغة الثقافية الجديدة . . . ».

فالشرق مقرون عند أصحاب هذه الآراء البلهاء بصفات ذميمة أقلها الطغيان والجمود والسلبية ، وفساد الفطرة وانحطاط الخلق ، وعدم القدرة على التقدم أو القيام بأي عمل إبداعي . « فإذا كانت المنطقة العربية هي التي قدمت للعالم طريقة الكتابة بالحروف الأبجدية ونقلت الكتابة من أرض كنعان الى اليونان ، وهناك تطورت ، إلا أن العرب اكتفوا من هذه الطريقة بتقديس ما هو مكتوب ، كأنما هم عبدوا الحروف التي صنعوها بأيديهم ، بينما نظر اليونان إليها على أنها مجرد أداة للتفكير ، لا على أنها شيء مقدس معبود » . أي إن الحرف الذي لا يعدو أن يكون وسيلة عند اليونان كان عند العرب غاية تُقصد لذاتها . فكأن ابتكار الكتابة الذي يكفي وحدة للدلالة على نُقلة حضارية فذة انقلب على أيدي العرب ليكون أداة عبودية تسترقهم ، وليكون هو نفسه عند اليونان أداة تفكير تسمو بهم الى أعلى المراتب .

أرأيتَ الى هذا الهراء ، يصدر عمَّن يتسَمَّون باسم العلماء ؟! أرأيت إلى قادة الفكر والرأي وهم أسرى التعصب والهوى !؟ هذه هي عقدة العرب والإسلام التي لا يزال كثير من الأوروبيين يعانون منها .

وهناك أقوال من هذا القبيل ربما كان بعضها ـ وقليل ما هو ! ـ يتوخى الحقيقة صادقاً ، مهما كان مصادماً لنا مخيباً لآمالنا . إنها إنما تقال بحسن نية ، ومن الممكن تغيير آراء أصحابها من رواد الحقيقة عندما يقفون على حقائق جديدة . فمن علماء الإسلاميات أمة أخطأت الإجتهاد وتعجلت الحكم ، فلم يحالفها التوفيق ، وكان ما وصلت إليه جهد المقل . فلا جُناح عليها في هذه الحال ما دامت سليمة القصد. فينبغي لنا ألا نجحد فضل هؤلاء الباحثين الطيبين

رغم اختلافنا معهم في الرأي . فلئن كان منهجهم العلمي لا يروق للبعض لأنه موضوعي جداً ، ولأنه يعتمد كثيراً على التحليل والتدقيق والمقارنات المتعجلة والأحكام غير المتعمقة ، أو لأنه يستند كثيراً الى اللمحات البعيدة واللوامع الرائعة أكثر منه الى الوثائق والقواعد المنهجية الصارمة ، ويحفل بالفروض أكثر مما يعنى بالوسائل الكفيلة بتحقيقها على أصول راسخة ـ فإن بعض تعميماتهم السريعة ونظراتهم اللماحة التي بدت لأول وهلة مسرفة في الخيال إنما يشفع لها صدق عزيمة أصحابها واستعدادهم للرجوع عنها عندما يظهر لهم بطلانها . فليست عندهم أفكار عنصرية سابقة مدمرة . هذا فضلاً عن أن دراساتهم قد وجهت البحث وجهات جديدة ودفعته في آفاق جديدة ، كان يمكن الإنتباه إليها لولا منهجهم العلمي وأقباسهم الوضّاءة التي جاء الكثير منها موحياً أكثر منه مقنعاً . وإن تقدم البحث العلمي في حاجة الى كلا النوعين من الباحثين : أصحاب المنهج الدقيق وأصحاب النظرات اللماحة والأقباس الوضاءة والفروض الخصبة السخية . فإن هؤلاء وأولئك سيظلون أعلاماً خفاقة في طريق البحث الدقيق العميق والفهم الناقد والإدراك الموحي والوجدان المشبوب . إنهم ذخرنا ورصيدنا وحَمَلة مشاعلنا في أوروبا ـ التعصب والاضطغان على العرب ، أوروبا المصابة بعقدة العرب .

إن حركة الإنتصاف للفكر العربي من قِبل الأوروبيين أنفسهم تسير قُدُماً ولكن ببطء وحذر . فإن عدداً لا يستهان به من المفكرين والمستشرقين الغربيين أمثال ماكس مايرهوف وسارطون وجيكر وستيفنسن ورودنسن وكاجوري ونللينو وماسينيون وبلاشار وول ديورانت وزيغريدهونكه وروم لاندو وروزنتال وبيرك ومونتغمري وات . . . إن هؤلاء جميعاً ونفراً قليلاً غيرهم قد اعترفوا ـ على تفاوت فيما بينهم ـ بالإسهام الكبير الذي قدمه العلماء والمفكرون العرب لخدمة الحقيقة العلمية والحضارة الإنسانية ، كما انهم شهدوا بفضل التراث العربي الإسلامي وبالمشاركة الفعالة التي حققها هذا التراث طوال قرون عديدة في ميدان التقدم العلمي والرقي الإنساني .

إن مجرد تصفح كتاب (الفهرست) لإبن النديم ، و (إخبار العلماء

بأخبار الحكماء) للقفطي ، و (طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة ، و (وفيات الأعيان) لابن خلكان ، و (كشف الظنون) لحاجي خليفة ـ أقول إن تصفح هذه الكتب وكثير غيرها من كتب التراجم والطبقات ، يُشعر المرء بالزهو والفخار حقاً ، إذ يجد نفسه أمام فكر ضخم متشعب ، فيه العلم ، وفيه الأدب ، وفيه الفلسفة ، والرياضة والتاريخ والجغرافيا والاجتماع والفن والعمارة والنحت . . . إنه لشيء عجيب مدهش أن يُخلِّف لنا العرب كل هذا وأكثر من هذا ، بامكانياتهم المتواضعة في التجهيز والتأليف والكتابة . . . نحن لا ننكر أن الحضارة العربية الإسلامية قد تأثرت في شتى مراحل نموها بكثير من الإنجازات العلمية والفنية والفلسفية التي حققها القدماء ، غير أن الأمر لا يقتصر على ذلك ، بل إن عطاءآت علمية وصفحات فكرية جديدة مثمرة أنتجتها حضارتنا قد خالفت في كثير من الوجوه ما كان سائداً في الحضارات القديمة من أفكار ونظريات عرضنا لبعضها في كتابنا (**الجامع في تاريخ العلوم عند العرب**) . فلولا إبن الهيثم والخازن والكندي والرازي والفارابي والبيروني والخوارزمي وابن النفيس والبتّاني والصوفي وابن الشاطر وابن يونس والطوسي ، لولا هؤلاء وكثيرٍ أمثالهم ما ظهر بيكون وغاليليو وكبلر ونيوتن وكوبرنيقوس وهارفي ديكارت . . .

إن هؤلاء العلماء الأعلام ، والفلاسفة الكبار ، والمفكرين العظام ، وقد تنكروا للحياة وزخرفها ، وانصرفوا للبحث والنظر بصبر وأناة ، يطلبون الحقيقة لذاتها في جميع مظانها ، وينشدون المعرفة أنَّى وُجدت ، فعانوا في سبيلها ما عانوا من التعب والنَّصَب وشطف العيش ، وتجشَّموا ما تجشموا من الصعاب والمهالك . وكانت حصيلة ذلك كله عطاء عملاقاً ، ومشاركة خصبة فعالة ، وحضارة يانعة فذة في ظروف بيئية وتاريخية نادرة . ولم يَسَعْ المنصفين من علماء الإسلاميات الغربيين إلا أن يقفوا مبهوتين ممسكين أنفاسهم أمام هذه الذخائر ويعترفوا بالفضل لذويها، بلا انحياز ولا تعصب ولا أحكام مضللة ظالمة تنضح بالضغينة والحقد الأسود ، وما ابتغت يوماً وجه العلم والحق .

أن مشكلتنا ليست أبداً هذا الفريق ، وإنما مشكلتنا ـ كل مشكلتنا ـ مع

الفريق الآخر الذين يكتمون الحق وهم يعلمون، هؤلاء لا سبيل إلى إدخال أي تغيير أو تبديل في أفكارهم المبيتة . نحن لا ننكر أن هناك تياراً جديداً من النظرة المحايدة والمنصفة للفكر العربي الإسلامي ، غير أنه يشق طريقه بصعوبة بالغة بين الألغام والتي أقامها الفريق السابق الذي دأب على التشكيك والتوهين والتمزيق ، وبث الفرقة وخلق البلبلة ، وإذاعة روح القصور والحيرة والقلق ، في محاولة مكشوفة لدفع الفكر العربي المعاصر إلى الإمعان في التبعية والانقياد للروح الغربية وخلق جو من فقدان الثقة بالذات ، ولإبقاء المشرق العربي مفككاً مقطع الأوصال . ولكثير من المستشرقين ـ أو كما يسمون في هذه الأيام علماء الإسلاميات ـ اليد الطولى في ذلك . إنهم ذراع الاستعمار في هذه المنطقة ورأسه المفكرة . وهكذا فلا يستطيع المرء إلا أن ينظر إلى بعض الإستشراق على الأقل على أنه شيء ملازم للاستعمار حتى ولو كانت الروابط بينهما معقدة خفية وغير مباشرة .



أجل ، لقد استطارت الإتهامات ودعوات التشكيك في مختلف مجالات الثقافة العربية الإسلامية وقيم الفكر العربي واللغة العربية والتشريع الإسلامي والتاريخ الإسلامي . . . لقد استطارت منذ بدأ الإحتلال والنفوذ الغربيان يسيطران على العالم الإسلامي والأمة العربية . وهكذا ترافقت الحرب العسكرية والحرب النفسية ، وتعاون السيف والقلم للقضاء على المقومات الأساسية للفكر العربي الإسلامي ، وهي المقومات التي كانت ولا تزال تحمل لواء المقاومة لكل غازٍ ودخيل ، دون أن تتخلى يوماً عن انفتاحها على الثقافات المختلفة والبحث عنها في جميع مصادرها . ولم تكن سيطرة الإستعمار الأوروبي على العالم العربي الإسلامي إلّا حلقة من سلسلة طويلة من المعارك بدأت فى القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بالحروب الصليبية انتهت بهزيمة الغرب ، ولم يلبث العالم العربي والإسلامي بعد ذلك بقليل أن أصيب بالجمود والضعف بل واليبس ، فأقفل أبوابه متخلياً عن أبرز

مقوماتـه الفكريـة ، وهي القدرة على الحـركة واليقـظة والقوة والتجـدد وحمايـة الثغـور . ثم جـاء الحكم العثمـاني فكـان ضغثـاً على إبـالـة . وأعقبـه أخيـراً الاستعمـار الغـربي الـذي لا يـزال ينشب أظفـاره فينـا رغم مـظاهـر الاستقـلال المزيف .

وقبل أن يرحل عنا هذا الإستعمار ـ ولو ظاهراً على الأقل ـ عمد إلى زرع إسرائيل في هذه المنطقة لتكون له عيناً ساهرة وكلب حراسة لمصالحه التي لا تنتهي . إنها كيان ديني عنصري متعصب أسود يغلي بـالحقد والكـراهية لجميع الشعوب . ففي عصر انحسار الإستعمار تريد إسرائيل إعـادة عصر الإستعمـار ، بـل شر أنـواع الإستعمار ؛ الإستعمـار الإستيطاني . إن القضـاء على إسـرائيـل مرهون بالقضاء على الإستعمار ، فهما يسيران معـاً جنباً الى جنب . أوَ لا ترون أن كل دولة تتحرر من الإستعمار لا تلبث أن تنقلب على إسـرائيل ، سـواء كان ذلـك في آسيا أو أفـريقيا أو أمـريكا الـلاتينية ، هـذا فضـلاً عن دول المعسكـر الاشتراكي . وها هي ذي هيئة الأمم المتحدة تخذلها وتنـدد بعدوانهـا المرة تلو المـرة . وكان رد إسـرائيل على ذلـك في غايـة الصفاقـة : إذْ أطلقت على هذه الدول اسماً مليئاً بالإزدراء والإحتقار وهو « دول الأكثرية الأتوماتيكيـة التي تسير في ركاب موسكو وتأتمر بأوامر موسكو » ، رغم أن كثيراً من هـذه الدول تنتهـج سيـاسة معـاديـة لمـوسكـو ! وأمـا الأقـزام الـذين يـدورون في فلك الإمبرياليـة الأمريكية ، وبـالتالي يؤيـدون إسرائيـل ، فإنهم دول حـرة متحضرة !! إن هـذا الـرد جزء من الاستعـلاء الغربي والصلف الإستعمـاري تجسَّـد في إسـرائيـل ووجد فيها خير متنفَّس لأحقاده وضغائنه . وهـا هي ذي تكرر معـزوفته القـديمة المستهلكـة التي تسم كل حـركة تحـررية في العـالم بأنهـا إرهاب وكـل حركـة تحررية نضالية بأنها حركة شيوعية تخريبية تخدم أغراض موسكو !

وعلى كل حال لقد بدأت الأرض تميد من تحت أقدام إسرائيل ولما تبلغْ مرحلة الشباب . لقد خسرت إسرائيل هيئة الأمم المتحدة ، ولن يبقى ظهيراً لها إلاّ سَيْفُ الڤيتو الأمريكي المصلت في مجلس الأمن الدولي . ولكن ماذا يجديها هذا السيف أمام ثورة الحجارة وأبطال الحجارة، أمـام هذه الانتفـاضة العـارمة

التي دخلت عامها الثالث؟ وها هي ذي الدولة الفلسطينية على الأبـواب . ولن يطول الزمان بالسيف الأمـريكي الذي سيهـوي على أصحابـه عاجـلاً أو آجلاً . لقـد هوت قبله على أصحـابها سيـوف وسيوف ، ولن تكـون أمريكـا استثناء في قانون تهاوي السيوف . لقد كانت أمريكا محكومة من قِبل بريطانيا العظمى التي لا تغيب عنهـا الشمس ، ثم حكمت بريـطانيا وورثت ممتلكـات الامبراطـوريـة المحتضَرة . وكما هوت بريطانيا ستهـوي أمريكـا . فـدوام الحـال من المُحال . هذا قانون تاريخي لا يتخلَّف عرضنا له في كثير من كتاباتنا السابقة .

لقد كان يحلو لي في السنوات الأخيرة تشبيه إسرائيـل بتائـه في الصحراء أنهكـه العطش حتى لأشـرف على الموت . فحيـاته رهن بقـطرة ماء . وكـذلك حال إسرائيـل التي يضيِّق الخناق عليهـا يومـاً بعد يـوم ، وقد اقتـرب الحبل من عنقها لولا أن جاءتها قطرة الماء من بلد عربي شقيق له ماضٍ طويل في النضال وحـركـات التحـرر . ولكن هـذه القـطرة لن تجـدي إسـرائيـل مـا لم تكن أول الغيث ، وهـذا بعيد الاحتمـال جداً ان لم يكن مستحيـلاً لأن ريـاح التغييـر في المنطقة تجري بما لا تشتهي سفينة إسرائيل . فضلاً عن أن القطرة التي جاءتهـا من البلد العربي الشقيق لم تتجدد ويبـدو أنها لن تتجـدد . لقد قضى هـذا البلد وطره من إسرائيل ، وجميع الدلائل تدل على أنه أحكم من أن يغيث مرة أخرى دولة إسرائيل ليسد عطشها . وسيقتلها العطش . ولن تُجـدْيها الحقن والحبـوب الـطبية والتغـذية الصنـاعية التي تـرد إليها من أقصى الأرض . وممـا يـدل على الوجود الهش، وبالتالي غير الطبيعي لإسرائيل أنها ـ خلافاً لجميع دول العـالم ـ لا تحتمل أكثر من هـزيمة واحـدة في هذا البحـر المتلاطم من الـوجود العـربي الذي تعاقبت عليه الهزائم والانتصارات دون أن تطيح به . وإن كنا نحن سندفع الثمن غالياً ، لأن إسرائيل لن تُقـر بهزيمتهـا بسهولـة ولو كلفهـا ذلك أن تشعـل حـرباً نـووية لا تُبقي ولا تـذر ، وهي المنزع الأخيـر الـذي سيبقى في قـوسهـا لمقاومة قوى التاريخ والتطور ، فلديهـا جميع الإمكـانات العلميـة والتكنولـوجية لإشعال مثل هذه الحروب ، والأمـر مرهـون بنا أن نصمـد ونقاوم أو أن نتخـاذل ونولّي الأدبار .

إن جميع قوى التاريخ والتطور وسنن الاجتماع تعمل في غير مصلحة إسرائيل ، ولكن ذلك لا يعني أن نركن الى هذه القوى وننصرف لشأننا كأن الأمر لا يعنينا. حذار أن تعتمدوا على هذه القوى لأنها إنما تعمل بنا وبسواعدنا. فليست قوى التاريخ والتطور شيئاً آخر غيرنا نحن العرب وغير قدرتنا على مواجهة الأخطار والتحديات بالعلم والتكنولوجيا ، والتخطيط والتنظيم ، والدراسة الشاملة للرياح التي تهبُّ على هذه المنطقة لتوجيهها لمصلحتنا وتسخيرها للأغراض والمنافع التي تخدم تقدمنا وتساعدنا على تطوير أنفسنا ومجتمعنا وإغناء وجودنا وحضارتنا .

*

نحن في حاجة إلى طاقة هائلة لتفهم واقعنا السلبي تفهماً راسخاً مبنياً على التاريخ . فليس كالتاريخ ما يساعد على وضع الأمور في نصابها الصحيح والحكم لها أو عليها، وبذلك نتلافى النظرة القصيرة العجلى والرأي الفطير. إن القدرة على تفهم الواقع تفهماً يقوم على حقائق التاريخ تتطلب ثقافة واسعة وآفاقاً فكرية عامة ، فضلاً عن النظرة العلمية الموضوعية السليمة تحل محل الإزدواجية البسيطة المغلوطة التي يتسم بها كثير من التفكر التقليدي المعاصر. وتتضح هذه الإزدواجية في تقسيم الناس إلى ساميّ وآريّ ، وأبيض وملوَّن ، ومتمدن ومتخلف ، وغني وفقير ، وشرقي وغربي ، ونحن وهم . . .

إن وراء هذه الإزدواجية نشوة القوة والشعور بالصلف والاستعلاء على الآخرين المستضعفين في الأرض. فالقوي يربأ بنفسه أن يمد يده في يوم من الأيام الى مَنْ دونه يطلب منه حاجة أو يستمده رفداً ، فذلك لا يكون إلاَّ بين الأنداد . هذا هو حال الأوروبي[1] في الوقت الحاضر، إنه يرفض أن يكون مساوياً للآخرين أو نداً لهم . إنه من طينة غير طينتهم . إن جميع مصائب

---

(1) وكذلك وليده الأمريكي ، فهما من طينة واحدة مجبولة على سياسة القوة . فالمعروف أن أمريكا هي برعم في الدوحة الأوروبية .

الدنيا ـ أو تكاد ـ مرجعها الى غرور هذا الرجل واعتقاده أنه صاحب الحضارة العظمى ، وأن له حق السيادة على العالم والوصاية عليه ، لا شيء إلاّ لأنه اليوم هو العنصر الأقوى . إنه إنما يقيس درجة التقدم في كل بلد بلون بشرته ومقدار اقترابه من نمط الحياة الغربية ، وانتهاج النظم الغربية وتبنّي القيم الغربية . وأما قيم الحق والخير والجمال فإنما هي شعارات يلوكها لسانه ويتبجح بها في وثائقه الورقية ، وما عدا ذلك فهو ذئب في إهاب حَمَل . حتى صوته يضنُّ به في المحافل الدولية ـ وهي منابر للخطب الكلامية لا للأفعال الجادة ـ إذا كان هذا الصوت سيُتخذ ـ ولو على المدى البعيد ـ ذريعة لإحقاق حق وإبطال باطل ، وهذا مما يتعارض مع مفاهيم القوة والهيمنة التي لا يؤمن إلاّ بها . إنه يجهل أن كل حضارة إنما هي في الواقع عالم قائم بذاته مليء بالألغاز والمفاجآت التي لا تخطر للأوروبي على بال . لذلك فإنه كثيراً ما يقع في الخطأ تلو الخطأ وهو يواجه الحضارات البعيدة عنه ، لكنه لا يكتشف أخطاءه هو إلا بعد فوات الأوان ، هذا ان اكتشفها وأقرّ بها . ويبدو أنه آخر من يعلم بما تتمخض به حركات الشعوب الأخرى من انتفاضات وما تجيش به من مطامع وآمال ، وما ترنو إليه من تطلعات ومواقف ، رغم إمكانياته الضخمة وأجهزة مخابراته الهائلة التي تنتشر كالأخطبوط في جميع أنحاء العالم .

الأوروبي هو الأوروبي ، لا يتغير ولا يتبدل . إن ثروته العلمية هائلة ، ولكن عقله متخلف عن علمه . فبينما تراه يعطي دروساً فائقة متواصلة في التجرد والموضوعية والرصانة والاتزان في الحكم والرأي ، إذا به في حالات أخرى ينخلع عن غريزة العقلاء ويطرح حام المنقول والمعقول . فهو عندما يعالج ظواهر الطبيعة ونواميس الأشياء يبدي من التجرد والموضوعية ما يثير الإعجاب حقاً . لكنه عندما يعالج قضايا الإنسان وشؤون المجتمعات ، يتذبذب بين إصابة الرأي والتجني في الحكم وكلما كان المجتمع الذي يُنْكَب بدراسة هذا الأوروبي له بعيداً عن نمط الحياة الأوروبية وفلسفتها السياسية وجوها الديني والاجتماعي ، جار عن القصد وركب متن الهوى ، والتمس شتى العلل والتعلات لإثبات تفوقه وحقه في البقاء دون سائر العالمين . إنه يتلقى جراثيم

الكبـرياء في الجـو المنزلي منـذ نعـومـة أظفـاره ، وفيـه يتكـوَّن تصـوره للعـالم وللإنسانية . ثم يدخـل المدرسـة التي تؤجج شعـوره بالتعـالي والجبروت . ثم يخرج الى المجتمع الذي يذكي فيه هذا الشعور ويضيف اليه شحنات جديدة . لقـد قُضي الأمرُ وسُـدَّت جميعُ المنـافذ . لقـد انتهى كل شيء . لقـد تكـونت الحجب والأسوار حول شغاف نفسه وأصبحت عمليـة الإقتحام أمـراً دونه خـرط القتاد . سدود وحدود تمنع كل اقتحام أو اختراق وحتى التفكير فيهما .

هذا الأوروبي ـ ما عدا نفراً من المخلصين الذين استطاع بعض الحقـائق الدامغة أن يجـد ثغرة في نفـوسهم التي لم تستكمل حُجُبَهـا وأسوارهـا لأسباب متعددة ـ وقليل ما هم ! ـ هذا الأوروبي عندما يعالج قضايا الشرق ، وخاصـة ما يتعلق منها بالعرب والمسلمين ، يُطل عليها من صياصيه العالية ويتناولهـا بعقلية المتجبر الذي لا شريك له في ملكه ولا معقب لحكمـه . فلا عمـلاق إلاَّ هو ، وكل من عداه أقزام صغار !! .

ولقد أصبح حديثاً معاداً الإلحاح على شعور الصلف والتعاظم الذي يملأ حيـاة الأوروبي وعـدم ثقتـه بكـل مـا هـو غيـر أوروبي ، ثم بكـل مـا لا يمت إلى التـراث المسيحي ـ اليهـودي بصلة القـربى والنسب . مسكينـة هـذه المسيحيـة التي نُكبت به ! فبـدلاً من أن تحتويـه هذه الـديانـة الشرقيـة الساميـة وتقلِّم أظافره ، فقد بادر هـو إلى احتوائهـا وتقليم أظافـرها وتسخيـرها لأطمـاعه وغاياته . هذا عندما اشتد عوده ، أما قبل ذلـك فقد دغـدغته بـالرؤى والأحـلام الطوباوية وملأته بالمشاعر الملكـوتية ، حتى لـظن أن الله لا عمل لـه إلاَّ رعايـة ابن كنيستـه البار والسهـر عليه ، وأن أم الـرَّب لن تتخلى عنـه ، وستـظل تكلؤه بعينها . . . وعندما خرج إلى العالم الواسع الكبير ، ورأى أن هناك ديانات كثيرة غير ديانته ، وأقواماً غير قومه ، وأن الله له شؤون أخرى غير رعايـة أخينا هـذا ، عـاد إلى رشده ، ولا سيمـا بعـد أن تهـاوت عليـه الضَّـربـات تلو الضَّـربـات ، واستيقن أن السمـاء قد خـذلته، فتمـرد على الكنيسة التي أغـرقتـه في الـوعـود وتولى منذئذٍ مقاليد أمره بنفسه . فلن يعتمد بعد اليوم إلاَّ على ذاتـه . لقد أدرك قبل فوات الأوان أنـه وحيد في هـذا العالم ، وأن السمـاء لن تُغْني عنه شيئـاً .

وهنا بدأت عملية الاحتواء التاريخية للديانة التي لا تتفق وطبيعته ، دون أن يتخلى مع ذلك عن الاعتزاز بانتمائه المسيحي الذي لن يكلفه بعد اليوم أي تضحية . إن المسيحية قد خُلقت للشرق لا للغرب . فقد أساءت أوروبا كثيراً إلى المسيحية . فلا تُذكر إلا وتُذكر صكوك الغفران ومحاكم التفتيش وعهر السلطات الدينية . بل لقد بلغ من إساءة الأوروبي للمسيحية الغربية اليوم أن كلمة مسيحية وكلمة إستعمار أصبحتا تعنيان شيئاً واحداً في نظر كثير من الشعوب . هذه هي أوروبا : ما دخلت أرضاً إلاَّ أفسدتها . وإذا تسربت منها نفحات إلى البلاد والتي ابتُليت باستعمارها فإنما هي نفحات إثمُها أكبر من نفعها . حتى الدين لم يسلم من تخريبها فاتخذته غطاء لمآثمها واعتداءآتها ، فلا تدخل بلداً إلاَّ حملت الصليب بإحدى يديها والخنجر باليد الأخرى وما كان أحراها ـ وأمرها كذلك ـ أن تعتنق اليهودية ، فهي ديانة جشع واستعلاء وعنصرية بطبيعتها وبحكم نصوصها « المقدسة » ! وعندئذٍ سيوافق شِنٌّ طبقة . أما أن تعتنق أوروبا المسيحية فهذا من مهازل التاريخ !

إن يهوه ـ لا المسيح ـ هو الذي يحكم أوروبا « المسيحية » اليوم . وما أعظم الفرق بين إله الحرب وإله السلام ، تُرى هل يستويان ؟ ولعل من أغرب الغرائب جمع الإلهين في كتاب واحد ، يدين اليهود بأحدهما ويدين المسيحيون بكليهما رغم بُعد الشقة بينهما ، والويل لمن لا يستمع إليهما !

فلا غرو بعد ذلك أن الأوروبي ـ وهذا حاله ـ كلما وقع على أشياء إيجابية مهمة في الفكر الشرقي تستحق التنويه ، راغ وزاغ مأخوذاً بنشوة القوة والخُيلاء ، ثم مضى كدأبه دائماً في متاهات التحليل والتعليل ، ببراءة رجل العلم ، ودهاء رجل السياسة ، وجشع رجل المال والأعمال ، ولا يزال يداور ويوارب حتى يُجهز على الضحية أو يكاد . كيف لا وهذه الضحية تنتمي الى عصر غير العصر الذي ينتمي إليه مارد أوروبا الجبار ، وإلى دين غير دينه ، وبيئة غير بيئته وجنس غير جنسه ، وإلى أفكار ومفاهيم وقيم ومبادىء غير أفكاره ومفاهيمه وقيمه ومبادئه ؟ فليُسخِّرْ العلم والمنطق لإحقاق الباطل الأوروبي ، وإبطال الحق الشرقي ، لا سيما إذا كان هذا الحق ينتمي إلى الشرق العربي .

وهكذا تكون رسالة القلم قد أكملت « رسالة » السيف ، وتوَّج الفكرُ دويَّ المدفع !

أجل ، إن الاستعلاء هو دأب الأوروبي ، ودينُه وديدنُه استحقارُ الآخرين وابتزازهم واستغلالُهم ، والنظر اليهم على أنهم بقرة حلوب للرجل الأبيض ومزرعة لعبيده وصنائعه . وإذا أظهر بعض « الحب » و « الرفق » فإنما هو « حب » صاحب المزرعة لدواجنه أو «رفق» الجزار بنعاجه وهو يسوقها الى المسلخ . طلاء رقيق جداً من المدنية تحته مخالب الذئاب . هذا هو وجه أوروبا ـ ووليدتها أمريكا ـ الحقيقي ، وهو كما نرى وجه كالح ، ولكنه وجه كثير البهارج والأصباغ ، فلا نُخْدعنَّ بظواهر الأشياء . لا مبادىء ولا مثل ولا قيم ، اللهم إلا مبدأ القوة وشريعة الغاب . وما حرب الأفيون في الصين ، وحرب الإبادة في ڤيتنام ، وزرع إسرائيل في قلب الوطن العربي ـ ما كلُّ أولئك وكثير غيره ، أمره عنا ببعيد .

*

هجوم مستمر لا ينقطع على من كانوا سدنة العلم والحضارة في عصور الظلام الأوروبي ، عصور التعصب الديني الذميم . الإسلام عدو الحضارة ، والعرب همج مخربون حاربوا الفكر والعلم وحرية الرأي ، ونشروا دينهم بالتسلط والقهر وحد السيف . أما حملات التنصير التي شُنت على البقية الباقية من العرب المسلمين بعد سقوط غرناطة وانهيار دولة الإسلام بالأندلس ، وإرغامهم على ترك دينهم ولغتهم وآدابهم وعاداتهم ، وتعريضهم للإعدام والمصادرة لأقل التُهم والشك في صحة اعتناقهم للنصرانية ، ونفي من سلم من أبناء هؤلاء المشكوك في دينهم من الأراضي الإسبانية بعد نحو قرن من الاستشهاد المؤسي[1] ـ أقول أما كل أولئك فإشعاع وتقدُّم وخدمة لقضية الحرية والحضارة .

---

(1) هذا إذا لم نذكر حملات محاكم التفتيش والسلطات الدينية على الفكر والعلم وحرية الرأي بين المسيحيين أنفسهم في ظلام القرون الوسطى اللاتينية .

الأوروبي عملاق منذ كان هباءً في ضمير الغيب لم يخرج بعد إلى حيِّز الوجود، وهو كذلك الآن وفي المستقبل. إنه انسان فذ أزلاً وأبداً، إنه رجل ذو فطرة فائقة حتى قبل أن يوجد وبعد أن يزول . هكذا كان وهكذا سيكون هو وأسلافه وأجداده وذريته وأصلابه وأحفاده وأسباطه إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين ! إنه قُدَّ من طينة غير طينة الشرقيين ، ولا سيما إذا كانت طينة عربية إسلامية هي دائماً عبء على التقدم وعلى الحضارة ، ولا تصلح إلا للأغراض العملية التافهة . ومن هنا استجاز الأوروبي لنفسه استرقاق أبناء الطينة الأخرى واستعبادهم وفرض وصايته عليهم .

من هذا المنطلق الاستعلائي المتكبر يرفض الرجل الأوروبي الحديث الإقرار بفضل الآخرين عليه. لقد نسي أو تناسى أن المسيحية ـ التي ينتسب إليها زوراً وبهتاناً ـ هي من صنع هؤلاء الآخرين ، لا من صنعه هو . لقد نسي أو تناسى أنها عطاء شرقي لم ينشأ في الغرب بل في منطقة قريبة جداً من المنطقة التي نشأ فيها الاسلام ، وعلى يد جماعة من الناس هم أقرب نسباً بالعرب منهم بالأوروبيين . لقد فعل ذلك بحكم حق الأقوى حفاظاً على هيبته وصولته وليجول في المنطقة كما يشاء ويهوى. إنه خبث القوة تنسى ما تريد وتذكر ما تريد !

فإذا جحد فضل الشرق عليه في باب الدين ، فمن الأوْلى به أن يجحد فضله عليه في الأبواب الأخرى ، ولا سيما إذا كان هذا الفضل قد جاءه من طريق العرب الذين تحدَّوا كبرياءه طوال ثمانية قرون أو تزيد، وغزوه في عقر داره، وكانت لهم معه صولات وجولات باردة حيناً ساخنة أحياناً . ومن هنا هبت رياح التغيير تكتسح العالم اللاتيني من أقصاه إلى أقصاه . ولكن التعنت الأوروبي يمنعه من الاعتراف بالجميل لمن صنع له هذا الجميل .

فقد كان اختلاط العرب بالأمم اللاتينية في القرون الوسطى اختلاط قتال وحروب ومعارك أولاً ، ثم اختلاط حضارة وثقافة وأفكار غنية خصبة بعد ذلك . من هنا كان التأثير والتأثر، ومن هنا كان التفاعل وانتقال التراث من الشرق الى الغرب .

وتعددت المسالك التي سلكها هـذا التراث في طـريقه الى الغـرْب. فقد غَزَتْ نهضة العربِ عقول اللاتين وأفهامهم ، فهبّوا لمقاومتها أو الاندمـاج فيها والإسهام في خيراتها .

وهكذا كان لقاء فكان إخصاب .

لقاء بين شرْقٍ غربت شمسُه وأفل نجمُه ، وبين غَرْب انبلج صبحه وبـزغ فجره . بين فكر بلغ غاية نضجه ، وفكر أخذ يعي وجوده ويتلمس الـطريق ليبدأ المسير ؛ بين ثقافة يانعة وحضارة اكتملت وآتت أُكُلها ، وعقلية نـاشئة اجتـذبها البريق وأخذ منها كل مأخذ .

وكان الإخصاب الذي أسفر عنه هذا اللقاء فذاً رائعـاً لا ينقطع لـه مدد ، ولا ينضب له معين ، بل تراه يغدق ويزداد تدفقاً كلما تقـاذفته العصـور واستطال بـه الزمن . فهـو يتجدد بـاستمرار النـزح وينمو بـالسقيا ، ولا يـزيده العـطاء إلا المزيد من العطاء . وحسبنا للدلالة على ما فيه من قوة وحيوية أن حضارتنا اليوم بكل شمولها وأبعادها وآثارها الخارقة التي بلغت حد الإعجاز هي من نتاج هـذا الإخصاب .

وقـد تمت عمليـة الإخصـاب هـذه بين الفكـرين العـربي والأوروبي في صقلية وجنوب ايطاليا من ناحية أولى ، وفي الأندلس ومدينـة طليطلة من نـاحية أخرى . وكانت هناك قناة ثالثة حفـرتها الحـروب الصليبية بين العـالمين العربي والإسـلامي والـلاتيني المسيحي . ومن هـذه القنـوات لم ينقـطع سيـل الكتب والعلمـاء والأفكـار يتـدفق من « منـاطق الضغط العـالي » إلى « منـاطق الضغط المنخفض » ، رغم ثوران النقع وقعقعة السلاح واحتـدام المعارك بين العـالَمين المتناحرَيْن . وكـانت هناك بـواعث مختلفة حـدت بالأمم الـلاتينية إلى تـدارس كتب العرب : منها الدفاع عن النصرانية ، وذلـك بتعرف آراء الخصم والـوقوف عليهـا تمهيداً لمعـارضتها وإظهـار تفوق العقيـدة المسيحيـة عليهـا . ومن هـذه البواعث أيضاً مجـرد الرغبـة في تحصيل العلم والمعـرفة ، ولا سيمـا إذا ذكرنـا ذلك الفقر المدقع في ثقافة اللاتين المتخلفين ونهمهم الشديد الى كل ما يرفـع من المستوى العقلي بينهم . ومنها كذلك الـوقوف على سـر تفوق العـرب على

أعـدائهم لسلوك طريقهم وانتهـاج مناهجهم . لقـد انبهر القـوم بالتفـوق العربي الإسـلامي حتى لحسبـوه شيئـاً لا يمكن بلوغـه . لقـد كـانت عقـدة الإنحـطاط والتـدني قويـة فيهم الى حد جعـل بترارك Pétrarque ـ وهـو من فحـول الأدب الإيـطالي في القرن الـرابع عشـر ومن المبشرين بـالنهضـة الأوروبيـة العتيـدة ـ ينتصب ليبث الثقـة في أبنـاء جيله ويعيـد اليهم الأمـل والـرجـاء فيقـول : إنكم تتـوهمون أنـه لن ينبغ أحـد بعد العـرب . قد نـافسنا اليـونان وتفـوقنـا عليهم ، ونافسنا كل الشعوب والأمم ، ومع ذلك تقولون إننـا لن ننافس العـرب ؟ تُرى ، هـل أصيبت عبقريـة الإيطاليين بـالعقم ؟ ومن البـواعث التي حـدت بـالـطليعـة الـلاتينية الى تـدارس كتب العرب أخيـراً الميل الـراسخ في الإنسـان الى تقليد الأقوى والتمثل به . فالمغلوب مولع دومـاً بتقليد الغـالب كما يقـول ابن خلدون وكما يقول منطق التاريخ والحضارة : يستوي في ذلك المغلوب ثقافياً وحضـارياً والمغلوب عسكرياً !

هذه حقائق علمية ثابتـة أوردناهـا باختصـار شديـد ويمكن لأي باحث أن يرجع إليها في مظانِّهـا ليقف على تفاصيـل أوسع[1] ، ومـع ذلك فـإن كثيراً من الأوروبيين يتجـاهلونهـا مـع أن جـل معلومـاتنـا في هــذا البـاب منقــولـة عن مصادرهـم . إنهم لا يريدون الاعتراف بالواقع التاريخي الذي لا يأتيه الباطل من بين يـديه ولا من خلفـه . إنهم يرون في هـذا الاعتـراف معـرة للجنس الأبيض الذي إليه ينتمون، كالنَّعامة تدفن رأسها في التـراب خشية أن يراها عـدو غاشم يتـربص بها . إن هـذا التجاهـل لا يغني عنهم شيئاً مهمـا أمعنوا في المكـابـرة ومهما أصروا على دعوى الاكتفاء الذاتي وعدم الحاجة الى قوى غير أوروبيـة ، لا في الوقت الحاضر فقط بل في الماضي والمستقبل ، وفي كل زمان ومكان .

*

إن الحضـارة الأوروبية هي ـ شـاءوا أم أبـوا ـ امتـداد للحضـارة العـربيـة

(1) انظر مثلاً كتابينا من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الإسلامية صفحة 851 ومـا بعدهـا والجامـع في تاريخ العلوم عند العرب صفحة 574 وما بعدها .

الاسلامية التي هي بدورها امتداد للحضارة اليونانية والحضارات الشرقية السابقة عليهما . وإنكار ذلك حماقة ، بل عقوق يجرد صاحبه من كل حسّ إنساني . ليس عيباً أن تكون الحضارة الأوروبية وليدة الحضارة العربية الإسلامية، إنما العيب ان تبقى حيث بقيت الحضارة ـ الأم . أما أن تتخطاها وتتفوق عليها فهذا شرف كبير لها ، لا يضاهيه إلاّ شرفُ استكمالها لذاتها وتصميمها على الخروج من الضحضاح الذي كانت متردية فيه . أن تخرج من الضحضاح ، هذا قرار ذاتي كبير ، لأن أحداً لا يستطيع إخراجك إذا لم تقرر أنت هذا الخروج ، وكل ما عدا ذلك لا يرقى أبداً الى مرتبة قرار الخروج . جميع الأمم ينقل بعضها عن بعض ويقتبس بعضها من بعض . ولكن قلة ضئيلة جداً من الأمم لا تكتفي بالاقتباس من الآخرين بل تتطلع باستمرار الى تجاوز هؤلاء الآخرين في محاولة لبناء الذات ولتكون هذه الذات مركزاً لإشعاع تقتبس منه كل ذات . هنا يكمن الفرق بين ذات وذات ، ذات تكتفي بتقليد غيرها ، وذات تأبى إلاّ أن تصنع ذاتها . فبعد أن كان تقليد الغير غاية تنتهي إليه آمالها إذا هو بين يديها وسيلة لخلق جديد تسبق به غيرها . فلو أن أوروبا لم تضف جديداً الى ما تلقته عن أساتذتها العرب لوجبت لها المذمة وحق عليها الخزي والعار . أما وإنها سخّرتهم لأغراضها واتخذت منهم مرقاة للارتفاع والسموق وتخطي أبعاد ذاتها فهذا موجب للإعجاب بها والثناء عليها وكيل المدايح لها . لقد أبت أن تبقى في مكانها ، فانطلقت لا تلوي على شيء تغذّ سيرها ومسيرتها .

والخلاصة ، لا تثريب على الحضارة الأوروبية فيما نقلت عن الحضارات السابقة : فقيمة الحضارة اللاحقة وجوهرها ومناط الأمر فيها ـ كل أولئك ليس فيما ورثت من الحضارات السابقة بقدر ما هو فيما أضافت إلى ما ورثت وتغييره وتكييفه بحسب أغراضها ومقتضيات وجودها وأنماط الحياة فيها . أجل ، إن ذلك ليس فيما أخذت بقدر ما هو فيما أعطت وفيما أغنت به رصيد الإنسانية من عناصر وثمرات عمَّ نفعها وانتشرت في كل أفق خيراتها وكانت بذوراً جديدة لحصادٍ وافر وجنيٍ جديد .

لذلك لا أرى مبرراً لتنكر الأوروبي للحضارة التي ارتشف منها وكانت له

ـ يوماً ـ مثالاً وقدوة . فجميع الحضارات دائنة ومدينة، وجميع الحضارات ينهل بعضهـا من بعض ويعتمد بعضهـا على بعض، لكن أبت النفس الخبيثـة إلاّ أن تسيء لمن أحسن إليها . والتاريخ حَكَمٌ بيننا وبينها .

كـلا ، ليست الحضارة الأوروبيـة الحـديثـة امتـداداً للحضـارة اليـونـانيـة (الرومانية) وحدها ، إنها بالأحرى امتداد لحضـارة متوسطة بينهما هي الحضارة العـربية الإسـلامية . فـإن المـرحلة الفـاصلة بين الحضـارتين ليست بحـال من الأحوال مرحلة فراغ وظلام كمـا يحلو للبعض تصويـرها. وسنـرى في تضاعيف هذا الكتاب عدداً لا يحصى من الشواهد التي تثبت وجود مرحلة ابداعيـة هامـة جداً بين مرحلتي الإغريق وعصر النهضة في أوروبا. فالتاريخ ليس فيـه فراغ ولا هو يبدأ من فراغ . فعصور ما قبل التاريخ هي مادة التاريـخ القديم كله ، وهـذا الأخير مادة العصور الوسـطى ، وهذه مـادة العصر الحـديث . فكل عصـر يبني على مـا قبله ويضيف الى رصيده عنـاصـر جـديـدة . فـلا فـراغ في العمليـة التاريخية ، وإن كانت هذه العملية لا تخلو من قفزات نـوعية من حين إلى آخـر تتجلى في عصور الثورات والانتفاضات . وقد فصَّلنا القول في هذه المسألة في كتابنا (مدخل الى دراسة الفكر اليوناني) فلا نعود اليها مرة أخـرى . وعلى كل حـال ، ليس بين المرحلتين اليـونانيـة والأوروبيـة من فـراغ ، وإنمـا الفراغ في أصحاب النفوس المريضة الذين لا يروق لهم رؤية الحقائق كما هي في ذاتها ، بل دأبهم التزييف والتشويه لأغراض لا تخفى على كل ذي عينين .

إن عصور الفراغ أو عصـور الظلام ، أو العصـور الوسـطى كما يحلو لهم تسميتها، كانت عصـور ظـلام وانحـطاط للغـرب الـلاتيني المسيحي لا للشـرق العربي الإسلامي الذي إنما ربط بين القديم والحديث ، وسدَّ الهوة العميقة بين الإغريق (الرومان) وعصر النهضة . لقد كانت مرحلة الربط هذه مـرحلة خلق وإبداع هامـة في تاريـخ الفكر الإنسـاني كله . فقد قـام العرب في صميم هـذه المرحلة بحمل رسالة الفكـر والحضارة والـدفاع عنهمـا دفاعـاً مريـراً . ومن ثم برزت نهضة عقلية وعلمية امتدت ألف عام أو تزيـد . لقد كـانت أوروبا آنـذاك تعيش في ظلام بربرية متخلفـة يحكمها سـادة نصف متوحشين يفـاخرون بـأنهم

أميون وبأن الماء لم يمس أبدانهم لسنين بعيدة . وطال عهد الجهالة هذا في أوروبا حتى القرن الثاني عشر ثم طرقوا أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون إليه ويتعلمون منهم فنون العلم والحضارة .

إن الحضارة العربية الإسلامية هي إحدى الحضارات التي لا يزال الأوروبي العادي يجهل الكثير عنها ، رغم حضوره الثقيل كالكابوس في البلاد العربية الإسلامية ورغم استعماره الطويل لها ، وإلاّ لما أصدر تلك الأحكام الجائرة التي رأينا طرفاً منها والتي يختلط فيها الجهل بشعور الصلف والتعالي . ولولا نَفر من المفكرين الغربيين الذين تفهموا هذه الحضارة لطمَّ الماء على الوادي . ومع أنه لم يكن لهؤلاء تأثير يُذكر في تصحيح الأحكام والمفاهيم المغلوطة، ولا يزالون عاجزين عن التصدي للأكاذيب والتخرصات والافتراءات والشتائم التي تمتلىء بها كتب الغرب وترددها وسائل إعلامه ـ فإنهم يظلون نواة صالحة لا بد أن تنمو يوماً وتقوى ويشتد ساعدها وتكون في مستوى ما يُعلَّق عليها من آمال .

إن كتب التعليم في أوروبا تلقن الطلاب منذ نعومة أظفارهم ـ استمراراً لحملة الأكاذيب والافتراءات والتخرصات على الفكر العربي الإسلامي ـ إن معركة بواتييه كانت نقطة تحول في تاريخ الحضارة الأوروبية ، لأنها تمكنت من طرد العرب الاهماج عن أوروبا المتحضرة !

يا للتزوير ! يا لها من أكذوبة تجلل بالعار تاريخاً مشحوناً بالافتراءآت على الشعوب ، يدعي رجاله أنهم سدنة العلم والفكر ، والقيّمون على رسالة الحضارة ، ومع ذلك يصورون الفتوحات العربية منذ القرن الثامن للميلاد على أنها فتوحات من البربرية الأسيوية جاءت تهدد الغرب المتحضر !

ولعله يكفي للرد على هذا التزوير أن نستشهد بعبارة لأناطول فرانس وردت في كتابه (الحياة بين الزهور) La vie en fleur على لسان السيد دي بوا Dubois ففي الحوار الذي عقده بين هذا السيد والسيدة نوزيير Nouzière يسأل دي بوا هذه الأخيرة عن أشأم يوم في تاريخ فرنسا . ولما لم تستطع الإجابة عن

السؤال قال لها : « إنه يوم معركة بواتييه عندما تراجع العلم العربي والفن العربي والحضارة العربية سنة 732 أمام همجية الفرنجة »[1] .

ومن الجدير بالذكر أن هذا الحوار كان سبباً في طرد المفكر الفرنسي الكبير روجيه غارودي من تونس من قِبل سلطات الإحتلال الفرنسي سنة 1945 بتهمة الدعاية المناهضة لفرنسا كما يعترف هو ذاته[2] . فعلى عهد الحماية الفرنسية لتونس كان محظوراً على كل انسان الاعتراف بأهمية العرب في تاريخ أوروبا والإشادة بفضلهم عليها ، والقول بأن الحضارة العربية كانت لها السيادة على الحضارة الأوروبية والفكر الأوروبي حتى القرن الرابع عشر . إن الإقرار بهذا الواقع التاريخي الذي لا يصح إنكاره أو التنكر له كان جريمة لا تُغتفر !! لقد كان محرَّماً أيضاً تداول كلمة أناطول فرانس هذه ونشرها بين الناس. يا للغباء ! لقد ظنت فرنسا بذلك أنها قادرة على حجب أشعة الشمس باصبع طفل صغير !! أرأيت إلى عبث الدول العظمى وبلاهة الحكام فيها ؟

لقد انحسر المد العربي عن فرنسا ـ بواتييه ـ وارجع العرب الى قواعدهم في الأندلس . هذا هو حكم التاريخ ، ولن تجد لحكم التاريخ تبديلاً . لقد نفذت إرادة القضاء ، وكان الخسار كبيراً للفريقين معاً . لقد خسر العرب معركة بواتييه ، لكن فرنسا التي كسبت المعركة في الظاهر قد حكمت على نفسها أن تبقى متخلفة أجيالاً عن الأندلس. لقد ضيعت فرصتها التاريخية للاسهام في الحضارة العربية الإسلامية إسهام الأندلس فيها ، فطال أمد الفوضى الاقطاعية التي كانت مستشرية فيها آنذاك ، وتأخر نتيجة لذلك بناء وحدتها القومية قروناً عدة ، ولم تستطع فرنسا بالتالي أن تفيد من المغانم والانجازات التي حققتها جارتها وراء الحدود[3] .

ويؤكد الروائي الإسباني المعاصر بلاسكو ايبانز Blasco Ibanés

(1) نقلاً عن روجيه غارودي : حوار الحضارات . الترجمة العربية صفحة 98.

(2) المصدر السابق صفحة 99.

(3) انظر المصدر السابق صفحة 100-101 .

(1867 - 1928) في كتابه (في ظل الكاتدرائية) Al'ombre de la cathédrale « ان انتعاش إسبانيا لم يأت من الشمال حيث القبائل البربرية ، بل لقد جاء من الجنوب مع العرب الغزاة»[1]. وهو يقول أيضاً في معرض حديثه عن الحضارة العربية : «ما كادت تنشأ حتى أصبح في وسعها تمثيل أفضل ما في اليهودية وما في العالم البيزنطي . وقد جلبت معها التقليد الهندي العريق ، وآثار الفرس ، وكثيراً من الأمور المستمدة من الصين الغامضة . لقد كان الشرق هو الذي يخترق أوروبا . . . لا بطريق اليونان الذين رفضتهم أوروبا لإنقاذ حريتها ، بل من الطرف الآخر ، بطريق إسبانيا التي كانت تستقبل بذراعين مبسوطتين غزاتها وهي تئن من عبودية الملوك اللاهوتيين والأساقفة المشاكسين»[2]. ويردف بلاسكو ايبانز قائلاً: «لقد استولى العرب في سنتين على ما بذل الآخرون لاسترجاعه منهم سبعة قرون . إن ذلك لم يكن فتحاً يُفرض ذاته بقوة السلاح ، بل كان مجتمعاً جديداً يمدُّ جذوره من كل جانب »[3] .

يتساءل غارودي : لماذا هبَّ هذا « الإعصار » القادم من الشرق وانتشر بمثل هذه السرعة العظمى من بحر الصين الى المحيط الأطلسي ؟ ويجيب قائلاً : « ان العامل الحاسم هو ان (العربي) قد جلب معه أشكالاً أعلى في مجالات التنظيم الاجتماعي ، بل الاقتصادي ، ولذا نجده يحظى بقبول الجماهير . . »[4] ويقول غارودي أيضاً : « إن ما يطلقون عليه إسم (غزو إسبانيا) لم يكن غزواً عسكرياً . لقد كان عدد سكان اسبانيا في ذلك الحين زهاء عشرة ملايين نسمة ، ولم يزد عدد فرسان العرب في الأرض الإسبانية البتة على سبعين ألفاً . وإنما كان للتفوق الحضاري دوره الحاسم .

إن ما حققه العرب في إسبانيا يعيد الى أذهاننا الحرب الثورية التي نهض بها ماو [في الصين] . فقد جلبوا معهم نظاماً إجتماعياً أعلى جداً من

---

(1) نقلاً عن المصدر السابق ص 102

(2) نقلاً عن المصدر السابق.

(3) نقلاً عن المصدر السابق ص 102-103

(4) نقلاً عن المصدر السابق ص 101 (منشورات عويدات) .

النظام الراهن، وسرعان ما ظهروا بمظهر المحررين المنقذين: أولاً بانقاذهم الاقنان من وصاية ملوك (الفيزغوط) في عصر انحطاطهم ، ثم بعدم الاستيلاء على الأراضي ـ فالقرآن يحرم ذلك ـ مكتفين بالخراج »[1].

إن العمى الغربي، ووهم التفوق الغربي، والتعصب الغربي ـ نسي أو تناسى ـ أن الغزاة الفرنسيين والإنكليز والإيطاليين والإسبان والبرتغاليين هم الذين دخلوا أرض الاسلام ، فجاسوا خلال الديار ، وعاثوا فيها فساداً وتخريباً ، مُدمِّرين الحضارة التي غذتهم بلبانها ، تدميراً لا يقل ـ إن لم يكن يفوق ـ تدمير المغول . ولذلك يحلو لي في بعض الأحيان أن أطلق على الحضارة الغربية إسماً غريباً وهو حضارة التوحش أو الوحشية الحضارية !!

إن فتح العرب للأندلس كان فتحاً حضارياً ، وهذا ما لا يريد أن يفهمه الأوروبيون لأنه لا يتطابق أبداً مع مقاييس الإستعمار وموازينه التي يحكمون بها الشعوب . أجل ، هو شيء جديد لا عهد لهم به قط . إنه لم يكن غزواً عسكرياً كغزو المغول في القرون الوسطى والغزو الأوروبي في العصر الحديث. كلا، فالفرسان العرب حين دخلوا الأندلس لم يزد عددهم على خمسين ألف فارس بينما كان فيها من السكان عشرة ملايين كما مر معنا . ولو كان الأمر مجرد حرب لما نجحوا . ولكن تفوق حضارة على أخرى كان أهم عوامل النصر . ومما له دلالته في هذا الباب أيضاً أن العبقرية الإسبانية لم تتفجر وتزدهر إلا في المناخ العربي وفي ظل الحكم العربي وأجواء الحضارة العربية . وأما قبل ذلك فلم تكن إسبانيا شيئاً مذكوراً . وأما بعد ذلك فقد أصبحت كل شيء . لقد أصبحت دولة كبرى وكانت هي وجارتها البرتغال طليعة الإستعمار الأوروبي الحديث في العالم .

ومنذ انتصار شارل مارتل على العرب في معركة بواتييه ، تكونت لدى أوروبا عقدة العرب والإسلام . هنالك ظهر شعار (إنقاذ الحضارة الغربية من البرابرة العرب) أما البربرية الغربية في ڤيتنام والهند والصين وأفريقيا والبلاد العربية فهي رسالة حضارية : رسالة ابتزاز الشعوب واستنزاف دمائها ونهب خيراتها ، وتركها قاعاً صفصفاً وخراباً بلقعاً . فيبدو أن التوحش ملازم

---

(1) نقلاً عن المصدر السابق صفحة 97.

للغرب ، حتى لقد وقفت المسيحية الغربية أمامه مكتوفة اليدين ، فلم تستطع ترويض الذئب ولا تقليم أظافره، بل لقد انجرفت معه وكانت طليعته بل شريكته في غزو الشعوب. وهذا ما جعل الكثيرين في أفريقيا لا يستطيعون التفرقة بين المسيحية والاستعمار . لقد فقدت المسيحية الغربية روحانيتها الشرقية وتفشّت فيها عدوى الموطن الجديد . لقد عجزت عن الدفاع عن قضيتها أمام من هبت لإنقاذه ، ولكن هذا كان أسرع منها حركة ففرض قضيته هو عليها وجرّدها من جميع مسوحها وطيلسانها ، واستولى على منابرها ليخاطب الشعوب بالوعد المعسول والأماني الكاذبة بدلاً منها ، وصادر صوامعها ليجعل منها مخازن لأسلحته وآلات حربه كما صادر قرارها ومقرراتها !!

ضعفك حجة عليك لا تجدي معه أي حجة ، وقوتك حجة لك تغنيك عن أي حجة! هذه هي حقيقة المأساة في الحضارة الغربية وهذا منطقها. إنها حضارة شرهة لا همّ لها إلا الكسب والربح . إنها حضارة رأس المال والقوة و « دكتاتورية » البروليتاريا ، ولكنها ليست أبداً حضارة الإنسان . إن المثل الأخلاقية والقيم الروحية لا وزن لها في هذه الحضارة « المتوحشة » ، وإنما الوزن كل الوزن للاقتصاد والحساب والأرقام. ولا يتوهمنّ أحد أن الحضارة حكر على الغرب وحده . فقد مضت قبل الحضارة الغربية حضارات ، وستمضي الحضارة الغربية وستمضي بعدها حضارات . ولا يمكن لحضارة من الحضارات أن تبقى إلى أجل غير مسمى . فللحضارات أعمار وآجال كما للبشر ، لا فرق بينهما إلاّ في مقدار الطول والقصر . إن الحضارة متاع مشاع يكسبه القادر على تحصيله والاحتفاظ به ، ثم يأتي عليه زمان لا يطيق حمله لبروز قوى جديدة تنازعه إياه ، فيتخلى عنه لمن هو أشد منه قوة وأحق بحيازته والاستيلاء عليه ، حتى إذا خارت قوى هذا الأخير وعدت عليه هو أيضاً عوادي الزمن انتقل إلى من هو أصلح منه وأجدر بالمحافظة عليه . وهكذا دواليك . فإنما الأيام دُوَل بين الناس والتاريخ أكبر شاهد على ذلك . إنه لا يشهد أبداً لقوم دون قوم أو جنس دون جنس بالامتياز الذاتي والاختصاص بالقدرة على البقاء والاضطلاع دون سائر العالمين برسالة الحضارة لميزة طبيعية موروثة ، أو

فضيلة عنصرية راسخة في صلب التكوين البيولوجي والفطرة الأصلية .

إن التقدم في العلم والفلسفة والحضارة .. ليس ملكاً لفرد ، أو حكراً على طائفة أو دين أو شعب. . . ليست هناك أمة خُلقت مُعاقة عقلياً أو بدنياً، أو محكومة طبيعياً بالجهل والتخلف . ولئن كان تخلف العرب والمسلمين اليوم من الأسباب التي قعدت بهم عن مجاراة حركة التطور ومواكبة الأمم الراقية ، فالتقدم أو التخلف على كل حال ليس له جنسية أو دين . إنها لأكذوبة كبيرة أن نتصور لأي منهما بطاقة فيها أمام الإسم : كلمة (انكليزي) أو (عربي) ، وأمام الديانة ! كلمة (مسيحي) أو (مسلم) .

فإذا أردنا أن ننظر الى الأمور نظرة علمية موضوعية ، وأن نحكم على الأمم والشعوب حكماً مجرداً منزهاً عن الهوى والانفعال ، فيجب علينا أن نتجاوز المفاهيم العنصرية التي أرساها علماء الإجتماع العرقيون ونعق بها ناعقهم في الكتب والمجلات ووسائل الإعلام الأخرى للتشكيك في قيمنا وتاريخنا ومواريثنا .

إن هذه المفاهيم قد مضى عهدها وفقدت كل قيمة علمية كانت تُنسب إليها. فقد كانت هذه المفاهيم تقول بالتمييز بين عقليات الشعوب والأمم ، فتحكم على بعضها بالتخلف الأبدي ، وعلى بعضها الآخر بالتفوق الأبدي ، بذلك انقسم العالم شطرين لا يلتقيان : عالم حضاري أبيض ، وعالم متخلف ملوَّن . وهكذا صار تاريخ العالم تاريخاً للبيض وحدهم ، وغدت حضارة الإنسانية حضارة للبشرة البيضاء فقط ، بل أصبحت الطبيعة إطلاقاً هي الطبيعة التي يعيش عليها هؤلاء البيض دون سواهم . وأما خارج إطار الانسان الأبيض فلا يوجد تاريخ ولا حضارة ولا طبيعة . هناك الفراغ الكامل[1] .

فالتاريخ إنما هو تاريخ جميع الشعوب دون تمييز بين لون أو لون ، والحضارة قد صنعها الأبيض وغير الأبيض . . .

---

(1) أنظر الفصل الأول من كتابنا أصالة الفكر العربي ، حيث يجد القاريء مزيداً من المعلومات الضافية في هذا الموضوع .

لقد كان اليونان مجداً من أمجاد التاريخ القديم ومركزاً لإشعاع كبير أضاء الظلمات ، لا لمزية عنصرية أو بيولوجية موروثة اختصهم بها القدَر ، بل لمكاسب عقلية وروحية حققوها لأنفسهم بالعرق والدم والجهد المتواصل . وقد فصَّلنا القول في ذلك في كتابنا (**مدخل الى تاريخ الفكر اليوناني**)[1]. وكذلك كان العرب . فقد نشروا من حولهم أجواء فكرية كثيفة تولدت عنها أجواء أخرى وطاقات أخرى . وانبثق عن هذه الطاقات طاقات أخرى وأجواء أخرى عززت قدرة العرب على البقاء كما كانت قد عززت قوة اليونان من قبلهم . ثم دار الزمن بهؤلاء وأولئك وجعلهم أحاديث بعد أن كانوا أحداثاً ، وألقى بهم في زوايا التاريخ بعد أن كانوا في بؤرته . فإنما التاريخ لمن قدر على صنعه . إنه ليس وقفاً على أحد ، بل هو للكل وبالكل ، ولا منطق عنده إلا منطق الكل . . .

إن ما حدث في الجزر اليونانية ثم في بادية العرب هو نفسه ما يحدث اليوم في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي . إنها الأفكار ترفع ما انخفض وتوري ما انطفأ . من اعتدَّ بها عزَّ ، ومن استهان بها ذَلَّ . فما الحياة الكريمة سوى شحنة ملتهبة متحركة من الأفكار وتبادل الأفكار واكتساب الأفكار وعطاء الأفكار واشعاع الأفكار . إن اجتماع الأفكار ليس مجرد تجمع كمي بقدر ما هو عملية تحول نوعي ، وان نقلها من مكان إلى آخر ومن أفق الى أفق ليس مجرد نقل طوبوغرافي بقدر ما هو تطور ثقافي وثورة تاريخية وقفزة حضارية تستدبر عهداً وتستقبل عهداً .

وليس كالسيكوسوسيوديناميكا ما يستطيع - بزعمنا - فهم هذه العملية واستيعابها وسبر أغوارها والوصول الى لُب لُبابها .. فإذا طبقناها على ظواهر الفكر العربي والمجتمع الإسلامي واخترقنا بها الثقافة التي انبثقت عنهما وتوغلنا في الحضارة التي تفجرت فيهما ، استطعنا أن ننفذ الى صميم هذه الظواهر ونتغلغل في شعابها وأدق دقائقها . ولا يقتصر أمرنا في هذه الحال على أننا قد اقتنصنا من الباطن تلقائية الفكر العربي الاسلامي ، وأدركنا معناه ومغزاه ،

---

(1) وهو الجزء الثاني من كتابنا المرجع في تاريخ الأخلاق .

وعرفنا قيمته ومداه ، بل نكون أيضاً قد استطعنا أن نعيش من جديد حقبة مضى عهـدها ، وأن نغـوص بحق في أعماق المـاضي ، وبالتـالي أن نعـود القهقـرى ونصَّاعد في مجرى التاريخ !!!

الفصل الثاني

أضواء من السّيْكوسوسيوديناميكا

أنا مؤمن بالفكر العربي الإسلامي ، وبالعطاء الكبير الذي قدمه لشعبه وللشعوب الأخرى ، رغم أن كثيرين - عرباً وأجانب - أقل مني إيماناً بهذا الفكر إن لم يكونوا كافرين به وبمنجزاته . ولكل منهم أسبابه ودوافعه ومبرراته الذاتية والموضوعية . كلنا ندَّعي التجرد والنزاهة في الحكم ، وكلنا - من حيث ندري أو لا ندري - غاطسون الى قمة رؤوسنا في بحر من المشاعر والأحكام الذاتية ، وكثيرون منا لا يجدون أي صعوبة في إضفاء الطابع الموضوعي عليها ، على تفاوت فيما بيننا . كل شيء مفتوح على كل شيء ، على كل تأويل وتفسير ، والعقل قادر على النفي والإثبات ، على التشكيك والتوثيق والتعليق ، على الترغيب والترهيب والأخذ والعطاء ، على تزييف الأشياء وقلب حقائق الأشياء بنفس السهولة التي نتبادل بها الأشياء . وهذا لعمري ما جعل الفلاسفة - كالشعراء - يتبعهم الغاوون ، وفي كل واد يهيمون . ويقولون ما يفعلون وما لا يفعلون . لم تكن هناك ضوابط للفكر غير المنطق - وهو ليس مخلوقاً غريباً ، لأنه والفكر من معدن واحد - بل كانت الساحة خالية لهم يفعلون فيها ما يشتهون ، وكانت مسرحاً لأحلامهم وميداناً للمواجهة والصراع فيما بينهم . وظل أمرهم كذلك حتى جاءت التجربة تحدُّ من « تسكعهم » وتوقف الفوضى المستحكمة فيما بينهم .

هل يكفي أن أكون صاحب رأي وأن أدافع عن هذا الرأي حتى يُهرع الناس الى قبوله حقاً كان أو باطلاً ؟ هناك مؤمنون بالفكر العربي الاسلامي لا

يـدخرون وسعـاً دفاعـاً عنه وجهـاداً في سبيله ، وهناك منكـرون لا عمل لهم إلا التنـديد بـه والسخرية من أصحابـه . وبينهمـا درجـات لا تحصى من الإثبـات والانكار والترغيب والتـرهيب . فكيف يمكن الوصـول الى قرار حـاسم في هذه المسألة ؟ لقـد حسمت التجربـة الكثير من القضـايا التي كـانت محل نـزاع بين الفلاسفة ، فهل من الممكن الوصول الى قرار حاسم من هذا القبيل فيما يتصل بـالفكر العـربي ؟ فبالعلم إنمـا يجتمع النـاس على صعيد واحـد وبالجهـل إنما يتفرقون ويتنـابذون، ويتنـابزون بـالألقاب ويتخصَّمـون! أما الحسم المـطلق فهو طمع في غير مطمـع ، لأن التجـربة نفسهـا تظل من الممكن التشكيـك فيها . كل ما يمكن الوصول اليه في هذا الباب هو المزيد من الترجيح ، لا على سبيل تـرجيحات الفـلاسفة الهـوائية الفضفـاضة ، بـل على سبيل اكثـر جـدية واكثـر خصوبة . كما إن التجربة هنا لا معنى لها ، وكل ما يسع الباحث فعله هو إجراء بعض عمليـات الرصـد والمسح والمقـارنة والمـوازنة والمعـارضة بين منتجـات فكرية كثيـرة انبثقت عن اليونـان والعرب والأوروبيين ، وتتبُّـع الطرائق والأنحـاء التي إنما انثالت الأفكار بمقتضاها ، للوصول الى مـا عسى أن يكون من وحـدة فيمـا بينهـا ، وبـالتـالي بين الأقـوام التي صنعتهـا . هـذا مـا تسعى اليـه السِّيْكوسوسيودينـاميكـا وهنا تنحصـر مهمتها . فـوحدة الـطرائق تدل على وحـدة الأقوام الذين اتبعوا هذه الـطرائق ، مهما تعـددت انتماءآتهم واختلفت أعـرافهم وأعـراقهم وتباينت فِـطرهم ومشاربهم وتنـاءت ثقافـاتهم وأنماط تفكيـرهم . فلا فضـل ليونـاني على عـربي ولا لأبيض على أسـود إلا بـالبـذل والعـطاء ، بـذل الأفكـار وعطاء الأفكـار وتوليـد الأفكار . فَمَنْ ملك الأفكـار فقد ملك العـالم . جميـع الشعوب قـادرة على إنجاب الأفكـار والوصـول الى مستويـات رفيعة في مـدارك الأفكار ، ولـو كره العنصـريون الـذين لا تروق لهم هـذه الأفكار ، بـل تأخذهم العزة بالاثـم ومعاداة ما صحَّ من مذاهب الأفكار .

*

فهذا الكتاب ليس سوى محاولة تمهيدية سريعة متواضعة جداً لـلانتصاف للفكـر العربي الإسلامي وتصحيح النظرة السائـدة عنه . أمـا المحاولـة الجديـة

الكبيـرة في هذا السبيـل فموعـدها الجـزء الثـاني من كتـابنـا (**الفكر العربي في مخاضـه الكبير**) ، إذ الجـزء الأول منـه قـد اقتصـر على النـظريـات والأسس والقواعد ، وأما الجّزء الثاني فهو القسم التطبيقي الذي سيضع أيدينا على حركة الفكـر العربي الاسـلامي وهو يصنـع نفسه وتـاريخه ، وسنشهـده عن كثب وهو يعمل جاهداً متوتراً يقدح الزناد ويقذف بالحمم ، ويخوض المعـارك والملاحم ، يفجر كل يوم طاقات جديدة ويشعل فتيلاً جديداً . كلّ يوم سيطلع علينـا بوهـج جديد ويأتينا بنبأ جديد . إنه لن يكون سرداً للوقائع بل سيكون معـايشة لهـا في عنفها وحرارتها وكل عنفوانها ، حتى لنشفق ان تمسّنـا نارهـا أو تصيبنا لـظاها . فالدراسـة دراستان : بـاردة موزونـة وساخنـة مشبوبـة . لقد فـرغنا من الـدراسة البـاردة ـ وما أكثر الدراسات الباردة ! ـ لكننا في الكتاب الموعود سيكون من ألفه الى يائه دراسة ساخنة بل مشتعلة ترمي بالشـرر وتقذف بـاللهب. فمن لم يُوطّن النفس على استشعار الفَيْح ومؤالفـة الضرام والاضـطرام فنصيحتي لـه أن يحاذر الاقتراب من لسعات اللظى ولفحات السعير . هنـاك يجد العـافية وهنـاك يركن الى السلامة .

وكأني بـك عزيزي القارىء تقول : وما دخل السخونة والبرودة هنـا ؟ ألا تكفي الدراسة الأكاديمية العادية في هذا الموضع ؟ وما محل الدراسـة الساخنـة من الإعراب ؟ أم هي حذلقة طلعت بها علينا في الزمان الأخير ؟

على رسلك يـا أخا العـرب ، يا غـايـة المنى ومنتهى الأرب ، أجلّك الله وأجزل لك العـطاء والخير والأدب . أنـا لست من المتحذلقـة والمتحذلقين ولا من هواة الفذلكة والتكايس على القرين، إنما أنا طالب علم مبين، وجهتي الخير والحق واليقين !!

إن جميـع الذين كتبـوا في الفكر العـربي حتى الآن لا يزالـون يتلمسـون طـريقهم في الظلام . إن حـوارهم مع المعـارضين والمشككين والمترددين في أمر الفكر العربي الإسلامي هـو أشبه بحـوار الصم ، مع اعتـذاري الشديـد عن هذه الكلمة وتقديري البالغ للجهود الكبيرة التي بذلت في هذا السبيل . بمعنى أن الفـريقين المتحـاورين : الفـريق المـدافـع عن الفكـر العـربي والفـريق

المعارض ، لا يزال كل منهما عاجزاً عن اقناع الآخر ، ولا سيما عندما تتدخل النزوات والأهواء ، هذا باستثناء الحالات القليلة التي يدور الحوار فيها بين علماء مخلصين رائدهم الوحيد هو الوصول الى الحقيقة في ذاتها ، ولا غاية لهم وراء ذلك ولا مطمع . إذ ليس هناك بين الفريقين المتحاورين مواقف مشتركة يمكن التفاهم عليها سلفاً والانطلاق منها الى مواقف أخرى ومنها إلى غيرها وهكذا دواليك حتى يصلا الى الحقيقة الناصعة ، بل كل منهما متشبث بوجهة نظر معينة لا يحيد عنها ولا يريم ، كل منهما يُنحي باللائمة على الآخر ويتهمه بالجمود والتعنت والتعصب . ومن هنا التخبط والفوضى والتعسف في الرأي بين الفريقين . هذا ينفي ويمضي في النفي إلى نهايته ، وهذا يثبت ويمضي في الإثبات إلى غايته ، حتى لكأن كل فريق لا يسمع الفريق الآخر . إنه حوار على مستوى حوار الصم، أو هو شيء من هذا القبيل . فرغم جميع ما كُتب في إثبات الفكر العربي والشخصية الإسلامية والحضارة العربية الإسلامية ، فإن كثيراً من الباحثين لا يزالون يعتقدون أن هذه الألفاظ الأخيرة هي من قبيل الكلام المرصوف المنمَّق ، إنها عبارات فارغة جوفاء لا معنى لها . فلا فكر إلاَّ فكر اليونان ولا حضارة إلاَّ الحضارة الإغريقية الرومانية ، وكل ما عدا ذلك أوهام وسراب . وكذلك رغم كل ما كُتب في إنكار الفكر العربي والشخصية الإسلامية والحضارة العربية الإسلامية فإن كثيراً من الباحثين لا يزالون يؤمنون بعظمة هذا الفكر وأصالة هذه الشخصية ولا يشكُّون يوماً في روعة هذه الحضارة . وهكذا يظل الفريقان على طرفي نقيض وكأن كل ما قرأه كل منهما أو اطلع عليه لم يبدل شيئاً في اقتناعه . فيا ضيعة القراءة ويا ضيعة الثقافة إذا لم تكن مدخلاً الى التغيير واحقاق الحق وإبطال الباطل. إننا جميعاً على تفاوت بيننا بطبيعة الحال ـ نعاني من هذا التحجر في الفكر والتصلب في الرأي ، والإصرار على الموقف الواحد رغم جميع الدلائل التي تدعو الى التشكيك فيه . فكأن العلم جواهر للزينة وكأن الشهادة الأكاديمية مجرد ورقة مطبوعة لتُعلق على الجدران لا لتخترق الوجدان . لكل منا خطوطه الحمراء التي لا يستطيع العلم أن يتوغل بعدها قيد أنملة لكن هنا أيضاً ـ مع ذلك ـ تختلف معادن الرجال . وعلى كل حال إن هذا التشبث بالرأي من كلا

الجانبين يرجع الى عوامل متعددة أهمها الأفكار الثابتة والأهواء السياسية والتربية الشخصية والجو العائلي والايديولوجية الدينية والحساسية القومية وخلفيات أخرى تتصل بالهوية الإنسانية والحصانة الشخصية وما الى ذلك[1] . فلو أمكن إيجاد أسس مشتركة للتفاهم والحوار تضع حداً للنزاع القائم بين الفريقين ، إذن لخطونا الخطوة الأولى في سبيل إنشاء علم موضوعي في هذا الباب ، من شأنه أن يمنع بقدر الإمكان تسرب العوامل الذاتية والأهواء الشخصية الى الأحكام التي تصدر عن كل منهما . هنالك يصفو الجو وتتضح الرؤية ، وتهدأ الأعصاب . نحن في هيكل العلم ، وفي الهيكل يتفق الناس ولا يَخصِّمون . فلا شحناء ولا بغضاء بعد اليوم ، نحن بالوادي المقدس ، فليس في الوادي المقدس إلا الحب والود والوئام . إن النزاع لا يقع في العلوم الطبيعية ، إنه إنما يقع فقط في الفلسفة والعلوم الإنسانية ، بل في بعض العلوم الانسانية دون بعض ، ولا سيما ما اتصل منها بالسياسة ، والمشاعر القومية والأيديولوجية الدينية. فكيف عسانا نتغلب على هذه الصعوبات بغير العلم؟ العلم وحده هو الذي يرفع كل خلاف ويقطع كل نزاع ، وما عدا ذلك فمظنة الخلاف. ولكن كيف ننشيء هذا العلم؟ لا بد من خطة للعمل، لا بد من منهج للبحث، لا بد من علم للفكر. هنا تأخذ الدراسة الساخنة كل أبعادها .

ولن أحاول هنا أن أدعي حياداً كاذباً بين الاتجاهين ، فليس من شيمتي النفاق والتذبذب في الرأي ، بل سأحدد موقفي منذ الآن. فقد مضى عليّ وقت طويل ولا هاجس لي يقضّ مضجعي إلا هاجس الفكر العربي . فأنا من المؤمنين بالفكر العربي إيماناً لا حدَّ له . ولكن كيف عساي أنقل إيماني هذا الى الآخرين بغير الوسائل التقليدية . فقد لاحظت بمنتهى الحسرة والأسى أنه على الرغم من أن كل يوم تطلع فيه الشمس تُكتشف فيه وثائق وأسانيد من شأنها أن تزيد معرفتنا بالعرب وبالفكر العربي وعظمة هذا الفكر ، فإن أحداً من

---

(1) وقد عرضت لهذه المسألة الهامة من الشخصية الإنسانية عرضاً واسعاً في الفصل السابع من كتابي الفكر العربي في مخاضه الكبير وهو بعنوان (قوة الأفكار) صفحة 268-310 .

رجال الفريق الآخر لا يرضى بتعديل صورة وضع العرب التي اعتاد عليها . فكلما طلعت علينا الوثائق بمعلومات جديدة قللوا من أهميتها بحذلقتهم وقوة تحليلهم التي تشبه عملية تشقيق الشعر . فعلى من تقرأ مزاميرك يا داود ؟ أيُّ الفريقين أولى بالاتباع ؟ إن الأمر هنا لا يتقرر بموقف هذا الفريق أو ذاك ، إنه إنما يتقرر بتناول الحدث الذي هو موضع نزاع وهو ساخن بل وهو ملتهب يتفجر بالأحداث ويفجر الأحداث ، وهذه هي وظيفة السِّيْكوسوسيوديناميكا . فالحدث الكبير عندما يتفجر يشعل كل ما حوله ، وتتوالى الانفجارات بعد الانفجارات ، وتشتعل الحرائق ، بحيث إنه لا يكون التاريخ بعد الحدث هو نفسه قبل الحدث . لقد تبدلت الأرض غير الأرض والناس غير الناس ، مع أن جغرافية الأرض تظل هي الجغرافيا ، والمورفولوجيا البشرية تظل هي المورفولوجيا . ان التغييرات تكون عادةً على قدِّ الحدث فكلما كبُر الحدث عظمت التغييرات التي تنتج عنه ، لكن ذلك لا يمنع أبداً أن الحدث الصغير قد يفجر أحداثاً جساماً فتتولد عنه بالتالي تغييرات كبيرة ، بل هذا ما يحصل في كثير من الأحيان . فمعظم النار من مستصغر الشرر، كما يقول الشاعر العربي . والعكس صحيح أيضاً ، يعني أن الحدث الكبير قد لا يتولد عنه سوى فقاعات تتفجر في الهواء ، وينتهي كل شيء ، وهذا ما يحصل عند اغتيال الثورة . فهناك الثورة وهناك الثورة المضادة ، والحرب سجال بينهما ، والأقوى هو الذي ينعقد له لواءِ النصر .

لقد كان الاسلام ـ مثلاً ـ حدثاً فذاً في تاريخ الجزيرة العربية ، بل قل هو حدث الأحداث فيها . فلولا الإسلام ما وُجد الفكر العربي الإسلامي، ولولاه لاتخذ التاريخ العالمي مجرى آخر . فقد آثار الإسلام منطقة كاملة من الأرض تمتد من حدود الصين شرقاً إلى الأطلسي غرباً ، ومن بلاد الروم شمالاً حتى الخليج العربي جنوباً ، وطبعها بطابعه بسرعة تفوق الخيال . وكما يشق المحراث الأرض ويقلبها رأساً على عقب ، كذلك فعل الإسلام في عقول أهل هذه المنطقة وأفئدتهم، وقَلَب أوضاعها كلها حتى لجعل عاليها سافلها فاعتناق هذه المنطقة للإسلام لا يدل على مجرد القضاء على مجموعة من العادات

والأعراف والتقاليد والأنظمة التي كانت شائعة من قبل ، وإنما كان انقلاباً شاملاً في مُثُل الحياة القديمة، وتبدلاً عميقاً في المفاهيم والغايات وقيم الأشياء. فقد كان ظهور الإسلام حدثاً عالمياً ضخماً ترتبت عليه نتائج هائلة لم تقف عند الحدود الجغرافية للبلد الذي قد شهد بوادره الأولى ، بل تجاوزت هذه الحدود الى ما وراءها وظلت تفاعلاتها الفكرية والروحية تنتقل من قطر الى قطر ومن أفق الى أفق ، ومن عصر الى عصر حتى فرضت نفسها على تطور الفكر البشري والحضارة العالمية ، وأصبحت إحدى الظواهر الأساسية لحركة التاريخ ولتطور الحياة والمجتمع .

فبينما كان العربي الجاهلي يشكو من فراغ كبير في حياته ـ إذ كان عمله محصوراً في الغزو ورعي الإبل وممارسة قليل من الزراعة في بعض الواحات وتعاطي نوع بسيط من التجارة ـ إذا به بعد الإسلام يصبح مفسراً للقرآن ، أو جامعاً للحديث ، أو إماماً في المسجد ، أو طالباً للعلم ، أو موظفاً في الديوان ، أو مجاهداً في سبيل الله أو والياً أو قائداً في الجيش أو جابياً ، أو متكلماً أو محدثاً أو فقيهاً ، أو باحثاً ، أو مترجماً ، أو مؤرخاً أو أديباً أو محتسباً أو قصّاصاً أو مرشداً واعظاً ، أو مبشراً بالدين الجديد ، أو طبيباً ، أو كيميائياً . . . لقد بلغ هدير الجزيرة العربية الآن عنان السماء بعد أن لم يكن هدير ، لقد أصبحت الجزيرة كخلية النحل بعد أن كانت ركوداً وسأماً .

لقد كان العربي الجاهلي بلا أي تبعة أو مسؤولية فأصبح رجل التبعات والمسؤوليات الجسام . لقد كان بلا أمل فأصبح تداعبه الآمال والأحلام .

وبكلمة واحدة : لقد تبدل العربي غير العربي ، فقولوا لي بربكم هل عربي ما قبل الإسلام هو نفسه عربي الاسلام ؟ هل يستويان ؟

لقد استطاع محمد في جيل واحد من الزمان أن ينتصر في مئة معركة ، وفي قرن واحد أن ينشىء دولة عظمى ، وأن يبقى الى يومنا هذا قوة مؤثرة في سير الأحداث ومصير الإنسانية . لقد انتصرت جيوش من الأفكار وانهزمت جيوش ، وان في هذا الانتصار العجيب وهذه الهزيمة النكراء لعظمة لا تقل عما نجده في قصص أبطال الملاحم وصناع الخوارق ! ولو تجرد المرء من كل هوى للإسلام أو عليه ونظر الى الأمور نظراً موضوعياً خالصاً ـ وهو أمر صعب

جداً ولكنه ليس مستحيلاً ـ لأدرك أن الإسلام كان مبعث نهضة فكرية عظيمة شاركت في تجربة البشر الفلسفية والعلمية والحضارية مشاركة إيجابية فعّالة ، وأسهمت في تطور الوجدان الإنساني في الشرق والغرب ، فصار نتاجُها جزءاً لا ينفصل عن تراث النمو العقلي والعاطفي في الناس. وكذلك لو تجرد المرء من كل هوى مع الإسلام أو عليه لتحقق أن العصر الذي ظهرت فيه هذه الثورة كان من أغنى عصور التاريخ في شرف النفس والضمير وفي المشاعر الحية السامية . فلا يجوز لأحد أن يتحدث عن الرقي الإنساني دون أن يذكر الإسلام ، بينما هو يذكر الثورة الإغريقية والرومانية واليهودية والمسيحية وحتى البوذية ، ويقف عند ذلك ، فإذا تحدث عن الإسلام فإنما يتحدث عنه حينئذٍ على أساس أنه دين النكاح والطلاق وتعدد الزوجات وغير ذلك من السخافات والترهات التي لا يدل التعلق بها إلّا على السطحية والضحالة والتفاهة والعجز عن الغوص على المعاني والنفاذ إلى الأعماق .

وما كان الإسلام ليصبح أحد الأديان الكبرى في العالم ـ وبسرعة مذهلة ـ لو لم يتمتع بما هو عميق وأصيل وعظيم وفذ وقدرة خارقة على الاستجابة للحاجات والآمال والتطلعات لجميع المؤمنين، بل حتى لغير المؤمنين. فقد وهب البائسين والمعذبين والمحرومين والضعفاء العزاء والسّلوى والرجاء في حياة أفضل ، وجعل في أموال الأغنياء حقاً معلوماً للفقراء والمحتاجين. حتى إن المسلم لا يملك حق التصرف المطلق في ماله هو دون أن يحسب حساباً لحقوق الآخرين . ووعَد حتى أولئك الذين ذهبوا في المعاصي إلى حدِ الشطط بالعفو عنهم ونهاهم عن أن يقنطوا من رحمة الله ، فلا يقنط من رحمة الله إلا القوم الخاسرون . وأما العقول التي أقلقها طول البحث في المشاكل المعقدة كمشكلة أصل الكون والحياة والمصير . . . فقد جاءها بمجموعة من العقائد الغنية بالمعاني الميتافيزيقية التي ستكون نواة لكل تفكير فلسفي في الإسلام. فإذا لم يكن القرآن كتاباً فلسفياً فليس معنى ذلك أنه لم يكن ذا تأثير فعّال حاسم في الحركة الفلسفية وتطور التفكير الفلسفي . إن القرآن ليس فيه نظرية محدّدة واضحة في طبيعة الله والكون والحياة . . . على نحو ما نجد في كتب

الفلسفة ، لكنه مليء في الوقت ذاته بالأفكار والآراء التي تتصل بالله والكون والحياة . . إن لم تكن فلسفية بالمعنى الاصطلاحي . فإنها بما تنطوي عليه من كثافة ميتافيزيقية لا شك فيها قد استطاعت توجيه الفكر الفلسفي في الإسلام وجهة معينة ما كان ليتيحه لها لولا القرآن . فكل مفكر ، وكل عالم ، وكل فيلسوف سيحسب حساباً كبيراً للقرآن في كل ما يقول ويفكر ويكتب . ومن هنا فإن القرآن سيكون محوراً لحركات شتى دينيه وفلسفية واقتصادية و . . . ومنطلقاً لمدارس مختلفة في الفقة والتشريع والكلام والتاريخ والجغرافيا و . . . فكل عناية المسلمين كانت متجهة إليه قراءةً وترتيلاً وتعبداً وتدبُّراً . . . فقد درسوه آيةً آية ، وكلمة كلمة ، وفي بعض الأحيان حرفاً حرفاً ، بغيرة وتقوى وورع ربما كان لا نظير له بين المنقبين في النصوص الدينية . فأعدَّ هذا التحليل نفوسهم لتمرينات المناطقة وتحليلات الفلاسفة وبراهينهم . في ظله نشأت العلوم العربية والإسلامية المتنوعة . ومن أجله قامت ، وكانت علوم القرآن أول تأليف في الإسلام . فعنه ـ لا عن المذاهب الفلسفية ـ صدرت كل فرقة ، وفي سبيل فهمه قام كل مذهب . إنه كالساق من الشجرة قامت عليها الفروع وارتفعت البراعم والأغصان ، أو كالشمس دارت عليها الأفلاك . . .

وبذلك فإن المرء لا يستطيع أن يفكر أبداً بعد الاسلام كما كان يفكر قبل الإسلام . أبعاد شاسعة تفصل بين العهدين رغم تتاخمهما الزماني المكاني . لقد أقبل عهد وأدبر عهد ، هل يستويان مثلاً ؟ هكذا تفعل الثورات في الشعوب والأمم .

وهكذا ، ففي فترة قصيرة من حياة انسان ، انتفضت أمة ، وبرز دين ، وتفجرت قيم ومُثل ، وانتعشت آمال وأهداف ، في أرض قفر ووادٍ غير ذي زرع . وقد اكتملت لهذه الثورة البذور الأولى لثقافة جديدة ومذاهب فكرية رائدة جديدة ، وحضارة أصيلة عتيدة . وستأخذ هذه البذور المباركة في النمو والازدهار تبعاً للعوامل والقوى الداخلية التي تضطرم فيها وفي البيئات الإسلامية المختلفة ، وبما ينضم إليها من روافد خارجية تغذيها وتمدها كل يوم بدم جديد . ولن تزال كذلك حتى ترتفع ساقها وتؤتي ثمارها يانعةً مذاهب ومدارس.

وتيـارات من كـل نـوع ولـون ، تنشط في دمشق وبغـداد والقـاهـرة وقـرطبـة وسيراقوصة وبلارما . . .

ومع كل هذا الذي حدث وتفجّر بظهور الإسلام فإننـا نجد أرنست رينـان عميد حركة الاستشراق في فرنسا وأوروبا كلها في القرن التاسـع عشر يقـول في كتابة القيم. (**تاريخ اللغات الساميّة**) :

« من الخطأ وسوء الدلالـة بـالألفاظ على المعـاني أن يُطلق على فلسفـة اليونان المنقولة الى العربية لفظ فلسفة عربية ، مع أنـه لم يظهـر لهذه الفلسفـة في شبه جزيرة العرب مبادىء ولا مقدمات . فكل ما في الأمر أنها مكتوبـة بلغة عربية . ثم هي لم تزدهر إلا في النـواحي النائيـة عـن بلاد العـرب مثل إسبـانيا ومراكش وسمرقند ، وكان معظم أهلها من غير الساميين »(1) . إنه لا يزال يعتقد بحكم دراساته التقليدية الباردة ـ أن العرب بعد الاسلام هم أنفسهم العرب قبل الإسلام ، كأنما الإسلام كان حركة عابرة في تاريخ الجزيرة العربية .

كـلا إن عـرب الاسـلام ليسـوا هـم عـرب مـا قبـل الاسـلام . إنهم نتيجـة مخـاض سيكـوسـوسيـودينـاميكـا الإسـلام ، رغم مـا يبـدو من غـرابة على مضمـون هذا الكـلام . الأجسام هي الأجسـام ولكن العبـرة ليست بـالأجسام بـل بما ينبثق من معـانٍ وأفكار من هـذه الأجسام . الإنسـان بعقله لا بجسمه ، بآفاقه الفكرية لا بأنسجته اللحمانية ، بأبعاده الميتافيزيقية لا بأمشـاجه الترابية، بكثافته المعنوية لا بأثقاله المادية. الانسان شعاع من فكر لا ضحضاح من بدن ، وإن كان البدن ركناً للفكر وكان لا يغني بدن عن فكر . البدن كرسي للفكـر ولكن الكرسي هيهـات أن يشرئب ليـطاول الفكـر . هـذا من بـديهيـات سَيْكوسوسيودیناميكا الفكر .

من هـو أفلاطـون ؟ هل هـو اللحم والعظم أم هـو ذلك الصـانع العـظيم لأفكار عظيمة ؟ لقد مضى أفلاطون ـ اللحم والعظم ، ولكن أفلاطـون ـ الأفكار لا يزال بيننا ، وإلاّ فكيف عساي أفسر استمرار تأثيرة في نفسي ؟ كذلـك مضى

---

(1) Renan (Ernest): Histoire générale et système comparé des langues sémitiques. Paris, 2^e^ed. p.10.

برتراندرسل ـ اللحم والعظم منذ وقت قريب ، ولكـن برتراندرسل ـ الأفكار لا أزال أسائله وأناقشه وأستعينه وأعقد الحوار معه في كثير من القضايا العـويصة . لقد أدخلني في آفاقه ، وحلَّ لي معضلات ، وعَبَر بي الى مشـاهد ورؤى تفـوق الوصف ، وكلما قرأته أخرج منه بصيد جديد .

من هو آينشتين ؟ إنه أفكار آينشتين . وما هي أفكـار آينشتين ؟ إنها البؤرة التي اصـطرعت فيها ومن حـولها جميع الأفكار الكبيـرة في عصـره ، فـانتجت صيغة جديدة من الأفكار ومعادلات جديـدة . إنه لقـاء بين أفكار ، بـل مجابهـة أفكار لأفكار ، وتحدِّي أفكار لأفكـار . إنه جيـل كامـل من الأفكار . لـذلك لا يمكن دراسـة آينشتين إلاَّ بـدراسـة جهـاز كـامـل من الأفكـار ونـظام واسـع من الأفكار ، بحيث لا يجوز النظر إليه منعزلاً عن الإطار العام للأفكـار الذي نبغت فيه نابغتُه وتفجرت فيه أفكاره ، لا بـد من النظر إليـه من حيث أفكارُه الخـاصة وعـلاقتُها مـع غيرهـا من الأفكار ، ووظيفتُهـا في جملة البنـاء الفكـري العـام . وهكذا فالحديث عن آينشتين حديث ذو شجون . إنه حديث عن حركـة ضخمة هائلة من الأفكار العلمية والفلسفية والسيـاسية والتـاريخية . . فـآينشتين هو كـل هذا واكثر من هذا . إنه موكب من الأفكار ترتجُّ لـه النفس ويـرتجُّ له الكـون ، ويرتـجُّ لـه الوجـود . إنه زحمـة من المواقف والمشـاهـد والـرؤى والمـوحيـات والإيقـاعات . . . إنـه حشـد كـوني يـزحم أقـطار النفس وأقـطار الحس وأقـطار الخيـال . إنه يشبـه في صخبه وتـدفقـه بهـذه المشـاهـد والـرؤى والمـوحيـات والإيقاعات جيشان البحـر المتـدافع بـالأمواج المتـلاحقة ، مـا تكاد المـوجة تصل الى قرارها حتى تبـدو الموجة التالية ملاحقة لها ،متشابكة معها ، فتذوب في هذا الجيشان الزاخر المتـدفق الذي لا يقف عنـد حد . . . أوَ تقـولون بعـد هذا إن آينشتين هو البدن ؟ هل أنبئكم من هو البدن ؟ القزم هو البـدن ، الحقير هـو البدن ، الأبله هـو البدن ، الكلب هـو البدن ، البعـوض هـو البدن . فهنـاك العملاق وهناك القزم وبينهما درجات لا تُعد ولا تُحصى . كلما كبُر مقـام المرء كبرت أحلامـه واتسعت آفاقـه وتطلعـاته حتى لتـداني النجوم ، وكلمـا رثَّ رثَّتْ هذه حتى لكدتُ أعجز عن التمييز بينه وبين الحيوان الأعجم .

إن قصتي مع السَّيْكوسوسيودِيناميكا تعود الى تجربتي الجديدة مع الأفكار . فقد وضعت يدي على عالم لا أقول إنه غير معروف لنا . معاذ الله ! بل هو عالم نعرفه جميعاً ونتفاهم به جميعاً ، لكن لعلنا لم نتناوله بما يستحق من الرصانة والجدية. شدة القُرب حجاب. إنه عالم الأفكار. أجل هو عالم الأفكار ، فهل في هذا القول ما يدعو الى الإنكار ؟

لعل أحداً لا يصدق أن الأفكار لها عالمها الخاص ، اللهم إلاَّ أن يكون ذلك على سبيل المجاز ، أو على سبيل عالم المثل الأفلاطونية ، أو المثاليات الحديثة على اختلاف صورها وأشكالها . أنا لا أقصد أيَّ معنى من هذه المعاني ، وإلاَّ لبقيت في نطاق الشعر والفلسفة التقليدية دون أن أقدم مادة علمية جديدة . إن عالم الأفكار الذي أعنيه هنا هو عالم حقيقي واقعي ، بل لا يقل واقعية عن العالم الواقعي إن لم يكن أكثر منه واقعية وأرسخ وجوداً ، لأنه هو الذي يحكم عالمنا الإنساني ويوجه سيره ويسدد خطاه . فهو عالم مؤثر فعَّال يموج بالحركة والنشاط . فلا يحدث شيء في عالمنا البشري إلا بأمره . لا مُعقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه . إنه هو الذي يؤثر في عالم الأشياء ويتصرف فيه ويتناوله بالتغيير والتبديل . فلولاه لظل عالم الأشياء كما كان دائماً : دمية تتقاذفها الرياح والمصادفات وقوى الطبيعة الغاشمة . وعالم الأفكار هذا له صخبُه وجيشانه ، وله ضغوطه ومعادلاته وتوازناته ، وله اختلالاته وصراعاته وتوتراته ، وله قواعده وسننه وقوانينه . وهو يضغط علينا ويُسيِّرنا ويخترق وجودنا ويملأ علينا كياننا ودروب حياتنا . فليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، وإن كان الخبز لا بد منه لحياة الانسان . من الممكن أن نعبر عن عالم الأفكار بأنه عالم العقل. لكن هذه الكلمة ميتافيزيقية غامضة ، فضلاً عن أنها كلمة مستهلَكة فضفاضة غير دقيقة لا تنطوي على ما تنطوي عليه كلمة عالم الأفكار من خصوبة وتنوع وعينية وفاعلية ودينامية . فالفكرة هي سبب وشيء ، بل هي حقيقة ونظام طبيعي ووجود .

والأفراد هم صناع الأفكار . وأعني بالأفراد القادة والعلماء والفلاسفة والمخترعين والرواد والمستكشفين . . . فكل واحد من هؤلاء ينشر من حوله

جواً من الأفكار يزيد يوماً بعد يوم ، ويظل يزيد إلى غير نهاية . أي إنه لا يتوقف بموت صاحبه ، بل يزيد باستمرار بما يولِّد من أفكار جديدة . العظماء هم مولدو الأفكار ، أو قل هم مضخات للأفكار. هذه ميزتهم ، وهي سر تفوقهم ، فعملية توليد الأفكار أمر لو تعلمون عظيم ! وعندما تنطلق هذه الأفكار تنضم الى لداتها من الأفكار وإلى أجيال سابقة من الأفكار ، فتثيرها وتتفاعل وإياها وتضغط عليها بشتى الضغوط، وتتأثر بها وتؤثر فيها على أنحاء مختلفة وصور متباينة . وهكذا تتفاعل الأفكار ، وتصطرع الأفكار بالأفكار وتتلاقح الأفكار بالأفكار ، فتنشأ أفكار جديدة وتتولد أفكار جديدة تكون هي بدورها علة لنشوء أفكار جديدة . وهلم جراً .

أنا لا أتدخل هنا في النزاع بين هيغل وماركس : أيُّهما أسبق : الأفكار أم الأشياء ؟ هل الأفكار الحاصلة في الوعي هي مجرد انعكاسات للأشياء والأحداث أم هي مستقلة عنها ؟ إن هذه المسألة لا تهمني الآن . لقد عرضت عرضاً سريعاً منذ قليل ، كما فصَّلت القول فيها في كتاب آخر . فإن ما يهمني هنا هو حال الأفكار عندما تخرج من الذهن وتنضم الى أترابها من الأفكار الأخرى فتتفاعل معاً وتنشأ عن ذلك تنظيمات وعلاقات جديدة ، وبالتالي أجيال جديدة من الأفكار لم تكن من قبل . فالأفكار عندما تنطلق مني لم تعُد لي ، بل أصبحت مُلكاً لعالمها ، تابعة له ، خاضعة لقوانينه ، وهو عالم له خصائصه ومقولاته ونظمه وقوانينه ، التي تبلغ من القوة والجبروت بحيث تسحقني وتستتبعني وتجعلني فريسة لها، رغم أنها نفثة مني، كالرصاصة ترتدُّ على صاحبها من مسدس يلهو به فتقضي عليه .

هناك حاجة ماسة إلى الإحساس بالأفكار وتفاعلات الأفكار وديالكتيك الأفكار ، فالأفكار تتمتع بقوة ذاتية هائلة . إنها لا تخنقها المقاومة ولا تُرديها الخصومة ، بل إنها لتستكين تحت الضغط زمناً ما ، ثم لا تلبث أن تنفجر . إنها تفعل فعلها ببطء دائماً، صديقة كانت أم معادية. فلئن عارضها فريق وحمل عليها آخر ، فإن هذا لا يحول دون تأثيرها في أصدقائها وفي أعدائها على

السواء ، بل في أشد الناس هجوماً عليها . وعندما تنتشر فمن الصعب جداً ـ إن لم يكن من المستحيل ـ إخمادها أو القضاء عليها ، وهي في سيرها كثيراً ما تحارَب وتلاحَق ، ولكنها لا تُقهر إلا بأسلحة من جنسها ، أي بأفكار أقوى منها . . .

وهكذا فالأفكار تغزو ، وغزوها أشد فتكاً من الرصاص ، لأنها تدخل الآذان بلا استئذان ، وتخترق الحدود والسدود ، وتفرض على الأشخاص والمجتمعات حصاراً غير مرئي أقوى وأقسى من الحصار العسكري والاقتصادي . إن الفرد عندما تغزوه فكرة جديدة لها بريق بالنسبة إليه ، فإن ثورة حقيقية تنشب في رأسه ، ولا مفرَّ له حينذاك من أن يتطلع إلى آفاق جديدة ، ويتحول الى مفاهيم وشعارات وعقائد جديدة ، ويهيم بقيم وأهداف ومُثل جديدة ، فإذا به بين عشية وضحاها يغير ولاءه وتوجهاته ، ويحدث تبديلاً شاملاً في علاقاته الشخصية والاجتماعية والسياسية ، وبالتالي يصبح اليوم شخصاً آخر غيره بالأمس. ويتضح ذلك جلياً في الأخوين نشآ في بيت واحد، وتلقيا تربية واحدة ، فانتمى أحدهما الى حزبٍ ما ، وانتمى الثاني الى حزبٍ آخر . لقد أصبحت تفصل بينهما أبعاد شاسعة وحدود غير مرئية دونها الحدود الجغرافية والسياسية . فأصبح الالتقاء صعباً والتفاهم أمراً دونه خرط القتاد .

لماذا نتجاهل سيطرة الأفكار والقوة الهائلة التي تتمتع بها ؟ هناك أفكار تثيرني وأخرى لا تحرك بي ساكناً . هناك من الكتب ما أندم على الوقت الذي أضعته في قراءتها ، لكن هناك كتباً أخرى تجعل نفسي تموج كالبحر تلاطمت أثباجه فتُجهدني الهزات وتأخذني أخذاً عنيفاً ولا تفلتني أياماً متعاقبة . ورغم ما ألقاه فيها من أرق وقلق ونصَب وعذاب وغوائل الحيرة ، فإن عزيمتي على قراءتها تزداد قوة وشراسة ومضاء . لقد أضنتني ، وفي هذا الضنى غاية حبوري وسعادتي . فرغم كل ما ألقاه في قراءتها فقد أعيد قراءتها مثنى وثلاث ورباع . . . ما معنى هذا ؟ والغريب أن الأفكار التي تثيرني وتأخذ بتلابيبي قد تزيدني جوعاً الى جوعي وحرماناً الى ما أعاني من حرمان ، ومع

ذلك فإني أمضي فيها لا ألوي على شيء . قد أموت في الطريق ، وقد تتعرض أسـرتي للخطر ، وقـد يثنيني الكثيرون عن هـذا « الهَوس » ومـع ذلك فـإني لا أُنصت إلى أحد ! والعجيب أن هذه الأفكار ذاتها قد لا تحرك ساكناً في شخص آخر غيري . قد أقرأ كتاباً فأشعر بنشاط لم أعهده من قبل، بل قد أشعر بتغيير في كيـاني كله يقلب حياتي رأسـاً على عقب . لقد أثـارني الكتـاب وأوحى إليَّ مـا يوحى . لقد انثالت عليَّ المعاني بعد أن لم تكن تنثال ، ومـا فجَّر هـذا الانثيال إلاَّ قراءتي للكتاب. ولذلك فإنني على الدوام متعـطش للأفكـار ، وعلى موعـد مع الأفكار زادي الوحيد هو الأفكار ، وأملي الـوحيد هـو الأفكار ، ولا هـاجس لي إلاَّ هاجس الأفكار ، ولا يقـرُّ لي قرار إلا في حضـرة الأفكار ! أنـا وعاء بـلا قعر ولا جوانب ، وعاء لا يمتلىء ولن يمتلىء من الأفكار . دائماً أطلب المزيـد من الأفكار ، وإلاَّ فماذا عساي أن أكون بلا أفكار ؟!

أجل ، الإنسان هو أفكار الإنسـان ، ولا شيء غير الأفكـار . وأما البـدن فهو موطىء قدم للأفكار . فكلما اقتـرب المرء من عنصـر الأرض داسته القـدم بعد القدم ، لكنـه كلما سما الى الرأس أطـل على النجوم ، وكـان عرشـه على النجوم . فاختر لنفسك ما تشتهي : دودة الأرض أم سدَّةُ النجوم !!!

أفكار في أفكار ، من فوقها أفكار ومن تحتها أفكار ، حتى لكأننـا نغوص في عـالم من الأفكـار. هـذا هـو العـالم الإنسـاني. هـل أنـا واهم، رجعي، بورجوازي ، متصوف مثالي ، إلى آخر المعزوفـة ؟ هكذا يقـول الماركسيـون . ليكن. إن إلصـاق التهم بـالآخـرين لا يحـل مشكلة. إنـه فـرار منهـا . كلما قرأت ماركس أو لينين أشعر اني أمام رجل عملاق، أمام إشعاع ساطع يمنعني من الرؤية مدة طويلة بحيث إني لا أستطيع استئناف القراءة من جـديد إلاَّ بعـد فترة من الـراحـة . هنـاك شيء اختـرقني بـلا أي شـك ، وذهب الى حيث لا أدري مني ، يلتمس لنفسه مكاناً في مجاهل لا تتسع لها السموات والأرض ، واتسعتُ لها أنا المخلوق الحقير الذي يتناثر أمثالي كالتـراب على ظهر كـوكب واحد من كواكب عالم السموات والأرض. ما معنى كل هذا ؟ لا أدري . قد أكون حجر

شطرنج في لعبة أكبر مني ، قد أكون دُمية في ملحمة تُمثَّل على نطاق كوني . من أنا ، لست أدري ، لست أدري ! كل ما أستطيع أن أقوله إني مجموعة أفكار ، وبعبارة أخرى أنا مجموعة أفكاري أنا . ما معنى ذلك ؟ لا أدري أيضاً . فلا أوضح من كلمة (أنا) ، فإذا أردت توضيحها بكلمة أخرى كانت بالضرورة أقل وضوحاً . فالغامض ينكشف بما هو أقل منه غموضاً لا بما هو أمعن منه في الغموض . أسرار كثيرة تلف وجودنا وتكتنف حياتنا من كل جانب ، ولكن الإلف والعادة تحيل السر وضوحاً بل نبراساً من الوضوح والجلاء . وهكذا يستحيل الحجاب المانع من الرؤية سبيلاً إليها ، والظلام شعاعاً من النور !!! أسرار في أسرار ، وسر الأسرار ان أحداً لا يشعر بهذه الأسرار !

ولله در الغزالي حين يوصينا في مثل هذه الحال « أن يُعمل كمالُ الجد في الطلب ، حتى يُنتهى إلى طلب ما لا يُطلب ، فإن الأوليات ليست مطلوبة ، فإنها حاضرة ؛ والحاضر إذا طُلب فُقد واختفى . ومن طلب ما لا يُطلب فلا يُتّهم بالتقصير في طلب ما يُطلب »[1] ومعنى ذلك أن الباحث يجب عليه أن يبذل قصارى جهده في طلب الحقيقة واستقصائها في جميع مظانها ، حتى ينتهي الى الأوليات[2] التي لا يجوز طلبها لأنها حاضرة في النفس دائماً ، وإنما يجب طلب غيرها بها ، وإلاَّ تلاشت واضمحلت ، فهي الركيزة لما يأتي بعدها ولا ركيزة لها إلاَّ حضورها الحدسي المباشر في النفس وانكشافها بذاتها . فكل طلب لها وتعمق فيها يُعرِّضها للضياع والزوال . حكمة بالغة يراد بها حجب السر بدلاً من كشفه، وبعبارة أخرى إن كشفه لا يكون إلا بإسْدال الستار عليه. وبهذا المعنى ان الاعتراف بالجهل نوع من العلم ، ولا حيلة للانسان غير هذه الحيلة يخرج بها سليماً معافى لم يمسسه سوء! والويل لمن ينكشف له السر، ان الوجود كله عندئذٍ في خطر !

---

(1) المنقذ من الضلال ، صفحة 65

(2) الشعور بالأنا هو أيضاً من قبيل الأوليات .

إن الحاجة الى الأفكار كالحاجة الى الطعام والشراب . كلاهما يغذي : أحدهما يغذي اللحم والعظم ، والآخر يغذي الفكرة والمعنى . إن الفكرة قد تكون بمنزلة قطرة الماء للعطشان ، أو كاللقمة في فم إنسان يتضور جوعاً ، أو كحبة الدواء للمريض، بل قد تكون أيضاً كسم زُعاف يقتل إنساناً في تمام صحته . بعض الأفكار يلهب الإنسان ويفعل فيه فعل البركان ، وبعضها يكون عليه برداً وسلاماً . هناك أشخاص أتمنى لو أبقى معهم الدهر كله، وآخرون أودُّ لو أن بيني وبينهم بُعد ما بين السموات والأرض . هل لقبح هؤلاء وجمال أولئك ؟ كلا ، بل لفقر هؤلاء بمجموعة تهمني من الأفكار وغزارة أولئك بها . حتى الجمال لا قيمة له إذا لم يكن مصحوباً بشيء من الظرف وخفة الروح على الأقل ، وهما رهن بالأفكار والمعاني التي تضفي على الجمال هالة من السحر والفتنة والرُواء . فالجمال بلا هالة كجثة بلا روح . إنه في هذه الحالة جمال ممجوج ثقيل الظل إثمُه أكبر من نفعه . وهكذا ينقلب الجمال قبحاً . لقد كان سقراط أقبح أهل أثينا ، ومع ذلك فقد تعلق به جيل كامل من شباب أثينا ، حتى إن ركناً كبيراً من أركان الارستقراطية في هذه المدينة ، وهو أفلاطون الذي كان يُعدُّ نفسه لمناصب هامة فيها ، قد هجر المال والجاه والحكم ليتبع رجلًا أشعث أغبر حافي القدمين . وما أمر الجاحظ عنا ببعيد . كلاهما قبيح كوجه الضفدع ، وكلاهما كان صانع أفكار ، وهذا حسبُه ليلتف الناس من حوله ويكون لهم أسوة وقدوة وإماماً . لقد كان كل منهما ـ ولا سيما الأول ـ مركزاً لإشعاع قوي انتهى به الى مبلغ هو من السحر بحيث لا يصفه لسان ولا يقوم به بيان ، لأنه من معدن غير معدن هذا العالم ومن طور غير طوره. لقد انقلب القبح حسناً والدمامة جمالاً . بالمعاني التي انثالت والحِكَم التي تفجرت ، وكان ذلك كله ينصبُّ مدراراً على القوى العقلية والروحية للقوم ، فيربي الأخلاق والمشاعر ، وينشىء العقول والأفهام ، ويهب القادرين الطاقات المبدعة الخلاقة . وبالتالي إن نظاماً جديداً من الأفكار وعلاقات الأفكار وقد بدت طلائعه . لقد هبَّت رياح التغيير ، فلا تغيير بلا لواقح من التفكير ، وكل مطلب بعد ذلك فليس بالأمر العسير .

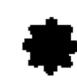
الأفكار لا تموت بموت أصحابها ، بل هي تبقى بعدهم زمناً يطول أو

يقصر . وما يقرر بقاءها أو عدمه معركـة تنازع البقـاء فيما بينهـا . فهناك معـارك بين الأفكار كما بين الأشخاص ، وهناك المنتصر والمهزوم .

هناك أفكار سـابقة على عصـرها وأخـرى متخلفة عنـه ، وأخرى معـاصرة له ، ولا يبقى إلاّ الصالح للبقاء والقادر على البقاء . ولا تُهزم الأفكار بسهولة ، والأفكار عندما تُهزم لا تفقد تأثيرها جملةً واحدة .

إن أي إصـلاح لا يكون بغيـر أفكـار ولا سبيـل إليـه إلا بقُـوى الأفكـار . وكذلك النهضات والثورات . فاذا أردت أن تكون مصلحاً فعليك أن تبث فيمن حولك الأفكار وأن تكون منطلقاً لجيل جديد من الأفكار ، وإن نجاحك مـرهون بمـا تضخ من أفكـار وبنوع هـذه الأفكار ، وقـدرتها على لفت الأنـظار وجـذب الأبصار ، والعمل دأباً ليل نهار .

والأفكار أداتها اللغة . فالمفكر الجيد يهتم بصقل العبارة اهتمـامه بصقـل الفكـرة وإنضاجهـا ، أو هـذا مـا ينبغي أن يكـون . فليت شعـري ! كيف تؤدي الألفـاظ أغراضهـا إذا لم يحسن صاحبهـا اختيـارهـا ؟ إذا لم يعـرضهـا في حلة قشيبة ؟ الألفاظ أردية الأفكار ، تجمل بجمالهـا وتقبح بقبحهـا . لا يجوز بـذل الأفكار عارية إلا لضرورة حازبة ، بل يجب أن ترفل بزينتها ما استطاع صاحبهـا الى ذلـك سبيـلاً ، كيـلا يُثقـل ضميـره بـآثـام جسـام في حق روح الـوضـوح المقـدسة . ومـع ذلك فـإن المفكرين ليسـوا لسوء الحظ على درجـة واحدة من العناية بالألفاظ والتـأنق فيها لا لمجـرد التأنق ، بـل لتحقيق الأغراض المـطلوبة منهـا . إن الأمر على مـا يبدو لا يعـدو أن يكون مـوهبة خـاصـة ، والمـواهب ـ بحكم التعـريف ـ تـوهب لأشخـاص دون غيـرهم . فمـا أجمـل الانسـان إذا اجتمع له القلم والكَلِم والفكر واللسان ، إنه لعمري نادرة الزمان ، ولكن إيتوني بربكم بذلك الانسان !



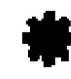
أفننكر بعد كل هذا حقيقة الأفكار ، وفاعلية الأفكـار ، والطاقـة المختزنـة

في الأفكار؟ أجل إن الأفكار شحنات من الطاقة تفعل بذاتها ، وأهم خاصية لهذه الشحنات تختلف بها عن أشكال الطاقة المعروفة ، إنها تنمو وتزيد بالاحتكاك . وهذا ما كان أجدادنا يقصدونه بقولهم : « العلم ينبت بين اثنين » . كما إنها أيضاً شحنات غير كمية ولا تخضع للكم والعمليات الكمية ، أو قل هذا ما يبدو لي الآن على الأقل . إنها شحنات كيفية تختلف عن الشحنات المعهودة في عالم الفيزياء . ولها ضغوط وتوترات وتفاعلات و . . . غير تلك التي نعرفها . فإن إضافة فكرة إلى فكرة ليست أبداً إضافة عددية ، إنها إضافة كيفية ديا لكتيكية تحدث تغييراً شاملاً فيها وفيما حولها وفي البناء الفكري كله. فإذا كان (1 + 1 = 2) في عالم الأشياء، فإن (1 + 1) قد يكونان أدنى من ذلك أو أكبر في عالم الأفكار ، حيث قد يساوي (الواحد) مليوناً والمليون (واحداً) . فإن الدقة مطلوبة في كل مكان إلا ههنا . ليس هناك حتى الآن جهاز يستطيع قياس إضافات الأفكار وضغوط الأفكار ، وسيول الأفكار ، وشحنات الأفكار ، وما ذلك إلا أنها لا تخضع ـ على ما يبدو ـ لقانون العدد . إن رسام الدماغ الكهربائي électro-eneéphalographe ليس جهازاً لقياس الأفكار ، وإنما هو يقيس التغيرات الكهربائية التي تحصل في الدماغ مصاحبةً لبعض التغيرات العصبية والنفسية . إنه بعيد عن مملكة الأفكار وان كانت الأفكار هي المسؤولة الأولى عن جميع هذه التغيرات . فبينه وبين الأفكار برزخ ليس من الممكن عبوره ، وإلاّ فهل يستطيع هذا الجهاز يا تُرى أن يقيس التغيرات والتبدلات التي حدثت في كياني عند قراءتي لكتاب (معنى النسبية)[1] لإلبرت آينشتين مثلاً ؟ لقد تمكن آينشتين في هذا الكتاب أن يصلني به ، أن ينفث فيَّ روحه كيانه ومعنى وجوده . لقد نفخ فيَّ أفكاره . لقد سرق وقتي ، وسرق انتباهي ، وسرق مشاعري ، وأحسست كأني أشاركه قراءة الكتاب ، بل وصناعة الكتاب . لقد وجدتُ نفسي وأنا أقرؤه أني حيال رجل حي غير عادي ، بكل ما في الحياة من حركة وجيشان وديناميية ، لا حيال

The Meaning of Relatevity (1)

سطور على الورق . قليلة هي الكتب التي تحدث فيَّ مثل هذا التأثير . لقد أحسست سرَّ العبقرية تتجسد في كل صفحة ، بل ربما في كل كلمة من هذا الكتاب . فأي جهاز يمكنه تسجيل كل تلك المشاعر والأحساسيس ؟ أي جهاز يمكنه أن يفرق بين كتب الكبار وكتب الأقزام ؟ الكتب المضغوطة بالأفكار والكتب المضغوطة بالأوراق ؟ هل يستويان ؟

هذه الأفكار ، هذه الشحنات ، هذه النبضات ، هذه الطاقات ، لها عالمُها الخاص الفريد . وهذا العالم يختلف تمركزاً وكثافة وتوتراً من مكان إلى آخر ، ولكنه في بؤر الاشعاع على أشده . فهو ينتصب في كل مكان تستفحل الحضارة فيه ويستبحر العمران. والغريب أن هذا العالم يزيد ولا ينقص أبداً . إن البئر تنضب ولكن الأفكار لا تنضب . نعم الماء يجف والأفكار تجف ، ولكن الماء يجف لكثرة الاستنزاف والاستهلاك ، وأما الأفكار فتزيد بالاستنزاف ، ولجفافها عوامل أخرى غير الاستنزاف ولا شأن لها بالاستنزاف أبداً .



فإذا اتفقنا على وجود عالم الأفكار ، لا بالمعنى الميتافيزيقي أو المجازي أو المثالي ، بل بالمعنى الحسي العياني الذي يفترض الضغط والتوتر والتدافع والصراع والتفاعل ، والتوازن والاختلال ، والتجاذب والتنافر والانتشار والانحسار والتلاقح والتوالد . ـ أقول إذا اتفقنا على وجود هذا العالم الذي يحلو لي أن اطلق عليه اسم سُلّم التعبئة السَّيْكوسوسيودينامية ، وعرفنا أن له مراكزه ومواسمه وقوانين عمله كما لعالم الأشياء سواء بسواء ، عندئذٍ يكون من السهل التفاهم على نقاط مشتركة بين المؤمنين بالفكر العربي الإسلامي والمنكرين له . هناك تضيق مسافة الخُلف بين الفريقين . فإذا رأينا هذا العالم ينتصب في الجزيرة العربية في القرن السابع للميلاد ، ويرتفع من مركز الى آخر من مراكز العالم العربي الإسلامي وهو يزداد كل يوم ارتفاعاً ووهجاً ـ إذا تحققنا من هذا الانتصاب واستقصينا أحواله ، وقارناه بعوالم أخرى انتصبت قبل ذلك

في بـلاد اليونـان ، وستنتصب بعد ذلـك في عصر النهضـة بأوروبـا ثم بأمـريكا والإتحاد السوفيـاتي ، وإذا علمنا أن لانتصـابه عـلاقات مبـاشرة مـع تقدم العلم والفكر والمعرفـة ، وإذا ثبت لنا أن هـذه العوالم هي فيمـا بينها أشبـه من الماء بـالماء ، عنـدئذٍ يكـون من السخف والمكابـرة رفض بعض هذه العـوالم وقبول العوالم الأخرى، لاعتبارات سياسية وقومية ودينية. فإما أن تُقبل جميعاً أو ترفض جميعـاً . هنالـك يقل تحكم العـامل الـذاتي ، ويبقى على القوى المـوضوعيـة السْيكوسوسيودينامية وحدها أن تبتَّ في أمر وجود ـ أو عدم وجود ـ الفكر العربي أو الفكر الهندي ، أو أي فكر آخر يكون محلاً للنزاع والجدل . فبـالأفكار إنمـا ترتفع الأمم وتسمو وتُحلّق وتنتشر في الأرجاء والآفاق ، وويـل لمن قلَّ زاده من الأفكار وشحنات الأفكار ونبضات الأفكار .

جيوش من هذه الأفكـار ، من هذه الشحنـات ، من هذه النبضـات ، من هذه الطاقات الهائلة، اكتسحت الجزيرة العربية في أوائل القرن السابع للميلاد .

فلقد جاء محمد عليه السلام بفيض زاخر من الأفكار وأنشأ عـالماً جيـاشاً يموج بالأفكار وقوى الأفكار . . . إنه لم يكن وحيداً ، بل لقد استطاع أن ينجب مدرسة كاملة من القادة والرادة والعظماء جـاء كل منهم بفيض زاخـرٍ من الأفكار وتفجرت عبقريته عن جيل جديد من الأفكار . فالاسـلام كما قلنـا وكما سنـرى في حينه كشاف للمواهب التي برزت الى السطح جملةً واحدة بمجيء الإسـلام وانبثاق عصر الاسلام. وهكذا تفعل الثورات في الأمم، وهكـذا تكون عصـور الثورات. سيل جارف من الأفكار وقوى الأفكار غمر الجزيرة العربيـة والمنطقـة المحيطة بها ثم انساح الى بعيد بعيد . إذا كان الماء يغيض بكثرة النـزح ، فإن نزح الأفكار يـزيدهـا كما قلنـا مداً وتـدفقاً . . . فـالطوفـان العرِم فجـر سيولاً ، والسيـول سيولاً وسيـولاً على قانـون مقرر ونـظام مرسـوم . وظلت هذه العملية مستمـرة الى أجـل مسمى أخـذت بعـده بـالانكمـاش والنضـوب لعـوامـل سَيْكوسوسيودينامية صرف سنقف عليها في حينه لا دخل للنزح فيهـا في قليل أو كثير .

ها هي ذي أمامنا متفجرات من الأفكار . مَنْ صنع هذه الأفكار ؟ كـل منا

ينسبها الى قومه وعشيرته . هذا يقول إنها من صنع يوناني ، ونحن نقول إنها من صنع عربي ، وثالث يقول غير ذلك . هناك جدول كبير من الماء . فريق يقول إن هذا الجدول قد تفجر في أرضه ، ويقول فريق آخر لا بل نبع في أرضه هو . والحق أن كلاً منهما له نصيب في هذا الماء . إلا أنه لما كانت الينابيع الظاهرة على أرض أحدهما أكثر منها على الأرض المجاورة ، فإنه ينسب الجدول أو جُله الى أرضه، مع أن الينابيع قد تكون ظاهرة دائماً بل قد تكون خفية تصب في المجرى الكبير . فإذا مسحنا أرض الفريقين ونقّبنا في الوادي كله ، فلربما اكتشفنا أن الينابيع الخفية في أرض أحدهما أكثر عدداً واغزر ماء منها في الأرض الأخرى التي يتفجر فيها عدد أكبر من الينابيع المكشوفة الظاهرة للعيان . فلولا هذا المسح ، ولولا هذا التنقيب لظل كل منهما متشبثاً برأيه . لقد وضعت عملية المسح والتنقيب حداً للنزاع وقطعت كل خلاف . هذا إذا كان الفريقان متكافئين في القوة ، وويل للضعيف ولو كانت جميع الينابيع تتفجر في أرضه ، فهي لن تُغني عنه من صاحب الحَوْل والطَّوْل شيئاً .

هكذا تسهم السَّيكوسوسيوديناميكا في عملية مسح الأفكار والتنقيب عن الأفكار ومصادر الأفكار، كيف لا وهي التي ترافق حركة الأفكار وتتبع نشأة الأفكار وعملية توليد الأفكار وصناعة الأفكار . فإذا فحصنا هذه الأفكار فكرة فكرة ، وتتبعناها من لدن نشأتها ، ومنذ أن كانت جنيناً ، حتى أصبحت مخلوقاً كاملاً ، والمخلوق الواحد جيلاً من الخلق ، والجيل أجيالاً وأجيالاً ، وعرفنا قوانين ذلك كله ، وإذا فعلنا ذلك أيضاً في الفكر اليوناني والفكر العربي الاسلامي والفكر الأوروبي ، ورأينا أوجه التشابه والاختلاف بين هذه العوالم الثلاثة ، وأن التشابه إنما هو تشابه في الأصول والكليات وأن الاختلاف هو في الفروع والتفاصيل والجزئيات ـ إذا فعلنا ذلك رأينا قوانين واحدة تسود هذه العوالم جميعاً ، وأدركنا أن ظروفاً خارجية صرفاً لا مدخل لها في الأساس البنيوي والتكوين الداخلي هي التي فرقت بين العوالم وجعلتها ثلاثة بعد أن كانت عالماً واحداً له طبيعة واحدة لا تنافر فيها ولا نشاز ، ولا ميزة لأحد جوانبها على الجوانب الأخرى ، مهما بدا من اختلاف بينها . هنالك نرمي

المزيفين والمشككين والمرجفين والشعوبيين ـ الذين دأبهم النيل من الفكر العربي الإسلامي ـ لا بحجرٍ واحدٍ عادي بل بحجارة من سجيل وشواظ من نار تحرق ألسنتهم وأفواههم ، وتردُّ كيدهم الى نحورهم وتقول لهم : موتوا بغيظكم ، فالفكر العربي الاسلامي فكر حي عملاق ، لا يقل في ذلك عن أي فكر عالمي آخر . وستذكرون ما أقول لكم ، وسيعلم الذين ظلموا هذا الفكر أو جحدوه واستخفوا قومه وإنجازاته ، سيعلم هؤلاء جميعاً أي منقلب ينقلبون !

المشككون في الفكر العربي والحضارة الإسلامية والمنجزات العربية الاسلامية ، لا يرون إلاَّ اليونان وجهود اليونان في تكوين الحضارة الانسانية . وجاءت السياسة والقوة والمال وهيبة الغرب لتعزز هذه الشكوك وتؤجج نارها . فكلما قلنا لهم إن هذه الحضارة من صنع العرب والمسلمين كما هي من صنع اليونان والرومان وأخلافهم الأوروبيين والأمريكيين ـ كلما قلنا لهم ذلك جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وصرخوا بملء أفواههم قائلين: لا، بل هي من صنع الغرب والحضارة الغربية وحدها . ولو جئناهم بكل آية وأتيناهم بالوثائق والأسانيد والمخطوطات التي تطلع علينا كل يوم بجديد ـ وهذا ما يقوم به علماؤنا ومفكرونا ، بل ويسهم فيه علماؤهم أيضاً ـ لشككوا فيها وضللّوا ، وانتحلوا شتى الأعذار والذرائع وغالطوا ، بل لجُّوا في طغيانهم يعمهون ! نعم فيهم المنصفون وفيهم الصادقون ، ولكنهم قلة لا يزالون عاجزين عن التصدي للتيار السائد وخلق تيار معاكس رغم تقدم الدراسات الاستشراقية يوماً بعد يوم . إنهم لا يزالون عاجزين عن الإعلان عن ذاتهم إلا بشق النفس . لقد ظلوا غرباء في عقر دارهم ، فلم يؤثروا ولم يتفاعلوا كأنهم نشاز في سمفونية رائعة . إحتقار شديد لكل ما هو غير غربي أو لا يمتُّ للغرب بنسب . غرور القوة وكبرياء الصولجان وعتُو السلطان الغاصب ، ولا يحيق المكر السيء إلاَّ بأهله ، فلا تأس على القوم الظالمين !

هناك حاجة شديدة ماسة لعملية مسح وتنقيب تعطي ما لله وما لقيصر لقيصر ، ويومئذٍ يفرح المؤمنون. والسّيْكوسوسيوديناميكا هي ـ بزعمي ـ الأداة التقنية الوحيدة المؤهلة في هذا السبيل . وإنه ليسعدني كثيراً أن أضم جهودي

المتواضعة الى جهود المخلصين الخيرين للقيام بعملية من هذا القبيل تضع حداً للعربدة الغربية المدعومة بالامبريالية والصهيونية العالمية ، وللتمزق العربي الذي يغذي ـ بغباء ـ هذه العربدة ويعطيها كل يوم دفعة جديدة ومبررات جديدة وحقوقاً جديدة ، وأبعاداً وآفاقاً جديدة . . . يجب علينا جميعاً أن نتصدى لمواجهة الحملة الصليبية الجديدة بلا هوادة . إن إغلاق الموضوع وصعوبة مسالكه لا ينبغي أن يحملا الباحثين على الإحجام عنه، أو تهيب الكتابة فيه، تجنباً للنصب وتفادياً للتعب. إن مهمة العلماء العرب هي أولاً وقبل كل شيء تذليل الصعاب ومعالجة المشاكل على قدر ما تتسع له طاقاتهم، وليست مهمتهم أبداً السير دائماً في طريق معبَّد ومسلك رحب فسيح . هناك صعوبات كثيرة ستعترضنا في مراحل الطريق ، ولكن الصعاب ـ كقمم الجبال الشماء ـ لم توجد لنتقيها بل لنرتقيها، والمعضلات إنما خُلقت لتقوية العضلات لا للركون الى الملذات. فكلما زادت القمم علواً وسموقاً زاد تشوق الانسان إلى بلوغ السَّنام . فصعوبة هذا العمل ليست حجة على من يحاوله وإنما هي حجة له . وسأدلي بدلولي بين الدلاء ، وليُدْلِ كل منا بدلوه ، لأن الحق ملك مشاع للمجتمع ، فلا يجوز أن يحتكره فرد واحد . وهو شبيه بحجر كريم من الماس له وجوه كثيرة ، لكل وجه منها شعاع خاص . وكلما كبر حجمه وعظم قدره تعذَّر على شخص واحد أن يراه كله في وقت واحد، أو أن يلم به بنظرة شاملة .

الأفكار قوة وفاعلية ونشاط وضغط ونبض وتوتر وجيشان . . . إنها ليست مجرد ظاهرات ملحقة بغيرها، بل غيرها إنما هو ملتحق بها تابع لها دون أن ينفي ذلك أن تكون في بعض الحالات انعكاساً لواقع معين . إنها في أساس السياسة والاقتصاد والاجتماع والجنس و . . . نعم يمكن بشيء من التمحُّل والحذلقة والافتعال والتحليل والتنقير والبهلوانية الجدلية أن نجد أساساً اقتصادياً لما لا شأن له بالاقتصاد ، وأساساً جنسياً لما لا شأن له بالجنس ، وأصلاً بيئياً أو مناخياً لما لا دخل للبيئة أو المناخ فيه ، ومنزعاً إجتماعياً لما لا صلة له بالاجتماع . . . لا حدود لقدرة العقل على التزييف والتزوير وافتعال الأسباب

والأسس ، لا حدود لقدرة العقل على نفي أي شيء وأثبات أي شيء . وهل الفلسفة في أحد معانيها إلا تعبير عن هذه القدرة الفذة ؟ ألا ينطلق الفلاسفة من معطيات واحدة ثم يصلون منها الى نتائج متناقضة ؟ والماركسية مثلاً هي إحدى هذه الفلسفات ، فرغم ادعائها أنها علم فهي لا تزال فلسفة . إن القول بأن الماركسية علم فيه جهل بالعلم وسوء فهم لطبيعته ووظيفته . فالعلم إنما يقتصر على وصف الظواهر واكتشاف شبكة العلاقات بينهما للوصول الى القانون الكلي . إنه لا يقول شيئاً لصالح الماركسية أو الرأسمالية ، إنه لا يحدد ولا يقترح أي أهداف إنسانية ، وإنما هو ذاته مشروط بالأهداف المحددة سلفاً . ثم إن العلم ليس فيه مذاهب ومدارس وإنما هو مذهب واحد ومدرسة واحدة إذا صح إطلاق مذهب أو مدرسة على العلم . نعم هناك مذاهب في فلسفة العلم لكن لا مذاهب في العلم . فلو كانت الماركسية علماً لانعقد الإجماع عليها ولما حصل أي خلاف بشانها . العلم يقطع كل خلاف ويحسم كل نزاع . الماركسية عقيدة، إيمان ايديولوجية وفلسفة . إنها نظرة مادية الى الكون والتاريخ والحياة يقابلها نظرات أخرى غير مادية لا يُسبر غورها ولا يُحصى عديدها . لقد آمن ماركس بالشيوعية أولاً ثم راح بعد ذلك يسخر العقل لإثبات هذا الايمان كما يفعل أي فيلسوف . إننا هنا أمام رؤيا لا أمام معرفة علمية . هذا رد عام دون الدخول في التفاصيل . المهم أن العقل قادر على الدفاع عن أي شيء مهما كان غريباً مستهجناً بعيداً عن التصديق . إيتني بمجنون وأنا قادر على اكتشاف حكمة الأولين والآخرين في كل كلمة ينطق بها لو كانت لي مصلحة في ذلك ! ولماذا نذهب بعيداً ؟ ألا ترى العمالقة أقزاماً عندما يتصدون لتفسير النصوص المقدسة ، فيضفون عليها من المعاني والدلالات ما لم يخطر للآلهة التي أوحت بهذه النصوص على بال ! والأبرع في التفسير هو الذي يغوص أكثر من أخيه ليخرج بعجائب يحسده عليها أخوه ! كم ضاعت في القرون الوسطى عبقريات في سفاسف تثير ضحكنا اليوم بينما كانت في زمانها صورة لحكمة عميقة تُشد اليها الرحال وتسير بها الركبان . ما أتفه الإنسان وما أعظم الإنسان ! عجيب حقاً أمر هذا الإنسان !

هذا وجه من وجوه عبقرية الإنسان وعظمة الإنسان ومرونة عقل الإنسان ،

وقدرته الهائلة على تزوير الأشياء وتغيير معالم الأشياء وتوجيهها لأغراض ومآرب دون أخرى . كم جعل هذا العقل الشيء التافه عظيماً وأعطاه حجماً ليس له ؟ فإنه « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان »[1].

هذا فضلاً عن أن هناك نزعة أبدية في الفلسفة الى رد الواقع الى أحد عناصره ، والنظر الى العناصر الأخرى على أنها مستتبعة له داخلة في نطاقه ، تستمد حقيقتها من حقيقته . . هذا هو الروح المذهبي تتجلى له أشياء أكثر من أشياء فيسلط عليها من الأضواء بمقدار ما يحجب عن غيرها كما في الماركسية والفرويدية وغير ذلك . وللروح المذهبي مضاره كما له منافعه . فأهم مضاره أنه لا يرى من الحقيقة إلاَّ جانباً واحداً يُلحُّ على أهميته دون الجوانب الأخرى بل يُدخل الجوانب الأخرى كلها فيه . وأمّا منفعته الأساسية فتكمن في أنه يلفت النظر الى جانب كان مجهولاً من قبل ، أو على الأقل كان في الظل . فباكتشاف هذا الجانب وتحليله وتسليط الأضواء عليه وبالتغلغل فيه وسبر أغواره العميقة لا بد من الوصول الى نتائج هامة تؤدي خدمة كبيرة للعلم . فبدراستنا لمختلف المذاهب والآراء المتعارضة نُسقط أشياء ونستبقي أشياء، ونضيف ونحذف ، ونزيد ونُنقص، ونقارن ونعارض ونستنتج ونستقرىء. . . وبذلك تكتمل الدراسة وتستتم ، وتغتني المعرفة ويتقدم العلم . وهكذا نضع أيدينا على القانون الكلي ونكتشف حقائق جديدة لم تكن بالحسبان . فلولا إلحاح كارل ماركس على أهمية العامل الإقتصادي في عملية التاريخ والتطور المادي والروحي لما وصلت الدراسات الاقتصادية إلى ما وصلت اليه في الوقت الحاضر حتى لكاد الاقتصاد أن يكون علماً كسائر العلوم الأخرى . وكذلك لولا توكيد سيغموند فرويد لأولوية عامل الجنس، ولولا اكتشافه للاَّشعور لما ظهرت مدارس التحليل النفسي ولما دخل الحلبة فُرسان آخرون تتلمذوا على فرويد أولاً ثم انفصلوا عنه وطلعوا علينا باكتشافات جديدة . وعلى هذا المنوال فتح

(1) هذا عنوان الفصل الخامس من كتابنا الفكر العربي في مخاضه الكبير استوفينا فيه القول في هذه المسألة وأشبعناها فيما نزعم بحثاً وتمحيصاً . إنها تعبر عما أسميناه «البحث عن المعنى وأعطاء معنى لما ليس له معنى » .

أوغيست كـومت باب علم الإجتمـاع على مصراعيـه فدخله من بعـده الداخلون وخرج كل منهم بدُرٍّ جديد . وانضمَّ الدُّر إلى الـدُّر حتى انتظم الـدُّر وتألف في السلك واتسق . وقريباً سيكتمل العقد أو يكاد . وهكذا الأمـر في كل علم علم حتى ينضج العلم ويقف على رجليه . فـالروح المـذهبي بل التعصب المـذهبي هو الأساس في كل فلسفة وعلم . فالمذهبية هي أم العلمية ولا علم بلا مذاهب واختلافات تمهد لنشأة العلم . فلو لم يكن للمذهبية إلاَّ هذه المزيـة ، فناهيـك بها نفعاً ، فكيف إذا انضمت إليها مزايا أخرى فحققت مآرب أخرى ؟!

الفصـــل الثـــالث

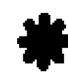
عظمة الفكر العربي

الفكـر العـربي عـالم رحب متسـع الأكنـاف ، متـرامي الأطـراف ، كثيـر الآفـاق ، متعدد الأحقـاب والأجيال ، لا يكـاد المتأمـل يمد اليـه بصـره ليـرتـاد مجاهله ويقتحم معاقله وشعابه حتى يشعر بالإشفاق على نفسه لما يهولـه فيه من ضـوء وظلام ، وزحـام وفراغ ، وانسجـام واضطراب ، ومـا يموج فيـه من هرج ومرج ، وقبض وبسط ، وتسخين وتبريد ، وتصعيد وتصويب . . .

عجيب أمر هذا الفكر سواء في مخاضه ونشأته أو في انتكاساته وهزائمه ، أو في كثرة ما كُتب عنه قديمـاً وحديثـاً في الشرق والغـرب من صفحات ، ومـا وصل إلينا عنه من رُقَم ونقوش . والأغربُ من ذلك حمـلات التجني والتشكيك التي شُنت عليـه منذ أبصـر النور ولا تـزال تُشنّ حتى يـوم النـاس هـذا ، وهي حملات ظالمة مسعورة لم تتوقف حتى وهو في فيض جـــوده وعطائه. والأنكى من ذلـك أن أشد الحمـلات تعصباً عليـه قد شنّهـا أولئك الـذين ورثوا رفـده ، وانتقل اليهم دفؤه ، وأقاموا بنيانهم على جهوده وكدِّ يده !

هذا الفكر واسع سعة العوالم التي انتشر فيهـا والآفاق التي أطـل عليها ، والبيئات التي نهل منها وأعطاها . وكانت تفاعلات وكـانت انتفاضـات ، وكانت ردات ونكســات . فكيف يتسنى للدارس أن يتنـاول ذلـك كله ليعـرف طبيعتــه ويقف على معالمه وأسراره دون أن يصيبه الدوار وهو تائه يُطلّ من شوامخه ، أو يتسكـع في سفوحـه ، أو يضلّ طـريقه بين شعـابه ومنعـطفاتـه ؟ وهنا تضـطرب

الأحكـام وتلتبس المواقف . فمن لا يـرى إلاّ شوامخـه يتعصب له فيخلع عليـه أعظم الصفات حتى ليفضله على كـل سالف وخـالف ؛ وأما من يتعصب عليـه فيلتقط كل ما رثّ وهان في السفوح ويسلط عليه جميع الأضـواء ؛ بل يستعمـل القحـة والبذاءة في ذلـك ، ليبدي سـوءآت نفسه ويكشف مـا تنضح بـه من كره وضغينة . ومما شجع على التشهير به وأورى المزيـد من نار الحقـد عليه أيضـاً تعدد الانتماءآت العرقية والتاريخية والاجتماعية والإيديولوجية التي تناولت الفكر العـربي دراسة وتحليـلاً وتقـويمـاً . فسيفسـاء من الآراء والأغـراض والغـايـات والمـواقف تفـاجىء كـل من يستعـرض الأحكـام التي صـدرت على الفكـر المعطاء . لم ترخص الأحكام كما رخصت في سوق تقويم الفكر العربي ، ولم تهن كمـا هـانت يـوم أن تبـرع بتقـديـره التـافهـون والنخـاسـون والمـرجفـون والمستهترون وبائعو الذمم ، يوم أن رأوا الجريـح يهوي فهبُّـوا لطعنـه والتعجيل بدفنه خشية أن يقوم من بين الأموات . لقد هالهم أمره ، وما زالوا بـه حتى أخذ ينزف فاثخنوه بالجروح ليجهزوا عليه ويقضوا على أنفاسه .



قلنا إن الفكر العربي كثير الأبعاد، متعدد الآفاق. فكلما مضى الباحث بين مجاهله وأمعن النظر فيها يغوص على دررها وينقب عن طواياها وخفاياهـا ليزداد بها معرفـة ، وجد أن مـا يجهل من أمـرها أضعـاف ما يعـرف ، ومن هنا يـزداد شعوره بالهول والإشفاق والتردد طويلاً قبل الإقدام على التأليف في جانب واحد من جوانبه فكيف إذا أراد الإلمام بها جميعـاً في دراسة تـركيبية شـاملة ؟ والحق أن العلاج الذي ينجع في دراسة الفكر العربي لا يكـون إلا بالقيـام بتحقيق تام شامل ومستفيض في حياة الإسلام العقلية والروحيـة يتولاهـا المسلمون أنفسهم بعامة والعرب بخاصة . فدراسة هذا الموضوع بـاقتناصـة داخلية une saisie de l'intérieur (اقتنـاصة من الـداخـل) لا تتـأتى لغيـر عـربي مسلم . فـالحقيقـة العربية لا يكشفها إلاّ عربي ، ولا يحميها إلاّ عربي ، ولا يفقـه معناهـا أو يفهم

دقائقها إلاَّ عـربي . كفانـا اعتماداً على الآخـرين الذين إن أصـابوا مـرة أخطأوا مرات ، ولن يعدل نفـعُ المرة مضـارّ ما يلحقـونه بنـا مرات . فهلم إلى العمـل الجمـاعي ، ولنتقاسـم الجهـد ، ولنتعـاون في السـراء والضـراء وحين البـأس ، إحقاقاً لحقنـا وازهاقـاً لباطـل غيرنـا . إن كشفوا لنـا حقاً أضـاعوا لنـا حقوقـاً ، وأعطونا باللسان ما ينتزعونه بـالقهر والـطغيان . ليسـوا بأغْيَـرَ علينا منـا ، فكيف ندفع إليهم بقيادنا وزمام أمرنا . فلا مقام للحر في كنف اللئام !

إن دراسة الفكر العربي من قِبل أهله وعشيـرته خليقـة بأن تكشـف الكثيـر من الكنـوز التي لا يرى فيهـا الآخرون سـوى أصداف وطرائف. ليس أغْيَرَ على العربي من العربي . فهـو بدافـع ودي ، وبحكم الوشـائج التـاريخيـة والإطـار الـوجداني وروابط الأرض والآلام والآمـال المشتركـة ، يستطيـع وحده أن يتبين الظلال ، ويُفرق بين الخـطوط ، ويخترق البنيـة الكثيفة ، ويصـل الى أشياء لا تزال خافية عما يوصف بأنـه منهج علمي مـوضوعي يـظل محدوداً بـآفاق الفكـر الأوروبي الحـديث وطريقـة تصوره لـلأشياء ، وهـو تصور يـونـاني في أصله ، مسيحي في إطاره وتوجهاته ، مادي في مضمونـه ومحتواه ، إنـه ليس منا ولسنـا نحن منه ، فعلام نحرص عليه ؟

لقد عودنـا الغربيـون ان يحصروا جميـع القيم الإنسانيـة والحضاريـة في أجدادهم اليونان (والرومـان) ، فأورثـونا عُقـد النقص التي تشككنا في أنفسنـا وتـاريخنا وحضـارتنا ، إمعـانـاً في حـربهم النفسيـة بعـد أن استنفـدت الحـرب العسكرية جميع أغراضها . والأنكى من ذلك أن عـدداً كبيراً من أبنـائنا وفلذات أكبادنا الذين تشبعوا بالقيم الغربيـة تجنّدوا ـ من حيث يشعـرون أو لا يشعرون ـ في جيوش الظلام التي تغزونا من وقت إلى آخر ، وانضموا الى فلول المرجفين الظانين بالعرب ظن السَّوْء ، وجعلوا من أنفسهم أبواقاً لسادتهم ومعاول هدم بين أيـديهم إمعانـاً في الإذلال والتحطيم ، فكـانوا بـذلـك ملكيين أكثـر من الملك نفسـه . وسنـرى كيف كـان العـرب منـارات لا تقـل عن ـ إن لم تكن تفـوق ـ منارات اساتيذهم اليونان ، بقدر ما كانوا نماذج للقفـزات النوعيـة التي أحرزتهـا الإنسانية خلال تطورها الطويل . فما خبت لهم نار ، ولا انطفأ لهم مشعل ، إلاَّ

بعد حياة شديدة الخصوبة ، كثيرة العطاء ، غمرت العالم بتراث علمي وأدبي وفلسفي وفنّي فذ ، وبتجربة فريدة معجزة في مجال الرقي النفسي والقيم الروحية والمثل الإنسانية والحضارية .

ولكن ما العمل إذا كان الطغاة والمنتصرون يريدون أن يحتكروا وحدهم كتابة التاريخ ؟ تلك هي لعمري الطامّة الكبرى والداهية الدهيا ! فمن مصائب التاريخ المكتوب أنه إنما كتبه الغزاة الظافرون الذين أرادوا على الدوام أن يثبتوا أن سيطرتهم إنما كانت ضرورة تاريخية ، وأنها بالتالي نتيجة لتفوق جنسهم وثقافتهم وحضارتهم . ولكن هيهات هيهات ! فالتفوق التقني والعسكري لا ينطوي دائماً على تفوق الثقافة وعلى مشروع إنساني نبيل . إن التاريخ الحق لا يجوز أن يكون إلا تاريخ الامكانات البشرية ، والبحث عن الأبعاد التي افتقدها الإنسان خلال فرص التاريخ الضائعة .

هؤلاء الفاتحون ، هؤلاء المغول الجدد ، هم الذين يتصدون اليوم لكتابة تاريخنا وتزويره وشحنه بالأكاذيب والأوهام . وقد أصدروا حكمهم المبرم منذ أن دنّست أقدامهم أرضنا الطاهرة . « فالشرق شرق ولن يتغير ». ومن هنا تلك النزعة العنصرية القوية التي تجلت عند عدد كبير منهم ، وان لم يكونوا جميعاً قد عبّروا عنها بصراحة رينان وشليغل وشيعتهما ممن ينادون بأسطورة تفوق بعض الأجناس على بعض ، ويستحقرون بالتالي أمة العرب وثقافة العرب وعقلية العرب التي ينحَلونها شتى الأوصاف والنُعوت غير الكريمة التي تنضح بها نفوسهم . وقد شاعت هذه الآراء المفتريات بسرعة مذهلة في الثقافة الأوروبية والأمريكية . فلا غرابة بعد ذلك أن تتجدد باستمرار وتتجدد حملات التشهير والتخرص على العرب ، وأن يُسهم فيها مستشرقون معادون للعروبة والإسلام ، ويعانون من عقدة العروبة والإسلام ، ولا يقضّ مضاجعهم شيء مثلما يقضّها هاجس العروبة والإسلام ، ووراءهم جيش من أدعياء الاستشراق وعلم الإسلاميات ينتمي معظمهم الى قسم الدعاية السوداء التابع للمخابرات الأميركية والإسرائيلية . فسوق الكتابة عن العرب والإفتيات على العرب في أوروبا وأمريكا سوق رائجة جداً في هذه الأيام ، وهي كأي سوق لا تخلو من

المحتالين والمشعوذين والدجالين والمضللين وأدعياء العلم والكتابة والصحافة ، ممن جمع الى البذاءة وفحش القول الانحطاط الفكري والانحلال الخلقي. ودار في هذا المدار لسوء الحظ كل من عدم الشخصية من أبنائنا ، وكل من خارت قواه من فلذات أكبادنا ، مأخوذاً بالبريق الغربي والقيم الغربية ، فاستساغ الرطانة واستمرأ أوحال الهجانة ! من كان فيه رطانة عدم الرؤية والأصالة والمناعة ، ومن أوتي الرؤية استقوت فيه الأصالة والمناعة وكان أميناً مع ذاته ، فلم يضره تخرص المتخرصين وافتراءآت المفترين . ومن عدم الأصالة ولم يؤت الرؤية انهار، وفقَدَ مبرر وجوده .

أجل ، لقد تعوَّد الغرب الحديث ـ بل نحن الذين عودناه ـ أن يكتب التاريخ وحده وأن يصمت الآخرون ويقرأوا . لقد آن الأوان لأن نتولى نحن بأنفسنا الدفاع عن فكرنا وحضارتنا ، وأن يكون لنا استقلالنا في عرض الحلول والآراء ، وإلّا كنا مقلدين ببغائيين نردد أصداءً لغيرنا بدلاً من أن نصنع ذاتنا ونكون مصادر لصناعة غيرنا . يجب أن يكون لنا إسهامنا الكامل في حركة الإستشراق التي ظلت قروناً حكراً على العلماء الغربيين وحدهم ، مما أورثنا كثيراً من الشعور بالنقص والعجز عن مجاراة حركة الإستشراق ، فضلاً عن الشعور بالاستخذاء أمام من يجعلنا موضوع بحث ودراسة كما لو كنا حيوانات اختبار يُجري عليها الآخرون بحوثهم وهي بين أيديهم كائنات سلبية لا تقدر على شيء . وليكن لنا عبرة بعلماء الأنثروبولوجيا المحليين في آسيا وأفريقيا . فقد قام الأنثروبولوجيون الأوائل بدراسات وبحوث ميدانية على شعوب هاتين القارتين مما أثار حفيظة هؤلاء وبعث فيهم الاشمئزاز من كل دراسة أنثروبولوجية . هنالك جيل من الأنثروبولوجيين الوطنيين لم يكتفوا بمعارضة هذه الدراسات ، بل لقد تصدوا لها تصدياً إيجابياً واسهموا بنصيبهم في دراسة الثقافات التي ينتمون إليها ، وتغلَّبوا بذلك على مشاعر النقص والعجز التي تستحوذ عليهم وتتحكم في مواقفهم المعادية للأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيين . وهكذا توقفت ـ أو كادت ـ حملات التشكيك في أهداف الأنثروبولوجيا الغربية ووُضع حدٌّ لها . فالموقف الإيجابي في هذه الحالات هو سيد المواقف . أما

التّلوي والصياح والإقذاع في القـول والفكر ومـا الى ذلك من المـواقف السلبية المتخلفـة فلم تكن يومـاً لتحـل مشكـلاً أو تقضي وطـراً . فنحن الى الـدراسـة الـرصينة الجـادة أحوج منـا الى الهياج والصَّخب الـذي لا يدل ألَّا على العجـز والإفلاس. حسبنا ما نالنا من تهكم وسخرية طوال أجيـال من الركـود والغفلة . هلم إلى البناء ! حيَّ على خير العمل !

ورغم مـا نجد في الحـركة الإستشـراقية من بعض الإيجـابيات التي أدت الى اتساع رؤية الغرْب الثقافية للعرب والمسلمين ودورهم الحضـاري ، بعد أن كـان الإستشراق يـدور في الحلقة الـلاهوتيـة ، ورغم تعـريفهم إيـانـا بـالمنهـج النقدي للبحث في الفكر العربي الإسلامي مما أدى الى يقظة علمية فكرية لدى العـرب ، فقد فشـل الإستشراق على كـل حال في تقـويم هـذا الفكـر . ورغم النتائج التي وصل إليها المنهـج النقدي ووفـرة المعلومات التي حققهـا في هذا السبيل ، فقد ابتعد هذا المنهج في كثير من الحالات عن الأساليب العلمية كما قلنا أكثر من مرة وظل متأثراً بالمنافسة الايديـولوجيـة بين الاسلام والمسيحيـة . وحتى لو افترضنا حسن النية عند المستشرقين فإن أهل البيت يظلون دائماً أدرى بما فيه . هذه قاعـدة عامـة لا يمكن إنكارهـا أو المكابـرة فيها ، مهمـا اختلفت منازع الدارسين .

لذلك فـإن المهمة الملقـاة على عاتقنـا نحن الشرقيين بعـامة ، والعــرب بخـاصـة ، ليست مهمــة سهلة ، بـل إنهــا من أصعب المهمـات ان لـم تكن أصعبها . إنها مهمة الغد والمصيـر في عالم معقـد تتشابـك فيه المصـالح وفيـه تتصـارع القوى والمـوازين ، وتتنـازع الأطمـاع والمـطالب ، عـالم تُـرسم فيـه السياسات وتُقرر المصائر خارج الحـدود، عالم أصبحت الحكـومات فيـه مجرد إدارات محلية ، أو نوعاً من الحكم الذاتي الإداري المحدود ، خاضعـاً لهذا أو ذاك من الجالسَيْن على عرش إحـدى الدولتين العـظميين ! لكن كل ذلـك ليس مبـرراً لنا للقعـود والتخاذل وتقليب الكفين على سـوء العقبى ، والجـأر إلى الله بالدعاء لتشتيت شمل الكـافرين ، وتخـريب بنيانهم ، وتـرميل نسـائهم ، وتيتيم أطفـالهم ، وجعلهم ومـا بين أيـديهم غنيمـة للمسلمين ، حتى أصبح خـطبـاء

المنابر أضحوكة في الغباء والتخلف . بالبناء لا بالدعاء إنما تُصنع الشعوب ، فلم يكن الله يوماً لينصر خاسراً. إن المسلمين الأوائل لم يُنصروا على أعدائهم بالدعاء بل بالاستشهاد في ميادين القتال . والنبي نفسه عندما كان يتضرع الى الله أن ينصر المسلمين في غزوة بدر كان في نفس الوقت يُحرِّض هؤلاء على القتال والثبات أمام الأعداء. فقاتلوا وقُتلوا وقدَّموا قوافل الشهداء ، وعندما تخاذلوا في غزوة أحد هزمهم المشركون هزيمة نكراء والنبي بين ظهرانيهم ، بل لقد أُصيب النبي نفسه في القتال وسقطت رباعيته . فلو كانت الأمور تُسوَى بالدعاء لكفاهم مؤونة القتال . إن الاسلام واضح في هذا الباب وضوحاً لا لُبس فيه، وهو أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . ولكننا نأبى إلا أن نكون كبني إسرائيل عندما ما دعاهم موسى الى القتال فقالوا له : « إذهب أنت وربك فقاتلا ، إنَّا ههنا قاعدون »[1]. إن خطباء المساجد يعرفون كل هذا بطبيعة الحال ، ولكنه الغباء وعقلية التواكل والاستسلام والببغائية وانعدام المسؤولية قد تمكنت فيهم ويريدون تمكينها في غيرهم ، فاكتفوا بالدعاء على أعواد المنابر وولوا الأدبار يطلبون العافية لأنفسهم وذوي قرباهم !



يجب أن تضع حداً لهذه المهازل . فالانحطاط لا يُعالَج بالمزيد من الانحطاط ، إنما هو يعالَج بالادراك والواقعية . ولا بد لنا من الصبر والدأب والمعاناة والرحلة في طلب العلم والدراسة المعمقة . وإذا كان ذلك ضرورياً في أحوال الحياة العادية فهو أشد ضرورة في فترات التحول الحضاري الذي يرافقه دائماً تحول في الرؤية والتعبير والتفكير . فهناك دلائل تشير الى أننا مقبلون على عهد جديد سياسياً وثقافياً وحضارياً بعد أن بلغ منا الرقاد غايته. فقد كان النصف الأخير من هذا القرن فترة تحول سياسية كبيرة في تاريخ الفكر العربي والحضارة العربية . فعلى الصعيد السياسي اتسمت هذه الفترة بمقاومة

---

(1) قرآن كريم 24/5.

الإستعمار وتحقيق بعض أهداف التحرر الوطني . وعلى الصعيد القومي كانت هذه الفترة أيضاً فترة توكيد للهوية القومية وسط مظاهر التفتت الإقليمي والتشتت الفكري . وعلى الصعيد الإجتماعي كانت فترة صراع بين الأعراف والتقاليد وبين رياح التغيير القادمة من الغرب . هذه الفترة المتميزة بالصراع والتغير والتضعضع والقلق وعدم اليقين ، تركت آثارها الواضحة في النفسية العربية وطبعتها بطابعها . إن جميع هذه التحولات التي يشهدها جيلنا اليوم تحولات طبيعية وحتمية ، لأنها ترتبط ارتباطاً جوهرياً بما تنطوي عليه الحضارة من تناقضات وما تمر به من تحولات وتطورات . من هنا الخوف من الانزلاق ـ في هذا المنعطف الخطر ـ مما لا تُحمد عقباه . فإذا أردنا أن ننزع منزعاً حضارياً إيجابياً خصباً وأن نقوم بعمل خلاق ، فلا بد أن نتسلح بالعلم والتكنولوجيا وأن تكون لنا شجاعة قوية نمحو بها من الماضي ما نمحو ونثبت ما نثبت ونتحمل المسؤولية الكاملة عن ذلك أمام أنفسنا وأمام أجيالنا وأمام التاريخ . فالهدف كبير ، وعملية البتر أكبر ، والبتر الكبير لا بد له من جراح كبير .

إننا اليوم أشد ما نكون حاجة الى حقائق علمية موضوعية لتشخيص أمراضنا قبل الانخراط في المشروع التاريخي الحضاري لأمتنا . لقد استعصى علينا حتى الآن الانخراط في هذا المشروع والتوافق مع إيقاعه لأننا نريد الدخول فيه بالأسمال والأطمار والأوضار وجميع الخبائث التي تزكم رائحتها الأنوف ويؤذي مرآها الأبصار . كيف يتسنى لقطرة الطل أن تحافظ على نقاوتها وقد أصبحت في ماء آسن ؟ لا يدخل الهيكل إلاّ من تطهَّر من أدناسه وأرجاسه ، وأخلص النية وتبتَّل . إخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى !

ليس بالأماني تبنى الشعوب ، وإن تكن الأماني عنصراً جوهرياً هاماً في حياة الشعوب ، لأن الإنسان لا يعيش بالعقل وحده ، بل يعيش أيضاً بدفق الإحساس ويتغذى بالخيال والحلم ويحيا بالأمل . فالشعوب إنما تُصنع بالحقائق العلمية والظروف الموضوعية والوعي التاريخي الخلاق . لقد كان العرب قبل الإسلام رومانسيين غارقين في الأحلام والأماني يهيمون في كل واد ، ويتسكعون في كل مهد ، سادرين يتنقلون بين الأطياف والظلال الألوان،

يريدون الحياة بلا إعنات ولا عناء ولا إعـداد . ولكنهم عندمـا جد الجـد ونادى المنادي حيَّ على النضال والكفـاح والجهاد ، استقبلـوا صفحـة المجد وطـووا صفحة قاتمة السواد ، وباشروا حيـاة العقل والسـداد ، ومضوا لا تلين لهم قناة ولا يُسـاس لهم قياد. مـراسُهم صعب قـوي الشكيمـة كثيـر العنـاد، يقتحمـون الأخطار ويركبون المهالك كما تفعل الآساد ، فدان لهم كسرى وقيصـر وفرعـون ذو الأوتـاد ، وانحنى الكبراء وأربـاب الـرأي واولـو النُهى والـرشـاد ، وخشعت الأصوات فلا تسمع إلاَّ خفق القلوب التي بلغت الحناجـر وإلاَّ همس العباد ، مهـطعين مقنعي رؤوسهم لا يـرتـد إليهم طـرْفُهم وزاغ الفؤاد . لكن العـرب الفاتحين لما طغوا في البلاد ، وأكثـروا فيها الفسـاد ، وتركـوا الطعـان والنضال وآثـروا الرقـاد، واستمرأوا حيـاة الذل والخـزي والتقلب في المهاد، تـدحرجت منهم الأعناق من فوق القمم والأطواد. أنظر اليهم فهل ترى في الساح إلا الوجوه تتلقى الصفعات والأيدي تكبلها الأغلال والأصفـاد ؟ تالله لقـد أصبحنا سخـرية الدهر ودمية تعبث بها الأصابيع وتتقاذفها الجماعات والآحاد، وكل فتى فينا فإنه يهوى التلعب والتسكع والتهجم كالجراد . لعمري لقد استخفَّتنا الأمم والشعوب والأفراد ، والكل غدا لنا يا أسفي بالمرصاد !

كـذلك ليس بـالنقل والتـرجمة تُبنى الشعـوب ، وإن كانت عمليـة النقـل والترجمة عاملاً هاماً في وثبات الشعوب . فـالنقل إذا كـان مقحَماً من خـارج ، وإذا لم يكن منبثقاً من حاجات داخلية ووليد هذه الحاجات ، كان عقيماً لا خير فيه وذهب أدراج الريـاح . وكما ينـطبق هذا على أجـدادنا الأوليـن فهـو ينطبق علينا في هذه الأيام أيضاً . ففي رأيي إنـه لا يجوز أن تُضفى على التـرجمة عن اليونانية في عصور الإزدهار العربي كل تلك الأهمية التي تعودنا سماعها صبـاح مساء لحاجة في نفس يعقوب . أنا لا أنكر أن الترجمة كـانت لها نتـائج وأبعـاد عظيمة في تاريخ الفكر العربي ، لكن يجب أن نعلم أيضاً أن هذه الترجمة وكل ما أعقبها من نتائج وما كان لهـا من أبعاد لا تعـدو أن تكون هي بـدورها نتيجـة لعامل يفوقها أهمية هو العامل العربي ، والمخاض العربي ، والجيشان العـربي الشامل .

إن دراسة الفكر العربي وتحليله ومعرفة نوابضة وعوامل نشأته وبروزه واستمرار وجوده وصموده في وجه العواصف والأعاصير دهراً طويلاً - إن كل أولئك فيه متعة وفية إثارة ، فضلاً عن أنه واجب قومي ومغنم بشري وحضاري . فنحن معاشر العرب أهله وأحق برصده وتحليله من الآخرين الذين شوهوه وزيفوه وظلموه بعد أن كان لهم دفئاً وشعاعاً. لقد كان ظهوره على المسرح حدثاً فذاً ، حدثاً لا كالأحداث ، وكان من الفجائية والسرعة بحيث ان بعض الدارسين الغربيين أنكر بداياته الأولى كما رأينا في كتاب سابق لنا[1]، وجعله بالتالي ذيلاً للفكر اليوناني . وما هو بِذَيْل ، ولكنه المارد الجبار انطلق من الإسار . لقد انتفض على غير انتظار ، حتى لكاد سنا برقه يذهب بالأبصار . ومن هنا عجزُ الكثيرين عن رصد بداياته ، فكان أن انكر البعض هذه البدايات ، ونسبها البعض الآخر إلى الخوارق والمعجزات . وهكذا أفلت الخيط من أيدي الدارسين ، فلم يروا إلا أشتاتاً من الحوادث المتفرقة والشوارد المبعثرة ، والطرائف الباهتة البليدة . فجاء الكيد والدس من الجهة الأولى ، والغيب والخيال الشعبي من الجهة الثانية ، ليعمل كلٌ على شاكلته . لقد خلت الساحة من أصحابها الأصليين فدخلها الغرباء والأغبياء والمتطفلون والطارئون وكل ذي سلعة كاسدة وبضاعة مزجاة . وهكذا ضاعت البدايات في ضباب كثيف يجد الدارس عسراً في تبينها من خلاله والتقاط خيوطها ، فكان ذلك عند البعض مبرراً لإنكارها وذريعة لاصطناع بدائل مفتعلة تحل محلها وتقوم بالكذب والزور مقامها . ووجدت الأسطورة عند البعض الآخر مرتعاً خصباً تبذر منه بذورها ، ودعت العناكب لتنسج الخيوط تؤوي فيها صغارها . فبقدر توكيد المستشرقين - بسبب انعدام الرؤية - لأهمية الترجمة والنقل في بروز الفكر العربي المفاجىء وإلحاحهم بالتالي على أولوية العوامل والقوى الخارجية - أقول بقدر هذا التوكيد للعوامل والقوى الطبيعية ، رجع المؤمنون الى العوامل والقوى الغيبية وأنكروا العلل والأسباب ، وحصروا كل شيء في مسبب الأسباب وخالق الأكوان والمسببات . وهكذا امتلأت الفجوات بعد أن

---

(1) أصالة الفكر العربي . الفصل الرابع.

اختفت معالم البدايات بأساطيل الغيب والملكوت ، وجيوش السماء والجبروت تارة ، وبالقوى الفكرية اليونانية والآرية دون العربية تارة أخرى . لقد اختلطت القوى الغريبة والتقت على شيء واحد هو التشكيك في القوى المحلية واتهام القوى المحلية . الأغيار أحق بالدار من أهل الدار ، إذا خلت الدار من أهل الدار ، وتركوا للآخرين الدفاع عن الذمار . أرأيت الى عجائب الأقدار ؟!

*

إن همنا الأكبر هو ملء الفجوة التي أهملها الدارسون ومروا بها سراعاً، بل لا همَّ لنا إلا البحث والتنقيب عن البدايات الأولى ، للعثور على العناصر الفعالة والعوامل الأساسية التي نقلت العرب من التشرذم القبلي الى بناء الدولة ، ومن التقوقع المحلي الى الانتشار الحضاري . وكلها أحداث ووقائع طبيعية فجَّرتها القوى الفكرية المحلية ، والضغوط الفكرية المحلية ، وعلاقات القوى الفكرية المحلية . كل أسرار الفكر العربي الأصيل مكدسة في هذه الفجوة . قبلها لم يكن شيء ، وبعدها كان كل شيء . هنا يكمن جوهر الآباء والأجداد ، وعبثاً نبحث عن غيرهم في هذا المكان . حتى أولئك الذين جاءوا من أقاصي الأرض وصنعوا للعرب والمسلمين أمجاداً رائعة واجترحوا المعجزات والخوارق ـ هؤلاء جميعاً مروا من هنا وصُنعوا هنا ، ولو لم يُعرفوا في حياتهم هنا . لقد تعرضوا لنفحات صدرت من هنا ، وهذا يكفي ليكونوا من هنا . ليس المُهم من أين جئت ، إنما المهم أن تمر هنا . هنا البوتقة ، هنا صُهرت المعادن ، وهنا صُبت القوالب ، وهنا قام المصنع الكبير . هنا مرجل التاريخ وهنا يعمل التاريخ . هنا تُقَدُّ الرجال وهنا تُزف الأبطال . هنا الدفء وهنا النور ، وهنا الإشعاع !

كلا لم تكن فجوة . إنها حشد من الطاقات والإمكانات والشحنات والقوى الضاغطة والمضغوطة لا يراها كل أحد . إنها الفتيل الذي ينتظر الشرارة وبعدها الانفجار الكبير . وستتوالى الانفجارات وستتسلسل كبركان يقذف باللظى والحمم . لقد استغرق القذف أجيالاً طوالاً، ولكنه كان على أشده في

أوائل القرن الأول للهجرة ، قبل أن تهب رياح الفكر الأجنبي على شبه الجزيرة العربية وتصب فيها روافد الأمم والشعوب التي اتصل بها الاسلام أو اتخذته ديناً وعقيدة . وهكذا تجاهل الدارسون أخصب فترة في تاريخ الفكر العربي الإسلامي وأغناها بالمواهب والطاقات وقوى الإبداع ، ونسبوا كل ذلك الى أمم غريبة لا في العير ولا في النفير ، وليس لها أي شأن أو مدخل في نشأة هذا الفكر ونموه ، ولم تكن أكثر من محطات التقاها العملاق في مراحل الطريق . وهكذا ضنُّوا بالفضل على ذويه ، ونسبوه الى غير أهله ، وأقحموا فيه أمماً وطوائف وكل من رثَّ وهان من شذاذ الآفاق لقطع الطريق على العملاق . لقد دسُّوا أنفها في كل نبضة من نبضاته ، وزعموا زيتها وقوداً وراء كل ومضة من ومضاته ، واختلقوا له مربين أقزاماً، وهو المعلم الكبير .

إن ملء الفجوة بين ظهور الإسلام وظهور المذاهب الدينية السياسية قبل نهاية العصر الأموي مشروع عظيم طالما راودني حلمه وداعبت خيالي أطيافه . والسَّيْكوسوسيوديناميكا ـ بشقيها النظري والتطبيقي ـ قادرة على القيام بهذا المشروع ، أو على الأقل رسم بعض معالم الطريق اليه . إنها ـ بزعمي ـ خير ما يملأ الفجوة المذكورة ، بكشف النوابض والمحركات الحقيقية لانبثاق الفكر العربي الإسلامي وتفتح براعمه . فقد جاء النبي بمجموعة كاملة من الأفكار في أرضٍ تعاني من نقص كبير في الأفكار ، وتحتاج الى إعادة نظر جذرية في نظام الأفكار . ونشبت ثورة في الأفكار وصراع عنيف بين الأفكار . وكان صباح وكان مساء ، وتبدلت الأرض غير الأرض بين الصباح والمساء ، حتى لكأن ما بينهما هو الدهر بأسره . نعم هو اليوم في حساب الزمن الفلكي ، ولكنه الدهر في حساب الزمن التاريخي : فقد أنجز محمد في يوم ما لا يمكن إنجازه في أقل من دهر . نُقلة نوعية ، قفزة عبر الأجيال ، تحققت بين ليلة وضحاها ، فإذا الأرض غير الأرض ، والناس غير الناس . فالأرض بمن عليها لا بما عليها ، إنها بساكنيها لا بفومها وبصلها وعدسها . إنها بالبشر لا بالمدر والحجر. والأفكار هي التي تصنع البشر. وهيهات هيهات أن يصنعهم الحجر . ولا يذهبن بك الشطط الى حد الظن بأن القدرة على التغيير حكر على

ثورة محمد. فالثورات في القدرة على تغيير الشعوب سواء، هذا إذا كانت ـ حقاً ـ ثورة ولم تكن حركة عصيان أو تمرد أو نزاع على السلطة . تلك هي طبيعة الثورة ـ أيّ ثورة ـ في كل زمان ومكان . أنظر الى الثورة الفرنسية ، وإلى الثورة الأميركية ، وإلى الثورة البولشفية . هذا قانون ثابت في تاريخ الثورات مأثور ، فارجع البصر هل ترى من فطور ؟

إن أغلب الدارسين الغربيين لا ينظرون الى هذه التغيرات الداخلية نظرة جدية ، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بشعوب تنتمي « اليوم » الى العالم الثالث . إنهم يدرسون الثورات بأدواتهم التقليدية ، ومن هنا خطؤهم . فالثورات تحتاج الى دراسة في مستواها ، أي الى دراسة ثورية بعيدة عن الأساليب التقليدية المستهلكة. ورغم ما بين الثورات من أوجه الشبه والاتصال، فالرأي عندي أن كل ثورة يجب أن تُدرس على حيالها بأساليب ومناهج خاصة بها . فإذا كانت الثورات تتشابه فيما بينها ، فلا ينبغي أن ننسى أن بينها أيضاً أوجه اختلاف قد تفقأ العين . فهناك ثورات صاعقة كثورة محمد ، وهناك ثورات متدرجة هادئة كالثورة اليونانية ، وهناك ثورات حمراء كالثورة الفرنسية ، وهناك ثورات بيضاء كالثورة الانكليزية . لقد اختلفت الأشكال والنتيجة واحدة وهي التغيير الشامل . ولا معنى للتغيير إذا بقي كل شيء على حاله . والتغيير المقصود هنا ليس بطبيعة الحال تغييراً في الزي والمأكل والمشرب والمسكن ، إنما التغيير المقصود هو التغيير في الفكر والرأي ونظام الحياة ، التغيير في المهمات والمسؤوليات والمشاغل والآمال والمطامح والتطلعات وآفاق المستقبل . . . لقد حدث كل ذلك وأكثر من ذلك عندما قام محمد بثورته العظيمة . .

إن شيئاً من ذلك لا يراه المراقبون عندما يحدقون في الشاشة التي ينعكس عليها سيناريو الأحداث . إنهم لا يرون غير المدر والوبر والحجر . أما الفكر الذي يمسك بخيوط اللعبة فهو عصيٌّ على الرؤية من خارج. إنه لا يُرى إلا باقتناصة من الداخل une saisie de l'intérieur يلمحها أهل الدار دون سائر العالمين . إن أهل الدار لا يقتصر دورهم على أنهم شهود على ما يجري على المسرح ، إنهم أجزاء من اللعبة وأطراف فاعلون في السيناريو . إنهم القضية

التي تُمثَّل على المسرح وهم أيضاً أصحاب القضية ، وبنجاحهم أو فشلهم مرهونة القضية .

إن المراقبين الخارجيين لا يرون ما وراء الأكمة لأن جميع أنظارهم مشدودة الى الأكمة . أو قل هم كالعُمي يريدون وصف الفيل .فتحسس أحدهم أذنه فقال أنه يشبه الدف في استدارته ، وتحسَّس آخر ظهره فقال : لا بل هو شبه اللوح ، وتحسس ثالث قدمه فقال هو بجذع الشجرة أشبه . لقد عجزوا جميعاً عن وصف الفيل لأنهم لم يروه في صورته الكلية بل اكتفوا بتحسس بعض أجزاء بدنه فظنوه أحدها .

ان عيب الكثير من الدارسين الغربيين للفكر العربي إنما هو تضخيم بعض الجوانب عل حساب البعض الآخر ، تضخيم جانب الأخذ والاستعارة ، والتعتيم على جانب العطاء والإنتاج ، تضخيم جانب النقل والاقتباس ، وتسليط الأضواء عليه دون غيره من الجوانب الأخرى . وهذا لعمري تحيُّف لا نرضى به وتجنٍّ سافر لا نرى له مساغاً ، فضلاً عن أنه عمل غير علمي كان ينبغي على سدنة العلم والفكر أن يربأوا بأنفسهم عنه .

فهؤلاء الدارسون ليسوا بقادرين على أن يتصوروا أن تظهر عبقرية عالِم عربي أو فيلسوف إسلامي دون أن تمُتَّ بسبب أو بآخر الى أصول أجنبية . فإن لم يجدوا هذه الأصول تبرعوا باختلاقها ، فحمَّلوا الأحداث فوق ما تحتمل واخترعوا الذرائع والمبررات يلوون بها أعناق الحجج والوقائع لتواطىء استنتاجاتهم وتدعم آقاويلهم . وما يزالون ينقلون إلى البؤرة ماكان في الحاشية وما في الحاشية الى البؤرة ، ويسلطون الأضواء على الخرائب والأطلال ، حتى يستقيم لهم ما أرادوا ، أو هكذا تصور لهم أحلامهم على الأقل . فإذا بالدُّمى تدب فيها الحياة ، وإذا بالعظام تُنشز وتُكسى لحماً ، وإذا بالأشباح والهياكل لها أذرع وسيقان تمشي على الأرض كسائر عباد الله . لقد حدث ذلك كله بعصا ساحر وقدرة قادر ، وهو فنٌّ لا يحسنه إلاَّ ذووه . لقد انتقل ما في الحواشي والزوايا الى مركز الدائرة ، وتحول التافه من الحوادث إلى مستودع يزخر بالطاقات الهائلة ، وإذا بالقزم عملاق . لقد سُلبت المواهب من أصحابها الشرعيين وأعطيت لدُمي لها شبه بالآدميين ، فاستقام المعوج

السقيم ، وانتصب الكسيح شاكي السلاح وهو المريض العليل . لقد وقعت المعجزة ، فسبحان محيي الموتى ومخرج من في القبور ! وما أسهل هذا الفن على حذّاقه والمتمهرين فيه . لقد قزّموا العملاق وعملقوا القزم ، ومسخوا كل ما يمتّ إلينا بصلة القربى والنسب لغايات معروفة لا سبيل إلى إخفائها أو إعلان البراءة منها ! المهم في حساباتهم ومعادلاتهم أن يخنقوا فكراً لا ينتمي إليهم قد انتفض في أرض غير أرضهم وعلى حين غرة منهم ، واتخذ من فوره طريقه الى المجد . أجل لقد قضت كبرياؤهم أن يخنقوا الفكر العربي الاسلامي ليبعثوا الى الحياة عظاماً نخرة مركومة في الغيران والكهوف أو القفار والبطائح التي تمتُّ الى جغرافية أوروبا أو تتصل بتاريخ أوروبا . فأوروبا هي أم العلم والحضارة ، وهي المبدأ والمطمح والغاية .

يريدون ليسحقوا الشخصية العربية وليطمسوا الفكر العربي ، وليطفئوا النور الذي طالما أضاء العالم ، يريدون ليوقفوا مسيرة التاريخ ، والتاريخ مُتِمٌّ مسيرته ولو كره المشككون . إنهم ـ كعادتهم دائماً ـ يبرزون بعض النقائص والعيوب التي لا تخلو منها أمة من الأمم ويسلطون عليها الأضواء ، ليصرفوا الأنظار عن الفضائل والمزايا. وبشيء من الحذلقة والثرثرة والمكر السيء، وببراعة النشّال الذي يسلبك ما تطويه في دخيلة جيبك الغائرة ، أو في أحد أطراف ثوبك وثناياه البعيدة عن العين والحس ـ يختفي تاريخ ويحل محله تاريخ . فإذا أنت أمام عقل شاحب ، وفكر ضحل ، وتراث هزيل ، وإنتاج سقيم ، وفلسفة تلفيقية ، وحضارة اتباعية ، وشخصية استسلامية . . . ولولا أن قُيض للعرب والمسلمين فئة قليلة مختارة من الدارسين الغربيين المشهود لهم بالعلم والتجرد ، عرفوا بعد جهاد طويل فضل العرب ومزايا تراث العرب وحضارة العرب، لولا ذلك لبقيت ـ حتى يرث الله الأرض ومن عليها ـ الصورة الباهتة الشوهاء لبرابرة أجلاف متعصبين متعطشين للدماء ، يفرضون الإسلام بحد السيف ، أعداء للتطور والعلم والحضارة و . . . لقد طرأ بعض التعديل على هذه الصورة في كثير من دوائر الاستشراق، ولكن ذلك لم يكن له تأثير يُذكر من الرأي العام الأوروبي ووليده الأمريكي ، لأن هناك من يُلوِّح له دائماً

بالصورة القديمة البشعة التي لا تكاد تُمحى منها بعض السطور حتى يعاد كتابتها من جديد بوضوح أكبر . ولقد أتقنت الصهيونية وعملاؤها في الغرب هذه الأدوار أيّما إتقان .

ليس التجبر والصلف والاستعلاء صفات شخصية جِبِلِّية في الأفراد ، ولا هي صفات فئوية خاصة بهذه المجموعة البشرية أو تلك ، بل هي صفات تاريخية تلازم دائماً بعض الأنظمة في بعض مراحل حياتها المتخمة بالمال والعتاد والسلطان. والمثير حقاً أن هذه الصفات أشبه بالمرض النفسي الذي يوهم صاحبه القوة بينما هو على شفا جُرف هار. فالقوة التي لا يدعمها بعضُ القيم والمبادىء لا تُعمِّر طويلاً ، بل لا تلبث أن تهتز وتترنح وتميد الأرض تحت أقدامها . هنا يضطر الأمبريالي ـ حفاظاً على جسده وتشبثاً بالمغانم والأرزاق التي تنهال عليه كأفواه القُرَب من الجياع والمعوزين والمحرومين والمستضعفين في الأرض. . ، حتى فسدت الروح ومات الضمير ـ إلى أن يمارس الإرهاب الفكري إذا لم يتمكن من الإرهاب المادي، ويعلن الحرب النفسية بعد إفلاس الحرب العسكرية . فيشن الحملات على أولئك الذين تجرأوا على مقارعته والرد على عربدته، ويملأ الدنيا بالتخرصات والافتراءآت. إن التقدم هدف كبير من أهداف الإنسانية . إنه وعي قومي وطموح حضاري . إنه حق طبيعي لكل قادر على تحقيقه والدفاع عنه. ولكن الصلف والتجبر والاستعلاء آفات لا يهنأ لصاحبها عيش حتى يخنق كل وعي وطموح ، ويقضي على كل أمل في التقدم وكل ثقة بالذات ، فيتصدى للتيار ويقف في وجه المد الزاحف دون أي اعتبار لقوى التاريخ ونواميس الاجتماع. فالغرب هو عدونا التاريخي، عدونا اللدود الذي ما انفك ينفث سمومه فينا ويقيم الصعاب والحواجز في طريقنا ليسد علينا جميع المنافذ ويغلق أمامنا كل المسالك . ولم يزرع إسرائيل والصهيونية في هذه المنطقة المتفجرة من العالم إلا لتكون عينه الساهرة وذراعه الطويلة تحقق أغراضه وتنفذ ما دُبِّر بلَيْل ، كيداً لنا . فلنكن على بينة من أمرنا .

وإذا كان تخلف العرب الراهن من الأسباب التي حجبت الرؤية الواضحة عن أعيُن الأوروبيين فالتخلف على كل حال ليس واقعاً عربياً فقط ، إنه محطة

مـرت بها جميـع الشعوب وسـتـرتد اليهـا كل أمـة كانت تعيش يـومـاً على رأس القمـة . إن التخلف ليس له جنسيـة أو دين . وإنها لأكـذوبـة كبيـرة أن نتصـور للتخلف بطاقة شرقية بعامة ، إسـلامية أو عـربية بخـاصة ، أو أن للتقـدم بطاقـة غربية بمسيحية !

فالإسلام لم يمنع العرب من التقدم بل ـ ماذا أقول ؟ ـ هو الذي أخرجهم من عقر دارهم وقذف بهم في الآفاق ، ولولا الإسلام لظلوا في كهفهم الى يـوم يُبعثون . كما أن العروبة ليست أيضاً مانعـة من التقدم . فقـد أبدى العـرب في خـدمة الـدين الجديـد من المزايـا والكفاءآت مـا ضمنوا بـه لمشروعـه النجـاح والسؤدد . فعلى أكتـافهم إنما قـام واستقام ، وبتضحيـاتهم إنمـا تحقق وأصبح الحلم واقعاً . لقد وجدوا فيه الفرصة التاريخية السـانحة لإظهـار ما كـان يكمن فيهم من قـوى وإمكانـات ، فتكشفت مـواهب ، وتفجـرت طـاقـات ، وبـرزت عبقريات جعلت التـاريخ طـوع بنانهم . فلولا أنهم في مستـوى الحدث الكبيـر لتقـزَّم الحدث ورث ولمـا دخلوا التاريـخ من الباب الكبيـر . فالعمـل الكبير لا ينجزه إلا بطل كبير !!!

*

إن العـرب قبل الاسـلام كانـوا على أبواب يقـظة ظهرت بـوادرهـا الأولى في الشعر الجاهلي وحركة الحنفاء. فالعرب الجاهليون كانـوا يتلمسون الـطريق بحثاً عن البطل الذي يقودهم الى سواء السبيل ، كما إن محمداً عليـه السلام ، كان هو بدوره يبحث عن قوم يحملون رسالته، فكأنما جـاءا على موعـد. وهذا لعمـري من أهم أسباب النجـاح الخـارق الـذي لقيتـه الـدعـوة الإسـلاميـة بين الجماهير العربية ، والانتصار المذهل الذي حملهم في قـرن أو يزيـد قليلاً الى جميع بقاع العالم المتمدن آنذاك .

لقد شهدت الجزيرة العـربية قبـل النبي عليه السـلام محاولات إصـلاحية كثيرة لم يُكتب لها النجاح . لقد كان ذلك مكتـوباً لمحمـد ولمحمد وحـده من دون سائر قادة قريش وسادتها وصناديدها . لقد كانت الحركات الاصلاحيـة من

قبل ، حركات فردية لم تتمكن من خلق ما اسميناه بؤرة سَيْكوسوسيوديناميا تنتظم فيها جميع الحركات الأخرى . وبعبارة أكثر بساطة ، لم تستطع الحركات الإصلاحية قبله أن ترتبط بشبكة قوية من الاتصال الفكري والتفاعل العقلي . أن إنشاء هذه البؤرة ليس مهمة سهلة، إنها عملية من أشق عمليات التاريخ. إنها نتيجة مخاض عسير قد يعقبه إجهاض لكن قد يعقبه ميلاد كبير. إنها الخطوة الأولى في رحلة الألف ميل ، والخطوة الأولى هي دائماً أصعب الخطوات . فما أن تبدأ أولى الخطوات حتى تعقبها سراعاً سائر الخطوات . وقد خطت شبه الجزيرة هذه الخطوة بفضل جهاد محمد ونضال محمد ، وكفاح محمد ، وقدرة محمد على خلق مدرسة من القادة والرادة، وجهاز كامل من الرجال العظماء القادرين على تولي الأمر من بعده والحفاظ على الجذوة التي أشعلها . بئس القائد يستبد بالأمر وحده ولا ينشيء مدرسة تتابع سنته وتحفظ شعلته وتواصل مسيرته ، وتحقق إرادته وتستأنف ريادته . إن هذا ليس قائداً ، إنه كذاب أشِر ، وسياسي قذر ، أكبر همه السلب والنهب وتحقيق المكاسب والمغانم ، وليكن بعد ذلك الطوفان . وأما محمد فقد أنشأ رعيلاً كانوا أمثولة في التضحية والفداء وكرامة النفس وجودة الرأي وصدق العزيمة والاخلاص للمبدأ والتفاني في سبيل العقيدة. ولذلك فعندما رحل محمد عن هذا العالم لم يلبث الفراغ الذي خلّفه بوفاته أن امتلأ وسارت الأمور كأن زمامها لا يزال في يد القائد العملاق. نعم لقد حدث بعض البلبلة يوم وفاته وهذا طبيعي جداً، ولكن السفينة سرعان ما أقلعت لتستأنف السير يقودها لأول مرة ربان جديد تَخرَّج في مدرسة محمد وكان من أخلص تلاميذ محمد ، فلا خوف عليها بعد محمد . وهكذا انطلقت عجلة السَّيْكوسوسيوديناميكا في بطن الجزيرة العربية لا تلوي على شيء وهناك فقط دارت تروسها . ومنذئذٍ بدأ الفكر العربي والاسلامي يؤتي ثماره اليانعة، ويُرسي قواعد أمة جديدة وعقلية جديدة، إيذاناً بانبلاج فجر جديد وقيام عصر جديد .

فإذا انطلقت عجلة السَّيْكوسوسيوديناميكا في بلد فارتقب يوم تُجترح المعجزات . هو ذا العامل الداخلي الذي يشرع الأبواب والمنافذ لدخول

العناصر الخارجية . لقد نضجت القوى الذاتية التي لا يكون بغيرها نشوء أو ارتقاء . هنالك تتفاعل الأفكار وتصطرع الأفكار بالأفكار وتتولد الأفكار من الأفكار، وهناك تعكف القوى الخلاقة على إبداع الأفكار ، وهناك تبدأ صناعة الأفكار . فأكرِم بها من صناعة يُحلّق فيها المرء ويختار ويشتار !! لقد اقتحم الساح عملاق جبار ، فلوى أعناق الأحداث وقهر الجبابرة ودانت له الأقدار .

السَّيْكوسوسيوديناميكا ـ وبالأحرى الفاعلية السَّيْكوسوسيودينامية ـ هي محرك التاريخ ، فلا تاريخ بلا تعبئة سَيْكوسوسيودينامية ولا تغيير إلا من خلال قنوات الشبكة السَيْكوسوسيودينامية . لقد مر أجدادنا الأولون بهذه التجربة ذات يوم وكانوا قطب الرحى فيها ، فكان تاريخ ، وكان تطور ، وكان تقدم ، وكانت ملحمة ، وكانت بطولات ، وكانت أمجاد لم تكن لتتحقق لولا أن بؤرة من العمل السَّيْكوسوسيوديناميكي قد نشأت في مكة ويثرب ، ثم أخذت تنمو وتتعاظم حتى شملت شبه الجزيرة العربية بأسرها، ثم انطلقت خارج الحدود واتصلت بأقوام وحضارات ومواريث ، وتقلبت في موجات من المد والجزر ، والتصعيد والتصويب ، يجد الانسان المتعة والإثارة وهو يلاحق مشاهدها ومواقفها ، ويمر بمواكبها وأطيافها ، ويسري اليه مسٌّ من معاناتها ومعناها . زحمة من الصور والرؤى والاهازيج والصروف والايقاعات والموحيات والأفراح والأحزان والمآسي والمعارك تتعاقب أمام عينيه في سياق متصل ترتجُّ له النفس ويرتاع له العقل . ولا أظن بشراً لا يقف مبهوراً أمام ملاحم الأفكار ، ومصارع الأفكار ، واصطراع الأفكار بالأفكار ، وتولد الأفكار من الأفكار . وكل أولئك يبده النفس ، ويغمر أقطار الحس ويبعث العقل في طلب المزيد ثم المزيد .

إنها السَّيْكوسوسيوديناميكا تعرض الأفكار في نداوتها وطراوتها ، وفي حال بكارتها وعند التقاحها وإخصابها وتمخضها تمخض التنوج بولدها ، ثم في تحركها وانبثاق أفكار جديدة من أرحامها . موضوعها الذي تعالجه من مبدئها الى منتهاها هو الأفكار وحياة الأفكار ومعارك الأفكار ومصارع الأفكار، تناقضات الأفكار وعلاقات الأفكار . . . وهي معارك ومصارع وتناقضات وعلاقات . . . تأخذ بمجامع النفس وتُطوِّف بها في ملكوت غير ملكوت الحس، وترود بها

ينابيع وجداول تجد فيها غاية المتعة والأنس .

الأفكار تتكلم وتتحدث ، وإن خطاباتها متعددة متنوعة تختلف باختلاف الجماعات والطبقات والفئات والطوائف التي تنجح في أن تعبر عن ذاتها . وهذه الجماعات والطبقات والفئات والطوائف إذْ تتكلم فإنما تنطق بلغةٍ أمينة صادقة خارجة من أعماقها . لقد اخترقتها الأفكار ، وأنطقتها الأفكار ، وكانت أداة مسخرة في لعبة الأفكار ، واستقوت بها الأفكار واستقوت هي بالأفكار. هكذا تتفجر الأفكار وهكذا يفرض نفسه ديالكتيك الأفكار. وينتج عن هذا الديالكتيك نوع جديد من الأفكار وخطاب الأفكار ، يختلف في القوة والجبروت تبعاً لنداء الأفكار ودرجة أصحابها من النضج والتطور . فالمجتمع يتكلم خطاباً واحداً محدداً، لا أي خطاب اتفق، وهو خطاب لا يفهمه إلا أصحاب الخطاب فلا يجوز أن يتصدى لتفسير الخطاب من ليس من أهل الخطاب .

إن الخطاب العربي اليوم غيره بالأمس : فالخطاب يختلف باختلاف الزمان والمكان ودرجة النضج ومستوى التطور المادي والروحي . فشتان بين خطاب وخطاب . إن كتابات غزيرة قد كتبها المستشرقون عن الفكر العربي الاسلامي والخطاب العربي الاسلامي ، أي كتبها أناس لا يملكون غير الجهاز الفكري والأداة النظرية التي يحسبونها كافية لفهم الخطاب وترجمة اللغة التي ينطق بها الخطاب . هيهات هيهات ، فالخطاب كما قلنا لا يدرك معانيه إلا أصحاب الخطاب . فليست المسألة هنا مسألة جهاز فكري ونظريات عميقة بقدر ما هي حدوس وأحاسيس ووجدانات وآمال وآلام وتاريخ مشترك وجغرافيا موحدة ، هذا إذا افترضنا حسن النية عند الدارسين ، فكيف إذا ساءت النوايا وفسدت الطوايا؟ هناك الطامَّة الكبرى والداهية الدهيا !!

فمهما تكن القيمة التثقيفية لكتابات المستشرقين الغربيين الذين درسوا الفكر العربي والمنتجات الإسلامية ، فإنها تظل وليدة النظرة الخارجية ومرآة تعكس رؤيتها . كما تظل أيضاً متأثرة بنزعة عرقية مركزية مؤكدة ، مفهومة ضمن الوسط التاريخي الذي نشأت فيه . وحتى الدراسات الجامعية التي تضفي عليها

صفة « الأكاديمية » ، فإنها تسبح في المحيط العام لهذه العرقية المركزية كما ذكرنا أكثر من مرة. ذلك بان تفسيراتها وتحليلاتها وكل إطارها النظري « الأكاديمي » - إن كل أولئك ، فضلاً عن أنه عاجز عن سبر الأغوار والوغول في الأعماق ، يعكس في الغالب رؤيا سلبية للعرب والمسلمين كان لها ولا يزال أكبر الأثر في تشويه صورة هؤلاء ومسخ حقيقة العطاء الذي قدّموه للعلم والحضارة .

إننا لحسن الحظ نشهد ملامح نظرة جديدة تنبثق من داخل المجتمعات العربية الاسلامية نفسها. فكلما كان الباحث منتمياً الى قدر الجماعة التي يدرسها يتحسس همومها ويعيش مصيرها وتاريخها ، كانت نظرته وأحكامه وتحليلاته مختلفة حتماً عنها عندما تصدر عن أي مراقب خارجي لا يعيش هذا القدر التاريخي . لكن مما يؤسف له حقاً ان المجتمعات العربية الإسلامية - كسائر مجتمعات العالم الثالث - بقدر ما تملك التحسس ووحدة القدر والمصير تفتقد التحليل والتفسير والقدرة على تشخيص الداء ووصف الدواء . فلطالما وجدت نفسها أمام فراغ نظري كبير لعدم توافر الأدوات الملائمة التي تمكنها من فهم واقعها وحل مشاكلها ، ومعالجة الأزمات التي تعاني منها . لقد خلت الساحة من أصحابها أو كادت ، فاقتحمها الغرباء من العسكريين والإداريين والتبشريين والأساتذة الجامعيين الكولونياليين ، فجاسوا خلال الديار ، وعاثوا في الأرض الخسف والدمار . ولا غرابة في ذلك فإن أحداً منهم ليس من أهل الدار .

إن المجتمعات العربية الإسلامية تولول أكثر مما تفكر ، وتتشنج ولكنها بالسلاح لا تريد أن تتدجج . تفرُّ من مواقع النسور لتجأر الى الله بالدعاء وتنادي بالويل والثبور لمواجهة عدوها الأكبر ، ما دام يغني عنها شعار « الله أكبر». فهي تريد أن تحقق بالدعاء ، ما لا سبيل اليه إلاّ بسواعد الأبناء . فإنما النَّصرُ من عند الله ، سبحانه وتعالى عن الأنداد والأشباه !

إن هذه المجتمعات تجد نفسها دائماً تحت الهيمنة المنهجية والإيستيمولوجية للعلم الغربي . وهكذا تحصل المواجهة التي لا يمكن لأي

مجتمع عربي إسلامي أن يتجنبها فضلاً عن أن ينتصر فيها . وعندما يبحث المسؤولون في هذه المجتمعات عن إطار فكري يتيح تقديم الحلول للمشاكل المطروحة يومياً ومعاشياً ، فإنهم يلاحظون للتَّوْ أن هذا الاطار النظري الفكري غائب غياباً تاماً . فليست لديهم الإمكانية الثقافية من أجل إعادة التفكير في وضعهم ضمن توجه علمي مستنير . إنه ينقصهم من أجل القيام بذلك كل الجهاز التصوري ومناهج العمل التي تصلح لخدمة ايديولوجيا البناء القومي . إنهم لم يعرضوا حتى الآن فكراً نقدياً كبيراً يدرسون به تاريخهم وتراثهم كما فعل الغرب. إن عملاً كهذا لا وجود له في الاسلام. إنهم يعتقدون أن معالجة تاريخية نقدية من هذا القبيل من شأنها أن تخلخل التضامن المجتمعي وتهزه ، مما يؤدي الى ارتكاس لا تُعرف نتائجه ولا تحمد عقباه . والعكس هو الصحيح . فالنقد الصحيح يثير في الطليعة المخلصة طاقة ديناميكية خلاقة تستطيع بها تجييش الجماهير تجييشاً كبيراً وضرورياً في كل لحظات التغيير الكبرى .

فهيَّا بنا الى التغيير أيها السادة وهلمَّ الى التغيير ، فلا محيص لنا ولا مندوحة عن التغيير، وإلاَّ استمرأنا أوحال الأساطير ، وغلبت علينا أماني الأساطير ، وغرقنا في بحار الأساطير !!

الفصـــل الســرابع

حضارة « اقرأ »

تقاس حضارات الأمم بمقدار تقدمهـا في ميادين العلوم والفنـون والآداب وسائر ميادين الفكر المختلفة الأخرى . ولا تتـوانى الأمم العريقـة عن النظر في تاريخها وتراثها ، وخـاصة تـراثها العلمي ، واستيعـابهما واستخـلاص زبدتهمـا لإدخالها في البيئة الأساسية لحركة الفكر الجـديد وعمليـة التطور المقبلة . ومن هنـا تصنع تـاريخها الجـديد وتنسـج تراثهـا المتحرك . لقـد اهتمت الأمم ذات التـراث العلمي بما لـديها من كنـوز وذخائـر نفيسـة فخصصت لهـا أقسـاماً في جامعاتها ، ورصدت الميزانيات الكبيرة لإنشاء معاهد ومراكز خـاصة يعمـل فيها علمـاء نذروا أنفسهم للتنقيب في التـراث والبحث في تاريخـه . ففي الولايـات المتحدة الأميريكية نجد معهد السمسونيان ، وفي إنكلترة معهد الويلكـوم، وفي فرنسا المركز الوطني للبحوث .

ولم يقتصر اهتمام هذه الجامعات والمعاهد على دراسة تاريخ علوم الأمم التي تنتمي إليها ، بل لقد اهتمت أيضاً بالتراث العلمي العالمي ، وفي مقدمتـه التراث العلمي العربي . لأن أوروبا استمدت العلم والمعرفة من أجدادنا العرب كما هو معروف عند القاصي والداني ، فكان لا بد لها لكي تفهم جذور انبعاث نهضتها العلمية أن تهتم بالعلم العربي ومدارسه وأصوله ورجاله .

لذا كان الأجدى بنا والأجدر نحن العرب أن نهتم بهـذا التراث وبتـاريخه وفلسفته لا لاجتراره وتكرار أسماء رجاله ومآثرهم تكراراً ببغائياً ، بل للتمثـل به

والاقتداء بأصحابه لنصنع لنا تراثاً جديداً يقوم على أنقاضه . فدراسة الماضي تساعد كثيراً على معرفة الذات واكتناه خصائصها تمهيداً لإبداع ذات جديدة لا ترفض القديم لقدمه ولا تقبل الجديد لجدته ، بل تَخلق وتختار ، وتقتنص وتشتار ، في عملية مستمرة وحركة دائمة لا تتوقف آناء الليل وأطراف النهار .

إن العلوم هي بلا شك مظهر حضاري ، فالحضارة هي العلوم والفنون والآداب. كما أن دراسة تاريخ العلوم هي دراسة الحضارة، ودراسة الحضارة تعني دراسة فلسفتها ، أي الأفكار التي قادتها ووجهت مسيرتها ، والتي كانت سبباً في نجاحها وتقدمها والوصول الى حضارة أصيلة حقيقية كحضارة العرب . والحق ، إن أهم ما تتسم به حضارة العرب وأصدق وصف يمكن إطلاقه عليها هو أنها حضارة « اقرأ » ، أو قل هي حضارة الكتاب . فمع أن جميع الحضارات قد لا تستغني عن الكتاب أو ما يقوم مقامه ويؤدي وظيفته ، إلا أن ما تنفرد به حضارة العرب والمسلمين من دون سائر الحضارات الأخرى وموطن الأصالة فيها ، هو الدور الذي كان للكتب في الحروب - فقد كانت المخطوطات الإغريقية - واعجباه ! - على رأس تعويضات الحرب التي فرضها الخلفاء على الروم البيزنطيين ، عقب المعارك التي هزموهم فيها ، كعمورية مثلاً .

والغريب أن الروم سعدوا لتسليم تلك المخطوطات والتخلص منها بقدر ما سعد العرب للظفر بها . فهي لم تكن ذات قيمة تُذكر في نظر خزنتها، واعطاؤها للعرب يضع عنهم أعباءً والتزامات مالية وعسكرية كثيرة هم في غنى عنها . بل إن الروم اعرضوا عن كتب الإغريق ، وكثيراً ما ألقوا بها في الأقبية والسراديب وغياهب الكهوف طعاماً للديدان والهوام والحشرات ، هذا إذا لم يحرقوها على رؤوس الأشهاد بحجة أنها تدعو الى الهرطقة والإلحاد . فاستنقذ العرب ما أمكنهم استنقاذه منها وأخرجوها من جحورها وحققوا نصوصها وعلقوا عليها، وبذلك أسدوا للتاريخ وللحضارة خدمة لا تُقدَّر بثمن .

وهكذا كثرت بعثات بغداد وقرطبة فيما بعد . لقد كانت هذه بعثات حضارية فريدة في التاريخ . لقد كان الهدف الذي يحركها والدافع لها شراء

مخطوطات الإغريق بأي ثمن . وكذلك البحث والتنقيب عما اختفى من تلك المخطوطات في الكهوف والسراديب . وقد أصابت تلك البعثات ما فاق كل تقدير .

أرأيتَ إلى هذه الأصالة في حيازة الكتب واقتنائها ! أرأيت إلى هذا التكريم المنقطع النظير للحرف المكتوب ! أرأيت إلى هذا التجسيد الحي لأول آية نطق بها القرآن الكريم « إقرأ » ! أرأيت الى هؤلاء العُبَّاد الخاشعين في هيكل العلم كأن على رؤوسهم الطير ! أرأيت الى هؤلاء العشاق الوالهين يُصلون في محراب الكلمة ويبتلون إليها وتذهب نفوسهم حسرات عليها إذا عرض لها عارض أو نزلت بها نازلة أو مسَّها سوء ! ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من حقها أو فرَّطوا في أمرها ، وإشفاقاً عليها أن يستهتر بها جاهل أو يتنكر لها تافه طائش !

لقد كانت العلوم عند البيزنطيين ميتة بين أكداس الأوراق ، مقبورة في بطون الكتب ، ـ وفي أحسن الحالات ـ مخزونة فيْ بعض الرؤوس كأنها أحجار ثمينة يستمتع الناس برؤيتها وإمعان النظر فيها . فتلقفها العرب وبعثوها ، وبثوا فيها الحياة من جديد ، فأصبحت على أيديهم غذاء للعقول والأذهان ، وأداة للتطور والتقدم ، ووسيلة لكشف المواهب وتحقيق الذات ، ومركزاً للإشعاع والبناء ، ومعدناً للثروة والرخاء ، ومهمازاً للقوى والطاقات يفجرها ويسوقها الى كمالها وأقصى غاياتها .

أجل، هكذا كان شأن الكتب في حضارة الإسلام ومسيرة العرب وهم يصنعون التاريخ بأيديهم . لقد كان الكتاب مفخرة الرجال ومدعاة للتنافس بينهم . لقد كان الناس ـ حكاماً وكُتاباً وشعراء ـ إنما تُعرف مكانتهم بقدر ما يقتنون من كتب وما تزدان به خزائنهم منها . فقد ترك الوزير المهلَّبي عند وفاته عام 963 م . مجموعة من الكتب بلغت ـ على ما يذكر المؤرخون ـ 117,000 مجلد ، كما كان لزميله الشاب إبن عبَّاد مكتبة تحتوي على 206,000 مخطوط . وجمع أحد قضاته 105,000 كتاب . ولم يكن بعض الوزراء يخرج الى رحلة إلا كان معه ثلاثون حملاً من الكتب تصحب ركبه .

واشتملت مكتبة الخليفة العزيز في القاهرة على 1,600,000 مجلد ، فكـانت بـذلـك أجمـل دار للكتب على عهــده وأكملهــا ، منهــا 6500 مجلد فـي الرياضيات ، و 18,000 مجلد في الفلسفة . ولم يمنـع هذا قط إبنـه من بعده من أن يبني مكتبة ضخمة فيهـا ثماني عشـرة قاعـة للمطالعـة الى جوار المكتبـة القديمة .

ونَمَتْ دور الكتب في بلاد الاسلام نمو العشب في الأرض الطيبة . ففي عام 891 م . أحصى مسافر عدد دور الكتب في بغداد مثلاً فوجدهـا تربـو على المئة ، وكان فيها مئات الآلاف من المجلدات . وهكذا كان الحال في كثير من بلاد الإسلام. وحتى المكتبات الصغيرة كانت تشتمل على عدد لا يستهان به من الكتب . فإن مكتبة صغيرة كمكتبة النجف في العـراق كانت تحتـوي في القرن العاشر على 40,000 مجلد ، بينما لم تكن تحتوي أديرة الغرب على أكثر من إثني عشر كتاباً رُبطت بالسلاسل إشفاقـاً عليها أن تضيـع أو أن تمتد اليهـا أيدي اللصوص . وكان لكل مسجد مكتبته الخاصة ، بل لقد كان لكل مستشفى قاعة صُفَّت على رفـوفها شتى الكتب الـطبية لتكـون مادة لـدراسة الـطلاب ومـرجعـاً للأطباء ، ومتاعاً لرواد المستشفى من الزائرين والمرضى الـذين تُمكنهم حالتهم الصحية من متابعة القراءة والاطلاع .

ومهما يكن في هذه الأرقام التي ذكرنا من غلو واسراف، على عادة كثير من الكُتاب العرب ـ فإنها تدل على العقلية التي اتسم بهـا هؤلاء الناس وطلعـوا بها على العالم . إنها إنما تدل على نمط حياة هؤلاء الناس وتضـع أيدينـا على سر تفـوقهم . لقـد كـان الكتـاب هـو السبب الحقيقي الـذي يكمن وراء خـطواتهم الجبارة ، كيف لا وقد كـان معشوق الجميـع لا حفنةٍ من العلمـاء المختصين . أجل ، لقد كان الكتاب هواية العرب الأولى ، وقدس أقداسهم ، وملاذ عقولهم ومهوى أفئدتهم . ومما يضاعف إعجابنا بهؤلاء القوم أضعافاً مضاعفة أن نتذكـر صعـوبة صنـاعـة الكتب على عهـدهم وعـدم إمكـان الحصـول عليهـا إلا بشق النفس ، تلك الكتب التي لم تكن مـطبوعـة على آلة كـاتبة ، بـل إنمـا نُسخت باليد وبذل فيها كاتبوها مجهوداً مضنياً . وكانت أجور النسخ مرتفعة جداً ، وهذا

مما جعل الكتب باهظة الثمن لا يقتنيها إلا القادرون . ومع ذلك فقد كانت للكتب سوق رائجة . فقد تقاضى ابن الهيثم مثلاً مبلغ 75 درهماً أجراً لنسخ مجلد واحد من مجلدات إقليدس ، وهو مبلغ لا يستهان به في حساب تلك الأيام ، إذ ظل إبن الهيثم ينفق منه طوال ستة أشهر .

*

ولا غرو في ذلك . فقد تميز الإسلام من دون سائر الأديان الأخرى بميزتين رئيستين كانتا من أسباب تفتح أبواب العلم والمعرفة أمام معتنقيه على مصاريعها ، وبزوغ الحضارة العربية الإسلامية بسرعة خارقة .

الميزة الأولى هي حض الاسلام على العلم وطلبه في جميع مظانّه ، على نحو لا نجد له مثيلاً في جميع الأديان الأخرى ، وهي أديان تقتصر على الزهد والوعظ والعمل للآخرة ، خلافاً للإسلام الذي كان نموذجاً للجمع بين الدين والدنيا في معادلة دقيقة لا يجور فيها طرف على طرف حفاظاً على روح الإنسجام بينهما .

والميزة الثانية هي التسامح الديني : فقد احترم الإسلام جميع الأديان التي اتصل بها ولا سيما اليهودية والمسيحية . وهناك أيضاً التسامح العرقي : فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى . وهناك أخيراً التسامح الطبقي : فالناس سواسية كأسنان المشط ، والعمل الصالح هو الذي يفرق بينهم أمام الله . إنه وحده معيار الحكم والتقويم .

لذلك فإنه عندما تسلم العرب والمسلمون قيادة العالم وانتقل إليهم زمام السلطة ، وعندما استتب لهم الأمر في تلك الإمبراطورية الواسعة الأكناف والأرجاء ، فتحوا صدورهم للعلماء مهما تكن دياناتهم وأعراقهم وطبقاتهم ، ووصلوهم بالهبات والأعطيات ، لا فرق بين عربي وعجمي ، مسلم أو نصراني أو يهودي ، غني أو فقير ، قوي أو ضعيف . فالكل أمام ولي الأمر سواء .

وبهذه الروح المنفتحة المتسامحة كان يـرأس بيت الحكمة ـ من عـاصمة الاسـلام ـ رجل نصـراني يعقبه رجـل نصراني آخـر ، كحنين بن إسحق مثلاً . وكان يعمل في بيت الحكمة هذا عرب وهنود وفُـرس ومسلمون ونصـارى ويهود وصابئة وآخرون من مختلف الملل والنحل والطوائف والفرق .

لقد كان المأمون يقدم لهم العون المادي والمعنوي بغير حساب . فكـان حُنين على سبيل المثال يتقاضى وزن الكتاب ذهـباً ؛ كما كـان الرشيـد ـ ذلك الرجل الجبـار الذي كـانت تنحني له جميـع الرؤوس والهـامات ـ يقف احتـراماً لكـل عـالم ، بـل لا يتـورع عن صبّ المـاء على يـد رجـل العلم كمـا يـذكـر مترجموه : لقد كان العلماء يجتمعون ويتبـادلون النقـاش والحوار في المسـاجد والقصـور ودور العلم بكل حـرية واطمئنـان وبلا تعصب ولا تـزمت ، بـل كـان للملحدين والزنادقة مجـالسهم في دار الخلافـة وعاصمة الإسلام ، وكـانت لهم كتبهم ونشـراتهم المخالفـة لدين الـدولة والمستهتـرة بالـدين والقرآن . ومـا أمر الرازي وإبن الراوندي عنا ببعيد .

مواقف حضارية رائعة حقاً ، وصفحات مشرقة ناصعة البيـاض في تاريـخ القوم تكشف عن مستوى رفيع من التفكير واستيعاب العقيدة والشـرع لا تشوبـه عُقد ولا حساسيـات ، بل يضـع مصلحة المجتمـع في المقام الأول ، بكـل ما يترتب على إرساء هذه القيمة من رسوخ للعدل ، وعمـارة للأرض ، وسمـو في التفكير إلى غير ذلك مما لا نجد له مثيلاً في العصور الوسطى اللاتينية ، عصور محاكم التفتيش الرهيبة والحقد الديني الشرس الذميم !

فقد كانت مناصب الدولة تعطى للمستحق الكفء دون اعتبـار لعقيدتـه أو مـذهبه ، وبـرؤية مخلصـة صافيـة لمقتضيات المصلحـة الإجتماعيـة التي تأتي أولاً . فقـد ظل الأطبـاء النصـارى في العهـدين الأمـوي والعبـاسي في رعـايـة الخلفاء والأمراء ، وكـان لهم حق الإشراف على مـدارس الطب ببغـداد ودمشق قروناً طويلة .

وهكذا فإن إبن أثال ـ الطبيب النصراني ـ كان طبيب معـاوية الأثيـر ، كما

كان سرجون كاتبه . وهذا مروان يعين إثناسيوس مع آخر اسمه إسحق في بعض مناصب الدولة بمصر ، وما زال يترقى حتى انتهت اليه رياسة دواوين الحكومة . وكان عظيم الثراء ، واسع الجاه والغنى ، حتى لقد كان له أربعة آلاف عبد وكثير من الدور والقرى والبساتين والذهب والفضة . وكان له في مدينة الرُّها وحدها أربعمئة حانوت شيد من ريعها كنيسة فخمة . وكانت شهرته بحيث انتدبه عبد الملك بن مروان لتعليم أخيه الصغير عبد العزيز الذي أصبح والياً على مصر فيما بعد ، وهو والد عمر بن عبد العزيز الخليفة المشهور .

ومن الأطباء المشهورين الذين كانت لهم الحظوة عند الخلفاء أيضاً جورجيس بن بختيشوع . وكان مقرباً من المنصور أثيراً عنده . وكان لجورجيس هذا زوجة عجوز ، فأرسل إليه المنصور ثلاث جوار حسان . فرفض جورجيس قبولهن قائلاً : إن ديني يُحرم عليَّ الزواج ما دامت امرأتي حية في عصمتي . فأعجب به المنصور وزاد في كرامته . ولما مرض أمر المنصور بحمله الى دار الضيافة وأتى إليه ماشياً ليطمئن على صحته ، فاستأذنه الطبيب أن يرجع الى بلده ليُدفن مع آبائه . هنا عرض عليه المنصور الإسلام ليكون رفيقاً له في الجنة ، فرفض جورجيس وقال : رضيت أن أكون مع آبائي في جنة أو نار . فضحك المنصور وامر بتجهيزه، ووصّله بعشرة آلاف دينار .

وكان للمعتصم طبيب نصراني أيضاً هو سلمويه بن بنان . وعندما حضرته الوفاة جزع عليه المعتصم جزعاً شديداً ، وأمر بأن يُدفن بالبخور والشموع على مذهب ملته . كما كان للمتوكل طبيب نصراني من آل بختيشوع هو بختيشوع ابن جبرائيل. وكان صاحب الحظوة عنده ، حتى لقد كان يضاهي الخليفة في أناقة اللباس وحسن الحال ووفرة المال وكمال المروءة .

وكانت الحلقات العلمية برعاية الخلفاء فرصة طيبة للجمع بين مختلف العلماء على تباين نحلهم ومللهم . فكان المأمون يناشد أصحاب الديانات والمذاهب في قصره أن يبحثوا ما يشاؤون دون أن يستدل كل واحد منهم بكتابه الديني حتى لا تثور الفتنة بينهم . فالبحث والنقاش الهادئان يقربان من الحقيقة بقدر ما يبعدان التشاحن والحزازات وإثارة النُعرات . . .

ولم تقتصر هذه الحلقات العلمية على قصور الخلفاء ، بل لقد كانت تُعقد أيضاً على المستوى الشعبي . إذْ يروي خلف بن المثنّى أنه شهد عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يُعرف مثلهم في الدنيا علماً ونباهة ، وهم الخليل بن أحمد صاحب النحو (سنيٌّ) ، والحميَري الشاعر (شيعي) ، وصالح بن عبد القدوس (ثنوي) ، وسفيان بن مجاشع (خارجي صفري) ، وبشار بن بُرد (شعوبي خليع ماجن) ، وحماد عجرد (زنديق شعوبي) ، وإبن رأس الجالوت الشاعر (يهودي) ، وإبن نظير المتكلم (نصراني) وعمر بن المؤيِّد (مجوسي) ، وإبن سنان الحَّراني الشاعر (صابئي) . فكانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار ويتبادلون الأخبار ، ويتحدثون في جو من الوِدّ والصفاء حتى لا يكاد يخطر على بال أحد أن بينهم كل هذه الفروق الدينية والمذهبية .

ولقد ذهب هذا المجتمع العجيب المدهش - وفي صميم القرون الوسطى - مذهباً بعيداً في احترام كرامة الإنسان وتعميق الأخوّة الانسانية دونما نظر الى دين أو طائفة . وكانت قاعدته في ذلك ، الآية الكريمة : « وإنْ أحد من المشركين استجارك فأجرهُ حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه ». إذ لا يكفي أن نجير المشركين والمخالفين لنا في العقيدة والمذهب ، وأن نحميهم ونكفل لهم الأمن والرعاية في جوارنا ، ولا أن نرشدهم إلى الحق ونهديهم سواء السبيل ، بل لا بد أن نكفل لهم أيضاً الحماية والرعاية في انتقالهم حتى يبلغوا مأمنهم بعيداً عن كل نائبة أو غائلة . فيا لهذا المجتمع الكبير !

*

ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المجال أن عدداً كبيراً من حملة الفكر العربي الإسلامي إنما كانوا دوائر معارف حية متحركة وموسوعات مفكرة تسعى . فقد أنجبت الحضارة العربية الإسلامية جهابذة عظماء وأفذاذاً كباراً يتميزون بسعة الأفق وغزارة الإنتاج ، وخصب المادة ، في ميادين وحقول متنوعة يسود فيها كثير من الترابط العضوي . فقد كان الطب والعلوم والفلسفة معارف متلازمة بعضها مع بعض . وكذلك علم الكلام والشريعة كانا ينتميان الى زمرة واحدة .

والمدهش أنه كان هناك أشخاص يجمعون بين هذه الفروع كلها . ولم يكن نادراً وجود الفقهاء الذين كانوا أدباء وشعراء في وقت واحد ، بل لقد التقى الشعر والرياضة والفلك في حيز عقل واحد لدى بعض علماء المسلمين كالخيام مثلاً .

فالكندي ـ بالإضافة الى كونه أول فلاسفة الإسلام بلا منازع ـ غزا علوماً كثيرة : كالطبيعة والمنطق والهندسة والحساب ، وأضاف إليها مادة جديدة ، وبثّ فيها دماً جديداً وروحاً جديدة لم تعرفها علوم اليونان . وهذا الجاحظ ، شيخ الفصاحة وأمير البيان ، كان يكتب ـ بنَفَس واحد وعلى مستوى واحد من الإتقان والجودة والعمق والشمول وخفة الظل ـ في العقائد والأدب والتاريخ الطبيعي والطب والأجناس والحيوان وأخلاق البشر وعادت الأقوام والشعوب . وتناول في كتاباته ـ معتمداً على المنهج التجريبي ـ أموراً علمية كثيرة ، ولا سيما في علم الحيوان ، ووصل الى نتائج وآراء مخالفة لتلك التي أثبتها آرسطو في تصانيفه . وهناك موسوعي آخر يكاد يضاهي الجاحظ في سعة العلم وحرية الفكر وكثرة التأليف وتنوع الكتب ، هو إبن قتيبة . وهو يشبهه أيضاً في أن معظم كتبه الرئيسة قد نجت من عبث الأيام حتى وصلت الينا . فكتابه (أدب الكاتب) هو خزانة علم الأدب ، ولو فُسر هذا الكتاب وبُوّب لكان دائرة معارف وموسوعة شاملة . وأما كتابه (عيون الأخبار) فنموذج جميل من كتب الأدب بمعناه الواسع عند العرب ، وهو معني يقابل تقريباً ما نسميه في هذه الأيام بالآداب أو الإنسانيات . والدينوري من هذا الطراز أيضاً . فقد ألّف في النحو واللغة والتاريخ والهندسة والحساب ، ولا يزال كتاباه الرئيسان (الأخبار الطوال) و (الامامة والسياسة) من معضلات التواليف في مكتباتنا العربية ، لأن الخلاف طويل في أصول مادتهما ونسبة بعض فصولهما اليه . ومن هذا القبيل أيضاً أبو العباس المبرِّد . فكتابه (الكامل) هو ـ بحق ـ موسوعة لعلوم العرب إلى أيامه[1] . فهو يتناول كل فن : الأدب والتاريخ واللغة والدين والطب .

---

(1) أواخر القرن الثالث للهجرة التاسع للميلاد.

وهو ينتقل بقارئه من فن الى فن على نحو كان يُعجب القدماء ، ولكنه يجهد الباحث الحديث . إذ كانوا يرون أن الاستطراد من موضوع إلى موضوع من شأنه أن يساعد القارىء على القراءة ويبعد عنه الملل ، بينما نحن نرى في ذلك في هذه الأيام تجزئة لوحدة الفكر والموضوع . فلكل عصر نمطه في الكتابة والتأليف . كما إن الفارابي لم تقتصر مؤلفاته على الفلسفة وحدها ـ وهو سيدها وابن بجدتها ـ بل لقد تناول جميع فروع المعرفة أيضاً . ووضع كتاب (إحصاء العلوم) ، وهو أول دائرة معارف منسقة في الإسلام خالية من الإستطراد والتشويش . وكان الرازي حجة في الفلسفة والطب والكيمياء والصيدلة والموسيقى ، وكذلك إبن سينا أمير الفلاسفة وشيخ الأطباء والعالم الجهبذ النحرير . فقد التقت فيه شخصيات عديدة قلما نجد لها شبيهاً إلا في النادرين من نوابغ الفكر والمعرفة . فهو فيلسوف منهجي ، وطبيب نطاسي عبقري اكتشف جوانب كثيرة في مجاهل الطب . وهو في الوقت ذاته منطقي كبير أضاف الكثير الى المنطق الصوري القديم ، وصحح إتجاهه الممعن في الاستدلال ، وأعطاه الصبغة التجريبية التي سبق بها رواد المنطق الحديث[1] .
وله أيضاً في الفلك والطبيعيات آراء ونظريات قيمة . وهو علاوة على ذلك رجل سياسة تولّى الوزارة على عهد شمس الدولة البويهي مرتين . ولا يفوتنا أن نذكر في ختام هؤلاء المؤلفين الموسوعيين أخيراً جمعية إخوان الصفا التي خلّفت لنا دائرة معارف شاملة لكل علم وفن وصناعة كانت قد ظهرت حتى القرن الرابع للهجرة ، وهو القرن الذي بدأوا فيه إصدار رسائلهم المشهورة وبثها في الآفاق .

وهؤلاء الموسوعيون هم الذين أعطوا الفكر العربي الإسلامي طابعه الموسوعي الإنساني . ونحن لم نذكر منهم إلاّ أكابرهم . فبينما كان شارلمان ـ أكبر أباطرة الغرب في العصور الوسطى كلها ـ لا يعرف من الكتابة إلاّ رسم اسمه ، كان المجتمع العربي لا يرضى عن حاكم بلد صغير إلاّ إذا كان على

---

(1) أنظر كتابنا من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية صفحة 488-493.

حظ وافر من المعرفة بالتـاريخ . والشعـر والنثر وعلوم الـدين والطب والحكمـة وأحوال الدنيا . فقد كان لزامـاً على كل من يـطمع إلى الـرياسـة ، أو إلى مقام رفيع في المجتمع أن يصل الى مستوى لائق من المعـرفة بهـذه العلوم والتحقق بها . وقد يكون الرجل خليفة واسع السلطان أو أميراً عـظيم الولايـة ، أو قائـداً عظيماً أو تاجراً ذا مـال عريض ، ولكن الجميـع لم يكن يعترف بمكـانته إلاَّ إذا تحلَّى بالثقافة الواسعة ، وقرأ عدد لا يستهان به من الكتب، وجالس أهـل العلم والأدب ، وحضر حلقاتهم وشاركهم الحديث ، وطـارحهم الشعر ، لأن الأدب ـ أي الثقافة الإنسانية الواسعة ـ كان شرطاً من شروط الظهور والرياسـة ، في ذلك المجتمع العربي الإسلامي المثقف العتيد .

لقـد كان مجتمعـاً عجيباً حقاً، ارتفع عن النـزعات العنصـرية والخـلافات الدينية ، والتعصب المذهبي ، ولا سيما في عصور مجدهِ وازدهاره . إنه مجتمع دينُه الإسلام ، ولسانه العربيـة ، وهاجسه التطلع والبحث والنظر ، وإلهامه تفتح القلب وانبثـاق الروح والـوجدان في حـركـة نـاميـة صـاعـدة تنـطلق الى المـلأ الأعلى . إنه مجتمع عربي إسلامي معـاً ، رغم التداخـل الشديـد بين العروبـة والإسلام وصعوبة معرفة نصيب كل منهما فيه . فليست العروبة إسلاماً ، وليس الإسلام عروبةً ، والعلاقة بينهما علاقة متشابكة معقدة .

لقد ضم المجتمع العربي كل ما هو عربي ومن هو عربي ، مسلماً كان أو نصـرانياً أو يهـودياً أو صـابئياً ؛ كمـا ضم المجتمـع الاسـلامي كـل مـا هـو من الاسلام وكل من كان مسلماً ، عربياً كان أو أعجمياً ، ما دامت اللغة العـربية لـه لساناً ناطقاً ، ويراعاً كاتباً ، ومنبراً مجلجلاً .

أجـل ، لقـد كـان العلم والفكـر أعـظم أمجـاد هـذا المجتمـع العجيب المدهش . فقد اتسم طـوال عصوره الـذهبية بـاتساع الأفق ، ورحـابة الفكـر ، وموضوعية المعرفة ، وهو مجْد تساوى فيه الحكام والمحكـومون . فليس أدعى إلى غبطةِ أهل الرأي وأصحاب الفكر المتحرر ، من أن يتصوروا المأمون مثلاً ـ وهو أمير المؤمنين وحامي حمى الإسلام ـ يعقد المجالس والنـدوات العلمية في قصـره ، ويقعد للمنـاظرة والمـذاكرة مـع كل ذي فكـر ، على اختـلاف دين ،

واختلاف نشأة ، بل على اختلاف لسان ، ومتى عاش المأمون ؟ عـاش قبل أن يتحرر الفكر الأوروبي بقرون ، وهو مات قبل اليوم بحوالي ألف ومئتي سنة .

قـال نبيُّ الإسلام : « أطلب العلم ولـو في الصين » . وطلبـه خلفـاءُ بني العباس في الصين وفي غير الصين . وهل هناك أمتـع لرجـل العلم من أن يرى العالم الفلكي الهندوكي منكا ، يدخل بلاط الخليفة المنصور ليؤدي إليه بالـذي عنده من العلم ؟ ومن سَعَى به إلى بـلاط الخلافـة ؟ إنه أبـو إسحق إبراهيم بن حبيب بن سليمـان الفزاري العـربي المسلم ، وكان فلكيـاً مثله ، ومع ذلـك لم تدخل الغيرة والحسد الى قلبه .

لقد كان رائد العرب دائماً طلب الحكمة ، فإن « الحكمة ضالة المؤمن ، أينما وجدها التقطها». هكذا قال نبيهم. لذلـك أقبلوا على حضارات الشعـوب التي اصطدموا بها، بصدرٍ رحب وفكرٍ منفتحٍ وأُفقٍ متسعٍ، بلا خوف ولا وجل. إذْ « ينبغي ألا نستحي من استحسان الحق واقتناء الحق من أين أتى ، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المبـاينة [لنـا] . فإنـه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق ، وليس [ينبغي] بخسُ الحق ولا تصغيرٌ بقائله ، ولا بالآتي به . ولا أحد بُخس بالحق ، بـل كلٌّ يُشـرِّفه الحق » . إن هـذه الكلمات قـد وردت في مقدمة أقدم كتاب وُضع في (الفلسفة الأولى) ألَّفه الكندي وأهـداه إلى الخليفة المعتصم[1] .

وبهذه الروح استوعب العرب والمسلمون الحضارة الجديدة استيعاباً قـوياً مثمراً ، حتى أصبحت جزءًا حياً من الفكر العـربي والثقافـة الإسلاميـة والتراث الناشيء الجديد. لقد امتصت العقلية الاسلامية الغذاء الذي قدَّمه رصيد العـالم القـديم الضخم بعد أن أصبـح متوفـراً بالعـربية ، فـأدى ذلك الى قيـام مدارس الفلسفة والعلوم والفنون المختلفة التي سيطرت على أفق الحضارة الاسلاميـة ، نتيجـة لتـطبيق مبـادىء الإسـلام على أشكـال المعـرفـة المختلفـة التي ورثهـا المسلمون عن الشعوب ذات الحضارات العريقة، ولدمج هذه الأشكال المختلفة

(1) أنظر كتابنا الكندي صفحة 139.

من المعارف في صميم النظرة الإسلامية إلى الكون والإنسان والحياة المصير. وأضيف ذلك كله الى عالم النظر الإسلامي وأصبح ملكاً له لا ينازعه فيه منازع. فإن جميع المذاهب الفكرية التي نشأت عن ذلك العالم إنما هي مذاهب عربية إسلامية، ما دامت المفاهيم والأشكال التي كانت تستعملها قد انصهرت في النظرة العربية الإسلامية، أو فكرت بعقليتها، وأنتجت بوحي من مثلها وأهدافها، وفي ظل قيمها ومعاييرها.

إن الحضارة التي انتجت كل هذا أو غير هذا هي حضارة عريقة أصيلة حقاً، دامت قروناً طويلة، واتسعت حتى شملت جميع أرجاء العالم المتمدن القديم، لما فيها من طاقة حيوية، وقدرة انشائية، وسلطة قانونية، وقابلية عمرانية، وحكمة أخلاقية، وقوة روحية، ومواهب عقلية وآفاق فكرية. لقد أخذت من الحضارات التي سبقتها عناصرها الفعّالة، ثم أعطت الحضارات اللاحقة أضعاف ما أخذت. إنها لم تأخذ إلاّ لكي تعطي. إنها لم تقبل التراث الفكري القديم إلاّ لكي تهضمه بعقليتها الجديدة وتتمثله بمنطق تفكيرها وروح عقيدتها وبكل أصالة تاريخها.

إن المفكرين العرب المسلمين وهم يستوعبون المذاهب القديمة ويستعينون بها في عملية البناء، لم يسيرو على مبدأ عبادة القديم لقدمه أو رفضه لمجرد مخالفته لمألوف حياتهم وإن شذ منهم من شذ بطبيعة الحال ـ وإنما كان رائدهم في ذلك مبدأ البحث عن الحقيقة لذاتها دونما اعتبار للجنس أو المذهب أو الدين، وهم يرددون في ذلك ما أسلفنا من قول مأثور عن النبي عليه السلام. «الحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها التقطها». لقد كان شعارهم أيضاً قول الغزالي «لا تعرف الحق بالرجال، إعرف الحق تعرف أهله». لقد أخذوا ما أخذوه دون الشعور بأي ارتباط بهذا الشعب أو ذاك. إنهم طلاب حقيقة، وهذا حسبهم، بل شرف كبير لهم. إنهم لم يُقْدموا على النقل والاقتباس للتجمل والزينة، وليباهوا الناس بكثرة الأحجار الكريمة، والأساور والعقود والخلاخيل المزدانة باللآلىء والدرر، بل لبناء الذات، واستدراك ما فات، واستكمال أسباب الحياة. وقد تحقق لهم ما أرادوا، وحدثت

المعجزة ، وخرج المارد العربي من قمقمه ، وتوالت قوافل الرجال .

ولا يسبقَنَّ الى حدسك أن الحضارة العربية الإسلامية ، ينبغي أن تكون كالحضارة اليونانية سماتٍ وأوصافاً وخصائص . كلا فإذا كانت الفلسفة هي أعظم أمجاد هذه الأخيرة ، فليس معنى ذلك أن الفلسفة يجب أن تكون عنواناً لجميع الحضارات التي أتت بعدها ومعياراً صادقاً لتقويمها والحكم عليها في كل زمان ومكان . فلكل حضارة مذاقها ونكهتها ، ولكل حضارة أمجادها وآفاتها . والمجد ـ في أي ميدان كان ـ لا بُدَّ له من عمالقة أفذاذ أوتوا حظاً غير قليل من عمق التفكير ، وأصالة الرأي ، وقوة القريحة يستطيعون به مواجهة عالم الأذهان وعالم الأعيان . إن أعظم مجد تحققه الحضارة هو المجد العقلي ، لكن المسلمين بدلاً من أن يحققوا هذا المجد في الاستغراق في عالم الأذهان وحده كما فعل اليونان ، فقد أقبلوا أيضاً على عالم الأعيان يدرسونه ويمحصونه . فإن الحضارة العربية التي لا تقل عن الحضارة اليونانية تعلقاً بالمجد العقلي ـ بل يمكننا القول إن المجد العقلي كان عنواناً واحداً فقط من عناوينها ـ لم تستنفد هذا المجد في متاهات العقول ومسارح الأحلام كما فعل أفلاطون وارسطو مثلاً ، بل لقد تفتحت على آفاق كثيرة من آفاق الحياة العقلية ، ولم تقتصر على أفق واحد بعينه هو أفق الفلسفة الميتافيريقية . وآية ذلك ، نهضة العلوم الطبيعية المختلفة وازدهارها في بلاد الإسلام في صميم العصور الوسطى[1] . لقد استغرق التأمل الفلسفي مفكري اليونان حتى اغفلوا النواحي العقلية الأخرى أو كادوا ، لكن عالم الأعيان يتطلب مواهب خاصة لم يعرفها اليونان وحلولاً لمشاكل ومعضلات أشد شكيمة من مشاكل عالم الأذهان ومعضلاته ، لأن معالجة الأفكار ـ ولا سيما في تلك العصور ـ تظل أسهل مراساً واسلس قياداً وألين عريكة في معالجة عالم الواقع العاتي المتمرد . ومع ذلك فإن العرب لم يقصِّروا البتة في إنجاب نصيبهم الكامل من الفلاسفة الخُلَّص الذين استمرأوا الحياة في عالم الأذهان فقبعوا فيه وغلَّقوا من دونهم الأبواب .

---

(1) أنظر الباب الثالث من كتابنا الجامع في تاريخ العلوم عند العرب .

فالحياة العقلية ليست حكراً على الفلاسفة وقفاً عليهم وحدهم ، ولا تقاس الحضارة بعدد الفلاسفة فيها . ففنون الحضارة كثيرة والتنوع أمر ضروري في الحضارات الراقية ، وجزء لا ينفصل عن حياة الأمم والشعوب التي اكتمل تنظيمها وبلغت درجة عالية من النضج . وإنما يرجع إلى ظروف الزمان والمكان والمستوى العقلي والوضع الحضاري ، والمرحلة التاريخية والحاجات الروحية والاقتصادية والخصائص القومية، أن تُغلب ظلالاً على أخرى، وأن تعطي للحياة مزاجاً معيناً يختص به حقبة دون أخرى ، فإذا تغير أحد أطراف المعادلة تغيرت الظلال وتغير المزاج ، وبالتالي اختلف النتاج . وسنجد في تضاعيف الكتاب ولا سيما في الخاتمة تعليلاً لهذه الظاهرة من شأنه أن يضع السِّيْكوسوسيوديناميكا على المحك . إن الأمور بخواتيمها وهذا الكتاب بخاتمته ، وموعدنا الخاتمة . وعلى كل حال ، إن ما قدمه المسلمون في عصورهم الذهبية كان أقصى ما يمكن للعقل الإنساني آنذاك ـ بامكانياته المتواضعة المعروفة ـ أن يقدمه . وكذلك فعل اليونان في الزمن القديم ، والأوروبيون والأميركيون والسوفيات في العصر الحديث ولا يزالون كذلك حتى الوقت الحاضر .

ومن هنا لا يمكن أن نعطي صورة كاملة ـ أو قريبة من الكمال ـ عن الحضارة العربية الإسلامية ـ إذا نحن اقتصرنا على فنٍّ واحد من فنونها كالفلسفة أو العلم أو الكلام أو التصوف أو الأصول . . . فإنما هذه الفنون هي جوانب من حضارة واحدة اتخذت تعبيرات مختلفة يجب النظر اليها جميعاً وإدخالها في الحسبان عند تقويم هذه الحضارة وإصدار حكم عام عليها . بل إننا لنذهب الى أبعد من ذلك فنقول إن التقويم يجب ألا يكتفي بمجرد استيعاب هذه الفنون في نظره شاملة واحدة لإصدار أي حكم عليها، بل لا بد في رأينا من التغلغل في صميم الفن الواحد لمعرفة ما إذا كان له أكثر من تعبير أو مستوى . فهناك إتجاهات ومدارس في صميم هذا الفن أو ذاك قد يزيد البون بينها عنه بين الفن والفن . وهذا أشد ما يكون وضوحاً في الفقه والكلام والفلسفة . فإذا أردنا تقويم الفلسفة الاسلامية مثلاً فإنه لا يمكن أن نعطي صورة كاملة عنها إذا نحن

اقتصرنا على ما كتبه الفلاسفة الخُلَّص وحدهم ، حتى ليذهب البعض الى أن أكثر هؤلاء الفلاسفة لا يمثلون الفكر الإسلامي في شيء[1]. إلا أننا لا نذهب هذا المذهب من الغلو والشطط ، بل نرى أنهم يمثلونه كما يمثله الكندي والغزالي ، وكما يمثله أيضاً المتكلمون والأصوليون والفقهاء والصوفية على تفاوت في ذلك . فالفقه ، وأصول الفقه وعلم الكلام والتصوف و . . . فضلاً عن الفلسفة ، كلها تعبيرات جزئية مختلفة عن الوضع الكلي للفكر العربي والحضارة الإسلامية، والاختلاف في التعبير بينها إنما هو دليل غنى وثراء وطاقة حيوية وكثافة فكرية وروحية معقدة وشاملة . فمن فلاسفة الإسلام من اقترب من أفلاطون وارسطو دون أن يفرّط في إسلامه ، ومنهم من باع إسلامه ودينه وجرى وراءهما ودار في فلكهما ، ومنهم من أخذ بمبادىء فلسفة ما قبل سقراط ، ومنهم من جمع بين تراث الهند وفارس وتراث اليونان بروح اسلامية ، ومنهم من اتجه اتجاهاً اسلامياً خالصاً لا أثر فيه لمباحث اليونان أو غير اليونان وكان في تفكيره مع ذلك كثير من الأصالة والعمق والإبداع ، بل منهم من ابتعد عن الإسلام وخاصمه وأعلن الحرب عليه وعلى كتابه المقدس . كل هؤلاء قد نبغوا في جو الإسلام واستمدوا من رفده وكتبوا بلغته . لقد اتسع الإسلام لكل هذا دون أن يضيق به ذرعاً ، لقد اتسع لأبنائه كما اتسع لخصومه ومناوئيه .

إن الدراسة الموسوعية التركيبية المعمقة هي وحدها القادرة على استيعاب الحضارة العربية الإسلامية وتقويمها . هذه الحضارة التي كان وراءها الفكر العربي الإسلامي في إبان عصر ازدهاره . وهذا الفكر لم يكتف بتعبير واحد فقط ، بل لقد اتخذ لنفسه تعبيرات شتى وصوراً متنوعة وأنماطاً متباينة ، تختلط فيها موارد الفلسفة بمياه الاسلام ، وأنظار العقل بتجارب الإيمان ، وأطياف الدين بظلال الكفر والزندقة والالحاد ، على تفاوت في القوة والأصالة . لكنها جميعاً تظل أفكار المسلمين ، ويظل الإسلام - حتى ولو خاصمته ورفضته - مبعث نشاطها وقوة الدفع فيها . فما من بحث عقلي عرفه المسلمون إلاَّ كان منطلقه إسلامياً : بدأ أولاً بتفهم تعاليم الاسلام ونصوص القرآن ، وشبَّ في

(1) د . علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام 2 21 .

أحضانهما وتغذى بلبانهما ، ثم بدا له فشق العصا عليهما . لقد تطور هذا الفهم بحكم نموه الذاتي وبما تسرب إليه من عناصر أجنبية اتسعت بها آفاقه ، واتصل بتفاصيل العقائد والنحل وامتزج بها ، وأثر فيها وتأثر بها ، ورفدها واسترفدها ، ونهل من ينابيعها ووصلها بينابيعه وطبعها بطابعه وبث فيها روحه وأمدها بوحيه وإلهامه . فهناك إذن أخذ وعطاء وتفاعل ومواجهات وتحديات أخضعت الفكر العربي الإسلامي للعديد من التغيرات والتبدلات خلال رحلة حياته الطويلة ، وما زال أمره كذلك حتى شبَّ عن الطوق وبدا أنه بعيد الصلة بأصله الأول ، وما هو ببعيد . فالشجرة هي البذرة وقد اكتمل نموها وآتت أكلها ، رغم ما بينهما من فوارق إن خدعت السذج والأغرار فأنكروا وحدة الأصل والهوية بلا تدبر ولا اختبار ، فإنها لا تخدع ذوي البصائر والأبصار . هيهات هيهات أن تخفى على الخبير الفطن اللبيب ، وكل ذي عقل راجح أريب .

وهكذا فالفكر العربي الإسلامي شديد التنوع ، كثير التشعب ، متعدد الجهات والوجهات والتوجهات ، مختلف الأطياف والألوان والظلال ، وقد انعكس ذلك كله على حضارته فكانت مرآة له تعددت فيها الصور والأشكال، واختلفت فيها الأضواء والزوايا والأوضاع . فمهما تكثرت المعطيات ، واختلفت الاتجاهات ، وتشعبت الطرق والمسالك ، وتباينت وجوه التعبير فإنه في علم الكلام هو نفسه في علم أصول الفقه ، وهو هو نفسه في علم الهيئة والطب والكيمياء والفلسفة والرياضة والتاريخ والاجتماع ، بل ـ ماذا أقول ؟ ـ هو نفسه حتى في الزندقة والإلحاد ، ما دام كل أولئك تعابير عن الاسلام وجو الإسلام واصطراع الاسلام باللاإسلام . فما كان لتعبير واحد من هذه التعابير ليستوعب حقيقة ما قد أحدثه الاسلام . كلا وما كان لواحد منها أن يتحقق لولا ظهور الإسلام . فكل أولئك إنما يصدر عن خوض واحد ويُسقى بماء واحد وينهل من معين واحد، انه التعدد في الوحدة والوحدة في التعدد. فإذا لمح الدارسون في هذه الوحدة عناصر افتراق ، فإنها (أي العناصر) ليست من التشتت والتباين بحيث تغيب وراءها آيات الوحدة أو تذهب معالم الانسجام . وإذا لمحوا في

هذا التعدد انعداماً للوحدة فإنه (أي التعدد) ليس من التماسك والقوة بحيث يندمج فيه العناصر اندماجاً لا رجعة عنه يمنع كل تحرك أو تميز أو تحليل . إنها لوحة فنان رسمتها يدٌ صناعٌ فيها الألوان والخطوط والأشكال والظلال كأنها روضة في وادي عبقر ، الوادي المعشوشب الممراع . إنها الشمس تشع بالنور والدفء والحرارة ، وتهب الحياة والقوة والنشاط ، وتكتظ بجميع الأطياف والألوان ، وهي هي واحدة معطاء . فسياسة صب الناس في بوتقة واحدة وقالب واحد من حيث الكم والكيف ، سياسة ساذجة جاهلة لا تدرك خصوبة الفكر الانساني وتنوع المظاهر والصور والأشكال التي يتخذها كلما أمعن في الوجود وازداد في الإشعاع والعطاء والجود !

*

لقد أنجب الإسلام عدداً لا يحصى من الرجال الذين طبقت شهرتهم الآفاق ، وذلك في مدة قصيرة نسبياً لا تتجاوز الأربعمئة سنة . إن عصور التاريخ الذهبية وحدها ، عصور الثورات الكبرى والإشعاع العظيم ، هي التي يشهد فيها المجتمع في مثل هذا الزمن القصير ذلك العدد الجم من الرجال الأفذاذ الذين ذاع صيتهم في القيادة والحكم والإدارة والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والاجتماع ، واللغة والرياضة والفلك ، والكيمياء والطبيعة والطب ، وعلوم الدين والقلب والوجدان ، أي في القرون الأربعة الفاصلة بين هرون الرشيد وابن رشد . لقد كان هناك رجال عظام قبل هذه الفترة ، ولكنهم إنما كانوا أول الغيث . وكذلك كان هناك رجال عظام أيضاً بعد انقضاء هذه الفترة ، لكنهم القطر يسَّاقط آخر الغيث . لكن الغيث كل الغيث إنما ينحصر فيما بين الفترتين . فإنما تاريخ الأمم إما جفاف في جفاف وهذه حال أكثر الأمم ، وإما جفاف فطلٌ فوابل فطلٌ فجفاف ، وهذه حال القلة من الأمم ، ولن يتكرر الغيث أو الوابل لأمة من الأمم ، بل هو دُوْلة بين الأمم . ولا شأن للعرق أو اللون والدين في الوابل يصيب الأمم .

وعلى كل حال ، إن الحشد العظيم من الرجال الأفذاذ الذين ظهروا في تاريخ العرب والإسلام قد تجلّى بكثافة هائلة وتركيز شديد في القرون الأربعة

المذكورة . وهذا النشاط المتلألىء الجبار قد استمد بعض مادته من تراث الأوائل ، إلا أن معظمه كان نشاطاً مبتكراً ، بل يمكننا أن نقول واثقين إن هذه الذروة من نهضة الإسلام كانت في بعض نواحيها تحريراً للشرق الأدنى والأوسط من سيطرة اليونان العلمية كما يقول ديوارنت(1) .

إنها حضارة راقية عظيمة تلك التي كانت وراء هؤلاء القادة والرادة والمفكرين الذين صنعوها وتكشفت مواهبهم فيها. لقد كانوا بُناتها بقدر ما كانوا ثمراً يانعاً من ثمارها . فبسواعدهم وعرق جبينهم إنما قامت ، وبالفُرص التي أتاحتها لهم ومُثل الحرية التي كانت تؤمن بها إنما برزوا وابتكروا . إن الفكرة لا تموت بالقضاء على صاحبها ، بل إن ذلك يزيدها اضطراماً ويزيدها نمواً وازدهاراً . فالفكرة إنما تُكافح بالفكرة ، والرأيُ بالرأي ، والبقاء للأصلح . فإذا دخلت القوة الغاشمة أفسدت كل شيء . لقد كان من السهل جداً قتل أبي بكر الرازي وابن الراوندي لنقدهما الإسلام وطعنهما في القرآن ، وسخريتهما بكثير من عقائد الدين . ولعلهما كانا يتمنيان ذلك ، إذن لماتا شهيدَيْ آرائهما ، فذلك أدعى لانتشار آرائهما ، فضلاً عن أنه الطريق الى الخلود . ولكن المجتمع الكبير تركهما وشأنهما وأهاب بثلةٍ من رجال الفكر أن تتجرد للرد عليهما بالحوار والنقاش ، سيراً على القاعدة القرآنية المشهورة « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن »(2) .

فلولا ما في هذه الحضارة من إيجابية ، لولا ما فيها من مُثل الحرية والأخوة والمساواة والكرامة الانسانية، لما وصلت إلى ما وصلت اليه . وهكذا فالشرط الأول لكل إبداع إنما هو توافر الحرية الفكرية . إن الحرية هي أخشى ما يخشاه العتاة والطغاة والظالمون . إن ازدهار الحركات الفكرية لا يتأتّى إلا في الأنظمة التي من شأنها أن تترك للأفراد حرية التحرك والتصرف في نطاق القانون ، ولا تضع قيوداً على مبادراتهم ، وتفتح الأجواء أمامهم لتكوين منظور عقلي جديد ، وبناء نظام فكري ذي أبعاد مختلفة يُشيع في النفوس القوة

---

(1) قصة الحضارة 13|387.

(2) قرآن كريم 16|125.

والأمل ، وينمي في الأفراد والجماعات كل أسباب الثراء العقلي والطاقة الخلقية ، بحيث تتوافر لهم مرونة التصور ، والقدرة على تغيير ذواتهم وتقوية حوافزهم وروح المبادرة فيهم ، ويترك لهم حق القيام بمغامرات عقلية ، بكل ما تحمله أمثال هذه المغامرات من نجاح أو فشل ، ومن صواب أو خطأ . فالقسر والقهر يشل التفكير ويقيد خطواته ، وهو ينطبق عليه ما جاء على لسان أحد الفلاسفة : « إنكم لتبدأون بأن توثقوا أذرعنا وسيقاننا ، ثم تعجبون بعد ذلك كيف أننا لا نقوى على الحركة ؟ » .

إن القمع والبطش والإرهاب الجسدي والفكري يُلقي على المبدعين أثقالاً جساماً يشل بها أذهانهم. ان «الحجْر العقلي» الذي يفرضه الظالمون على الأقلام الحرة والألسنة الصادقة قد يعود عليهم بأوخم العواقب ، بل هو في كثير من الأحيان وقود يشعل الدنيا في وجوههم من هنا تنطلق الثورة . إن الرأي المخلص ، والكلمة الطيبة ، والفكرة الصادقة ، وقول الحق للحق ، إن كل أولئك اعدى أعداء السلطات الغاشمة المستبدة التي تأخذ الناس على الظنة . إن حرية الفكر ليست من قبيل الترف العقلي ، إنها مطلب أساسي ضروري من مطالب الحياة . إنها الخبز اليومي الذي لا بد منه في « قُوتنا العقلي». إنها ضرورة أولية من ضرورات التقدم والتطور . ولم تكن الحضارة العربية الاسلامية لتقدم ذلك العدد الهائل من القادة والرادة والعلماء والمفكرين والفلاسفة والأدباء والحكماء وغيرهم من سدنة المعرفة وحملة شعلة الثقافة إلا لأنها ـ بأجواء الحرية التي أتاحتها لهم ـ قد فتحت صدرها لمغامرات العقل التي قام بها رجال طليعيون يمارسون حقهم في التفكير والتأمل دونما حَجْر على حرياتهم، أو وصاية على أفكارهم وآرائهم. فكيف لا يكون جو كهذا باعثاً على تدفق الفكر والخيال ، وانثيال المعاني على أصحاب القرائح أرسالاً بعد أرسال ؟!

نعم ، كان يحدث أحياناً بعض الاضطهادات ، لكن ذلك لم يكن لأن أصحابها يجاهرون بآراء جريئة مخالفة للدين ، بل لمواقف معينة يهددون بها سياسة الدولة ومصالح الحكام . فلم يُقتل الحلاج مثلاً لمقالته المشهورة « أنا

الحق» أو «ما في الجبة إلاَّ الله»، بل لمناهضته للخلافة العباسية، ولم يكن الدين سوى ذريعة لإصدار الحكم بقتله. يدل على ذلك أن أبا يزيد البسطامي قال كلاماً أشد فحشاً في الظاهر: «لا إله إلاَّ أنا فاعبدوني، سبحاني ما أعظم شاني»! فلم يُقتل بل التُمست له الأعذار وتجند كبار رجالات الإسلام للدفاع عنه والمنافحة عن عقيدته السليمة، كالغزالي مثلاً.

لا شيء بعد الخبز أعز على الناس من عقائدهم الدينية. فليس بالخبز وحده يحيا الانسان، بل إنما يحيا معه بالإيمان الذي يشد عزيمته ويبعث فيه الرجاء والأمل. ولهذا فإن قلب الانسان لا يطيق أبداً من يهدده في رزقه وعقيدته، إنه لا يتنازل عنهما ويبذل الرخيص والغالي في سبيلهما. إن بقاءه مرهون بهما، فكل ما يهددهما فيه تهديد للبقاء. وهذا ما أدركته الحضارة العربية الإسلامية منذ وقت مبكر جداً. فهو مكرمة فريدة لها واكتشاف فذ من اكتشافاتها. فلا غرو بعد ذلك أن تقوم دعوات مخلصة صادقة في صميم هذه الحضارة لتوحيد الأديان ونبذ التعصب قادها الصوفية واخوان الصفا، وهي دعوات غريبة عن روح العصور الوسطى - عصور محاكم التفتيش والاضطهادات الدينيه الدامية والتعصب الذميم - مما لا نجد له مثيلاً في غير بلاد العروبة والإسلام. وهذا ما يفسر لنا اشتراك علماء اليهود والنصارى والصابئة وسائر أصحاب الملل والنحل، في جميع وجوه النشاط الفكري مع علماء المسلمين سواء بسواء.

تلك هي أهم سمات الحضارة العربية الاسلامية التي اكتفينا منها ببعض العناوين الكبيرة، تاركين للمختصين أن يتوغلوا في سائرها. ومع أن الناس في هذه الحضارة قد اختلفوا واختصموا سياسياً وعسكرياً لغايات ومبادىء شريفة حيناً ولأسباب حقيرة تافهة أحياناً، فقد ظلوا مجتمعاً واحداً له نمطه الواحد من القيم والمثل وله التزامه الخلقي الواحد. وقد تحاور العرب والفرس والهنود على نطاق واسع، بل لقد تحاور العرب والروم أيضاً واستمر الحوار حتى لقد وصل الى جيوب الحضارة اللاتينية. ثم توقف الحوار في عصور الإنحطاط والتدهور. ومن الضروري استئناف الحوار في هذه الأيام وتوسيع رقعته

وتعميقها . ففي الحوار الكثير من المكاسب والمنافع وفيه نيل الأوطار، وليس كالحوار ما يكفل نمو الفكر وتولد الأفكار . فلا وربك لا يصلح مساء هذه الأمة إلاَّ بما صلح به صباحها أول النهار . بالفكر سادوا وبالفكر كانت لهم الدول والآثار ، وبالفكر إنما نسود ونقتحم المعاقل ونكتشف الأسرار . فلا خلاص لنا إلا بالفكر وصناعة الأفكار . فتبينوا يا سادة الرأي ويا معشر الأغرار . هيهات بغير الفكر تتمزق الحجُب وتنهتك الأستار !!

وهكذا فلا أهمية مطلقاً لما يرد في كتب التاريخ أحياناً من خصومات ومنازعات وحروب بين الملوك والحكام في سبيل السلطة . فإن وراء ذلك كله حضارة زاهرة ، ومدناً عامرة ، وشعوباً واعية ، ومدارس مكتظة بالطلاب ورجال العلم ، ومدارس مزدانة بنفائس الفكر ، وغير ذلك من دلائل التقدم واستفحال الحضارة. وكل ما في الأمر أن المؤرخين كانوا يعنون في أكثر الأحيان بالحكام ومفاخرهم ومثالبهم وبما يجري داخل القصور من دسائس ومؤامرات تشد اهتمامهم، ولم يبالوا بالشعوب وهذا من أكبر أخطائهم. لقد كان أكبر همهم التقرب لأصحاب التجلة والمراتب وذوي السلطان منهم ، دون الشعوب التي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ـ بزعمهم !

لكن الحضارة هي الحضارة . فقد زخر بحر العمران واندفع الناس في الكمالات التي كان من جملتها التأنق في الصنائع واستجادتها، وبلغ العلم اقصاه وغاية مداه . ولا عليه بعد ذلك ان يتعثر أو يكبو من وقت إلى آخر .



ثم جاء هازم اللذات ليقضي على كل ما تحقق من إنجازات ومكتسبات . وتوالت بعد ذلك العثرات والكبوات . . .

لقد سقط خاتم سليمان من أصابع أجدادنا العرب . ويا لهول ما حدث بعد ذلك . فتلك بيوتهم خاوية على عروشها . لقد نسوا عهوداً قطعوها ، ومواثيق على أنفسهم أخذوها ، فإذا هم بين المعالم والطلول يبكون ، وفي

ديارهم يجثمون . لا يفارقون الدمن التي درست بتكرار الخطو والدبيب ، يبكون بمدامع تهمي على الفقيد الراحل الحبيب. لقد عاقهم الخزي والذل والعار ، عن التهدِّي إلى مراتع الأحرار . وصدهم التخلف والجهل والفراغ ، وآفة في الفكر والعقل والدماغ ، عن ركوب متون المجد في الأعالي ، وآثروا ذل الخنوع ومجون الليالي . فإذا هي شاخصة أبصارهم ترهقهم قترة ، سوَّدت منهم الوجه والأعضاء والبشَرَة . وثالثة الأثافي هجوم الاستعمار ، الذي جاء بخيله ورجله يجوس خلال الديار . يا للعار ويا للشنار ! فبدلاً من أن نقوم في وجهه قومة رجل واحد ، يكتفي أشياخنا بلعنه في الجوامع والمساجد . زاعمين أنه هو سبب البلاء ، وأصل الداء والعناء . فلولا الاستعمار لكنا اليوم سادة الأمم ، ولكان صوتنا مسموعاً يهدر في القمم. أحلام الأطفال في رؤوس الرجال ، تعلاّت نختلقها لنفرٍّ من النضَال. فبئس الحلم وبئس أشباه الرجال ! فما لنا نلقي بالتبعة كلها على الإستعمار ، كأننا في ذاتنا وحقيقة أمرنا من الملائكة الأطهار ؟ هيهات فكل بضاعتنا مزجاة وخطابنا ثرثار !

كلا يا قوم ، إننا شركاء في المسؤولية ـ وأخدان في تحمل أعبائها . وإلاَّ فما بال الاستعمار لا يعض نفسه ولا يغزو امريكا الشمالية وكندا وانكلترا وفرنسا وسائر الرهط الذين لهم الصولة والدولة ؟ إن الأفعى لا تلدغ ذاتها ، إنها تلدغ فقط الأطراف المكشوفة ، والطيور الهاجعة ، والسوائم الشاردة . وأما الأسد في عرينه فلن ينال منه منال . من لا يحمي الحمى يوشك أن يُحرم منه ، ومن لا يراع الملك يُسْلَبْه . فالحياض المتروكة ، والحصون المثغورة ، والقطعان السائبة ، تُعلِّم السرقة واللصوصية والاجتياح والجريمة . فالأمنعُ ذماراً هو الأطولُ بقاءً . والأقرب منالاً هو دائماً الأسهل مأتىً . فلولا ما يسميه مالك بن نبي رحمه الله قابليتنا للاستعمار ما استُعمرنا قط ، ولولا استعدادنا للضياع ما ضاع منا ضائع وما ضاع لنا حق . لولا وقوع الغرب الأوروبي والأمريكي على واقع قديم متهرىء ما استطال علينا. نحن مصدر الداء وفينا إنما يكمن الدواء . فما استقوانا غيرنا إلا عندما سلس قيادنا وجعلنا من أنفسنا نهباً لكل متسلط غاشم علينا . وهكذا تفاعلت الأوضاع الداخلية والخارجية تفاعلاً أدى في

النهاية الى تعميق الأزمة الداخلية وزيادة شراسة الهجمة الخارجية . لا بد من النضال المرير على جبهات عدة للحفاظ على بقائنا ولدفع غائلة الأعداء عنا ، والصمود في وجه الطوفان الذي يتهدد وجودنا . إننا نسهم بنصيب كبير في انتحارنا الصامت وتوسيع رقعة الفراغ والخواء واللامعنى في نسيج تفكيرنا . وجاءت انظمة الحكم في بلادنا ونسبة الـ 99,99 ٪ من أصوات المقترعين ضغثاً على إبالة . فهي بكمِّها للأفواه وكبتها للحريات وتدجينها للمبدعين الخالقين منا ، وتسويتهم بالسواد والتافهين - فهي بذلك إنما تفسح في المجال لقوى التسلط والتخلف لتطويق حركة التحرر الصاعدة والانقضاض على جميع المكتسبات والمغانم التي حققتها أو تفكر في تحقيقها . إن حرية الانسان العربي تضيق وتضيق الى درجة الاختناق ، بحيث إن كل نصيب الوطن العربي من الحرية لا يكاد يكفي لإنسان حر واحد . ان قتل الأفكار أشد فتكاً من قتل الأجساد . فالأفكار هي الدرع الواقي من الحيوانية ، فإذا عدم الانسان درعه ارتدَّ بهيمة عجماء، وأصبح فريسة سهلة للأنقضاض عليه وخنق أنفاسه. وكلما استشرى الداء عز الدواء . هنالك العويل والبكاء والندم ، ولات حين مندم ! فبناء الأمم إنما هو بناء فكري حضاري لا جسداني ، وان كان الجسد عنصراً هاماً في كل عمل فكري بنَّاء ومشروع حضاري خلاق . فلولا نَفَرَ من كل بلدٍ عربي طائفة ليتفقهوا في النضال وينشروا الوعي بين المواطنين ، وليُنذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون !

إن الزمن هو قاهرنا. فإن فرطنا فيه داستنا الأحداث فإذا نحن أحاديث، وإذا نحن عبرة لغيرنا بعد أن كنا نستخرج العبرة من غيرنا. إن الحياة معركة لا ينتصر فيها إلاّ من سعى لها سعيها وبذل لها ما تقتضيه من عدة ، وعرَف كيف يسوسها ويحفظ لها حرمتها . يجب أن يتمرس كل منا بالنضال والصبر على المكاره ما أطاقهما . فإذا لم يكن من أولي العزم نكص على عقبيه وباء بالوبال والخسران .

إننا لسنا في الدرك الأسفل من الشعوب فنستخذي ، ولا من حثالات الأمم فنستسلم . إننا أحفاد قوم استطاعوا يوماً أن يقهروا الزمن ، وان يعيشوا

في أتون الأحداث ، ويمسكوا بأيديهم عنان التـاريخ . إن حضـارة « اقرأ » كنـا نحن من روادها الأولين . بالعلم والفكر ساد أجدادنا ، وبالجهل والتسكـع سُوِّد علينا. يا لعظمة ما كُنَّا ويالهول ما أصبحنا! أم لعل عراقـة الأصل وكـرم المحتد عبء على النضال والتحرر ؟ هذا ما أميل الى الايمان بـه اليوم . إننـا من حيث المواهب والفِطن لسنا دون غيرنـا، وإن رصيدنـا العقلي لا يقل عنـه في أي أمة سوانا . ولكن استخفتنا العاجلة من أمرنا ، وآثرنا العافية والسلامة في ضحضاح حياتنا . ونفتح أعيننا من وقت إلى آخر لنُطلَّ على الدنيا من حولنا ، فـإذا البون شاسع بين الأمم وبيننا ، حتى كدنا لا نرى ونحن في بـرزخنا ، الجـانب الآخر الذي يبتعد عنا ، ويموج بالحياة والقوة التي كانت يوماً درعاً لنا .

ربَّاه! كيف يمكن للفكر العربي اليوم أن يتزحزح عن مـواقعه وهـو لا يزال يتشبث بمجمـوعات بـالية من القيم والمفـاهيم لا يربـطهـا بـالعلم المنتصـر في أوروبا رابط ؟ تُرى ! كيف يتـوافر لنـا الفرصُ المبـدع الذي ينـطلق منه العلم ، والوعي التاريخي للشروط التي يتطلبها التقدم ، والشجاعة العـاقلة التي يتم بها التحديث ، والخيال المشرق الذي يستشرف آفاق المستقبل .

ومنذ أن كان هذا الكتاب فرضـاً أو نية ، كنت أريـده انتصافـاً لتاريخنـا ، وجسـراً بين حاضـر العرب ومستقبلهم ، وأريـده أن يجـد التـركيب المبـدع بين تـاريخ العـرب وطبيعتهم ، وماضيهم ومستقبلهم ، وأحـلامهم وواقعهم . وكـان طموحي وما يزال أن اهيء بعض شروط هذا التركيب المبدع ، وتفجير القـابلية الاجتماعية التي ستضطلع يوماً بهذه المسؤولية ، وتؤدي هذه الأمانة .

لقد كنت في كل مسعاي انطلق من الاقتناع بأن حضارة « إقرأ » يجب ان تعـود ، وأن العلم والتقدم والحـداثة ومـا إليها ليست ملكـاً لفرد ، أو عضـلات يملكها بطل ، أو امتيـازاً لطائفـة أو شعب . لقد كنت دائمـاً على ثقة تـامة بـأنه ليست هناك أمة معاقة عقلياً بحكم القضاء والقـدر ، أو مكتوب عليهـا طبيعياً أن تبقى في حـظيـرة الجهـل والتخلف . وكـان يضحكني دائمـاً سخف أولئـك المـرضى بداء التعصب والافتـراء حين لا يجدون سبيـلاً الى التغيير والتحـديث والتقدم إلا بإذعان هذه الأمة لشروط تعصبهم .

وكان عليَّ أن اتجاوز المفاهيم العنصرية التي أرساها علماء الاجتماع العرقيون ، ونقلها فراخهم الى المجلات والكتب والإذاعات وسائر وسائل الاعلام العربية . وكانت هذه المفاهيم تقول بالتمييز بين عقليات الشعوب والأمم ، فتحكم على بعضها بالتخلف الأبدي ، وعلى بعضها الآخر بالتحضّر الأبدي أيضاً. بذلك انقسم العالم الى شطرين لا يلتقيان: عالم حضاري أبيض وعالم متخلف ملوَّن ، كما فصَّلنا القول في ذلك في كتاب سابق لنا[1] وهكذا صار تاريخ العالم كله تاريخاً للبيض وحدهم ،وغدت حضارة الإنسانية حضارة البشرة البيضاء فقط ، بل أصبحت الطبيعة هي الطبيعة التي يعيش فيها هؤلاء البيض .

وخارج إطار الانسان الأبيض لا يوجد تاريخ ولا طبيعة ولا حضارة !

وكان زمان . . . شط فيه علم الاجتماع ، ثم تراجع عن شططه بعد أن اكتشف الكوارث التي خلَّفتها تنظيراته في قلب العالم الأبيض نفسه. ولكن إذا كان أساتذة التمييز العنصري في الغرب قد تراجعوا فإن تلامذتهم الصغار ما يزالون يصرون عليه . لا بد من القضاء على هذا التمييز على الأرض وفي الواقع بعد أن تم القضاء عليه في الكتب والأكاديميات والمجامع . ان العلم والتقدم والتحديث ليس ديناً أو سياسة ، أو ايديولوجيا يحتكرها هذا الفريق أو ذاك ، وإن آخر من يملك حق الكلام باسم هذه المفاهيم النبيلة هو عسكر السلاح وعسكر التبعية وعسكر الارتزاق والتخلف. لقد تبلد الحس والفكر والوجدان الى حد لم يعد محتملاً . إن اكتساح الأوضاع والقيم الغربية لبلادنا وعجز المجتمع القديم عن استيعابها، والجأر الى الله بالدعاء لينجز وعده وينصر جنده ويهزم الأعداء وحده ، وغشيان حلقات الذكر وقراءة الأدعية والأوراد ـ كل أولئك يجب أن يُعزى الى ضعف كامن في المجتمع العربي نفسه . هناك انقطاع حاد بين ما ورثناه من عصور التخلف ـ وهو موروث تسوده الأساطير والخرافات والأبنية الغيبية الواهية ـ وبين طراز جديد من التفكير بدأ يغزونا ويفرض نفسه علينا . فقد اكتشف الفكر العربي أول ما اكتشف وجود حياة

---

(1) أصالة الفكر العربي . الفصل الأول.

حديثة مـوّارة مصنوعـة خارجـه ، بل وعلى حسـابه ، دون أن يبـدي حراكـاً أو يكاد . وقد ظل هذا الفكر حتى أواخر القـرن الماضي ، بـل وشطراً من القـرن الحالي ، أعزل أمام هجمات التجديد . بـل إن الفكر العـربي لم يتصرف حتى في الأدوات الفكرية التي صنعها أجداده. وهـذا غايـة الجهل والتنكـر للحضارة التي خلّفوها له : حضارة « إقرأ » .

لقد اعتقد الكثيرون منا أن استيراد التكنولوجيا الغربية يسد جميع الـذرائع ويحقق لنا قفزة هـائلة تنقلنا من القـرون الوسـطى إلى العصور الحـديثة . وقـد نسينا أو تناسينا أن المطلوب إلى جانب استيراد التكنولوجيا تنمية الفكـر والحس والوجدان في أجواء بعيدة عن القهر والعسف والحرمان . وإلاّ وضعنا البـذر في غير منبته . لا يجـوز أبداً الاكتفـاء بالتكنـولوجيـا ، بل يجب أولاً تكـوين الفكر الذي يمارس هذه التكنولوجيا ثم الذي يخلقها بعد ذلك . فليست التكنـولوجيـا أدوات يجب استخـدامهـا بقـدر مـا هي أفكـار يجب تبنيهـا . إن مشكلتنـا هي مشكلة غـرس الفكر الغـربي والحضارة الغـربية في أرض لم تُستصلح بعـد ولم تُهيـأ لقبولهمـا والانتفاع بهمـا ودفع غـائلتهما . وعن هـذا الوضـع الشاذ نشـأت تيارات الإرتداد الى المـاضي والتشبث به ، وظهرت قوى الـرفض والتشنج أمـام كل تحضر ، وانطلقت الغرائز الدينية من عقالهـا ، واستطالت اللحى ، وتـدلت العزبات من العمائم خلف الرؤوس ، في موجة عـارمة من « صحـوة الجهل » و « يقـظة التخلف » لا ترى مخـرجاً إلا في « تحضيـر » الماضي ، أي استعـادتـه ونقله من حال المضي إلى حال الحضـور . إن استعادة المـاضي قتل للحـاضر ومصـادرة للمستقبل ، لأن مـا فات فقـد مـات . فـإذا استحضرته حكمت على نفسك بالموت والانتحار ، وغـدت البلاد مجمـوعة من الأصفـار ، ليس لها من الأمر شيء ولا خيار . لقد سقط فيها الرهان الكبير رهان الأفكار . فمن الحاضر لا من الماضي إنما تنطلق الأفكار . فلا تأس على مـاضٍ بل ائْسَ على حـاضر خلا من الأفكار ، فانكفأ الى الماضي يرقّع بالبالي من الأفكار ، ففقـد الأصالـة وفقد الأفكار . فإنما يُصنع الحاضر بالجديد لا بالرَّث الخلِق من الأفكـار ، فدع عنك وهم القديم والتمس الجـديد من الأفكـار . هكـذا هكـذا تُصنع الأفكـار ، وبغير هذا الطريق هيهات هيهات أن تنثال عليك المعاني والأفكار ! !

الفصل الخامس

لا يعرف الفضل إلَّا ذووه

ليست الأعمال الفكرية والتقاليد العقلية والصنائع العملية وليدة يوم أو شهر أو سنة ، ولا هي مقتصرة على شعب دون آخر ، فهي تتوالى ببطء وتنمو في مخيلة الشعوب على أجيال متطاولة ، ثم يتغذى بعضُها ببعض ويؤثر بعضها في بعض ، وتنتقل من صورة إلى أخرى ، وإن لم ينتبه لها الآحاد أو يفطن لها التاريخ .

ورغم أن العرب قبل الإسلام كانوا شبه معزولين عن جيرانهم أصحاب الحضارات العريقة فقد اصبحوا بعد الإسلام ورثة الحضارات القديمة وحملتها ، ثم صنعوا لأنفسهم حضارة جديدة على أنقاضها . وقد حدث ذلك في وقت مبكر جداً . فمنذ القرن الأول للهجرة بدأ لقاء العرب بالحضارت القديمة ، فاصطدموا بها اصطداماً فكرياً عنيفاً كاد يطيح بهم لولا قوة الشخصية التي أورثهم إياها الإسلام . وقد أثمر هذا اللقاء ـ بما سبقه من أحداث واصطرع فيه من قوى وعوامل داخلية هيأتهم للقفزة الجديدة ـ ثمراً طيباً كان من نتائجه المباشرة تلك الثورة الفكرية والثقافية والاجتماعية الشاملة التي تضاهي ـ إن لم تكن تفوق ـ الثورة التي فجرتها النهضة في أوروبا في العصر الحديث كما سنرى في حينه . .

وهكذا ، فما كادت الفتوح العربية الإسلامية تستقر في البلاد التي كانت تسود فيها الهلينية على أثر فتوح الإسكندر ، حتى أخذ الفكر العربي الاسلامي ينفتح على الفكر الانساني ويسيغ منه ما يزيده قوة وحياة ، وحتى بدأ التزاوج

والتفاعل بين البلاد المفتوحة وبين الفاتحين ، تزاوج الذوق العربي والفكر العربي وتفاعله بأذواق وأفكار بلغت شاواً بعيداً من التقدم والحضارة، فتفتحت براعم حضارة جديدة راقية أخذت شكلها النهائي الكامل في العصر العباسي أولاً ثم في العصر الأندلسي بعد ذلك وهكذا كان لقاء فكان إخصاب .

لقاء بين فكر مبتدىء ناشىء أخذ يعي وجوده ويتلمس الطريق الى الشمس والنجوم ، وبين فكر اكتمل نموه وبلغ غاية تطوره ، بين عقلية طالعة اجتذبها البريق واستقوى بها البريق ، وبين عقلية ناضجة انتهت من تحقيق ذاتها ووجودها أعظم تحقيق وخير ما يكون التحقيق .

وكان الإخصاب الذي اسفر عنه هذا اللقاء فذاً رائعاً لا يُسبر غوره ولا ينقطع مدده ، بل تراه يغدق ويغدق كلما تقاذفته العصور واستطال به الزمن . وحسبنا للدلالة على ما فيه من قوة وطاقة وحيوية أن حضارتنا اليوم بكل شمولها وأبعادها وآثارها الخارقة إنما هي من نتاج هذا الإخصاب وثمرة من ثماره .

لقد كان العرب يشعرون أنهم أصحاب رسالة تاريخية لا يجوز التفريط فيها أو الاستهانة بأمرها . إنها فرصتهم الذهبية الوحيدة الى المجد والخلود . وقد أدُّوا هذه الرسالة على خير وجه وهم يُطلون على العالم بالفتوح والحضارة . وقد امتاز ماضيهم باتساع الأفق والإخلاص للعقل وقبول الحق أياً كان مصدره . وكانوا أوفياء في حق من أخذوا عنهم ، فأقروا بفضلهم ، ولم ينتحلوا فضلاً استحقه سواهم ، واعترفوا بجهلهم حيث مُنوا بالإخفاق . ومن أهم صفاتهم التي يباهون بها الأجيال ما أبدوه من تسامح مع أصحاب الديانات والعقائد الأخرى ، وهو أمر جديد على تقاليد العصور الوسطى اللاتينية ، عصور التعصب المذهبي والحقد الديني وغرور الكنيسة الواحدة التي « اختارها » الله لقيادة العالم .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الإنتاج الحقيقي للعرب في ميادين العلم والمعرفة لم يبدأ إلا بعد مرحلة النقل ، وهذا أمر طبيعي له سوابق ولواحق متعددة . فإن عصر النهضة الحقيقي في أوروبا لم يبدأ هو أيضاً إلاَّ بعد اطلاع

علمائها وقادة الرأي فيها على كنوز الحضارات السابقة ، وفي مقدمتها الحضارة اليونانية والرومانية والعربية ونقلها الى لغاتهم المختلفة . وهذا ينطبق على العرب أيضاً وعلى كل شعب آخر نفض عنه غبار العصور وصمم على أن يعي وجوده ويستعيد ذاته ويدخل التاريخ من أوسع أبوابه .

فلا غرابة بعد ذلك أن يندفع في طلب العلم والتماسه في جميع مصادره وموارده . لقد كانت نفوسهم غرثى عطشى لا يروي ظمأها إلا العلم ، ولا يسد رمقها إلا المعرفة . حتى إذا ما خرجوا من عقر دارهم واخترقوا الآفاق ، وفتحوا البلاد والأمصار التي كانت خاضعة للروم والفرس ـ وهم أعرق من العرب في العلم والحضارة ـ بدأوا يغترفون من ثقافات هذه البلاد ويستقون من مناهلها ، ويعبُّون من ينابيعها . ها هم الآن وجهاً لوجه مع ذلك العالم الجديد الزاخر بالصور والألوان والأحداث والأفكار والثقافات ، وأمامهم مئات المفكرين والباحثين والعلماء، وأصناف الناس والأمزجة والخبرات والمواقف . لقد خرج المارد الجبار من القمقم ليصنع التاريخ ويتولى بنفسه قيادة الأحداث . وكانت ثقافة هذه البلاد ذات طابع يوناني وسرياني وفارسي وقبطي .

وهكذا عمد العرب إلى مومياء الأوائل ، الى علومهم الميتة المحنَّطة ، التي هلك بعضها وتهدد الهلاكُ بعضها الآخر، وجمعوها من الأقبية والسراديب ، وانقذوها من الرطوبة والديدان والعفن ، ونقلوها إلى مناطق أكثر أمناً ، وقلوب أشد حدباً ، وعقول أعظم تقديراً ، وإنه لعمل لو تعلمون عظيم ! وإلا لتفاقم التلف واستشرت العدوى ، وضاع ميراث كبير يملأ صفحات مجيدة من أنصع صفحات التاريخ وأعظمها إشراقاً وأكثرها مدعاة للفخر والاعتزاز ! كيف لا وهو ميراث الإغريق ، وما أدراك ما الإغريق ، في ذلك العهد السحيق ! ويرى هَلْ Hell أنه يمكن أن نُجمل وصف هذه الثقافة بأنها ثقافة هيلينية مسيحية. وقد تمثلها العرب على خير وجه وأنشأوا منها ثقافة جديدة خاصة بهم . ويؤكد هلْ أيضاً أن تمثل المسلمين لهذه الثقافة يُعدُّ أمراً هاماً جداً للإسلام وللهيلينية على حد سواء : فأمَّا هذه الأخيرة فقد بُعثت من مرقدها وانتعشت بعد أن كانت في عداد الأموات . فاتصلت بقوم جدد غير قومها،

واحتكت بديانة جديدة ناشئة أعادت اليها أنفاس الحياة بعد أن دبّ فيها دبيب الممات . هذا ما أصاب الهلينية من قبل العرب . كما ان هؤلاء انتفعوا بالثقافة الهلينية أيّما انتفاع وتأثّروا بها واشعلوا مصابيحهم من زيتها ، ولا تثريب عليهم في ذلك . وهكذا فإذا كان العرب قد زودوا الهلينية بدينهم ولغتهم ، وهيأوا لها فرصاً جديدة للانتشار والتوسع ، فإن الهلينية قد ردّت ذلك الجميل الى العرب بمنحهم ثروتها العلمية الضخمة وتراثها العقلي العظيم[1] .

وكذلك فعل العرب بميراث الشعوب الأخرى التي اتصلوا بها ، على تفاوت في اهتمام هذه الشعوب بالحفاظ على آثارها وفي عناية العرب بهذه الآثار . فجمعوها ومحّصوها ونقبوا فيها ونقلوها الى لغتهم حتى أصبحت جزءاً من ميراثهم وتكوين عقولهم .

ثم ان هذا المنقول الذي جمعه العرب من هنا وهناك لم ينقلوه كما هو ، بل نقلوه مشروحاً ومعلقاً عليه بما يقيله من عثراته . فصححوه ونقّحوه وحققوا متنه ، ورمموا ما يحتاج الى الترميم منه ، وأزالوا لبسه وحلُّوا غامضه ، وقدموه للانسانية في زيٍ مقبول وحلة قشيبة . ويكفي للتدليل على فضل العرب في هذا الباب أن كتباً كثيرة قد ضاع أصلها اليوناني وغير اليوناني ، لكن ترجمتها العربية لا تزال محفوظة في الخزائن ودور الكتب، ان لم تكن كلها فجُلُّها.

ولم يقتصر العرب على الحفاظ على التراث العقلي وحده ، بل لقد حافظوا كذلك وبالمقياس ذاته على التراث الفني . فقد رأوا في المدائن ودمشق وبيت المقدس ومصر ألواناً من الفن وبدائع الصناعة ، مما أيقظ في نفوسهم الرغبة في تقليدها والنسج على منوالها . فالعرب على النقيض من الصليبيين والمغول الأولين وسواهم ـ تجنبوا التخريب ، وأبقوا على الكنوز والنفائس الفنية الرائعة وأضفوا عليها سيماهم وطابع شخصيتهم .

هذا ولا ينحصر فضلُ العرب على التراث الانساني في مجرد الحفاظ

---

(1) ي . هل : الحضارة العربية صفحة 58 بتصرف .

على التراث القديم ونقله إلى لسانهم ، بل لقد زادوه وقوداً من عقولهم وضَمُّوا اليه الكثير من ثمرات عبقريتهم وتوسعوا به في مجالات شتى . فلئن نهلوا من ينابيع الفرس والهنود وأشعلوا سراجهم من القناديل اليونانية، فإنهم ما لبثوا أن أصبحوا شعلة وهاجة استضاء بنورها أهل الأرض جميعاً .

وهكذا فإن العرب عندما نقلوا علوم من تقدمهم من الأمم والشعوب التي هي أعرق منهم في العلم والحضارة ، فلم يكونوا مجرد قنطرة عبرت عليها الحضارات القديمة لتصل الى عصر النهضة العلمية في أوروبا ، وإنما أضافوا اليها إضافات هامة مبتكرة لم تكن وليدة الصدفة وحدها ، بل كانت مبنية أيضاً على قواعد ثابتة وتنظيم عقلي منهجي هو محك النظر في رسوخ العلم وأصالته عند أصحابه . فتركوا بذلك آثاراً واضحة في الطب والكيمياء والطبيعة والفلك والرياضيات بفروعها المختلفة ، وانتجوا من ثمار الفكر ما لم تنتجه أمة قبلهم ، ثم خلَّفوا من هذه الثمار ـ رغم ما ضاع منها في الفتن والحروب والحرائق والتلف وملاحقات محاكم التفتيش في إسبانيا بعد خروج العرب منها ـ ما لم تُخلِّفه أمة أخرى غيرهم . فلا اليونان ولا الرومان ولا الهنود ولا الفرس ولا الصينيون ولا المصريون تركوا آثاراً فكرية بقدر ما ترك العرب ! والدليل على ذلك أن عدد المخطوطات العربية التي وصلت إلينا حتى الآن وحدها ـ أي بصرف النظر عن تلك التي ضاعت في مراحل الطريق ـ تفوق عدد المخطوطات التي خلَّفتها الأمم الأخرى مجتمعةً ، أضعافاً مضاعفة . وسيكون لسبق العرب للأوروبيين في ميادين مختلفة من العلوم أثر كبير في تعديل الأوضاع التاريخية لهذه العلوم ونسبتها الى روادها الأولين من العرب .

إن نقل الروائع اليونانية الى اللسان العربي قد تحقق كما نعلم في ظل الرعاية الواعية المستنيرة التي اسبغها على هذه الحركة خلفاء بغداد وقرطبة ، وبفضل التجاوب العظيم الذي لقيته بين علماء المسلمين ومفكريهم . وكان هؤلاء يمثلون ـ بمجرد وجودهم ـ دور المذيب القوي للمؤثرات الأجنبية التي تقبلوها تمهيداً لهضمها وإبداع صورة جديدة منها . والحق ، إن انتقال العلوم

والفلسفة والآداب انتقالاً مستمراً من مصر والهند وبابل وفارس واليونان إلى بلاد الاسلام لمن أَجَلِّ الحوادث وأعظمها شأناً في تاريخ الفكر الانساني . ففي هذا الصراع التاريخي والحضاري والإيديولوجي الذي بدأ في وقت مبكر جداً بين العرب والشعوب التي ظهروا عليها ، والذي استمر بعد ذلك قروناً طويلة ، اكتسبت الشخصية العربية سمات جديدة وقسمات عديدة صلبة كانت من أهم العوامل في إذكاء الروح العلمية ونشر الفكر العلمي على أوسع نطاق ، وهذا مما أتاح للأمة العربية أن تقوى وتستعلي بالعلم . وامتدت الامبراطورية الإسلامية من حدود الصين شرقاً الى حدود فرنسا غرباً ، مروراً بالهند وفارس والعراق وشبه الجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر والشمال الأفريقي والأندلس . وغدت اللغة العربية لغة العلم والحضارة . فأقبل الناس على تعلمها وتعليمها والكتابة بها . وسطع في سماء الحضارة العلمية الجديدة أفذاذ الرجال والعلماءالأعلام ، الذين يضاهون ـ بحق ـ أعاظم العلماء في كل عصر وآن .

لقد كان العرب يشعرون بأنهم يؤدون رسالة للتاريخ والانسانية وهم يُطلُّون على العالم بالفتوح والحضارة . ومن ثم فإن انتشارهم السريع في العالم المتمدن ـ فضلاً عن العالم المتخلف ـ لا تفسير له إلا ما ينطوي عليه من مضمون تحريري لا يمكن لعين متأملة ومخلصة أن تخطئه. وإلا فما معنى إسهام نصارى مصر والشام والمغرب ـ جنباً الى جنب مع العرب المسلمين ـ في الصراع الذي انتهى بهزيمة الروم ؟

إن الرجال الذين أطاقوا النهوض بأعباء هذه الحضارة قد تجسدت فيهم معان شريفة ومزايا مبدعة خلاقة، كانت الأساس والمنطلق لكل ما قد صدر عنهم من حركات وانتفاضات، وهي سر الدينامية التي أرفدتهم وشدَّت من عزائمهم . فقد اجتمعت للعرب والمسلمين يومئذٍ إمكانات روحية هائلة وطاقات فكريه جبارة نقلتهم إلى بؤرة الأحداث وألقت إليهم زمام الأحداث . فقد امتاز ماضيهم العلمي باتساع الأفق ، والإخلاص للعقل، وقبول الحق أياً كان

مصدره . وكان طابع تفكيرهم التسامح مع أصحاب الديانات الأخرى وتركهم وشأنهم في أمور عباداتهم ومعتقداتهم ، بحرية تامة يكفلها القرآن وتصونها شريعته، وهو أمر جديد على تقاليد العصور الوسطى ، عصور التعصب الديني الذميم كما هو معلوم .

لقد كانت لهم مزايا قلَّ أن يكون لها نظير في غيرهم من الشعوب . كانوا عشاقاً للمعرفة أينما وجدوها التقطوها . فطلبوها في آثار اليونان وكُتب الفرس والهنود، وكانوا أوفياء بحق من أخذوا عنهم العلم والفلسفة، فأقروا بفضلهم عليهم ، ولم ينتحلوا لأنفسهم فضلاً استحقه سواهم ، واعترفوا بجهلهم حيث مُنوا بالإخفاق ، وعُنوا عناية شديدة فائقة بالتجربة والملاحظة وتنظيم البحث العلمي ، ووضعوا له المناهج والطرائق ، وسنّوا له القواعد والأصول ، وكانوا يجودون بالمال والوقت والنفس والمهجة في سبيل المعرفة ، ومضوا في هذا السبيل الى غاية المدى.

لقد اقتحموا كل ميدان وخاضوا كل لجة ، وكانت لهم محاولات رائدة في كل مضمار ، واندفعوا كالسيل في كل أفق يشدون من كل فن ، في تيار قوي جارف من لغة القرآن وتعاليم الاسلام والثقة بالنفس والإيمان بالذات ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالعلم والأدب والشعر والفلسفة والأخلاق وانثيال المعاني . فبرزت عبقريات وتفتقت قرائح ، وتفجرت طاقات ، وظهرت قرائح لا تقع تحت حصر ، تجلَّت في مئات الفقهاء والأدباء والمفسرين والمحدثين والأصوليين والمؤرخين والجغرافيين والرحالة، والفلاسفة وعلماء الطبيعة والفلك والرياضة والاجتماع . . . الذين استفاضت كتب التراجم بأسمائهم وبنبوغهم وآثارهم ، والذين يحلو للمصابين بعقدة العروبة والإسلام أن يعودوا بهم الى أصول عرقية أجنبية يحصرون الفضل ـ كل الفضل ـ فيها. فما هؤلاء الأفذاذ جميعاً سوى عطاء بيئتهم العربية الإسلامية بكل خصبها وغناها ، وما تلقَّت من روافد التراث الفكري القديم ـ اليوناني وغير اليوناني ـ فهضمته بعقليتها المتميزة ، وتمثلته بمنطق تفكيرها وروح عقيدتها ومقتضيات تاريخها وتراثها . بل لعل معجزة العرب الكبرى ـ الذين إنما كانوا جنساً واحداً فقط من

أجناس متعددة اعتنقت الإسلام كانت أكثر منهم عُدة وعدداً وأعزَّ نفراً ـ أنهم بدلاً من أن يذوبوا في هذا البحر المتلاطم من الأجناس والأقوام والألوان، فقد فرضوا عليهم لغتهم ودينهم ، لا بمعنى الفرض العسكري المتسلط ، بل بمعنى الغزو الفكري والاجتياح الحضاري . لقد كان غزو أنظمة ومثل وقيم ومبادىء ، لا غزو إبادة وتخريب وتدمير ، كما فعلت روما قديماً وحفيدتها أوروبا حديثاً . لقد كان غزو حضارة متفوقة لحضارة بالية متخلفة مضى عهدها وفقدت مبرر وجودها . هذا ما يقضي به قانون تنازع البقاء . فالبقاء دائماً للأقوى وللأصلح وللأقدر على البقاء وللأجدر والأحق بالبقاء ، وهو قانون يسري على الكائنات الفكرية سريانه على الكائنات الحية سواء بسواء . وقد شرحنا ذلك بالتفصيل في كتابنا (الفكر العربي في مخاضه الكبير)[1] .

ذاك هو ما قدمه العرب للأجيال اللاحقة ، وإنه لعمل لو تعلمون عظيم ! إنه عمل فذ خارق لا مثيل له أبداً في تاريخ اللغات والأديان : فإنه لم يحدث قط أن شعباً صغيراً كالعرب غزا بدينه ولسانه ـ لا بالسيف بل بالفكر والقلم والتفوق الحضاري ـ أمماً كالأمم التي دانت بالاسلام ورقعة شاسعة من الأرض لا حدود لها كالرقعة التي هبت عليها رياح الإسلام، وبسرعة صاعقة كالسرعة التي انتشر بها الإسلام ، حتى لكأنه انتشار النار في الهشيم . ولم يكن هناك استتباع من نوع استتباع فرنسا للجزائر قبل الاستقلال ، بل لقد كانت هناك مشاركة تامة في المغانم والمغارم ، والحقوق والواجبات ، والالتزام والمسؤولية ، كما كانت هناك أيضاً هوية واحدة صادقة غير مكذوبة بين الغالب والمغلوب ، والحاكم والمحكوم ، سواء قبل هذا الأخير الدخول في الاسلام أو لم يقبل ، ما دام عضواً فاعلاً منتجاً في مجتمعه الجديد . وهي بدعة جديدة لم يعرفها العالم قبل العرب وتكاد تكون شيئاً مجهولاً في هذه الأيام . وحسب العرب فخراً أنهم في صميم العصور الوسطى، عصور محاكم التفتيش والاضطهادات الدينية ، لم يكرهوا الناس حتى يكونوا مسلمين ، بل لقد تركوا لهم حرية الدين

(1) وذلك في الفصول التالية السابع (قوة الأفكار) والثامن (صراع الأفكار ومصارع الأفكار) والتاسع (انتشار الأفكار) والحادي عشر (حياة الأفكار) .

والمعتقد دون أن يتدخلوا فيهما أو يمارسوا أي ضغط بشأنهما، وإن كانت هذه القاعدة لا تخلو من بعض الحالات القليلة النادرة جداً مرجعها السياسة وحب الاستقواء والتسلط لدى بعض الحكام الذين يبغون الإثارة والشحن الديماغوجي لتغطية مآثمهم وصرف أنظار الجماهير المسحوقة بمشاهد « فولكلورية » وبطولات رخيصة فارغة تمتص نقمة المحكوم على الحاكم . وهذه الحالات النادرة هي على كل حال من مفرزات عصور الضعف والانحطاط السياسي والاقتصادي . وأما عصور النشوء والقوة والازدهار (ابتداء من عصر النبي والخلفاء الراشدين ، مروراً بالعصر الأموي، حتى عصر المأمون) فلم تشهد أي خروج على القاعدة المذكورة أو أي خرق لها .

ففي العصر الأموي مثلاً ، وهو العصر الذي بدأ فيه احتكاك المسلمين بالنصارى ، شهد هؤلاء نهاية الاضطهادات الدينية التي لاقوها من أبناء دينهم الحكام البيزنطيين (الروم) الذين طالما جاسوا خلال الديار وساموهم الخسف وأذاقوهم ألوان العذاب . وبهزيمة الروم وانتصار المسلمين عليهم استقبل المسيحيون من سكان البلاد على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم عهداً جديداً من الحرية والثقة والأمن لم يعرفوه من قبل ، وهذا مما حدا بهم الى تسمية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب باسم (الفاروق)، وهي لفظة سريانية معناها (المنقذ) أو (المحرر) . أجل ، في العصر الأموي نشأ التفاهم الإسلامي النصراني واستمر حتى أصبح عرفاً وتقليداً متبعاً . وكان الخلفاء يتخذون من النصارى (بل ومن اليهود أحياناً) وزراء وشعراء وأطباء وأرباب صناعات وحرف محّضوا السلطان ولاءهم ووفاءهم . ولذلك فقد عاش المسلمون والنصارى وغيرهم من أتباع الأديان الأخرى في ذلك العصر في وئام وصفاء يربط بينهم حب واحد للوطن الواحد ، وتعاون في الكفاح المشترك في وجه السيطرة الأجنبية التي كان يمارسها قياصرة الروم في حق رعاياهم . وكذلك شهد ذلك العصر أشهر رجال الكنيسة في سوريا وألمعهم ، كالقديس يوحنا الدمشقي ، والقديس صفرونيوس ، والقديس أندريه التكريتي ، وكلهم سوريون من دمشق ومن رجال العصر الأموي .

وظل النصارى يتمتعون بكل معاني الحرية الدينية والسياسيـة والفكريـة طوال الحكم الأموي . وكل ما كان يُطلب منهم تقديمه للسلطات الحاكمة إنما هو الخضوع لقوانينها الزمنية ، ودفع الجزية لتأمين الحماية لهم وضمان تمتعهم بجميع الحقوق التي يتمتع بها المواطنون المسلمون . فبنو أمية لم يفكروا يوماً في التعرض لشؤون المدارس الدينية والفلسفية التي كان السريان ـ وأكثرهم من النصارى ـ يحملون لواءها : وكذلك كان موقفهم من أصحاب المذاهب الأخرى . فقد تركوا المدارس الكبرى من نصرانية ويهودية وصابئة و . . . قائمة في الإسكندرية وبيروت وإنطاكية وحران ونصيبين وجُنْدَ يْسابور لم يمسسها سوء .

هذا على وجه الإيجاز موقف بني أمية . وأما بنو العباس ولا سيما في عصورهم الأولى ، فأمرهم معروف من حيث التسامح مع أصحاب الديانات الأخرى وتشجيع الحركات العلمية والفلسفية . لكن كان يحدث أحياناً أن يمثل بين يدي الخليفة أحد رجال الدين النَّصارى شاكياً إليه زميلاً من رجال الدين . هنا فقط كان الخليفة يتدخل ليحسم الأمر بين الفريقين . وهذا ما جرى المؤرخون على تسميته اضطهاداً ، وهي تسمية غير منصفة[1] عمدوا اليها بعد أن لم يجدوا بديلاً ينطبق عليه المفهوم الغربي للاضطهاد الديني الذي يحفل به تاريخ محاكم التفتيش في القرون الوسطى. إن رجال الدين السريان هم الذين زجوا الخليفة في أمور تعنيهم هم وحدهم ، وكان خليقاً بهم تسوية خلافاتهم ضمن الأسوار المغلقة وعدم نشرها على الملأ واقحام الخليفة فيها . فإنما الوزر وزرهم هم والجريرة جريرتهم ، ولا عليه بعد ذلك أن يدس أنفه في شؤونهم ويطلع على عوراتهم ليذوقوا وبال أمرهم .

هذا من الجهة الأولى ، ومن جهة أخرى نحن لا ننكر أن تاريخ أهل السنة حافل بالحروب والمنازعات ، لكنها لم تكن حروباً دينيه وإنما كانت حروباً سياسية . فالحروب التي قامت بين السنة والشيعة كانت صراعاً على

(1) أوليري : الفكر العربي ومركزه في التاريخ : صفحة 47.

السلطة والنفوذ والاستئثار بالحكم ، لا لمجرد أن الفريق الآخر كان مخالفاً لهم في الدين ، فالدين لم يكن سوى غطاء وتبرير لايديولوجيا التسلط والسلطان . لقد قام مثل هذا الصراع بين أهل السنة أنفسهم ، بل بين أفراد البيت الواحد ، والقبيل الواحد، بين الإبن وأبيه والأخ وأخيه، فأين هذا مثلاً من حروب التنصير والاسترقاق التي كان مسلمو الأندلس من ضحاياها ؟ ومما له دلالته في هذا الباب ان المعتزلة حين حاولوا فرض عقيدة (خلق القرآن) بقوة السلاح ذهبت ريحهم وأجهضت حركتهم ، فسعوا إلى حتفهم بظلفهم . فالمسلمون لم يعهدوا إرهاباً دينياً من هذا القبيل فتألبوا عليه وخنقوه من المهد . وقد يُستثنى من ذلك بعض فرق الخوارج . فقد كانوا من قوة العقيدة والايمان بحيث أرادوا فرض تصورهم للدين بقوة السلاح ، غير أن الخوارج فرقة من الحمقى المتعصبين المهووسين لم تتمتع بأي تأييد في أوساط المسلمين فظلت معزولة عاجزة عن الفعل والتفاعل ، حبيسة الإيديولوجية المشلولة التي تدعو إليها والتي لا تعبر أبداً عن أهداف جيلها ومجتمعها ، وتطلعات القوم الذين تنادوا لمحاصرتها وتطويقها وتشديد الخناق عليها . وهي لم تستطع الاستمرار الى أيامنا هذه في فرقة الاباضية بشمال أفريقيا وعُمان وزنجبار إلا بعد تقديم الكثير من التنازلات لتلائم طبيعة الاسلام الذين ينكر التعصب والتزمت والتشدد في الدين وفرضه بالقسر والاكراه .

وخلاصة القول ، لقد كانت الحرب سجالاً بين السنة والشيعة ، بين السنة والخوارج، وبين السنة والسنة. ولكنها لم تكن حرباً دينية كما كان الحال في أوروبا اللاتينية في القرون الوسطى . بل كانت نزاعاً على السلطة والنفوذ ، وهي في جميع الأحوال حرب بين المسلمين أنفسهم ، لا بينهم وبين أصحاب الديانات الأخرى لفرض الإسلام عليها . فالإسلام بدلاً من أن يفرض نفسه على نصارى الشرق ، قد حررهم من الإرهاب البيزنطي ، فدخل منهم في الإسلام من دخل ، وبقي منهم على دينه من بقي ، لكن هؤلاء الذين رفضوا الإسلام كانوا دائماً في طليعة المناهضين لأبناء دينهم الروم المستعمرين الغاشمين . وبذلك لم تكن أرض الخلافة تلك القوة السياسية والعسكرية

الجبـارة التي همها التقتيل والتدمير وامتصاص دماء الشعوب بقدر ما كانت تلك القيمة الإنسانية الحضارية التي ظلت عبر القرون والدهور نموذجاً حياً لـلإشعاع العقلي والسمو الروحي والقيم الـرفيعة ، وصيغـة فريـدة فذة للتعـايش الإنساني سبقت جميع صيغ التعايش المعروفة اليوم . وكل أولئك أعجـوبة غـريبة يجـد الإستعمار الأوروبي صعوبة كبيرة في فهمها . ولذلك يزوغ مستشرقوه ويـروغون ولا يكفـون عن تفسيـر المضمـون التحـريـري للعـروبـة والإسـلام بـالمفهـوم الإستعماري الحديث ، والتنقيب عن الأخـطاء والعيوب التي لا تخلو منهـا كتلة بشرية أو مجموعة حضارية ، والأخذ بتلابيبها وتسليط الأضواء عليها .

لم يغفروا لابن الباديـة أن يكون نـداً لابن أثينا أو روما أو القسطنـطينية ، فتألبوا عليه من كل جانب وقد كشروا عن أنيابهم ينهشون لحمه وينازعونه حقـه في الـوجود الحـر الكريم . لقـد وقعـوا على صيـد ثمين ، فلن ينصـرفـوا حتى يجهزوا عليه والبطنُ به بطين لقد هالتهم أن يخرج عملاق من الصحراء ، فيقهر الأنساب والاحساب والأعراق ، ويجدع الأنـوف ويثل العـروش ، ويدك معـاقل الظلم والطغيان ، ويقلب موازين القوى ، لا في شبه جزيرة العـرب ، والاّ لهان الأمر وقلَّ الخطب ، بل في أرجاء العالم المتمـدن كله أو جلّه، ثم استقر ـ ويـا للوقاحة !! ـ شوكةً في خاصرة أوروبا الأندلسيـة مدة تـزيد على ثمـانية قـرون ، ناهيك بالخاصرة الجنوبية في شبه جزيرة صقلية !

*

وهكذا فقد كانت نهضة العـرب اذن من النهضات الأصيلة في التـاريخ . فهي لـم تكن نهضة عربية صرفـاً ، ولا يصح أن تسمى كـذلك ، وهي أيضـاً لم تكن نهضة إسلامية صرفاً ، كلا ولم تكن كذلك نهضة عربيـة إسلاميـة صرفـاً . لقد كانت كل ذلك وشيئاً أكثر من ذلك أنها لم تنحصر في بلاد العرب ، كذلك لم تسعها بلاد الإسلام ، بل امتـدت إلى البلاد الأجنبيـة البعيدة وعمت منـافعها اليهـود والنصارى والوثنيين والزنـادقة والملحـدين وغيـرهم بـطوائفهم المختلفـة وشيعهـم المتباينة . وبهذه المثابة فهي نهضة إنسانية بكل معنى الكلمة . ولـولا نفحات هذه النهضـة التي فاحت في كـل أفق ، ولولا هبـاتها التي امتـدت على

كل صعيد ، لتأخَّر بزوغ الفجر في أوروبا أجيالاً وأجيالاً ، ولظلت هـذه الأخيرة تـرزح تحت كابـوس السلطات الدينيـة الجاهلة المتعصبـة التي كـانت تسـومها الخسف والمسخ ، وبالتالي لما شهدت انبلاج عصر جديد وإقبال عهد جديد .

ان احتـلال اللاتين للقسـطنـطينيـة مثـلاً لم يؤد الى شيء من النهضـة في ميادين العلوم والفنون والآداب، فإن مخطوطاً يونانيـاً واحداً لم يصـل الى غرب أوروبـا نتيجةً لهـذا الاحتلال ، وكـذلك كـان احتلال الصليبيين . وأمـا العـرب فإنهم عندما فتحوا بلاد الأندلس مثلاً فإنهم لم يـدخلوها محتلين ، لم يـدخلوها كما دخلها القوط سادة حكاماً يبـاعدون بين أنفسهم وبين عـامة النـاس استكباراً في الأرض وحفـاظاً على سـلامة عنصـرهم أو صيانـة لهيبـة سلطانهم ، وإنمـا دخلوها إخوانـاً وأصدقـاء في أثنـاء حـركـة الامتـداد الـديني والتـوسـع الفكـري والحضاري التي بعثها الإسلام في عالم القرن السابع للميلاد . فلم يكن هـذا الامتداد ولا هذا التوسع موجة من الغزو والقهر لإنشاء امبراطورية وحشية يقودها العرب بالحديد والنار ، وإنما كـانا حـركة إشعـاع وتوعيـة تسري من شعب إلى شعب كأنها أمواج يدفع بعضها بعضاً . وكان مركز هذه الحركة الجزيرة العربيـة التي انطلق العرب منها الى الشام والعراق والهند شـرقاً ، ثم الى مصـر وشمال أفـريقيا وصقليـة والأندلس غـرباً . فلم يخـرب العرب بلداً من هـذه البلاد ولم يهـدموا مـرفقاً من مـرافقها ، بـل لقد نهضـوا بجميع البـلاد التي استولـوا عليها وجعلوها عامرة مزدهرة تنبض بالحياة والعلم . فالفتوح العربيـة ، خلافـاً لجميع أنواع الغزو الأخـرى ، كانت فتـوحاً حضـارية لكـل ما في الحضـارة من إشعاع ووعي وتوثب .

لقد كانت أوروبا هي القطر الوحيد في العالم المؤهل لوراثة علوم العرب وثقافة العرب وحضارة العرب . وكان مقام العرب في الأندلس بمثابة الحاضن لقـوى التقدم فيهـا . فمن الناحيـة الأولى كان الـوجود الإسـلامي هناك تحـديـاً صـارخـاً للعـالم المسيحي ودافعـاً لـه الى الكفـاح والنضـال في وجـه الـوجـود الاسـلامي . ومن ناحيـة أخرى كـان هذا الـوجود أيضـاً قدوة ومثـلاً أعلى يـراد التـأسي به والسيـر على هداه . وكـان لهذين العـاملين معاً أثـرهما الحـاسم في

شحذ الفكر المسيحي وشحنه وتفجير طاقاته .

ورغم مآثر العرب في جميع ميادين المعرفة ، وما أسدوه للعلم والحضارة الأوروبيين من خدمات وما أنجبوه من عقول وعبقريات أيقظت الغرب من رقاده ، فقد كان جزاؤهم الجحود والتجني والإنكار من قِبل أدعياء الموضوعية والنزاهة العلمية ، ومنتحلي الإخلاص والتجرد عن الأغراض والغايات . . بل أيضاً من بعض ذوي النوايا الطيبة من المضلَّلين العرب أو الأجانب الذين لم يتسن لهم الإحاطة بالفكر العربي في شموله وأبعاده ، واستيعابه في دقائقه وجزئياته ، أو النفاذ الى أغواره وشعابه ، فراحوا يجرون وراء كل ناعق ، ويتبرَّعون بالأحكام يُصدرونها جزافاً بلا تحفظ ولا تحرز ، كلٌ يريد أن يحجب الشمس بأصبعه ، أو يقهر الجبل بقبضة يده . لقد أخذتهم العزة بالإثم ، فطفقوا يتبجحون ويتشدقون كصبية أغرار هجموا على الأسد لترويعه !

ليس من كرم الأخلاق في شيء الافتيات على القوم وبخسهم حقهم وإنكار ما في تاريخهم الطويل من صفحات مشرقة مجيدة، لاختلاط هذه الصفحات بصفحات أخرى قاتمة تلطخها الخصومات والمنازعات والحروب بين الحكام في سبيل السلطة، وهي كبوات لا تخلو منها حضارة من الحضارات ، وهِنات ملازمة للضعف الإنساني ومنازع الملك وإغراءآت الحكم والسلطان و . . . فكل أولئك وإن كان من الآفات التي كان ينبغي التخلص منها ، إلا أنه كان من لوازم الحضارة التي أينعت ، والفكر الذي أشعَّ ، والنهضة التي تحققت ، والفجر الذي انبلج ، والصرح الذي ارتفع ، والبنيان الذي اصَّعَّد وتطاول . . . ولكن المنقِّرين والشامتين والمصطادين في الماء العكر ، لا يهنأ لهم بال ، ولا يرتاح لهم جفن إلاَّ بالفساد والإفساد ، واصطناع التزييف تلو التزييف ، كمثل الجراثيم الفتاكة القاتلة لا يحلو لها العيش ولا تستمرىء الحياة إلا في الأرجاس والأنجاس والأدناس ، هناك فقط تنمو وتتكاثر ، وهناك فقط تستمتع بأجمل الرؤى وأعذب الأحلام !

إن الحضارة العربية ، إذا كانت ـ ككل حضارة ـ لا تخلو من الغرائز

والأطماع ، فإنها أيضاً حافلة بالقيم والمثل والمبادىء . فهي حضارة عملاقة راسخة القواعد وطيدة البنيان . إنها نفحة من نفحات هذا الشرق العتيد الذي ما انفك حتى عهد قريب يقذف بالعلم تلو العلم والحضارة في أعقاب الحضارة . أجل إن تاريخ العرب إذا كان لا يخلو من الأهواء والشهوات وأطماع الحكم والسياسة ، ففيه أيضاً عصارة العقول ، ومهجة القلوب ، وذوب القرائح ، ونفثات الأذهان ، ومعاناة الأجيال ، التي شاركت مشاركة قوية فعَّالة في إثراء الفكر وتطوير المعرفة . ان الأمة التي صنعت هذا التاريخ بالجهد والعرق والمعاناة لم تمت ، بل لقد صمدت للمحن وإلاحن والفتن والخطوب والأزمات ، فتحدَّتها جميعاً ، وتجاوزتها جميعاً حتى جاء هازم اللذات يلقف ما صنعت .

ولم يكن الإسلام ديناً طارئاً جاءت به أقوام غازية أو شعوب استوطنت الجزيرة العربية وكانت من قبل غير عربية ، بل لقد جاء الإسلام عربي اللسان والروح لأمة العرب ، وآنبثق من بطن جزيرة العرب ليغذي انتفاضة العرب ويفجر الطاقات الكامنة في وجدان العرب . ففي قوتهم قوة له، وفي منَعتهم ضمان لاستمرار تدفقه في العقول والقلوب . إن الإسلام هو وليد العبقرية العربية وإبنها البار الصادق الأمين . إنه رسالة من رسالات العروبة ومجد من أمجادها شمخ بها يوماً الى سدة التاريخ والحضارة . وهكذا تجددت العروبة بالإسلام وتحرك الإسلام بالعروبة ، ولم يستتب له الأمر إلاَّ بها .

إن الإسلام بالنسبة إلى الشعوب الاسلامية غير العربية هو الإطار الفكري والعقائدي العام الذي استطاع توحيد السلوك والمشاعر والمواقف والأهداف ، والصيغة التي ذابت فيها التنوعات القومية والحضارية المختلفة . ولكنه بالنسبة إلى العرب شيء أكثر من ذلك ، وله أهداف ومعانٍ أكبر ، فهو روحهم ورسالتهم وثقافتهم وحياتهم ، بينما هو بالنسبة الى الفرس مثلاً لا يزيد على أنه دين جاء به العرب. وكما كان للإسلام آثار لا تُمحى في الشعوب والأقوام التي اعتنقته من غير العرب ، كذلك كان للعربية آثارها الواضحة في تلك الشعوب التي آثرت التحرر من الطابع العربي في اللسان والفكر لتوكيد استقلالها اللغوي

الذي عزز ثقتها القومية بتراثها الحضاري قبل دخولها في الإسلام . فالفارسية مثلاً ـ وهي أرقى تلك اللغات ـ كانت في بداية أمرها فقيرة في اللفظ والتعبير، ولكنها بفضل اللغة العربية وبما تسرب اليها من ألفاظ وتعابير وأساليب عربية لا تزال باقية حتى الآن ، استطاعت الوصول إلى مرحلة النضج لتعبر عن أفكار العصر وثقافة العصر إلى جانب اللغة العربية، وظلت هذه الأخيرة تؤثر في اللغة والأدب والثقافة الفارسية الجديدة . وهكذا كان حال العربية مع سائر اللغات الأقل من الفارسية شأناً .

ومما يؤسف له أن أوروبا التي إنما كانت الوريث الطبيعي للحضارة العربية الإسلامية توجَّه نقلها إلى الجوانب المادية وحدها من هذه الحضارة وعجزت عن الإفادة من مُثلها وروحها الغالية وأفقها الإنساني . لذلك كان نموها وسيرها وتحركها محصوراً في المكاسب المادية وحدها ، وحال تعصبها دون اقتباس ما تزخر به من قوى روحية ونفحات انسانية وما يتدفق فيها من مشاعر ومواجيد كانت دائماً حكراً على الشرق . فكيف تستطيع بعد ذلك أن تغير خط سيرها وتستدرك الجوانب التي فاتتها ؟ فمن أخطأ السير في البداية تعذر عليه تغيير الاتجاه فيما بعد . لقد كان ينقصها الدافع والإرادة والتصميم على تغيير جلدها ، مما ظهرت آثاره الواضحة في حروب الإبادة والاستعمار التي بدأت تشنها على العالَمْين القديم والجديد منذ أن فتحت عينيها للنور . وهكذا لم يستطع الأوروبيون الإفادة من الجوانب الإسلامية الانسانية الزاخرة بالقيم والمثل التي أبدعت حضارة العرب والتي هي أهم كثيراً من بريق التقدم المادي . لقد بهرهم هذا التقدم بثمراته العاجلة الملموسة دون روحه ، ولم يدركوا أغواره وما فيه من وحي والهام ومعان انسانية رفيعة. لقد اختاروا منه ما يعكس طبيعتهم المتميزة ، وهي طبيعة جلفة قاسية لم تستطع المسيحية تهذيبها في يوم من الأيام ، لأن خطأً تاريخياً جسيماً ـ وما أكثر أخطاء التاريخ ومهازل التاريخ ـ جذبهم إلى هذه الديانة ، وكان أحرى بهم أن يعتنقوا اليهودية ، فهي بما فيها من عنصرية وعدوانية وكره للآخر أصدق تعبيراً عن دخيلة نفوسهم واقدر على إشباع نهمهم . لقد خرَّبوا هذه الديانة السامية وجعلوها مطية للابتزاز والقهر ،

قهر شعوبهم وقهر الآخرين على حد سواء، لا رادع من خُلق ولا وازع من ضمير ! وهل نسيتم صكوك الغفران ومحاكم التفتيش والحلف غير المقدس بين الملك والاقطاع والكهنوت ؟ وعندما استنزفوا شعوبهم اتجهوا نحو الشعوب الأخرى يحملون الصليب بيمناهم ويُلوِّحون بالخنجر باليد اليسرى . أنا أحب أن أفرق دائماً بين النصرانية والمسيحية . الأولى عقيدة روحانية صافية والثانية عقيدة ملطخة بالدم والسياسة . الأولى شرقية والأخرى غربية . صكوك الغفران غير معروفة في الشرق ، وكذلك محاكم التفتيش . . . فمنذ أن انتقلت هذه العقيدة الى روما اغتالتها روما . لقد دخلت عالماً غير عالمها ، فكيَّفها له بدلاً من أن تكيفه لها . فليت شعري ماذا تبقَّى بعد ذلك لها ؟ أم على قلوب أقفالها ؟

*

إن الناظر في كتبنا القديمة لا يسعه إلا أن يشعر بالاعتزاز والغبطة لما كانت عليه الحياة العربية من غنى بالقيم السامية والمثل الرفيعة . فإن لنا ماضياً نستطيع أن نفاخر به أيَّ أمة مهما نَبُهَ ذكرها وعلا شأنها ، ولعمري انه لماضٍ مشرِّف في كل ميدان وكل منحى . ثم إن لنا تقاليد راسخة من حقنا أن نزهو بها على كل صاحب تقاليد . ولست أقول ذلك مباهاة او إدلالاً ، وإنما أقوله تقريراً لواقع وتوكيداً لحق ، هذا على الرغم من علمي أن ماضينا ـ ككل ماضٍ ـ فيه بعض ما لا يسر ، وإن تقاليدنا وعاداتنا فيها أيضاً ما يخزي وما يجب التخلص منه . وحسب الحضارة العربية مكرمة أنها حضارة احترمت الانسان وآمنت بقيمة الانسان ، مهما كان هذا الإنسان ، وإلى أي أمة أو دين انتمى . ويكفينا أن نذكر شواهد على ذلك ما نقع عليه في الدولة العربية منذ أيام الفتح الإسلامي من مساواة بين الناس وابتعاد عن العصبية العرقية وتنكر حتى للعصبية الدينية وإيمان لا حدَّ له بتعدد الأديان وحرية المعتقدات . وهذا ما يفسر لنا ما ذكرناه سابقاً من إسهام أصحاب الديانات الأخرى في بناء الدولة العربية الإسلامية اسهام المسلمين أنفسهم في ذلك ، واضطلاع المتعربين من غير العرب الأصليين في بناء الحضارة العربية اضطلاع العرب الاقحاح في هذا البناء . وهكذا استطاع العرب أن يثبتوا عملياً إمكان التوفيق بين الطابع العربي الاسلامي للدولة ، وبين احترام الانسان إلى أي جنس انتسب ، وجعلوا الجامع

الذي يربط بين أبناء الدولة الواحدة هو العمل لهذه الدولة وإغناء حضارتها الأصلية والإيمان بأهدافها السامية وقيمها الرفيعة .

هـذا وان حضارات الشعوب تتعرض في مسيرتها التاريخية لموجات متعاقبة من المد والجزر ، والارتفاع والهبوط ، وإن حضارة العرب ليست مستثناة من هذه الظاهرة التاريخية العامة . ويطول بنا الحديث لو مضينا نستعرض ما طرأ على الحضارة العربية من هذه الموجات التي ارتفع مدها أحياناً فجعل من الإسلام دين العصر وفلسفته ، ومن لغته لغة النخبة الممتازة والكثرة المتطلعة الى الرقي والمجد ، كما جعل من المسلمين قوة سياسية وعسكرية هائلة ترتفع أعلامها على أمصار متعددة الأديان واللغات والثقافات . . وهذا ما جعل بترارك وأمثاله يشيدون بالعرب ويهيبون بقومهم للحاق بالعرب الذين لم يلبثوا أن أخلوا مكانهم للقادمين الجدد . وهكذا تحول شعور التفوق عند العرب إلى عقدة التدني ، واستبدل الفرنجة بعقدة التدني إكليل الغار ! لقد حق على التاريخ ألاّ يرفع قوماً إلاّ وضعهم . فلا يبلغ الشمس إلا القادرون عليها ، ثم تحرقهم الشمس فيهوون من الأعالي كأن لم يَغْنَوْا بالأمس . ثم يندفع آخرون في مغامرة السباق ، والأسرعُ هو الذي يظفر بالبُغية بعد جهاد وإخفاق . ولا يكاد يستقر به المقام ، حتى يوافيه الحِمام .

*

لقد مضى الهنود ومضى الفرس ومضى الإغريق في أعقابهم ، ولكنهم تركوا شيئاً لا يمضي ولا يزول ، بل يظل باقياً لا يبلى . لقد تركوا تراثهم لمن جاء بعدهم ، تركوا علمهم وفلسفتهم وأدبهم . . . تركوا خوالد لا يمحوها كرُّ الدهور ولا مرُّ العصور . . . والمطلوب الآن الوصول إلى هذه الخوالد وإيجاد المناخ الصالح لاستنباتها وإخصابها وتفجيرها . فمن طلبها وسعى لها سعيها فقد قطع نصف الطريق الى المجد والسؤدد ، فرفقاً بالنصف الآخر !

وكان العرب على مستوى الحدث الكبير . لقد كانوا معه على موعد ،

وأعظِمْ به من موعد ! لقد لبوا النداء ، وترددت تباشير هذه التلبية وأهازيجها في الآفاق .

إن التراث العلمي القديم كان قبل الإسلام موزعاً في مراكز متعددة ، فلم يكن من القوة بحيث يتم الاتصال بين هذه المراكز اتصالاً إيجابياً فعالاً ينتج عنه تقدم الحركة العلمية تقدماً سريعاً مطرداً ، فإذا بالعرب بين عشية وضحاها يربطون بين هذه المراكز ويعززون إمكانيات الاتصال والتفاعل فيما بينها :

فمن المعلوم أن حاجزاً منيعاً لبث قروناً طوالاً يفصل بين حضارتين وثقافتين وطريقتين في الحياة وفي الفكر والنظر ، وهما بلاد فارس وبلاد الإغريق . يضاف إليهما حاجز آخر ـ وان كان أقل مناعة ـ كان يقوم أيضاً بين هذين البلدين وبين بلاد الفراعنة . وكذلك كان هناك أخيراً حاجز ثالث أضعف من السابق وأقل منه أثراً ، وهو الذي كان يفصل بين الفرس والهنود بخاصة ، وبلاد الشرق بعضها عن بعض بعامة . ولما جاء الإسكندر الأكبر قام بأول محاولة تاريخية لتحطيم هذه الحواجز الحضارية ، وذلك عندما وصلت فتوحاته الى أبواب الهند . لقد كان ذلك لقاء عظيماً بين حضارات متباعدة . ولكن هذه المحاولة التاريخية الرائدة على أهميتها لم تستمر طويلاً فقد بقيت محاولة هشة خجولة عرضة للهزات والعواصف . فهي ليست شيئاً يذكر بالقياس الى اللقاء الحضاري الفذ العميق الذي قامت به الفتوحات الاسلامية . ان فتوحات الاسكندر لم تستطع دمج هذه الرقاع الشاسعة ، بل سرعان ما انحسر المد وعاد كل شيء إلى ما كان عليه الحال بعد حقبة صغيرة نسبياً . فالدمج الذي لم يكتمل على يد القائد المقدوني العظيم بل ظل أملاً يداعب خياله ، أصبح حقيقة واقعة ثابتة مستمرة على أيدي العرب : دمج لغوي وديني وسياسي وثقافي وحضاري . لقد التقت الأضداد ، وامتزجت الأمشاج ، وانصهرت الفوارق في تركيبة فكرية واحدة جديدة : هي الثقافة العربية والحضارة الإسلامية ، أو قل الفكر العربي الإسلامي .

إن عظمة العرب ـ بل إن وجهاً واحداً من عظمة العرب ـ ان المجتمع

الذي بدأ يتكون منذ القرن الأول للهجرة من بيئات شتى وثقافات مختلفة وألسنة متباينة قد تعرَّب وأصبح مقراً فريداً لاتصال أصحاب المدارس العديدة وتلاقح أفكارها ، وموطناً لالتقاء الثقافات والأديان والحضارات التي كانت قبله شتاتاً مبعثراً هنا وهناك دراً نثيراً تذروه الرياح . لقد قضت الحدود الجغرافية والتاريخية ، والحواجز الدينية والثقافية والحضارية، على كل محاولة للتواصل بين مختلف هذه العناصر جميعاً، وجعلت التفاعل بينها مطلباً عسير المنال. فلئن كانت مراكز الإشعاع القديمة قد أدركت نوعاً من التطور البطيء قبل الاسلام لضعف إمكانية التأثير والتأثر المتبادلين، فقد وجدت في المجتمع العربي الإسلامي هذه الإمكانية ، ومن ثم قفزت الى مستويات رفيعة من الفعل والتفاعل والأخذ والعطاء لم تعرفها من قبل قط . وفضلاً عن ذلك ان التقاء الحضارات القديمة وخلفياتها التاريخية بعضها ببعض في هذه المنطقة المترامية الأطراف المتسعة الأكناف ، كان أيضاً ذا أثر فعال في تنقية الأفكار وتصفيتها وفتح آفاق جديدة في المعرفة لم تكن بالحسبان .

إن هذا المجتمع الجديد إذن هو الذي ولّد الصلة وحقق اللقاء. إن التفاعل التاريخي العجيب المذهل لم يتم إلاَّ على أيدي أولئك الذين خرجوا من البادية ـ نعم من البادية التي لم تنجب من قبل غير رعاء الإبل ـ يحملون أفكاراً جديدة وأنظمة جديدة ليدخلوا التاريخ من أوسع أبوابه . وإن تعهُّد رعاء الإبل لهذا التفاعل وحضانتهم له ، وإمداده بكل جديد وطريف ، كان كل أولئك عملاً فذاً رائعاً حافظ به العرب على حضارات الشعوب التاريخية القديمة . ولولا الحضارة العربية الاسلامية لتفرقت هذه الحضارات شذر مذر ، وذهبت أدراج الرياح . فلولا العرب لما تم التفاعل واللقاء ، ولانفصلت العصور القديمة عن العصور الوسطى ، ولضاع ميراث طويل وتجارب غنية خصبة . لقد وصلوا ما انقطع وجمعوا ما انفرق ، ثم اغنوه بثمرات عقولهم وأضافوا إليه كل مبتكر وأصيل . فنهضت به شعوب ، واغتذت به قلوب لا عهد لها بمثله ، وكان متاع مفكري عصر النهضة في أوروبا ومفجر طاقاتهم ، وحجة العقل الإنساني على غيره من جواهر الكون وعناصر الوجود .

وهكذا فقد عرف العرب حضارة الهند ، وحكمة فارس ، وفلسفة الإغريق ، ورهبانية النصارى ، وعقائد اليهود ، ومذاهب الصوفية . واختلط المسلمون بأقوام تنوعت عقائدهم ، وتباينت مذاهبهم ، وتعددت أجناسهم ، وتشعبت آراؤهم واختلفت مشاربهم . ورأوا ذلك العالم الزاخر بالصور والألوان والحضارات ، وصادفوا مئات المفكرين والباحثين والمثقفين ، واتصلوا بأصناف من القادة والرادة والأفراد والجماعات لا تدخل تحت حصر ، وشاع التزاوج والإصهار بين الغالبين والمغلوبين ، وتفاعلت العادات والتقاليد والآراء والأفكار والمذاهب والمواقف والعلاقات . وجاءت وحدة الدين والمعتقد لتعطي هذا التفاعل صيغة فريدة . وينتج عن ذلك كله مزاج فكري واجتماعي وروحي جديد أعطى الحضارة العربية الإسلامية كل معناها ومبناها .

فقد كان التحاك والتفاعل بين هذه الأقوام والأجناس والأمم التي ربطت بينها وحدة التاريخ والجغرافيا واللغة والعقيدة والمصير والألم والأمل ـ رغم كل ما كان بينها من شقاق ونزاع وتباين ـ مما يحفز على الكثير من التفكر والنظر وتبادل الرأي واقتراح المواقف والحلول . وكان التنازع الدائم على السلطة والسيادة السياسية بين الجماعات المختلفة عنصراً عملياً هاماً زاد في التفاعل الفكري واليقظة العقلية والانفتاح على العلم والعالم لقد أدرك العرب في وقت متقدم جداً أن انغلاق الشعوب والحضارات عامل انحطاط وتقهقر ومدعاة للنكوص والردة ، واما الانفتاح فهو عامل تقدم وحيوية ومظهر صحة وعافية . لذلك لم يعتزلوا العالم ولم يتقوقعوا يجترّون وحدتهم ووحشتهم ، بل لقد اقبلوا على الشعوب يستزيدون منها العلم والعرفان ، اقبلوا على تراث الأوائل يعبون عبّاً ويقفون منه موقف الوارث الشرعي . فنِعْم التراث ونِعْم الوارث ونِعْم الموروث !

أجل ، لقد أقبل العرب على هذا التراث لإنتاج حياتهم العقلية وإنجاب المفكرين والعلماء والفلاسفة والقادة والرادة وأرباب الرأي والمشورة . فالفلسفة الاسلامية ، والعلم العربي لم يخرجا الى الوجود إلاّ من الاتصال المباشر بين الإسلام والنزعات الفكرية الاسلامية وبين ثمرات الفكر الأجنبي ومناهج العقل

الفلسفي الأجنبي ، ولا سيما اليوناني . ولا غضاضة عليهم في ذلك ولا ضَيْر . إنهم يريدون أن يصنعوا تاريخهم بعد أن لم يكن لهم تاريخ ، بل أن ينتقلوا الى بؤرة التاريخ بعد أن ظلوا طويلاً على هامش التاريخ . ولا عليهم بعد ذلك أن يلتفتوا الى الأمم التي سبقتهم الى صناعة التاريخ يقرعون أبوابها ليسترفدوها ويفيدوا من تجاربها ويأتوا منها بقبس يضيء الطريق ويعجل في المسيرة. إن هذا الانفتاح الذي إنما كان عنوان مجد العرب اتُخذ ذريعة للتشكيك والاتهام. لقد كان مطعناً ينفذ منه بعض النقاد من ذوي الأغراض الى صميم الفكر العربي وقدس أقداسه ، لتجريحه وتجريمه واتهامه بالسطو على آثار الآخرين وسرقة جهودهم. إنه ـ بزعمهم ـ فكر بلا هوية ولا معالم: يقلد كل كاتب ، ويدور في كل فلك ، ويقتاس بكل مؤلف ، وينسج على كل منوال ويتسكع على كل مائدة ، ويتبع كل ناعق . . ، وهكذا نسمع يوماً بعد يوم أحكاماً سطحية مبتسرة من هذا القبيل يتبرع بها بعض الباحثين العنصريين ممَّن شغله الشاغل تلمس الأشباه والنظائر الخارجية بين الفكر العربي والفكر الأجنبي ، والإفضاء من ذلك كله الى الحكم بأن كل قضية فكرية صدرت عن أبناء البادية رعاء الشاة والإبل فيها وقدة ذكاء أو لمعة عبقرية ، فإنما هي نفحة من نفحات الفكر الأجنبي (يوناني أو نصراني أو يهودي أو فارسي أو هندي . .) ونعمة سابغة من نعمائه. وكذلك لم يكن الفكر العربي الاسلامي عند هذا الفريق سوى استعارة خارجية صرف ، وفسيفساء منقولة من هنا وهناك بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير .

إن هؤلاء الباحثين الذين يقودون حملات التشهير والتخرص والافتراء لا يروق لهم أن تظهر عبقرية عربية إسلامية دون أن تمتّ بوشيجة من الوشائج الى أصول أجنبية ، ومن ثم راحوا يُنقبون في غياهب التاريخ وبين الأطلال المظلمة عن لقاء عارض بين مفكر عربي وآخر يوناني أو عن نسب عنكبوتي آري وهمي لفلاسفة ومفكرين وعلماء عرب مسلمين لا يعرف التاريخ لهم منبتاً غير بيئتهم العربية الإسلامية: حسبه أن جده الأكبر (وربما جدته الكبرى) فارسي أو رومي نقل اليه شرارة العبقرية دون أن يكون هو عبقرياً . المهم أن الجنس منبت

للعاقرة ولو لم ينجب أي عبقري، فليس المهم أن ينجب عبقرياً، إنما المهم أن يكون من الأجناس التي حلّت فيها البركة العبقرية. وإذا كان هذا قد استفاد شحنة العبقرية من نسبه المختار المشحون بالعبقرية فإن ذلك قد تشرف بلقاء راهب نصراني ربما كان يعرف شيئاً من اليونانية وعندئذٍ فقط سرى اليه من هذا الراهب لهيب العبقرية !! وما أهونها من عبقرية تثيرها جماعة من البُله العاطلين . وكم كان حقيقاً بهم أن يبثوا هذه العبقرية بين أبناء جلدتهم بدلاً من أن ينثروها على الأغراب إذا كانوا بعصاهم السحرية قادرين على إحياء الموتى ! وكذلك لو كان الأصل الفارسي أو الرومي كافياً لإنجاب العبقريات والمواهب ، فما باله لم ينجبها إلا بعد اللقاء العربي الإسلامي ؟

وتوخياً للدقة يجب الإعتراف بأن البليد يمكن أن يتخرج على يديه رجل عبقري . بل هذا هو الواقع بالفعل . والدليل على ذلك أن العباقرة والنابغين قلة نادرة . وقد تخرجت هذه القلة على أيدي أساتذة عاديين لا حصر لهم . بل قد يحدث أن معلماً أكثر بلادة من رهبان القرون الوسطى تتلمذ له عبقري فذ . بل من دلائل العبقرية عند العبقري أن يستخرج العلم من أفواه أمثال هذا البليد. وكلنا سمعنا بالمثل القائل: «فاق التلميذُ أستاذه». فالتفوق يرجع الى التلميذ لا إلى الأستاذ : فالعبقرية إذن لا تسري من الأستاذ الى التلميذ ، ولا يمكن لأي أستاذ في العالم أن يصنع عبقرياً . فالعبقري من صنع ذاته ، وكل ما يفعله الأستاذ فمحصور في أن يقدم له بعض المعلومات الفنية التي تنقصه والتي يجدها في أي كتاب . أما أن يلهب فيه شعلة العبقرية فهذا مستحيل .

كثيراً ما يدور الحديث على أهمية التأثيراليوناني في العقل العربي . أنا لا أنكر هذا التأثير ولا أقلل من أهميته، ولكنني أحب دائماً أن أعيده الى حجمه الطبيعي. فليت شعري! ما قيمة التأثيرات الأجنبية ـ يونانية كانت أو غير يونانية ـ إذا لم تجد العقل الذي تحركه ، والخيال الذي تثيره ، والوجدان الذي توقظه، والوعي الذي يقدرها حق قدرها ويتحرق شوقاً إليها ويعانقها بحصافة العلماء ، ونشوة الصوفية ، وإخلاص العاشقين ، وبراءة الأطفال وفرحتهم وسذاجتهم . وكأيِّن من عنصر ثقافي أو أثر فكري أو معنى حضاري

يمر عليه الناس وهم عنه غافلون .

لو كانت العبقرية مسألة تعود إلى الأستاذ لكان عدد العباقرة في العالم كعدد حبات الرمل. ولكن العباقرة شذور كشذور الذهب في فلوات وفلوات من الرمال. ومن هنا فإن المبدع الذي كثيراً ما يُتهم بالسطو على آثار غيره لا مصادر له بالمعنى الوجداني العميق ، إنما هي تجارب وخبرات تجيش في نفسه ، وبروق تومض اليه ثم تخمد عنه، وخطرات وسوانح تهجم بين الحين والحين، فيسارع إلى تدوينها قبل أن تفلت منه . وقد يتخلل ذلك آثارٌ وأفكار ترد إليه من خارج وتقفز إلى وجدانه الحي على علم منه أو على غير علم، فتتفاعل في عالمها الغض الجديد. هذا وقد رسبت منها وتناثرت أشياء. فهو بحكم عكوفه على القراءة والكتابة والبحث ومطالعة آثار أولئك الذين يشبهونه في المزاج والتكوين والتوجه الفكري والفني ، ويشعر بنوع من الارتباط الداخلي الوثيق بينه وبينهم ، يسري إلى نفسه منهم بعض الإيحاءآت والمعاني فتغور فيها وتغور، وهناك يعاد تنظيمها مرة أخرى. وبعد أن يَخضع لعمليات كثيرة من المعالجة والإنضاج ، ويضاف إليها ما يضاف من عناصر عالمها الجديد ، تخرج الى بؤرة الشعور في صيغ وأوضاع غير مسبوقة . لقد صهرتها عبقريته الفذة وأضافت اليها نظراته العميقة وخبراته الواسعة وتجاربه ومعاناته . لقد نضجت بما استقر في نفسه من الآخرين وبما أضافت إليها عبقريته وتفجرت به ينابيعه ، فاتُهم بالإغارة على آثار الذين سبقوه ممن تأثر بهم وبالسطو على بنات أفكارهم ، والمسكين غافل عن كل هذا . كلا يا هؤلاء ! ليس في الأمر سطو ولا إغارة ، إنما هناك قدرة هائلة على الاستيعاب والهضم والتمثيل ، هناك خلق وإبداع ، والخلق والإبداع لا يكونان من عدم بل من مواد خام سابقة ! الخلق من عدم مستحيل سواء على نطاق الأشياء أو على نطاق الأفكار . أفكار تثير أفكاراً ، وأفكار تصرع أفكاراً ، وتتفاعل الأفكار بالأفكار ، وتتولد الأفكار عن الأفكار . وإذا كان قد « سرق » حقاً ، فقد ألقى على ما « سرق » ظل شخصيته وطبعه بطابعه ، وأضفى عليه نفثة من روحه وقبساً من نوره . فجاء « كيساويو» الأفكار وقبضوا عليه متلبساً بجريمته. يا للعار ويا للشنار !! لقد نسوا فكره

المنـظم ، وعقله المرتب ، وتحليله الـدقيق ، وإيحاءآت نفسه ومضـات سره . . . لقد نسوا همومه ومعاناته ونسوا أرقه وقلقه وسُهاده . لقد نسوا ـ وهذا هو الأهم ـ التركيبة الجديدة التي صنعها والصيغة الأصيلة التي طلع علينا بها . إن الفلسفة التي تفتق عنها ذهنه هي فلسفته هو ـ وهو وحده ـ رغم مشاركة الكثيرين فيها . إنها ليست فلسفة مستعارة وإنما هي فلسفة شخصية خاصة به ، وإن نحا بها نحو هذا الفيلسوف أو ذاك . إنها ليست مجرد اقتباس ، إنها خلاصة تفكير عميق وتعبير شخصي أنيق وإذا كان قد « سرق » حقاً ، فكما « يسرق » النحل رحيق الأزهار . أجل إن الفيلسوف الذي « يسرق » سرقات من هذا القبيل هو بالنحل أشبه : فالنحل يمتص الرحيق من هذه الزهرة أو تلك ، ولكنه بذلك إنما ينتج الشهد الذي هو صنعه الخاص ، فلا صعتر ولا ليمون ولا زيتون ولا نرجس . . . إنه شهد والسلام . وهكذا الفيلسوف والمبدع وكل ذي موهبة خلاق . إن كل واحد من هؤلاء يقتبس ، ولكنه يصنع مما يقتبس نتاجاً شخصياً فريداً ، فيه الكثير من نفثات صاحبه التي امتزجت بنفسه فانثالت عليه المعاني وانبثق رحيق الزهور . إنه من قوة الاستيعاب والخلق بحيث تتحلل فيه هذه النفثات وتنحلّ في حسه الفياض وقريحته المبدعة فتخرج عسلاً « مصفى فيه شفاء للناس ولذة للشاربين » . فهو يُركب مواد من مواد ويضيف اليها مواد وعناصر من ذوب عقله ومهجة نفسه ، ثم يستولدها وعليها سيماؤه وطابعه وكأنها تتفجر من أعماق ذاته ، لكن شرطة « كيماويي » الأفكار له بالمرصاد . إنها في شغل شاغل عن جميع هذه العمليات الباطنة التي تطحن نفسه وتحطم حسه ، إنها شرطة فظة جافة غليظة لا تهادن ولا تسالم ولا تساوم ، رائدها هتك الأستار ، وفضح الأسرار ، واختراق الأسوار ! إنها شرطة جاهلة تتعلق بالقشور التي تطفو على السطح ، وليس لها القدرة على سبر الأغوار والوغول في الأعماق . إن المسروقات عليها بصَمات اللص ، وحسب الشرطة هذا الدليل لإثبات « الجريمة » . فَلِمَ العبث وإضاعة الوقت في غير ما طائل ؟ « النصوص قبل النفوس » هذا هو الشعار الذي تدين به وعلى منطوقه إنما تعمل وتسير .

ومعنى ذلك أن التأثيرات الحضارية ، والاستعارات الثقافية ، والأفكار والآراء والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب ، إنما هي ظاهرة صحية طبيعية

سليمة لا خطر فيها ولا خوف منها . وهي موضوع مألوف عالجته كتب الإجتماع ولا تزال تعالجه ، وبخاصة في كتب الأنثروبولوجيا ، وهي لا تقتصر على عصر دون آخر وقوم دون آخرين ، غير أنها تكون كالقطر أحياناً ، ولكنها تكون كالغيث في عصور التغيرات الإجتماعية الكبيرة والثورات الشاملة .

ليست العبرة إذن بالتأثيرات الأجنبية، إنما العبرة كل العبرة بالعقل الذي يستخدم هذه التأثيرات ويصوغ منها مادة جديدة . إن التأثيرات الأجنبية لا تُغْني شيئاً إذا لم يتوفر العقل الذي يعرف كيف يتناول هذه التأثيرات وكيف يفيد منها وينميها ويضيف اليها ما يزيدها تألقاً وعمقاً واشعاعاً ، بينما هي تقرع عقول الناس جميعاً وتزدحم في أذهانهم دون أن يستخلصوا منها شيئاً أو تثير فيهم معنى . التأثيرات واحدة ولكن العقول ليست واحدة . هذا يأخذ ويعطي وهذا يأخذ دون أن يعطي ، هل يستويان ؟ أحدهما أبكم لا يقدر على شيء ، وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجههْ لا يأت بخير، هل يستوي هو ومن يقدر على كل شيء أينما توجَّه أتى بكل خير ، وهما أخان شقيقان ينامان تحت سقف واحد ويشتركان في طعام واحد ؟

أجل إن التأثيرات الخارجية والعناصر الأجنبية لا خير فيها ما لم تصادف عقلاً خصباً يبث فيها الحياة ويسخرها لأغراضه وغاياته ، ويعطيها من الصيغ والأشكال ما يجعلها تعبيراً عن ذاته . إنها لا تكفي أبداً وحدها لتفسير ما يومض في النفس من بدوات وسوانح ، وما يعن لها من خلسات ولمع ، وما يتفاعل فيها من نفثات الابداع ونفحات الالهام ، إنها لا تصلح أبداً لتعليل إطلالة العظيم وإن كان عنصراً هاماً من عناصر وجوده. إن هذه الإطلالة ظاهرة فريدة تنبثق من أعماق الذات ، من ينبوعها الثرّ الدافق السلسبيل ، وهي لا تتصل بالأسباب والعوامل الخارجية إلا بخيوط أوهن من خيط العنكبوت ، وإلاّ فما بال هذه الأسباب والعوامل تدق جميع الأبواب فلا يستجيب لها إلا قلة نادرة مختارة منها ؟

وليس معنى ذلك أننا نقلل من أهمية العامل الخارجي أو نبخسه حقه .

كلاهما ضروري لا بد منه في عملية الخلق وشحنة الإبداع : العامل الداخلي والعامل الخارجي ، فإذا اجتمعا فقد حصلت المعجزة . ومن هنا فإن الثقافات تلفيقية ضرورةً في حداثة عهدها ، ابتكارية فيما بعد ، لأن التعليم إنما يبدأ دائماً من التقليد ، ثم يستقل بنفسه بعدئذٍ إذا كان صاحبه على ذلك من القادرين . ومن العبث أن يحاول المرء إبداعاً قبل أن يتلقى تعليماً جدياً . فإذا ما بلغت الأمة أشدها وكانت في مستوى ما هو متوقع منها طبعت بطابعها جميع أعمالها وآثارها ، وصاغت شخصيتها المستقلة الواعية ، على وفق ما تريد وتهوى . وليس ثمة مثل على حضارة استقلت بذاتها أو نشأت على حيالها دون أن تتأثر بغيرها ، صديقاً كان أو عدواً ، فلا شأن للصداقة أو العداوة في منطق التفاعل الحضاري . فلا بد من دم جديد يسري في أعراقها باستمرار ، وإلاّ دبَّ فيها الانحلال والوهن . لا بد من لقاح يحرك كوامنها ويقيل عثرتها حتى تبلغ غاية أمرها . وكثيراً ما يدركها اللقاح على غير دراية منها ، بل قسراً عنها مهما احتاطت دونه أو وضعت في وجهه من عراقيلها . إن الحدود الثقافية غير الحدود الجغرافية : فإذا كانت هذه الأخيرة تنحصر في رقعة ضيقة من المكان فإن الحدود الثقافية لا يحصرها زمان ولا مكان . ولا غرو في ذلك ، فالعناصر الثقافية والحضارية هي بطبيعتها امتداد وتوسع وانتشار وراء الحدود والسدود بحكم قوتها الذاتية وفاعليتها الخاصة . إنها كأريج الأزهار تطير كل مطار . فجميع الأبواب مشرعة أمامها لا يحجزها ظلام الليل أو وهج النهار . إنها تنتشر وتنتشر تبعاً لقواها الباطنة من جهة أولى ولمدى استعداد غيرها لتقبلها من جهة أخرى . وقد اهتم علماء الإجتماع والحضارة بهذه الظاهرة التي يمكن تسميتها (انسياح العناصر الحضارية) وجعلوها منطلقاً لتفسير جميع التغيرات الحضارية التي حدثت في التاريخ . وأسرف بعضهم في هذا المذهب الانتشاري Diffusionisme فردوا جميع الحضارات إلى موطن واحد انطلقت منه بمحض الفعل الانتشاري ، كوادي النيل أو بلاد ما بين النهرين ، أو شواطىء بحر قزوين مثلاً ..

فالأجواء الثقافية كالأجواء الطبيعية يؤثر بعضها في بعض ويتأثر بعضها

ببعض شاءت أم أبت ، ويشعر أهل كل مناخ بعوامل المناخات المحيطة بهم ، فينجذبون إليها ويبذلون غاية الوسع للاقتداء بها وتذليل جميع العقبات للوصول إليها . إنها مركز إشعاع يكاد سنا برقه يأخذ بالأبصار فلا تملك النفوس لها دفعاً ، كالفراش يتهافت على الضوء وهو يحمل اليه الموت ، فكيف إذا كان يحمل إليه الحياة ؟

إن شجرة المعرفة تغذيها عصارة العقول البشرية بالأفكار ، وبها إنما تنمو وتسمق ، ثم هي تتفرع هنا وهناك لتصبح دوحة وارفة الظلال دانية القطوف طيبة الأُكل . فما من ورقة ولا ثمرة في هذه الدوحة ولا من عرق من عروقها أو فنن من أفنانها أو برعم من براعمها إلاّ كان وراءه عقول تُمده بالنُسغ وتجارب تزيده نضارة وبهجة. وما زال جهد الأيام وعرق العصور وكدح العقول يتطاول بهذه الشجرة ، وما فتئت عصارة الأذهان تغنيها وتضيف اليها كل جديد وطريف وتزيدها سموقاً وارتفاعاً . هذه حكمة الأجيال وعبرة التاريخ .

لقد أخذ الإغريق من كل حضارة سبقتهم واقتبسوا من المصريين والهنود وبلاد ما بين النهرين . . . حتى ليرى البعض أنه لا يكاد يوجد شيء في الحضارة الاغريقية لا يمكن إرجاعه الى أصول خارجية . إن المنقب في أصل هذه الحضارة يجد ـ إذا أراد ـ أن جذورها تمتد بعيداً جداً في أغوار التاريخ وما قبل التاريخ لتأخذ من مصادر شتى لا تقع تحت حصر . فإذا كان الاغريق قد نهلوا من هذه المصادر فإنهم وجّهوا كل هذا الذي نهلوه إلى ما يلائم حاجاتهم هم ويتفق مع أوضاعهم ومقتضيات حياتهم. فلم يزدردوا ازدراداً، بل لقد تريثوا واختاروا ، واستخلصوا مما اختاروا مزيجاً له خواص عديدة غير خواص أجزائه متفرقة . فكان هو علم اليونان ، وفلسفة اليونان وتراث اليونان . لقد هضموا كل ما أخذوا وتمثلوه حتى دخل كيانهم العقلي والنفسي كله وغاص في نسيج وجودهم ، وصار جزءاً أساسياً من ثقافتهم وصيغة حياتهم .

*

وكذلك فعل أجدادنا العرب . فلئن كانوا تلاميذ لليونان وغير اليونان ، إلاّ

أنهم كانوا تلاميذ نوابغ بررة يفخر بهم أساتذتهم ، كما يعترفون بفضل أساتذتهم عليهم ، حتى لقد وصلوا هم أيضاً إلى مقام الأستاذية، وكان لهم تلاميذ في الشرق والغرب أقرَّ بعضهم بالفضل واعترف بالجميل وبعضهم أنكر وجحد ، بل افترى وضلل وكشف ما تنضح به نفسه من لؤم وفساد، وكان مصدراً للكثير من الأكاذيب والتخرصات. وانتشرت قالة السوء وحملات الذم والقدح ، وغلب الاستكبار والتعنت على البحث العلمي الموضوعي الذي طالما تشدق به هذا الفريق . فإذا جدَّ الجدُّ ظهرت الخبايا والطوايا وزالت الحجب وانهتكت الأستار ، وانكشف السر والسريرة .

وإذا كان هناك من يشك في القيمة الحقيقية لثمرات الفكر العربي ويقول إن حظ أجدادنا من العلم والفلسفة لم يكن إلا النقل والتعليق على الكتب اليونانية أو غير اليونانية ، فما علينا ـ لإدحاض هذا الرأي ـ إلاَّ مقارنة ما كتبه النقلة السريان بما كتبه العلماء والفلاسفة المفكرون العرب. فالمؤلفات الأولى ليست شيئاً مذكوراً في جنب المؤلفات الثانية . الأولى تكرار واجترار ، والثانية انثيال في المعاني والأفكار .

أجل ، إذا أردنا أن نقف على مبلغ ما فعله العرب بتراث الأوائل ، وكيف سلكوا بازائه ، وأي النتائج استخلصوا منه ، بل كيف تجاوزوه وأقاموا على انقاضه بناءهم الشامخ العتيد ، فما علينا إلاَّ أن نعارضهم بالسريان الذين كانوا أسبق منهم إلى تلقف هذا التراث وأقرب اليه لُحمة . ومع هذا فقد عجزوا عن أن ينجبوا ـ قبل اختلاطهم بالعرب ـ مفكراً واحداً من معدن الكندي أو الفارابي أو الرازي أو ابن سينا أو إبن الهيثم أو إبن رشد أو ابن خلدون . . . ويجب أن نعارضهم أيضاً بالروم (أو البيزنطيين) الذين ورثوا حكمة الأوائل لكنهم لم يقدروها حق قدرها ، فدفنوها في الأقبية والكهوف والسراديب ، حتى جاء العرب فانتشلوها وأخرجوها من جحورها في عملية إنقاذ نادرة في التاريخ . فالدولة البيزنطية لم تنجب طوال تاريخها مفكرين عظاماً في مستوى مفكري العرب ، ولم تشهد قيام نهضة كتلك التي قامت في بلاد الإسلام . وإذا كان قد نبغ من هؤلاء أو أولئك من نبغ فإنما كان ذلك بعد لقائهم العرب أي بعد أن توافرت الظروف الموضوعية الجديدة التي جاء بها العرب والفرص الخصبة

الفريدة التي أتاحوها للنقلة والوافدين وسكان البلاد الأصليين ، وأجواء التعايش والتسامح والتعاون والحوار التي تحققت لهؤلاء في ظل الخلافة القائمة .

*

ليست العبرة بما استفاده العرب من الأمم السالفة ، وإنما العبرة بما لم يستفيدوه منهم ، وبكلمة أدق بما لا سبيل إلى استفادته ، وأعني به الشعلة والشحنة والوقود الذي انطلقوا به من الصحراء ليخترقوا الآفاق ، أعني به روح التوثب وحب الاستطلاع وسعة الخيال ، والقدرة الهائلة على استخراج العلاقات ، وملكة الاستنتاج والاستدلال ، والتحليل والتركيب ، والتعميم والتعليل . . . وكلها مواهب لا تفيد فيها علوم الدنيا ولا تغني عنها المجامع والأكاديميات وخزائن الكتب . فللاقتباس حدود وخطوط حمراء لا يتخطاها إلا القادرون . وقد كان العرب في عصورهم الذهبية أولئك القادرين . لقد صنعوا الحدث الكبير فقفزوا إلى الذروة بعدما طال لبثهم في الضحضاح ، وتربعوا فوق القمم بعد أن كانوا هملاً في السفوح . لقد كانوا عاجزين عن التقاط الأفكار والإمساك بعنان الأفكار ، الى أن انتفضوا انتفاضة المارد الجبار . لقد كان عهد وأقبل عهد . فالعنصر المميز لهم منذ الآن هو قدرتهم الخارقة على جذب الأفكار والتقاط الأفكار ، والبحث عن الأفكار والإيمان بمجد الأفكار ، بل لقد أصبحوا قادرين على صنع الأفكار وتوليد الأفكار من الأفكار . لقد كانوا صناع الفاظ فأصبحوا صناع أفكار ، كانوا حديثاً تلوكه الأفواه فأصبحوا حدثاً يوجه الأحاديث والأحداث ، بل ـ وأكثر من ذلك ـ يفسر ويعلل الأحاديث والأحداث . وكان ذلك نتيجة حتمية للانفجار السِّيكوسوسيوديناميكي الذي انطلق في القرن السابع للميلاد ، فحشد الطاقات ، وجند الإمكانات ، وعبأ النفوس . وهذا ما يفسر لنا ظهور ذلك العدد الهائل من القادة والرادة والعلماء والأدباء والفلاسفة والمفكرين في عصور متقاربة . وعندما استنفدت هذه التعبئة جميع أمكاناتها وجف النُّسْغ فيها ، نضبت العقول ، وجمدت الأذهان ، وتوقفت القوى المبدعة الخلاقة .

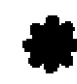
لذلك فإن عرب ما قبل الإسلام ليسوا في نظري هم أنفسهم عرب ما بعد الإسلام . لقد تبدل القوم غير القوم . لقد أدبر عهد وأقبل عهد، هذا مع أن هياكلهم وجميع مقومات وجودهم البيولوجي لم يطرأ عليها تغيير يذكر. لقد نفذت آثار الانفجار الجديد الى الأغوار السحيقة في الإنسان واخترقت اللحم والعظم ووصلت إلى حيث يُصنع الإنسان وحيث جوهر الإنسان وحقيقة الإنسان . لقد تغلغلت في أعماقه، ومسَّت شغافاً، واقتحمت تخوماً وأبعاداً ومجاهل انتهى عندها فعل البيولوجيا وبدأ فعل السَّيْكولوجيا ، فَوَرِيَتْ الزناذ وشُحنت الطاقات ، وانطلقت المسيرة . ولم يكن ذلك لمزية في العرب لم تسنح لغيرهم ، وإلاَّ وقعنا في عنصرية بغيضة طالما نددنا بها وأعلنَّا النكير عليها ، كما لم يكن ذلك أيضاً لأسباب علوية خارقة كلا ، لا هذا ولا ذاك ؛ فإن ما حدث للعرب يحدث كل يوم وفي كل بلد يزلزله انفجار سَيْكوسوسيودينامكي كالانفجار الذي زلزل جزيرة العرب . وما أمر الثورة الفرنسية والثورة الأميريكية والثورة البلشفية في العصر الحديث ـ والثورة اليونانية في العصور القديمة ـ أقول وما أمر هذه الثورات عنا ببعيد . فلا ثورة بلا انفجار سَيْكوسوسيودينامكي شامل يأتي بفئة جديدة من الناس ألهبتهم مُثل جديدة وأفكار جديدة فاصبحوا قوماً آخرين . وهكذا فلم يكُن الاسلام بِدْعاً من الثورات والانفجارات . فالبشر إنما هم أوعية وقوالب متحركة بالمثل والأفكار والمعاني التي تؤرقهم وتأخذ بتلابيبهم . فهناك صرعى الأفكار كما هناك صرعى السيوف والقنابل والأحجار .

لذلك فإن من أفدح الخطأ فيما أزعم النظر الى العرب قبل الإسلام على أنهم هم أنفسهم عرب ما بعد الإسلام ، كأنما الإسلام حدث عارض لا أهمية له في وثبة العرب واقتحامهم الآفاق ؛ وكأنما الأفكار بالتالي أمور ثانوية تافهة ليست شيئاً مذكوراً . فكأنما قطرة دم خير من ومضة فكر ، أو كسرة عظم أولى من نفثة وجدان ، أو قطعة لحم أعظم من انثيال معنى .

كلا ، فإنما الإنسان بفكره لا بعظمه ، بما ينبثق في عقله لا بما يُصبغ بشرته ، وبما ينطوي عليه دماغه من معان لا توزن بميزان ولا تكال بمكيال ، لا بما يُثقل الميزان ويملأ المكيال . الأبدان تبقى هي الأبدان في كل زمان

ومكـان ، ولكنها الأفكـار تفرق بين الأبـدان . الأبدان مـطايا الأفكـار ومـا قيمـة الأبدان بلا أفكار ، ولو أعجبك حسن الأبدان ؟!

لقد جاء الاسلام وطرح مثلاً جديدة وقيماً جديدة وإيـديولـوجيا جـديدة ، والقى على المسلمين مسؤوليات وتبعات جدية والزمهم الزمات جديـة ، نشأ عنهـا جميعاً تركيب جديد وكيان اجتماعي جـديد . هـذا الكيان إنمـا هو حقيقـة عليا جديدة شاملة تسمو على حقائق الأفراد أو العناصر التي يتألف منها . فقـد تولـد عن هـذه العناصـر ـ وقد شحنت بـالدين الجـديد ـ تفـاعـل جـديـد ، ونمط من التفكير والسلوك والحياة جديد . لقـد ذاب الفرس والهنـود والأتراك والـروم . . في حقيقة شاملة أكبر احتوتهم جميعـاً واغتنت بهم جميعاً ، كمـا اغتنوا هم بهـا واخصبـوا بلقاحهـا . هذه الحقيقـة ليست كومـة من الأفـراد ، ليست مجمـوعـاً حسـابياً ، ليست حصى بشـرية انضم بعضهـا إلى بعض ، وتراكم بعضهـا فوق بعض ، إنها نظام جديد من العـلاقات المتشـابكة المعقـدة المشحونـة بالـرموز والمعـاني . أجل إن جـوهر هـذه الجماعـة ليست الكثافـة العدديـة ، بـل القيم الـروحية والمثـل العقلية والحضـارية . إنهـا كلٌ عضـوي متكـامـل ، لـه وحيـه الخاص ، ويحيا صيرورته الخاصة وتجـربته الخـاصة على أنحـاء ووجوه كعـدد أنفس بني آدم . وهـو ينمو ـ لا كمـا تنمو البلوريـات بضم أحـزاء خـارجيـة الى جرمها الأصلي ـ وإنما هو ينمو بدينـامية بـاطنة تتفجـر من الينبوع الثر الذاتي ، ينبوع الحياة الـدافق ، ينبوعهـا الجياش الخصب الأصيـل . إن هذا الكـل وقد شُحن بالدين الجديد تفاعلت عناصره تفاعـلاً جديـداً تولـد عنه نمط جـديد من التفكـر والسلوك والحياة ، لا هــو بالفـارسي ولا هو بـالهندي ولا بـالتـركي ولا بالرومي . . . . . .



لقد ذاب الفرس والأتـراك والروم في حقيقـة شاملة أكبـر احتوتهم جميعـاً وتجـاوزتهم جميعاً وأغتنت بهم جميعـاً . كما اغتنـوا هم بهـا جميعـاً واخصبـوا بلقاحها. هذه الحقيقة هي نسيج جديد سُداه الاسلام ولُحمته العروبة ، وغذاؤه

مواريث هذه الأقوام وذخائرها . . إنها المجتمع العربي الإسلامي وكفى، المجتمع الذي انصهر فيه العرب حتى لقد كادوا أن يكونوا هم أولئك الأعاجم الذين دخلوا فيه أفواجاً ، وانصهر فيه الأعاجم حتى لقد كادوا أن يكونوا هم أولئك العرب الذين خرجوا من البادية وطلعوا على العالم برسالة جديدة وحضارة مختلفة ، واشعاع جديد.

ولهذا المجتمع الجديد الذي وَفَدَ على حضارات مختلفة ، وتفاعلت فيه تيارات مختلفة ، واصطرعت على ساحته مذاهب ومدارس مختلفة ـ أقول لهذا المجتمع وحده ـ إنما تدين شتى العبقريات والمواهب والطاقات التي تفجرت فيه ، دونما نظر الى لون أو جنس أو عرق . فلئن كان يشبه سائر المجتمعات من حيث الكثافة العددية والأشكال المورفولوجية ، والتكوين الجسمي والاستعدادات البيولوجية . . . فإنه يختلف عنها من حيث نظام العلاقات والأهداف والرموز والمعاني التي هي مناط الأمر في كل مجتمع وجوهر وجوده وطابعه المميز . بهذا الفهم الجديد للمجتمع العربي الإسلامي تنكشف لنا حقائق كثيرة كان يجللها الضباب ، وتتبدد شبهات وأوهام وقرت في النفوس ورسخت في العقول واستبدت بالأذهان حتى لبدا من الصعب اقتلاعها منها .

الإسلام نتاج العبقرية العربية ومعجزة من معجزاتها . كما ان العرب هم رسله وحواريوه ، بل شموعه ومشاعله . إنهم قوته الدافعة ورأسه المفكر وأداته الفاعلة في مجال تغيير الأفكار وتعديل المفاهيم. إنه شحنة عربية، وطاقة دينية، وقوة أخلاقية، وانتفاضة ثورية، وقيمة إنسانية، وكثافة بشرية، وتطلعات فكرية، وانطلاقة حضارية . وهذا المزاج ـ ولا أقول الخليط ـ الفريد يكمن وراء جميع التغيرات العميقة التي طرأت على المنطقة الممتدة من الخليج الى المحيط ، وعلى شبه جزيرة أيبيريا، بين القرن السابع والقرن الرابع عشر للميلاد. فإذا لم نُوفِّ هذه الحقيقة التاريخية العظيمة قسطها من الدراسة والتمحيص ، وإذا لم ندرك قدرتها الهائلة على التأثير والفاعلية وتفجير الظروف والأوضاع ، وتغيير الأفكار والمفاهيم ـ إذا لم نفعل ذلك لم نفهم شيئاً من المنجزات والأعمال والمآثر التي إنما صدرت عنها ، وكانت النتائج التي سنصل إليها هزيلة شاحبة . وهذا ما

ستحاول السَّيْكوسوسيوديناميكا ـ صادقةً ـ الوفاء ببعض حقوقه . وأملي كبير أن يتولى كل منا قسطه من المسؤولية .

ذلك أن المثل والأفكار حين تغزو العقول والأذهان ، تستولي على الوجدان والضمير، تهوي اليها القلوب والمشاعر ، ولا سيما عندما يبلغ المجتمع حداً معيناً من التنظيم والتماسك ودرجة كافية من النضج والوعي . فإذا القوم غير القوم ، وإذا الناس غير الناس ، هذا هو موضوع السَّيْكوسوسيوديناميكا . لقد انقلب كل شيء رأساً على عقب، ومنذ الآن ستمضي الأمور على غير ما كانت تمضي ، وسيتخذ مسار الأحداث والنظام الفكري والروحي للأفراد والجماعات منعطفاً جديداً ، وسيشهد الناس الفتوح تلو الفتوح ، على اختلاف أنواع الفتوح، فتوح العقل والبرهان ، وفتوح القلب والوجدان ، فضلاً عن فتوح الأقطار والبلدان . هذا ما حدث من قبل لليونان ، وهذا ما سيحدث للفرنسيس والامريكان ، فكيف تعجبون أن يحدث مثله للعرب في أوسط الزمان !؟

فمنذ جاء الإسلام تبدلت نظرة العرب إلى الكون والإنسان والحياة والمصير ، وانقلبت موازين الأخلاق والسلوك عندهم ، وتغيرت المفاهيم والأحكام في رؤوسهم ، ونشأت بينهم أفكار واتجاهات وتوجهات ومواقف وتيارات ومُثل وقيم أخذ يصطرع بعضها ببعض ، ويتولد بعضها من بعض ، ويأخذ بعضها بتلابيب بعض . وأسفرت هذه المعارك عن شتى المدارس الفكرية ، والمذاهب العقلية ، والنظم الاجتماعية ، والثقافية والسياسية . . . وعندما استتب الأمر للفكر ووصل إلى مستوى معين من الاستقرار النسبي ، أخذت الأمور فيما بعد تسير « على نار خفيفة » إذا صح التعبير ، وبقليل من المؤونة ، وبحكم قوة الاندفاع الذاتي . وما زال الأمر كذلك حتى أخذت الجذوة تخبو وتنطفىء . لقد جف الزيت ونضب المعين ، ولكل ذلك سننه وقوانينه ومواسمه ، على أن نأخذ كلمة (قانون) هنا بالمعنى الواسع المرن ، لا بالمعنى الرياضي الدقيق الصارم الذي نجده في الفيزياء والكيمياء . هذا ما حدث في بلاد اليونان القديمة ، وهذا ما حدث في فرنسا الثورة ، وهذا ما يحدث اليوم في مراكز الإشعاع في الشرق وفي الغرب . وهذا هو نفسه ما

حدث في شبه الجزيرة العربية بعد مخاضها العظيم في أوائل القرن السابع للميلاد ، وهو من المخاضات الفريدة الفذة في التاريخ . هنا تكمن البواكير الأولى للفكر العربي ، تلك البواكير التي يشكو المؤرخون التقليديون من غموضها أو عدم وجودها ، لعدم انطباقها على نماذج ومعايير مأخوذة من الفكر اليوناني أو الفكر الأوروبي[1] . ولعل طابعها المتميز الفريد الأصيل هو الذي صرف الأنظار عنها ، أنظار التقليديين الذين تعودوا نمطاً خاصاً من البواكير ، وسيطرت على أذهانهم أوهام وتصورات ومفاهيم وقوالب ضيقة محدودة عفّى عليها الزمن ، ورانت على أبصارهم فوق ذلك، غشاوة من التعصب والحقد والكبرياء . وستتولى نظرية السّيْكوسوسيوديناميكا قريباً جلاء هذه البواكير وإزالة ما يكتنفها من شبهة الغموض والإبهام . ماذا أقول ؟ إن هذه البواكير هي التي أوحت إليَّ بنظرية السّيْكوسوسيوديناميكا منذ خمسينات هذا القرن وأنا يومئذ بباريس ، لكنها كانت نظرية شاحبة هزيلة لا تكاد تثبت للنقاش . وما زلتُ منذ ذلك الوقت أنقح فيها وأصحح وأضيف وأحذف واقلب وجوه الفكر والنظر حتى استقام عودها أو كاد ، واكتملت عناصرها ، وتفتحت لي آفاق لم تكن تخطر لي على بال . وقد طرحت القسم النظري منها للنقاش. العلمي وهو أشتات من الآراء والملاحظات ألّفت بينها الضرورة تجمعت لديّ عبر السنين نتيجة الدراسة والتدريس ، إنها سوانح انثالت عليّ في أوقات الفراغ وأوقات العمل وعند الخروج من النوم والدخول فيه . بل إن الفصل الأخير من الكتاب (جمعانية الفرد وفردانية المجتمع) قد حضرني القسم الأكبر منه تقريباً في ليلة ليلاء وأنا في طريقي قافلاً من بيروت الى طرابلس وكان الطريق عسيراً يومها وقد توقفت السيارة مرات عدة بسبب ما طرأ عليها من خلل . في هذه الظروف الصعبة أحسست بالحاجة الى الكتابة ، فكتبت وكتبت ، ولم يكن عليَّ بعد ذلك إلا التنقيح والتنسيق وبعض الحذف والإضافة[2] . . . لقد اكتمل الفصل بغير عناء

---

(1) G. QUADRI: La philosophie arabe dans l'Europe Médiévale.p 116.

انظر أيضاً : Encyclopédie de L'Islam art. Kalam.

(2) ولم أكن عندئذٍ أحمل أوراقاً للكتابة ، بل كان في يدي كتاب (مشكلة الانسان) للدكتور زكريا.

يُذكر كأنني أنقل عن لوح أمامي . ولم يحدث لي ذلك مرة أخرى . وإن كانت تسنح لي من وقت إلى آخر ومضات وتعنُّ لي خلسات مقطَّعة أبادر بتدوينها من فورها بلاتلكؤ وإلا اختفت إلى الأبد وتعذر عليَّ تذكرها . ولذلك أصبحتُ لا يخلو جيبي أبداً من القلم والأوراق ، هذا إذا لم أكن أحمل حقيبة مليئة بالأوراق استعداداً « للطوارىء » .

وعلى كل حال إن الكتاب المذكور هو عبارة عن آراء وأنظار ولُمع لعل فيها الجديد ولعل فيها ما يفيد ، فإن لم يكن فيها هذا ولا ذاك فلعل فيها ما يدعو إلى إعادة التفكير فيما ورثنا من آراء تُعدُّ من قبيل المسلَّمات . ومع أن الكتاب قد صدر منذ أقل من خمس سنوات فقد وجدت خلال هذه الفترة القصيرة ما يدعوني الى إجراء كثير من التغييرات فيه ، فضلاً عن إعادة كتابة بعض الفقرات وإضافة بعض الملاحظات التفصيلية في المواضع التي لا تحتاج الى تغيير يُذكر .

وقد توخيت في ذلك كله الوصول الى الحقيقة أو على الأقل إلى ما يبدو لي أنه كذلك . وهذا القسم النظري سيعقبه القسم التطبيقي الذي أرجو ألا يتأخر كثيراً . ورغم الحصار المضروب على الكتاب ـ ككل كتاب فيه تحديات جديدة ـ فهو قادر على فك الطوق من حوله وانتزاع قارئه ، بل على صنع هذا القارىء وخلقه وتخليقه . فكم من رجل صنعه كتاب ، هذا إذا كان حقاً من أهل الكتاب . إنه كتاب يعرف كيف يشق طريقه وكيف يكافح وينافح في سبيل وجوده ، وكيف يثبِّت بالصيال والنضال أقدامه ، لا توهنه المعاناة ولا تفلُّ من عزيمته الصعوبات . ولن يثنيه شيء عن أداء رسالته . فهو ليس أول كتاب يتعثر في طريقه ، بل ليس أيضاً ولن يكون آخر كتاب . ومهما لقي من الكفر

= ابراهيم رحمه الله، فعمدت الى الكتابة أولاً على غلافه الداخلي الأيسر ثم على الصفحة البيضاء . ثم نقبت عن الصفحات البيضاء الأخرى لتدوين خواطري عليها قبل ان تفلت مني . وإذا ببائع متجول يمر امام سيارتنا المشلولة يعرض بضاعته . فاشتريت منه رزمة من الأوراق التي يستخدمها للف مبيعاته فيها واستأنفت الكتابة عليها . وكلما وقع نظري على كتاب الدكتور زكريا ابراهيم وعلى كلماتي المدونة على الصفحتين المذكورتين هاجت في نفسي ذكرى الحادث الفريد في حياتي

والكفـران فإنمـا العاقبـة له إذا كـان جديـراً باسم الكتـاب ، لا أي كتاب ، بـل الكتاب الكتاب . وأنا لم أفاجأ بمصير الكتاب بل لقد توقعته وفصّلت أسبابه في أم الكتـاب . ومن داخله الشك في ذلـك فما عليـه إلاَّ أن يعيـد قـراءة الكتاب، وسيرى بأم عينه كل ما توقعته للكتاب .



في رأيي ، إنـه لتفسير التـاريخ تفسيـراً علمياً صحيحـاً يستوعب الـظاهرة الإنسانية بكل ما فيهـا من نبض وتلقائيـة واستقلال وحـرية وأصـالة ، لا بـد من إدخال مقولة جديدة على العلوم الاجتماعيـة اعتقد أنهـا تراعي العـوامل الـذاتية والمـوضـوعيـة لهـذه الـظاهـرة دون أن تفـرِّط في أي منهـا ، ألا وهي مقــولـة (الانتفـاضة) . إن هـذه المقولـة هي الأصل والمعـاد ، إنها المبـدأ والغايـة ، والواسطة بينهما ! بها إنما يبدأ التـاريخ ، وبهـا إنما يمضي ويسيـر ، وبها إنمـا ينجز أعماله ويحقق أهدافه وغاياته ، .وبانحلالهـا إنما يقف ويتـلاشى . لا شيء قبلها إلاَّ العماء والفـوضى ، أما بعـدها فـإشعاع ونـور . إن هذه الانتفـاضة هي وليدة الفاعلية السَّيْكوسوسيودينامية للإنسان ، وهي أقوى تعبير عن قدرة الإنسان الفذة على تجاوز الذات وعلى الوثـوب والقفز ، وصنـع المعجزات . إنهـا هي التي تفسـر نقاط التحـول الكبـرى في التـاريـخ وقـوى التـطور والثـورة وجميـع التحـركات النـوعية التي ينتـج عنهـا شـروخ وتصـدعـات في عمليـة التـواصـل التاريخي، دون أن يعني ذلك أبداً التقليل من أهمية الضغوط الكمية التي تتفاعل فيها والظروف الموضوعية التي تحيط بها ، والعوامل الخارجية التي لا تخلو من الفعل والتأثير فيها . وإذا كانت هذه الضغوط والظروف والعوامل على اختـلافها وتفاوت أفاعيلها تسحق الشعوب في الأحوال العاديـة وتدوس رقـابها، فـإن هذه الشعوب وقد ركبت موجة الانتفـاضة قـادرة على لجم جميع الضغـوط والظروف والعوامل والتحكم فيهـا والسيطرة عليهـا . فالشعـوب نوعـان : شعوب تنجـرف بـالضغوط والـظروف والعوامـل الخـارجيـة وهي الكثـرة الغـالبـة من الشعـوب، وشعـوب تجـرف الضغـوط والـظروف والعـوامـل ، ولـولا الانتفـاضـة لاستـوت الشعـوب . فالـذي يفرق بين الشعـوب إذن إنما هي الانتفـاضة ، ولا شي غيـر

الانتفاضة ، فالانتفاضة عصا التاريخ وأداته الفعالة وسره المكنون ، كما هي الشحنة التي تفجر طاقات الأفراد والجماعات وتسمو بالإنسان إلى قمة تحقيق الذات . وبكلمة موجزة ! إنها التفسير الحقيقي للإنسان والتاريخ والحضارة . وسيتضح لنا تفصيل ذلك كله عندما نتصدى للحديث عن انتفاضة شبه جزيرة العرب على يد نبي العرب وقائدهم الذي فك إسارهم وأطلق عقالهم وقذف بهم في الآفاق ، وطاول بهم الزمن ، وغزا بهم العقول والقلوب والمشاعر .

إن تفسير التاريخ بقانون الأسباب والمسببات وحده ، والاكتفاء بطريقة التحليل « الكيماوي » للأفكار دون إدخال مقولة (الانتفاضة) ، فيه جناية كبيرة على التاريخ والفكر والحضارة ، وتشويه لحقيقة الانسان وبتر لذاته وتقطيع لأوصاله . فأنا أؤمن بالإنسان ، ولا أؤمن بغير الانسان ، وكل ما عداه فكذب وبهتان .



ولقد كان من النتائج الضارة لتعليل التاريخ تعليلاً سببياً بحتاً ، وتحليل الأفكار بما يشبه التحليل الكيماوي ، جحود الفكر اليوناني وإنكار العبقرية اليونانية . فلعلنا نذكر جميعاً كيف أن النقد الحديث المتشدد الذي يشقق الشعر hypercritique قد عمد منذ وقت ليس بالقصير إلى رفض ما يسمى (بالمعجزة اليونانية) لا لشيء إلا لأنه ـ بالتشدد والتنطع والتقعر في البحث والتنقيب واقتناص الأشباه والنظائر ـ قد أمكن الوصول إلى بعض أوجه التلاقي بين الفكر اليوناني والفلسفة اليونانية وبين بعض أنماط التفكير القديمة الأخرى ، من مصرية وهندية وبابلية . . . الخ . إن أصحاب هذه الطريقة ينكرون ـ أو يكادون ـ ما للفكر المبدع ، ما للفيلسوف العظيم ، ما للقائد البطل ، ما للفنان المطبوع ، ما للشاعر الملهم ـ ما لهؤلاء العمالقة من طرافة وجدة وأصالة ، وقدرة على الخلق والإبداع ، وبالتالي على اجتراح المعجزات ، وبذلك يجردون الفكر اليوناني في عصوره الذهبية من كل مزية خاصة ، ولا يحسبون حساباً للانتفاضات التي تحصل للشعوب وتتفجر في بعض المراحل المشرقة

من تاريخها . فلو كان الأمر كذلك ، أي لو كان الفكـر مجرد رديف لـلأشياء ، مجرد مرآة عاكسة لها منفعلة عنها محكومة بها ، لو كان يعمل لا بدافع من ذاتـه وبتلقائيته الواعية الحـرة المستقلة ، بل بـالعوامـل الخارجيـة الصرف ، لـو كان العقل مجرد استجابة سلبية للأشياء ولو لو تكن له فاعليته الخاصة والقـدرة على الاختيار والحسم وترجيـح أحد الإمكـانات على مـا لا حصر لـه من الإمكانـات الأخـرى التي يقدمهـا الواقـع الأصم ، ترجيحـاً قد يؤذي صـاحب هـذا العقـل ويُعرِّض للخطر مصالحه الآنيـة العاجلة التي يضحّي بهـا للوصول الى أغـراض وغايات آجلة بعيدة غير مأمونـة العواقب ، بـل قد يكـون من شأنهـا الإطاحـة به وتهديد وجوده كله ، لو لم يكن التاريخ قصة تفـوُّق الإنسـان على ذاته وعلى واقعه وعلى العوامل والقوى الخارجية جميعاً ، لو لم يقع في التاريخ انتفاضات وثـورات تقلب موازين القـوى وتعصف بالأوضـاع القائمـة وتخـلّ بـالمعـادلات الثابتة ، لـو كان التـاريخ مجـرد استمرار للحيـاة والموت ، والحب والبغض ، النكاح والطلاق ، والأمن والخوف ، لو كان التاريخ مجرد حركات وأنفاس كما هو الحال عند الحيوان ـ لو كان الأمر كذلك لما كان هناك من فـرق بين الانسان والحيوان، وبالتالي لما كان تاريخ، لأن التاريخ إنما هو تاريـخ الإنسان[1] ـ بـل لكان هناك فقط مجرد تعاقب وسيـرورة لأشتات من الأحـداث وخفق الأنفاس لا معنى لها ولا طائل تحتها . وبعبارة أخرى ، لو كان كل ما يحدث مجرد إضـافة كمية الى ما كان موجوداً من قبل ، إذن لكان القرن العشرون قبل الميلاد والقرن العشرون بعد الميلاد قريباً من قريب !

إن (المعجزة اليونانية) صحيحة لا غبار عليهـا في نظرنـا ونظر الكثيـرين

---

(1) المعلوم أنـه ليس في حياة الحيـوان من جديـد منـذ نشـأتـه على هـذه الأرض ، بـاستثنـاء بعض الـطفرات تحـدث في خلايـاه الوراثيـة . ولذلـك فإن الحيـوانات لا تعيش في التـاريـخ . لكن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعيش في التـاريخ دون سـائر الخـلائق . إن حياة الحيـوان هي مجـرد استجـابـات وردود أفعـال، وأمـا حيـاة الإنسـان فهي كفـاح في سبيـل حيـاة أفضـل ونضال من أجل التغيير . إنه ينشد حريته واستقلالـه في طبيعة عميـاء عاتيـة فرض ذاتـه عليها . وإذا كان لا يزال يقف عاجزاً أمـامها رغم مـا حقق من انتصارات ، فحسبـه أنه هـو ذلك التـوازن العجيب بين قوى الطبيعة الغاشمة وحرية الذات المستقلة الواعية .

غيرنا ، **مهما قال «كيماويو» الأفكار ومهما قال المنقبون والمنقّرون في تاريخ** الأفكار . فكيما تتحقق انتفاضة رائعة ، كيما تقوم حضارة زاهرة ، كيما يبرز عبقري فذ تواكبه ثُلَّة من العباقرة الأفذاذ وجيل من العمالقة والعظماء يتابعون مسيرته من بعده ـ كيما يحدث ذلك، لا بد من معجزة تجدد التاريخ من حين إلى حين وتبعث الحياة في أوصاله ، لا فضل في ذلك لقوم على قوم ولا لعرق على عرق ، بل الأقوام والأعراق كلها متساوية في قبولها للتفجر والانتفاض . وهي معجزة لا تكتنفها هالة من اللامعقول ، ولا تزركشها أطياف من عالم الغيب والملأ الأعلى ، ولا تتدخل فيها الأرواح والخوارق والملائك مسوَّمين كانوا أو غير مسوَّمين . إنها ظاهرة طبيعية تنتمي إلى هذا العالم الذي نعيش فيه وإن كانت تتجاوزه وتعلو عليه ، وهي تخضع لقوانينه ، كأي ظاهرة طبيعية أخرى وإن كانت تستطيع السيطرة عليه بالتسلح بهذه القوانين ، سيراً على القاعدة المعروفة. إذا أردت أن تقهر الطبيعة إخضع لها أولاً . أجل، إن المعجزة ظاهرة طبيعية عادية تحدث كل يوم في بؤر حضارية متعددة لا شأن لها بالجنس والعرق ، وتنتقل من مكان إلى آخر ، وتتقلب في الأمصار والأقطار في عصور التاريخ المختلفة ، وهي تتبع في هذا التنقل خطوطاً متعرجة لا ضابط لها ، ولا يتألف منها أي شكل هندسي ، ولعل القانون الوحيد الذي يسيطر على هذا التنقل هو أن البؤرة الحضارية لا تتكرر في مكان واحد ، وبالتالي فالانتفاضات لا تتكرر للشعب الواحد والقبيل الواحد ، وكذا الإعجاز وكذا الإبداع .

إن النظر الى الحضارة اليونانية والمعجزة اليونانية ، نظرة «كيماوية» خارجية إذا صح التعبير ، لن يجدينا شيئاً . إنه لن يقدم لنا سوى مجموعاً حسابياً مبرقشاً من الصور الباهتة والأوضاع المقلوبة، فضلاً عن أن ذلك شأنه أن يبخس اليونان حقوقاً كثيرة ويجردهم من أخص خصائصهم التي اكتسبوها في مراحل التاريخ المختلفة . وأما إذا نظرنا اليهم بحسب مقولة الانتفاضة وفي ضوء الانفجار السَّيْكوسوسيودينامي الذي يندلع في عصور التحولات الكبرى ، فسنقع على أشياء في غاية الأهمية عند هذا الشعب العظيم. غير أن ذلك لا يدخل في برنامج عملنا، لا سيما وقد تبارى الكثيرون

في الإشادة بالفكر اليوناني والمعجزة اليونانية ، وجنَّدوا جميع طاقاتهم لإظهار مآثر الحضارة اليونانية ، وفضلها على الفكر العالمي ، وكان كل غواصٍ يخرج بدُرٍّ جديد، حتى لم يتركوا زيادة لمستزيد أو كادوا، فلن أكون ملكياً أكثر من الملك . كيف لا وتاريخ أثينا يعني تاريخ أوروبا وإضافة أمجاد جديدة إلى أمجاد أوروبا . وفي ذلك ما فيه من تسويغ للهيمنة الأوروبية وتبرير لحقها التاريخي في السيادة على العالم والتحكم في مصيره . إن التحليل السَّيْكوسوسيوديناميكي يزيدها عتوًّا في الأرض ويزيدها استكباراً ، بينما هذا التحليل من شأنه أن يرد الاعتبار الى الفكر العربي الذي قلَّ منصفوه وكثُر جاحدوه وقد آن له أن ينتصف لنفسه على أيدي أبنائه. فلعل في هذه الإضافة ما يفتح الأبواب مشرعةً لإضافات أخرى تلقي مزيداً من الأضواء على تاريخ العرب والعروبة والإسلام .

ما قيمة الأفكار المستعارة إذا لم تقترن بالقدرة على استعمال هذه الأفكار ؟ إنها مهما بلغت من الأهمية فهي لا تستطيع أبداً أن تفسر لنا الظاهرة التاريخية الفذة التي يطلق عليها اسم الظاهرة اليونانية . لذلك كان لزاماً علينا ونحن نتصدى للحديث عن الخصوبة والثراء في العقلية اليونانية ، ألا نهتم فقط بما تعرضت له من مؤثرات خارجية لا سبيل إلى نكرانها، بل علينا أيضاً أن نبدي المزيد من الاهتمام بالقوى الداخلية العارمة التي استقبلت هذه المؤثرات والتقحت بها،و إلا كان مثلها (أي المؤثرات) كمثل البذور تُلقى في أرض سبخة لا ينبت فيها حرث ولا زرع .

إن هذه المؤثرات تذرع الأرض ذهاباً وإياباً كل يوم تطلع فيه الشمس ، فَلِمَ اختصت بالفعل والانتاج في بلد بعينه وفي وقت بعينه دون سائر البلدان الأخرى ، رغم ما يعاني هذا البلد المختار من فقر وحرمان ؟ الجواب إنما يكمن في القوى الداخلية العارمة التي كانت تزخر بها الجزر اليونانية في عصورها الذهبية . ولا أظن أن هناك تقنية تستطيع سبر هذه القوى ودراستها كالتقنية السَّيْكوسوسيوديناميةالتي عشتها قبل إعلانها رَدْحاً لا يستهان به من الزمن ، حتى امتخضت زبدتُها وتألفت نتائجها في نظرية أزعم أنها قادرة على

أن تضيف الى القديم بعض الجديد . وهذا حسبي . فإذا أردت أن تصنع شيئاً يُحدث لك ذكراً ، ويكون لك من بعدك ذُخراً، فاترك أثراً ولا تُبال أجراً، فإنما الواجب أن تعمل وأن تزرع بذراً ، زرعوا فأكلت ، فازرع يأكلوا دهراً ، ولا تخش إنكاراً ولا تخش نكراناً ، كلا ولا تخش نُكراً . عند الصباح يبتهج القوم ويحمد القوم السُّرى، فالثريا لك ولو كنت تحت الثرى ، فتفكَّر وانظر ماذا ترى !

وعلى كل حال لن نقف عند المعجزة اليونانية كما أسلفنا، وإنما سنقف وقفة طويلة عند معجزة أخرى هي المعجزة العربية الإسلامية . نعمْ المعجزة العربية الإسلامية ، رغم ما تحدثه هذه الكلمة من صدمة لأصحاب المشاعر «الرقيقة» الذين لا يتصورون وقوع المعجزات في أي بلد لا يمتُّ بصلة النسب والقربى إلى الجنس الأبيض المختار . فذرهم وما يظنون ، ذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يطأطئوا الرؤوس لهذه المعجزة ويحنوا لها الهامات ، وسيجثون على ركبهم صاغرين ! فما المعجزة اليونانية سوى معجزة واحدة من معجزات كثيرة سبقتها وأعقبتها . فالتاريخ حافل بالمعجزات وإلاَّ لم يكن تاريخ ، فلا تاريخ بلا معجزات ، فإنما التاريخ تاريخ المعجزات ، وما عدا ذلك قصص وحكايات ، وكتل من الأنفاس والحركات ، وأجسام على الأرض تدب كالبهائم والحيوانات .

إن وجود المعجزة لا يمنع أبداً أن تكون البيئة التي حدثت فيها هذه المعجزة مترعة بالمؤثرات الأجنبية ، بل إن هذه المؤثرات ضرورية لاكتمال دورة حياة المعجزة ، ولكنها تظل مادة خام لا تضر ولا تنفع حتى يلتقطها من هو جادٌّ في أثرها صادق في حبها ، إنه الوحيد القادر على تفجيرها . وبالفعل إن العناصر الأجنبية إنما تنتظر العقل الذي يحسُّ بها ويلفحه لهيبها ، بينما الآخرون عنها عمون ، إنها تنتظر العقل الذي تحدث فيه الصدمة المطلوبة وتُولد الشرارة . فالصدمة لا تحدث كيفما اتفق ، والشرارة لا تندلع عند أي إنسان ، فليست جميع العقول تنفتح للأفكار ذلك الانفتاح الخلاق الذي يؤدي إلى حدوث الصدمة أو اندلاع الشرارة ، إنها رهن بالزمان والمكان والتاريخ

والعقل المبدع. ويبدو أن عصور الانتفاضات والثورات والمعجزات الكبرى في التاريخ هي أكثر من غيرها مؤاتاة لاقتناص العقول وشحن الأذهان وتفجير الطاقات ، إنها أقدر من غيرها على كشف المواهب والعبقريات واستفراغ ما فيها من طاقات وإمكانات، واستجاشة ما تنطوي عليه من قوى كامنة مضغوطة تنتظر الشرارة الأولى لتنفجر وتثور كالبركان . إن هذه المواهب والعبقريات تكون راكدة في ظروف الحياة العادية يعلوها الغبار والصدأ ، لكن ما إن تسمع المنادي حتى تهب من رقادها، ما إن يجلجل البطل بصوته وتتردد أصداؤه في الآفاق ، ما إن يؤذن للناس بالثورة والإصلاح ، حتى يأتوه رجالاً وركباناً ويهرعوا اليه من كل فج عميق . لقد بُعثوا قوماً آخرين بعد أن كانوا غثاء كغثاء السيل تتخطفهم الأمم وتستخفهم الأمم . لقد استدبروا الآن عصراً واستقبلوا عصراً ، لقد دان لهم التاريخ وأسلس لهم قياد التاريخ .

إن جميع علوم الدنيا لا تكفي لإحداث الانتفاضة ولا تغني شيئاً عن الانتفاضة ، بل لقد تحدث الانتفاضة بلا أي حظ من العلم «الرسمي». فإذا حدثت عرفت كيف تجذب العلوم اليها لتستدرك ما فاتها بسرعة خارقة . أجل إن العوامل الخارجية لا تجدي وحدها شيئاً، وآية ذلك ان العلم الأوروبي منتشر اليوم في كل مكان لا تكاد تخلو منه لغة من لغات العالم، ولا تكاد توجد عاصمة من العواصم في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية تخلو من جامعة من الجامعات ، ومع ذلك فإن هذه الجامعات لا تزال تعيش على هامش الحياة اليومية لهذه البلاد . لقد مسخت العلم بدلاً من أن يرقى بها العلم . إنها في برزخ والعلم في برزخ ، والبرزخ غير البرزخ . نعم إنها في برزخ تجد نفسها عاجزة عن الخروج منه الى الفضاء الواسع العظيم . فعلى الرغم من وجود الجامعات في العالم الثالث فإننا لا نستطيع أن نقول إن هناك مناخاً علمياً بالمعنى الحقيقي للكلمة . هناك معامل ومختبرات وتكنولوجيا مستوردة ، ولكن العلم لا يُستورد ، وإذا استورد بالوسائل الصناعية إلى بلد فإنه يُقحم فيه إقحاماً لا يُنتج ثمراً . إن كثرة خريجي الجامعات في هذه البلدان لا تعني بالضرورة وجود علم يساوي عدد المتخرجين . ولا أدل على ذلك من ان الجامعات في

اكثر دول العالم الثالث لا تنجب أرباب عقول ، وإنما هي تطرح في الأسواق أعداداً متزايدة من حملة الشهادات والموظفين في دواوين الحكومة . إنها مطابع للشهادات ، لا أكاديميات للبحث وتخريج العقول . فالطلاب فيها لا هاجس لهم سوى الخروج من سجن الجامعة والحصول على وظيفة والزواج على سُنة الله ورسوله . إنهم يعيشون بالغرائز لا بالمشاعر ، بالنقل لا بالعقل ، بالرواية لا بالدراية . فالفقر والمرض والطغيان وبلادة البيروقراطية في هذه البلاد ـ كل أولئك يهدر كرامة الانسان ويقتل مواهبه ويجعله سلعة رخيصة دون سائر السلع المستوردة . ولا يغرنّك أن يُقبل البعض من خريجي هذه الجامعات على الكتابة والتأليف ، فأغرقوا الأسواق بمؤلفاتهم التافهة الرخيصة التي تتملق ولا تخلق ، وتدافع ولا تعارض ، وتبارك ولا تشارك وتصانع ولا تمانع ، وتبرر ولا تعلل . . . وربما كان أحد أوبئة الحضارة الحديثة أن جعلت النشر سهلاً ميسَّراً ، بعد أن كان في الماضي باباً ضيقاً لا يلجه إلاّ الجديرون الأكفاء الذين ينصبون ويتعبون ويرهقون الناس معهم، عملاً بالقول المأثور ! « إجهدوا للدخول من الباب الضيق » . . .

قد أكون مغرقاً في التشاؤم وقد أكون مخطئاً في رسم بعض الخطوط والظلال والألوان في هذه الصورة، ولكنها على كل حال صورة قاتمة قد نختلف على درجة القتامة فيها، غير أنها تظل صورة معبرة عن واقع مظلم يعيشه العلم في مجمل هذه البلاد . لا يكفي أن يظهر في بلد ما عملاق كغاندي أو نهرو مثلاً لنقول إن الهند بألف خير وأنها انتقلت من العصور القديمة إلى العصر الحديث . إن المسألة أعقد وأعمق من ذلك بكثير . فقد أنجبت الهند حتى الآن رجلاً أو رجلين ولكنها لم تنجب مدرسة من الرجال . لقد وقفت حيث تركها غاندي ونهرو أو تكاد ، ونامت على أمجادهما ثم انصرفت الى المشاحنات الداخلية ظناً منها أن نجماً أو نجمين يكفيانها مؤونة الطريق الطويل والمسيرة الشاقة ، بينما جارتها الصين تسطع فيها الآن نجوم ونجوم . إنها تقذف بالرجال تلو الرجال ولا تزال تصنع المزيد من الرجال . لقد تخرجتا في مدرسة استعمارية واحدة وعانتا من حرمان واحد ، فما أن جلا الاستعمار عنهما

حتى سلكت هـذه فجاً وسلكت الأخرى فجاً غيره فليت شعري ! علام يدل جميع ذلك ؟ ليست العبرة بعدد السكان ولا بمساحة الأرض واتساع الأكناف ، كلا ولا بالثروة القومية والموارد الطبيعية والمؤثرات الأجنبية و . . . التي تُعرف بالكم والحسبان ، لكنما العبرة بشيء لا يقاس ولا يُكال ولا يُـزان ، ولا يدرَك بالأعداد والأرقام والأثمان . العبرة إرادة الحياة وقوة الجنان ، وما عدا ذلك فثرثرة ولغو وهذيان .

هنا يكمن الفرق الكبير بين العلم المستورَد والعلم الأصيل ، العلم الفاشل والعلم الفاعل ، أحدهما لا يأتي بخير مجدب عقيم ، والآخر منتج نفعُه عميم . تُرى ، كيف كان علم العرب عند ظهور الاسلام ؟ فأما النبي فما كان يدري ما الكتاب ولا يخطه بيمينه . هكذا يصفه القرآن الكريم . وكذلك كانت العرب أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب كما يصفها النبي في أحد أقواله « نحن أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب . . . ». وانتفض القوم بعد ذلك وتعلَّم القوم ، وتساوى في العلم القوم ، حتى غدا العلم هاجس القوم . قولوا لي بربكم ماذا دهى القوم ؟ إرادة الحياة اخترقت القوم بعد أن تبدلت عقلية القوم . لقد اشتد ساعد القوم واستقوى جنان القوم فإذا القوم غير القوم ، أرأيتَ الى الفرق بين القوم والقوم ؟

لقد كانوا بلا عطاء ، فأصبحوا مصدراً للعطاء . لقد كانوا بلا تاريخ ، فأصبحوا صناعاً للتاريخ . لقد صهرتهم الأحداث وبدَّلتهم الأحداث ، فإذا هم حدث الأحداث !! لقد وقعت المعجزة . إنهم والتاريخ على موعد . ان قفزة عبر الأجيال تنتظرهم لتستخلفهم في الأرض وتجعلهم الوارثين !!!

ان العصور التي تقع فيها المعجزات وتحدث الانتفاضات والثورات هي عصور التحولات الكبرى . ولكل تحول ظروفه وضروراته . إنه ينجم ـ فيما ينجم عنه ـ عن مجمل العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والتاريخية السائدة ، وهي علاقات معقدة متشابكة لا يمكن تعقبها في تشعباتها الدقيقة ومساراتها المتعرجة التي تذهب كل مذهب وتضرب في كل اتجاه . هنا يأتي دور القائد البطل الذي يستوعب هذه العلاقات جميعاً بنظرة كلية شاملة ويستخلص منها ما لا يستطيع غيره استخلاصه فهو بهذه النظرة يستطيع الضغط

على الأحداث وتوجيه الأحداث والتأثير في الأحـداث وربط الأحداث والتنسيق بين الأحـداث ، وتخفيف عشوائيـة الأحداث ، ومن ثم يختـار الزمـان والمكان ويحدد ساعة الصفر لتفجير حدث الأحداث . هذه هي في نظري وظيفة البـطل التي لا يقدر عليها إنسان غيره . ومن حوله إخوة أبرار يمحضونه النصح ويبذلون لـه الرأي والمشـورة . وهو لا ينفـرد بالقـرار دونهم . بئس القائـد يستبد بـالأمر وحده ، فإنمـا القائـد الحق هو ذلـك الذي ينشيء مـدرسة من القـادة من حولـه تعاونه في الحكم والمسؤولية ، فلا يترك رحيله فراغاً . لقد أعطى الشحنة ورفع المحنة ، ولا عليه بعد ذلك أن يـرحل ، فـالشحنة تكفي جيـلاً ، بل إذا أُحسن التحكم فيها تخدم أجيالاً . لقد مات محمد ولكن لم تتوقف أبداً حركة محمـد .

إنّ التحولات الكبرى نادرة جداً في التاريخ . فلئن كانت هناك قوى كثيرة في المجتمع تدفع الى الثورة، فهناك قوى أكثر تعارضها وتمنع تحقيقها ولا سيما إذا لم تنضج ظروفها وكانت سابقة لأوانها . والحرب سجال بين الفريقين . إنها معركة تنـازع البقاء ، والبقـاء دائماً لـلأقـوى ولـلأقدر على البقـاء . وليس من الممكن أبـداً التنبؤ بالتحـولات الكبرى وتـوقيتها بـدقة ـ فـذلـك طمـع في غيـر مطمع ـ لأنها تنطوي على عدد محدد جداً من الثوابت . بينما المتغيرات فيها لا تقـع تحت حصر ، وإن كـان من الممكن الشعور شعـوراً غـامضـاً وبنـوع من الحدس الدافىء الذي لا يُغني شيئاً بل لا يَعني شيئاً ـ بـأن شيئاً مـا سيحدث . لكن مـا هـو هـذا الشيء الـذي سيحــدث ؟ وعلى يـد مَنْ سيحــدث ؟ وكيف سيحدث ؟ ومتى سيحدث ؟ فإن الجواب عن هذه الأسئلة وما إليها هو من قبيل الرجم بالغيب ، لأنه منوط بظروف وأحوال وأوضاع ومواقف لا تنتهي . وكـل ما يمكن أن يقـال في هذا الصـدد ، هو أن هنـاك مفاجـأة ، هناك قفـزة ترتسم في الأفق، هناك حدث عظيم ينتظر الرجل العظيم، ومع ذلك فقد لا يحـدث شيء من هذا القبيل لأن قوى التقدم ليست وحـدها في السـاحة ، فهنـاك أيضاً قـوى الرجعية أو قوى الثورة المضادة التي قد لا يخفى عليهـا تفاعـلات الأحداث في زمانها وقرب انهيار سلطانها وذهاب ريحها . لقد حنكتها التجارب فعرفت حركة اتجاه الرياح. فحدُّها مرهف وجانبها مرهوب: تتـوجَّس للنبآت والهيعـات. لقد طـالما كـانت مُدلَّـة ببأسهـا واثقة بنفسهـا معتزة بقـوتهـا . لكن من مـأمنـه يؤتى

الحذر . فلن يجديها بعد اليوم حذرها . لقد جاء هازم اللذات يقضُّ مضجعها بل يدك عرشها، حتى مادت الأرض تحت أقدامها. إنها لا تعتبر بدروس التاريخ بل بهمها العاجل من أمرها فلن يصدق بعد اليوم دفاعها وذيادها عن حياضٍ صارت في مُلك غيرها. لقد حسبت الرياح تجري رخاء وفقاً لها، فإذا الرياح أنواء وأعاصير تدمر كل ما تطاول من بنيانها ، لقد سقطت وسقط معها قبيلها ، وهلك الحرث والنسل وبارت أرضها . فإنما الزمان يوم لها ويوم عليها ! !

وقد لا يحدث شيء من هذا على الإطلاق ، بل قد تستمر الرجعية في السلطة رغم أنف الحركة التقدمية والتقدميين. فقد تجهض المفاجأة ويجهض الحدث لخطأٍ في التوقيت أو التقدير أو التخطيط أو الحساب ، أو لأن قوى المعارضة تقف بالمرصاد لكل تحرك غريب ، أو لأن رجل الموقف لم يحضر بعد. بل قد لا يكون في الأفق أي حدث، وإنما هي آمال وأمان وعواطف استبدت بالناس دون أن تتوفر ظروفها الموضوعية فتشابه الأمر عليهم. وعلى كل حال ، إذا سارت الأمور على ما يرام ووقع الحدث العظيم وجاء معه الرجل العظيم ، جاء أيضاً موكب من الرجال ، وجاء الرجال تلو الرجال . وستتوالى الرجال بعد الرجال . فإذا رأيتَ ثَمَّ فلن ترى غير الرجال. فإنما معادن الأمم الرجال . وهكذا حتى تخبو الجذوة وينقطع الرجال . فتدول الدولة ويُوسَّد الأمر الى أشباه الرجال . فللرجال مواسم ودورات وينقرض الرجال . هذه فحوى سَيْكوسوسيوديناميكا الرجال .

وهكذا تتوالى الدول والأمم ، وهكذا تنطفىء شعلة وتوقد شعلة ، وتنشط عقول وتجفُّ عقول ، وتعلو أقطار وتهوي أقطار ، حتى يتقضّى الزمن وتتصرَّم الأيام ، وفي ذلك عبرة لأولي الأفهام .

وهكذا فقد تصْدق الانتفاضة وتصح عزيمتها وقد لا تصدق، فما أقل الانتفاضات وما أكثر الحركات التي تلتبس بها. إذ أن الأمر لا يعدو في كثير من الأحيان أن يكون زَبَداً راغياً. لقد تمخض الجبل فولد فأراً. فكما يتشابه الأمر على الطبيب النطاسي فلا يفرق أحياناً بين الحمل الصحيح وانتفاخ البطن بالمرض والغازات ، وكذلك كثيراً ما تحدث انقلابات وفتن وحركات تمرد

يحسبها المتشوف الملتاع ثورة حقيقية عارمة ، حتى إذا جاءها وجد الأطماع وتجار السياسة وسماسرة الحكم وجماعات المنتفعين والمرتزقة . . . كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمآن ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . فللثورات أمارات قد تلتبس حتى على الخبير المختص ناهيك بالغر الصغير . وقد يبرز عدة رجال فتكتمل الخديعة ويصعب التشخيص . فما تغني الأقزام وأشباه الرجال حيث تمسّ الحاجة الى الرجال ؟ « الأمور مرهونة بأوقاتها » كما يقول أشياخنا . فإذا أضفنا الى هذه الثورات الكاذبة ما ذكرناه من امكانية خنق الثورات الحقيقية ، وبتعبير أدق عرقلتها وتأخير ظهورها ، أدركنا صعوبة الثورات وندرتها ، واستحالة ـ أو شبه استحالة ـ التنبؤ بها ، وعرفنا مدى التضحيات التي تبذل في طريقها والأرواح التي تزهق في سبيلها . فما أسرع ما تُسرق الثورات وتُغتال !

إن البلد الذي يحقق انتفاضته هو البلد الذي يحقق أحلامه . هنا وادي عبقر ، وهنا فقط تتمخض الأحداث عن مولود جديد . هنا مرجل التاريخ ، وهنا يحلو لقاء التاريخ ويطيب المقام مع التاريخ . إخلع نعليك فإنك بحضرة التاريخ ، إنتهز الفرصة فلن يعود بعد اليوم الى هنا التاريخ ، إنها المرة الأولى والأخيرة التي يزور فيها هذه المنطقة وتتفجر فيها أحداث التاريخ . وأخيراً في جزيرة العرب حل موكب التاريخ .

أجل في شبه الجزيرة صحت عزيمة القدر وانتصب المارد الجبار !

هذا المارد هو الابن الشرعي لتلك الانتفاضة التي حققت المعجزة . لقد كانت انتفاضة رائعة حقاً ، انتفاضة لا كالانتفاضات ، أعقبتها سلسلة من الهزات والتصدعات في بنية الجزيرة العربية وهيكلها القبلي المتفسخ . لقد تغيرت المعادلة واختل الميزان ، وظل ذلك يتلاحق ، وظلت الأحداث تتفاعل على صعيد سياسة الحرب والسلم ، وعلى امتداد تجربة صراع القوى والمُثل والأفكار ، حتى عم المنطقة كلها واقتحم الحدود والسدود .

وفي أثناء عملية الانتشار هذه وجد العرب مجالاً فسيحاً للتوسع والتفاعل والاختلاط في بيئات متسعة الأكناف ، وأجواء مختلفة الأوضاع والغذاء ،

وأقاليم كانت يوماً بؤراً للإشعاع الحضاري ومراكز للاستقطاب الفكري وجبهات للصدام التاريخي، وكانوا حقاً في مستوى الأحداث. فلقد أتى عليهم حين من الدهر كان التاريخ فيه طوع بنانهم ، وكانت لهم وحدهم زعامة الفكر ورياسة العلم واستبحار الحضارة والعمران، بحيث لا يمضي يوم دون أن تكشف لنا فيه أعمال البحث والتنقيب في المخطوطات والذخائر إنجازاً هاماً للعرب ومأثرة من مآثرهم في العلم والفلسفة ومناهج الفكر والرأي ما سمعنا بها من قبل لا نحن ولا أباؤنا الأقربون . ولا ينكر ذلك إلا مكابر جاحد للمعقول والمحسوس . فللعرب مواقف فكرية وحضارية رائعة لن يسع المتعصبين العنصريين التشكيك فيها إلا بالمكر والمراوغة كعهدنا بهم دائماً .

*

وإذن، فانتفاضة الإسلام، والتغيرات الجذرية العميقة التي طرأت على شبه الجزيرة العربية والأحداث التاريخية التي أعقبتها ، هي التي تفسر التطلعات الجديدة للعرب ، وهي وحدها التي خلقت لهم حاجات عقلية جديدة ودفعت بهم في آفاق رحبة جديدة . ثم جاء التوسع الخارجي والمد الحضاري لينضما الى التجربة التاريخية والمعاناة الذاتية، فاشتد الزخم وقوي الاندفاع الى سوق الأفكار والعقليات وذخائر العلم والفلسفة ينهبونها نهباً ، والى ينابيع المعرفة والعرفان يرتشفونها ارتشافاً.

وهكذا ، فبانعدام الانتفاضة الداخلية لا يُغني المدد الخارجي شيئاً . إنه لا يُنتج إلاَّ الشوك والعلقم . هذه هي سنة التاريخ ، وذلك هو حكمه ، ولن تجد لسنة التاريخ تبديلاً . وانطلقت المسيرة بالعرب كما لم تنطلق من قبل . لقد اختارهم التاريخ يوماً لصحبته وقيادة مسيرته ولن تطول الصحبة والمسيرة . فهو قلق لا يستقر في بلد مختار يبقى فيه الدهر كله ، وإنما هو حُوّل قُلَّب جوَّال، لا يكاد يستقر به مقام حتى يهبَّ الى الترحال. فلا يكاد يحل ببلد حتى يغادره إلى آخر على خطوات منه أو بعيد عنه في أقصى الأرض تبعاً لانتفاضات الشعوب وتفجر الأحداث الجسام فيها بعد طول يأس وإيئاس. فإنما الأيام دُوَلٌ بين الناس ، كل الناس ، دون نظر الى الأعراق والأصول والأجناس ،

والانخداع بزخرف القول والوعد والإيناس !!

وزبدة القول ، إن عرب ما قبل الاسلام هم غير العرب الذين على أكتافهم إنما قام الاسلام لا بمعنى وعظي إعلامي يُقصد به التمدح والاطراء على طريقة الدعاة ، بل بمعنى أنه إذا لم يكن العرب الجاهليون قادرين على إنتاج المادة العقلية والثقافة العلمية فلا ينسحب ذلك على عرب ما بعد الاسلام ، أي أن الماضي لا يكفي دائماً لتفسير الحاضر المفتوح باستمرار لمتغيرات لا حصر لها . وكلما كانت هذه المتغيرات أكثر تنوعاً وأشد عمقاً كان تفسير الحاضر بالماضي أكثر صعوبة . فإذا بلغت المتغيرات حدها الأقصى فحدثت الانتفاضة ، وبتعبير أدق إذا بلغت درجة الانفجار السِّيْكوسوسيوديناميكي ما بلغه ذلك فجَّره الاسلام في شبه الجزيرة العربية في القرن السابع للميلاد ، أصبح من غير الجائز إطلاقاً حشر الماضي الجاهلي واقحامه في كل صغيرة وكبيرة لاحقة لا تجد لها جذوراً قبل الاسلام . هذه إحدى مسلمات السِّيْكوسوسيوديناميكا كما سنرى في حينه . فالانتفاضة إذن هي السبب الأساسي في هذه القطيعة ـ أو ما يشبه القطيعة[1] بين « العَرَبَيْن » : عرب ما قبل الاسلام وعرب الإسلام . فهذه الانتفاضة قد نشأ عنها فجأة ـ ودونما اعتبار لأوضاع العرب قبل الاسلام وللمراحل التي كان عليهم أن يقطعوها في تقدير المؤرخين التقليديين الذين سيجدون في هذا الذي أزعم تجديفاً في حق

---

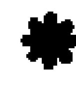
(1) وقد قلنا « ما يشبه القطيعة » لأن القطيعة لا تكون كاملة بحالٍ من الأحوال ، إذ لا ينفصل الماضي عن الحاضر ، لأن الماضي لا يمكن الاستغناء عنه نهائياً في تفسير الحاضر . فالماضي مستمر بالقدر الذي لا يتعارض مع الانتفاضة تعارضاً صارخاً يمنع مسيرتها. فوأد البنات وشرب الخمر مثلاً هما مما يمنع المسيرة . ولذلك فالانقطاع تام من هذه الجهة بين « العَرَبَيْن » فهناك إذن تفسير للحاضر بالماضي بقدر ما هناك من استمرار ، وهناك عجْز عن التفسير بقدر ما هناك من انقطاع. وهكذا فلا وجه لمقولة رينان المشهورة التي ينفي فيها الفلسفة العربية بحجة «أنه لم يظهر لهذه الفلسفة، في شبه جزيرة العرب مبادىء ولا مقدمات». فالفلسفة الفرنسية والفلسفة الإلمانية لم تظهر لهما أيضاً مبادىء ولا مقدمات في بلديهما في عصور البربرية ، بل حتى الفلسفة اليونانية ـ وهي قدس أقداس الفلسفة الغربية قاطبة ـ لم يظهر لها أي مبادىء ولا مقدمات فيما يسمى بالعصور الوسطى اليونانية ، فضلاً عن العصور القديمة . فبالانتفاضة تحدث القطيعة وتحدث المعجزة وتستدرك الشعوب ما فاتها وتوفّي عندئذٍ جميع « ديونها » بسرعة مذهلة .

التاريخ وهرطقة يرفضها التاريخ ، إذ لا همَّ إلاَّ تطبيق المادة التاريخية الهزيلة التي بحوزتهم على كل مادة تاريخية أخرى مهما اختلفت عن مادتهم المعيارية المعهودة ومهما بلغ من تعقيدها وتباينها الكمي والنوعي ـ أقول قد نشأ عن هذه الانتفاضة ظواهر معينة ذات خواص ثابتة يمكنها أن تنمو ذاتياً بغير لقاح أجنبي ، فكيف إذا انضم إليها هذا اللقاح ؟ وهي تحمل في تضاعيفها بذور تحولاتها الماضية وبذور انحلالها أيضاً ، بصرف النظر عن أي اعتبار مرحلي . إنه لا يمكن تفسير هذه الانتفاضة إلا بتحليل ما فيها من قوى دينامية وطاقات كامنة تؤذن بالانفجار تباعاً على نظام سَيْكوسوسيودينامِيكي مرسوم تحدده شحنتها الداخلية وعلاقاتها الخارجية . إن لهذه الانتفاضة دلالة خاصة في رؤوس الذين فجَّروها وحملوا رسالتها ، ولها رموز ومعانٍ لا يفهمها إلا ذووها ، وتنطوي على قوة جذب وفاعلية استطاعت أن تغزو بها كل من سمع نداءها أو عاين أمرها أو اقترب من وهجها وأتى منها بقبس . . . وكل أولئك عناصر لا مادية لا وجود لها إلا في نسيجها هي وفي تضاعيفها وأغوارها ، دون العالَم الفيزيائي البيولوجي الذي يريد المؤرخون السطحيون المتعلقون بمبدأ السببية وقانون المرحلية أن يرجعوا إليه وحده في تفسيرهم لظواهر الفكر العربي ومنجزات الحضارة الاسلامية . هذه الخصائص الذاتية للانتفاضة العربية الاسلامية هي التي أعفت العرب ـ إذا صحَّ التعبير ـ من تخطي المراحل المطلوبة لاستكمال تطورهم ، وهي التي جعلتهم يظهرون فجأة على مسرح الأحداث بجميع مميزات الأمم المتحضرة المكتملة النمو ، المتسقة الفكر والروح والوجدان .

*

وعلى كل حال ، لقد نما الفكر العربي الاسلامي وتطور على نحوه الخاص وطريقته الفريدة . ولم يكن في ذلك يسير في خط مستقيم . بل في خط متعرج طويل تحكمت فيه ظروف البيئة وتصاريف الأحوال وأوضاع العرب والمسلمين في كل يوم ، بل في كل ساعة . ذلك بأن كل عامل جديد يطرأ على عناصر الموقف لا بد أن تترتب عليه آثار ونتائج تظهر في تغيير اتجاه هذا

الخط وتعرجاته ، وهي آثار ونتائج تختلف باختلاف قوة هذا العامل وأهميته ودلالته ومعناه . . . كل أولئك أمور يصعب جداً أن يقع التشابه فيها بين أي شعب وآخر سبقه أو عاصره أو جاء بعده . فمن النادر جداً ـ إنْ لم يكن من المستحيل أن يتطور في نفس الخط المتعرج الطويل شعبان اثنان مهما تشابهت ظروفهما الخارجية ، فكيف إذا اختلفت هذه الظروف وتناءت في الزمان والمكان ؟ .كَمَثَل الماء تصبه على بقعة من الأرض فيشق طريقاً غير الطريق الذي كان سيشقه لو صببته في بقعة أخرى . فما على الخريطة الأرضية نهران متشابهان ولو سارا في خطين متوازيين . فلكل بقعة من الأرض ظروفها الطوبوغرافية والهندسية الخاصة التي تختلف بها عن أي بقعة أخرى من بقاع العالم ، ومن هنا كان اختلاف الأقاليم والمناخات ، وبالتالي اختلاف الأمم والشعوب فإذا صح ذلك في الشؤون المادية البسيطة نسبياً ذات المتغيرات القليلة والتعقيد المحدود ، فما ظنك بالشؤون الفكرية ، التي لا حدود لتعقدها ولا تتناهى متغيراتها ؟ وهكذا اختلف طريق العرب ومناهجهم عن طريق اساتيذهم اليونان ، وهكذا تختلف الشعوب بعضها عن بعض ويتميز بعضها من بعض .



لا يجوز أبداً أن ننسى أو نتناسى مقولة الانتفاضة التي فجرت الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي. إنها في رأس العوامل الذاتية التي صنعت العرب وتاريخ الفكر العربي . فإذا كان البعض ـ ليبلغ حاجة في صدره ـ لا يرى هذه الجزيرة إلاّ من خارج، ولا يقيم وزناً للعرب إلاّ بعد دخول الأعاجم في الإسلام واختلاطهم بأهله ، بحيث يجعل من العرب كمية مهملة خاضعة لمؤثرات سطحية صرف لا رأي لها فيها ولا قصد ، تُصرِّفها الأحداث كيف تشاء وتعبث بها كما تريد ، دونما اعتبار لما كانت تمر به من تجارب ويطرأ عليها من تطورات وأحداث ـ أقول إذا كان البعض ينظر الى العرب شزراً على هذا النحو ويعالج قضيتهم بمثل هذه الخفة والتفاهة ، فهو كمن يبدأ قراءة

الكتاب من آخره ، أو كمن يحتزُّ الرأس أو يقطع الشريان ليدرس وظائف الحياة والجسد جثة هامدة . وإذا كان المؤرخون التقليديون الذين يشققون الشعر بحذلقتهم يوسعون مفكري الإسلام تقريعاً ، ويُنحون عليهم باللائمة لعدم انطباق المعايير اليونانية عليهم أو لعدم انصبابهم في قوالب الفكر الغربي - ناسين أو متناسين بُعد الشقة الزمانية والمكانية بين الفريقين واختلاف تجارب كل منهما - فإننا في هذا الكتاب وفي غيره إن أُنسيء لنا في الأجل ، لن نملّ ولن نكلّ عن دراسة تاريخ الفكر العربي الإسلامي من داخل ، والنظر اليه بحسب معاييره هو ، لا بحسب معايير وقوالب مصنوعة لغيره . إن التشديد على هذه القوالب والمعايير في كل مناسبة - فضلاً عن أنه يشغلنا بقضايا جانبية فارغة ويبتعد بنا عن الدراسة المحورية الرصينة التي تدخل في صميم الموضوع وتأخذ بتلابيبه - فيه أيضاً حجْرٌ على الفكر وكبت لأنفاسه وأخذ بخناقه . إنه يشل حركته ويسلبه حرية العمل ، ويقتل فيه كل روح للمبادرة والإيمان بالذات . فلكل فكر قوالبه ومعاييره ، ولكل فكر أنماطه وطرائقه . هذا هو لب الدراسة المحورية الساخنة المبنية على اقتناص الحياة العقلية من باطن ، دون أن تعبأ كثيراً بالمعايير المصطنعة والقوالب التي قُدَّت لغير أصحابها .

ان خصائص التفكير في القرون الوسطى غيرها في العصور القديمة أو في العصر الحديث . فكل عصر إنما يصبو الى مزاج ما من العبقرية يحتاج إليه أكثر من غيره ، قد نفهم منه بعض الأشياء لكن تغيب عنا سائر الأشياء - إن الكتب التي وصلت الينا من القدماء إذا كانت قد كشفت لنا بعض الحقائق فقد حجبت أكثرها . وكلما بعدت الشُقة بيننا وبينهم أوغلوا في الغموض حتى يصبحوا ظلالاً باهتة أو أشباحاً لا حراك بها . وكل ما هو مطلوب في مثل هذه الحال أن نعترف لأولئك الذين لا يعاصروننا أنهم كانوا يعيشون في زمان غير زماننا ، فلا يسري عليهم ما يسري علينا ، ولا سيما إذا كانوا ينتمون إلى قوم غير قومنا ودين غير ديننا ، وأنا زعيم بعد ذلك أن أحكامنا عليهم ستكون أقل قسوة وأدنى الى القسط والإنصاف . فلا يصح والحالة هذه أن نطلب من القرون الوسطى الإسلامية - إذا صحّت هذه التسمية - أكثر مما تطيق ، أو أن نسومها فوق ما

تحتمـل . ولنعلم أن لليونـان تجارب في الفكـر والتاريـخ والحضارة لم تتـوافـر لرجال القرون الوسطى ، أولئك الذين عاشوا في أجواء عقلية وروحية غيـر تلك التي عـاش فيهـا القـدمـاء، وفُـرضت عليهم ظـروف وأوضـاع لا عهـد لمن قبلهم بها، وهبَّت عليهم نفحات وانسام لم تهب على غيرهم من أهـل الأرض قاطبة ، وكـانت لهم قيم ومثل وآمـال ومسؤوليات لم يكن لأسـلافهم اليونـان ، فكيف يـطلب منهم بعد ذلـك أن يكونـوا كاليـونـان ؟ مـا هـذا إلا غـايـة البَهْت والبُهتان ! إن الاختلاف بين عقليتين لا يجعـل إحداهمـا أفضل من الأخـرى أو أقل منها ، بل إن هذا الاختلاف ضروري جداً وطبيعي جداً ، ويجب النظر اليه دائماً على أنه إنمـا يعبر عن واقـع حي محسوس . فكـل من العقليتين صحيحة في نطاقها ، فريدة في ذاتهـا ، وحيدة في بـابها صـادقة في أدائهـا وتعبيرهـا ، ولكـلٍ منهما مـزاياهـا ونقائصهـا وعوراتهـا ، كل منهمـا إنما هي صيغـة جيلهـا ورسالة عصرها وحضارتها .

*

فكيفما كانت الأفكـار الأجنبية التي تسـربت إلى عقول العـرب المسلمين فـإن هذه الأفكـار لا تعدو أن تكـون مادة سخيـة صـاغـوا منهـا عـالمهم العقلي الخاص الجديد . وما كانوا ليستطيعوا أن يصوغوا هذا العالم بمعزل عما رسـخ في عقيدتهم ووجدانهم وثقافتهم القرآنية والعربية . لقد صاغوه صياغة فـريدة ، وأخرجوه على النمط الذي أملته ظـروفهم وأوضاعهم متـأثرين بعـالمهم النفسي الخاص بهم وحدهم . فلا يمكن لأي مسلم ـ صادق في دينه أو مستهتر به ـ أن يصور لنفسه عالمه العقلي دون أن تكون فيه ملامح من تصوره الديني .

إن كل أولئك يدل دلالة واضحـة لا لُبس فيها ولا إبهـام ولا إيهام ، على أنه مهما كانت طبيعة الأفكـار الأجنبية التي وصلت إلى عقـول العرب المسلمين وغزت أذهانهم وافئدتهم ، فإنها لم تبق على حالها ، بل لقد طرأ عليها ما يـطرأ على عناصر الأرض عندما تـدخل في جسم الكـائن الحي . فلقد تمثلوهـا على نحوهم الخاص واستخدموها في إنشاء وجهة نظرهم في الانسان والكون والحياة والمصيـر، وأفرغـوها في صيـاغة مفـاهيمهم بحسب معاييـر مجتمعهم، وسلكوا

بـأزائها سلوكـاً ينسجم وأصول حيـاتهم العقلية والـروحية ويـلائم أحكـام البيئـة العربية الإسلامية ، وما يركبها من هموم ويثيرها من اهتمامات ، وما يعتمل فيها من مشاكل ، وتطمح اليه من مقاصد وآمال . . . وبذلك فقـد أمكنهم أن يخلقوا لأنفسهم بيئـة عقليـة خـاصـة بهم ، منبثقـة عن حـاجـاتهم وظـروف حيـاتهم ومجتمعهم ، وأن ينشئـوا حياة فكـرية مستقلة لا معنى لهـا إلاَّ بـالنسبـة اليهم ، وبـالنسبة اليهم وحـدهم . فمصنفـاتهم ليست أبـداً تلخيصـاً لمـذاهب اليـونـان والهنود والفرس وغيرهم ، كلا ولا هي تـرجمة لكتبهم ، مهمـا تقوَّل المتقـولون وتخرَّص المتخرصون . وإنما هي مصنفات عربية ومؤلفات إسـلامية لهـا جوهـا الخاص وظلالها الفريدة ، ومقاصدها المتميزة التي لا يقدح فيها أبداً أنهـا ـ من وقت إلى آخـر ـ تسير في تيـار هذا المفكـر أو ذاك . إنها التعبيـر الشخصي عن أفكـار أهلها وأبنـاء عشيرتهـا وعرض لتصـوراتهم ومعانيهم وأحـلامهم وهمومهم وحلٌ لأزماتهم ومعضـلات حياتهم . فـلا غرو بعـد ذلك أن نقـول جازمين إنهـا تخالف كتب القدماء في الظروف والملابسات والمقتضيـات، وتفترق عنهـا في المفـاهيم والأدلة والغـايات ، فضـلاً عن استقلالهـا عنها في التفـاصيـل وبعض الكليات .

فلم تكن العوامل والمؤثرات الخارجية التي وصلت الى الفكر العربي إذن سوى عوامل مساعدة وأحداث طارئة صادفته كياناً قائماً بـرأسه مستقـلاً بذاتـه ، فاهتم بها وأقبل عليها ليزداد بها ثراء وتألقـاً ، وليمعن بها وجـوداً وانتشاراً وكـان بينهما صراع وحوار . وكان بينهما صدام وعناق ، وقبلات ولعنـات . ولكنها لم تخنقـه ولم تخلقه . فقـد كان مـوجوداً قبـل أن تغزوه ، وظـل محتفـظاً بكيـانـه معتصماً بهويته بعد أن ارتـدت عنه وفقـدت كل صـدى فيه في عصـور التدهـور والانحـطاط ، وكان بين الحـالين قدوة تُـرتجى ومثالاً يُحتـذى ، في تلك الفترة الغنية بالكرامة الإنسانية وشرف النفس والمجد العقلي والروحي .

إن تقويم الفكر العربي يونانياً فيـه مسخ لـه عربيـاً ، إنه يحـول بيننا وبين النفاذ إليه والوغول في مسـاربه وأعمـاقه . فـإذا أصررنـا على هذا التشـويه فلن نظفر بطائل ولن نقع إلاَّ على إشباح لا وجود لها إلاَّ في أوهام بعض الدارسين،

وسنعمى عن حقائق كان من الواجب الاهتمام بها وبذل أقصى الجهد للوقوف عليها ، وإلاَّ حصل الليُّ والتضييق من هنا ، والمط والتوسيع من هناك ، لقسر عالم الأعيان على مواطأة عالم الأذهان ، مع أن العكس هو المطلوب . ونتيجةُ ذلك بطبيعة الحال هي التزييف والتشويه والاستهتار بقيم الأشياء . إن الباحث الجيد كالخياط الجيد ، يفصِّل القمصان على قدود الأبدان ، ولا يبتر الأبدان لتشتمل القمصان ، وهذا واضح لا يحتاج الى برهان أو فضل بيان .

لإبداع الأفكار لا بدَّ أولاً من استعارة الأفكار والقدرة على استيعاب الأفكار ، ثم يتولى الذهن العمل الجبار ، بصنع ما لذَّ وطاب من الأفكار ، واصطراع الأفكار بالأفكار . هنالك فقط تنثال المعاني والأفكار .

يجب الا نتجنى على القوم وأن نضع نهاية للإسراف في أهمية ما أخذوه عن الآخرين الى حد تجريدهم من كل نفحة إبداع أو ومضة عبقرية . وإن ما اقتبسه العرب لم يكن في أيديهم سوى أداة للعمل والابتكار. فهُم لم يُقْدموا على ما أقدموا عليه من اكتساب وتعلم من الأمم التي سبقتهم في العلم والمعرفة إلا مدفوعين بتلقائية خصبة غنية ، تُسيِّرها إرادة واعية تصارع طبيعة جافية متمردة ، وهذا لعمري دليل صحة وعافية ، وليس عرَضاً من أعراض المرض ، بل قل هو من آيات العبقرية وإيماضة من إيماضاتها. وبعبارة أخرى، ليس تراث العالم القديم هو الذي رحل الى بلاد الإسلام ليستجدي له سوقاً فيها أو ليفرض نفسه عليها، وإلاَّ ظلَّ سلبياً كسيحاً لا حَوْل له ولا طَوْل ولا طَوْق، ولا قدرة له على التأثير والفاعلية ، ولا اجتراء له على التجاوب ومشاعر الناس وآمالهم وآلامهم وتطلعاتهم . . . كلا لم يرحل هذا التراث الى دار الاسلام ، بل إن فريقاً من العرب المسلمين تتدفق فيهم قوى ومواهب وطاقات خاصة ، هم الذين تركوا الأهل والعشيرة والوطن ورحلوا الى مظانّ هذا التراث أو أنفذوا بعثاتهم في طلبه ـ والمعنى واحد ـ واختاروا جزءاً منه، ثم صبغوا هذا الجزء بصبغتهم ونفخوا فيه من نفثات عبقريتهم وجعلوه بحيث يلائم طبيعتهم ومزاجهم. فصححوا ونَقَّحُوا ، وحرَّفوا وانحرفوا ، وغيَّروا وبدَّلوا ، وأضافوا وحذفوا ، وخرجوا من ذلك كله بنوع جديد من التعبير العقلي له معنى خاص

بـالنسبة إليهم ، وبـالنسبة إليهم وحـدهم . إنهم لم يقبلوا هـذا الجـزء إلاّ ليستخدموه ، لقد اكتشفوا فيه إمكانية الخلق وطريق الإبتكار ، اكتشفوا أنهم بـه إنمـا يستطيعـون التعبير عن روحهم وأمـانيهم ، وتحقيق آمالهم ومـا تصبـو اليـه نفوسهم ، وتفريج همومهم ومشاعرهم . لقد وجدوا أنه يساعدهم على التصرف تصرفاً سليماً حكيماً في شتى المواقف والمواقع التي تعرض لهم في مختلف أدوار حياتهم . إنه بكلمة واحـدة ـ لم يكن سوى الأداة التي تُستخـدم في عملية بنـاء الذات وتفجير الطاقات الكامنة في هذه الذات .

لقـد انتقـل هـذا الجـزء من عـالم إلى عـالم ، ففقـد بعض الخصـائص واكتسـب خصائص أخرى تساعده على الفعـل والتفاعـل والتعاطي والعـطاء في عالمه الجديد . فهو منذ الآن سيكـون له طـابعه الخـاص ، وسيكون لـه مكانـه المناسب ، وسيكون له معناه ووظائفه في نظام عضوي واسع لا تتفاعـل الأجزاء فيه إلاّ بقدر ما تنتمي اليه وتكون عضواً من أعضائه . لـذلك لا يجـوز لنـا بعـد الآن أن ننظر الى هذا الجـزء المستورد منعـزلاً عن الكل الـذي هو فيـه ، وإنما يجب النـظر اليه دائمـاً من حيث تعبيره الخـاص ، وعلاقتـه مع غيـره ، ومعنـاه بالنسبة الى مجتمعه الجديد ، ووظيفته في الإطـار الفكري العـام عند أصحـابه الجـدد . والخلاصـة ، إن انتماءه الجـديد قـد أحدث تغييـراً شامـلاً في جميع خصائصه القديمة . إنه لم يكن ليفعل فعله الساحر العجيب إلاّ لارتباطه الشديد بمواقف حية وتوجهات ونزعات مغـروزة في البيئة العـربية الإسـلامية . وبتعبيـر أصح ، إنه لم يكن ليؤثـر فيهم تأثيـره الخصب الفعّال إلاّ لأنـه خضع لعمليـات باطنة كثيرة من التغيير والتبديل أصبح بعدها أهلاً للدخـول الى عالمـه الجديـد والمشاركة في حل مشاكله وفض منازعاته . فهناك إذن توجه حيّ ، هناك جانب مليء بـالمعانـاة والتجـارب يجب على تـاريخ الفكـر والفلسفـة أن يـأخـذه في الحسبـان ، ويتناولـه بالبحث والتمحيص إذا كـان لا يريـد أن ينحل الى مجـرد تـدوين سطحي بـارد للمذاهب ، وتـرجمـة آليـة ميتـة لسيـرة أصحـابهـا ، تهتم بالنصوص دون النفوس ، وتغريها القشور دون الزهور .

لقد ارتحل إليهم ليجد أرضاً خصبة مهيأة للخلق والإبداع ، وبيئة صالحة

اكتملت لها وسائل البحث والنظر ، وعقلية منهجية منسقة أصبحت تعالج الأمور والأحداث معالجة كلية شاملة ، لكثرة معاناة أصحابها للأعمال الذهنية التي إنما أورثهم إياها التفكر في المسائل الشرعية ، خاصة مسائل الفقة واقضيته وقياساته . فمن السذاجة حقاً أن يقال إن الدراسات الفقهية والأصولية المعقدة ومباحث الطبيعة وما بعد الطبيعة والطب والفلك والرياضة هي وليدة عقلية مشتتة لا تتبع في مسارها الطويل نظاماً ولا منهجاً . فكأنهم لم يطلبوا هذا الجزء الذي اختاروه من تراث الأوائل إلاَّ في فترة كانوا قد وصلوا فيها في الناحية العقلية الى مستوى هذا التراث ، بمعنى أنه لو لم تُتح فرصة نقل هذا التراث إلى لسانهم لعمدوا ـ ومن يدري ؟ ـ الى مناهل نفوسهم يُفجّرونها طاقات غزيرة ، وعبقريات سامقة ، ومواهب فذة ، ولكان من الممكن أن ينطلق الفكر العربي آنذاك إلى غاية مداه انطلاقة أخرى ، مكتفياً بالقليل من العون الخارجي ، فيبدع فلسفة جديدة خاصة به غير تلك التي أبدع واكثر منها أصالة ، وعلوماً جديدة قد تشبه وقد لا تشبه ما عند الأوائل . أوَلَمْ يبدعوا في الأصول والكلام وعلوم الطبيعة والطب والفلك ومناهج البحث ما لا نجد له مثيلاً عند الأوائل ؟ فلولا أنهم أنداد لهؤلاء الأوائل ، أكفاء لهم ، إذن لما كان في مقدورهم أن يقتحموا تراثهم ويرمموه ويصلحوا ما فسد منه ، وينقبوا فيه ويغوصوا على دُرره ولآلئه .

أن الكُتّاب والشعراء والفنانين والعلماء والفلاسفة الذين وصلوا الى درجة الإمامة يبحثون دائماً عمن يشبهونهم في المزاج النفسي والتوجه العقلي والاستعداد الفني . مِنْ هؤلاء فقط إنما يفيدون ، ولا يفيدون منهم إلاَّ لأنهم أنداد لهم ، أو على الأقل امتداد لهم واستمرار لوجودهم . فإذا كنا لا ننكر تأثر رجال الإسلام ومفكريه بعناصر لها مصادر مختلفة ، ومظانّ متباينة لا يُعنى الباحث الخارجي إلاَّ بها عادة، فهذا التأثر عندما يكون مثمراً فعَّالاً ، إنما وراءه استعدادات وقابليات وقُدرات ليست لكل أحد ، بل ينفرد بها بعض الآحاد فقط دون سائر العالمين . فإنها عندما تتوافر لإنسان ما وتجيش فيه ، تسلبه النوم والراحة والمتعة ، وتجعله واعياً يقظاً مرهف الحس ، متوتر النفس ، مترقباً لكل

سانح ، مترصداً لكل وارد . إنه يرى ما لا يرى الآخرون ويُحسُّ ما لا يُحسّون ، بحيث لا يحتاج في نفاذ البصر والبصيرة الى كبير عناء ولا الى تخريج وتعليم ، بل تراه يكاد يعرف كل شيء بنفسه على سبيل اللمح والحدس ، بلا قياس ولا معلم ، فكيف إذا وجد المعلم !

وهذا الاستعداد النفسي لا يتهيأ إلاّ لكبار الشعراء والفلاسفة والملهمين . وهو ليس على درجة واحدة من القوة والنصوع في بقية عباد الله ، ولكنه يتفاوت تفاوتاً لا ينحصر في حد . إنه يقبل الزيادة والنقصان دائماً . ففي طرف النقصان ينتهي الى البله والأغبياء ، وفي طرف الزيادة ينتهي إلى الموهوبين والعباقرة الذين يشتعلون حدساً ، فيلمحون الحقائق في أسرع وقت وأقصره ، ويصلون الى نتائج هامة في كل المطلوبات أو أكثرها . فيمكن أن يكون شخص من الناس من العبقرية ونفاذ البصيرة بحيث تبرق له البوارق وتلمع له اللوامع بأقل جهد ، فترتسم فيه الصور وتنثال عليه المعاني ، إمّا دفعة واحدة وإما قريباً من دفعة . ماذا أقول ؟ يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار . نور على نور يهدي العقل لنوره من يشاء ! من هذا المعدن الثمين النادر إنما قُدَّ كبار الفلاسفة والفنانين والعلماء والشعراء الذين اينعوا بوادي عبقر ، وبحكم انتمائهم الى هذا الوادي إنما يتأثر بعضهم ببعض وإنما يتفاهمون ويبدعون !! كلهم - عرباً وعجماً - مصادر للضوء ومراكز لإشعاع الضوء ، ما داموا من أهل الوادي المعشوشب الممراع ، والآخرون - عرباً وعجماً - مرايا عاكسة للضوء ، ما داموا من سكان النواحي والأطراف . ولله درُّ غوته حين يقول : « إن الشاعر المطبوع يعرف الدنيا بفطرته ، وهو ليس بحاجة الى تجارب وملاحظات منوَّعة ليصورها تصويراً صحيحاً » . ويقول أيضاً : « لو لم يكن العالم في نفسي من طريق الاستشفاف لبقيتُ أعمى له عينان تنظران ، ولكانت كل تجاربي وملاحظاتي عملاً لا جدوى فيه . فالضوء هناك ، والألوان من حولنا ، لكن لو لم يكن في عيوننا ضوء وألوان لما أبصرنا العالم الخارجي »[2] فالشبيه إنما

---

(2) (1) أحاديث جوته مع إكرمان . الترجمة العربية . نقلاً عن علي أدهم في كتابه صور أدبية انظر صفحة 67-69.

يُعرَف بالشبيه ، كما يقول القدماء .

*

وإذن ، فـلا يتخـرج متخـرج في علم من العلوم أو بـاب من أبـواب المعرفة ، ويشتغل به ، ويتعمق فيه ، ويغوص على معانيه ، شغفاً به ، وتحرقاً إليه ، واستجابةً لنداءٍ باطنٍ مُلحّ ، وحوافز داخلية غير مدفوعة باحتياجات السوق وقانون العرض والطلب ـ لا يفعـل ذلك إلاّ من كـان معداً لهـذا العلم ومن أهل هذا العلم، بل ومن صناع هذا العلم. هذا ما يفـرق بين القميء والعظيم، بين الـرث التافـه والمبدع المبتكر . . . إنه يـطلبه لـذاته ، لا لجـرٍّ منفعـة أو دفـع مضرَّة . إنه حياته ووحيه وإلهامه . لا يقرّ لـه قرار إلا في حمـاه ، ولا يصلي إلا في محرابه . لقـد وهب نفسه لـه غير مكتـرث لتبعاتـه وللصعوبـات التي سوف تعترضه في سبيله والأعباء والالتزامـات التي لا بد من مـواجهتها . ولا غـرو في ذلك فالعلم يحقق له لذائذ ومتعاً لا يدركها إلا ذووها . « فمن ذاق عرف ، ومن لم يذق فلا حرج عليه إذا سلَّم واعترف . وهذه لطائف تقصر عنها العبارة ، ولا تلحقها الإشارة : إذ لا يفهم عنك إلا من أشرف (ولعلها أشرق) فيه ما أشرف (أو اشـرق) فيك » على حـد قول أحـد الصوفيـة ، وهـو يصف إحـدى المتـع الصوفية الخارقة . فالاشتغال بالعلم اشتغالاً حقيقياً هو نوع من العبادة والتصوف والعشق الإلٓهي لا يحظى به إلا النادرون المترهبون الذين انقطعوا للعلم ونذروا أنفسهم للهيكل المقدس !!

هؤلاء هم المـوهـوبـون المبـدعـون . فهم متصـوفـون بـطبيعتهم وبحكم إخـلاصهم للحق والحقيقـة ، عشـاق لهمـا . إنهم سـدنـة الهيكـل ورواده المخلصـون ، إذ لا بد لـلإبداع من نفحـات نُسُكية صـوفيـة ، تشـد العـزائم ، وتلهب المشـاعر وتشعـل القناديـل وتعين على نـوائب الـطريق . إنهـا هي التي تقضي على الشعور بالمرارة والعذاب وخيبـات الأمل ، وتمـلأ النفس بالأشـواق والمبـاهج والفيـوضات التي لا يصفهـا لسان ولا يقـوم بها بيـان ! لكن ذلـك لا يعني مطلقاً أن كلّ متصوف موهوب ضرورةً ، فما أكثـر البُله و« تنابلة السلطان »

في أوساط الصوفية ، وما أكثر المرتزقة والمنتفعين والمشعوذين بينهم ، ممن يسعون وراء ما رثَّ وهان من اللذائذ العابرة ، وما أقل الصادقين المشغوفين من أرباب الأحوال وأصحاب المواجيد والأذواق . وكذلك العلماء ليسوا سواءً . فهناك العلماء وهناك المتعالمون . هؤلاء هم طلاب الرفد والرفادة ، أولئك هم النساك المنقطعون للخدمة والعبادة . فريقٌ غاية أمره الثرثرة وزخرف القول والخطابة ، وفريق أضناه البحث والتأليف والكتابة ، أولئك أكبر همهم التماس العافية والسلامة والرتابة ، وهؤلاء هم المغامرون والعشاق وأهل الصبابة . فالصَّب يحلق في أجواء وتغمره مشاعر وأحاسيس متدفقة خلابة ، أين منها بهارج المنافع ووساوس المغانم الأفاكة الضرابة . فإذا رأيتَ هنا رأيتَ سخفاً وتفاهة وشراهة ، وإذا رأيت ثمَّ ، رأيت حكمة ورصانة ونباهة . هل يستوي الفريقان أم لعلك تحسب الأمر فكاهة في فكاهة ؟

قلة هم الناس الذين يخلصون لفن من الفنون بحيث يستفرغون له الجهد والطاقة ، وأقلُّ منهم من يُغنون هذا الفن ويضيفون إليه من ثمرات عقولهم ما يبلغون به درجة الإمامة والريادة، هؤلاء هم الموهوبون حقاً . إنهم قلّة القلّة وصفوة الصفوة . وبهذه الصفة فهم لا يحتاجون إلا الى القليل من الدربة والتوجيه ، ثم يتولون الباقي بأنفسهم ، دونما حاجة الى هاد أو مرشد ، فيسيرون فرادى أو يكادون لا يلوون على شيء كأنهم أصحاب الطريق . وإذا لم يجدوا طريقاً شقوا لأنفسهم طريقاً . إن أسطراً قليلة من كتاب يقع في يد واحد منهم ، أو عبارة يسمعها من أستاذ ، أو إشارة عابرة من صديق يأتي بها من قبيل الصدقة ، أو شيئاً يسقط على الأرض (تفاحة نيوتن مثلاً) أو ماء يفيض في الوعاء (جرن الحمام الذي اغتسل فيه أرخميدس) . إن أيّاً من هذه الأشياء قد يكفي وحده لأن يقدح الزناد ويشعل الفتيل عند من يملك زناداً أو زيتاً ، فإذا نحن بين عشية وضحاها أمام عبقري فذ في إهاب رجل عادي لم يبدُ عليه طوال حياته ما ينم عن ذكاء خارق . إن الصدفة لا أثر لها إلاَّ في بعض الأذهان دون بعض . فهيهات أن تشعل سراجاً لا زيت فيه . وكذلك هيهات أن تفعل الصدفة فعلها في عقل غير قادر على انتهازها . ما أكثر الفُرص الفريدة التي

تسنح لنا ، وما أقل الذين يقتنصونها ويُسخرونها لأغراضهم وحاجات وجودهم . لا بد من التجاوب وبالتالي من التفاعل بين الصدفة وبين العقل الذي يتحرَّق انتظاراً لها ، وإلاَّ تبددت وذهبت أيدي سبأ . فإذا كان لعدد ضئيل جداً من الفُرص أثر في بعض الاكتشافات والاختراعات الهامة ، فإن القسم الأكبر منها قد مرت دون أن ينجم عنها أي اكتشاف ، لأن الأشخاص الذين سنحت لهم أمثال هذه الفُرص لم تكن عندهم الفطنة والاستعداد لاغتنامها . فالصدفة إنما تساعد العقل المهيَّأ لها . إن قلة من الاكتشافات والاختراعات تعتمد على الصدفة ، ولكن القسم الأكبر منها يعتمد على العقل المبدع الذي يلاحظ الظواهر الطبيعية ويتأملها ويدرس أفاعيلها وتفاعلاتها ، ويجري التجارب والملاحظات والاستقصاءآت لمعرفة القوانين التي تحكمها وتضبط سيرها .

إن أصحاب هذا العقل موجودون في كل زمان ومكان ، ولكنهم قلة نادرة مختارة منثورة هنا وهناك في جميع الأمم والشعوب . غير أن ظهورهم وتفتق مواهبهم رهن بظروف وملابسات وصدف خارجية يحظى بها بعض المحظوظين في البلاد المتقدمة وبؤر الاشعاع ، وأما الباقون فطاقات مهدورة ضائعة. ويل للمجتمع الذي يستهتر بهذه الطاقات ، فليس وحده هو الخاسر وإنما الانسانية كلها قد خسرت ، وذلك هو الخسران المبين . والسعيد السعيد من سنحت له الفرصة واغتنم الفرصة . وعندئذٍ فهو في غنى عمن يأخذ بيده ويدله على الطريق . ففي داخله ، ومن خارجه ، وبين يديه ومن خلفه ، أدلاء كُثُر يتعهدونه ويوجهونه ويهدونه سواء السبيل . وهو عن وعي أو غير وعي لا ينفك يبحث ويرقب ويترصد وينتظر الفرصة السانحة . وهكذا فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له . إنه ليس وحيداً على هذه الأرض وإن بدا كذلك . ففيه من الدوافع والحوافز والمنبهات ، وينتابه من الضغوط والقوى والتوترات ، ويساوره من القلق والأرق والصراع ، ما ينوء بالعصبة أولي القوة . لا راحة له حتى يقضي وطره ويحقق مأربه وينجز وعده، ويفجر ما فيه من طاقات وشحنات. إن ثورة عارمة عنيفة تنشب في نفسه بحكم الحال وبحكم النطق والمقال . إنه لا يهدأ حتى يفرغ ما به من شحنات ويخفض ما يصطرع فيه من توترات . ولكن

هيهات ! فإن التوتر يستتبع التوتر ، والشحنة تتلوها الشحنة . إن المخاض عسير ، ولكن المولود عظيم ، فالاكتشاف لن يكون بغير ثمن . هنالك ترتفع الحجب وتزول الغواشي . لقد رأى من آيات الكون الكبرى ، فكان مع قلة مختارة، الأعظم أجراً . لقد كوفيء فكان جزاؤه الجزاء الأوفى ، وارتشف من النبع الصافي وكان له عنده زلفى . لقد وضع يده على احاجي وأسرار لم يسمع بها السامعون ولا نبّأها المنبؤون . ثم تُسدل الحجب وتوصد الأبواب ، لقد خطف الخطفة وأوتي الحكمة وفصل الخطاب ، فما عاينه وعاناه يكفيه مؤونة الطريق، ويساعده على المزيد من البحث والتحقيق، إنه زاده في رحلة العمر بعد أن برق له البريق. وقد تعاوده هذه الحال وقد لا تعاوده أبداً، والأمر مرهون بجملة من العوامل والظروف لا تزال لغزاً سرمداً . إنها ليلة القدر ، خير من الف شهر ، تَنَزَّل العلوم والمعارف فيها حتى مطلع الفجر !!

*

ولم يعدم العرب مفكرين من هذا المعدن الثمين . لذلك يطيب لي تذكير أولئك الذين يسرفون في التجني على العرب ويشككون في أصالتهم وقدرتهم على الخلق والإبداع ويجعلونهم مجرد مرايا تعكس الضوء ولا تصنعه ، تذكيرهم بأنه ـ بناء على ما تقدم ـ لا يفهم اليونان إلاّ من أشرف (أو أشرق) فيه ما أشرف في اليونان . فلو لم يكن للعرب حوافز أبقراط وسقراط ، ومواهب أرسطو وارسطرخوس ، وتطلعات أفلاطون وأفلوطين ، وفطانة إبرخُس وبطلميوس ، وبراعة أبولونيوس وأرخميدس و . . . إذن لما استطاعوا أن ينجبوا الكندي والفارابي والرازي ، والبيروني والصوري والغزالي ، كلا ولا الطوسي والخوارزمي والبتاني ، وابن يونس وابن النفيس ، وابن الهيثم وابن رشد وابن خلدون . . . فهل يظن ظان أو يحسب حاسب أن هؤلاء لم يبتكروا شيئاً ، وأنهم لم يكونوا سوى مقلدين أُمناء ومرايا عاكسة ؟ إن العدد الجم من الرجال الذين أنجبهم الإسلام في عصوره الذهبية ـ بل حتى في عصور الإنحطاط أيضاً ، وهذه سمة مميزة للفكر العربي الإسلامي تستحق الدراسة ـ في الطب والصيدلة والطبيعة والكيمياء والرياضة والفلك والتاريخ والجغرافيا والاجتماع ـ

نـاهيك بعلوم الـدين واللغة على اختـلافهـا ـ أقـول إن هـذا العـدد الهـائـل من الأقطاب والأفذاذ والجهابذة والأعلام إن دل على شيء فإنمـا يدل على خصـوبة الفكـر العـربي الإسـلامي وعلى غنـاه وإيجـابيتـه وعلى مـلاءمتـه لتقـدم العلم والحضارة . لقد كان له في جميع هذه الحقول والميادين ثمـرات يانعـة وقطوف دانية ونفثات صادقـة ملأى بالعناصر الخاصة المخالفة جـد المخالفـة لما عنـد القـدمـاء . فليتعنت المتعنتـون مـا شـاء لهم صلفهم وكبـريـاؤهم أن يتعنتـوا ، وليُصرُّوا على حجب الشمس في وضح النهار . فلو جئنـاهم بكل آيـة للجُّوا في طغيانهم يعمهون ، فذرهم وما يقولون ، فلا بد للزيف أن يتكشف للعيون .

إن العرب ـ على جهلهم باللغة اليونانية ـ نبغوا في ثقافاتها وعلومها . وإن الروم والسريـان ـ على معرفتهم بهـا ـ لم يرعـوها حق رعـايتها ولم ينجبوا مفكراً كبيـراً واحـداً فيهـا، اللهم إلاَّ بعـد لقـائهم العـرب وتفـاعلهم بـالأجـواء التي جاء بها العرب ، أما قبـل ذلك فقـد قصَّروا وتخلفـوا . إنهم لم يكونـوا قط في مستوى اللغة التي ينطقون بها أو ينقلون منها ، أو أُقحموا فيها ، دون أن يكـون لهم فيها ناقة ولا بعير . لقد كانوا أقزاماً في إهاب الجبابرة .

والفُرس ، وما أدراك ما الفُرس ! إنهم هم أيضاً لهم مـأساتهم . فهم رغم اتسـاع إمبراطـوريتهم قبل الإسـلام وما كـانت عليه من ازدهـار ورخـاء ، ورغم اقتباسهم عن الأغارقة والهنود والحضارات المجاورة لهم أو البعيدة عنهم « فإنـه لم يُتـح لحضارة تلك البـلاد أن تصبح حضـارة مبتكرة مؤثـرة إلا في جـو عقلي آخر ، وفي ثنايا حضارة ثانية أنجح ، هي الحضارة العربية »[1] الاسلامية ، لما جاءت به من حلول ووضعتـه من أنظمـة ، ولما كـانت تنطوي عليـه من مبادىء ومُثُل وقيم وأهداف ، أي لِمـا كانت تحمـل من أفكار وتبشـر به من أفكـار قادرة قوية انهارت أمامها أفكار دونها قوة وكفاءة . أفكار تهزم أفكاراً ، وفلول الأفكار تنسحب أمام جبابرة الأفكار . دائماً الأفكار الكبيـرة تطيـح بأقـزام الأفكار ، ولا يبقى إلا الأقدر والأكفأ من الأفكار . إنها معارك الأفكار تنتصر فيها أفكار وتنقلب

---

(1) زيغريد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب، صفحة 355.

على أعقابها أفكار . فبالأفكار إنما تُصنع الشعوب والشعوب إنما تنتصر بالأفكار .

إن حضارة فارس لم تُنجب قبل الإسلام رجالاً أفذاذاً كالرازي وابن سينا والغزالي والطوسي والبيروني وغيرهم وغيرهم ممن ينسب اليهم السطحيون أمجاد الفكر العربي والحضارة الاسلامية ، لا لشيء إلا لأنهم ينتمون الى الأصل الفارسي ، بينما العكس هو الصحيح . فهم بزيت الحضارة العربية الإسلامية إنما أشعلوا قناديلهم ، وبها إنما تألقوا وفي سمائها إنما سطعت نجومهم وانقدحت قرائحهم ، بعد أن اسودّت سماؤهم وأمحلت أرضهم وهلك الحرث والنسل في ديارهم . إنهم لم يبرزوا إلاَّ في ظل الإسلام ، وفي جو لقاء العروبة بالإسلام وفي الحضارة الجديدة التي جاء بها الإسلام وتفاعلت فيها طاقات اعتنقت الإسلام ، وأفادت من الفُرص التي أتاحتها الحياة في دار الاسلام وسارت في ركب الاسلام . فهم الى هذه الحضارة ينتمون لا الى حضارة كسرى المحتضَرة التي خرَّت صريعة أمام جحافل الإسلام !

فليت شعري ! علامَ يدل كل هذا ؟ أفلا يدل على أصالة الاسلام في عصر الاسلام ؟ الإسلام بالمعنى الحضاري لا الديني ، إسلام التغيير الشامل ، لا إسلام الصلاة والصوم والنسك ووظائف العبادات والطاعات . إنه بما فيه من واقعية ومنازع إنسانية ، وبما يتمتع به مما هو عميق ومناسب وخاص لجميع الناس وأصنافهم وحالاتهم ، وبقدرته على شد العزائم ، وتجديد القوى وبعث الآمال والأحلام ، وملء أقطار النفس بما يحيي وينعش ويشحن ويفجر ، وبإصراره على سد الفراغ الخلقي والخواء الروحي الذي خَلَّفَتْه الوثنية المحتضَرة، وعلى مواجهة العالم الذي أنهكته القوة والوحشية والظلم، وبكلمة موجزة، إنه بما فيه من طاقة ثورية وحياة واقعية، وأبعاد انسانية وشطحات روحية تدغدغ حبَّة القلب وتخترق الشغاف والسويداء ، إنه بذلك كله شحن النفوس وفجر الطاقات وكشف المواهب والقدرات واجترح المعجزات وأتى بالآيات البينات ، وأعطى الأصالة العربية الاسلامية ـ التي وجدت فيه هويتها ـ مضمونها الكامل وصيغتها الفريدة .

فإذا لم يكن في هذا الذي ذكرنا ما يكفي لحمـل أولئك الـذين يتشككون في الفكر العربي الإسلامي على الايمان به ، فبأي حديث بعد ذلك يؤمنون ؟

إن موعدهم السَّيْكوسوسيوديناميـك ، ولن يطـول المـوعد بـل هو قـريب وشيك . ومهما نَبَتْ هذه الكلمة عن السمـع واللسان والعلم المقـرر والتعليم ، فانظر الى المضمون فلعلَّ فيـه الخير العميم ، لا مشـاحَّة في الأسمـاء فدونـك المعنى هو ذا الرأي السليم ، لا تعرف الحق بالرجال إنك إذن مُتعنت خصيم ، إعـرف الحق تعرف أهله كـذا يقول الغـزالي الحكيم. فلا تعجـل الحكم واتئد وانتظر الرقيم ، وستجد ما يسرك ويثيرك وأنا بذلك زعيم !!!

الفصـــل الســـادس

العقل العلمي العربي

المشهور عن العرب أنهم أصحاب تراث أدبي . فهم أهل القصيد وأمراء البيان وفرسان الكلمة والعبارة يجولون في ميادينها ويصولون . هذا ما يقال عن العرب ويشاع ، وهذه هي الفكرة السائدة عنهم ، حتى لقد وقر ذلك في جميع الأذهان وأصبح تقليداً راسخاً لا يكاد يشك فيه أحد أو ينازع فيه . إنه مأثرة العرب الأولى يعضُّون عليها بالنواجذ ولا يبغون عنها حِوَلاً .

كلاًّ ، ليست الكلمة هي مأثرة العرب الأولى . لقد كان ذلك قبل الإسلام، لكن لما جاء الإسلام تغير الحال غير الحال حتى إن تراث الكلمة قد تضاءل حجمه في جنب فروع التراث الأخرى . فإذا هو لا يعدو أن يكون جزءاً من تراث أكبر تطغى فيه الفكرة على الكلمة حتى لتكاد تعصف فيه الفكرة بالكلمة . ولا غرو في ذلك ، فللعرب تراث وأيُّ تراث ! وهذا التراث ليس محصوراً في نطاق الأدب واللغة ، ولكنه الى جانب ذلك تراث ديني وإجتماعي وعلمي . بل لعل الأصح أن نقول إنه تراث خصب متنوع تتوافر فيه جميع الجوانب التي تكون للحياة الغنية الدافقة . إن تراث الكلمة لا يخرج عن نطاق أصحابه ، وإلا فما بال التراث الفكري العربي يخترق الحدود والسدود وينتشر في كل أفق ويبلغ كل منار ويطير كل مطار ؟ الكلمة جزء من كل ، ومتى كان الجزء يُغني عن الكل ؟ فالتراث العربي في علم الحرب مثلاً لا يقل عنه في أي علم من العلوم العقلية أو النقلية التي برع فيها المسلمون . . . والمتأمل في الحياة العربية والاسلامية في مختلف صورها وأشكالها لا يسعه إلا أن يعجب

بالمنجزات العظيمة التي أسهمت بها في كل ميدان . لقد كانت ـ حقاً ـ حياة غنية منفتحة على العالم شرقه وغربه، تأخذ من كل مكان وتعطي لكل قوم، فتُغني وتغتني، وتصنع لنفسها تراثاً جديداً ضخماً في العلم والأدب والفلسفة والفن والتاريخ والاجتماع والدين ومناهج الفكر والحياة .

هذا ولم يكن للعرب في جاهليتهم ما يصح أن يسمى علماً ، كما لم يكن للعرب في الجاهلية أو صدر الإسلام ذلك التراث الضخم العظيم من الألفاظ العلمية والطبية والجراحية والمصطلحات الفلسفية وغير ذلك مما سنشهده في آخر العصر الأموي وطوال العصر العباسي والعصور التالية . فالروح العلمية الصحيحة لم تتولد إلاّ مع الإسلام بحكم التفاعلات الساخنة والتطورات العميقة التي فجَّر بها شبه الجزيرة العربية . فقد كان ظهور الإسلام في قلب شبه الجزيرة هذه حدثاً فذاً طبع العالم المتحضر كله بطابعه ، فضلاً عن العالم المتخلف الذي وصل إليه مده الزاخر بالعلم والحضارة . يضاف الى ذلك أن الإسلام في جوهره ، وبصرف النظر عن أي تأثيرات جاءته من الخارج ، لم يكن مجرد حركة دينية صرف ، وإنما هو أيضاً قيمة إنسانية حضارية هائلة تغلغلت في صميم حياة الشعوب التي اعتنقته أو اتصلت به نوعاً من الاتصال . وكانت نموذجاً للتعايش الإنساني الفريد في العالم . وهذه إضافة جديدة اكسبت الحضارة القديمة المزيد من الثروة والثراء. وحتى الشعوب التي قاومته وتمردت عليه قد غزتها أفكاره ومثله وانْساب فيها مدُّه كسيل العرم . وكما يثير المحراث الغبار من حوله ويقلب الأرض فيجعل عاليها سافلها ، كذلك أثار الإسلام عقول العرب وأفئدتهم ، وقلب أوضاع المنطقة ونُظُمَ حياتها وتفكيرها رأساً على عقب ، وأتى على معتقداتها وتقاليدها وأنماط الحياة فيها . فبالإسلام ـ وبالإسلام وحده ـ اكتملت للجزيرة العربية والمنطقة المحيطة بها قسمة التعرب وتوحدت هويتها الحضارية واجتمعت لها كلها ـ لا لعرب شبه الجزيرة وحدهم بل ولا للمسلمين وحدهم ـ تلك الأسلحة والطاقات والفُرص والإمكانات التي أتاحها الإسلام لمعتنقيه . وبعد أن دخلت المنطقة في إطار التعرب وتسلَّحت بفكر العرب تفجرت طاقاتها الخلاقة وبدأت مرحلة جديدة

حاولت فيها اقتحام معاقل الحظْر التاريخي الذي هددها كثيراً وطويلاً ، ورنت بأبصارها إلى المتوسط في سعي حثيث لتحويل شاطئه الشمالي الى رقعة عربية تصل وطن العروبة وأرض حضارتها من الأندلس الى بلاد الشام . وهكذا فاعتناق العرب الاسلام لا يدل على مجرد القضاء على طائفة من العادات والأعراف كانت شائعة بينهم ، وإنما كان أولاً وقبل كل شيء انقلاباً شاملاً في مثل الحياة وأهدافها ، وتبدلاً عميقاً في المفاهيم والغايات وقيم الأشياء ، وخروجاً من ظلمات القرون ، وانفتاحاً على العالم الكبير الذي يموج بالملل والنِّحل والعقائد والفلسفات والعلوم والفنون والآداب والحضارات .

*

عندما خرج العرب من باديتهم يحملون لواء الإسلام ، اتجهت جماعة منهم شمالاً فاحتلت ما يعرف اليوم بفلسطين وسوريا والعراق . ثم توغلت هذه الجماعة شرقاً الى الامبراطورية الفارسية ، فاحتلت ما يسمى اليوم بإيران وأفغانستان وباكستان وشمال التيبت . وامعنت هذه الجماعة شمالاً بعد أن وطدت أقدامها في المناطق المذكورة فوصلت الى الإتحاد السوفياتي ووقفت عند حدود الصين . وخرجت جماعات أخرى من شبه الجزيرة العربية فاتجهت إلى الغرب واستولت على مصر وشمال أفريقيا ، ثم قطعت جبل طارق لتستولي على الأندلس ومنه تتوغل في الأرض الفرنسية لتقف على بعد 250 ميلاً من شواطىء إنكلترة . واتجهت بعد مضي بعض الوقت جماعات من شمال أفريقيا بحراً فاستولت على صقلية وغزت جنوب إيطاليا . وهكذا استطاع العرب في وقت قصير جداً أن يهزموا أقوى امبراطوريتين على عهدهم هما إمبراطورية فارس وامبراطورية الروم ، ويقيموا دولة تمتد من المحيط الأطلسي الى حدود الصين .

لقد خرج العرب من باديتهم على فترة من إشعاع الفكر والمعرفة ، وفي عصر غلب فيه التلفيق على التحقيق ، والنقل على الخلق ، والرواية على الدراية . . . جاءوا والعلوم مختلفة متمازجة فُقدت أصولها في أغوار التاريخ

وضاعت الأقوام التي صنعتها فتحلّبت بتوالي العصور والدهور وتفاعل الأفكار والأمصار ، واجتمع معظمها لليونان والفرس والهنود و . . . ـ لقد وجد العرب ضالتهم المنشودة عند هذه الشعوب، فوقفوا منها موقف الوارث. وكانت مبعثرة متفرقة، فجمعوا أشتاتها ورتبوا أصولها، ونسّقوا بينها وحفظوها من الضياع ، ثم انتقلوا بعد ذلك الى تطويرها والزيادة عليها وإضافة الكثير اليها من بنات أفكارهم ومنتجات قرائحهم ، كما سنرى ذلك مفصلاً .

فإنه ما كادت الفتوح العربية الإسلامية تستقر في البلاد التي كانت تسود فيها روح الهلينية على أثر فتوح الإسكندر حتى بدأ التفاعل بين العرب الخارجين من طور البداوة وبين الشعوب العريقة المغلوبة على أمرها ، بعد أن أفسدتها الحضارة وأتخمها البذخ والإسراف ، واستكانت الى الأسوار تنشد حمايتها . لقد تفاعل الفكر العربي والذوق الإسلامي بأذواق وأفكار بلغت شأواً بعيداً من التقدم والنضج ، فنتج من ذلك كله بواكير حضارة راقية أخذت تتخلق في العصر الأموي .

إن هذا المجتمع الناشىء المتطور الذي بدأ يتكون منذ منتصف القرن الأول للهجرة (السابع للميلاد) من بيئات شتى وثقافاتٍ مختلفة وألسنة متباينة ، أصبح مقراً لاتصال أصحاب المدارس العديدة وتلاقح الأفكار بينها ، بعد أن كانت قبله شبه مفصولة بعضها عن بعض ، لا يكاد بعضها يتأثر ببعض كما مر معنا في فصل سابق. نحن لا ننكر أن مراكز الإشعاع التي كانت فيها العلوم الموروثة عن القدماء قد أدركت نوعاً من التطور قبيل الإسلام ، ولكنه تطور بطيء تنقصه حرارة التأثير والتأثر والأخذ والعطاء ، فوجد في المجتمع الجديد عنصر التركيز والتنشيط . فهذا المجتمع هو الذي وَلّد الصلة وألهب المشاعر وحقق اللقاء .

يضاف الى ذلك أن العرب قبل الإسلام لم يكونوا معزولين عن جيرانهم أصحاب الحضارات القديمة عزلة كاملة . فقد انفردت الصحراء العربية بين صحارى العالم أجمع بأنها أحيطت منذ القدم بأرقى حضارات العالم القديم . ففي الشمال ازدهرت حضارة ما بين النهرين ، وحضارات الإغريق والكنعانيين

والآراميين وجزر بحر إيجة، وفي الغرب ازدهرت حضارة المصريين القدماء وفي الشرق ازدهرت حضارة فارس ومن ورائها الحضارات الأسيوية الأخرى ، وفي الجنوب كانت حضارة اليمن .

وكانت القوافل العربية دائبة الحركة بين مراكز هذه الحضارات عند أطراف الصحراء ، تنقل البضائع والسلع إليها ، وكان لا بد أن تتحرك الأفكار والمعارف والثقافات مع هذه السلع والبضائع ، وأن تختلط هذه الأفكار والثقافات وتتزاوج في حركة بطيئة ولكنها ثابتة مستمرة ، وأن يؤدي كل ذلك إلى تصفية الأفكار والمعارف وتقدمها تبعاً لهذا الاختلاط والتزاوج .

وكأن الإسلام جاء على موعد . فلو لم يكن لظهور الإسلام من أثر في التاريخ والحضارة إلا التعجيل بهذه الحركة وإلهابها فناهيك به فضلاً . لقد كانت الأمور قبله تجري سبهللاً ، لقد كانت تتحرك على نار خفيفة فجاء الإسلام ليؤجج النار ويرفع من وتيرة الأحداث . فانفجرت المنطقة والتقت الأطراف واندمجت الأكناف واشتعل التفاعل وحمي وطيس الأفكار .

وغني عن البيان ان التقاء الحضارات وخلفياتها الثقافية في هذا المجتمع الثائر المتحفز سيكون له أثر فعال وحاسم في نشأة العلم العربي وفتح آفاق جديدة للمعرفة . وساعد على ذلك أن الإسلام لم يكن مغلقاً أمام الأفكار الجديدة التي نفذت اليه من الخارج ، وإن قامت محاولات بائسة متعصبة حمقاء لسد جميع المنافذ أمامه والحؤول بينه وبين قوى التطور والحضارة لم يكتب لها النجاح إلاّ في عصور التدهور والانحطاط . كذلك لم يكن المجتمع العربي الإسلامي بطبيعة تكوينه مجتمعاً تحيط به القلاع والأسوار والسدود ، وإنما كان هو أيضاً مجتمعاً مفتوحاً مشرع الأبواب ، واثقاً بنفسه وبالقوى الباطنة التي تحمي كيانه ، لا يخاف الوافد الغريب ولا يهابه ، بل يحاوره ويناقشه ويفسح له في المجال ليدفع ويدافع وينافح ويسمع ويستمتع ، سيراً على قاعدة « وإنّا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين »(1) فالحوار مفتوح ، والرأي

(1) قرآن كريم 24/34.

مطروح، وفي الإمتحان يكرم المرء أو يهان. قل ما تشاء، لكن دع غيرك يقول ما يشاء هو أيضاً. لا تعرف الحق بالرجال إعرف الحق تعرف أهله. لا تَخْدَعَنَّك الأسماء الكبيرة، بل محِّصْ ونقِّبْ وحقِّق ودقِّق ، فأنت بنفثات الفكر لا بجلجلة الإسم إنسانٌ . لا تكن إمَّعاً أو امَّعة ، كلما وجد شخصاً سار معه ، بل اجتهد رأيك ، وكن وليَّ أمرك وسيد نفسك وأستاذ تفكيرك ، ولا تقبل شيئاً إلا بعد أن يثبت لك ، وكن مستعداً لتغيير رأيك إذا ما ظهر لك خير منه ، وإياك أن تكون تبعاً لأحد أو ذيلاً لإنسان؛ وأعمل فكرك ما استطعت ، ولا ترض بديلاً عن الحرية والوعي والاستقلال . بهذا تكرم ذاتك وتحقق كونك وكيانك ، وتبلغ غاية وجودك !!!

هكذا كان توجه القوم آنذاك ، وهذا هو لسان حالهم ، وعلى هذا الشعار ساروا في مناهج حياتهم ، وان شذ منهم من شذَّ أو رثَّ من رثَّ من أبناء جيلهم أو من أخلافهم من بعدهم !



لقد شارك الجميع في دعم هذه الحياة العقلية والروحية للعرب والمسلمين في مختلف صورها، وشتى أشكالها التي إنما وجدت بذورها الأولى ونواتها الأصلية في أرض الجزيرة العربية والتطورات العميقة التي طرأت عليها، والتي ستكشفها لنا التفاعلات السِّيكوسوسيوديناميـة وترينا براعم الفكر العربي تتفتح الواحد منها بعد الآخر ، بحيث نرى بأم أعيننا حركة هذا الفكر ونسمع هديره بملء آذاننا ، ويستولي جيشانه على حسِّنا ووعينا وجميع المشاعر المتحفزة فينا ، فلا ينكره بعد ذلك منكر ولا يجحده مكابر . دون أن يعني ذلك أن الفكر العربي قد نشأ من فراغ ، ولا سيما إذا تذكرنا أن العرب لم يكونوا أخلاء من أي تطلع عقلي ، عُزلاً من أي ميراث حضاري قبل الإسلام. كما كانت نواة التفكير العقلي قد تكونت جنباً الى جنب مع تجربة الإسلام . وسنبحث ذلك كله بتفصيل وإسهاب فيما بعد. كما كانت بين أيديهم نظرية كونية شاملة أَمَدَّهم بها القرآن ، فكانت بمثابة العمود الفقري لكل تفكير عقلي واجتهاد ديني . لقد برزت الحضارة العربية إلى حيز الوجود وفتحت نوافذها

للنور يأتيها رزقها رغداً من كل مكان . ولا عليها بعد ذلك أن يتهمها المتهمون ويتقول عليها المتقولون .

إن انفتاح الشعوب العربية الاسلامية بعضها على بعض كان من شأنه تقوية حس المشاركة فيما بينها وتعزيز أسباب التفاعل والإخصاب فيها . واما انفتاحها على العالم الخارجي الذي لا يشاركها الأرض والدين واللغة والتاريخ والمصير ، فكان من شأنه إثراؤها وتنويع خبراتها وتوسيع آفاقها وتعزيز إيمانها بالعلم والمعرفة والجد في طلبها والحج إليها في جميع مصادرها وتعقبها أنّى كانت وحيثما وجدت . ففي ذلك عزها ومجدها وسر خلودها .

وفي هذه الفترة من التاريخ كانت أوروبا تتطلع الى الامبراطورية العربية كما نتطلع نحن اليوم الى أوروبا والولايات المتحدة . فقد كانت تلك الامبراطورية حينئذٍ هي مركز الصناعة والتجارة والعلوم والفنون والآداب ، كانت هي المسيطرة على الطرق البرية والبحرية المعروفة ، حتى أصبح أي شخص في أوروبا تلك الأيام لا يستطيع أن ينقل في البحر الأبيض المتوسط ولو لوح خشب إلا بإذن من العرب كما قال أحد الأوروبيين المعاصرين . وإذا أرادت أوروبا أن تحصل على أي نوع من المصنوعات ، فقد كان عليها أن تبتاعه من البلاد العربية .

وقد دامت سيطرة العرب الكاملة على العالم القديم المعروف آنذاك مئات السنين . ورغم الحركات الانفصالية التي اجتاحت بلادهم فقد ظلوا طوال قرون سادة العالم وقادة الفكر فيه . فهم رواد العلم الحديث بكل معنى الكلمة ، وهم طلائع حركة النهضة في أوروبا والعالم ، لأنهم هم الذين علموا أوروبا الأرقام التي لا تزال تحمل إسمهم . أجل ، لقد كانوا قادة العالم في الطب والكيمياء والنبات والطبيعة والرياضة والفلك . وهم الذين نقلوا صناعة الورق الى أوروبا من طريق صقلية والأندلس ، وقاسوا محيط الأرض قبل قياس العلماء الأوروبيين له بقرون. وكان لبعض علمائهم إحساس غامض بحركة الأرض ودورانها حول الشمس . ولم تتوقف الحركة العلمية العربية ، حتى في عصور الإنحطاط . فالعلم العربي لم يخضع دائماً لتطور الإسلام السياسي

والإجتماعي ، بل كثيراً ما كان يزدهر عند انحطاط الدول والمجتمعات . وقد لوحظ ذلك في آسيا الاسلامية والأندلس ومصر . وهذا التطور الخاص لم يُدرس دراسة كافية ، لا في حد ذاته ولا في علاقته مع القطاعات الأخرى . ومن المحتمل أن تعين دراسته على حل كثير من ألغاز التاريخ الاسلامي عامة وتاريخ الحياة العقلية فيه خاصة، ولم يتخلَّ العرب عن دورهم العلمي إلاَّ في القرون الأخيرة . كما ان مقاليد العالم لم تفلت من أيديهم إلاَّ منذ حوالي ستة قرون تقريباً . ومع ذلك فإننا نشهد اليوم بوادر جديدة من الوعي واليقظة أخذت تدب في أوصال الأمة العربية منذ أواخر القرن الماضي. ولكنها بوادر مشكوك فيها.

إن القسم الأكبر من الأوروبيين اليوم لم يسمعوا بإنجازات العرب في القرون الوسطى الاسلامية ومآثرهم العظيمة في تاريخ العلم والحضارة . فالذين يهتمون بهذه المسائل إنما هم حفنة من العلماء المختصين الذين نجد طائفة منهم يكتمون الحق وهم يعلمون . إنهم ينظرون الى العرب شزراً ويظنون بهم ظن السَّوء ، عليهم دائرة السَّوء . قد بدت البغضاء من أفواههم وما تُخفي صدورهم أكبر . لقد أعماهم التعصب والاستكبار عن إنصاف العرب وقادهم إلى إنكار انجازاتهم العلمية . إنهم ينظرون اليهم نظرة المستعمر المحتل إلى شعوب العالم الثالث التي أنهكها الإستعمار وامتص دماءها ونهب خيراتها ثم تركها تذوي وتسقط من الإعياء .

لكن هناك فريقاً آخر من المختصين الغربيين يجاهدون بإخلاص وصدق للتعريف بخدمات العرب العلمية والاذاعة بها على الملأ. لكن جهادهم هذا أشبه بالسباحة في إتجاه معاكس لاتجاه التيار . فقد فرضت أوروبا نوعاً من الرقابة على تاريخ العرب في أوروبا هو أبشع ما عرف من أنواع الرقابة ، فإنها عندما تكتب التاريخ لأبنائها تحذف عمداً تلك الصفحات المجيدة المشرقة منه ، الصفحات التي تبين فضل العرب على الفكر الأوروبي والخدمات التي أسدوها اليه . إنها قلما تعترف بأن العرب هم الذين قد أيقظوا أوروبا من سباتها وردوها إلى وعيها، وأسبغوا عليها نِعَماً وبركات إذا كانت لا تريد أن تقابلها بالشكر والعرفان ، فقد كان ينبغي عليها على الأقل ألا تذكرها بالكفر

والجحود . ولكنه اللؤم من شيم النفوس المريضة .

إن الحملة المسعورة على الفكر العربي في أوروبا وفي بعض أقطار المشرق قد انضم إليها اليوم مخلوق دنيء آخر ناكر للجميل . إنه اليهودي الذي هرب من الاضطهاد الديني اللاتيني ليجد المأوى والأمن والحمى في الأندلس ودول المغرب العربي . العدوان اللدودان بالأمس ، الأوروبي واليهودي كلاهما اليوم ينفخ في نار الحقد ويشتعل قلبه بالضغينة على الشعب الذي أسدى اليه كل معروف .

إن التيار الشعوبي الجديد الذي تقوده الإمبريالية والصهيونية العالمية اليوم ليس سوى استمرار للتيار القديم ، يغذيه شعور الفرد الأوروبي بالصلف والتعالي وجراثيم الكبرياء التي تلقاها منذ الطفولة الأولى في البيت والمدرسة والمجتمع ، وهناك تكوَّن تصوره للعالم وللإنسانية . حتى لقد أصبح يعتقد بصلف كبير أن العالم مقصور على أوروبا وحدها ، وأن التاريخ الأوروبي هو التاريخ العالمي ، وأن التاريخ والحضارة إنما يبتدئان من أثينا ويمران بروما ، ثم يختفيان فجأة من الوجود لمدة ألف عام ، ثم يظهران من جديد في إيطاليا وباريس في عصر النهضة . أما قبل أثينا فلا شيء يستحق أن يذكره هذا الفرد ، كذلك لا شيء بعد أثينا. إنه لا يرى بين أرسطو وديكارت إلا فراغاً في فراغ، وعماء في عماء . . !!

هذا العماء بَلْوَره العرب وأعطوه شخصيته الواعية المستقلة وهويته الواضحة المحدودة. لقد شذَّبوه وصقلوه وقدُّوه على قدِّهم هُم وبحسب تقاليد دينهم ومزاج عصرهم ، ووفقاً لمطالبهم العقلية وحاجات مجتمعهم وبيئتهم . لقد صاغوه تبعاً للأوضاع التاريخية والحضارية المتجددة التي ظلوا يتقلبون فيها آناً بعد آن والتي كانت تمليها تعاريف الزمان والمكان .

وذاك الفراغ ملأوه بالخصب والخضرة والرُواء . لقد ملأوه بذوب عقولهم ووقد أذهانهم ، ونُسَغ مُهجهم ووجداناتهم . لقد ملأوه بالمنجزات العلمية والأحداث التاريخية والمواقف الحضارية وروائع الفن ونفثات الفكر والروح .

لقد ملأوه بكل هذا وبأكثر من هذا . فلم يكن عطاء العرب محصوراً في الشعر وصناعة الألفاظ والتصرف في وجوه البيان. ليس صحيحاً أن صناعة

الأدب كانت أهم عندهم من صناعة الأشياء ، وأن الإحاطة بأسرار البيان أهم من العلم بأسرار الكون والحياة والإنسان لقد انتشرت هذه الأسطورة بيننا ـ اسطوره غلبة التراث الأدبي على التراث العلمي عند أجدادنا العرب ـ وراجت حتى رسخت في أذهان الكثيرين منا ، ونسينا أن لنا تراثاً علمياً يضاهي تراثنا الأدبي بل يفوقه ويزيد عليه. والحق ان التراث العلمي لا الأدبي هو الذي يتجلى فيه وجه العبقرية العربية الصحيح ، وهو الذي جعل من العرب سدنة العلم والفكر والحضارة في عصور الظلام الأوروبي .

ولا يسع المتأمل للحياة العربية في مختلف عصورها إلا أن يُعجب بالمنجزات التي حققها العرب في كل ميدان ، ويعتز بما كانت عليه الحياة العربية الإسلامية ، من غنى بالمثل العقلية والقيم الروحية . فقد كانت هذه الحياة في عصورها الذهبية ـ بل حتى في صميم بعض عصور الإنحطاط أيضاً ـ حياة غنية أصيلة منفتحة على العالم ، تأخذ من كل مكان ، وتعطي لكل قوم ، فتُغني وتغتني ، وتصوغ لنفسها تراثاً ضخماً من العلم والأدب والفلسفة والفن وشتى طرائق الفكر ومذاهبه . لقد كنا في غفلة من هذا حتى قُيض لنا من أرشدنا اليه . ولولا أن المستشرقين هم الذين كشفوا لنا ذخائره ودلّونا على مظانه للبثنا في جهلنا الى يومٍ يبعثون . فقد عنينا حتى عهد قريب ـ مأخوذين بالأسطورة السالفة نعُضّ عليها بالتواجد ـ بالتنقيب عن تراث العرب الأدبي وإخراجه للناس في طبعات تتفاوت في دقتها وضبطها . فلم نكد نترك ديواناً ولا معجماً ولا مجموعة من المجاميع الأدبية إلا بعثناه من مرقده وتباشرنا بالنبأ العظيم والحدث الكبير . ثم عمدنا الى هذا الديوان أو المعجم أو . . . فنفضنا عنه الغبار وبدّلنا الأوراق الصفراء أوراقاً بيضاء ، وخلعنا عليها زياً عصرياً يظهر في الطباعة الجيدة الأنيقة والحلة القشيبة وتحقيق النّص وفهرسة المضمون ، الى غير ذلك من الوسائل التي يراد بها تقريب الكتاب إلى طلابه ، ودراسته دراسة علمية رصينة . لقد وقعنا على درة مكنونة ، ولؤلؤة لا تقدّر بثمن ادخرتها الأجيال لنا من دون سائر العالمين ! بخٍ بخٍ للكشف العظيم بعد السهر الطويل ! فلتُزف البُشرى ولتُشنَّف الآذان . فهللي يا إنسانية وكبِّري !! إنك منذ الآن بألف خير . وهكذا اكتظت المكتبة العربية بكتب البيان والتبيان وامتلأت

رفوفها بفنون المنظوم والمنثور ، ووجوه البلاغة واسـرار الفصاحـة في المكتوب والمأثور . وهكذا أهملنا ـ أو كدنا ـ تراثنا العلمي إهمالاً معيباً ، فلم نعمـد الى نشـره ولم نحقق نصوصـه ، ولم نيسره بـالفهارس ، ولم نـدعمه بـالملاحـظات والتعليقات كشأننا في شقيقه التراث الأدبي . ومن هنا أصبح من الصعب العثور على كتاب أو مقال في تاريخ الطب أو الرياضة ، وما إليهما لمؤلف عربي أصيل غير منقول عن اللغات الأجنبية . مع أن تراثنا العلمي هو الـذي يعبر عن وجـه العبقرية العربية الحق ، وهو الذي جعل من العرب رواداً للفكر الحديث وطلائع للحركة العقلية التي اجتاحت أوروبا في عصر النهضة .

ولعل من أهم الأحداث الفكرية التي نشهدها في هذا الصدد في تاريخنا المعاصر ، والتي تبشر بالخير العميم وتبعث في النفس الأمل المشـرق ، ذلك التبدل في المواقف والاهتمامات . فقـد بدأت والحمـدلله تنحسر مـوجة التعلق بالجانب الأدبي واللغوي من تراثنا لتفسح في المجال لموجة تدبر جانبه العلمي وتدارسه بعد انقطاع صلتنا به منـذ قرون . فبينمـا شهد القـرن الماضي وبضعـة عقود من هذا القرن قيام نهضـة فكريـة نشطة تعمـل على إحياء التـراث اللغوي والأدبي من تـاريخنا ، اتسمت النهضـة الفكريـة الجديـدة بطابـع عقلي واضـح يسعى سعياً حثيثاً إلى إحياء تراثنا العلمي والفلسفي وتجديده واستكشاف أبعـاده والتنقيب عن نواحي الأصالة فيه . ومن هنا يمكن القول إن إحياء التراث الأدبي واللغوي كان إرهاصاً بإحياء التراث العقلي ، لقد كان الإطار الشكلي الذي عبَّر أبناء جيلنا والجيل السابق من خلاله عن أهم شجونهم الروحيـة والنفسية تـوطئة للتعبير عن المثل العقليـة والتطلعـات العلمية . لـذا كان من الـطبيعي أن تمهد النهضة الأدبية للنهضـة الفكريـة وأن يعمد العـرب إلى معالجـة واقعهم معالجـة علمية رصينة غير مُجنَّحة بالأخيلة والتهاويل والمشاعر الفياضة .

إن في دراسـة هذا التـراث ما ينبهنـا على حقيقة تـاريخية ثـابتة ، هي أن العـرب أمة عالمـة أكثـر منهم أمة شـاعـرة ، وان إنتـاجهم العقلي يفـوق كثيـراً إنتـاجهم الأدبي . ولعل هـذه الظاهـرة أن تسـاعـدنـا على تحسس أنفسنـا وشق طريقنا إلى المستقبل ، فنعود أمة علمية كما كنا بالأمس ، ونُسهم في بناء العالم الجديد إسهاماً جديراً بأن نكون أحفاد الخوارزمي والرازي والطوسي وابن الهيثم

وابن يونس المصري وابن رشد وابن خلدون وغيرهم من أساطين علماء العرب الأعلام وفلاسفتهم الذين ملأت أسماؤهم الأسماع وطبقت شهرتهم الآفاق . تُرى هل يتحقق ذلك أم هي الأماني نتمناها ثم ننام على أنغامها بين الأطياف والألوان تدغدغنا الأخلام السعيدة ؟؟!! إن النهضة العربية الحديثة ـ وما يُسمى كذلك ـ قد سبقت النهضة اليابانية ، ومع ذلك فلا نزال نتعثر في أول الطريق بينما اليابانيون قطعوا الطريق وفي مقدورهم أن ينضموا الى القافلة التي بدأت تغزو السماء ! بل لقد سبقتنا الصين ، وهي التي بدأت نهضتها بالأمس القريب ! لو كان ديكاً لصاح ، ولو كانت دجاجة لباضت . الدنيا تتزلزل من حولنا ، ونحن لا نزال نغطّ في نومنا . آن للنهضة أن تكون ، ولكنها ليست نهضة . آن للحامل أن تضع ، ولكنها ليست حاملاً ، إنه انتفاخ في البطن يحسبه الجاهل حملاً وهو مرض يتطلب العلاج السريع . وأرجو أن يكون تشاؤمي في غير موضعه .

*

فإننا على الرغم من أرجلنا الرشيقة في الرقص وسياراتنا الفاخرة التي تسابق الريح ، وبترولنا الذي يملأ العالم ويتدفق في خزّاناته[1]، ما نزال على هامش الحضارة . يُفكَّر لنا ولا نُفكر لأنفسنا في مصيرنا في غيابنا دون أن يكون لنا رأي أو مبادرة ... . إن المشكلة ليست في استيراد الرفاهية وتكديس السلع الاستهلاكية ولا هي في نمو إقتصادي بعيد عن دور الإنسان وفاعليته . فهذه دول النفط تكتظ بمنتجات الحضارة العربية أكثر منها في بلادها الأصلية ، بينما الإنسان النفطي من دول العالم الثالث منعزل عن كل دور يكفل لهذا الازدهار دوامه . حسبه أنه زبون مقلد لحضارة غريبة عنه تفتح أبواب متاجرها دون أبواب معاهدها ومختبراتها .

لقد كان أجدادنا بُناة حضارة أصيلة متجددة نكتفي نحن اليوم بالتغني بها وإحياء تراثها ونعيش على أمجادها . لقد صنعوا حضارة ، بينما نحن مقلدون للحضارة ، نقتات بفُتات أصحابها ثم نندبهم قائلين : « أين كانوا يوم كنا ؟ » . لقد كانوا في الحضيض وفي بحر الظلمات وكنا في القمم وفي مراتع

(1) بينما خزاناتنا مفرغة منه باستثناء ما يكفي لقيادة السيارات وسائر الأشياء الكمالية التافهة !

النور . ولكن هذا لا يعيبهم بقدر ما يعيبنا نحن . لقد تخلينا عن مواقعنا فكانوا السباقين إليها . كما ان حياة في الحضيض ليست علامة تخلف إذا كانت مرحلة من مراحل الطريق . فهات الأمة التي إنما خُلقت في الذرى والقمم أو تحدرت من سبط النجوم . فما من أمة نهضت إلا كانت في الحضيض في يوم من الأيام . لكن بعضها يبقى في الحضيض الدهر كله وبعضها يرقى القمم، بعضها يستمرىء حياة الذل والمسكنة ، وبعضها يأبى الضيم ويتمرد ليخرج من الظلمات الى النور

إن الفرق بيننا وبين أجدادنا أنهم وجدوا علماً فأقبلوا على نقله ، ثم زادوه وقوداً من عقولهم وأذابوه في بوتقة علمهم وعبقريتهم ، ورفدوا الإنسانية بأبحاثهم وابتكاراتهم . أما نحن فنجد علوماً تسير معنا وتسبقنا دون أن نتمكن من اللحاق بها . لقد خارت عزائمنا وقعدت بنا الهمم ، فركنّا الى الخرافة والجهالة والهوى . وهذا شأن الكثيرين منا ممن يجبنون عن مواجهة الحاضر ، فلا يجدون للتعبير عن قدراتهم ـ إذا كان لهم حقاً بعض القدرات ـ إلا النكوص الى الماضي والتغني بأمجاده .

إن العرب في عالم اليوم يعكسون في حياتهم العادية ، مظاهر حضارة غير تقنية بينها وبين العصر ما بين المشرق والمغرب ، بينما هم يعيشون في عالم أهم مقومات حضارته تقنية . ولهذا فإن إمكانية حدوث أي تقدم علمي أو تطور اقتصادي حقيقي رهن بإمكانية حدوث تطور حضاري شامل في الحياة العربية يعيد تفسير مقومات الحضارة العربية وتقويمها على أسس جديدة ، تأخذ حقائق العصر بالحسبان ، وتساهم في بلورة قيم حضارية جديدة فيها من الانضباط والمسؤولية والتفتح الخلاق ما في قيمنا الحالية من انغلاق وجمود وفوضى ، فلا يصلح آخر هذه الأمة إلاّ بما صلح به أولها . بالفكر سادت ، وبالفكر نحن نسود . لذا كان من الضروري الاطلاع على الثروات الفكرية المتجددة ونقلها الى لغتنا . وبذلك وحده نكون أحفاد أولئك الأجداد ونكون خير خلفٍ لخير سلف . ولكن هل نفعل ؟

أجل ، إن أمجاد الماضي قد أعمت أبصارنا وبصائرنا ، فلنتحول الى موقع أكثر علمية وإيجابية وانفتاحاً ، موقع نتحمل فيه مسؤولية الرؤية الشاملة

لمواضع الخطأ والصواب ، والنقد البصير للحدود الدقيقة الفاصلة بين الأسود والأبيض ، والالتقاء الواعي لكل ما من شأنه أن يشعل الأضواء في طريقنا الى المستقبل ، ويقدح شرارة الإيمان بالذات والثقة بالنفس ، لكي ننتقل من حالة المياه الراكدة الى حالة الموج المتلاطم التي لا تدع الزمن والتراث وسائر المقومات الحضارية تفلت من بين أيدينا .

ومعنى هذا أن المجد الغابر سلاح ذو حدين : من نام عليه قتله ، ومن شحذه وصقله واستعمله في وجوهه كان له في الملمات قوة ، وفي الخطوب منعة ، وفي الذل عزاً وكرامة ، وفي الهموم فرحاً وملاذاً ، فكفانا نوماً على المآثر والأمجاد . حيَّ على العمل ! ولنبادر الى خلق الانسان الحضاري ، فإنه الدرع الواقي والضمانة الأكيدة .

لا ينقصنا التاريخ ، فنحن من أعرق شعوب العالم تاريخاً . وكذلك لا تنقصنا الجغرافيا فمنطقتنا من أغنى بقاع العالم وأحسنها موقعاً . ولكن هذه الصفات لا تكفي لتحقيق التطور المطلوب بل يمكن القول إنهما وبال علينا فعراقة الأصل عبء علينا، وكذلك الجغرافيا. إن طبيعة سخية معطاء (زراعياً ونفطياً) وبال على من لا يحسن رعايتها . إنها مانعة له من النمو والتطور إذا لم يعمد الى استغلالها ويجعل نموه وتطوره ضرورة تاريخية خلاقة . إنها سلاح ذو حدين قد يقتل صاحبه قبل أن يقتل عدوه، وذلك تبعاً لليد التي تمسك به. إن العالم الثالث بعامة ، والعالم العربي بخاصة يملك مساحات هائلة من التربة الخصبة والثروة السميكة ، وتقع في أراضيه كنوز العالم البترولية والمعدنية . وهذا السلاح بدلاً من أن يقتل الاستعمار والصهيونية والإمبريالية العالمية فقد ارتد علينا ليظل مُصْلتاً فوق أعناقنا ، حتى لقد أصبح مصدراً من مصادر بلائنا . ليست الخصوبة الحقيقية هي صفة للأرض ، بقدر ما هي صفة للإنسان الذي يستغل هذه الأرض ويسخرها لأغراضه وغاياته. بل إن الصخور والجزر والبراكين قد تكون أكثر حفزاً على التطور والإبداع عندما يوجد الفكر الذي يعرف كيف يشق طريقه فيها . وما مثل الجزر اليابانية ببعيد . ليس البترول ثروة للبلاد العربية ، إنه ثروة أوروبية واميركية تفيد من اليد العاملة العربية الرخيصة لاستخراجه من الأرض العربية . إنه قيد في أعناقنا بدلاً من أن يكون عاملاً

على انعتاقنا وتحررنا. إنـه عقبة في طـريق تقدمنـا بقدر مـا هو أداة طيعـة في يد أعدائنا . أرأيت مأساة أكبر من مأساتنا : مأساة صاحب الأرض يؤجر نفسه وأهله وعشيرته وبلده وقومه لمن يُنكـل به ويسـومُه العـذاب والحرمـان ؟ ففي التاريـخ مهازل تجعل الشبان شيباً !

نحن في حاجة الى بناء الإنسان قبـل أي شيء آخر. يجب أن نفـرق بين تكديس المنتجات الحضارية وتكوين الوظيفة الحضارية في مجتمعنا . فـالتفكير في مشكلة الحضـارة هو في نهـاية المـطاف تفكير في مشكلة الإنســان . يجب تصحيح نظرتنا الى الإنسان والأشياء، والانطلاق من حيث انطلق غيرنا. ولنعلم أن لا شيء يبقى إلا الكائن القادر على تحدي الانقراض ومواصلة التطور . كل شيء يزول إلا قيمة الانسان. يجب أن نفيد من الماضي دون أن نُسجن فيه. فلا شيء أكثر إيذاءً من المـاضي لمن كان له عبـداً ، ولا شيء أشد نفعـاً منه لمن كان له سيداً ، فلنمسك بتاريخنا من غير أن يغل أقـدامنا ويشـدنا الى الـوراء . فـالتاريـخ وحده ليس مبـرراً للبقاء ، والأمجـاد لا تـطعم خبـزاً ، وإلَّا كنـا كمن يطحن الهواء ليقتات به !

لا بد من إعادة النظر في الإنسان العربي وخلقه من جديد، ليجيء معافى الجسم والفكـر ويكون ابن عصـره ، يستهلك وينتج ، ويقلـد ويبـدع ، ويسعى إلى خيره وخير الإنسانية ، معتمداً على نفسه ، لا يتوقع ـ ولا يريد ـ أن تُحمـل اليه سعادته على طبق من ذهب وهو يتثـاءب ويتمطّى ويغـوص في مقعده الـوثير بل يعزم على أن يعجن صلصالها بكفيه ويبلله بعرقـه ودموعـه ، ويصنعه بكيـانه كله ، مستعذباً في سبيلها الجهد والحرج والقرح والعذاب .

*

قلنا إن رسالة العرب في تاريخ العلم والحضارة لـم تقف عند حد ترجمـة كتب اليونان . لقد نقلوا تلك الكتب الى لغتهم وشرحـوها وعلقـوا عليها بحيث أمكن لأوروبـا فيما بعـد فهمها وهضمهـا . إلا أنهم لم يقتصروا على ذلـك كما أسلفنـا . فقد أنقذوا ببعثاتهم طـائفة كبيـرة من كنـوز الحضـارة اليـونـانيـة التي أوشكت على التلف والبلى والفنـاء ، فرممـوها وأصلحــوا فـاسـدهـا وحققـوا نصـوصها . وكم من أثـر يونـاني قيم فقد نصـه الأصلي وحفظتـه لنا التـرجمات

العربية ، أو الترجمات اللاتينية والعبرية المنقولة عن العربية . بل إنهم علاوة على ذلك رقّوا العلوم التي اقتبسوها من هذه المخطوطات وطوروها ، وأوجدوا طرقاً جديدة لفهم الطبيعة والعالم والإنسان لم تخطر لأساتذتهم اليونان على بال كما سنرى بعد قليل ، فأسدوا بذلك خدمات جليلة الى العقل البشري ، والتراث العلمي والحضارة الإنسانية .

إن النَّقَلة الذين يعزو إليهم السطحيون والمغرضون يقظة الفكر العربي إنما كانوا مجرد أدوات مسخرة لأغراض سادتهم الذين استقدموهم من أقصى الأرض واغروهم بالجاه والمال والسلطان ، وتسابقوا في اقتنائهم والتجمل بهم وانفذوا البعوث والسفارات للبحث عن الكتب في الأقبية والزوايا في المكتبات العامة والخاصة ، وعقدوا المعاهدات لحيازتها ، وجعلوا الحصول عليها شرطاً لوقف القتال وجزءاً من غنائم الحرب . إنها العوامل الذاتية ، والقوى الذاتية هي التي كانت وراء حركة النقل الضخمة في الاسلام ، وهي التي جعلت من النقلة مجرد أدوات مسخرة للعمل ووسائل للتعبير عن الذات العربية الطالعة ، الذات الواعية الحرة المستقلة التي تتدفق بالقوة والنشاط وتجيش بالإمكانات الفياضة والطاقات المتجددة ، والتي تريد ان تحقق وتفرض نفسها وتصنع تاريخها بالعرق والدم والأعصاب ، فتركب كل صعب ، وتذلل كل عقبة ، وتقضي على كل عائق ، وتنطلق كالسيل لا يقف في وجهه شيء . إنها ذات متوقدة متوهجة ، تتفجر بالطاقة والإشعاع . بل هي حياة متجددة وسَوْرة متوثبة تتدفق من بحر مُزْبد ، وابدٍ لا يُحد ، وموج لا يكاد يقبل حتى يرتد . . .

لقد وجدت هذه الذات غذاءها الدسم المتنوع في آثار الأمم الأخرى العريقة في العلم والحضارة ، فأقبلت عليها تلتهمها التهاماً . وبعد مرور قرنين أو يزيد من المواجهة الحضارية والاختلاط الثقافي بلغ المجتمع الجديد غاية تعقده دون أن يتشرذم فكرياً أو يتشتت حضارياً . لقد تمالك على نفسه ، وظل محافظاً على وحدته الفكرية رغم تصدع وحدته السياسية ، ولم يتوقف يوماً عن العطاء . بل إنه في صميم المرحلة التي يُطلق عليها عادة اسم (مرحلة الأخذ والتمثيل) وهي مرحلة التلمذة التي تمتد حتى أواسط القرن الثالث للهجرة

(التاسع للميلاد) تقريباً تمكن العرب من تأسيس عدة علوم كـالعروض والنحـو وعلم أصـول الفقـه وعلم الكـلام وعلم الجبـر والكيميـاء والـطب والمـوسيقى والفلك . . . كمـا اهتموا في هـذه المـرحلة أيضـاً بـإجـراء قيـاس دقيق لمحيط الأرض على غيـر طريقة إيراتـوستانس التي كـانت مأخـوذة عن البـابليين والتي كانت درجة صوابها مرهونـة بالصـدفة ، وكتبـوا في جغرافيـة الأرض ، وامتحنوا النتائج التي وصلت إليهم من اليونان . وفي هـذه المرحلة أيضـاً استيقن العرب ان حسـابات بـطلميـوس وأرصـاده مغلوطـة وان من الـواجب إعـادة النـظر فيهـا واستدراك ما فيها من نقص . كذلك تمكنوا في هـذا الوقت من قيـاس اختلاف أوجه القمر . . .

*

وعـدت الحواضـر العربيـة ـ بغـداد والكـوفـة والبصـرة ودمشق والقـاهـرة والقيروان وقرطبة ـ مراكز قيادة ومصادر إشعاع للعلم والعرفان . ولا يذكر التاريخ قط أمـة اهتمت بـالعلم وشجعتـه وأسـرفت في سبيله كـالعـرب في عصـورهم الزاهرة ، حتى لقد كانت الحركات العلميـة جزءاً من حيـاتنا لا ينفصـل عنهـا . فقد احتل العلماء العرب درجات سامقة لدى الخلفاء والأمراء والحكام الذين لم يبخلوا على العلم . وكانت أعظم هـوايات الأمـراء والأثريـاء اقتناء رجـال العلم وضمهم الى حـاشيتهم . وكـان ميـدان التفـاخـر بينهم جمـع المخـطوطـات والحصـول على نفائسهـا . والمـأثـور عن خلفـائهم وعلمـائهم إرسـال البعـوث والسفارات إلى ملوك الروم وعقد المعاهدات معهم وإتحافهم بالهدايـا الثمينة لا لـلأغراض العسكـرية ، بـل لإمـدادهم بمـا كـان في حـوزتهم من كنـوز العلم والفلسفة .

ولم يكن هذا الوعي مقصوراً على طبقة الحكـام وحدهم ، بـل لقد كـان يشمل أيضاً طبقـة المحكومين . فبينما كان شـارلمان ـ أعـظم أباطرة الغرب في العصور الوسطى كلها ـ لا يكاد يحسن توقيـع إسمه ، كـان المجتمع العـربي لا يـطمئن الى حـاكم أو عـامـل أو والٍ دون أن يكـون على حظ وافـر من العلم والأدب والتاريخ والطب والحكمة وأحوال الدنيا ، يجالس رجال الفكر ويبادلهم

الحديث ويطارحهم الشعر . ذلك بأن الأدب ـ بمعناه الواسع ـ كان شرطاً من شروط الظهور والرياسة في ذلك المجتمع المثقف الرفيع .

وغني عن البيان أن مآثر العرب في تاريخ العلم والحضارة لم تقتصر على ما أضافوه من الابتكارات العلمية والاجتهادات العقلية التي سنرى بعض باقاتها العطرة الفواحة ، حتى لقد فاقوا بها سائر الأمم والشعوب التي هي أرسخ منهم قدماً وأعمق جذوراً ، فأثروا فيها وتأثروا بها ، وأخذوا منها وأعطوها ، في عملية فذة رائدة من التبادل الفكري والتلاقح الحضاري ، بل إنهم فضلاً عن ذلك حفظوا لنا ـ خلال الفترة الطويلة التي اتسمت باحتضار الفكر اليوناني وانحلال ثقافة الفرس والهنود ـ كنوز الحكمة القديمة وأصدق تقاليدها واعظم نفائسها وأسمى غاياتها ومداركها . ذلك أن الفرس والروم والهنود كانوا إذْ ذاك قد ترددوا في سبات عميق وأصبحوا عاجزين عن الابتكار والسير وحدهم في طريق التقدم . ولكن اتصالهم بالعرب هزَّ كيانهم وحرَّك كوامن نفوسهم ، وأيقظ فيهم حياة عقلية جديدة كانت لها يوماً ما نواة صالحة في طوايا وجدانهم . أجل إن العرب هم الذين أثاروا في تلك الأمم من جديد الشوق الى المعرفة ، وأتاحوا لها فرصاً ذهبية لإرضاء هذا الشوق المتجدد وإشباعه والوصول به الى غاية مداه . ومن ثم وجدت جميع فروع المعرفة أرضاً خصبة لها في أرجاء الدولة الناشئة . وكلما زادت هذه الدولة اتساعاً نشطت العلوم والمعارف ووجدت أجواء صالحة لازدهارها وارتفاع شأنها . .

ومما ساعد على ذلك كثيراً وحدة اللغة . فاللغة العربية التي كانت أداة التعبير لحفنة من الناس يعيشون في أرض قفرٍ ووادٍ غير ذي زرع ، قد أصبحت لغة الملايين في فترة قصيرة جداً ليست شيئاً مذكوراً في حساب التاريخ . ولم تقتصر العربية على أن تكون لغة الثقافة الدينية ، بل لقد شملت أيضاً جميع أنواع الثقافة الأخرى ، وانتقلت بسرعة خاطفة من لغة السيف والنخل والكلأ والبعير الى لغة العلم والفلسفة والحضارة. وبمضي الزمن تكوَّن ذلك الإنتاج الضخم في ميادين الفكر والعلوم الإسلامية واللغة والأدب والفلسفة والتاريخ والجغرافيا والسياسة والإجتماع . . . واشترك في تكوينه العرب الأقحاح وأبناء البلاد التي دانت بالإسلام أو رفضته والتي غدت جزءاً من الأمة العربية

الإسلامية ، حتى ولو لم يكونوا عرباً في أنسابهم ولغاتهم ، ولو لم يكونوا مسلمين في دينهم ومعتقداتهم . فالعروبة ليست هي عروبة الدم والعنصر ، وإنما هي عروبة البيئة والمجتمع والمناخ الفكري والحضاري الذي كان ينتمي إليه العلماء والفلاسفة والمفكرون العرب في عصور ازدهار الإسلام وحضارة الإسلام . بل إننا لنذهب الى أكثر من ذلك فنؤكد أن العلماء والفلاسفة والمفكرين الذين لم يكونوا عرباً في أنسابهم ولغاتهم الأصلية ، بل تعرَّبوا بعد ذلك لعوامل متعددة أهمها : اعتناقهم دين العرب ، بل حتى أولئك الذين رفضوا دين العرب وظلوا على أديانهم القديمة من نصارى ويهود ووثنيين - إن جميع هؤلاء في نظرنا يندرجون في عداد مفكري العرب والمسلمين رغم عدائهم للعرب (كالشعوبيين مثلاً) وهجومهم على الإسلام (كالزنادقة والملحدين وبعض النصارى واليهود وغيرهم). لقد اتسع صدر العروبة والإسلام لهؤلاء جميعاً ، وأتاح لهم الجو والمناخ ليفكروا كما يشاؤون بحرية وسماحة ، كما أهاب بغيرهم أن يردوا عليهم ويناقشوهم ويقارعوهم الحجة بالحجة. لقد كان هؤلاء جميعاً - شاءوا أم أبوا - عرباً باللغة والتعبير والفكر والإحساس وأسلوب الحياة ، كما كانوا جميعاً - شاءوا أم أبوا - مسلمين بالثقافة والحضارة ، فكانوا يعيشون جنباً الى جنب مع إخوانهم المسلمين ويأخذون بنصيب وافر في شؤون الحكم والسلطان . ولا غرو في ذلك ، فقد كان الإسلام طوال عصور الازدهار والمَنَعة هو القيمة الإنسانية الحضارية الوحيدة التي كانت نموذجاً حياً للتعايش والتكامل بين الديانات ، ومثالاً رائعاً للتسامح بين الطوائف والمذاهب والملل والنحل ، والمرتع الخصب للعقل والروح والخيال . نعم ، لقد اتسعت الحضارة العربية الإسلامية لكل هؤلاء جميعاً ، وإليها وحدها يدينون ، لا الى انسابهم أو معتقداتهم . فقد كانت هذه الحضارة هي مركز الاشعاع الوحيد الذي كشف مواهبهم وفجر طاقاتهم وأذكى فيهم روح المعارضة والصراع والتحدي[1]. فبهذا التوحيد اللغوي والتسامح الديني والمجد السياسي والتفاعل

---

(1) بحثنا هذه المسألة بحثاً يسيراً في كتابنا من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية ص 360-371 ومن أراد مزيداً من التفصيل فإننا نحيله على كتابنا أصالة الفكر العربي الفصل الأول .

الحضـاري بين الأمم والشعـوب التي اعتنقت الإسـلام أو نشـأت في ظله ، وتنفست في أجوائه ، واستمتعت بالفرص والإمكانات الغنية الخصبة التي أتاحها لرعاياه من جميع الأديـان والأجناس والمـذاهب والعقـائـد ، أقـول بهـذا كله تكشفت مـواهب وتفتحت مـدارك وتفتقت قـرائـح ونشـطت عقـول وأذهـان لا يحصيها عد ولا يحصرها حساب ، وتفوق كل خيال مجنَّح وثاب !

أوَ تعجبـون بعد كـل هذا أن تفتَّحت الأزهـار ، وانتشر العبيـر ، وسطعت النجوم ، وانطلقت مسيرة التاريخ على أيدي من كـانوا في يـوم من الأيام حُفـاةً عراة عُزْلاً لا يقـدرون على شيء مما كسبـوا ، فتشبت فيهم الأفكار لتنقلهم من رعي الإبل وتأبير النخْل الى قيادة التاريـخ وسدانـة الحضارة ، ولتستخلفهم في الأرض وتجعلهم الوارثين !

فلئن كانوا تلاميذ لليونان وغير اليونان ، إلا أنهم كانوا تلاميـذ نوابـغ بررة يعتزُّ بهم أساتذتهم ، لما يعتزون هم بأسـاتذتهم ويُقـرون بفضلهم عليهم . وقد اجتمـع لهم عامـلان إثنان لا بُـدَّ منهما ليصنعـوا حضـارتهم بـأيـديهم ويـدخلوا التـاريخ من أوسع أبوابه ! الأول هو الانتفـاضة بمـا فجَّرت من طـاقات وحملت من أفكار ، وأيقظت من حوافز وأحاسيس ، والتي انطلقت كـالصاعقـة من بطن مكة تطيح بالعروش والطواغيت . والعامل الثاني هو المـدد الخارجي الـذي لم يدخر العرب وسعاً للحج إليه والحصول عليه حيثمـا وجدوه ومهمـا تطلَّب منهم من تضحيات ، عملاً بالقول المأثور : « الحكمة ضالـة المؤمن ، أينما وجـدها التقطها » فذلك هو السبيل الوحيد لتغـذية الانتفـاضة وامـدادها بـالقوة والحـركة والإبقاء عليها حية طرية ندية . فنشطت العقول ، وتفتقت االقرائح ، وتمخضت الأذهان عما لم يكن بالحسبان .

ولا غرو في ذلك ، فقد كان بين أيدي المسلمين والعرب مادة دينية غزيرة قابلة للتحويل الى مادة ميتافيزيقية يرفدها تراث عقلي ضخم أتوا مصـادره رجالاً وعلى كل ضامر ، وقدموا للظفر بـه من كل فـج عميق ، وتحملوا في سبيله كل عنت ورهق وأرق . فتمثلوه على وجـه خـاص يَتبــع من قيمهم الـدينيــة والروحية ، ومثلهم العربية ، واستخدموه في إنشاء وجهة نظرهـم في الله والكون والحياة والمصير ، حتى لقد اندمج في نسيج تفكيرهم ، واكتمل بحسب أصول

عـاداتهم ونُظم معيشتهم وحـاجات بيئتهم الاجتمـاعية والعقليـة ، وأصبح غـذاءً نافعاً يجد فيه كل طالب بغيته ، وكل باحث ضالته .

وهكذا فإنه باندماج الفكـر المستورد في نـواة الفكر المنتفض ظهـرت في العالم العربي الإسلامي ثلة متألقة من الفلاسفة والعلماء والمفكرين كانت منارة للعالم كله، كالكندي والفارابي والـرازي والبيروني والبتـاني والخازن وابن سينـا وابن الهيثم وابن رشد وابن خلدون . . . وكانت هذه الأسماء الـلامعة هي التي قدمت فيما بعد ، إشعاعَها العلمي والفلسفي ، لأورووبا وأسهمت كثيراً في وثبة العلم والفكر الأوروبيين ، ونقلهما الى عصر جديد .

لم يُقصر العرب عن معلميهم الذين كانـوا نبعاً لهم ومستقىً لأفكـارهم ، ولم تنطفىء الشعلة بين أيديهم ، كلا ولم تنقطع عنـدهم السلسلة التي اتصلت منـذ بـدايـة التـاريـخ حتى انتقلت إليهم . إنهم لم ينجـرفـوا وراء المـدارس والثقافات المستوردة كيفما اتفق . لقـد كانـوا يفتشون عن أجـوائهم وأخيلتهم ، ينقبـون في الثقافـات التي احتكوا بهـا لعلهم يجدون فيهـا تفـريجـاً لهمـومهم وقلقهم ، وحـلاً لمشاكلهم ، وبلسمـاً لأوجاعهم وآلامهم ، وشفـاء لنفـوسهم ، ووسيلة للفوز بالسعـادة في الحياة وبعـد الممات . لقـد وجدوا فيهـا أداة فعالـة لتحقيق الـذات والإمعان في الـوجـود ، وكم من فكـرة وصلت اليهم واختـرقت عالمهم فأصبحت أخطر شأناً في مثواها الجديد منها في منبتها الأصلي القديم .

ولـم يكن العرب بِدْعاً من الأمم . فتلك لعمري نتيجة طبيعية معـروفة في عصـور التوثب والتحـولات الكبرى في التـاريخ قـديمـه وحـديثـه . إن الفكـرة الواحدة عندما تنتقل من بيئة لأخرى فإنما تدخل في نظام فكري جديد وعلاقات جديدة ، وبالتالي لا بـد أن تطرأ عليهـا بعض التغيرات . هـذا حتى في ظروف الحياة العادية . فما ظنك بها عنـدما يُقـذف بها في جـو عقلي مشحون متفجـر كذلك الذي كان سيطـر على دار الاسلام في عصـور الاسلام الأولى . لـذلك يجب أن نتوقع حدوث تغيرات شتى فـي الأفكار الوافدة وتطورات مختلفـة تبعاً لسخونة هذا الجو ودرجة حرارته وما يعتمـل فيه من شحن وتفجـر . فتفقد هـذه الأفكـار عندئـذٍ شخصيتها أو تكـاد ، ولا تعود ملكـاً لأصحابهـا الأولين بل لقـد أصبحت منذ الآن ملكاً لأصحابها الجدد وحقاً مشاعاً يمكن لكل أحد بعـد اليوم

أن يستمتع به ويتخذ منه منطلقاً لأفكار وتطلعات ومواقف جديدة تناسب روحه وتلبي حاجاته ، وتخفف من الضغط والتوتر في نفسه . وكذلك إذا طرحت فكرة ما على بساط البحث عمد كل باحث ال فحصها وتمحيصها على نحوه الخاص هو واستخراج ما يمكن استخراجه منها وبذلك تتشتت وتتفرق وتتخذ مظاهر متعددة وأشكالاً متباينة ، وسمات لا حصر لها تختلف باختلاف الباحثين وتتنوع بتنوع الدارسين .

لذلك فإن طريقة فرز الأفكار بعضها عن بعض ، وبيان ما هو مأخوذ مقتبس وما غير ذلك لم تعد طريقة عصرية ، فلقد تركها أصحابها منذ زمن طويل لأنها لا تقول لنا :

أولاً : لِمَ انتقلت هذه الأفكار الى العرب في زمن بعينه ولمدة بعينها ؟

ثانياً : لِمَ كان لها أبلغ الأثر في المسلمين رغم ما اعترضها من عقبات وقام في وجهها من عراقيل ؟

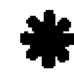
إن كل شيء يتضح لنا من هذه الناحية إذا تذكرنا التغييرات العميقة التي تفجرت في شبه الجزيرة العربية من داخلها في أوائل القرن السابع الميلادي أي عندما قام محمد عليه السلام بانتفاضته العظيمة . هنالك نرى كيف أن نظم الحياة العربية قد تبدلت رأساً على عقب ، فاستتبع ذلك نشوء مجتمع جديد ، له حاجات جديدة وآمال جديدة ، وأهداف جديدة ، ومسؤوليات وأعباء جديدة ، وقيم ومُثل جديدة ، وهذا ما جعله يرنو إلى آفاق جديدة ، وتكون له تطلعات جديدة . واذن فانتفاضة الإسلام ومبادىء القرآن ، والتغييرات الداخلية التي طرأت على الجزيرة العربية من قبلهما ، هي وحدها التي خلقت الظروف الملائمة لتكوين عقلية جديدة والإقبال على دراسة علوم جديدة إشباعاً لنهم جديد للمعرفة وتعطش قاتل لا عهد للعرب به من قبل ، وهي التي جعلت عرب ما بعد الإسلام غير العرب الجاهليين ، وبالتالي هي السبب في بروز عبقريات ومواهب وطاقات لم تعرفها الساحة العربية ولا المنطقة المحيطة بها في تاريخها الطويل كله .

إن عيب الكثير من الدارسين للفكر العربي الإسلامي إنما هو تضخيم بعض الجوانب على حساب الجوانب الأخرى ، تضخيم جانب النقل والاقتباس مثلاً وتسليط الأضواء عليه دون غيره من الجوانب لحاجة في نفس يعقوب . وهذا تحيُّف لا نرضى به وتجنٍ لا مساغ له. إن الفكر الإسلامي فيه الكثير من العناصر الأجنبية . هذا ما لا ننكره ولا نزال نكرر القول فيه . إذ لا وجود لأمة لا تقتبس من أمة أخرى ، اللهم إلا أن تكون متخلفة في سلم التطور . فالتطور ـ كما يقول برغسون ـ لا يسير بخطى واحدة في المجتمعات الإنسانية المختلفة ، وإنما هو يسرع على الخصوص في المواطن التي تلتقي فيها تيارات متعددة متباينة . فاقتداء اللاحق بالسابق والخالف بالسالف هو أداة التاريخ والتطور ، وقانون من قوانين تقدم المعرفة والعمران . فليس العرب في ذلك بِدعاً من الأمم ، إنما هو قانون واحد يسري عليهم وعلى غيرهم من الأمم التي مرت بظروف مشابهة لظروفهم ، دونما نظر الى الجنس والعرق واللون واللغة والدين . . .

إن الطريقة التقليدية لا تذكر لنا شيئاً عن الشخصية الناقلة ، عن طموحها وهواجسها ، عن حاجاتها والأسباب التي حدت بها الى النقل . . . إنها لا تأخذ بالحسبان إلاَّ أشباه الأفكار، الأفكار الميتة ، أي الأفكار عارية، مجردة من جميع ارتباطاتها وعلائقها وأجوائها ، الأفكار المسحوقة التي انتُزعت منها جميع الخصائص والنوابض التي تمنحها قوامها وشخصيتها . وما هذه بالأفكار ، إنها أشباح أفكار . فالمعوَّل عليه اليوم إنما هو فهم الأفكار في ارتباطاتها وأجوائها ووظائفها ودلالاتها والحاجات التي دعت إليها ، وما فعله الشخص المبدع فيها، وأي النتائج استخلصها منها . أما فرز الأفكار ، وتحليلها تحليلاً كيماوياً إذا صح التعبير ، فهذا ليس من العلم في شيء .

فالأفكار يتسلسل بعضها من بعض ، ويتولد بعضها من بعض ، ويتفاعل بعضها ببعض ، ويتخذ ذلك مذاهب شتى وطرائق قِدداً ، تختلف باختلاف الزمان والمكان والظروف والملابسات والأحوال . ثم تنتقل الى الناس على

وجوه نعرف بعضها ونجهل أكثرها ، فيتقبلونها بلا وعي ولا احتساب ، أو يسعون اليها بالجهد والعرق ، وبمختلف الوسائل والأسباب . وهناك يطرأ عليها ما طرأ على أسلافها من قبل . فالإنسان يرزح تحت أعباء ثقال من مواريث العقائد والمذاهب والأفكار التي تفاعلت وتصادمت وتوالدت واصطرعت واضطرمت واضطربت في الزمان والمكان ، ولكل خطوة يخطوها ينابيع يستقي منها وأصول يبني عليها . إن الإنسان الذي يكاد يعرف كل شيء عن القمر لا يكاد يعرف شيئاً عن عالم بكر خصب هو أقرب الينا من أنفسنا ، ويحيط بنا من كل جانب ، إنه عالم الأفكار ، وهو عالم معقد كبير ، يصطرع بعضه ببعض ، ويموج بعضه في بعض ، يجب أن يكون موضوعاً لعلم مستقل قائم بذاته كسائر العلوم الأخرى ، له مصطلحاته وتعابيره ، وله مناهجه وطرائقه ، وله سننه وقوانينه ، ونقترح تسمية هذا العلم بالسّيْكوسوسيوديناميكا . فالأفكار هي التي تحكم حياتنا ونظام وجودنا ، إنها تنتمي الى عالم عتيد قاهر ، لا مُعقب لحكمه ولا رادٌ لقضائه . فهو الذي يهيمن على عالم الإنسان ، ويعمق وجوده ، ويسمو به على جميع العوالم ، ويضفي عليه معنى وغاية .



أجل إن النظرة السطحية التحليلية الساذجة التي لا ترى في الفكر العربي سوى مرآة عاكسة للضوء ، تغفل ما فيه من مصادر غنية بالضوء ويرجع السبب في ذلك الى الجهل المطلق :

1 ـ بمكنونات الطبيعة البشرية وتعقيدات السلوك الإنساني والعلاقات الدينامية القائمة بين الأفراد والجماعات والأشياء . فقد كان من الواجب على من يتصدى لدراسة الفكر الإنساني بعامة ، والفكر العربي الإسلامي بخاصة ، الاعتماد على طريقة أكثر جدارة بالإنسان الذي لا ينحل أبداً الى مجرد موضوع ، الى شيء ، إلى ظاهرة سلبية صرف تنفعل عن الحوادث ولا تفعل

فيها ، وتتأثر بها ولا تؤثر فيها . إن تجاهل العامل الإنساني في صنع الأحداث ، والتشديد على الجانب الشيئي فيه، وإحلال قوى أخرى بديلة مكانه ، قد أفقد الإنسان تميزه من عالم الطبيعة والأشياء وجعله مجرد شيء من الأشياء . لقد تشيَّأ الإنسان بالأشياء بدلاً من أن تتأنَّس الأشياء بالإنسان . لقد خضع لها بعد أن كانت في جميع مراحل تاريخها خاضعة له وأداة مسخَّرة بين يديه . لقد ذاب فيها بعد أن كانت جزءاً منه . هذه هي مأساة جميع التصورات الميكانيكية للإنسان في القرن الماضي وبداية القرن الحالي . لا بد من تناول الطبيعة الإنسانية في عراقتها وغناها ، في تكاملها العيني ، وفي تفاعلها بالأحداث وتفاعل الأحداث بها ، في قواها العارمة المتفجرة ، وإلا فلن نصل ـ كما لا يزال حالنا إلى الآن ـ إلا الى نتائج هزيلة شاحبة مبتورة لا قيمة لها ولا يصح البناء عليها .

2 ـ بالفكر العربي الإسلامي والأدوار التي مرَّ بها، والأطوار التي تقلب فيها ، والعقبات التي صادفته وتحدَّت مواهبه ، والظروف التاريخية والحضارية التي تسنى له العمل فيها ، والمشاكل والمعضلات التي ثارت من حوله ، والحلول التي وضعها لها ، والنتائج التي استخلصها منها ، والمعاقل التي اقتحمها ، والطرق والدروب التي شقها ، والأغراض التي حققها ، والتيارات التي اصطرع معها ، وكيف استطاع أن يمضي في طريقه بين الصخور والأدغال والأشواك ، وان يثبت أمام العواصف والأعاصير وعوامل الفناء .

إن الجهل بكل ذلك كان من شأنه الوقوع في مزالق كثيرة ، والإسراف في الأحكام الجائرة ، والقاؤها ذات اليمين وذات الشمال . ومما زاد الطين بلة ، الميلُ والهوى الذي ما دخل شيئاً إلا أفسده ، وتعصُّب بعض الدارسين والحاقدين والمضطغنين ، وصَلَف أولئك الذين لا يروق لهم أن يخرج من الحفاةِ العراةِ رعاءِ الإبل ، القادةُ والرادةُ والأبطال وعظماء التاريخ ، وأن ينبثق عن الجهل والفقرِ والتشرد والفوضى والشرك والحيرة ، العلمُ والغنى والانتماء والنظام والتوحيد والايمان ، وأن تقذف شبه الجزيرة برجال الفكر ، وأفذاذ الحكم ، ونُطس الأطباء ، وجهابذة العلماء ، وأصحاب المذاهب العقلية

والدينية والفلسفية والتاريخية والإجتماعيـة والسياسيـة والاقتصاديـة و . . . وكان للإحساس القومي - يا أسفي ! - واختلاف الدين وتخلف العرب والمسلمين في الوقت الحاضر - أقول كـان لكل ذلـك وما اليـه أثره البـالغ في تشـويه الأحكـام وإذكاء روح الاستعلاء عند الرجل الأوروبي المنتشي بانتصـاراته ، فـازداد عتواً في الأرض واستكباراً . وانطلق المرجفون في مفترياتهم ، لا وازع من خُلُق ولا رادع من ضمير. وفي هذا العجـاج المضطرب اختلط الحـابـل بـالنـابـل والغث بالثمين ، وأصبح الوصول الى الحقيقـة عند من يـدعي سدانـة الحقيقة ، أمـراً عسير المنال .

*

لقد مسخ هؤلاء الإنسان ودكُّوا البنيان، وخرَّبـوا الهيكل ، وجعلوا عـاليه الأسفل ولا سيما عندما يتعلق الأمر بالرجل الأسمر ، الذي خرج من بطحاء مكة وراح يتبختر ، وقال الله أكبر ، على من طغى وتجبَّر !!

ليس من الجائز أبداً معالجة الانسان - أيّ إنسان - بروح شيئية تفقده حقه في المبادرة والأصالة والتلقائية . فالإنسان فوق الأشياء ولو أنه معجزة الأشيـاء . فكل تعليل له في نطاق الموضوعية الباردة ، وكل تفسير لـه لا ينطلق من أصـالة الذات وتلقائيتها الفاعلة الخلاقة ، وإبـداعيتها الغنيـة الجياشـة ، إنما هـو شيئية مسرفة غالية ، فيهـا حرمـان له من أخص خصـائصه ومن سـر كينونتـه التي إنما تفوَّق بها على العالمين وبلغ بها سُدة عليين !!

هنـا تكمن انسانيـة الإنسان ، في كـل زمان ومكـان ، عـربيـاً أو أعجميـاً كان ، فكفُّوا عن السخف والبُطْل والهذيان ، والكذب والتحريف والبهتان !!

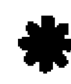
فـالإنسان مخلوق فـذ لا ينحصر وجـوده أبداً في مقـولة الكم والعـلاقـات العـددية كسـائر الأشيـاء . إنه أكبـر من ذلـك بكثيـر . فـإذا كـانت التفـاعـلات

الكيماوية تُعرف نتائجها سلفاً ، وإذا كانت الأشياء لها أبعاد يمكن قياسها في الزمان والمكان ، والتنبؤ بها فليس كذلك الإنسان . فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي لا يُحدّ في إطار أبعاده الزمكانية ولا يمكن التنبؤ بسلوكه، مهما كان عدد المعطيات والحقائق المعتمدة ، بل إنه كلما كثرت هذه المعطيات والحقائق زادت صعوبة التنبؤ لأنها متغيرات غير قابلة للضبط وليست ثوابت يسهل التحكم فيها . فالإنسان قادر على تخطي جُلّ ـ ان لم يكن كل ـ المعطيات والحقائق التي يخضع لها سلوكه ، أو على الأقل السيطرة عليها وتسخيرها لأغراضه وغاياته ، ما دام في ذلك تحقيق لذاته وإثراء لوجوده وكيانه . وهذه القدرة بطبيعة الحال تتفاوت من شخص الى آخر ، ولكنها تبلغ غاية مداها في القادة والرادة والأبطال وأصحاب الرسالات الكبرى في التاريخ . وهذا ما يفرق بين القمة والقاعدة ، القمة التي تحرك التاريخ والقاعدة التي تتحرك بالتاريخ . الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمتد في الزمان والمكان ، ويغوص في اللامتناهي في الكبر ، كما ينساب في اللامتناهي في الصغر ، وفيه يلتقي اللامتناهيان معاً . إنه أعجوبة الأعاجيب ، أعجوبة فذة هي نسيج وحدها في الوجود واللاوجود ، أو قل هو أعجوبة الوجود واللاوجود . إنه يؤكد وجوده حيثما كان ، ويحيل كل شيء إلى كيانه الخصيب الممراع . فلا حدود واضحة بينه هو وبين ما ليس هو ، خلافاً للأشياء التي لها حدود مقررة معروفة لنا جميعاً . وبهذا المعنى فإنه ذاته وغير ذاته ، كما إنه الجسر الذي يجمع بين ذاته وغير ذاته ، وهذا من قوة ذاته القادرة على استيعاب كل شيء في ذاته . إنه معجزة الوجود وسِرُّ كل موجود .

فهو إذْ قُدَّ من عالم فريد نسيج وحده ، وكان مشحوناً بدينامية خصبة متدفقة ، وطاقة لا تكاد تستفرغ حتى تتجدد ، فإنه يحيا سلسلة من الأفعال والمنجزات التي بها يتخطى طبيعته ويتجاوز وجوده المادي الهزيل الشاحب ، وذلك بحكم ما يصطرع في نفسه من إرادة التغيير والتبديل ، وما ينبثق فيها باستمرار من خطط ومشاريع لتحقيق هذه الإرادة وما يصبو إليه من آمال وأحلام ، فيصّعّد من مستوى الى آخر ، ومن ملكوت الى ملكوت ، تبعاً لتذوقه

للقيم ، وبحسب نظرته الى عالم الأشياء ورسوخ قدمه في عالم الرموز والمعاني . إنه عملية تاريخية متوترة خلاقة لا تتوقف ، تلتقي فيها الذات بالموضوع ، والأنا باللاأنا ، لتحقيق وجود جديد ، والإطلال على عالم جديد . إنه حدث في صيرورة دائمة، وحالة مستمرة من عدم الإستقرار قوامها التوازن في الاختلال والاختلال في التوازن . أجل هو نمط فذّ من الوجود يمنح كل شيء كينونته ، دون أن يكون هناك ما يمنحه هو ماهيته وهويته ، اللهم إلا هو . فما يضفي عليه طابعه الخاص وكينونته الفريدة ويعطي معنى لوجوده ، إنما هو وعيه لذاته وسعيه المستمر الدائب لتحقيق ذاته وإثراء ذاته ، وإعادة وعيه لذاته ، في عملية دائمة لا تتوقف أبداً من اصطرع الذات باللاذات ، وصدام الأنا باللاأنا ، وفي مسعى متواصل لتخفيف ما يرتفع فيه من توتر وحل ما يثور فيه من تناقض ، ليظل في ربيع دائم ، ويصل الى الفردوس المنشود وهيهات !

هذا الانسان ـ الذات الساخن ـ لا الإنسان ـ الموضوع البارد ـ هو الذي صنع الأدب والفن . إنه أيضاً هو الذي صنع الفلسفة والعلم والتاريخ . . . والى هذا الانسان أنما يجب على دارسي الفكر ومؤرخي الحضارة والاجتماع أن يوجهوا جهودهم ودراساتهم. إنه هو الذي صنع فلسفة اليونان وعلوم اليونان ونظم حياة اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو أيضاً الذي انتصب مارداً جباراً في القرن السابع بعدالميلاد ليسهم في بناء الفكر الإنساني عامة ، ويرفع صرح الفكر العربي والعلم العربي خاصة . وقد رفع هذا الصرح وأقام بناءه على خير ما يكون البناء ، بحسب مقتضيات ذلك العصر وأوضاع حياته ، دونما أي اعتبار للأصول التي كان ينتمي اليها والسلالات التي يتحدَّر منها . وما غاب عن الساح دهراً طويلاً ، لم تَنَمْ له فيه عين لا ولم يغمض له فيه جفن ! فإرادة الحياة ـ هي وحدها ـ من دون الأرومة أو الجنس أو السلالة ـ الفتيل الذي أشعل مواهبه وفجَّر طاقاته وقذف به في مراتع العقبان ومواقع الصقور والنسور !



أجل ، من هذا الانسان المشحون ، من هذا الأتون الملتهب المتفجر ، سينبثق العلم العربي والروح العلمي العربي ، والفلسفة الغربية والروح الفلسفية العربية . . . فكل أولئك لا بدَّ له في الانسان الديناميكي الفاعل المتفجر الذي لا يكاد يستقر حتى يختل ويثور كالبركان ثم يهدأ ليعيد سيرته الأولى كما كان ، فإنما بالتجدد والتوثب والتفجر كان ويكون وسيكون الانسان . وإلاَّ فلا كان الإنسان !!

هذا والعلوم التي أقبل عليها العرب وعُنوا بدراستها كثيرة متنوعة : منها علوم اللغة واللسان ، وعلوم القلب والجنان ؛ ومنها علوم الدين والآخرة ، وعلوم الدنيا والعاجلة ؛ منها علوم العقل والمنطق ، وعلوم النقل والذوق؛ ومنها علوم الملة والسماع وعلوم الفكر والإبداع . . . الى غير ذلك من العلوم التي اشتغل بها المسلمون وأوسعوها درساً وتمحيصاً .

ويمكن تصنيف هذه العلوم على وجوه مختلفة وأنحاء متباينة . فهي تُصنَّف الى علوم أصيلة ، وعلوم دخيلة : فالعلوم الأصيلة هي التي نبتت في جو الاسلام وترعرعت على أيدي العلماء العرب ، ثم جاءها اللقاح الأجنبي فنمت وازدهرت . وأما العلوم الدخيلة ، فهي تلك العلوم التي نبتت خارج بلاد الإسلام وعلى أيد غير عربية ، ثم دخلت بلاد الإسلام فأخصبت فيها وارتقت وتطورت تطورها الهائل العظيم . وهناك تصنيف آخر للعلوم أيضاً يجعلها أنواعاً ثلاثة : علوم اللغة وعلوم الدين وعلوم الدنيا . ويفرق كثير من كُتاب المسلمين كذلك بين علوم العربية (أو العلوم اللسانية)، والعلوم الدينية (أو الإسلامية أو النقلية أو علوم السمع) ، والعلوم العقلية (أو العلوم الدخيلة) . وقد يطلقون على هذه العلوم الأخيرة أحياناً اسم (علوم العجم أو العلوم القديمة أو علوم الأوائل في مقابلة علوم العرب) وهي تلك العلوم التي كانت شائعة عند ظهور الإسلام في الممالك التي انتشر فيها المسلمون وتفاعلوا معها واتصلوا بحضاراتها. إنها منجزات رجال العلم والفكر والفلسفة القدماء، وخلاصة أبحاثهم في ممالك التمدن القديم ، على اختلاف الأمم والدول والأماكن والاصقاع ، في القرون المتوالية والعصور المتعاقبة ، منذ أقدم الأزمنة والأحقاب الى أن

عرفها العرب واطلعوا عليها وأضافوا اليها مادة جديد من نتاج قرائحهم وثمرات عبقريتهم . ووصفُنا لهذه العلوم بأنها دخيلة ليس وصفاً دقيقاً ، لأن العرب قبل الإسلام كانوا على شيء من علوم النجوم والطب والعدد الخ . لكن عملية الترجمة التي بدأت بعد الإسلام أعطت البحث في هذه العلوم ـ وبتعبير أدق أشباه العلوم لأنها لم تكن علوماً خالصة ـ زخماً جديداً وصيغة جديدة ، وأضافت إليها علوماً أخرى اكتمل بها عقدها .

*

كان العرب في القرون الوسطى هم سدنة العلم وحَمَلَته ورُعاته ورافعي لوائه . ولئن وصفت تلك العصور بعصور الظلام والتخلف ، فهي إنما كانت ظلاماً على أوروبا وحدها ، لا على العرب والمسلمين الذين جعلوا منها في بلادهم عصور إشعاع وتألق . لقد كان الناس في أوروبا تائهين في ظلام الجهالة لا يرون النور إلا من سَمِّ الخياط ، وكان النور لا يسطع إلا من جانب العرب وبلاد الاسلام . لم تكن هناك مدرسة أو مسجد أو بلد يخلو من خزانة كتب مُسْبَلة على القراء ، هذا مع عزة المخطوطات في ذلك العهد . فكان العلماء يجتمعون في تلك الدور ، يقرأون ويتباحثون ويتدارسون . وكانت المعارف في المدن والقرى وفي الأندلس خاصة ، مبذولة لكل طالب . وكان الحكام والولاة والوزراء ينافسون الخلفاء في إعلاء مقام العلم والعلماء وبسط اليد في الإنفاق على بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه . إن هرون الرشيد عندما أهدى الساعة التي صنعها العرب الى شارلمان ، كان أديباً وشاعراً ـ كشأن سائر الحكام العرب ـ بينما كان الامبراطور لا يكاد يحسن كتابة اسمه. ثم تدور دورة الزمن . لقد نامت أوروبا في تلك العصور ما نامت يجترُّ الناس فيها حالتهم ويلجمون عقولهم بلجام المنقولات المتوارثة، ثم استيقظت حين بدأ العرب والمسلمون يستغرقون في سبات عميق . فكأنما الدهر عجز عن استيعاب حضارتين مزدهرتين في وقت واحد . وهذا من غرائب الأحوال .

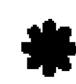
*

هذا وقد مرَّ الفكر العلمي العربي بثلاث مراحل :

الأولى هي مرحلة نشأة الفكر العربي وتكوين النواة التي ستنمو وتكبر بما كان يعتمل فيها من تفاعلات دينامية ذاتية داخلية بحكم التطورات العميقة التي شهدها القرن الأول للهجرة . وعندما اكتملت هذه النواة بدأ ظهور المدارس والمذاهب الدينية والفكرية المختلفة ، وهذا مما هيأ الأجواء لنشأة العلم العربي .

المرحلة الثانية هي مرحلة تأمين الغذاء الكافي لاستمرار عملية النمو وبقاء الشعلة متوهجة متقدة تتحدى الرياح والأعاصير . وقد تحقق ذلك في عصر الترجمة التي يسرف خصوم الفكر العربي الإسلامي في أهميته حتى لجعلوه عصر بداية هذا الفكر ومنطلقه . ولن نكلّ أو نملّ من رد هذا العصر الى حجمه الطبيعي . فهو في نظرنا ليس بداية للفكر العربي ، بل امتداد من امتداداته ونتيجة من نتائجه وثمرة يانعة في ثمراته . ان العصر الأول ، عصر نشأة الفكر العربي ، سيكون من السطوع والقوة بحيث يبهرنا ويحجب عنا رؤية ما وراءه . ولذلك سنضع نظارات مدخّنة كتلك التي تُستعمل في رصد الشمس في أثناء الكسوف الكلي لرؤية الاكليل والشواظ المنبعث منها . هنالك فقط سنرى عصر الترجمة قزماً يقف قريباً من شمس الفكر العربي بنورها الساطع المتوهج . وبغير هذه الوسيلة فلن نرى القزم الصغير . ففي طلعة الشمس ما يغنيك عن زُحَل . لقد كان عصر الترجمة يُتخذ دائماً تعلّة للهجوم على العرب والفكر العربي والانتقاص من الانتفاضة التي تفجرت في شبه الجزيرة العربية .

والمرحلة الثالثة والأخيرة هي مرحلة تبلوُر الفكر العلمي العربي في شتى الأعمال الإبداعية التي سنقف على بعضها .



فمن الترجمة انتقل العلماء العرب الى الإنتاج العلمي والفلسفي

الأصيل. وقد ظهرت جهود العرب الابتكارية في الطب والكيمياء والفلك والطبيعة والرياضة والتاريخ والفلسفة والاجتماع . فقد اشتغلوا بهذه العلوم وغيرها روايةً ودراية ، وتناولوها بالتصحيح والتنقيح والإضافة والحذف والتوسيع والإيجاز ، حتى أوفوا في ذلك على الغاية ، بحسب ما تتسع له امكانيات ذلك الزمان . وكانت لهم طرقهم الخاصة في البحث العلمي ، وهي طرق جديدة يختلفون فيها عن أساتذتهم اليونان .

فالعرب هم رواد المنهج العلمي الذي عماده التجربة والملاحظة والاستقراء والاستنتاج . ولم يكن الفكر الإغريقي ليجهل العمل التجريبي ، ولكنه لم يعدَّه دليلاً علمياً . فالدليل العلمي الحق إنما هو المنطق وانسجام الفكر مع ذاته . لقد كفر اليونان بالمنهج التجريبي واستحقروه واسترذلوه ونسبوه الى العبيد ، وازدروا بالمادة والعالم الأسفل ـ عالمنا ـ وبكل ما يتصل بهما ، واعتمدوا التأمل والتفكير سبيلاً إلى معرفة العالم ، خلافاً للعرب الذين أخذوا بالدليل التجريبي إلى جانب الدليل الاستنتاجي ، ولم يُبدوا أي اعتراض على مبدأ التجربة والاختبار ، بل رفعوه الى مرتبة الميزان المعترف به علمياً . وقد كان مما تعلمه الأوروبيون من العرب هذا الدليل التجريبي الذي كان من أعظم هباتهم إلى الفكر اللاتيني وبالتالي الى العلم الغربي . دعا إليه أولاً روجر بيكون ، ثم أعقبه فرنسيس بيكون ، ولكن الكنيسة قاومته ، إذ لا حقيقة عندها إلا في الكتاب المقدس وفي أقوال الآباء السابقين . لقد استوعب روجر بيكون الكثير من الفكر ـ العربي والعلم العربي ، وعرف العربية والعبرية . وهو في كتاباته يستشهد بابن الهيثم وابن سينا والكندي وحُنين بن إسحق والبطروجي الفلكي الأندلسي وغيرهم . ومع أنه إبن الكنيسة البار ، فقد اعترف بأنه قضى عشرين سنة من عمره يدرس كتباً تُحرم الكنيسة دراستها ، ويجري تجارب سرية . وقد أنفق ألفي جنيه في شراء الكتب والجداول وأدوات التجربة ، وفي دراسة اللغات والرياضيات والبصريات والعلوم التجريبية . وكان يشكو من أن العالم المسيحي متخلف عن العالم الإسلامي ، وأن ما يعوق تقدمه هو جهل رجال الدين . وهو يُقرّ مع آباء الكنيسة بأن الحقيقة واحدة ، تلك هي التي جاء

بها الكتاب المقدس، لكنه يضيف أن الوصول الى معرفة هذه الحقيقة إنما يكون بالعقل ؛ غير أن العقل وحده ليس مضمون العواقب إلاّ إذا دعمته التجربة . والتجربة لها طريقان : إلهام ينبعث من داخل النفس ، واكتشاف يتأتى بالقياس والآلات ، أو يتحقق بالرياضيات . بهذا يمكن الوصول الى طبائع المخلوقات ، وذلك يفضي إلى معرفة الخالق . والعلوم الضرورية في نظره هي اللغات والرياضيات والبصريات والعلوم التجريبية والكيمياء ، ويُتوِّج ذلك الفلسفة والميتافيزيقا[1]. وأخيراً استجابت أوروبا للمنهج التجريبي الذي لم يستطع تثبيت أقدامه فيها إلا بعد معارك طاحنة قُتل فيها خلق كثير وأُحرق فيها علماء كبار ، ثم انجلت هذه المعارك عن انتصار المبدأ التجريبي ورضوخ السلطات الكنسية واستسلامها للأمر الواقع .

وعلى كل حال إن المنهج العلمي التجريبي الذي يعزوه الأوروبيون الى بيكون ـ حتى أصبحت الكلمتان (الروح البيكوني) و (الروح العلمي) كلمتين مترادفتين في أذهانهم ـ هو من وضع العرب ومبتكرات العرب ، وسمة من سمات العبقرية العربية ، ومنهم انتقل الى أوروبا وعرفه العالم .

والحق ، إن العلم العربي تلتقي فيه خصائص العلم القديم والعلم الحديث ، فهو في طور وسط بينهما ، لقد كان يجتاز مرحلة انتقال من الطريقة القديمة في البحث إلى الطريقة الحديثة التي استقر عليها العلم الأوروبي منذ بداية عصر النهضة . إذْ يبدو أنه لم يكن ممكناً أن تحصل النُقلة طفرةً وعلى غير انتظار . ولعل هذا ما يفسر لنا وجود التأمل الفلسفي الميتافيزيقي في تراث العرب العلمي إلى جانب المنهج التجريبي ، واعتماد البحث فيه على النظر العقلي المجرد بمقدار أخذه بالواقع العيني المحسوس . فاليونان أورثوا العرب طريقتهم التجريدية ونظرهم العقلي وتأملاتهم الفلسفية الرائعة . فأخذ العرب ذلك كله واستوعبوه وتوسعوا فيه ، ولكنهم أضافوا إليه ما يتميزون به عن اليونان ، ألا وهو اختبار معارفهم وإخضاعها للمنهج العلمي ، تحقيقاً لأصالتهم

---

(1) أنظر د . أحمد سليم سعيدان : مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الاسلام صفحة 96-98

وإبرازاً لهويتهم ونموذج تفكيرهم[1] .

لقد آمنوا بالمادة دون أن يكفروا بالعقل ، بل لم يزدهم الإيمان بالمادة إلا إيماناً بالعقل. لقد جمعوا بينهما في معادلة واحدة، وفي إطار من الانسجام والتناسق لم يُعرف من قبل ، وكان ذلك واضحاً في نهضة علوم المادة بينهم كالكيمياء والفلك والعلم الطبيعي والحيل والطب . . . نعم ، لقد كانت هناك تيارات أفلاطونية صوفية ، ولكنها لم تستطع أبداً القضاء على التيارات المادية ، بل لقد ظل التعايش والتفاعل والحوار قائماً بينهما ، خلافاً لما كان عليه الحال عند اليونان ، حيث لم تنجح التيارات المناوئة لأفلاطون وأرسطو أن تعلن عن ذاتها إلاَّ جزئياً وبشق النفس . لقد كان عند اليونان علماء فحول بالمعنى الحديث للكلمة ، ولكنهم ظلوا غرباء في عقر دارهم ، فلم يؤثروا ولم يتفاعلوا ، كأنما هم نشاز في سمفونية رائعة .

وأما العرب فقد كانوا عنواناً لتعايش الفلسفة والعلم ، والتأمل والتجربة ، والمنطق الصوري والمنطق الوضعي ، والميتافيزيقا والفيزيقا ، في تراث واحد وحضارة واحدة . فلولا أنهم شقوا عصا الطاعة على اليونان ، وخلقوا أجواء جديدة تحدُّ من سيطرة اليونان ، لأعادوا اجترار أفكار اليونان ، ولكانوا نسخة مكررة عن اليونان ، كما كان حال السريان . فكل فيلسوف كبير من فلاسفة الاسلام ـ فضلاً عن كل عالم من علماء الإسلام ـ ينطوي على باحث له جميع مقومات رجل العلم ، كما إن في كل امرأة حامل جنيناً فيه جميع مقومات الحياة . وهذه الظاهرة الفذة لم تُعرف إلا في العصور الحديثة ، وكان العرب أول بوادرها . لقد اختارهم القدر لأمر جلل هو تعريف العالم بمزايا المنهج التجريبي ، كما اختار اليونان لتعريف العالم بمزايا المنهج التجريدي . ولذلك فقد عمدوا ـ أو بتعبير أدق عمد فريق منهم ذوو نزعة خاصة ـ الى دراسة الطبيعة في صميم الطبيعة لا في عقول الدارسين لها من أصحاب الأسماء الكبيرة الفضفاضة ، ولا في بطون الكتب التي صنَّفوها عنها .

(1) أنظر كتابنا الجامع في تاريخ العلوم عند العرب صفحة 147-161 و 331-361.

فإذا كان من المطلوب احترام الأفكار فإنه من غير الجائز عبادة المفكرين. «هم رجال ونحن رجال» . هكذا كان شعار القوم . وهذا لعمري إنجاز كبير وتطور خطر في مفهوم العلم عندهم . لقد أدركوا ـ ويا لعظمة ما أدركوا !!! ـ أن التجربة والملاحظة خير من ألف كتاب . هذه الحقيقة التي أصبحت معروفة اليوم لم تكن كذلك في الدهر السالف. وقد أورثت أعمالَهم العلمية الوضوح والابداع ، وقادتهم إلى الكشف عن أمور وأشياء في مدى ثلاثة قرون أو أربعة لم يُكتب لليونان ولا لغير اليونان الكشف عنها في آلاف السنين . لقد كانوا علماء وجعلوا غيرهم علماء . لقد كانوا حرباً على الجهل والجهلاء ، ورفعوا للعلم كل راية ولواء ، وحسبهم أنهم نشروه بهمة قعساء ، وكانوا له نوراً وكانوا له لألاء. فلا تُمار فيهم فبئس المراء، لقد كان أكبر همهم تأدية رسالة العلم وتلبية النداء ، بعد أن سدَّ له الأغاريق كل باب وقطعوا الرجاء ، ألا أيها الجاحدون للفضل قليلاً من الحياء !!



فلا وجه إذن لاتهام العرب بما هو ألصق باليونان وبطبيعة الفكر اليوناني : إذ كثيراً ما يقال إن أسلوب العرب في البحث كان اسلوباً فلسفياً يهتم بتقرير خواص الأشياء وغاياتها دون ظواهرها ، وإنه إنما يحكم عليها بأحكام الماهيات والكيفيات دون الأوصاف والصفات . ولئن كانت هذه التهمة صحيحة في حق بعض الفلاسفة التقليديين كالكندي والرازي والفارابي وابن سينا وابن رشد في بعض كتاباتهم ، فهي غير صحيحة مطلقاً في حق الخازن والزهراوي والبيروني وابن النفيس وابن الهيثم وابن يونس المصري ونصير الدين الطوسي وابن خلدون ، بل هي غير صحيحة أيضاً حتى في حق بعض كتابات الفلاسفة التقليديين أنفسهم. فإن عناية علماء الطبيعة العرب القدماء ـ بل وفلاسفتهم ـ بالتجربة والملاحظة لم تكن أقل منها بالمسائل النظرية الصرف والمعاني المجردة . فهذه المعاني قد سبقت عندهم في كثير من الأحيان التجربة والملاحظة ، كما أن معاناة التجربة والملاحظة والتمرس بهما طويلاً قد أوحيا

اليهم بكثير من النظريات والمعاني المجردة .

وهكذا فإن كتب الطب والطبيعة والكيمياء والفلك . . . الخ عند العرب إذا كانت لا تخلو من الأحكام النظرية والمعاني المجردة، فإنها في نفس الوقت مليئة أيضاً بالتجارب والملاحظات الخصبة . فالأطباء يدونون ملاحظاتهم ، وعلماء الطبيعة والكيمياء يدعمون نظرياتهم بإجراء التجارب والاختبارات ، وعلماء الفلك يقومون بأرصادهم ويصنعون الازياج والجداول لمعرفة أوضاعها ، كما ان علماء الجغرافيا كانوا يقومون بالرحلات ويتجشمون عناء السفر للاطلاع على أحوال البلدان والأقاليم التي يذهبون إليها . . . ولولا اهتمامهم بالتجربة والملاحظة لما قفز العلم على أيديهم تلك القفزات الرائعة التي رأينا بعضها والتي سنقف على أطراف منها في تضاعيف هذا الكتاب ، ولما استطاعوا أن يضيفوا ما أضافوا من ثمرات عبقريتهم في شتى ميادين البحث والنظر . لولا اعتمادهم على المستشفيات مثلاً في تدريس الطب لما أتوا بجديد في صناعة الأغذية والأشربة والأدوية والتوليد والدورة الدموية وأمراض العين وجراحة العظام . . . وكذلك لولا عنايتهم بالمراصد وإيمانهم بأنها الطريق الصحيح للوصول الى أسرار علم الفلك لما استطاعوا معرفة أسباب الخسوف والكسوف ، وتحديد خطوط الطول والعرض وإصلاح التقويم ، والاهتداء الى قوانين المد والجزر ، وتصحيح بعض آراء بطلميوس والنتائج التي وصل إليها .
وهل مباحث ابن خلدون في علم التاريخ وعلم العمران مباحث في الماهيات وخواص الأشياء ، أم هي نتيجة الملاحظة والاستقراء ؟ ألا ينم نقده لمنطق ارسطو بأن أحكامه نظرية صورية لا يأمن صاحبها الوقوع في الغلط لكثرة ما فيها من التجريد والبعد عن المحسوس، وتوكيده أن مطابقة ما في الأذهان لما في الأعيان إنما سبيله الحس والملاحظة لا البرهان ، واهتمامه برصد الظواهر الاجتماعية ومعرفة طبائع العمران وأحواله . . . ألا ينم كل أولئك عن نزعة وضعية قوية واتجاه علمي واضح الى فهم الأشياء، به تمكّن هو وكثير غيره من علماء العرب من التوسع والتعمق في مختلف حقول العلم والمعرفة ، واستطاعوا ان يضيفوا الى العلم اليوناني حقائق جديدة لا مجال الى الشك

فيها ، حتى استعرب العلم بفضلهم واستعلم العرب ؟ وفضلاً عن ذلك يجب ألا ننسى أن العرب هم الذين حققوا النُقلة من العلم التجريدي القديم الى العلم التجريبي الحديث . ولذا كان من الطبيعي أن يلتقي النظر والتجربة في كتابات البعض منهم ، على تفاوت في هذا اللقاء . فإننا قد نجد بعض الكتب يغلب عليها طابع التجريد كما هو الحال عند الفلاسفة التقليدين كالفارابي وابن سينا . وقد نجد كتباً أخرى يغلب عليها طابع التجريب ، كما هو الحال عند العلماء الرسميين كالخازن وابن الهيثم . وبينهما درجات ودرجات . يضاف الى ذلك أن فحول العلماء لا يستغنون عن بعض المفاهيم والأطر العقلية العامة التي ينظرون منها الى حقائق العلم المختلفة . هكذا كان الحال عند العرب ، وهكذا هو اليوم ، وسيظل كذلك غداً وبعد غد وفي المستقبل القريب والبعيد ، ما دام هناك عقل يفكر ، وظواهر تُدرس ، وحقائق تُكتشف ، ومعارف تُكتسب . فالإنسان هو الانسان في كل زمان ومكان .

*

هذا وأهم مثل على تعايش العلم والفلسفة ، في شخص واحد فيلسوف العرب الأول أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي (المتوفَّى في أواسط القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي). فهو فضلاً عن كتبه الفلسفية، يُنسب اليه أكثر من 265 كتاباً في الفيزياء والطقس والكثافة والمد والجزر ، والبصريات وانكسار الضوء والموسيقى . . . وإذا كانت معظم أبحاثه قد ضاعت ، فقد بقيت لنا بصرياته في ترجمة لاتينية كان لها أثرها الواضح في أعمال روجر بيكون الذي تقدم ذكره وفي غيره من العلماء اللاتين أو الإنكليز. . . وما ينطبق على الكندي ينطبق أيضاً على كثير من فلاسفة الإسلام الآخرين ، كالرازي وابن سينا وابن رشد وغيرهم . فقد أنجب العرب كنديين كثيرين لا كندياً واحداً ، إذا صح التعبير ، لأن الحضارات لا تقوم ولا تدوم على شخص واحد فرد أحد، مهما بلغ من العبقرية ، بل لا بد من جهاز كامل من المواهب والكفاءآت والطاقات تكفل لها الحياة والاستمرار ، وأجيال من العلماء والمفكرين والأدباء والفلاسفة والفنانين يضمنون لها النمو والبقاء ، وإلاَّ هلكت

وأسرع اليها الفناء . فقد نبغ العلماء العرب في كل فن ، ونزلوا كل ميدان ، واقتحموا كل معقل ، وأحاطوا بجميع ألوان الثقافة التي انبعثت من مراكز متعددة ، حتى لقد سبقوا الغرب الى الكثير من النظريات في الطبيعة والكيمياء والرياضة والهيئة (الفلك) والطب والتاريخ والاجتماع . . . وأغنوا التراث العقلي الإنساني بكثير من المعاني والأفكار . وبعد أن لم يكن للعرب سوى خطرات الفكر وفلتات الطبع على حد تعبير الشهرستاني ، فقد غدوا فحولاً في التمحيص والتحليل والتدقيق والربط والمقارنة والتسلسل في عرض الآراء والأفكار والمذاهب والفلسفات ، وأمثالاً تُحتذى في سبر الأغوار والغوص على المعاني ، لا عفو الخاطر ، ولا بالبديهة الجامحة والتعسف الشارد ، بل بالخطو الوئيد ، والنُقلة المتأنية المدروسة . وبهذه الصفات العظيمة غدت الأمة العربية وريثة الفكر الشرقي واليوناني معاً ، والقيِّمة وحدها على ذخائر الثقافة والفن ، والممثلة الوحيدة للحضارة الإنسانية الرفيعة في العصور الوسطى كلها . فعظمت الحركة العلمية والعقلية بين المسلمين واتسع نطاقها ، حتى شملت كل شيء من مظاهر الحياة تقريباً . وبعد أن بلغت هذه الحركة غاية مداها ، واستنفدت جميع ممكناتها وحققت جميع أغراضها في بلاد الاسلام ، انتقلت الى بلد آخر ومناخ جديد ، مشحونة بثمرات أهلها ومفعمة بأنفاسهم ونبضات عقولهم ، يرفدها رصيد كبير من التجارب والخبرات والأفكار والنظريات ، لتظهر مرة أخرى وتستأنف الحياة من جديد في حركة النهضة العلمية في ايطاليا .

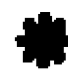
*

وكان القرنان الثالث والرابع للهجرة (التاسع والعاشر للميلاد) وما بعدهما بقليلٍ ، هما الدرة الساطعة على طريق تراثنا الفكري ، لا لأنه لم يكن قبلهما شيء ولم يحدث بعدهما شيء ، كلا . فقد شهد هذا التراث قبل ذلك ضروباً من التفكير القوي الخصب المثمر ، لكنها كانت أول الغيث . كما سيشهد هذان القرنان ضروباً أخرى من التفكير القوي الخصب المثمر أيضاً ، ولكنها السماء بعد أن قلّ درُّها وانقشع غمامها وبدأ يتوقف سقيُها . لقد انتهى حينها ، فيا أسفي على تصرُّم أيامها !!!

بهذا الغيث المدرار تدفق العرب في العالم المعمور آنذاك وانتشروا في أرجائه يُعلمون ويتعلمون ويهدون ويهتدون . . . فأخذوا وأعطوا ، واغتنوا وأغنوا ، واسترفدوا وأرفدوا ، وأنشأوا لأنفسهم تراثاً ضخماً من العلم والفلسفة والأدب والفن وجميع طرائق الحياة . لقد وضعت هذه الكتلة البشرية العجيبة حضارة رائعة ضخمة تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها ومكانها مجتمعةً . وانصهر في بوتقة المجتمع العربي المتفوق هذا ، الفارسيُّ والشامي والمصري والأفريقي والمغربي والتركي والإسباني والبرتغالي والأندونيسي والصيني والهندي ، والإغريقي والروماني . . . إلى آخر الفباء الأقوام والأجناس . وهكذا صبَّت في بوتقة المجتمع الجديد الناشيء خصائص الأجناس البشرية وكفاءآتها وذابت في هذه البوتقة وتمازجت ، وأنشأت مُركَّباً عضوياً فائقاً في فترة قصيرة ليست شيئاً مذكوراً في حساب الزمن ، تربطهم لغة واحدة وعقيدة واحدة ، تحقق إنسانيتهم وتفجر طاقاتهم ، وتهديهم سواء السبيل .

لقد كان مُركَّباً معطاءً في وقت عزَّ فيه العطاء ، بعد أن أعطى ما بوسعهم أن يعطوا ، القادرون على العطاء ، حتى جمدوا في مكانهم وتوقفوا عن العطاء . فإنما المعطي يعطي ثم يعطي ويعطي ، ولكن لن يدوم العطاء . فإذا نضب المعين فليت شعري ! كيف يبقى ويستمر العطاء ؟ لقد أعطت أثينا وأعطت ثم أعطت على خير ما يكون العطاء ، ثم مضت أثينا ومضى معها عهد العطاء ، فهي اليوم خاوية على عروشها فهل ترى لها من عطاء ؟ وهي بئر معطلة فهل تجدَّد الماء بعد طول عطاء؟ لعمري! لن تعطي أثينا بعد اليوم ولن تستأنف العطاء. فإذا ولج الجمل في سَم الخياط فأرتقب منها يومئذٍ العطاء! لقد جف الضرع وهلك الحرث والنسل فكيف يكون بعدئذٍ عطاء ؟ العطاء مرة واحدة وينقطع العطاء . فالعطاء يُنهك ويُجهد ويُرهق حتى لا يكون بعد ذلك عطاء ! إيتني بقوم أعطوا وتكرر لهم العطاء ، هيهات لما توعدون بوصل ما انقطع من العطاء. ذلك رجع بعيد فلا تتوقع العطاء ودع عنك أوهاماً تبشر بالعطاء . ودع الأحلام ، أحلام العطاء ، إذا لم تكن أهلاً للعطاء . صديقك من صدَقك لا من صدَّقك فلا تصدق أساطير تكرار العطاء لأقوام استوفوا

حظهم من العطاء . لقـد آذنتكم على سواء ، هـوذا قانـون العطاء . إنـه قانـون تاريخي لا يتخلف والتاريخ ينفي تجدد العطاء، إلا بعد آلاف السنين فقد يكون وقد لا يكون عندئذٍ عطاء، ليس في الأمر سر، إنما السر فهم قانون العطاء فالأمر مرهون بزلزال يجدد البنية والبنيـان فيتدفق مـرة أخرى نبـع العطاء ، فقـد تمحو السنون ندوباً خطَّها بذل العطاء ، وقد تشفي قروحاً وتجبرُ شدوخاً خلفهـا العطاء ، فيتبدل القوم غير القوم ويقرّ القرار على استئناف العطاء ، كما قـرَّ قرار الصين اليوم فانتـظر العطاء ، حيث التصميم والبـذل وارادة إحياء عهـد العطاء. الزلزال هو النار تحرق الشوائب فينبثق العطاء ، فما لم تحرق الشوائب فلا عطاء ولن يتجدد العطاء عطاء . زُلزلت الصين من قـريب فتفجر العـطاء ، في الصين ثورة بعد ثورة وثورة الطلبة اليـوم هي ثورة استئنـاف العطاء ، لقـد انتقض بنيان القـديم في الصين وخرَّ السقف وبـدأت تباشيـر العطاء . مـات بـوذا أو كـاد في تفكير النخبة المختـارة فآذن بـالعطاء ، واعلمْ أن للتـاريخ رجـالاً إذا أرادوا أراد وكرر لهم العطاء . لقد تمردوا على الماضي وعلى القديم وعلى التراث فتحقق لهم العطاء . لقد تطهرت البُنية وانتزعت الكدرة واجتُثت اللوثة فدونك العطاء . من لي بـرجال كـرجال الصين جـرأةً وشجاعـةً وإرادة إذن لعاد إلى بـلاد العُرْب العطاء ، وإلاَّ فلن ينتظرنا غير استمرار التمزق والتشـرذم المانـع للعطاء . كفـانا نفاقاً وتكاذباً واحياءً لتراث كان ـ حقاً ـ عنوان العطاء. فالتراث قوة والتراث مجد والتراث عطاء ، لكن في زمن العطاء ، وأما بعـد ذلك فهـو عقبة كأداء تمنع كل عـطاء . فإذا ولى الـزمن ولى العطاء ، وأصبـح التراث عبئـاً وانقـطع العـطاء ، كالوحل كلما تحركت فيه غُصْت حتى يغوص الرأس، فهل للغريق من قدرة على العطاء ؟



ليس العرب هم الشعب الوحيـد الذي تـوقف عن العطاء ، بـل ان جميع الشعوب التي أعطت يوماً ، تـوقفت سائـر الأيام وجمـدت ورجعت إلى حالتهـا الأصليـة من العقم وانقطاع النتـاج والثمـر . فليس العـرب إذن بِـدعـاً في هـذا

السبيل . ليس في التاريخ شعوب مختارة تستمر في العطاء وأخرى منبوذة لا تعطي وتتوقف عن العطاء . فجميع الشعوب من حيث القدرة على العطاء وتوقف العطاء سواء . فما أكثر الأكاذيب وحملات التجني والافتراء في مواسم لتحدي والبلاء يُستدرج إليها الأغرار وضعفاء العقول . ليس في التاريخ شعوب لها صفات خارقة وأخرى محرومة منها ، وإنما الشعوب تتدرج وتتطور وتتصدع ، وتعلو وتهبط ، وتُصعِّد وتُصوِّب ، وتتقلب في مسار التاريخ وعلى مدار الزمن ، بما يتهيأ لها من فرص الحياة ، وما يحيط بها من ظروف وأحوال من التجاور المكاني والتماسّ الحضاري ، وما يتصدع فيها من بُنىً وتكوينات وهيكليات ويُطرح على بساطها من مشاكل ومعضلات، ويلح عليها من حاجات وضرورات ، ويتفاعل على ساحتها من مذاهب ومدارس وفلسفات ، وينشأ فيها من مواقف ويتفجر فيها من طاقات ، وتبعاً لما تكون عليه قياداتها من تجمع وتكثف أو تبعثر وتشتت . . . وبحسب قدرة هذه الشعوب على التحدي ورد التحدي ، والعدوان وكفّ العدوان ، والمواجهة ودفع الغائلة ، والتكيف للظروف والأحوال تكيفاً ملائماً أو غير ملائم ـ بحسب كل ذلك ، وما إلى ذلك تتحدد درجاتها وأقدارها ومراتبها في سلم التاريخ والتطور . فكل أولئك يؤثر في مسارها ، ويعجل أو يؤخر في تحركها واندفاعها ، فيرفع هذا الشعب الى القمة ، ويهبط بذاك الى الحضيض ، ويطبع هذا الشعب أو ذاك بمزاج نفسي خاص ، وتكوين عقلي معين ، وتقاليد إجتماعية وروحية تبقى ما بقيت هذه الظروف والأحوال وتزول بزوالها. فتبعاً للملابسات التاريخية وظروف الحياة الإقتصادية والثقافية ، وأوضاع المجتمع والحضارة في شعب من الشعوب أو أمة من الأمم ، يتقلب هذا الشعب أو تلك الأمة في مدارج مختلفة من الرقي والانحطاط ، وتبرز عنده (أو عندها) ميول ورغبات وحاجات ومطالب ومطامح وآمال أو تنعدم ، وتتفجر فيه (أو فيها) طاقات ومواهب أو تجفُّ قدرات ومنازع . . . كل ذلك يجري والشعب لم يفقد شيئاً من ملامحه المورفولوجية وطابعه الجسمي وتكوينه البيولوجي .

والمثل الصارخ على ذلك اليونان : الأبدان لا تزال هي الأبدان منذ العصور الموغلة في التاريخ والمورفولوجيا لا تزال هي المورفولوجيا وكذلك البيولوجيا لا

تـزال هي البيولـوجيا ، ولكن شيئـاً من ذلك لم يصنـع اليونـان التاريخيـة . فما صنعهـا قد مضى الى غيـر رجعـة . اليـونـان هي قـدس أقداس الغـرب ومنـاط فخاره، وإليها يدعي الانتماء والنسب. لقد كان صفرا عندما كانت رقمـاً كبيرا، وهي اليوم صفر وهو الرقم الكبير . وتلك الأيام نـداولها بين النـاس . فما عـلا القمة أحد إلاَّ رجع الى حيث كان . وكـذا التاريـخ تصعيد وتصـويب ، وارتفاع وهبوط ، وعز وذل ، وشرف واتضاع . . . وهذا لعمـري من غرائب الأحوال مع أنه أشيعها وأكثرها وقوعاً وإيقاعاً ، وأقربها إلينا لُحمة وأشـدها ألفـة . . . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون !!

أجـل إن اليونـان القدمـاء لا يختلفون من النـاحية الجسديـة عن اليـونـان المحـدثين ، ولكن هناك فـروقاً شـاسعة بين اليونـانيـين : يـونان الأمس ويـونان اليوم ، حتى لكأن هؤلاء ليسوا أحفاد أولئك . إنهم شعب لا يجمعهم بأسلافهم الأولين إلا الاسم المشتـرك والملامـح الجسمية والـرقعة الجغرافية، لا بـل حتى هـذه قد تقلَّصت كثيـراً و . . . أمَّا مـا عدا ذلـك فقد تبـدد وتلاشى كأن لـم يكن بـالأمس . بل لقـد بلغ من حقارة هؤلاء أن جعلوا من أولئـك مـادة فـولكلوريـة وسياحيــة لجمع المال فـي المواسم والأعياد ، كـأنهم « صندوق الـدنيا » بعـد أن كـانوا أعجـوبة الـدنيا ، فيجمعـون المال بـاسمهم ويعقدون الصفقـات على رفـاتهم ، إنهم شر خلف لخيـر سلف ! لقـد قلب الأجـداد بين أيـدي الأحفـاد سلعة صغيرة بعد أن كانوا قيمة كبيرة لا تقدر بثمن لقـد كانـوا حدثـا تاريخيـا لا مثيـل له فـأصبحوا حـديث ثرثـرة ومساومـة يدور في الأسـواق . وبعـد أن كـان الأسـلاف مـورداً للعلم يحـج اليهم الـطلاب من أقصى الأرض ، إذا هم على أيـدي الأخلاف مـورد للسياحـة يحج اليهم هـواة المتاحف وعشـاق كل غـريب « للفرجة » وتزجية أوقات الفراغ والعطلات السنوية .

أرأيت الى الفـرق بين يونـان اليوم ويـونان الأمس ؟ أليس بينهمـا مـا بين الذنب والرأس ؟ إحداهما لا همَّ لهـا إلا المتاع والمكس ، والأخـرى لا ترضى بديلاً عن ارتقاء القمم واقتحام الشمس ؟ ألا مـا أعظم الفـرق بين غزو النجـوم والبقاء بين التراب والرمس ! .

إيه أثينا ! ماذا دهاك ؟ كيف أصبحت أطلالاً وخرائب ينعق فيها البوم ؟ ما بال الناس قد تولوا عنك وانفضُّوا من حولك ؟

لقد ذهبت أثينا وذهب الحَوْل والطَّوْل ، وولَّى معهما العطاء وولى السخاء والبذل ، إرحموا عزيز قوم ذل !!

*

كل الأمم أثينا ، وأثينا مَثَل صارخ على تقلُّب الأمم والدول وما يعرض لها من علو وارتفاع وانحدار وهبوط . لقد أعطت أثينا حتى أوفت على الغاية في العطاء ، لقد أعطت حتى لم يبق في القوس منزع، ثم هوت أثينا ورُدَّت الى أرذل العُمر .

وكذلك العرب . لقد كان الفكر العربي معطاءً حقاً ، وكان عطاؤه لا ينحصر في ميدان دون آخر ، بل لقد شمل جميع الحقول والميادين المعروفة آنذاك أو كاد . ماذا أقول ؟ لقد اقتحم ميادين لم تكن معروفة من قبل . فهو في مجال التعبير عن الهوية العربية وبناء الشخصية العربية أعطى الأدب العربي وعلم الصوتيات Phonetics(1) والعلوم العربية (نحو صرف ، عروض الخ . .). وفي المجال الإسلامي أعطى العلوم الإسلامية (تفسير ، حديث ، مصطلح ، فقه ، أصول ، كلام الخ . .) وفي المجال العقلي أعطى الفلسفة العربية الاسلامية . هذا على الصعيد العربي الإسلامي . وأما على الصعيد العالمي فقد ارتقى ببعض العلوم (طب ، صيدلة ، حيوان ، نبات ، رياضة ، فلك الخ . .) وخلق علوماً لم تكن موجودة من قبل (جبر ، كيمياء ، طبيعة ،

---

(1) بقسميه العام General والوظيفي Phonology وقد درسه العرب بإسهاب وعمق وكتبوا فيه أبحاثاً مستفيضة لا تختلف كثيراً عن الأبحاث التي يتناولها أي كتاب حديث في الصوتيات . أنظر الكلمة الهامة التي ألقاها في هذا الصدد د . يوسف الهليس في الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ، المنعقدة بجامعة حلب من 5-12 نيسان (أبريل) سنة 1976 (الأبحاث صفحة 461-486) .

فلسفة التاريخ ، علم الاجتماع . .)[1] وتـوج ذلك كله بـالمنهج العلمي الـذي وهبه للإنسان تذكره بعصور العطر والشذى قبل السبات الطويل . وهكـذا يكون الفكر العربي الاسلامي قد نجح في توكيد انتمائه العربي ونسبـه الاسلامي دون الإخلال بروابطه العالمية أو التفريط فيها . فالفكـر العربي الإسـلامي كما يعني تـوكيد الشخصيـة القوميـة المستمرة فـإنه يعني أيضاً توكيـد وجودهـا الإنسـاني العالمي . فهو عنـدما يكـون خلاقـاً يضيـف الى الحياة مكـاسب جديـدة ويغني الوجود الانساني برصيد طارف جديد . فالخلق لا ينحصر في إغناء الذات ، بل هو أيضاً زيادة في حجم الوجود الانساني ، وزيادة في حجم الحياة ، وزيادة في الإنتاج الحضاري العالمي ورفع مستـواه ، بإمـداد الثقافـات العالميـة بمنجزات فكرية وفنية وأدبية جديدة ، تغني الحضارة الانسانية وتزيد في مكاسبها وخبراتها وخيراتها . بل إن عملية الخلق التي تتمخض عنها الذات لا تتكشف ولا تستبين إلا بقدر ما تتعـدّى هذه الـذات وتفيض عنها الى مسـافات بعيـدة في الخارج . فكلما كانت المسافة أكبر كانت الدلالة على أصالة الفكر أوضح وأبين. وبعبـارة أخـرى ، إن توكيـد الذات هـو في نفس الوقت تـوكيد للوجـود الإنسـاني . إنـه اشعاع وعطاء .

*

هنـاك أحكام زائفـة لا معنى لهـا ينكشف بـطلانهـا بعـد قليـل من إمعـان النظر ، فحذار حذار التشدق بها والوقوع في فخاخهـا ، كقولنـا مثلاً إن العـرب عاجزون عن إنجاز الأعمال الكبيرة ، رغم أنهم :

1 ـ أسسوا ديناً كان ـ ولا يزال ـ يؤثر في سير التاريخ ويوجه أحداثه ، ديناً انطلق من عرينه بسرعـة مذهلة لا مثيـل لها في حيـاة الأديان ، واكتسـح مناطق ومساحات وحضارات مختلفة ، وانتشر على أيدي التُجـار والعُبّاد والـزُهاد أكثـر منه على أيدي الحكام والفاتحين ، وفي عصـور الضعـف السياسي أكثـر منه في

---

(1) أنظر تفصيل ذلك في كتابنا الجامع في تاريخ العلوم عند العرب.

أيام المجد العسكري ، وكان من القوة والمتانة والاستيلاء على مشاعر المؤمنين وغزو قلوبهم بحيث إنه قد أكسبهم مناعة منقطعة النظير تستعصي على جميع حركات التبشير التي تقف أمامه عاجزة مشلولة رغم ما تقدمه من إغراءآت المال والمجد والسلطان [1]

2 ـ أنجبوا عدداً لا يحصى من القادة والرادة والعسكريين الأفذاذ الذين برزت مواهبهم وكفاءآتهم على نطاق عالمي ولم تقتصر على المحليات الضيقة .

3 ـ حفظوا تراث الأوائل من البلى والفناء ، وبعثوا الفكر اليوناني حياً بعد أن كان في الرمق الأخير يُحتضَر، واتخذوه دستوراً للفكر ومنهاجاً للحياة بعد أن كان مدفوناً في الكهوف والسراديب تهدده الأرضة والرطوبة والديدان والحشرات. . . وجعلوا منه غذاء للعقول بعد أن كان طعاماً للهوام . لقد قدروه حق قدره عندما نبذه خاصةُ أهله الذين اكتفوا بتخزينه في بعض الرؤوس للتجمل به والتكايس أمام الأقران كأنه أحجار ثمينة في رأس شمطاء شنعاء ، فتلقفه العرب منهم وتولوا أمره بأيديهم واستنقذوه ممن حُمِّلوه ثم لم يحملوه، فكان مثَلُهم في عدم الأهلية للحمل كمثل الحمار يحمل أسفاراً ! !

4 ـ تركوا من الكتب والآثار ما يزيد على ما خلَّفه القدماء مجتمعين ـ من يونان وهنود وفرس وسريان و . . . ـ أضعافاً مضاعفة ولم تكن هذه الكتب والآثار مجرد نقل ورواية لأقوال القدماء . فإن العرب لم يكونوا مجرد آلات لحفظ التراث القديم أو قناطر عبرت عليها الحضارات السابقة في طريقها الى عصر النهضة في أوروبا ، بل لقد أضافوا إليه إضافات هامة جداً سنقف على بعضها . فقد تركوا آثاراً واضحة في العلم والفن والدين والأدب والفلسفة ، وأنتجوا من ثمار الفكر ما لم تنتجه أمة قبلهم . ماذا أقول ؟ إنهم لم يقتصروا على الإسهام في تقدم الطب والفلك والجغرافيا وعلم العدد وغيرها من

---

(1) أنظر توماس ارنولد : **الدعوة الى الاسلام** (الترجمة العربية) تجد فيه جميع الشواهد على ما قدمنا وإن كان لا يخلو من الغمز أحياناً .

العلوم ، بل لقد وضعوا علوماً جديدة أيضاً لم يعرفها القدماء كالكيمياء (العلمية) والطبيعة والجبر وفلسفة التاريخ والإجتماع . ناهيك بإسهامهم الكبير في علوم الدين وعلوم اللغة ، فلا اليونان ولا الرومان ، كلا ولا الهنود ولا الفرس ، تركوا آثاراً فكرية كما ترك العرب . والدليل على ذلك أن عدد المخطوطات العربية والإسلامية التي تناولت جميع فروع المعرفة والتي وصلت إلينا ـ دون تلك التي فُقدت في الحروب والفتن والحرائق ، وتلك التي أتلفتها محاكم التفتيش بعد خروج العرب من الأندلس ـ أقول إن هذا العدد يفوق كثيراً جداً عدد تلك المخطوطات التي خلفتها الأمم الأخرى مجتمعةً . فقد كانوا من قوة الاستيعاب بحيث يتمثلون المعاني الأجنبية في حسهم ومواهبهم ، ثم يستولدونها ثانية وعليها سيماهم وكأنها من صميم العربية وينبوعها الثرّ الدافق .

5 ـ حققوا أعظم حدث في تاريخ العلم ومبرر وجوده ، ألا وهو اكتشاف المنهج العلمي واهتداؤهم إلى التجربة لتكون عاملاً حاسماً في تقرير الحقيقة . فقد عرفوا العناصر الأساسية لمنهج البحث العلمي : الإستقراء والتجربة والملاحظة ، وهي عناصر كفرت بها أثينا ، وسخر منها أفلاطون وأرسطو[1] ، لأن اليوناني الأصيل لا هاجس له إلاّ التأمل والنظر العقلي الخالص ، ويدع لمن دونه من العبيد والبرابرة مهمة الاتصال بالمادة الخسيسة ومعالجة شؤون هذا العالم الهيولاني السافل المنحط . ولئن كانت هذه الصورة لا تخلو من المبالغة في نظر بعض المحققين الغربيين ، فإنها تظل على كل حال صورة معبرة عن العقلية اليونانية وان لم تكن صورة دقيقة .

6 ـ أقاموا حضارة ضخمة عتيدة لم يكن لها مُنازع أو شريك طوال العصور الوسطى كلها ، حضارة استطاعت أن تغزو العقول والأذهان في الشرق والغرب ، وتكون مصدر خير وبركة لكل من آمن بها أو تفيَّأ بظلالها . ثم انتقل إشعاع هذه الحضارة الى أوروبا الحديثة ، فكانت عنصراً هاماً من عناصر نهضتها ومستقى لكثير من جوانب حياتها ، إذ لفتت الفكر اللاتيني إلى العالم

---

(1) أنظر كتابنا الجامع في تاريخ العلوم عند العرب صفحة 150-160 .

الجديد الذي يموج من حوله ، ففكّت إساره ، وأقالت عثاره وأطلقت عقاله ، وحررته من ضغط السلطات الدينية الجاهلة المتعصبة وإرهابها ، وكانت نموذجاً للتسامح وصيغة فريدة للتعايش بين الأديان والطوائف والملل والنِّحل ، والمذاهب والآراء . ففتنته واستهوته وأخذت بجماع عقله وحشاشة قلبه ، وكانت له قدوة وموئلاً . وما زال يقاوم القمع والاضطهاد والتعصب والجهل حتى كُتب له النصر أخيراً . لقد نضجت جميع العوامل الداخلية في بلده لتلقف التأثيرات الخارجية الوافدة . لقد كان ينتظر الشرارة ليلتهب ، وجاءت الشرارة على موعد . ومنذئذٍ انقلبت المعادلة ، فبدأ الغرب عملية إصدار الضوء وبدأ الشرق ينحسر عنه الضوء ليعود مرآة عاكسةً للضوء. فالضوء لا يستقر له مقام إلا بالانتقال من مقام الى مقام .

ولن نكون مبالغين إذا قلنا إن الحضارة الأوروبية لم يصنعها التأمل اليوناني الذي ترفض إلاّ أن تنتسب إليه وحده، بقدر ما صنعها العلم الحديث والفكر الحديث اللذان شارك العرب والمسلمون كثيراً في تأسيسهما وتوطيد دعائمهما وتوسيع قاعدتهما. بل إن التأمل اليوناني ـ فضلاً عن الكنيسة ـ كان عائقاً تعثرت به الحضارة الأوروبية زمناً طويلاً ، وعقبة كأداء في طريق تقدم العلم والفكر . فكأنما قد جاءت الحضارة العربية الاسلامية في الوقت المطلوب لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أشلاء فكر قد تضافرت قوى كثيرة على إخماده وإسكات صوته ، وللنهوض بشعب (أو الشعوب) أراد الحياة وصمم على أن يخْلع أسماله البالية وينفض عنه غبار العصور . فالعرب كانوا ـ حقاً ـ عاملاً مهماً في خروج أوروبا من الظلمات الى النور، ولكن بعد أن صحَّت عزيمتها وصممت على هذا الخروج . لقد اهتدت الى العلم بعد الجهل ، وإلى التسامح والتعايش بعد التعصب والتنابذ ، والى الحضارة بعد الهمجية . لقد تعلمت كيف تفكر، وكيف تنظر، وكيف تبحث وتدرس وتجرب وتلاحظ . لقد كان الغرب ـ كما كان العرب ـ مثلاً حياً آخر على مدى تأثير القوى الخارجية عندما تنضج القوى الداخلية وتستكمل شرائطها وأسبابها . لقد هبت عليه رياح التغيير من الأندلس وجنوب ايطاليا وفرنسا والحروب الصليبية ، وكانت الوثبة الجبارة ، وكانت الإنطلاقة الرائدة الكبرى .

ورغم كل هذا الذي صنعة العرب لأنفسهم وللعالم ، ورغم جميع الخدمات التي قد أسدوها الى العلم والفكر والحضارة ، ورغم . . . ورغم . . . ورغم . . . فإنهم - في نظر أولئك الرهط من المكابرين العنصريين الغربيين المعروفين - لا يستحقون كلمة عرفان للجميل ، ولو جاؤهم بكل آية . فلا يستحق هذا العرفان إلاّ من قدم للإنسانية إنجازاً عظيماً ، وهذا محصور بالآريين وآلهم وأحفادهم وأسباطهم وذرياتهم الذين نزحوا من الهند وفارس وبحر قزوين في عصور موغلة في القدم الى أوروبا - بزعمهم - واستقروا فيها ، وحققوا لها الأمجاد والمآثر .

فإذا لم تكن جميع إسهامات العرب العلمية والحضارية ، وإذا لم يكن كل مّا قدموه للتراث الإنساني من خدمات وعظائم ، وإذا لم يكن لجميع التبدلات التاريخية التي أحدثها الاسلام في شبه الجزيرة العربية ، ثم تجاوزها إلى ما وراءها ، وظلت تفاعلاتها تنتقل من بلد إلى بلد ، ومن أفق إلى أفق ، ومن عصر الى عصر ، حتى فرضت نفسها على تطور الفكر الإنساني كله والحضارة العالمية - بأسرها وصارت عاملاً أساسياً فيها - أقول إذا كان كل هذا الذي صنعه العرب على غير مثال لا يُعدُّ إنجازاً عظيماً رغم أنه غير مسبوق وغير مكرور. فقولوا لي بربكم ماذا عسى أن يكون الإنجاز العظيم إذن ؟

لقد صدق الشاعر حين قال :

وعين الرضى عن كل عيب كليلة
ولكن عين السخط تبدي المساويا

*

فلو جاء العرب بكل آية فإن أصحاب الأغراض والأحقاد لن يؤمنوا إنها لن تكفي أبداً لنزع ما في صدورهم من غل . إنهم يعانون من عقدة العروبة والإسلام يذكيها صَلَف القوة والاستعلاء يُصبُّ في قالب هش من العلم الأكاديمي . قولوها بصراحة يا هؤلاء . لقد حلّقتم في أجواء المعقول واللامعقول لتثبتوا باطلكم ، وسخّرتم العلم للتمويه والتضليل بئسما شريتم به أنفسكم ! بئس العلم يباع في سوق النخاسة ! بئس العلم في أيد غير أمينة لا تحفظ له حرمة ولا ترعى له عهداً !

وزبدة القول ، يجب أن نتوقع في كل عقلية من العقليات ، أو ثقافة من الثقافات ، أو فلسفة من الفلسفات ، عناصر دخيلة وأخرى جديدة . لذلك إذا أردنا الحكم عليها لا يجوز الاكتفاء بما انتقل إليها من مؤثرات خارجية ، بل يجب البحث أيضاً عما عسى أن يوجد فيها من عناصر ذاتية غير دخيلة ، قد تبهم وتغمض حيناً ، وقد تلتبس بغيرها أحياناً ، لكن الاستمرار في البحث ، والدأب على العمل ، وتقصّي الموضوع من جميع أطرافه ـ كل أولئك قمين بالكشف عن الحقيقة . وفي مقدور التقنية السّيْكوسوسيوديناميـة أن تقدم لنا عوناً سخياً في هذا السبيل ، كما سيتضح ذلك في خاتمة الكتاب فالأمور بخواتيمها. فلئن نفذت إلى الفكر العربي الإسلامي تيارات متعددة اجتمعت فيه وتفاعلت على ساحته ، إلا أنه يجب ألاَّ يصرفنا ذلك عن البحث عن نتائج هذا التفاعل وثمرات هذا اللقاء .

هذه النتائج والثمرات تتجلى فيما يلي :

1 ـ علم الكلام الذي يقول فيه رينان إنه الفلسفة الحقيقية في الإسلام . فهذا العلم رغم اعتماده على النقل فقد انتهى به المطاف الى أن اختلطت مباحثه بمباحث الفلسفة حتى لقد ظُنَّا علماً واحداً . لقد خاض في أبحاث ، ووصل إلى نتائج ، وحقق غايات وأغراضاً لم تخطر لليونان على بال ، بل هي في كثير من الأحيان تخالفهم في الروح والفكرة والمبدأ والغاية . لقد كان اليونان بين أيدي العرب مجرد أدوات للعمل ولم يكونوا أبداً مهيمنين على طبيعة العمل والأغراض المطلوبة من العمل . لقد دلهم اليونان على الطريق ولكن لم يشاطرهم اليونان أعباء الطريق ولم يحملوا عنهم أمتعة الطريق . لقد علمهم اليونان المنطق والفلسفة ، ولكن هيهات أن ينبغ كل أحد في المنطق والفلسفة ويسخرهما بنجاح لأغراض العقل والدين والإيمان . قلة مختارة من العرب نبغت في هذا السبيل وحققت فيه نجاحاً باهراً . وهذا حسبها . فشذور الذهب لا تزيد عن حد مخصوص في جميع الأمم ، بينما المعادن الرخيصة مبذولة للجميع ويقدر على اقتنائها الجميع . فإنما الأمم بقلتها المختارة ، لا بجماهيرها الحاشدة العمياء وأغمارها الجاهلة . لقد كان للعرب حظهم الكامل من هذه القلة التي صنعت التاريخ والعلم والحضارة في بلاد العروبة

والإسـلام . إنهـا ملح الأرض ومعـدنهـا الثمين في ركـام كثيف من المعـادن الرخيصة ، والشوائب والغثاء لا يغني عن الحق شيئاً .

2 ـ علم أصـول الفقـه الـذي يخـوض في مبحث الـدليـل والعلم والعلة والحكم وعلل الأحكام وغير ذلك من الأمور التي يلمح المرء فيها نشأة التفكيـر الفلسفي الأصيل المستقل عن اليـونان في بـلاد الاسلام . فـإن هذا العلم غني بالمباحث التي تكاد تهجم على علـم الإلهيات وتلتبس به حتى ليشك المرء وهو يتصفـح كتابـاً في علم أصول الفقـه أن يكون هـذا الكتاب كتـاباً نقليـاً لا كتابـاً عقلياً . وقد توصل علماء أصول الفقه وعلماء الكلام الأصولي الى وضـع منطق جـديد يختلف عن منـطق أرسطو اختـلاف الهندسـات اللاإقليـدية عن هنـدسـة إقليدس. فنحن نجد في هذا المنطق المباديء العامة للمنهج العلمي الحديث، بـل نجد فيـه أشياء لم يصـل اليها رواد المنهـج العلمي حتى الآن ولم يسمعـوا بها .

3 ـ العلوم الـدخيلة من طب وفلك وريـاضـة وطبيعـة وجغـرافيـا وتـاريـخ واجتماع . . . ومعالجتها على أساس المنهج العلمي التجريبي الذي إنما اشترك في وضعـه علمـاء الـطبيعـة العـرب وعلمـاء أصـول الفقـه وبعض الفـلاسفـة الاسلاميين .

4 ـ التصـوف وريـاضـة النفس ومجاهـدتها وتحليلهـا والبحث في أذواقهـا ومواجيدها ، والوصول من ذلك الى تأملات وأنظار في الإنسان والكـون والحياة والمصيـر ليس لها من التصـوف إلا الاسم . كمـا ان للصـوفيـة أيضـاً منـطقهم الجديد المخالف جد المخالفة لمنطق أرسطو .

5 ـ وأخيراً الفلسفة التي تتفق مع الفلسفة اليونانية في أشياء وتختلف عنها في أشياء . ورغم اعتماد هذه الفلسفة على فلسفة الأوائل فقـد استخلصت منها نتائج لـم تخطر للأوائل على بال ، بل من شأنها ـ لو أطلع عليها هؤلاء ـ أن تثير سخطهم على تلاميـذهـم العـرب الذين يُقوِّلونهم ما لا يقولون وينسبـون إليهم كل ما يقولون ! لا سيما وإن الفلسفة اليونانية قد كانت سلاحاً ماضيـاً استخدمـه كثير من المفكرين الاسلاميين للرد على اليونان أنفسهم وإبطال أقاويلهم وإثبات تهافت حججهم .

*

إن الطبيعة تخاطب الجميع ، وتتحدث بحرية الى أولئك الذين يجيدون لغتها . وهيهات أن يفهم هذه اللغة كل أحد . فلا يفقه لغة الطبيعة إلا من اكتملت شخصيته وتوفرت له مجموعة من الصفات والخلال لا بد منها لكل عمل عظيم . وقد أجاد العرب لغة الطبيعة ـ أو فريق منهم بتعبير أدق وهم الموهوبون ـ ووقفوا على الكثير من أسرارها وأحاجيها ، وعرفوا كيف يستنطقونها ويستلهمون معانيها . لقد قاربوا ووفقوا ، وصنّفوا ونسّقوا وبوّبوا ، وعدّلوا وصححوا ونقّحوا ، وأضافوا وحذفوا ، وأمعنوا في النظر والتأمل والتعليل والمقارنة والموازنة . لقد كانوا يعشقون الحقيقة ويخلصون لها ويتفانون في سبيلها وقد وضعوا المناهج والأصول للوصول إليها . لقد كانوا يتوغلون في كل مُظلمة ، ويتهجمون على كل مشكلة ، ويقتحمون كل ورطة ، ويتفحصون عن عقيدة كل فرقة ، ويستكشفون أسرار مذهب كل طائفة ، ليميزوا بين مُحق ومُبطل ومُصلح ومُفسد . لقد كان التعطش الى درك حقائق الأمور دأبهم وديدنهم . لقد كان غريزة من الله وفطرة وضعها في جِبِلّتهم ، لا باختيارهم وحيلتهم ، على حد تعبير أحد عمالقتهم ، ـ الغزالي ـ وهو يتحدث عن نفسه . فهو عندما كان لا يزال في عنفوان الشباب منذ أن راهق البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى أن أناف السن على الخمسين ، يقتحم لجة هذا البحر العميق ، ويخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور . وظل أمره كذلك حتى انحلّت عنه رابطة التقليد ،وانكسرت العقائد الموروثة عن قرب عهد سنه بالصبى ، ودخل في صراع الشك العنيف ، ثم خرج منه بعد أن أشرف على الهلاك . . . وما ينطبق على الغزالي ينطبق أيضاً على جهابذة العرب وعلماء الاسلام الآخرين ، على تفاوت في ذلك . فإن ما ذكره الغزالي هو الحد الأدنى من الصفات التي لا بد لكل مبدع عظيم أن يتصف بها . إنها المدخل الطبيعي الى الأصالة وبناء الشخصية المبدعة الخلاقة .

بهذه الصفات أرسى إبن الهيثم قواعد البصريات وعلم الضوء . واكتشف ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى ، وقام البيروني بقياس محيط الأرض ، ووضع إبن سينا وإبن تيمية أسس المنهج العلمي ، ونقل الرازي الكيمياء من الطور الأسطوري إلى الطور العلمي ، ومهّد ابن الشاطر لآراء كوبرنيقوس

الفلكيـة ، وأسس الخوارزمي علم الجبـر ، والزهـراوي علم الجـراحـة ، وابن البيطار علم البنات ، والبتّاني علم المثلثات ، وابن خلدون علم الإجتماع وفلسفة التاريخ . . . إن السلسلة طويلة والحلقات لا حصر لها، ولابـد من كتاب كـامل لكل واحد من هؤلاء ، على ألاَّ يقتصر الكتاب على مجلد واحد فقط ، هذا مع أن الـوقت لم يحُن بعد لاستيفـاء القول في مـوضوع تـاريخ العلوم عنـد العرب والإحاطة به من جميع أطرافه . ففي كل يوم تُكتشف مخطوطات جـديدة تضـع أيـدينا على حقـائق تاريخيـة جديـدة ، وعلى مـآثـر للعـرب والمسلمين لم تكن معروفة من قبل . كل ذلك رغم ما فُقـد وضاع وتلف من المخـطوطات العـربية الاسلامية في الحروب والحرائق وعوادي الطبيعة وآفات الزمان وتصاريف الدهر وغوائل الحَدثان .

*

لقـد أصابـوا في أمور كثيـرة وأخطأوا في أمـور كثيرة أيضـاً ، وجـدُّوا في البحث والـطلب ، حتى وصلوا الى طلب مـا لا يُـطلب . ومن هنـا انــطلقت مـذاهب الشـك واليقين ، والإيمـان والإلحـاد ، والعقـل والنقـل ، والعلم والتصوف ، والتقليد والاجتهاد ، ووحدة الحقيقة وتعددهـا . . . لقد وصلوا الى مـذاهب في الألوهيـة لا تقل روعـة عن ـ إن لم تكن تفوق ـ مـذاهب المحدثين ونظرياتهم، وخاضوا في كل ذلك بجرأة وحرية واندفـاع، دون أن يخشوا سخط الساخطين وضغينة المضطغنين . ولم يكن هناك محاكم تفتيش أو سلطات دينية متعصبة جـاهلــة عليا تحدُّ من حرية الفكر أو تضع لـه القيود والأغـلال ، خلا ما يتصل بسيـاسة الحكم، وهي نقـطة سوداء في تـاريخهم . نعم لقد عـورض الكثيـر في عدد لا يستهـان به من المسـائل ، وهـذا شيء طبيعي جـداً وصحي جداً ، لكن لا لم يُحرق أحد لرأي اعتقده أو فكرة قال بها مهمـا كانت مخـالفة للدين . فـالـدين لله ، والله ليس ملكـاً لأحـد حتى تُـزهق في سبيله الأرواح . والدليل على ذلك أن مذاهب الزندقة والإلحاد لم يُطلق لها العنـان في بلد كما أُطلق لها في بلاد الإسلام، وذلك في صميم العصور الوسطى، عصور التعصب والاضطهادات الدينية الذميمة ، اللهم مـا لـم يكن ذلك متصـلاً بسياسـة الحكـم واطماع السلطان كما ذكرنا .

لقد آمنوا بالله فسخَّروا العقل والمنطق لإثبات وجوده . لقد آمنوا بالقرآن فحملوا رسالته وجنَّدوا أنفسهم وجميع طاقاتهم للدفاع عنه والغوص على معانيه ، واستخراج علوم أهل الأرض من ينابيعه . بل لقد أوجدوا شتى العلوم لفهمه والوصول الى حقائقه . وأفاضوا في بيان الحكمة الكامنة في كل آية من آياته ، بل في كل حرف من حروفه أحياناً ، وذهبوا في ذلك مذهباً شططاً . فقد قوَّلوه ما لم يقل ، واستخرجوا منه معاني ودلالات وحكماً لم تخطر ببال محمد ولا من هو فوق محمد . المهم أن يعمل العقل ويكدح ، ولا عليه بعد ذلك إن أصاب أو أخطأ . هناك فائض من الفكر ، وطاقات عقلية زائدة على احتياجات القوم ، فراحت تبحث عن منافذ لها فيما يلزم وفيما لا يلزم ، ما دام في ذلك تصريف لها[1] . فريق آمن بالقرآن وتجند لرسالته والدفاع عنه بأي وجه اتفق ولم يخش في ذلك لومة لائمٍ ؛ وفريق تحدَّاه بنفس الإيمان ونفس الحماسة وأظهر اختلافه وتعارض معانيه ، ولم يخش في ذلك لومة لائم أيضاً . الجميع يتوخَّون الحقيقة ويبشرون بها ويدعون إليها بالسر والعلن ، دون أن تكون هناك سلطة عليا تعطي لنفسها الحق الإلهي في إملاء الرأي الذي ترى ، كما فعلت السلطات الكهنوتية في أوروبا ، إذ أعطت لنفسها الحق في إحراق كل من لا يدين دينها ويذهب في الفكر والتعبير غير مذهبها . فالقرآن حمَّال أوجُه ، لكل أن يعتقد ما يراه حقاً ولو خالفه الآخرون. فلا يبتُّ في الأفكار ويحسمها إلاَّ ما فيها من قدرة ذاتية على الصمود والكفاح وتنازع البقاء .

وكما عورض القرآن عورض النبي وقامت في وجهه تيارات وتيارات . هذا يؤيد رسالته ، وذاك ينقضها . فالمُساند لم يدخر وسعاً للدفاع عن النبوة وإثبات صحتها وتجهيل خصومها . وما أمر الفارابي وإبن سينا وقبيلهما عنا

---

(1) هذا على كل حال تفسيرنا نحن الذين ننظر اليهم من بعيد لنرى كيف يتصرفون في هذا الفائض العقلي وما هي الوجوه والمسارب التي يتخذها . أما هم فلا يفرقون بين ما يلزم وما لا يلزم . فالكل عندهم سواء من حيث اللزوم، فكل فرقة منهم تعتقد أنها على حق، وأنها الفرقة الناجية وان جميع أفعالها تدور في فلك القرآن وسنة الرسول وأن على الجميع بالتالي اتباعها. فالحق أحق أن يُتَّبع

وكل يدَّعي وصلاً بليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا

ببعيد . وكذلك المُعارض والمناوىء : فإنه لم يدَّخر هو أيضاً علماً ولا أدباً ولا فلسفة لنقض النبوة وإظهار بطلانها وتسفيه أحلام القائلين بها . وما أمر الرازي وابن الراوندي وقبيلهما عنا ببعيد أيضاً. إنها معركة عقول وأقلام ، لا معركة سيوف ورماح . لقد كانت هناك ملاحم فكرية لا محارق جسدية ، ولا يبقى إلاَّ الأقوى والأقدر على البقاء .

وكما أخذ فريق من المسلمين بفرائض الدين وأحكامه وتكاليفه والتزموا حرفية النصوص، فقد ترخّص فريق آخر وأخذ ينادي بالتوسع في فهم النصوص وعدم التزمت والتشدد . ولم يُعْوِز هذا الفريق الحجة والبرهان لإثبات الرخصة وإحقاق ما يراه حقاً. وهكذا قوبل التزمت بالتحلل، لكنه ليس تحلل الماجن الفاسق المستهتر ، بل تحلل المؤمن المجتهد الواسع الصدر الواثق بربه . وما أمر فلاسفة الاسلام والمعتزلة وأصحاب مدرسة الرأي وبعض فرق الصوفية ، عنا ببعيد . نعم كان هناك عدد لا يحصى من المجان والفساق والمستهرين ، ولكن هؤلاء تُسيِّرهم الغريزة والهوى وإنما حديثنا هنا عن المترخصين بالاجتهاد والرأي . وشتان بين الفريقين ، فريق الهوى والمجون وفريق الفكرة والمتون . وبينهما درجات ودرجات من الاتفاق والاختلاف لا يدرك غورُها ولا يُحصى عديدُها ، وذلك تبعاً لما اطلقنا عليه في كتاب سابق لنا اسم (**قانون التقابل في الإثارة السّيْكوسوسيودينامية**)[1]. فلو كانت هناك سلطة عليا إذن لفُضَّ النزاع بالقوة وقطع دابر الخلاف ، وإذن لشل الفكر ولصب الناس في بوتقة واحدة . وما كان أوخمها من عاقبة . ولكن الله سلم ! فإن غياب السلطة قد فتح باب الرخصة ورفع الحَجْر والوصاية واطلق للفكر العنان .

لقد جاء أرسطو بفلسفة استهوت العقول والأفهام ، وكان لها إغراء وفتنة عند أولئك المفكرين الاسلاميين الذين نذروا أنفسهم لهيكل المعرفة ومحراب الحقيقة . فاقبلوا عليها حتى صارت جزءاً من ثقافة كل متحرر مؤمن بالعقل وسلطان العقل ، وعلامة بارزة من علامات الرقيّ والتقدم . بل لقد أقبل عليها أيضاً عدد لا يُستهان به من المقلدين الفارغين الذين يعشقون الرطانات الأجنبية، لا حبّاً لها في ذاتها، بل اظهاراً للتكايس في النزوع الى الحق وتقرباً

(1) انظر كتابنا الفكر العربي في مخاضه الكبير صفحة 142-165.

الى أصحابه . ومع ذلك فإن فريقاً آخر من المسلمين قد لا يقلون عن الفلاسفة « الرسميين » إيماناً بالعقل وحباً للحقيقة ، لم تجد الفلسفة هوى في نفوسهم ، فتصدَّوا ـ طبقاً للقانون السابق ـ للرد على الفلاسفة القدماء والمعاصرين لهم بنفس سلاحهم ، مبينين تهافت عقيدتهم وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالإلهيات ، وكاشفين عن غوائل مذهبهم وعوراته ، مع حكاية مذهبهم على وجهه، وما أمر الغزالي عنا ببعيد. فقد اقتصر هذا الأخير في كتاب (التهافت) على إظهار التناقض في رأي مقدَّمهم الذي كان بحسب الأقدمين الفيلسوف المطلق والمعلم الأول ، ألا وهو أرسطاليس ، وما أدراك ما أرسطاليس في تلك الأيام الميس ! لكن الساحة لم تكن خالية للغزالي وحده يجول فيها ويصول ، ويتبوأ منها حيث يشاء ، بل ـ كعادة المسلمين دائماً ، بل هذا قانون من قوانين الفكر ـ لم يلبثوا أن قذفوا الى الساحة بابن رشد ليتولى الرد على الغزالي ويعلن فساد حجته وتهافت (تهافته) . هكذا كان رأيهم دائماً : الفكرة تصرع الفكرة ، والحجة تقرع الحجة ، « واختلاف الرأي لا يُفسد للودِّ صلة » كما كانوا يقولون ، لقد كانوا يقذفون بالرأي على الرأي ، فيدمغه ؛ فإذا هو زاهق . لقد كانوا يزهقون الآراء لا الأرواح ، وكانوا يزهقونها بحدِّ الفكر لا بحد السيف ، وهذا وجه واحد من وجوه الأصالة العربية في تاريخ العصور الوسطى الاسلامية . وهكذا تنشب المعارك بين الأفكار، وتصطرع الأفكار بالأفكار . فأما الزبَد فيذهب جُفاءً ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

*

هذا ، وإن أكثر فلاسفة الاسلام لم يتقيدوا بهذا الفيلسوف أو ذاك من فلاسفة الأوائل تقيداً أعمى يسلبهم حرية الحركة والفكر ، بل لقد حادوا عنهم وهم يدَّعون أنهم إنما يدورون في أفلاكهم ويغوصون على دُررهم . فقد عدَّلوا وبدَّلوا ، وقابلوا وعارضوا ، وقارنوا ووازنوا ، ووفقوا وخرَّجوا ، وقوَّلوا الفلاسفة ما لم يقولوا ، وصححوا هذا الفيلسوف بذاك ورتقوا هذا الفكر بذاك ، وأكملوا هذا بذاك ، ووصلوا الى نتائج لم تخطر ببال هذا ولا ذاك . لقد ربطوا بين عناصر مختلفة وأمشاج متباينة ، في وحدة فنية تتفاوت في قوتها وتماسكها

وروعتها ، ذات أبعاد مترامية وعلاقات كثيرة متشابكة ، وثمرات خصبة غنية . كما جمعوا بين ما اختاروه من فلسفة اليونان وبين ما استصفوه من الدين ، وخرجوا بنتائج ومذاهب وآراء فيها كل جديد وطريف وأصيل.

*

وكانت روح النقد عندهم قوية . وقد ظهرت هذه الروح منذ العصور الأولى لتاريخهم كما يقول روزنتال[1]. حتى إنه لم يسلم عالم أو فيلسوف اغريقي قديم من سهامهم . ولم يقتصر ذلك على الفقهاء ورجال الدين ، بل لقد شمل الفلاسفة والمتكلمين الذين كانوا من أشد أنصار الفلسفة والعلم الإغريقيين . وبهذه الروح النقدية أيضاً وضعوا علم الحديث . فقد كانت لهم تقاليد راسخة في نقد النصوص ومعرفة الصحيح من الزائف فيها ، وقعَّدوا لذلك القواعد ، ووضعوا له المبادىء والأصول والقوانين . ومن مبادئهم المشهورة في هذا الصدد مبدأ (الجرح والتعديل) : فإن الحديث عن النبي عليه السلام لا يُعدُّ صحيحاً في نظر علماء الحديث إلاَّ إذا تتابعت سلسلة الإسناد من غير انقطاع من لدن النبي حتى راوي الحديث عنه . وكانت هذه السلسلة تتألف من أشخاص عُرفوا بصدق الرواية وآخرين لا يؤمَن تواطؤهم على الكذب . وقانون الجرح والتعديل هذا كفيل بتحقيق ذلك الى مدى بعيد . وهذا التحقيق يرجع الى حياة الأشخاص أنفسهم ، والى ظروف الزمان والمكان التي عاش كل واحد منهم فيها . وقد تولت ذلك كتب الطبقات العديدة التي أغنت هذه المادة وقدمت لنا تاريخ الصحابة فرداً فرداً ، ثم تاريخ التابعين وتابعيهم واحداً واحداً ، ويمكننا على ضوء الرواية الخاصة بالأشخاص أن نقضي بتجريح راوي الحديث أو تعديله ، أي عدّه إما مُجرَّحاً (أو معيباً في روايته) أو عدلاً صادق الرواية .

ويُشيد روزنتال بقصة الخطيب البغدادي حين يفضح الوثيقة التي أدعى

---

(1) د . فرانتز روزنتال : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي صفحة 131.

يهود خيبر أنهم مُنحوا بمقتضاها امتيازات خاصة . فاكتشف البغدادي زيفها وعرف أنها إنما هي وثيقة مزورة لا يصح اعتمادها والأخذ بها . ويقول روزنتال إن هذا الكشف « قد أكسب البغدادي شهرة واسعة . وتجدر الإشارة هنا الى أن الخطيب البغدادي لم يأت بجديد ، بل لقد فعل ما كان يفعله العلماء المسلمون إذْ كانوا يقارنون بين التواريخ المذكورة في الخبر والقصة التي يحققون في صحتها أو عدم صحتها . وإذا ما ظهر تباين أو تناقض قطعوا بأن الخبر لا يمكن أن يكون صحيحاً على الوجه الذي جاء فيه »[1] ويؤكد روزنتال أيضاً أن العلماء المسلمين قد أبدوا شكوكهم في صحة كتب كثيرة تُنسب إلى مؤلفين قدماء كابقراط وجالينوس مثلاً[2] .

وحسبهم فخراً أن يطعن اثنان منهم على الأقل في كتابين منحولين كانت تُنسب إليهما شهرة عريضة في العالم الاسلامي والعالم اللاتيني معاً هما (كتاب الربوبية) أو (اتولوجيا ارسطاطاليس) وكتاب (سر الأسرار) . فهذا ابن سينا مثلاً يقول في رسالته الى الكيا أبي جعفر : « على ما في أتولوجيا من المطعن »[3] . كما يدين ابن خلدون كتاب (سر الأسرار) ويحكم عليه بالوضع والانتحال ، عندما يقول في (المقدمة) بصراحة تامة لا لبس فيها ولا إبهام في حديثه عن هذا الكتاب بأنه «غير معزو إلى أرسطوا عند المحققين، لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان ، ويشهد بذلك تصفحه إن كنتَ من أهل الرسوخ »[4] . وقد تجلت هذه الروح عنده أيضاً في نقده لطريقة كتابة التاريخ التي كانت متبعة الى عهده ، وفي نظريته في مغالط المؤرخين ، كما ظهرت كذلك في نقده للمنطق الصوري والفلسفة الميتافيزيقية . وعلى ذكر الفلسفة

---

(1) المصدر السابق صفحة 130-131 .

(2) المصدر السابق.

(3) أنظر كتابنا : من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية صفحة 320-329.

(4) المقدمة 385/1 وتفيد عبارة ابن خلدون أنه لا ينفرد هو وحده بهذا الرأي ، بل هنا تيار من « المحققين » أدّى بهم النظر والاجتهاد والتمحيص إلى هذا الرأي أيضاً . بل لعل هذا الرأي ليس رأيه هو وإنما هو ينقله عنهم .

الميتافيزيقية والمنطق الصوري ونقدهما ونقضهما يجب ألا ننسى نقد ابن تيمية والصوفية لهذا المنطق وإقامتهما منطقين إسلاميين جديدين على انقاضه يختلفان أحدهما عن الآخر غاية الاختلاف . كما لا يجوز أن ننسى أيضاً أمر الغزالي الذي كان في هذا الباب استاذاً لا يُشق له غبار . فملحمته مع الفلسفة هي حقاً من عِبَر التاريخ . ففي هذه الملحمة كان صيال وكان نضال كاد يطاح فيه بالفلسفة لولا أن كان لها جولة أخرى في الأندلس على يد أعلام كبار من أعلامها كان أبرزهم إبن رشد . فقد جاء هذا الأخير بنقده ونقضه لكتابات الغزالي ، فاشتد الصيال واشتد النضال من جديد ، وحمي وطيس القتال ، وعاد الكر والفر ، وانجلى الصراع عن انتصار الفلسفة ، ولكنه انتصار مكلوم أنهكه القتال وأثخنته الجروح .

*

وكثيراً ما كان العلماء العرب يرفضون الأخذ بنظريات جالينوس وبطلميوس وغيرهما لخطأ يجدونه فيها ، ويبنون ذلك إما على تجاربهم الشخصية أو على مجرد التفكير المنطقي . ولو أردنا استيفاء جميع الأمثلة المتوافرة لدينا لطال بنا المقام . لذلك سنكتفي هنا بالقليل منها ، على أن نستفيض في هذا الموضوع في كتاباتنا القادمة إن بقي في القوس منزع . وحسبنا الأمثلة التالية التي يتحدى بها بعض علماء العرب أساطين اليونان مثل جالينوس ، وما أدراك ما جالينوس ، عند اشتداد المرض والبؤس ، فهو معلم العُرب والتُرك والفُرس ، إذا نزل بأرض قوم ذهب العويل وكان في كل بلد فرح وعرس !

فقد انتقد ابن النفيس آراء جالينوس الخاصة بوظيفة الرئتين وتركيبهما ووظيفة الحويصلات الرئوية والأوعية الشعرية التي بين الشرايين والأوردة الرئوية والعروق الموصلة بين الرئة والقلب . فقد كان الاعتقاد السائد بين الأطباء قبل إبن النفيس أن الدم إنما يتولد في الكبد ومنه ينتقل الى البطين الأيمن في القلب ، ثم يسري بعد ذلك في العروق الى مختلف أعضاء البدن فيغذيها ،

وأن بعضه الآخر يدخل البطين الأيسر من طريق مسام في الحجاب الحاجز ، فيمتزج بالهواء القادم من الرئتين . وكان هذا المزيج الذي يسري في الشرايين الى مختلف أعضاء البدن يُسمى الروح الحيواني . هذه هي نظرية جالينوس التي استأثرت بأذهان العلماء والمفكرين أجيالاً طويلة، ذلك كان مبلغ علمهم، فلما جاء إبن النفيس عارض هذه النظرية وانتقدها بشدة، ولو كان صاحبها أطبَّ الأطباء في العالم القديم وشيخهم جالينوس اليوناني الذي طبقت شهرته الخافقين . فقد أدرك إبن النفيس بثاقب نظره ، وبناءً على دراساته السابقة للرئة والقلب أن عملية تنقية الدم إنما تحدث في الرئتين بسبب اختلاطه بالهواء الخارجي عند التنفس . فالدم ينساب من البُطين الأيمن الى الرئة حيث يمتزج بالهواء الخارجي فيتجدد ويُنقّى ثم ينتقل الى البُطين الأيسر . وبذلك يكون إبن النفيس قد اكتشف لأول مرة ما يسمى بالدورة الدموية الصغرى قبل سرفيتوس الإسباني الذي تُنسب اليه هذه النظرية والذي جاء بعد إبن النفيس بثلاثة قرون[1]. وعلى ذكر سرفيتوس هذا، فقد شاء له حظه العاثر أن يكون رجلاً حر التفكير في بلد جاهل متعصب تحقد سلطاته الدينية على العلم والعلماء، وتضطهدهم لأقل هفوة يرتكبونها في حق العقيدة أو يتعرضون فيها لأسرار الشريعة. فهذا الطبيب العظيم لم يستطع قبول سر الثالوث «الأقدس» فكتب رسالة بعنوان (أخطاء الثالوث المقدس) . فهبّت عاصفة هوجاء من السخط عليه سنة 1551 . فقُبض عليه واودع السجن في جنيف بسويسرة وظل المسكين يتلوى في العذاب « يؤلمه كسر ويعذبه تقطع في الأمعاء ، وتؤذيه في نفسه أشياء أخرى أخجل من ذكرها » وتنهشه البراغيث ، وينخر عظامه البرد . وبعد سنتين من العذاب الأليم ، وتقرباً الى الله الذي يتعطش لدماء الذين يؤذون دينه ولا يأخذون بعقيدة التثليث، فقد عمد المجرمون الى إحراقه في جنيف حياً ولم يرحموا شيخوخته وآلامه ولم يكترثوا لاكتشافه الطبي . أجل لقد أحرقوه وأحرقوا معه كتابه (إعادة بناء المسيحية) الذي أتى فيه أيضاً على ذكر اكتشافه العظيم للدورة الدموية الصغرى التي استفادها في أغلب الظن من

---

(1) أنظر كتابنا : الجامع في تاريخ العلوم عند العرب صفحة 274-281.

مخطوطة ابن النفيس المحفوظة في مكتبة الإسكوريال على بعد 51 كم من مدريد[1] . لقد كان معجباً بالطب العربي الذي كان يهيمن على أوروبا آنذاك بعد خروج العرب من الأندلس ، شديد الاهتمام به . وكان الاضطراب يعصف باسبانيا حينئذ وهو اضطراب متعدد الوجوه : اضطراب فكري ، واضطراب ديني ، واضطراب حياتي . وكان الصراع مع فلول التأثير العربي المتبقي قد بلغ أقصاه .

*

فقد كانت لغة أعدائهم العرب الموسيقية ، منتشرة بين صفوف الإسبان أيَّ انتشار . إذ كانوا معجبين بلغة العرب وأسمائهم وازيائهم ، يؤثرونها على ما عداها ، وكانوا لا يالون جهداً في تقليد المسلمين واتخاذ الطابع الاسلامي في جميع جوانب حياتهم . ولا يجهل أحد حسرات القَّارو بطريرك قرطبة التي طالما رددها الكُتاب والمؤلفون ، والتي تتحدث عن ولع نصارى الإسبان بلغة العرب وآدابهم . فقد استبد القلق بالبطريرك فقال والنقمة آخذة منه كل مأخذ : إن إخواني في الدين يجدون لذة كبيرة في قراءة أشعار العرب وحكاياتهم ، ويُقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين لا ليردوا عليها ويظهروا بطلانها ، بل لكي يستفيدوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلاً . [واحسرتاه !] أين عسانا نجد الآن ذلك الشخص - من غير رجال الدين - الذي يقرأ الشروح اللاتينية على الأناجيل المقدسة ؟ ومن - سوى رجال الدين - يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل ؟ أواه ! إن الموهوبين من شبان النصارى الذين يحبون الظهور والمباهاة لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابهم ، وهم يؤمنون بها ويُقبلون عليها بنهم إنهم ينفقون أموالاً طائلة في جمع كتبها واقتنائها . ويُصرحون في كل مكان بأن هذه الآداب جديرة بالإعجاب . فأذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك بازدراء بأنها لا تستحق

(1) أنظر زيغريد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب . صفحة 264-269.

أن يصرفوا إليها انتباههم . يا للألم ! لقد أُنسي النصارى حتى لغتهم ، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب الى صديق له كتاباً خالياً من الخطأ . وأما الكتابة بلغة العرب فإنك واجد فيهم عدداً عظيماً يتقنونها باسلوب سلس جميل ، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فناً وجمالاً[1] .

ولا ينحصر هذا الاعجاب بالعربية وآدابها في النصارى الإسبان ، بل هو يمتد أيضاً إلى اليهود. فهوذا الفيلسوف اليهودي سليمان بن يهوذا إبن غبرول (411 ـ 462 هـ / 1021 ـ 1070 م) ـ ويسميه المسلمون أبا أيوب سليمان بن يحيى ، والنصارى افيسبرون ـ Avicebron ـ فنراه في قصيدة عبرية نظمها من بحر الرجز العربي ، يتحسر على انصراف إخوانه في الدين من أهل سرقسطة عن لغتهم المقدسة ، ويطلق عليهم اسم (الجماعة العمياء) ، إذْ كان بعضهم يتكلم ـ على حد تعبيره ـ لغة ايدوم (Edom : عجمية أهل الأندلس) وبعضهم الآخر يستعمل لغة كدار (Kedar : اللغة العربية)[2] وهذا أيضاً يهوذا الجزيري بن سليمان يبدي أسفاً مماثلاً : فقد أسخطه هو أيضاً ما رأى من تفضيل أهل ملته للغة العرب على العبرية ولم يدخر في كتاباته أي وسع لإثبات أن هذه الأخيرة لا تقل عن العربية ـ ثروة وجمالاً وفتنة[3] .

وقد ظل الإسبان يستعملون اللغة العربية زمناً طويلاً بعد زوال سلطان الاسلام من الجزيرة ؛ وظلوا يكتبون بها وقائعهم ، ويتسمّوْن بأسماء عربية حتى أوائل القرن الرابع عشر . فقد أكدت المخطوطات التي وقعت في أيدي الغزاة ، الاعجاب العظيم الذي أبدوه بلغة العرب . فإنهم بعد أن قهروهم عسكرياً لم ينقص إعجابهم بهم لغوياً وحضارياً قيد أنملة[4] هذا رغم سخط

---

(1) نقلاً عن آنجل جنثالث بالنثيا : **تاريخ الفكر الأندلسي** ترجمة د . حسين مؤنس صفحة 285-286.

(2) المصدر السابق صفحة 493-494.

(3) المصدر السابق صفحة 501.

(4) المصدر السابق صفحة 488.

رجـال الدين وتنـديـدهم المستمـر بـأبنـاء دينهم الضـالين المنحرفين عن سمت العقيدة المفتونين بالكفرة أعداء ابن الله الذي مات على الصليب لأجلنا .

*

وهاك طبيباً عربياً آخر غير ابن النفيس تحدَّى جالينـوس وانتقد آراءه بجـرأة لا يُعشيها البريق الذي يحيط بالأسماء الكبيرة. فقـد انتقد الـطبيب عبد اللطيف البغدادي نظرية جالينوس في تكوين الفـك الأسفل ، ويبدو أنه كان في الأصـل يشك في هذه النظرية . ولكي يتحقق من أشكال العظام بنفسـه كان ينتقـل إلى المقابر ليفحص العظام ومفاصلها وأوضاعها . ولنستمع اليه يقول في ذلك :

« ومن عجيب ما شاهـدناه أن جمـاعة ممن ينتـابني (أي يتردد عليَّ) في الطب وصلوا الى كتاب التشريح ، فكان يعسُر على أفهـامهم وفهمهم ، لقصور القول عن العيان . فـأُخبرنـا أن بالمقس (اسم مـوضع) تمـلاً فيه رمم (عـظام بالية) كثيرة ، فخرجنا اليه فرأينا تلاًّ من رممَ له مسافة طـويلة يكاد يكـون ترابـه أقل من الموتى به . . . فشاهـدنا من شكـل العظام ومفـاصلها وكيفيـة اتصالهـا وتنـاسبها وأوضـاعها مـا أفادنـا علمـاً لا نستفيـده من الكتب، إمـا لأنـها سكتت عنها ، أو لا يفي لفظها بالدلالة عليـه ، أو يكون مـا شاهـدناه مخـالفاً لمـا قيل فيهـا. والحس أقوى دليـلاً من السمع . فـإن جالينـوس، وإن كان في الـدرجـة العليا من التحري والتحفظ فيما يباشره ويحكيه ، فـإن الحس أصدق منـه . . . فمن ذلك عظم الفك الأسفل، فـإن الكل قـد أطبقوا على أنـه عظمـان بمفصل وثيق عند الحنك. وقولنا الكل إنما نعني بـه ها هنـا جالينـوس وحده. فـإنه هـو الذي باشر التشريح وجعله دأبه ونُصب عينيـه ، وصنَّف فيه عـدة كتب معظمهـا موجود لدينا ، والباقي لم يخرج الى لسان العرب .

« والذي شاهدناه من حال هذا العضو أنه عظم واحد ليس فيـه مفصل ولا درز أصـلاً . واعتبرنـاه ما شـاء الله من المرات في أشخـاص كثيرين تـزيد على الفي جمجمة ، بأصناف من الاعتبارات ، فلم نجـده إلاَّ عظْمـاً واحداً من كـل

وجه . إننا استعنّا بجماعة مفترقة اعتبروه بحضرتنا وفي غيبتنا ، فلم يزيدوا على ما شاهدناه منه وحكيناه . وكذلك في أشياء غير هذه . ولئن مكنتنا المقادير بالمساعدة وضعنا مقالة في ذلك نحكي بها ما شاهدناه وما علمناه من كتب جالينوس .

« ثم إني اعتبرت هذا العظْم أيضاً بمدافن بوصير القديمة . . فوجدته على ما حكيت : ليس فيه مفصل ولا درز . ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة أنها إذا تقادم عليها الزمان تظهر وتتفرق . وهذا الفك الأسفل لا يوجد في جميع أحواله إلاّ قطعة واحدة »[1].

تلك هي فقرة واحدة في التشريح وردت عَرَضاً في كتاب (**الإفادة والاعتبار**) الذي ألفه البغدادي في نهاية القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي). كما أن كتب جالينوس التي ألفها في غير علم الطب كانت هي أيضا عرضة لنقد شديد من قِبل المسلمين . فالبيروني مثلاً ينتقد جالينوس لتصديقه خبر ملكة الحيات التي إذا رآها امرؤ أو سمع فحيحها مات من فوره . يقول البيروني : « فليت شعري ! من أخبر بمكانها أو أخبر أمرها إذا كان المطلع عليها ميتاً ؟ »[2].



وكما انتقد ابن النفيس والبغدادي جالينوس في ميدان الطب ، كذلك انتقد ابن الهيثم نظرية بطلميوس واقليدس الخاصة بالإبصار . ماذا أقول ؟ إنه حتى الفكرة البسيطة التي تقوم عليها البصريات الحديثة ، وهي أن للضوء وجوداً مستقلاً ، لم تكن من الأمور المسلَّم بها ، وما ذلك إلاّ لأن الضوء كان يُعدُّ عند القدماء شيئاً إلّهياً له قدسيته وحرمته ، فلا يجوز للمرء أن يذكره إلا

---

(1) نقلاً عن أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب . كلمة د . عبد الكريم شحادة . صفحة 707-708.

(2) نقلاً عن روزنتال (مناهج العلماء المسلمين) صفحة 150 .

بخشوع !! فإن إقليدس وبطلميوس وغيرهما من أصحاب التعاليم اليونانيين متفقون على أن الإبصار إنما يكون بخروج شعاع من البصر، وعلى أن هذا الشعاع يمتد على سُمُوت خطوط مستقيمة ، أطرافُها مجتمعة عند مركز البصر ، وعلى أن كل شعاع يدرَك به مبصَر من المبصَرات فشكل جملته شكل مخروط ، رأسُه مركز البصر ، وقاعدتُه سطح الجسم المبصَر. ويرفض إبن الهيثم هذه النظرية ، لأنه ـ ككل رجل عظيم ـ لم يكن ذلك الإنسان الذي يؤخذ بالأسماء الكبيرة . وخلاصة نقده لها أن هذا الشعاع إما أن يكون جسماً (مادياً) أوْ لا . فإن كان جسماً فإننا إذا نظرنا الى السماء ورأينا الكواكب والنجوم فقد خرج من البصر جسم ملأ ما بين السماء والأرض دون أن ينقص من البصر شيء . وهذا كما يقول ابن الهيثم في غاية الاستحالة وفي غاية الشناعة . وان لم يكن جسماً فكيف أحسَّ بعملية الإبصار ؟ وكيف أحسَّ بالمبصَر ؟ إذْ الإحساس لا يكون إلا للأجسام المادية ذات الحياة . فالإبصار إنما يكون بالبصر لا بالشعاع الذي يخرج من العين بزعمهم. كما ان ظاهرة الامتداد على السُّموت المستقيمة، وظاهرة الانعكاس ، وظاهرة الانعطاف (الانكسار) ، تلك الظواهر التي درسها إبن الهيثم واستقصى حقائقها لأول مرة مما جعله مؤسس علم البصريات بالمعنى الحديث ـ لا تتعلق بالشعاع الذي زعم المتقدمون أنه يخرج من العين . وأخيراً لو كان الشعاع ينبعث من العين لا من الجسم المرئي لأمكننا أن نرى الأجسام في غياهب الظلام . فللضوء إذن وجود مادي مستقل كسائر الأجسام الطبيعية ، سواء وُجدت العين المبصرة أو لم توجد . فالعين إنما هي جهاز مستقبل للضوء ، ولا يولده البتة[1] .

كذلك انتقد عالِم اسلامي آخر مذهب بطلميوس في ثبات الأوْج الشمسي ، وأقام الدليل على تبعيته لحركة المبادرة الاعتدالية ، واستنتج من ذلك أن معادلة الزمن تتغير تغيراً بطيئاً على مر الأجيال . إنه البتَّاني من جهابذة علماء الهيئة المسلمين . كما أثبت البتاني أيضاً ـ على عكس ما ذهب اليه

(1) أنظر كتابنا : **الجامع في تاريخ العلوم صفحة 331-353.**

بطلميوس ـ تغير القطر الزاوي الظاهري للشمس ، واحتمال حدوث الكسوف الحَلَقي . لقد اشتغل البتاني بتحقيق مواقع كثير من النجوم وتصحيح أرصاد القدماء فيها ، إما لارتكابهم خطأً في إجراء هذه الأرصاد ، أو لأن مواقع النجوم نفسها قد تغيرت بالنسبة الى الأرض . فقد صحَّح البتاني تقرير بطلميوس لحركة المبادرة الاعتدالية وضبطه بدقة ، كما صحَّح قيمة مَيْل فلك البروج على فلك مُعدَّل النهار ، وجملة أخرى من حركات القمر والكواكب السيارة . وله أرصاد جليلة للخسوف والكسوف اعتمد عليها دنتورن Dunthorne سنة 1749 في تحديده لتسارع القمر في حركته خلال قرن من الزمان . والبتّاني فضلاً عن ذلك أبو علم المثلثات[1] .

*

ولم يقتصر علماء الهيئة المسلمون على نقد علم الفلك القديم وتصحيحه ، بل لقد ذهبوا الى حد رفض الأسس التي قام عليها هذا العلم (كالأفلاك الخارجة المراكز وأفلاك التدوير . . .) وإقامة نظرية فلكية جديدة شاملة . وهذا ما فعله البطروجي الأندلسي في القرن الثاني عشر الميلادي . فقد جاء بنظرية معارضة للفلك البطلميوسي ، لكن محاولته لم تكن موفقة من الناحية الرياضية . فإن علماء الأندلس ظلوا متخلفين في علم الفلك عن علماء المشرق ، وفي مقدمة هؤلاء نصير الدين الطوسي . ففي سنة 1893 نشر المستشرق الفرنسي البارون كارا دي ڤو بحثاً عن هذا الأخير عرض فيه لنظرية جديدة صاغها الطوسي في (تذكرته) لحركات القمر والزهرة والمريخ والمشتري وزحل . وعلى الرغم من أن الهيئة التي اقترحها الطوسي مخالفة لما جاء في كتاب (المجسطي) فإن كارا دي ڤو قد شكك في أهميتها وزعم أن

---

(1) أنظر تفاصيل ذلك في المصدر السابق صفحة 430-434.

غايتها هي الحفاظ على المبادىء العامة التي جاء بها كتاب بطلميوس ، ولا سيما المبدأ القائل بانتظام الحركات السماوية جميعاً . وكان بعض فروض بطلميوس قد أخلَّ بهذا المبدأ ومع ذلك فإن كارا دي فو في هذا البحث يبدي إعجابه بما في محاولة الطوسي من اتجاه نقدي في التفكير، ولكنه لم يفته أن يعرب أيضاً عن خيبة أمله في هذه المحاولة التي ظلت رغم جرأتها حبيسة النظام البطلميوسي ومبادئه الأساسية بزعمه . ومنذئذ أُهملت نظرية الطوسي فلم يُقبل على دراستها أحد من المؤرخين ، إلى أن تغير الوضع تغيراً تاماً بعد سنة 1957 نتيجة لاكتشافات جديدة قام بها روبرتس وكيندي . ومؤدّى هذه الاكتشافات أن نظرية الطوسي إنما كانت بداية لمحاولات مماثلة قام بها زملاؤهُ العاملون معه في مرصد المراغة (كقطب الدين الشيرازي مثلاً) ، واستأنفها بعدهم ابن الشاطر في دمشق . وكانت الغاية من هذه المحاولات تعميم الهيئة التي اقترحها الطوسي بحيث تشمل سائر الكواكب السيارة ، الى أن وُفق إبن الشاطر الى تتويج هذه المحاولات بصياغة هيئة جديدة لحركات عطارد . وبذلك أصبح من الممكن لأول مرة تفسير حركات الكواكب السيارة جميعاً دون الخروج على مبدأ الحركة الدائرية المنتظمة . ولكن الكشف الذي فاجأ المشتغلين بعلم الفلك هو الشبه الكبير بين هيئة ابن الشاطر وهيئة كوبرنيقوس ، وبخاصة فيما يتصل بحركات عطارد ، هذا بالإضافة الى استعمال كوبرنيقوس نفس الحيلة الهندسية التي استنبطها الطوسي واستخدمها في هيئته الجديدة[1] . وقد أورد ابن الشاطر اكتشافه الجديد في الزِّيْج المعروف باسمه (زيْجْ إبن الشاطر) . والفرق الوحيد بين نظرية كوبرنيقوس ونظرية إبن الشاطر ان كوبرنيقوس جعل الشمس مركز العالم بدلاً من الأرض . ولا أهمية لذلك قط من الوجهة الرياضية الصرف . وقد اعترف الرئيس البولوني السابق هنريك بابلونسكي ـ مُواطن كوبرنيقوس ـ

(1) أنظر أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب . كلمة د . عبد الحميد صبرة صفحة 70 وما بعدها . وانظر أيضاً مجلة تاريخ العلوم العربية . المجلد الرابع العدد الأول مقال د . جورج صليبا صفحة 3-18 .

باستفادة هذا الأخير نظريته من إبن الشاطر وأخذه عنه ، وذلك في أثناء الزيارة التي قام بها لسوريا لحضور حفلة تبادل الهدايا ، إذ قدم الرئيس البولوني تمثالاً نصفياً لكوبرنيقوس وهو يقول بأن هناك عالماً دمشقياً ، وهو إبن الشاطر ، وآخر البتاني ، كان لهما دور كبير في آراء كوبرنيقوس الفلكية ، وكان برفقته آنذاك عميد معهد الدراسات العربية في بولونيا . وقد اختصر (زَيْج إبن الشاطر) محمد بن عبد الرحيم المخللاتي وسماه (**نزهة الناظر باختصار إبن الشاطر**) .

*

حتى نظرية ثبات الأرض في مركزها لم تسلم هي أيضاً من نقد العلماء العرب المسلمين . إذ لا يزال الكثيرون يعتقدون أن العرب كانوا يذهبون الى أن الأرض ثابتة مستقرة في مركز الكون . ألم يقل بطلميوس بثبات الأرض؟ لذلك كان لا بد للعرب ـ بزعم هؤلاء ـ من ترديد قوله بلا تحقيق ولا تدقيق .

لكن لا . فالبيروني ـ هذا الرجل الفذ الذي لا يستسلم أمام الأسماء الكبيرة ـ يقول في كتابه (**تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة**) : « إن الأرض متحركة حركة الرحى على محورها » . وقد وردت حكاية تشير إلى ذلك أيضاً حدثت في مجلس السلطان مسعود ، الذي ارتاع لقول البيروني بحركة الأرض فأمره بالسكوت وعدم تكرار أمثال هذه الأقاويل . كما قال بحركة الأرض على محورها أيضاً العالم الرياضي المشهور أبو سعيد السجزي (أو السجستاني) من رجال النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة . فقد ذكر أبو علي حسن المراكشي ، من علماء القرن السابع الهجري ، في كتابه (**جامع المبادىء والغايات**) ، النص التالي نقلاً عن البيروني ، وذلك في معرض وصفه للإسطرلاب الزورقي : « قال أبو الريحان البيروني إن مستنبط هذا الإستطرلاب هو أبو سعيد السجزي وهو مبني على أن الأرض متحركة ، والفلك بما فيه السبع السيارة ، ثابت » . فالإسطرلاب الزورقي هو إذن ثورة في صناعة الإسطرلاب ، لأنه ليس كسائر الاسطرلابات الأخرى المصممة على أساس أن الأرض مستقرة ثابتة في مركزها ، وإنما هو اسطرلاب من طراز جديد

مصمم على أساس أن صاحبه يخامره الشك في نظرية القدماء ، لوجود دلائل عنده توحي بعكسها ، ولهذا فرض الحركة واخترع الجهاز المناسب للوقوف على حقيقة أمرها .

ويبدو أن القول بدوران الأرض على نفسها لم يكن محصوراً بين أفراد قلائل من العلماء العرب ، بل لقد كان منتشراً على نطاق أوسع من نطاق الأفراد ، وكان موضع جدل كبير بين الناس ، دون أن تصل الينا تفاصيل وافية عنه . فقد أشار ضياء الدين الجويني الملقب بإمام الحرمين في كتابه (**الشامل في أصول الدين**) أن هناك قوماً زعموا أن الأرض كرة متتابعة الدوران . . . وأعلن رفضه لهذه الفكرة قائلاً إن لديه أدلة على بطلانها . ولئن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن من علماء العرب من كان يخالف بطلميوس في تصوره الأرض ثابتة في مركز العالم ، وكان لهذا الفريق رأي مستقل عن الفلكي اليوناني ، حتى لقد كان محل استهجان من المقلدين أصحاب شعار « إنَّا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنَّا على آثارهم مقتدون » .

ولم يكن البيروني بِدْعاً من علماء الفلك (أو الهيئة) المسلمين ، بل لقد كان وجهاً واحداً من وجوههم . فعلم في مستوى علم الفلك لا يقوم على مجهود شخص واحد أو بضعة أشخاص كأولئك الذين أسلفنا ذكرهم ، بل لا بد له من جهاز كامل من المواهب والآلات والأدوات والتقنيات ، لا بد له من أجيال متعاقبة من العلماء والنُظَّار والمفكرين ، من أصحاب الخيال الواسع ، والعقل المبدع ، والبصيرة النافذة ، والتعليل الصحيح ، والوصف السليم ، والأيدي الخبيرة المجربة ، والأنامل الطيعة الدقيقة ، والقريحة الرياضية الخصبة المتدفقة . وهكذا الحال في سائر علوم العرب والمسلمين . فما ينطبق على علم منها ينطبق على جميعها . وإلا فلا كان علم ، ولا كان فكر ، ولا كانت دولة ، ولا كانت حضارة[1] .

*

(1) أنظر كتابنا الجامع في تاريخ العلوم عند العرب صفحة 439-441.

هـذا ولم يكن نقـد العـرب محصـوراً في علوم المادة ـ فضـلاً عن علوم الـدين ـ بـل لقـد امتـد هـذا النقـد أيضـاً الى علوم الإنسـان وفلسفـة التـاريـخ والحضارة. فالتاريخ لم يصبح علماً إلاّ على أيدي العرب والمسلمين، وكـذلك علم الإجتماع ، فقد انتقد إبن خلدون الطرق القديمة في كتابة التـاريخ ، وقـام بمحاولة فذة رائدة في فهم التاريخ وتحليـل أحداثـه وردها الى عللهـا وأسبابهـا القريبة والبعيـدة . أي إن التاريـخ عنده لم يعـد سرداً للحـوادث بل لقـد أصبح تعليلاً لها . وهـذا بيت القصيد في كـل علم : التعليل . فهـو أول من قال بـأن التاريخ إنما هو علم كسائر العلوم الأخرى ، له موضوعه ومنهجه الذي ينتهي به إلى طائفة من القوانين العامة يمكن بها تفسير الأحداث البشرية تفسيراً علمياً يرد كل حدث إلى أسبابه وعـوامله . والتاريـخ بحاجـة الى علم الاجتماع (أو علم العمران كما يسميه إبن خلدون) وبانعدامه يبقى التاريخ مجمـوعة من القصص والحكـايـات والأسـاطير يغـذيهـا الخيـال والهـوى وولـوع النفس بكـل عجيب وغـريب . وحـقيقـة التـاريخ عنـده أنه خبـر عن الاجتماع الإنسـاني الـذي هـو عمران العالم ، وما يعرض لذلك العمران من الأحوال ، كـالتوحش والتـأنس ، والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والـدول ومراتبهـا ، وما ينتحله البشـر بـأعمـالهم ومسـاعيهم من الكسب والمعـاش والصنائـع ، وسائـر ما يحـدث في ذلك العمـران . ولذلـك فـإن إبن خلدون هو أول رجل عـرفه الفكـر الإنساني وصـل الى مستوى رفيـع في دراسة الظاهرة التاريخية ـ الاجتماعية دراسة علمية منهجيـة . فالاجتمـاع الإنساني لـه قوانينه كما للتاريخ قوانينه ، وكما للطبيعة قوانينها ونواميسها . ليس الأمر فوضى متـروكة للصـدفة والارتجـال ، وإنما كـل شيء يجري بقـدر . وإبن خلدون هو كـذلك أول من أخـرج الأبحاث الاقتصـاديـة من نـطاق التصـورات المثـاليـة ، والنصائح العمليـة والمناقشـات الفقهية والـدينية والـطوباويـة الى ميدان البحث العلمي الجـاد ، في وقت لم يكن في حسبان أحـد أنها تخضـع لنفس القوانين التي تخضع لها سـائر الـظواهر والأشيـاء . ولم يبدأ العلمـاء بالكشف عن هـذه القوانين وتدوينها قبل النصف الأخير من القرن الثامن عشر . وهنا تظهـر أصالـة

إبن خلدون الطُلَّعة الرائد العظيم[1] .

ولا يمكنني في هذه العجالة بطبيعة الحال ان استطرد أكثر من ذلك في إيراد الأمثلة والشواهد التي تثبت رسوخ الروح العلمي ـ النقدي عند العرب والمسلمين ، وتدفع تهمة التقليد عنهم . فإنما هذه جولة أفق سريعة لعلها تكون كافية لتوكيد سبق العرب العلمي وقدرتهم على الإبداع والتفوق في جميع الميادين التي اقتحموها ، على أن نوسع القول في بعض نواحي هذا الإبداع فيما يلي من فصول الكتاب . فقد تلقوا دائرة المعارف القديمة وهضموها وأخرجوها لنا ثمرات يانعة وقطوفاً دانية ، لذيذة الطعم ، طيبة الأُكُل ، مختلفة المذاق . . .

*

قلنا إن أعظم حدث في تاريخ العلم هو بلا شك اكتشاف العرب للمنهج العلمي . فقد عرفوا العناصر الأساسية لهذا المنهج وهي الاستقراء والتجربة والملاحظة ، وأورثوا الأجيال اللاحقة أصول البحث العلمي والطريقة العلمية التي ثبت أنها أعظم ما وهبه العرب للفكر الحديث . فالحضارة العربية في عنفوانها ، بل حتى في فترات ضعفها ، كانت مشربة بروح المنهج العلمي الذي اختلط بها وانبث في جميع عروقها وامتداداتها ، فسارت على هديه في بحوث علمائها وأطبائها وفلاسفتها ورجال الفكر فيها .

لقد أخذ العرب من العالم اليوناني ـ فضلاً عن الفلسفة ـ المعرفة الرياضية والطبية والفلكية التي احتقرها الرومان ونبذها اللاتين ، وراح أجدادنا يعملون بصبر وجهد في ذلك الطريق الذي ازدراه الاغريق في أوج عظمتهم ، وهو العلم التجريبي وهكذا بنوا في أندلس القرن العاشر الميلادي حضارة مشرقة لم تكن حضارة سحرية كما يحلو للبعض أن يصفها ، بل حضارة علمية منهجية متكاملة لم يعرفها العالم القديم من قبل . فإذا كان لليونان فضل في الفلسفة ، فقد كان للعرب الفضل كل الفضل في العلم والمنهج .

---

(1) أنظر المصدر السابق صفحة 507-512.

بـل ماذا أقـول ؟ إن التأمـل اليونـاني ظل يعـوق الحضارة الأوروبيـة التي تعثرت به أكثر من مرة . وكلنا نعلم كيف كان أرسطو عقبة كأداء في طريق تقدم العلم ، وهـو لا يقـل في ذلـك عن السلطات الكنسيـة التي اضـطهـدت العلم والعلماء وقمعت بوحشية كل حركة تقدمية في أوروبا القرون الوسطى .

ثم « إن الإغـريق قد نـظمـوا وعممـوا ووضعـوا النـظريـات ، ولكن روح البحث وحشـد المعـرفـة اليقينيـة وطـرائق العلم الـدقيقـة والمـلاحـظة الـدائبـة المتطاولة ـ كل أولئك كـان غريبـاً عن المزاج الإغريقي . وإنما كـان العرب هم أصحـاب الفضل في تعـريف أوروبا بهـذا كله . وبكلمـة مختصـرة ، إن العلم الأوروبي مـدين بوجـوده للعرب » . هـذا ما يقـوله بـريفو Brifault في كتـابـه (تكوين الانسانية) Making of humanity أما جورج سارطون فيقول في كتـابة العظيم (المدخل الى تاريـخ العلم) Introd.to the history of science «عندمـا أمسى الغرب مستعداً استعداداً كافياً للشعور بالحاجة إلى معرفة أعمق ، وعندما أراد آخر الأمر أن يجدد صلاتـه بالفكـر القديم ، التفت أول مـا التفت ، لا الى المصـادر الإغريقيـة ، بل الى المصـادر العربيـة » . ويضيـف روم لانـدو Rom Landau الذي نقلنا عنه هذين النصين : « وحين نتذكر كم كـان العرب بـدائيين في جاهليتهم ، يصبح مدى التقدم الثقافي الذي أحـرزوه خلال مئتي سنـة فقط انقضت على وفاة الرسول ، وعمق ذلك التقدم ـ [يصبح ذلك كله] ـ أمراً يدعو الى الذهول حقاً . ذلك بأن علينا أن نتذكر أيضاً أن النصرانية احتاجت الى نحو ألف وخمسمئة سنة لكي تنشىء ما يمكن أن يدعى (حضارة مسيحية) »[1] .

إن العقل اليوناني الذي كان شامخاً عملاقاً في الهندسة والمنطق ومـا بعد الطبيعة ، كان قزماً في علوم الطبيعة وعلم العدد . لقد كان بطبعه ونشـأته عقـلاً استـدلالياً استنبـاطياً، ولـذلك فـإنه لم يهتم بـالـطريق الـوحيـد إلى الاكتشـاف والتقدم، طريق المنهج العلمي التجريبي المنظم، هذا المنهج الذي رسم خطوطه الفلاسفة والعلماء العرب ، وجـاء العلماء والفـلاسفة المحـدثون بعـد ذلك في

---

(1) روم لاندو : الاسلام والعرب . صفحة 245-246.

أعقابهم وساروا على آثارهم واقتدوا بقدوتهم، من بيكون إلى وليم الأوكامي ، وغاليليو وبسكال ونيوتن .

وهكذا ، فبعد أن كانت العلوم الطبيعية عند اليونان دراسات فلسفية ميتافيزيقية تقوم على منهج عقلي استنباطي، تطورت على أيدي العرب إلى دراسات علمية تستند الى منهج تجريبي إستقرائي واضح .

فمن أخص خصائص الفكر اليوناني والفلسفة اليونانية كما هو معلوم ، الجمع بين الحق والخير والجمال في وزن واحد من الاتساق والنظام . فالحق الذي لا يكون جميلاً ناقص ، كما ان الخير الذي لا يكون حقاً باطل . إن نظام الكون جميل وحق وخيِّر ، ولا بد للفيلسوف أن يتصوره كذلك . فهناك تطابق تام بين ما في الأذهان وما في الأعيان ، أو هذا على الأقل ما يجب أن يكون ، ولا حاجة الى الحس والتجربة للتأكد من ذلك . بل إن الحس والتجربة لا يجوز الركون اليهما لأنهما يشوهان الحقيقة الباطنة للأشياء . فهما إذن مصدر الخداع وعلته وهيهات أن يقدما لنا علماً يقينياً! ففي وسع العقل أن يكتفي بنفسه ويطمئن إلى ذاته ويدرك الحقيقة بطريق التأمل والحدس . فهو معدن العلم ومعدن الحقيقة ، وهو المرآة الصادقة التي إنما تنعكس عليها حقائق الأشياء . حتى لقد ذهب أفلاطون الى أن النفس تنطوي على المعرفة قبل اتصالها بالعالم المحسوس ، وأن وظيفة الإحساس تنحصر في تنبيه المعرفة الكامنة في النفس كمون النار في الحجر . ومن هنا فإن العلوم التجريبية لم يكن لها معنى واضح في أذهان اليونان ، وبالتالي ليس للتجربة أي ضرورة عندهم ما دام العقل مستقلاً بذاته ، قادراً على إدراك المعقولات إدراكاً مباشراً وبطريق القياس والمنطق الصوري ، فما حاجته الى التجربة ، لا سيما وإن عمدتها الحس ولا سبيل اليها إلاَّ بالحس . فليخسأ الحس والحسيون ، ولتخسأ التجربة والتجريبيون ، وليرجعوا الى فريقهم الذين يعلمون ظاهراً من العلم ، وهم عن الحقيقة معرضون . بل هم في شك منها ، بل هم منها عمون فذرهم في ضلالهم يعمهون ، صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون !

هذا هو لسان حال القوم إن لم يكن لسان المقال ؛ لقد ذهبوا في الإيمان

بالعقل مذهباً على غير مثال يسبحون بحمده بالغُدوِّ والعشيِّ والآصال ، وإليه كانوا يشدون الرحال ، وكل من خالفهم في هذا السبيل فهو على ضلال . فلا يقين إلا بالعقل وفي العقل عنوان الكمال، فهو الأصل والموئل والمآل ، وهو الرفيق والأهل والآل ، وهو النعمة والثروة والمال ، وهو الثمرة والغاية إذا عزَّ النوال ، ولا غرو ، فهو الحق والخير والجمال !!!

*

وقد تنبه العرب الى عقم التفكير اليوناني في هذا الباب. فالتجربة والملاحظة هما معيار كل حقيقة . بل هما تغنيان عن جميع كتب الفلسفة . وهذه المسألة هي اليوم من الوضوح بحيث إن الجهل بها مدعاة للسخرية . ولم تكن كذلك في الدهر السالف . فقد ظل القدماء يشتغلون مئات السنين قبل أن يدركوها .

ولكن هل معنى ذلك أن اليونان لم يعرفوا المنهج التجريبي أصلاً وهل خلت أبحاثهم منه خلواً تاماً ؟

كلا بطبيعة الحال . فقد كان لدى اليونان نوع من هذا المنهج ، ولكنهم لم يوغلوا فيه ويذهبوا به إلى غاية مداه . فقد عرفه الشكاك التجريبيون ـ ولا سيما مدرسة الأطباء منهم ـ وطبقوه نوعاً من التطبيق، غير أنهم لم يصيبوا نجاحاً يذكر في العالم اليوناني . فإن جالينوس مثلاً قد تأثر بالجانب التجريبي من منهج الشكاك هؤلاء ، حتى إن أهم ما عنده من علم إنما يعود الى تطبيق هذا المنهج . ورغم ذلك ، فإن جالينوس لم يندفع في هذا الطريق الاندفاع الكافي لأن منطق أرسطو كان يعوقه كثيراً ويقيد خطواته . إن كثيراً من أبحاث الأطباء اليونان كانت تقوم على التجربة أيضاً ، ولكن هذه التجربة لم تكن كاملة موجهة ذات أصول ومناهج وطرق للتحقيق . وأحسَّ الأطباء والعلماء العرب المسلمون بهذا النقص في التفكير اليوناني ، فاتجهوا في البحث وجهة جديدة حين اتخذوا قواعد منهج تجريبي نشأ في بيئة عربية إسلامية خالصة .

ولمزيد من الإيضاح أحب أن أشير بإيجاز الى خصائص العلم الطبيعي

عند اليونان ومقارنته بالعلم الطبيعي في مفهومه اليوم . فقد كان المراد بهذا العلم عند اليونان أنه علم الحركة ، إذ ليس في الطبيعة شيء آكد ولا أجلى من الحركة في نظام الأشياء. فالحركة هي الفعل الأساسي للطبيعة، ولا شيء أظهر من الحركة . ومن هنا انطلق أرسطو في فحصه للأشياء باحثاً عن الحركة لينتقل منها بعد ذلك الى غيرها . ففي الطبيعة أشياء تتحرك ، وعن هذه الأشياء يجب أن يصدر كل من يتصدى لدراسة الطبيعة ، وهذا إنما يكون بالمنهج العقلي والبحث الفلسفي . ولا غرو في ذلك ، فإن الهاجس الأكبر للفكر اليوناني تفسير الأشياء وتعليلها دون أن يبدي اهتماماً يذكر بتغييرها أو الإفادة منها. حسبها أنها تتغير وأنها تنتمي الى المتغير ، أي العالم الأسفل ، عالمنا المحسوس عالم الأشياء الكائنة الفاسدة ، فليس من الممكن تبديلها الى ما هو أفضل لأن الفساد جزء من طبيعتها . هكذا يتعاطى الفكر اليوناني مع المادة . لقد قُدَّ كذلك ولا حيلة له في غير ذلك ، وهو مهما اتجه إلى الناحية التجريبية ، واقترب من الواقع فإنه يظل مطبوعاً بالعبقرية النظرية الفذة . هكذا كان دأبه دائماً وهكذا كانت توجهاته ، وفي هذا الإطار تنحصر أعظم أمانيه وتطلعاته .

وهذا ما يفسر لنا بوضوح وجهة العلم الطبيعي عند اليونان . لقد كان علماً فلسفياً غائياً قوامه الانتقال من الخاص إلى العام ، من الجزئي الى الكلي ، في حركة منطقية مطردة تتصاغر فيها الأشياء وتضمحل لتتعاظم الماهيات وتتوطد ، حتى ينتهي بها الأمر إلى عالم من العقول والمجردات لا أثر فيه لشوائب المادة ومعاطبها ، عالم جميل ساحر لا حكم فيه إلا للمنطق ، ولا مطلب له إلا إتفاق الفكر مع ذاته . ولم يكن المنطق وحده جزءاً من التصور القديم للعلم ، بل كانت الأخلاق والجمال جزءاً من هذا التصور أيضاً . فالعالم الحقيقي هو عالم خير وفضيلة وجمال وتناسق . إنه عالم مثالي في كل شيء ، بل هو عالم المثل الأعلى . فالعقل والحيز والجمال أساس الوجود ، والشيء إنما يُعرف مقامه وشرفه بقدر تجاوزه المحسوس الخسيس المتغير الى المعقول الشريف الثابت . فالعلم الحق هو البحث عن العلل الأولى والمبادىء الأساسية الثابتة .

ولكن العلم الطبيعي في الوقت الحاضر غير هذا. إنه لا يأتلف أبداً وهذه الصورة المنطقية الجميلة الراكدة التي لا همَّ لها إلا الانسجام وتأمل العلل والمبادىء ، ولا تقيم وزناً لصراع الموجودات وتنازعها وما فيها من قبح وفوضى واعتبارات لا شأن لها بالتأمل والتفكير والنظر . فالعلم الطبيعي في مفهومه الحديث يختلف عن العلم القديم في المنهج والموضوع والغاية . فمنهج العلم القديم منهج منطقي تأملي يهتم بما يجب أن يكون لا بما هو كائن ، ومنهج العلم الحديث منهج تجريبي استقرائي يهتم بما هو كائن ولا يعبأ بما يجب أن يكون. كما ان موضوع العلم القديم الجسم من جهة ما يلحقه من عوارض الحركة والتغير والنُقلة ؛ وموضوع العلم الحديث دراسة ظواهر الأشياء واكتشاف القوانين وشبكة العلاقات التي تربط بينها. وغاية العلم القديم تطهير النفس بالمعرفة والسمو بها الى عالم العقول والمبادىء العالية ، أما غاية العلم الحديث فهي تسخير المعرفة لأغراض الحياة ولزيادة رفاهية الانسان .

فنحن لا نجد في العلوم الطبيعية اليوم جدلاً فلسفياً كالذي كنا نراه في علوم الأقدمين ، إننا لا نجد فيه مثلاً بحثاً عن الغائية ، ولا التماساً للمنطق ، ولا ألفاظاً تقويمية (خير ، شر ، أفضل ، أشرف . .) ولا سعياً لتطهير النفس من ادران المادة وشوائبها . . لقد أصبح العلم اليوم أكثر تواضعاً واكثر طموحاً وأكثر واقعية والتصاقاً بالمادة ، هذه المخلوقة الآثمة اللعينة التي هي أصل الشر والفساد في العالم ، ولذلك أعلن الفلاسفة براءتهم منها . أجل لقد أصبح العلم اليوم أمسَّ بحياة الانسان من العلم القديم . إنه يُعدُّه للحياة في هذا العالم والتأثير فيه والتفاعل معه وتسخيره لأغراضه وحاجاته، بعد أن كان العلم القديم يُعدُّه لعالم آخر غير هذا العالم ويهيئه للحياة فيه ، فأضحى لا يبتغي إلاّ داراً غير هذه الدار ، وتعلق بأشباح وآمال وأوهام إن تكن أشبعت بعض حاجاته النفسية فقد أفقدته فاعليته وشلت حركته ومنّته الأماني والأحلام . . .

أما العلم العربي فقد رأينا في فقرة سابقة كيف تلتقي فيه خصائص العلم القديم وخصائص العلم الحديث في وقت واحد. فهو في طور وسط بينهما، إذ تجد فيه التأمل الفلسفي الى جانب المنهج التجريبي . فإذا كان اليونان قد

كفروا بالمادة أو كادوا ، فإن العرب قد آمنوا بالمادة دون أن يكفروا بالعقل ، بل لم يزدهم الإيمان بالمادة إلا إمعاناً في الايمان بالعقل وتشبثاً به . لقد استطاعوا الجمع بينهما في وقت واحد وبقبضة واحدة دون أن يفرِّطوا في حق أحد طرفي المعادلة أو التضحية به على مذبح الطرف الآخر. هذا ما أدتهم إليه اجتهاداتهم وأوضاع عصرهم وبيئتهم التي تختلف عنها لدى اليونان. لقد نما تفكيرهم مع هذه الأوضاع ثم تلقى دائرة المعارف القديمة واغتذى بها لكنه ظل محتفظاً بمقوماته الأساسية التي كانت له قبل وصول العلم اليوناني . ولعل أهم سبب في ذلك هو الطابع المادي الواقعي في الاسلام وعدم طغيان الروحانية والرهبانية عليه. «ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا» هكذا كان شعار القوم. «وابتغ فيما آتاك! الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا» بهذا المعنى المتوازن أطلوا على العالم وأثروه وأثروا فيه ، وتفاعلوا به .

وصفوة القول ، لم يكن الفكر اليوناني يجهل العمل التجريبي جهلاً تاماً، ولكنه لم يَعده دليلاً علمياً. فقد أجرى اليونان تجارب عملية، ومارسوا شيئاً من الكيمياء والجراحة والكحالة والتنجيم ، ووصلوا في الطب والفلك الى مستوى رفيع. ولكن هذا كله لم يكن في نظر فلاسفة اليونان علماً. لكن الفكر الاسلامي هو الذي سما بالعمل التجريبي الى مرتبة الميزان المعترف به علمياً . وذلك من هَدْي القرآن الكريم الذي يؤكد دائماً أن حقائق الكون آيات من آيات الله ، ودلائل على وجوده وقدرته ، وهو يدعو باستمرار الى كشف هذه الحقائق وينظر الى هذا الكشف على أنه عبادة . إنه يُلح بلا انقطاع على النظر في الكون والفكرة فيه والأخذ باسبابه وعدم السير وراء الأباء والأجداد لمجرد التقليد والتبعية .

*

لقد نما الفكر الاسلامي مع الأحداث ولم يسبقها أو يتخلف عنها . لقد تفجر بتفجرها كما سنرى ذلك مفصلاً في الجزء الثاني من كتابنا (**الفكر العربي في مخاضه الكبير**) . على أننا عرضنا لهذه الأحداث عرضاً مختصراً في كتابنا

(من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية) [1] نعيد هنا أهم خطوطه الاساسية . فقد توفي النبي عليه السلام ولم يستخلف أحداً من بعده . فمن يخلُفه ويكون إمام المسلمين ؟ سؤال يُطرح لأول مرة في مجتمع صحي سليم اكتملت له جميع عناصر النمو يريد أن يستأنف السير وحده بعد رحيل زعيمه . إن الصدمة قوية حقاً ، ولكن لا خطر على الدعوة بعد الآن ما دام النبي قد أرسى قواعد المجتمع الجديد وهيَّأ له الأشخاص الذين سيخلفونه . فقد انجبت الدعوة كثيراً من هؤلاء الأشخاص . لقد وجدت شروط عمل التعبئة السّيْكوسوسيودينامية فانتظر المعجزات .

إن المشاكل إذا ثارت في المجتمع السليم المتكامل هي تنشيط له ودفع لعجلته ، وكشف لمواهب أفراده، وشحن لطاقاتهم وتفجير لإمكاناتهم . وأما المجتمع المريض فإن المشاكل تزيده مرضاً وتعجل في نهايته . هذه احدى المسلمَّات السّيْكوسوسيودينامية سنأتي عليها في حينه . نحن لا ننكر أن المشاكل التي ثارت في المجتمع الاسلامي الأول كانت ذات طابع ديني وسياسي ، فقد جرَّت إليها خلافات حول الإمام (الخليفة) وشروط الامامة ، ومن هو أحق بها وأهلها الخ . . . لكن هذا لا أهمية له ، وإنما الذي له كل الأهمية أن أي خلاف من هذا القبيل من شأنه أن يجرَّ المختلفين فيه الى محاولة كل فريق تصويب رأيه بجذب نصوص العقيدة إليه وتأويلها بحسب فهمه لها . وهذه الخلافات وإن أعطاها باحث التاريخ الطبيعة الدينية والسياسية ، فهي من وجهة نظر مؤرخ الأفكار ذات أثر كبير في تغيير مجرى التفكير وإعطائه صوراً متعددة وأشكالاً متباينة ، لأن من المتعذر وضع حد لآثار الحوادث وقصرها على بعض نواحي الحياة دون بعض . والأوصاف التي تُعطى للأحداث بأنها دينية أو عقلية أو إجتماعية أو سياسية أو اقتصادية . . . إنما الغرض منها غرض أكاديمي بحت يراد به تنظيم البحوث وتسهيل معالجتها . فالأحداث في صورتها الفجة الطبيعية يتصل بعضها ببعض ويتفاعل بعضها ببعض ، ولا

---

(1) صفحة 267-289.

ينفصل بعضها عن بعض إلا بوسائل صناعية يفرضها الذهن المحلل والفكر الأكاديمي المنسق المنظم . فهي مترابطة متماسكة ، ولا سيما في تلك العصور التي كانت المعرفة فيها محدودة تشق طريقها بصعوبة وتؤدة وخفَر . فالفَصْلُ بينها لا وجود له إلا في برزخ العقل وعالم العقل. فللأفكار منطق خاص لا يعترف بتفريعاتنا وتقسيماتنا الموضوعية لأغراض منهجية صرف. إن لها نمطها الذي تسيرُ عليه في انثيالها وانبثاقها ونشوء سلالات وأجيال جديدة منها ، ثم نعمد نحن الى الينبوع الثَّر الدافق فنجعله جداول وروافد تختلف باختلاف الأغراض التي نستخدمها لأجلها . العين واحدة ، والمشارب كثيرة متعددة .

وعلى كل حال ، إن هذه الأحداث الدينية السياسية الإجتماعية لن تبقى على طبيعتها البسيطة الفجة ، بل ان الزمان كفيل بعد ذلك بنخلها وغربلتها وتنقيتها وتفريغها من مضمونها الديني وملابساتها السياسية والاجتماعية الآنية بقدر الإمكان، فيتبقى من كل ذلك شذور كشذور الذهب تنمو وتنمو بالتحليل والتركيب وإمعان النظر ، على قانون خاص ومنطق مرسوم يصدق قليلاً أو كثيراً ، ويتفاوت في دقته وصرامته تبعاً لتشابك الحوادث الانسانية ، وديالكتيكيتها وتعقد أوضاعها وبُناها . فللسَّيْكوسوسيوديناميكا قوانينها ، على ألا نأخذ كلمة قانون هنا بالمعنى الدقيق للكلمة. فليس في الأمر هنا قانون بالمعنى الاصطلاحي الرياضي ، وإنما هي احتمالات وترجيحات تقريبية تتفاوت في قوتها . ماذا أقول ؟! حتى القوانين الطبيعية فقدت الكثير من صرامتها ، وهي اليوم يُنظر اليها على أنها قوانين إحصائية تقريبية ، ولم تَعُدْ لها صفة الإطلاق التي للقوانين الرياضية . بل إن القوانين الرياضية نفسها لئن كانت توصف بالدقة والصرامة فما ذلك إلا لأنها تحليلية لا تأتي بجديد . إنها تعريفات وحدود ، أو قل هي تحصيل حاصل Tautologie فإذا كانت الاحتمالية والتقريبية هي قانون الأشياء الطبيعية ، فأحرى بها أن تكون هي أيضاً قانون الشؤون الانسانية .

أجل ، إن الدقة لا سبيل اليها في العلوم الانسانية ، إنها طمع في غير مطمع. فهذه الدقة ـ إذا كان لها من وجود ـ فقد كان ينبغي أن توجد في ميدان

العلوم الطبيعية وحدها دون العلوم الانسانية، وذلك للاختلاف الكبير بين الميدانين . فمنهاج العلوم الطبيعية ومبادؤها وتقنياتها لا تنطبق أبداً على سائر فروع المعرفة الأخرى التي تدخل في تعريف العلوم الانسانية . فلا يجوز مثلاً دراسة الظواهر الإجتماعية الحضارية وتفاعلاتها على أساس العلاقات السببية وحدها التي تكثر في العلوم الطبيعية والتي تضفي على هذه العلوم صفة الدقة والضبط الرياضيين أو تكاد، وذلك لاختلاف الظواهر الإجتماعية اختلافاً بيناً عن الظواهر الفيزيائية . وهذا الاختلاف يرجع في نظري الى معادلة الثوابت والمتغيرات فالظواهر الطبيعية تطغى الثوابت فيها على المتغيرات بينما نجد العكس في الظواهر الانسانية . وبعبارة أخرى أكثر وضوحاً ان هذا الاختلاف يرجع الى عاملين اثنين احدهما كمي والآخر كيفي[1] . فمن حيث الكم نجد أن الظاهرة الطبيعية ظاهرة بسيطة جداً بالقياس الى الظاهرة الإجتماعية التي هي بطبيعتها ظاهرة معقدة جداً تدخل فيها عوامل وأفاعيل ومؤثرات لا حصر لها . وأما من حيث الكيف ، فإن الظاهرة الإجتماعية ذات دلالة ومعنى ورمز وهدف ، واللغة عنصر أساسي فيها . ثم إن علوم الظواهر الطبيعية إذا كانت تهتم بما هو عام ومشترك ولا تطمح الى ما هو أكثر من ذلك ، فإن علوم الظواهر الإجتماعية إنما تهتم باقتناص ما هو فريد في هذه الظواهر والنفاذ الى الطابع الخاص بكل ظاهرة على حدة ، وهو طابع لا يوجد إلا في علاقات مبنية على الرمز والمعنى والدلالة والغاية ، يتخللها مع ذلك نوع من السببية المرنة الفضفاضة تختلف دقتها النسبية باختلاف الظروف والمواقف . فالأهداف والغايات لا وجود لها إلاَّ في النشاط الانساني الذي يتدخل في سير الأحداث ويعطيها رموزاً ومعاني خاصة . فإن ظروف الحياة لكل عصر من العصور تحدد الأهداف التي يضعها الناس نُصب أعينهم وتضفي عليها المعاني والرموز ، كما أنها هي أيضاً تتجدد بهذه الأهداف وتتأثر بها قليلاً أو كثيراً . لذلك فإن الأحوال التي تتناول السببية الاجتماعية ـ إذا صح التعبير ـ ستظل دائماً احكاماً تقريبية جداً عرضة للانتقاض في كل لحظة . فكل ما يمكن القيام به في هذا المجال

(1) فلعل الكيف هو في نهاية التحليل عملية تكثيف للكم ، ومن يدري ؟

إنما هو إدخال شيء من النظام في عالم يعنو على كل نظام ـ أو يكاد . إذ لا سببية هنا بالمعنى الدقيق للكلمة ، وإنما هنا نوع من الاطراد تختلط فيه السببية باللاسببية وتتفاعلان معاً، ولا سيما في عصور التحولات التاريخية الكبرى، حيث ينشأ عالم جديد متفجر لا يكاد يستقر حتى يختل ويثور كالبركان ، ثم يهدأ ليعيد سيرته الأولى . حسبنا هذا الاستطراد الذي سنعرض له بتفصيل واف في كتاباتنا القادمة . فلنعد الى ما كنا فيه، أي الى كيفية نشأة الفكر العربي مع حركة الأحداث تفجره بتفجرها،ومن هذا الفكر ـ لا من حركة الترجمة ـ سينبثق العقل العلمي العربي وغيره .

فإنه عندما توفي النبي عليه السلام قام النزاع حول خَلَفِهِ ، وكان هذا النزاع أعظم خلاف بين الأمة « إذ ما سُلَّ سيف في الاسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلَّ على الإمامة في كل زمان » كما يقول الشهر ستاني[1] وعن هذا النزاع الذي انتهى بقيام الخلفاء الراشدين نشأت مشاكل ومعضلات تتطلب الحلول في مجتمع صحي سليم ، وهذا من شأنه أن يُقلع بالسفينة ويخطو الخطوة الأولى في رحلة الألف ميل . وجاءت خلافة بني أمية وجاءت معها مجموعة أخرى من المشاكل تزلزل المجتمع الجديد من القواعد وتتوالى سراعاً بما يكفي لقيام المدارس في مذاهب الفكر والعقيدة . ومنذ الآن سنرى المشاكل تترى لتفجر طاقات كانت كامنة حتى عهد قريب ، كالنار وقعت على هشيم .

لا تهمني هنا تفاصيل هذه المشاكل والأحداث التي ولدتها بقدر ما يهمني الالحاح على أن الاسلام قبل أن ينجب مفكريه وعلماءه وفلاسفته، أنجب عدداً من الحركات الفكرية التي وضعت ـ رغم الصبغة الدينية السياسية التي غلبت عليها ـ أساساً صالحاً للنشاط العقلي الخالص الذي سيقوم به الباحثون عن الحقيقة فيما بعد . لقد انبثق الفكر العربي الإسلامي وانتفض ، لقد تكونت النواة ، وستنمو هذه النواة نمواً ذاتياً تلقائياً بغيرِ لقاح أجنبي أولاً ، وعما قليل

---

(1) الملل والنحل 24/1.

ليأتينها اللقاح ، بل لتسعينّ هي إليه لتروي عطشها وتسد جوعتها وتضع حداً لمعاناتها وأزماتها .

*

والخلاصة ، إن طائفة من الأفكار والنظريات الجديدة لا عهد لبادية العرب بها قد نشأت في أعقاب قيام الخلافتين الأوليين : خلافة الراشدين وخلافة بني أمية، وستتولد عن هذه المشاكل أفكار وآراء وعقائد لا بد أن يجد كل منها النصير المؤيد أو الخصم المعارض أو المحايد الفاتر أو البليد أو البارد . ولكلٍ درجاتٌ وظلالٌ وحدودٌ وتقلباتٌ وأوضاعٌ . وبتلاقح هذه الآراء والأفكار والنظريات ـ التي نكاد نقول إنها نبتت جميعاً في بطن الصحراء والتي تتميز بفجاجة البدو وبساطة عقولهم ، وبمحاولة كل فريق تأييد وجهة نظرة ونقض وجهة نظر خصمه بنصوص من الكتاب والسنة ـ أقول بذلك كله تألفت النواة الأولى للفكر العربي الإسلامي .

وهكذا بُحثت مشكلة الإمامة والخلافة ونشأت الخوارج والشيعة والمرجئة والمعتزلة ، ونشأت القدرية والجبرية والصفاتية ، وبدأ التفلسف في التوحيد والذات والصفات، والتشبيه والتنزيه والعدل والظلم. . . وقد حدث كل ذلك بضرورات داخلية صرف كان عنصر الاقتباس فيها ـ عندما يثبت بالدليل القطعي ، لا رجماً بالظنون والأوهام وبافتعال التأويلات والاجتهادات التي يكون رائدها تجريد العرب من كل أصالة في الرأي والفكر ـ عاملاً مساعداً فقط يغذي حركات واتجاهات كانت بذورها قائمة من قبل ، ويحل معضلات ومشاكل نشأت في بلاد الإسلام . إن هذه المشاكل قد أثارت عقول المسلمين وافئدتهم قروناً طويلة . فلو لم تكن مشاكلهم هم ، لو لم تكن نابعة من أعماق وجودهم ومن مقتضيات أحوالهم، إذن لما كانوا تحمسوا لها ولما استفرغوا الجهد والوُكد في حلها .

نعم ، إن أكثر هذه الحركات قد تبدو لنا اليوم ـ ونحن ننظر اليها من مسافات زمكانية بعيدة ـ ذات طابع بدائي ساذج. وهذا حق. فإنما هي حركات طبيعية لا أثر للصنعة فيها ، يفوح منها عبق الصحراء ورغاء الابل وقعقعة السيوف ، لا افتعال فيها ولا مواربة ، إنها تنبثق عفو الخاطر بلا زينة ولا

زخرف . إنها وليدة بيئتها وصرخة تنم عن أشجان عصرها وهواجس جيلها، وهي اشجان وهواجس اختلط فيها نداء السماء بخبز الأرض ، ودموع الدين بخمر الدنيا . لقد أدبر عهد وأقبل عهد واصطرع العهد بالعهد .

لقد كانت هذه الحركات الساذجة أساساً صالحاً للنشاط الذي لم يكد يشتد ساعده حتى وجدنا أنفسنا لأول مرة أمام حركة عقلية جدية حاولت أن تفيد من جميع الأدوات الفلسفية التي ستتاح لها بعد حين وانتهى الأمر بظهور ثُلَّة من العلماء والفلاسفة والمفكرين الذين كانوا غرة في جبين العصور الوسطى العربية الاسلامية كلها . لقد انتفض المارد الجبار واتخذ طريقه الى الشمس .

*

وزبدة القول إن التفكير العربي الاسلامي قد تكوَّن بانطلاقة محمد بن عبد الله ، وفي أعقاب الزلزال الكبير الذي أحدثه محمد بن عبدالله . واستتبع ذلك قيام مشاكل ومعضلات تتطلب حلولاً سريعة . وأخذت الحلول تترى على ضوء الكتاب والسنة وبضغط الظروف والأحوال المستجدة التي أخذت تحيط بالمؤمنين وتؤثر في حياتهم كلما تطاول بهم الزمن .

وهكذا تكوَّن الفكر العربي الإسلامي وأخذت البذرة تنمو لا بالتكثف الكمي من خارج كما هو حال البلوريات و كرات الثلج التي تسقط من علٍ ، بل ـ وهذا ما لا نمل من تكراره ـ من الداخل ، كما ينمو الكائن الحي ، أي بطروء مشاكل تنبحس من صميم الجماعة الاسلامية الناشئة ومن أحوال هذه الجماعة ، ومن طريقة تفكير المسلمين وتصورهم لله والانسان والعالم .

نحن لا ننكر أن المذاهب والنظريات التي تمخضت عنها هذه المنازعات والصراعات والاختلافات ، لم يكن الباعث عليها بادىء ذي بدء نظرياً خالصاً ، بل كان رائدها ـ وهذا ما لا نستحي من تكراره أيضاً لما له من أهمية بالغة في تقرير أصالة الفكر العربي الإسلامي ـ الدين أولاً وأغراض السياسة ثانياً . ولكن لا ضير عليها في ذلك ولا حرج ، بل هو مبعث فخر واعتزاز لها ، لأنه الدلالة

القاطعة على أن هذه المذاهب والنظريات نتيجة تطور طبيعي داخلي وليست أبداً وليدة تأثيرات خارجية وافدة . لقد نمت مع الأحداث وستنفصل عن الأحداث وهذا لعمري من أخص خصائص التفكير الأصيل ، فهي ستستحيل عاجلاً أو آجلاً الى شوامخ فكرية على يد المعتزلة والأشاعرة أولاً ، وستبلغ أقصى غاياتها على يد الفلاسفة والعلماء . وبكلمة واحدة . إنها عرق الجبين وجهد الأعصاب ، وليست ترفاً هبط من السماء .

لقد أصبح في متناول المفكرين المسلمين الآن ثروة لا يستهان بها من المصطلحات وما تحمل من معان جديدة نبتت في بيئتهم ، كالجبر والاختيار ، والتنزيه والتشبيه ، والوصف والتعطيل . . . وبُحثت أيضاً شروط الخلافة والإمامة ، ودرجات الايمان وصلة الإيمان بالأعمال ، والحق الإلهي لآل البيت وتجريدهم من هذا الحق . . . كذلك ظهرت لأول مرة بين المسلمين أيضاً فكرة المعنى الحرفي والمعني التأويلي لألفاظ القرآن . . . وظهر النُسك والتقشف وظهر الفسق والمجون ، وظهر الإيمان وظهر الإلحاد . . . لقد نشأ ذلك كله في مضطرب اليَمْ ، بل في بؤرة الإعصار العاصف ، وكان أول ومضة انطلقت من الفكر الجديد الناشىء في بداية سطوعه .

الآن وقد تكونت نواة التفكير عند العرب وأحسَّ المسلمون بأوجه النقص والفجاجة فيها ـ إذْ لم تكن معالجتهم العقلية للمشاكل القائمة تحمل بعد طابع العلم والبحث العميق المنظم ، ولم يكن لديهم منهج عام للدراسة لا مقياس واحد يؤدي الى اليقين ، بل لقد كان عامل الشخصية الفردية عندهم هو المؤثر الأكبر في تكييف الآراء واصدار الأحكام ـ لذلك فقد راحوا يتطلعون الى آفاق أوسع ليكملوا معارفهم ويتعلموا من الشعوب التي هي أعرق منهم في العلم والحضارة ، وأرسخ قدماً في طريقة البحث ومنهج التفكير فضلاً عن المادة الغزيرة . ومنذ الآن سيُسخرون ثقافات هذه الشعوب لحاجاتهم العقلية والروحية ومطالب مجتمعهم الصحي المتطور ، ليساهموا بنصيبهم الكبير في عمليات الخلق والإبداع ، وليكونوا أساتذة في العلم والفلسفة والحضارة .

*

بحوث ودراسات وموضوعات قد شقت طريقها الى القوم ، وقضايا ومسائل وطروح وحلول تفجرت بين ظهرانيهم . لقد نمت جميعاً مع الأحداث ، وتولدت عن الأحداث ، وتمخضت عنها الأحداث ، وتفاعلت الأفكار والأحداث ، والتقت الأفكار والأحداث ، على تفجير الأفكار والأحداث .

ولقد نشأ عن هذا التفاعل علوم وفنون وآداب وفلسفات ومدارس ومذاهب ومواقف واتجاهات يعزز بعضها بعضاً ويواطىء بعضها بعضاً ، ويعارض بعضها بعضاً . فهناك علوم العقل وعلوم القلب ، علوم الدين وعلوم الدنيا ، العلوم اللدنية والعلوم التجريبية ، مذاهب الإيمان ومذاهب الإلحاد، مدارس تأخذ بمنطق أرسطو ومدارس تناوئه وتقيم على انقاضه منطقاً جديداً ، مدارس أهل السُنة الواقفين على النصوص ومدارس أهل الرأي الذين يتجاوزون النصوص وينفذون الى روح النصوص ؛ أقاويل تدعو الى التمسك بأهداب الدين والفضيلة وأخرى تدعو الى المجون والاباحة والرذيلة ؛ أقاويل تنادي ألاّ حكم إلاّ لله وأخرى تؤكد أن الحكم للعقل فلا وازع إلاّ إياه ؛ . . . وبين كل طرفين متباعدين من هذه المدارس والمذاهب والأقاويل درجات متوسطة تتفاوت في الشدة والمرونة والتزمت ، من شأنها أن تسد الثغرات وتملأ الفجوات ، تبعاً لما اسميناه في كتاب آخر لنا بقانون التقابل في الإثارة السيكوسوسيودينامية ، وقانون سُلم الإثارة السيكوسوسيودينامية ، على أن نأخذ في الاعتبار جميع التحفظات التي أبديناها بشأن استعمال كلمة (قانون) هنا . وإذن فلا تحسبنَّ هذا التعارض الكبير بين الأضداد ، وهذا الصراع القائم بين المتناقضات ، وهذا التوتر المرتفع المستمر ، مما يسيء الى التفكير العربي الإسلامي أو يسمه بالسخف وقلة المؤونة ، أو بأنه دليل على الفوضى والتمزق والتفسخ ، وبالتالي علامة من علامات المرض أو عرض من أعراضه . كلا فهذا هو التنوع الذي يحققه الفكر الخصب عندما يبلغ أقصى غاياته ، أو قل ـ في اصطلاح السّْيكوسوسيوديناميكا ـ هو الدليل القاطع على قوة التعبئة السّْيكوسوسيودينامية ونضجها واستكمال جميع ـ أو جُلِّ ـ درجات السُلَّم السّْيكوسوسيوديناميكي فيها . فكلما كانت هذه

التعبئة أشد ، وكلما كان عدد درجات السُلَّم فيها أكبر ، أخصب الفكـرُ وانتج ، وازداد تنـوعاً وتعقيداً ، وازدهى بالظلال والأشكال والألوان . هنا تنمو الشخصية المبدعة ، وهنا يتولد الفكر الأصيـل . هنا وادي عبقـر ، وادي الوحي والإلهـام ووادي الأطياف والأحلام .

أرأيت الى هذا التدرج الطبيعي في نشأة الفكر العربي الإسـلامي ونضجه وإيتاء أُكُله . أنظروا الى ثمره إذا أثمر وَيَنَعِه . لا تبخسوه حقه يوم حصاده . لقد نما وتدرج مع الأحداث ، ثم انفصل عن الأحداث . لقد انتقل من البساطة الى التعقيـد ، من السطحيـة الى العمق ، من أيدي السـريان الى أيـدي العُربـان . وهذا لعمري من أخص خصائص التفكير الأصيل الملآن ، وإلاَّ فقل لي بربك كيف عساه يكون التفكير الأصيل عند الانسان ؟ ولكن مـا العمل إذا كـان الرأي العام الغربي يجحد المعروف والعـرفان ، ولا يـرضى بتغيير صـورة العرب التي التصقت عند بنيه بالأذهان ، وتـرسخت في عادات القـوم والضمير والـوجدان ، ثم جاء التافهون في بلادنا ليتبعوا الناعق وشاهد الزور والبهتـان ، ويرددوا رجـع الصدى على كل لسان ؟

*

والخلاصة ، وفي عـودة الى العلم العربي وتقـويمه ، فـإن هذا العلم لم يكن فقط علماً عقلياً ماهوياً كلياً قـوامه الأحكـام المجردة البعيـدة عن الواقـع . لقد كان كذلك في بعض مراحله وفي أذهان بعض فـلاسفته ، ولكنـه لم يتوقف عنـد هذا الحـد ، بل لقـد وصل عنـد بعض الأقطاب الى مـرتبة العلم الـوضعي الحديث ، فكان على أيـديهم علماً تجـريبياً حقيقيـاً قوامـه الملاحـظة والوصف والتجـريب . أنا لا أنكـر أبداً أنـه لا يخلو من مبدأ التجـريد ، استمـراراً لطراز التفكير اليوناني وتأثراً به ، ولكنـه لا يخلو كذلـك من مبدأ التجـريب ، انفصالاً عن اليونان وخلقاً لطراز جديد في فهم الأشيـاء ومعالجتهـا . ولئن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على أصالـة الفكر العـربي وقدرتـه على الاستقلال والتميُّـز . فهو ليس مجرد مرآة عاكسة للضوء ، إنه أيضاً مصـدر للضوء . وهـو علاوة على

ذلك فكر متموج متحرك كثير الصدور والألوان والظلال والنبضات ، لا يسعه قالب واحد ولا يكفيه وصف واحد ولا تعبير واحد . إنه رحب رحابة أشكال الوجود ، متنوع تنوع صور الحياة ، متعدد تعدد مراتب الكائنات .

ثم إن قيمة العلماء العرب السابقين لا تُقاس بمدى ما في علمهم في مطابقة لعلمنا ، بل بمدى ما بذلوا من جهد في بحثهم عن الحقيقة ، وما أبدوا من إخلاص لها وصدق في سبيل الوصول اليها ، وما رافق مسيرتهم من دوافع نبيلة ومُثُل رفيعة وآمال جياشة ، وما صاحبها من ثقة بالنفس وإيمان بالذات . ولا يعنينا بعد ذلك أنهم أصابوا أم أخطأوا . فالموازنة الصحيحة بين العلماء الذين ينتمون الى عصور مختلفة ليست كالمقارنة بين علماء ينتمون الى عصر واحد. فلا بد أن تضعهم في إطارهم الزماني، أي أن نأخذ في الحسبان زمانهم هم بما فيه من فقر وهزال وضحالة ، وان لا ننسى ما في زماننا من تقدم وتكنولوجيا وإمكانيات هائلة للعمل والتحرك . . . فعامل الزمن يجب أن يكون رائدنا في تقويمنا للعلماء وحكمنا على أعمالهم ومنجزاتهم .

فنحن حين نعتز بالكندي والفارابي والرازي وإبن الهيثم وإبن البيطار وإبن النفيس وإبن رشد وإبن خلدون و . . . فليس معنى ذلك أننا نلتمس لديهم فكراً ندين به اليوم في العقود الأخيرة من القرن العشرين ، أو مذهباً عقلياً نسير على هديه، أو حلولاً لمشاكل ومعضلات تُطرح في هذا العصر، كلا، إنه لا يهمنا مضمون أفكارهم بقدر ما تهمنا روحهم وأنفاسهم ، وهي روح متطلعة وثابة ، وأنفاس ونفثات تعبق بشذى الإيمان بالذات والبحث عن المجهول. فعندما نعتز بهم وننتسب اليهم فإنما نستلهم حبهم للحقيقة ونستوحي رغبتهم الصادقة في الحج اليها وطلبها في جميع مظانّها ، بصرف النظر عن المضمون والمادة في تفاصيلهما التي تخطاها الزمن . يجب أن ننفذ الى روحهم ونعاني ما عانوا من خدمة للعلم وأن نتذوق عشقهم للمعرفة ونحياهم حقاً حتى ليكونوا جزءاً من كياننا . فالقارىء لديوان المتنبي مثلاً قراءة معاناة وتذوق يجب أن يخرج منها وقد سرت في عروقه كبرياء هذا الشاعر وإيمانه بذاته وقومه . وقارىء إبن الهيثم يجب أن يتقمص إبن الهيثم بحيث يخترق ضلوعه ويسري في شرايينه ليرى

بعيني إبن الهيثم ويبحث بعقله ووعيه وكأنه هو إبن الهيثم في رؤيته للكون وتحليله للأحداث وظواهر الأشياء ، وتطلعه الى اكتشاف الحقيقة والوصول اليها وسبر أغوارها . لقد كان إبن الهيثم باحثاً منقباً متفحصاً ، يخوض كل لجة ، ويتقحم كل مشكلة ، ويرود كل مجهل . هذا هو إبن الهيثم ، وهذا هو إبن النفيس ، وهذا هو الفارابي ، وهذا هو البيروني والبتّاني . . . والأمم إنما تسمو وترتفع بأمثال هؤلاء الرجال . فلننفذ إليهم ولنندمج فيهم حتى لَنكون إياهم . ومثل هذا الدمج الذي تحققه لنا لحظات التذوق والمعاناة لأعمال آبائنا ومنجزاتهم كفيل بأن يجعل الخلَف جديرين بأولئك السلَف واستمراراً لهم في الروح والمنهج وطريقة الحياة ، وإلاّ فبطنُ الأرض خير لنا من ظهرها .

إن انتفاضة العرب ، وإيمانهم بأنفسهم ، وتصميمهم على فرض الذات واقتدارهم على ذلك ، وما رافق تحركهم من رغبة ملحة صادقة في المعرفة واكتشاف العالم ، وعكوفهم على ذلك ، وروح التوثب والدأب على البحث والنظر والتفكير في خلق السموات والأرض، إن هذه الصفات وما اليها هي التي جعلت العرب أهلاً لقيادة العالم وبها إنما سادوه حين سادوه وتربعوا على عرشه ، إنها هي التي جعلت منهم رجالاً عمالقة وقوة عظمى تحرك التاريخ وتوجه الأحداث بل تقبض بيدها على أعنة التاريخ والأحداث . إنها هي سر الطاقة الدينامية التي أرفدتهم وشدت من عزائمهم وارتفعت بهم الى مواقع النسور . إن هذه الصفات هي سر التقدم . فهي التي رفعت اليونان والرومان وجعلتهم أئمة ، وهي التي كانت وراء الثورة الفرنسية ونهضة دول أوروبا الغربية ، وهي التي ترفع اليوم أمريكا واليابان والاتحاد السوفياتي . فلا ارتفاع بغير هذه الصفات ، والتاريخ إنما تحركه هذه الصفات ، لا فرق في ذلك بين عرب وعجم ، وشمال وجنوب . . . قل لي متى تتحقق بهذه الصفات ، أقل لك متى تأتي بالمعجزات البينات وتكون سيد الكائنات . وهذه الصفات لا تدوم لأحد ، وإنما هي تتحول وتتقلب في جهات العالم الأربع . والويل لمن فقدها . فمن خسرها فقد خسر نفسه ، وذلك هو الخسران المبين !

إن العلم في هذه الأيام يسير بسرعة مذهلة ، ومع ذلك فهو لا يزال فتياً

غضَّ الإهـاب. وعلى ما كُتب لـطاليس وأرخميدس وفيثـاغورس وارسـطرخوس والبيروني وإبن النفيس وإبن الهيثم وإبن خلدون و . . . من النبـوغ ، فـإنهم لـم يعرفوا شيئاً مما يعرفه تلميـذ في المدرسـة الثانـوية اليـوم . بل ان أجهـل شاب حصل على الشهادة الثانوية يحسن أموراً كثيرة لا علم لغاليليـو بها بـل لم تخطر له على بال. ومع ذلك فإن علم هذا الأخير يفوق كل ما يحشوه طلاب الشهـادة الثانوية بل طلاب الدراسات الجامعية من محفوظات مركومة في الذاكرة طبقاتٍ بعضها فوق بعض . لأن علم هؤلاء علم محفوظ ، وأما علم غاليليو وابن الهيثم وارخميدس . . . فهو علم مصنوع ، والفرق بينهما كالفـرق بين علم الكمبيوتـر وعلم صانع الكمبيوتر ! الكمبيوتر أعلم مني ومنك ، وأقدر على حـل مشكلات الـرياضـة مني ومنـك ، بـل وأسـرع مني ومنـك ، ولكن حسب الكمبيـوتـر ذُلاً وهواناً ، انه مصنوع وأن صانعه كلانا ، نحن ركّبناه ليكون لنا عقلاً ولساناً. فهو من بين أناملنا قد خرج ، ليضع عنا الإصْـرَ والحرج ، ونبدأ به عهداً جديداً غير ذي عِوَج . به بزغ الفجر والصبح انبلج !

لولا فيثاغورس وابن الهيثم وغاليليو . . . ما وصل علمنا الى ما وصل اليه اليوم . وأما طلاب المدارس والجامعات فانهم يظلون دائماً على استعداد لحشو أذهانهم بما يُلقى اليهم من علوم ومعارف لا فضل لهم فيها وكل ما يتوخونه منها حب الظهور وغشيان الأندية والمجالس والحصول على وظيفة في أحـد دواوين الحكومة لتأمين الزوج والمسكن والعيال ، وعلى الله الاتكال !

إن العقل الإنساني يرقى الجيل بعد الجيل ويتقدم باطـراد دون أن يقرّ لـه قرار . فليس من الإنصاف أبداً أن نتطلب من حضارة قامت منذ أكثر من عشرين قـرناً ـ كحضـارة أثينا ـ أو من أخـرى ترجـع الى بضعـة قـرون كحضـارة بغـداد وقرطبة ـ ما نتطلبه من حضارة فتيـة تقدر على كـل شيء ، ويُجبى اليها ثمـرات كل شيء ، كالحضارة الحديثة !

فما من علم يصح أن يقال إنه نضج أو إن باب النظر فيه قد أُغلق فما عاد ينتظر جديداً . وما من موضوع سبقت دراسته على أي مستوى ، يمكن الادعـاء بـأن الكلمة الأخيـرة فيه قـد قيلت. كلا، فـإنما هي مـراحل على الـطريق، وما

تحسبه كل مرحلة خط النهاية وغاية المسعى ، ليس شيئاً مذكوراً في طريق المعرفة الذي لا يدري أحد أين بدأ وأين عساه ينتهي ، إذا صح أن له بداية أو نهاية .

وليس يغضُّ من قيمة جهدٍ سَلَف أن يظهر بعده ما يضاف إليه أو يُعدِّله أو يصححه أو ينسخه ويلغيه ، بل تبقى لجهود الباحثين ، على تتابع الأجيال وتعاقب الآجال ، قيمتها العلمية في تاريخ المعرفة ، من حيث إنها قد خطت خطوتها وأعطت رصيد خبرتها وتجاربها زاداً لمن يتابعون السير على الدرب الطويل .

لكن بُعد الشقة بيننا وبين القدماء يجعلنا اليوم لا نألف بسهولة بعض اصطلاحاتهم وعباراتهم ، بل ولا ماهية ما كان يسود العقول في عصورهم من الآراء والمذاهب والمعتقدات . ومن هنا صعوبة دراستها . ورغم ذلك فهي جديرة بأن تُدرس دراسة فيها تحليل وموازنة . ولا يكفي فيها تحرّي الأمانة والصدق وعرضها بحسب ما جاءت في الواقع ، وإنما يجب أيضاً تحري العدل والإنصاف اللذين يقضيان بالحرص على تعرف ظروفها والوقوف على ملابساتها وأحوالها ، والإحاطة بالأفق العقلي والاجتماعي الذي اقتضى ظهورها ، والمرحلة التاريخية التي برزت فيها واعطتها هويتها . . . ثم معايرتها بالمعيار الذي يلائمها ، حتى تتبين قيمتها الصحيحة وتحل في المكان الذي هي له في تاريخ نشوء العلم والفكر . فمن المعلومات التي تتضمنها كتب الرازي والبيروني والخازن والبتاني وغيرهم ما كاد يطويه الدهر في ثنايا النسيان ، وفيها من المعارف ما تجاوزه عصرنا منذ زمن ، بل فيها من الأخطاء ما نربأ بتلميذ في المدارس الثانوية أن يقع فيها . وكل أولئك لا قيمة له . فلولا هذه الأخطاء ، ولولا ما تجاوزه الزمن لما عرفنا وجه الصواب ، ولما تقدم العلم ، ولما استقام له عود . المهم أن يدرك الخلَف أنهم مدينون للسلَف ، دون أن ينتقص من قدر هؤلاء وقوعهم في بعض الزلات أو الهفوات ، بل وارتكابهم بعض الأخطاء الفاحشة . إذ ليس ما يمنع من الاستدراك على الأسلاف ، شريطة ألّا ينطوي ذلك على التجني والتشهير ، والإسراف في التجريح والتشنيع . فإنه ما من

عالِم مهما بلغ شأنه بمعصوم عن الزلل .

*

يذهب البعض ـ في نقده للظاهرة العلمية عند العرب ـ إلى أنها ظاهرة هامشية ظلت بعيدة عن روح الحضارة العربية الاسلامية لم تتأثر بها ولم تؤثر فيها . إنها ليست وليدة الحضارة العربية الإسلامية ، بل هي جسم غريب وشيء طارىء على هذه الحضارة التي ظلت تقف فيه موقف العداء أو على الأقل موقف اللامبالاة . وهذا في نظري زعم خاطىء ربما أوحى به معارضة بعض المسلمين المتحجرين له ، كأنما عصا المعارضة تكفي للجم أصحاب الآراء الكبيرة واسكات أولئك المنفتحين على كل جديد ، الذين هم على استعداد تام لركوب الأخطار في سبيل الحصول على حقائق لم يسمعوا بها من قبل، لا سيما وأن الاسلام لم يعرف ارهاب الكهنوت وإن عرف ارهاب السياسة ، وشتان بين الإثنين . إن معارضة القرآن الصريحة للخمر لم تنجح في منع فريق من المسلمين من شربها ، فهل ينجح زمِّيت أحمق منغلق في منعِ المسلمين مما لم يمنعه القرآن ولم يُنزِّل به سلطاناً ، بل ما يفتأ يشجع عليه ويدعو أرباب العقول اليه : طلب العلم والتماس الحكمة أنَّى وُجدت ، والتفكير في خلق السموات والأرض ؟ فلم يقل طوبى للبُله فإن لهم ملكوت السموات ، بل قال « وكذلك نُفصِّل الآيات لقوم يعلمون »(1) « علَّم الانسان ما لم يعلم »(2) « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون »(3) « إنما يخشى الله من عباده العلماءُ »(4) « يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات »(5) . . . فإذا اضيف الى هذا العامل الديني الباعث النفسي والقوى

---

(1) قرآن كريم 32/7.
(2) المصدر السابق 5/96.
(3) المصدر السابق 43/2.
(4) المصدر السابق 28/35.
(5) المصدر السابق 11/58.

السياسية والتفاعلات السِّيكوسوسيودينامية ، انتقل العلم من الحالة الهامشية الى الضرورة التاريخية واصبح حركة موجهة للأحداث وجزءاً متمماً لحدث الأحداث بعد أن كان حطاماً يسير في ركاب الأحداث .

يالله !!! إن أقبل المسلمون على علوم الأوائل وتهافتوا عليها رماهم الناعقون والمرجفون بتهمة التقليد ، وان عارضوها ـ وبتعبير أدق عارضها فريق قليل منهم ـ أرغى المغرصون وأزبدوا ، وعلى العلم العربي حملوا وبه نددوا ، وأوسعوه تقريعاً وتسخيفاً وعربدوا ، ونفوه الى هامش الحضارة العربية يستقر هناك ويركدُ ، وما قدروه حق قدره بل جحدوا ، وظنوا به ظن السَّوْء وحقدوا ؛ عليهم دائرة السَّوْء ما غابوا وما وردوا ، لقد تنكَّروا للعلم والعرفان وعلى النفاق مردوا ، فذرهم يخوضوا ويلعبوا ويتوعدوا ، فإنما القافلة تسير شاؤوا أم أبوا أم ترددوا !!!

إن معارضة بعض المسلمين لعلوم الأوائل دليل عافية وليست عرَضاً من أعراض المرض. فليس الى وحدة الرأي والفكر من سبيل، الوحدة إنما تكون في الأشياء لا في الأفكار والآراء ، فإذا تسربت الوحدة الى هذه الأخيرة نكصت الى عالم الأشياء ، فبئست من أشياء ! إن المعارضة هي الخبز اليومي للأفكار ، وهي القوت والغذاء لحياة نابضة بالأفكار . ولذلك فإن القانون السابع من قوانين الإثارة السِّيكوسوسيودينامية هو قانون الخلاف والنزاع . « اختلاف الرأي لا يفسد للود صلة » . هكذا كان يقول أجدادنا بل كان مما يرفع مكانة العالم بينهم عدم التعصب لرأيه أو مذهبه .

حتى الكاثوليكية فإنها ـ رغم ما عُرف عنها في القرون الوسطى من تعصب وإرهاب ديني وكهنوتي ـ قد قامت فيها معارضة وقامت فيها تيارات وانشقاقات وانقسامات جعلت من الكنيسة الواحدة كنائس متعددة لم يستطع الجهاز الكهنوتي كله احتواءها أو القضاء عليها ، رغم ما كان يتمتع به من جبروت وسلطان . فإذا كان أمر الكاثوليكية كذلك فما يمنع الاسلام ـ وأمره معروف في تقبل الرأي والرأي المضاد ، فضلاً عن أنه لا يعرف نظام الكهنوت ولا سلطة لرجال الدين فيه إلا سلطة التوجيه والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر بلا إرهاب ولا إكراه ـ أقول فما يمنع الاسلام وهذا شأنه أن تقوم فيه معارضة وأن تقوم فيه حركات وتيارات وانشقاقات وانقسامات لا حصر لها ؟ فالساحة هنا خالية من سلطة الكهنوت، والظروف مهيأة لذلك أكثر جداً مما في الكاثوليكية ؟ ان هذه الخلافات فيها إثراء كبير للفكر العربي الاسلامي . إنها دليل غنى وتنوع ، إنها كما اسلفت القول من أمارات الصحة والعافية لا العكس .

إن معارضة البعض لعلوم الأوائل ـ وهي معارضة لهم الحق كل الحق في إبدائها ـ كانت مقصورة على قلة لها تفكيرها الخاص واجتهاداتها الخاصة ، ولم تكن تُعبر عن رأي جميع المسلمين . ثم إنها كانت معارضة كلامية ، بمعنى أنها لم تكن مصحوبة بمواقف إرهابية من قبل السلطات الحاكمة ، اللهم إلا في بعض عصور الانحطاط التي جاز فيها ما لم يكن يجوز في غيرها والتي ساد فيها الجهلُ والعمى والتعصبُ الناسَ جميعاً حاكمين ومحكومين . فللعصور أحكام تختلف باختلاف العصور . إن الحكام في عصور القوة والمَنَعة لم يضطهدوا المشتغلين بالعلوم الدخيلة كلا ولم يسعوا للقضاء عليهم أو على علومهم ، بل لقد شجعوهم عليها ووصلوهم بالهبات والعطايا . فقد تبنّى هؤلاء قضية العلوم القديمة ولم يدخروا جهداً ولا مالاً للبحث عنها ونقلها الى لغتهم ، وفتحوا أبوابهم وصدورهم وخزائنهم للمشتغلين بها لا لأبناء ملتهم وحدهم، بل لأبناء جميع الملل والنِّحل والعقائد والديانات ، سواء آمنوا بالاسلام أو كفروا به وناصبوه العداء .

يا للسماحة! تُرى هل عرفت ذلك شعوب أخرى غير الشعوب التي دانت بالإسلام أو عاشت في ظله أو تفيأت بفيئه ؟ ومتى ؟ في صميم القرون الوسطى ، حيث كانت عقوبة الإحراق بالنار في أوروبا هي العقوبة المعتبرة، التي كانت تنتظر كل من تسول له نفسه الاشتغال بأي علم غير العلوم التي تسمح بها الكنيسة وكتبها الصفراء . حتى الكتاب المقدس لم يكن يباح لأحد أن يطلع عليه أو يشرحه أو يقول فيه برأيه ما لم يكن من رجال الدين المعصومين عن الخطأ، بل كان يجب على كل أحد الالتزام الحرفي بما ورد

على لسان آباء الكنيسة والخضوع الأعمى لهم . إن أوروبا حديثة العهد بالتعايش بين الأديان والمذاهب ، كما ان التعصب لم يتسرب الى عقول المسلمين إلا في عصور التمزق والتفسخ الأخيرة .

يوصف العلم في العادة بأنه هامشي عندما يبقى محصوراً في نطاق فردي ، فيتحرك عندئذٍ في السر داخل الأسوار المغلقة بعيداً عن أعين الرقباء ، لا في العلن وعلى رؤوس الأشهاد . وهذا الوصف لا ينطبق بحال من الأحوال على العلم العربي الذي كان مبذولاً لكل طالب وكان يلقى التشجيع والتأييد من جميع القوى السياسية والسلطات الحاكمة التي كانت تتنافس على اقتناء العلماء . فلو لم يكن للمسؤولين ـ وعلى رأسهم الخليفة نفسه ـ اهتمام صادق بالعلم والعلماء لتعرقلت كثيراً مسيرة الثقافة العلمية في بلاد الاسلام ولصحّ وصفها بالتالي بأنها ثقافة تعيش على هامش الحياة العربية الإسلامية . ولا يقتصر إسهام العرب العلمي على الحفاظ على المراكز العلمية في البلاد الاسلامية وتشجيعها بل إنه عمد الى التراث العلمي القديم الذي كان قبل الاسلام موزعاً في مراكز متعددة منفصلة بعضها عن بعض . فأحكم الرباط بينها إذ لم تكن من القوة بحيث تحقق الاتصال فيما بينها اتصالاً إيجابياً فعالاً ينتج عنه تقدم الحركة العلمية تقدماً سريعاً مطرداً ، فإذا بالإسلام بين عشية وضحاها يربط بين هذه المراكز ويعزز امكانيات الاتصال والتفاعل فيما بينها ، كما رأينا في الفصل السابق . فلئن كانت مراكز الاشعاع القديمة قد أدركت نوعاً من التطور البطيء قبل الاسلام لضعف امكانية التأثير والتأثر المتبادلين، فقد وجدت هذه الامكانية في المجتمع العربي الاسلامي فرصتها التاريخية ، فقفزت المراكز المذكورة الى مستويات رفيعة من التفاعل الخصب المعطاء لم تعرفه من قبل . لقد كان في مقدور الخلفاء أن يقفلوا هذه المراكز كما أغلق الامبراطور زينون مدرسة الرها سنة 489 م ، والامبراطور جوستينيان أكاديمية أفلاطون في أثينا سنة 529 م بحجة مخالفتها لتعاليم الكنيسة المقدسة ، ولكنهم لم يفعلوا .

ولئن دل ذلك كله على شيء فإنما يدل على بطلان القول بأن العلم العربي كان يعيش على هامش المجتمع العربي ، أو بأن نشاط القلة المشتغلين

بهذه العلوم لم يتعدَّ في الغالب قصور الأمراء والحكام . فانتقال العلوم القديمة الى العرب لم يكن مجرد انتقال سلبي خامل كماسنوضح ذلك فيما بعد ، وإنما كان نتيجة سعي إيجابي ومحاولات دائبة مستمرة للحصول على نفائس اليونان وغيرهم من الشعوب الأخرى ذات التقاليد العلمية والعقلية العريقة ، والاستحواذ عليها بأي ثمن . وقد أسفر ذلك عن نتائج في غاية الأهمية ، لا بالنسبة الى الحضارة العربية الإسلامية وحدها ، بل أيضاً ـ وربما بمقدار أكبر ـ بالنسبة الى الحضارة اليونانية نفسها وإلى الحضارة الإنسانية قاطبة . ذلك بأن العلوم التي دُونت قبل الاسلام بلغاتها الأصلية، قد صُبَّت كلها الآن في بوتقة لغة واحدة هي اللغة العربية . ففضلاً عن الكسب الكبير الذي حققته اللغة التي خرجت لتوها من الصحراء ، فانتقلت من لغة السيف والنخيل والبعير الى لغة العلم والفلسفة والحضارة ـ أقول فضلاً عن هذا الكسب العظيم ، فقد تحقق كسب آخر لا يقل أهمية عن الأول وهو حدوث تركيز ثقافي إنساني هائل لم يسبق له مثيل سواء في دار الاسلام أو في أي بلد آخر من بلاد العالم الواسع الكبير . فهل هذا يتفق مع الهامشية في شيء ؟

ان الحركات الفردية الهامشية لا يُكتب لها النجاح ، بل تظل جسماً غريباً ناشزاً يضر أكثر مما ينفع . إن الحركة الهامشية لا تؤتي ثمارها لأنها لم تندمج في حياة الجماعة التي تبقى بعيدة عنها متخوفة منها لا تُقبل عليها إلا بغاية الحذر والتحفظ . وهذا لا ينطبق أبداً على المجتمع العربي الإسلامي الذي فتح صدره وقلبه للعالم والعلماء ، حتى لكان أهم ما تتسم به حضارته . وأصدق وصف يمكن إطلاقه عليها هو أنها حضارة « إقرأ » أو قل هي حضارة الكتاب كما اتضح ذلك في فقرات سابقة .

أجل ، إن العلم العربي ليس حركة ثانوية طارئة عاشت على هامش المجتمع العربي ثم لم تلبث أن فارقته كأنها ظل عابر، بل لقد كان حركة دائمة وظاهرة مستمرة رافقته منذ نشأته وانطلقت معه طوال عملية الصعود بل لقد ظلت ناشطة حتى في عصور التدهور والانحطاط . لقد اندمجت فيه اندماجاً قوياً ولم تتوقف إلّا بعد أن فجّر العقل العربي جميع طاقاته واستفرغ كل

إمكاناته حتى لم يبق في القوس منزع فخرٍ مغشياً عليه لا يبدي حراكاً . فهل أفاق من غشيته ؟ لا أدري . لقد آن له أن يقوم من بين الأموات بعد ما يقرب من قرن ونصف على ما يسمى بعصر النهضة العربية، ولعله لن يقوم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ . وجاءت الصحوة الاسلامية لتضيف إليه انتكاسة جديدة تزيده انقساماً وفرقة . ويبدو أنه صرف النظر عن هذه النهضة ليستعيض عنها بهذه الصحوة . فهو أدرى بشؤونه منا ! لقد انتهى أمره وعاد الى عهد الحياة البيولوجية، مصير الأولين والآخرين، بعد حياة حضارية زاخرة مليئة بالعطاء ليست شيئاً مذكوراً في تاريخه الطويل .

فكأنها برق تألق بالحمى   ثم انطوى فكأنه لم يلمع

فلا تبدع الأمم إلا مرة واحدة وتنطوي . العطاء لا يتكرر ولا يستمر الى الأبد ، فإنما العطاء الى أجل ثم ينتهي الأجل . ما كان لأحد من قبلنا الخلدُ ، أفإنْ مُتْنا، فهم الخالدون؟ أإذا مُتنا وكنا تراباً وعظاماً أإنَّا لمبعوثون؟ لقد وُعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ، إنْ هذا إلا أساطير الأولين !!! لا تكثروا من التمائم حيث لا تغني التمائم :

فإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لا تنفع !

قُضي الأمرُ الذي فيه تستفتيان ! لقد وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة . لقد تفرقوا بعد أُلفة وذهبوا أيدي سبا . لو أنفقتَ ما في الأرض جميعاً ما ألّفتَ بين قلوبهم . مرة واحدة تألفت القلوب ، ثم تنابذت وتنافرت القلوب ، وعادت سيرتها الأولى القلوب ، ولا أمل بعد اليوم في تأليف القلوب !

قلنا فيما سلف من القول إن الاختلاف في المجتمع الصحي السليم كالمجتمع العربي في صدر الإسلام ـ يزيده صحة وعافية ، لكنه في المجتمع المريض يزيده مرضاً الى مرضه : إيتوني بعلم إن كنتم تعلمون وأنا أول المؤمنين . وكم أرجو أن تُكذب الأحداث ظني وكم أرجو أن أكون في هذا الموضع من الخاطئين .

ولا يسعني هنا إلا التذكير بعبارة لإبن رشد يعتذر فيها عن الإيمان بقدم

العالم ـ في وقت كان فيه هذا الإيمان يُعدُّ جريمة لا تُغتفر ـ حيث قال : « فإن التصديق بالشيء من قِبل الدليل القائم في النفس هو شيء اضطراري لا اختباري ، أي ليس لنا أن لا نصدق أو نصدق ، كما لنا أن نقوم أو لا نقوم . وإذا كان من شرط التكليف الاختيار ، فالمصدِّق بالخطأ من قِبل شبهة عرضت له إذا كان من أهل العلم معذور »[1] .

هل هذه دعوة الى التيئيس وقطع الأمل والرجاء ؟ كلا . ففي الحياة البيولوجية فسحة تتسع لنا كما اتسعت لليونان من قبلنا لن تقوم ليونان برقليس وسقراط وافلاطون وأرسطو بعد اليوم قائمة وإن كانت اليونان لا تزال مع ذلك قائمة ، ولكن شتان بين يونان اليوم ويونان الأمس ، بالأمس كان اليونان مصادر للضوء ثم أصبحوا بعد ذلك مرايا تعكس الضوء . كذلك لن تقوم لعرب محمد وعمر ومعاوية والمأمون والكندي وإبن الهيثم . . . قائمة . لقد انتهى الوجود الحضاري ورجعنا الى الوجود البيولوجي . وكذلك اليونان . فليسعنا ما وسع اليونان ولنقنع بما قنع به اليونان ، وليس لنا وراء ذلك مطمع . وأخشى ما أخشاه أن نبقى دون مرتبة اليونان ، مع أننا من حيث نَضْبُ المعين وانطفاءُ الجذوة سيان . كلانا نعيش حياتنا البيولوجية نحن واليونان ، وكلانا ودَّع الحياة الحضارية لكن شتان بيننا وبين اليونان ، يا حبذا حبذا لو نبلغ اليوم مبلغ اليونان !

أجل ، لا تبدع الأمة الواحدة مرتين . الابداع مانع من الابداع ! لحظات الابداع معدودة ويتوقف الابداع . لا يبدع المرء إلا في حضارته ولحضارته ، فإذا لم تكن له حضارة لم يكن إبداع . فإذا أبدع فإنما يدين بهذا الإبداع لغير حضارته ، أي للحضارة الغربية التي يخضع لتأثيرها ويتفيأ بظلالها . وهذا هو السبب في إبداع الأعاجم في عصور الأزدهار العربي الاسلامي ، وهذا هو السبب أيضاً في إبداع الكثير من أبنائنا العرب في البلاد المتقدمة التي نزحوا اليها . الإبداع رهن بشبكة الإثارة السْيكوسوسيودينامية أصل كل ابداع .

---

(1) كتاب فصل المقار ، وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال صفحة 43.

فبانتصاب سلـم هذه الاثارة يبدأ الإبداع . فإذا تقطعت الشبكـة وانهار السُّلم لم يكن ابـداع . لقد هلكت المـدينـة العـربيـة الأصيلة وانتهى الابـداع فيهـا منـذ قرون ، فهي خاوية على عروشهـا فكيف يكون إبـداع ؟ بئر معـطلة فما تجـدي الحياة بلا ماء يغذي الابداع ؟ وقصر مشيد ولَّى أصحابـه وولَّى معهم الابداع . أواه أواه على حيـاة خلت كانت مليئـة بالابـداع !! لقد ذهبت المـدينة الفـاضلة وذهب الأعيـان والأعلام والصـدور وجميع المشيخـة ، وخلَف من بعدهـم ـ ولا يمكن إلا أن يخلُف لأن العطاء لا يدوم الى غيـر نهايـة كما قلنـا أكثر من مـرة ـ خلْف أضـاعوا المجـد والعلم والكـرامـة . إنهم شـر خلَف لخيـر سلَف ! أفلم يسيروا في الأرض فتَكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بهـا ؟ فإنهـا لا تعمى الأبصـار ولكن تعمى القلـوب التـي في الصدور ! هـذا العمى قانـون طبيعي لا ينجو منه أحد ، إنه يسري على كل أحد . أنا إنمـا أصف ما يحـدث ولا نيَّة لي في تقويم ما يحدث . أنا لست هنا عـالم أخلاق بقـدر ما أنـا دارس متفحص أرصـد الظواهـر لأستخلص منها مـا يمكنني استخلاصـه من قـوانين ، مهما كانت تؤلمني هذه القوانين !

فمن أراد إبـداعاً وكـان أهلاً لـه فما عليـه إلا أن ينضم الى رعيل إحـدى الشبكات العاملة في بلاد الغرب ليجرب حظه هناك . وسينبغ من ينبغ لا بحكم انتمائه الى قومه الأصليين ، بل بحكم انتمائه الى الرعيـل الجديـد الذي هجـر من أجله قومه واختاره له مقاماً . هكـذا انضم الفرس والـروم والاسبان والهنـود وغيرهم الى الشبكات العاملة في بغداد وقرطبة ـ يـوم أن كانت بغـداد وقرطبـة ـ فنبغ من نبغ ، ولولا انتقاله الى دار الاسلام ما نبغ. وبهذا المعنى قلت أكثر من مرة إن الاسلام كان كشَّافاً للمواهب . لكن السطحيين والعنصريين نسبـوا هؤلاء النابغين والموهوبين الى أصولهم العـرقية وجعلوا هـذه الأصول مصـدراً للوحي والالهام، وأنا أنسبهم الى الشبكة السّيْكوسـوسيودينـاميــة الجديـدة التي انتسبوا اليهـا وامتزجت شـرايينهم بها ، فتفجـرت طـاقـات ، وتفتقت قـرائـح وظهـرت عبقـريات لم تكن بحسبـان أحد . أفـلا ترون الى النـابغين من أبنائنـا من أبنـاء العـالم الثالث كيف تنكشف مـواهبهم عندمـا يغادرون البئـر المعطلة والعـروش

الخاوية ويردون بئراً دافقة وعروشاً قائمة ؟ غـيِّرْ مقامك تتغير أفكارك !

يتساءل الكثيرون وكنت واحداً منهم : لقد بـدأت يقظة اليـابان قبـل يقظة العرب ، ومع ذلك فما زال العرب في ضلالهم يعمهـون ، بينما اليـابانيـون في مـراتع القمم يتقلبـون . فماذا عسى تفسيـر ذلـك أن يكـون ؟ وأجيب عن هـذا السؤال بكلمة واحدة : اليقظة تحتاج الى إبداع ، والإبداع لا يتكرر . وأرجو أن أكون مخطئاً . والسلام !

*

والخـلاصة أن العلم العـربي لم يكن حركـة هامشيـة عابـرة طـرأت على المجتمع العربي ثم لم يلبث أن طردها لأنها جسم غريب عليه ؛ بل لقد اندمج هـذا العلم في المجتمع العـربي وكان حـركة أصيلة من حـركاتـه يعبـر بهـا عن همومه وهواجسه وتطلعاته . ولا أقصد بـالاندمـاج هنا انـدماج العلم في الحيـاة بمعناه اليوم ، حيث اخترقت التكنولوجيا حياة الناس جميعـاً ـ حتى ناس العـالم الثالث والرابع ـ وحيث إن كل علوم القدماء وعلوم العـرب والعجم ، بل وعلوم رجـال عصر النهضـة بأوروبـا ليست شيئاً مـذكوراً في جنب مـا يعـرفـه تـلاميـذ المدرسة الثانوية اليوم . كلا ، ان العلم العربي لم يندمج في المجتمـع العربي هذا الاندماج . فهذا طمع في غير مطمع . إنـه شيء لا معنى له عنـد القدمـاء ولا في العصور الوسطى . وإنما نقصد الاندماج بمعناه النسبي ، أي في دلالتـه الزمانية المكانية ، حيث كان العلم نوعاً من الترف العقلي الذي لا يتعدى ذهن صاحبه ، ولئن تعداه فإنه يتعداه الى ذهن آخـر والى حلقة من التـلاميذ تشـرئب أعناقها لطلب كل عجيب وطريف وإشباع نهمها إلى العلم والعرفان . لقد كانت الحلقات العلمية كثيرة عند اليونان وكذلك كـانت عند العـرب ، بل ربمـا كانت أكثر عند هؤلاء منها عند أولئك . وهنا تُقفل الدائـرة . أما أن يمس العلم واقـع الحياة فهذا شيء يكاد يكون غير معروف عند الفريقين. لقد كان العلم والفلسفة يعنيـان شيئاً واحـداً تقريبـاً ولم ينفصلا إلا في العصـر الحديث. وكـل ما كـانـا يعنيان المزيد من التأمل والتعمق في حقائق الأشياء ، مع بعض الفذلكة من قِبل

هذا الباحث أو ذاك . ولم يكن يدور في خَلَد أحد أن يفرق بينهما إلا من حيث الدرجة . وأما اليوم فإن أهم فرق بينهمـا هو اقتـران العلم بالتغييـر « فالفـلاسفة تبعاً لماركس مثلاً لم يزيـدوا على أنهم فسَّروا العـالم تفسيرات مختلفـة، ولكن الأمر المهم ليس تفسير العـالم ، إنما المهم تغييـره »[1] ، هنا يمكن الفـرق بين القدماء (والوسطويين) الذين كان شعارهم جميعاً « ليس في الامكان أبدع ممـا كان » وبين المحدثين الـذين انصب اهتمامهم على « تغييـر » ما كـان ، لأن في الامكان إبداع خيرٍ مما كان . ففكرة « تغيير » العالم فكرة حديثة جداً لو سمعها القـدمـاء لاقشعـرت جلودهـم. وهي نتيجـة تـطورات عميقـة طـرأت على المجتمعات الغربيـة ، بل قـل هي « ثورة » في التفكير سبقتها ثـورات واعقبتها ثورات .

وإذا صـح أن نشاط القلة المشتغلين بـالعلم من العـرب لم يتعـد قصـور الخلفاء والأمراء والحكام كما يـزعم القائلون بهـامشيـة العلم العـربي ـ إذا صح ذلك فنِعِمَّا هو ! نِعْمَ العلمُ ينطلق من القصـور وبئس العلم ينطلق من الجحـور خوفاً من بطش القصور ! حسب هذه القصور شرفاً أنهـا لم تكن عقبة كـأداء في طريق نشر العلم وتحقيق أهدافه ؛ بل كانت مسـرحاً لـه وحارسـة أمينة للبـراعم والأغصـان التي تنبت في حماه ، وراعيـة للانجـازات والجهـود والقـرائـح التي تُمكِّن لـه في الأرض وتُعجل في مسيـرته، لا يلوي على شيء ولا يخشى لـومـة لائم . وهـذا لعمـري مجـد كبيـر يسجِّـل للعـرب ويـدل على مـدى نضجهم واستنارتهم وسعة آفـاقهم وقدرتهم الفـائقة على زرع الأرض بـالرجـال والعلماء الأعـلام . بئس الحاكم يقيم دولـة الجهل ، ويخنق أنفـاس الفكـر ، ويحـارب سـوانح الـرأي وحريـة المعتقد ، كمـا كان شـأن طاغـوت الحلف الثـلاثي غيـر المقدس الذي حكم أوروبا القرون الوسطى بالحديد والنار، وجثم على صدرها دهـراً طـويـلاً ، حتى هبت عليهـا ريـاح التغييـر في الأنـدلس وجنـوب ايـطاليـا والحروب الصليبية .

---

(1) محمد عبد الرحمن مرحبا : المسألة الفلسفية . صفحة 72.

لا جحور ولا أنفاق ولا سراديب يستخفي فيها العلم ويحتجب عن الأنظار بعد اليوم . كيف تدفنونه في الظلام وقد ولد للنور ؟! إن انطلاق العلم من العصور كفيل باغلاق الأقبية والأسوار المغلقة . لقد ذهبت هذه الى غير رجعة وخرج العلم مع العرب الى الفضاء الواسع ليتحرك تحت الشمس وفي رابعة النهار . أرأيت كيف تنقلب حقائق الأشياء عند الحاقدين والساخطين والمغرضين المنكرين لحقائق الأشياء ! حتى العلم الذي خرج من الظلام الى النور ، من الجحور الى القصور لم يسلم على أيديهم الملطخة بدماء الشعوب ، من الطعن والتجني . يا أهل الكتاب لم تكفرون بالكتاب وأنتم تتلون الكتاب ؟ يا سدنة الهيكل لم تُخربون الهيكل وتشترون بآياته ثمناً قليلاً وانتم حفظته وحماته ؟ يا أحبار العلم لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون ؟!

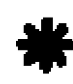
فلا هامشية ولا سطحية ، وإنما هي حركات وحلقات تدور في القصور وتقفز الى بيت الحكمة ودور العلم ، وتخترق المساجد والمعابد حتى لا يبقى فيها موطىء قدم ، بل أكاد أقول لم يخلُ جناح بعوضة دون أن يدُبّ فيه دبيب العلم أو تعبق فيه أنفاسه . فمن العجيب أن يُحكم بالهامشية والانكماش والنشوز على حركة بارزة قوية كهذه الحركة التي لم تكن يوماً من الأيام حركة فردية آنية عابرة ، بل لقد كانت حلقات متصلة استمرت مئات السنين ، وظهر المشتغلون بها ـ وما كان أكثرهم آنذاك ! ـ في أرجاء مختلفة ومراكز متعددة من العالم العربي الاسلامي ، وكانت لها أصداء قوية لا في عالمها المترامي الأطراف فقط ، كلا ولا في عصرها المتطاول فقط ، بل لقد اخترقت أفقها العربي الإسلامي إلى الأفق اللاتيني المسيحي ، وقفزت من القرون الوسطى الى عصر النهضة في أوروبا ، بل لقد بلغت هذه الحركة من الأصالة وقوة الاندفاع أنها لم تتوقف حتى في عصور الانحطاط . فقد لاحظ الباحثون منذ زمن أن العلم العربي بمعناه المعاصر لم يخضع لتطور الإسلام السياسي والاجتماعي ، بل كان يزدهر عند انحطاط الدول والمجتمعات . وهذا ملاحظ في آسيا الاسلامية وفي بلاد الأندلس ومصر . هذا التطور الخاص بالعلم

العربي لم يُدرس دراسة كافية لا في حد ذاته ولا في علاقاته مع القطاعات الأخرى . ومن المحتمل جداً أن تعين دراسته على حل الكثير من ألغاز التاريخ العربي الإسلامي ، وبخاصة في ميدان الاقتصاد ووسائل الانتاج . ومهما تكن أسباب هذا الازدهار المقلوب إذا صح التعبير ، فإن ثلة من علماء العرب ومفكريهم الكبار ـ كالبغدادي في الطب ،وابن البيطار في علم النبات ، والطوسي في علم الفلك، والكاشي في الرياضيات، وإبن خلدون في التاريخ والاجتماع ـ إن هؤلاء جميعاً وآخرين من دونهم قد نشأوا في مضطرب اليم ، بل في بؤرة الإعصار العاصف ، وكانوا ومضة العبقرية في سطوع إبداعها وفيض عطائها قبل الأفول ، لغسقٍ لا يدري أحد الى متى يطول !

إن اتصال هذه الحركة الفذة واستمرارها قروناً عدة داخل جدران المدارس والمساجد وخارجها ، بل واحتفاظها المدهش بالمستوى العلمي الرفيع أجيالاً مديدة خارج مدارس الدولة ومؤسساتها ، ووصول العلوم فيها الى درجة عالية نسبياً من التجريد والتعقيد والتقعيد والنضج ، بعد حركة الترجمة بوقت قصير ، واختراقها عصور الانحطاط بلا وهن ولا كلل دون أن تفقد زخمها واندفاعها ومستواها العالي الرفيع ، هذا إذا لم نقل إنها اكتسبت في عصور التدهور المزيد من العمق والأصالة ـ أقول إن كل أولئك شواهد صدق ودلائل حق على تهافت القول بهامشية الحركة العلمية في بلاد الاسلام . لقد ظلت هذه المسيرة مستمرة تُغذ السير حتى القرن الخامس عشر . وبينما كان علماء ـ وبتعبير أدق أشباه علماء ـ الرعيل الأول أكثرهم من المترجمين النساطرة واليعاقبة والصابئة السريان ، إذا بهم بعد مضي وقت قصير على المسيرة الطويلة ، من العلماء العرب المسلمين الأقحاح . فالمسيرة مسيرتهم هم ، ولم يكن السريان سوى أدوات عابرة استخدمها العرب في بعض مراحل الطريق ثم مضوا وحدهم لا يلوون على شيء .

أرأيت الى هذا التدرج الطبيعي في كل شيء في هذه المسيرة ؟ الانتقال من البساطة الى التعقيد ، من الفطرة الى التقعيد ، من السطحية الى العمق ، من أيدي السريان الى أيدي العرب ؟ أفلا يدل كل أولئك على فشل التفسير

الهامشي الذي يعد العلم العربي شيئاً مقحماً من خارج وليس وليداً طبيعياً . فلا همَّ للتفسير الهامشي إلا تحقير الآخر والاستهانة به والتقليل من شأنه . فإذا أضفنا الى ذلك شواهد أخرى سنصادفها في تضاعيف هذا الكتاب وفي كتابنا القادم ، أدركنا مدى السقوط والاسفاف الذي ينطوي عليه قول القائلين بهامشية الظاهرة العلمية في الحضارة العربية الاسلامية . ولكن ما العمل إذا كان التعصب داء أعيا نُطُس الأطباء ؟ لقد صح المثل الشعبي القائل : « الغرض مرض » .



ومن المآخذ التي يراد بها الطعن في العلم العربي والتي لا تعدو أن تكون من قبيل تشقيق الشعر ، القول بأن أساس هذا العلم هو غير أساس العلم الحديث ، وإنْ تشابه العلمان ظاهرياً في عرض منجزاتهما. فالعلماء المسلمون على اختلاف طبقاتهم وتباين مشاربهم كانوا يخضعون لمفهوم الحقيقة العام ، والعلوم عندهم لم تكن طرائق لاكتشاف حقائق جديدة ، وإنما كانت سبيلاً الى الاستمتاع باسرار منزَّلة منذ القدم ومودعة لدى بعض الأفراد للمحافظة عليها . فالغاية من البحث لم تكن ترمي الى اكتشاف المجهول ، وإنما كان الغرض منها تقرير ما هو معلوم لدى الأوائل ، تبعاً للقول المشهور : « ما ترك الأوائل للأواخر شيئاً». ان مثل هذا العلم يحافظ ولا يجدد . لذلك كان محكوماً عليه بالذبول والانقراض . . .

يا لله ! لابد من تسقط العيوب عند « الآخر » حتى ولو لم تكن هذه العيوب عيوباً ، وحتى لو لم تكن مقصورة على « الآخر ». ان لم تكن عيوب يجب اختلاق العيوب ! أليست العيوب من شأن « الآخر » لا لشيء إلا لأنه «آخر»؟ إن كل جريمة هذا انه «آخر»، «فالآخِرية» جريمة لا تغتفر. ذلك ظن الذين يكرهون «الآخر»، فليسقط «الآخر»، حسبه أنه «آخر» لتحل عليه اللعنة ، هذا جزاء « الآخر » ، ولا سيما إذا كان هذا « الآخر » اليوم ثالثياً ، فكيف إذا كان عربياً اقتحم أوروبا يوماً فاعتدى على الحقوق التاريخية لإنسان

العالم الأول الذي « اختارته » الأقدار لقيادة العالم منذ أن كان لا يزال جنيناً في ضمير الغيب . المجد والخلود للرجل الأبيض ، والويل والثبور للرجل « الآخر » !!

ومن العجيب ان لا ينتبه أولئك الذين يطعنون بالعلم العربي وعلى رأسهم فون غرونباوم G.von Grunebaum . الى أن العلم في أوروبا حتى أواخر القرن السابع عشر ، كان هو أيضاً يقوم على نظرية معرفية مخالفة للنظرية الحديثة . فالأمور لا تنقلب من الضد الى الضد بعصا سحرية . لا بد من التدرج في أكثر عمليات التحول . قلت أكثر من مرة إن العلم العربي كان في مرحلة انتقال تختلط فيه سبحات الميتافيزيقا وشطحاتها برصانة العلم الحديث . وهناك من علماء العرب من تخلص من السبحات والشطحات وظل محتفظاً برشده في عالم كاد يفقد رشده كابن الهيثم والبيروني وابن خلدون مثلاً .

إن تبخوبراهي كوبر نيقوس وكبلر وجيوردانو برونو وبراسلسوس . . . كانوا جميعاً يقولون بالسحر والتنجيم والطلمسات وعلوم الأسرار ؛ وكان نيوتن ـ وما أدراك ما نيوتن ! ـ يحمل على محمل الجد رؤى يوحنا في الانجيل المنسوب اليه ، ويدرسها دراسة تنبؤية ويتحذلق فيها ليستخلص منها معاني وأهدافاً يأباها الروح العلمي . فالعلم الحديث لم يهجم على القرون الوسطى وطلائع عصر النهضة في أوروبا جملة واحدة كما يظن البعض ، بل لقد انتفض وتلبث وانتكس وارتد ، لينتفض من جديد وينطلق في الطريق الملكي ، ثم ليرتفع على بساط الريح ليجوب الآفاق قبل أن يتخذ طريقه الى النجوم .

الخط المستقيم أعدى أعداء التاريخ ، وتاريخ العلم بخاصة ، وهذا ما دعا بعض العلماء الى القول إن النهضة شهدت تراجعاً في الميدان العلمي ، ولا سيما في مجال التطبيقات التقنية ، عما كانت عليه الحال في القرون الوسطى ، حتى ليرى المؤرخون أن العهد الأخير من القرون الوسطى كان أقرب الى الذهنية العلمية من عهد النهضة المتأثرة بالفلسفة اليونانية .

نحن لا ننكر أن الفقهاء والنساك والمتكلمين والفلاسفة وكثيراً من

المفكـرين التقليديين بـل ، وربمـا بعض علمـاء الـطبيعـة أيضـاً لهم تصـورهم الخـاص للحقيقة الخـالدة التي لا تقبـل التغييـر أو التبـديـل ، ولكن من عسـاه يضمن لنا أن كل علماء الطبيعة يتصورون الحقيقة على هذا المنـوال ؟ وإذا كان هناك حقاً من يقول « ما ترك الأوائل لـلأواخر شيئـاً » ، فهناك أيضـاً من يقول : «وإني لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل» بـل لدينـا الكثير من الـدلائل التي تؤكـد أن العلمـاء العرب كـانوا يعـارضون الفـلاسفـة والفقهـاء والمتكلمين في تصـورهم الراكد للحقيقة . وحسب العلماء العرب أن يخالفوا اليونان في كثير من المسائل والقضايا التي توصلوا اليها ـ وسنأتي على نماذج منها فيما تبقى من فصـول هذا الكتاب ـ لنقتنع اقتناعاً راسخاً أن تصور الحقيقة لم يكن واحداً عند المسلمين ، والعلمـاء العـرب هم المـرشحـون أكثـر من غيـرهم ليكـونـوا رواد التصـور « الـديناميكي » للحقيقـة ، في مقابلة التصـور الإستاتيكي أو « الـراكد » لعـامـة المسلمين . ولعل مما ساعد على شيوع التصور الراكد للحقيقـة عند المسلمين جميعاً ـ عامتـهم وخاصتهم ، لا فرق بين فقيـه ومتكلم وعالم في الـطبيعة ـ هـو الاعتقاد السائد بأن فكـرة « التقدم » فكـرة حديثـة لم تكن معروفـة قبل القـرن الثـامن عشر . وهـذا غير صحيـح . فهذا إبن خلدون مثـلاً ـ الذي حمـل على الفلسفة الميتافيزيقية حملة شعواء وأثبت عقمها وسخر ممن يضيع وقته في تقليب صفحات كتاب (الشفاء) لإبن سينا ـ يتحدث عن التقدم حديثاً سبق به مفكري عصر التنوير في أوروبا بما يقرب من أربعة قرون. فقد عني إبن خلدون بظاهرة الصيرورة أو فكرة التقدم أو التطور التاريخي في الحياة الإجتماعية عناية فائقة لا مثيل لها في العصور الماضية . فالتاريخ عنـده سلسلة من التغيرات الاجتمـاعية التي لا تقف عند حد ، بل هي تستمر وتستمر الى غير ما غاية ولا نهاية ، فينشأ عن ذلك تبدلات وتغيرات لا تظهر إلا بعد الأزمنة المتطاولة ، وكان ذلـك حجر الزاوية في تحقيقاته التاريخية . وهو يُعدُّ من هذه الناحية أيضاً متفوقاً على جميع المؤرخين الذين سبقوه أو كانوا معاصرين لـه . فقد لاحظ بمنتهى سداد الـرأي تبدل الأحوال في الأمم والأجيال ، وتنبه الى أن لكل جيل أحواله وعـوائده التي لا تبقى على وتيـرة واحدة ، بـل تختلف من جيل الى آخـر ، باختـلاف الزمـان والمكان . فلنستمع اليه يقول :

«ومن الغلط الخفي في التاريخ، الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام. وهو داء دويٌّ شديد الخفاء، إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة. وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونِحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال الى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار، والأزمنة والدول. سنة الله قد خلت في عباده»[1].

وقد حاول إبن خلدون ان يعلل حدوث هذا التبدل بالرجوع الى تعاقب الأمم والدول على المُلك والسلطان. إذ كلما تجدد مُلك تجددت عوائده، وامتزجت عوائد السابقين بعوائد اللاحقين، فحصل عن ذلك لون جديد من التقاليد والأعراف والعلوم والصنائع. وقد يقع مثل هذا التبدل في الدولة نفسها إذا طال أمرها. ثم قدم إبن خلدون بعد ذلك أمثلة على هذا التغير في ماهية العلم والتعليم، كيف تبدل أمره من صدر الإسلام الى عصره. فالتعليم أول الأمر لم يكن «صناعة، إنما كان نقلاً لما سُمع من الشارع وتعليماً لما جُهل من الدين على جهة البلاغ... [أي] على معنى التبليغ الخبري، لا على وجه التعليم الصناعي [التقني]...»[2] «ومن هذا الباب أيضاً ما يتوهمه المتصفحون لكتب التاريخ إذا سمعوا أحوال القضاة وما كانوا عليه من الرياسة في الحروب وقَوْد العساكر... يحسبون أن الشأن في خطة القضاة لهذا العهد على ما كان عليه من قبل... ولا يتفطنون لما وقع في رتبة القضاة من مخالفة العوائد... [حيث] كان القضاة في الأمر القديم لأهل العصبية من قبيل الدولة ومواليها، كما هي الوزارة لعهدنا في المغرب... وأكثر ما يقع في هذا الغلط ضعفاء البصائر من أهل الأندلس لهذا العهد، لفقدان العصبية في مواطنهم منذ أعصار بعيدة، لفناء العرب ودولتهم وخروجهم عن ملكة أهل العصبيات»[3].

---

(1) المقدمة 252/1.
(2) المصدر السابق صفحة 255.
(3) المصدر السابق صفحة 255-256.

ولئن بدا هذا التبدل في أيامنا من الوضوح بحيث لا يحتاج الى فضل بيان ، فما ذلك إلا لأن التقدم العلمي الهائل في الوقت الحاضر قد جعل الأحداث تتلاحق سراعاً، والتغيرات تتوالى كالبرق، وأساليب الحياة تتبدل بين عشية وضحاها ، لقد ألِفْنا التبدل والتغير في هذا العصر حتى أصبحنا لا نتصور الأمور تجري على خلاف ما نرى . فالتاريخ اليوم يسير في لحظات معدودة ما لم يسره في آلاف السنين في الماضي . إنه يقفز قفزات مذهلة لا ندري إلى أين ستفضي بنا . فإذا جاء رجل في القرن الرابع عشر كإبن خلدون ولمح بنظراته الشاملة المستوعبة دبيب التاريخ في وقت كان كل شيء فيه يبدو راكداً لا حراك به كأنه جثة هامدة ، كان ذلك دليلاً على عبقرية الرجل وبُعد نظره وشمول فكره وقوة ملاحظته .

لذلك ليس بصحيح ما اتُهم به ابن خلدون من أنه عدو فكرة التطور والتقدم في التاريخ . فهو في الواقع أول من قال بهذه الفكرة وأول من نادى بها بين المؤرخين القدماء ، وهي جماع الأمر كله في فلسفة التاريخ . لأن فلسفة التاريخ إنما تنصبُّ على فكرة التقدم المطلق للحياة البشرية : وهي فكرة لم تظهر ـ إذا استثنينا إبن خلدون ـ إلاّ في القرن الثامن عشر في أوروبا ، بعد أن أنضجتها تجارب وأحداث كثيرة ، ومهَّد السبيل اليها ما بلغته الإنسانية آنذاك من تقدم نسبي في العلم والمعرفة . وبمقدار ما كان من الصعب أن يتطرق الذهن اليها قبل ذلك، أصبح من السهل رؤيتها بعد أن تبلورت واتضحت معالمها . وأما إبن خلدون فقد نفذ إليها ببصره واستشف أبعادها وهي لا تزال جنيناً في ضمير الغيب .

*

فمن الظلم والتجني إذن عدم الكف عن توجيه التهم إلى أولئك الذين كانوا في يوم من الأيام قادة وسادة ورادة ، وإلصاقها بهم بمناسبة وبغير مناسبة ، لا لجريمة اقترفوها ، ولا لمنقصة لحقت بهم ، بل لمجرد أنهم عرب مسلمون لا يدينون دين الغرب ، ولا يُقيمون قيمه، ولا ينهجون نهجه ، ولا

يتصورون الأشياء على منواله ، ولا يخضعون لسلطانه . وحتى لـو فعلوا اتهمهم بالتقليد والببغائية والخضوع وفقدان الأصالة .

لقد كان العلم القديم كله ـ لا العلم العربي وحده ـ علماً طفيلياً إذا صح التعبير ، يتسكع على هامش الحياة ، ولم يكن يوماً يعيش في البؤرة ، وفي أكثر الأحوال كان ترفاً عقلياً ، وعملاً يُقصد به الزينة والتكايس على الأقران لا الوصول الى الحقيقة ، باستثناء قلة ممتازة موجودة في كل زمان ومكان . لم يكن العلم وليد الحياة بل لقد كان شيئاً مُقحماً على الحياة . ومع ذلك فالعلم العربي يتمتع بميزات لم يحلم بها العلم اليوناني رأينا شواهد عليها في هذا الفصل ، وسنرى شواهد أخرى في الفصول التالية . كما ان فكرة الكشف عن المجهول (أو الحقيقة المتجددة) لم تكن غائبة عن أذهان العلماء العرب المسلمين الذين تصدوا لإبطال نظريات بطلميوس وجالينوس وأرسطو وغيرهم ، وإلاَّ فما معنى إبطال نظرية هذا العالم أو ذاك، أو إدحاض فلسفة هذا الفيلسوف أو ذاك ، إذا لم يحمل تصوراً جديداً للحقيقة وكشفاً عن مجهول لم يستطع الأولون الكشف عنه ؟ ما معنى تصحيح القديم بالجديد لو كان القديم يغني عن الجديد ، لو كان علماً لَدُنيّاً مُنَزَّلاً لا يتطرق اليه الخلل ، ولا يقبل التنقيح أو التعديل ، لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟

دعكم من هذه الترهات ولا تبخسوا الناس أشياءهم. اقدروا « الآخر » حق قدره ولا تحقروه أو تتخذوه عدواً ، ففي العالم متسع لكما معاً وفسحة . وحتى لو كانت الأرض كلها مسرحاً لكم وحدكم لأنقسمتم على أنفسكم فريقين متعاديين : فريقكم القريب والفريق « الآخر » البعيد . فإن « الآخر » ملازم للذات تلازم وجهي قطعة النقد الواحدة ، إنه امتداد للذات ، أو هو الشق المتمم للذات ، فكيف يكون نقيضاً للذات ؟

المهم عندكم أن تتسقطوا السقطات وتتبعوا العثرات. . . فإن لم تجدوها اخترعتموها لحاجة في أنفسكم . إن باحثين كباراً مشهوداً لهم بالعلم والمعرفة قد انجرفوا في هذا التيار ، فأسهمت شهرتهم في تغذية مجموعة من الأراجيف والمغالطات نفذت بقوة الى الفكر العلمي والتصقت به التصاقاً يصعب التخلص

من آثاره الضارة . وكم كان حقيقاً بهم ـ وهم العلماء الأعلام ـ أن يربأوا بأنفسهم عن الرأي الفطير والحكم الغالي المتعجل ، والتعميم السريع الذي يختلط فيه الهوى الشخصي بالنظرية العلمية . فهم يتعمدون ـ كدأبهم في كل وقت ـ الى إبراز بعض الملامح في الفكر العربي يختارونها اعتباطاً، وإخفاء بعض الملامح الأخرى التي قد تكون أكثر أهمية واصدق تعبيراً ، ويغلون في ذلك حتى يصلوا الى غاية المدى . ونتيجة ذلك كله بطبيعة الحال أحكام مبتسرة تجافي الحقيقة والواقع ، ولا تصمد أبداً للنقد العلمي والتحليل المنهجي .

ولقد رأينا في هذا الكتاب نماذج كثيرة من هذه الأحكام ، كلها تدور على تفوق الغرب على الشرق بحكم التكوين والفطرة وقدرته « الخارقة » على ادراك الأفكار العظيمة ، وخلق القيم واجتراح المعجزات والآيات البيِّنات. فالغرب أصيل والشرق مقلد ، والغرب والشرق لا يلتقيان . ويؤيد أصحاب هذه المقالة كلامهم بالمقارنة بين اليونان والعرب . فالجمهور من النقاد على أن الفكر العربي لا أصالة له البتة ، فما هو إلا صورة ممسوخة للفكر اليوناني ، صورة هزيلة تافهة كُتبت باللغة العربية. الحرف فقط عربي ولكن المعنى والمضمون يوناني . فأما الحرف فلا عبرة به ، وإنما العبرة فقط بالمعنى والمضمون .

أمَّا أن الفكر اليوناني فكر أصيل فذ، فهذا ليس موضع مناقشة أو جدل رغم تأثره الشديد بأفكار الشعوب الأخرى ـ والشعوب الشرقية على الخصوص ـ وأما أن يُسلَب الفكر العربي طابعه الأصيل، وان يُجعل منه نسخة رديئة أو غير رديئة للفكر اليوناني ، فهذا ما لا نرى له مساغاً ، وقد رأينا في سياق هذا الكتاب كما سنرى في الفصول التالية منه ما يبطل هذا الزعم ويكشف زيفه وكذبه . ويفضح تعنت القائلين به، وتشنجهم وفساد نفوسهم وخبث طويتهم، بصرف النظر عن أولئك الذين طلبوا الحق ولكنهم لم يصيبوه، فأصدروا أحكاماً قد لا تروقنا ولكنها جُهد الصادق المُقلّ . إنها تظل أحكاماً جديرة بالاحترام والتقدير أين منها أحكام التعصب والهوى المشحونة بالبغضاء والاستعلاء وشعور الصلف والكبرياء .

إن الأحكام المستعلية التي تنكر الأصالة على الفكر العربي الإسلامي

وتسمه بسمة اللاعلمية رغم كل عطائه العلمي ـ أقول إن هذه الأحكام جميعاً ـ تنطوي فيما تنطوي عليه على خطأ منطقي ، وهو عدم التمييز بين أحكام الواقع وأحكام القيمة . ففكرة (الأصالة) التي طالما نسبوها الى أنفسهم وأنكروها على الآخرين ، تتكشف لنا بعد تحليلها وإنعام النظر فيها عن جانب كبير غير عقلي ولا صلة له بالمنطق والاستدلال ، إنه جانب المثل الأعلى تغشاه غلالة رقيقة من زخرف المنطق وبريقه. فإن أصحاب هذه الأحكام يتصورون حالة مثالية من الصعب جداً ـ إن لم يكن من المستحيل ـ بلوغها والوصول اليها . وبكثير من الافتعال والافتيات والقسر والكذب ، يوحّدون بين هذه الحالة وبين نماذج بشرية ينتقونها انتقاء متعسفاً ، ثم يهبطون بعددها الى أقل قدر ممكن ـ وإلاّ لم تكن لها قيمة ـ ويوجهونها بحيث تستجيب لمعايير عزيزة المنال في الشرق (ولا سيما في الشرق العربي الإسلامي)، بينما يمكن العثور عليها بصعوبة أقل نسبياً ـ أو هذا ما تصوره لهم أحلامهم ـ في الغرب ، وبقفزة سريعة هي بحركات السحر أشبه ، يصلون الى النتيجة المطلوبة، وهي تفوق الغرب على الشرق !!!

فالأصالة في مفهوم هؤلاء إنما تكمن أهميتها في ندرتها وصعوبة العثور عليها، بل حتى لو كانت كثيرة الشيوع فإنهم يعزلون بعض الأنماط النادرة منها فيقطعون بأصالتها هي وحدها ، ويحرمون سائر الأنماط الأخرى من امتياز كان يحق لها التمتع به لولا أن الأصالة ـ أو ما يسمى كذلك ـ هذه الفكرة ـ الشَّبَح ، هذه الفكرة الفارغة من المضمون، لها معنى أرادوه هم بحيث ينطبق فقط ـ بكل تحكُّم واقتسار ـ على قلة نادرة مختارة دون الكثرة المبتذلة . وهذا لعمري يذكرني بشبه مشكلة فلسفية تنبه لها الفيلسوف الانكليزي العظيم دافيد هيوم وكشف ما فيها من زيف وفساد . فالناس كثيراً ما يتساءلون : لماذا لا تكون جميع النساء جميلات ، بل يقتصر الجمال على نسبة ضئيلة جداً منهن ؟ إن مجرد طرح السؤال يعني ـ من حيث ندري أو من حيث لا ندري ـ أننا لا نفهم من الجمال إلا الحد الأعلى من الجمال ، وبذلك نُخرج الكثيرات من الجميلات عن سمت الجمال وندرجهن في عداد القبيحات . لقد ضيَّقنا واسعاً

حتى جعلناه كسَمِّ الخياط لا يلج فيه إلاَّ ما دقَّ ورقَّ ، وبيدنا نحن أن نوسعه من جديد ليلج فيه ما غلظ وشق . فالأمر مرهون بنا ، برغبتنا في توسيع الضيق بحيث يلج فيه الجمل والبقر والبشر ، وتضييق الواسع بحيث لا ينفذ فيه الغبار ولا تدركه الأبصار. فالمشكلة إذن من صنعنا نحن ، وليست مشكلة موضوعية حقيقية، أو قل هي شبه ـ مشكلة Pseudo-Problème فالسؤال لا معنى له عند هيوم . فلو كانت أكثر النساء على درجة من الجمال تقارب أجملهن لوجدناهن تافهات ، ولقَصَرْنا وصف الجمال على الأقلية الضئيلة منهن ، وهن اللائي يتمتعن بجمال فائق . .

وهكذا حكم السؤال : لماذا لا تكون جميع الشعوب أصيلة بل تقتصر الأصالة على أقلية ضئيلة جداً لا تتوفر إلا في الشعوب البيضاء ؟ فالسؤال ههنا لا معنى له أيضاً . فمع أن جميع الشعوب والأقوام والأجناس متشابهة فيما بينها من حيث الأصالة ـ أو ما يسمى كذلك ـ فإن أصحاب الأغراض والأهواء والمآرب يقصرون هذا الوصف على قلة مختارة بيضاء نادرة يرفعونها الى أعلى عليين، الى مستوى المثل الأعلى، فيجعلونها معياراً للتقويم ونموذجاً للأصالة والابداع ، ويردون البقية الباقية أسفل سافلين . وهكذا ـ وبسحر ساحر ـ خرجت أكثر الشعوب عن وصف الأصالة والإبداع ، فحقَّ عليها الوصف المضاد ، وهو التقليد والبْبغائية والاتباع . إنها غثاء كغثاء السيل . أعداد في أعداد. لكن ما قيمة الأعداد إذا كان المعدودون مجموعة أصفار؟ فربَّ واحد كألف ألف ، ورب ألف ألف كأف ! فليست العبرة بالعدد إنما العبرة بالمعدود . فالشعوب البيضاء وحدها جديرة بالحياة ، وأما الشعوب الأخرى فلتُستعمر ولتُلحَق بحظائر البيض . هذا هو قدرها وهذه هي إرادة التاريخ ! فإذا لم يقل البيض هذا الكلام بمثل هذه الصراحة والدقة والوضوح ، فقد أفصحوا عنه بوضوح أكبر وعلى وجه أكثر صراحة ودقة في تصرفاتهم وأفعالهم في البلدان التي عانت ـ ولا تزال ـ من اضطهادهم وقهرهم وعسفهم واستغلالهم . فلسان الأفعال أصدق كثيراً من لسان الأقوال . هذه حكاية حالهم فاخْبَرْهم تَقْلُهُمْ .

وأخيراً ، لعل في هذا الذي أوردته فيما سلف من الكلام ما يكفي لإثبات أن العرب لم يكونوا شيئاً هملاً في تاريخ العلم والحضارة ، بل لقد كانوا طاقة كبيرة وقوة دفع هائلة للعلم والحضارة. لقد كانوا منائر تشع بالضوء في وقت انعدم فيه الضوء ، وقمة عالية ترنو اليها الأبصار بين المهاوي والسفوح والقفار . لقد كانوا في دهرهم انداء الغمام ، تجود بها السماء في عام لا كسائر الأعوام ، انقطع فيه الغيث وعز المطر ، فيسبحون في اللُّج ويجنون الثمر . وإني لأهيب بأولئك الذين في هذا الفكر يشككون ، ويمضون في التشكيك لا يفترون ، ألا يبخسوه حقه وأن يكفوا عن المجون ، فبأي حديث بعد ذلك يؤمنون ؟

الترجمة ومدى تأثيرها في تحول الجدل الديني الى اهتمام بالبحث العلمي والفلسفي*

سيداتي آنساتي سادتي

لا يجوز في رأيي أن نعطي للترجمة عن اليونانية في عصور الازدهار الاسلامي كل تلك الأهمية التي تضفى عليها . فنحن لا ننكر ان الترجمة كان لها نتائج هامة بل هامة جداً في الفكر العربي . ولكن الترجمة وما أعقبها من نتائج وأبعاد لا تعدو ان تكون هي أيضاً نتيجة لعامل يفوقها أهمية هو العامل العربي الاسلامي ، والمخاض العربي الاسلامي، والثورة العربية الاسلامية .

أجل ، ينبغي لنا ألا نغلو في تقدير أثر النَّقَلة السريان كما يفعل بعض الباحثين لحاجة في نفس يعقوب ، فلا يجحد الأهمية الكبيرة التي يتمتعون بها في تاريخ الفكر العربي إلا جاهل أو مكابر ، ولكن هذه الأهمية لها حدودها المقررة التي لا يجوز أبداً تخطيها ، سواء في الحضارة الاسلامية أو في أي حضارة أخرى .

ان الترجمة كانت محطة من المحطات الكثيرة التي توالت في مسيرة الفكر العربي الاسلامي تزود فيها ببعض الزاد ثم انطلق بنفسه وحيداً يشق طريقه لا يلوي على شيء . لقد كانت الثقافة اليونانية في طور احتضار عند انطلاق المارد العربي، فبعث فيها الحياة ورد اليها الروح التي سلبها منها تقادم القرون وتعاقب العصور والدهور . لقد كانت ثقافة متهرئة تعاني من أمراض

* نص الكلمة التي ألقاها المؤلف من المؤتمر السنوي السادس لتاريخ العلوم عند العرب المنعقد في جامعة حلب . 15-16 نيسان (أبريل) 1982.

كثيرة تداركها العرب وأقالوا عثرتها وصححوا اتجاهها. فمنهجها قياسي تجريدي كان دائماً عقبة في طريق تقدم العلم والحضارة . وحسب العرب فخراً انهم طلعوا على العالم بالمنهج العلمي الذي ينسب في العادة الى بيكون ، حتى أصبحت الكلمتان (المنهج العلمي) و (المنهج البيكوني) كلمتين مترادفتين .

لقد نتج من المنهج القياسي التجريدي عند اليونان ان جميع علومهم كانت فلسفية ان لم تكن اسطورية . فالكيمياء كانت أسطورية والفيزياء فلسفية وكذلك الطب والفلك . فالعرب هم الذين أنشأوا العلم الطبيعي بالمعنى الحديث ! وهم الذين نقلوا الكيمياء من الطور الأسطوري الى صورتها العلمية الرائدة . وتجارب الرازي في هذا الباب لا تحتاج الى فضل بيان . كما ان الطوسي والبتّاني والبيروني والصوفي . . الخ جعلوا علم الفلك علماً رصدياً يقوم على الملاحظة وأوجدوا له الآلات والأدوات المناسبة .

وبقدر ما كان اليونان عمالقة في الهندسة فقد كانوا أقزاماً في الحساب وتقنية العدد . وهنا أيضاً اقتحم العرب الساحة وعمدوا الى الفراغ القاتل في أعظم حضارة سبقتهم، فملأوه بذوب عقولهم وعصارة أذهانهم، ووهبوا الحضارة علم الحساب وصناعة الأرقام . فانطلقت من عقالها وقفزت الى مستويات رفيعة بعد أن طال تعثرها واشتدت معاناتها . ولا غرو في ذلك ، فالعدد عصب الحضارة ، كل حضارة .

أجل لقد كان العرب الورثة التاريخيين للعلم اليوناني والفلسفة اليونانية . ولكنهم لم يرتضوا هذا العلم ولا تلك الفلسفة ، إن كان تحفظهم بالنسبة الى كل منهما متفاوتاً في القوة والدرجة لأسباب مرحلية تاريخية ولظروف موضوعية متعددة سنذكر بعضها ونمسك عن ذكر بعضها الآخر . فالعلم اليوناني كما هو معروف علم غائي قوامه الانتقال من العام الى الخاص أو من الكلي الى الجزئي ، في حركة منطقية مطردة تتصاغر فيها الأشياء وتضمحل لتتعاظم الماهيات والجواهر ، حتى ينتهي بها الأمر الى عالم من العقول والمجردات لا أثر فيه لشوائب المادة ومعاطبها ، عالم جميل ساحر لا أثر فيه إلا للمنطق ، ولا مطلب له إلا اتفاق الفكر مع ذاته . فالعقل أساس المادة ، والشيء إنما يعرف

بتجاوز المحسوس الى المعقول والبحث عن العلل الأولى والمبادىء الأساسية التي تكمن وراء الأشياء .

ولكن العلم في الوقت الحاضر يختلف عن العلم القديم في المنهج والموضوع والغاية . فمنهج العلم القديم كان منهجاً منطقياً ، ومنهج العلم الحديث تجريبي ؛ وموضوع العلم القديم الجسم وما يلحقه من عوارض الحركة والتغير والنُقلة ؛ وموضوع العلم الحديث دراسة ظواهر الأشياء واكتشاف القوانين وشبكة العلاقات التي تربط بينها ؛ وغاية العلم القديم تطهير النفس بالمعرفة والسمو بها الى عالم العقول المفارقة والمبادىء العالية ، أما غاية العلم الحديث فهي تسخير المعرفة لأغراض الحياة ولزيادة رفاهية الانسان .

فإذا كان العلم اليوناني على ما رأينا ، وإذا كان العلم الحديث هذه سماته فما ملامح العلم العربي ؟ وما مقوماته ؟ واين يقف بين العلمين ؟

إن العلم العربي تلتقي فيه خصائص العلم القديم والعلم الحديث، فهو في طور وسط بينهما . لقد كان يجتاز مرحلة انتقال من المرحلة القديمة في البحث الى الطريقة الحديثة التي استقر عليها منذ بداية عصر النهضة في أوروبا . ولم يكن ممكناً ان يحدث هذا الانتقال طفرة وعلى غير انتظار . وهذا ما يفسر لنا وجود التأمل الفلسفي في تراث العرب العلمي إضافة الى المنهج التجريبي ، واعتماد البحث على النظر العقلي المجرد الى جانب أخذه بالواقع العيني المحسوس. فاليونان أورثوا العرب طريقتهم التجريدية ونظرهم العقلي وتأملاتهم الرائعة ، فأخذ العرب ذلك كله واستوعبوه، بل لقد أضافوا اليه ما يختلف به العرب عن اليونان وهو اختبار معارفهم واخضاعها للتجربة . فالعرب هم الذين اكتشفوا ميزات المنهج العلمي ، وهم أول من أوجد طريقة التجربة والملاحظة ووضعوا لها القواعد والأصول ، فخلقوا بذلك علم الطبيعة التجريبي ووصلوا به الى مستوى لائق لم يخطر لليونان على بال، بل الى مستوى لو أدركه اليونان لأدانوه فوراً ، ولنددوا بأصحابه ولحكموا عليهم بالخزي والعار ، لأنه يفسد المبادىء الشريفة التي يجب أن تظل بمنأى عن المادة الخسيسة وادرانها وحقارتها ، . وان تبقى في عالمها السامي موضوعاً للتأمل

والنظر ومتعة للعقول والأذهان . لقد كفر اليونان بالمادة وأشادوا بالعقل إلا قليلاً منهم لم ينجحوا في تغيير ما هو عميق وأصيل في الفكر اليوناني . وبرغم أن أرسطو كان أكثر واقعية من أفلاطون فإنهما يتساويان في توكيد التنافر بين المادة والعقل ولم يفلحا قط في التوفيق بينهما برباط من الألفة والانسجام .

أما العرب فقد آمنوا بالمادة دون أن يكفروا بالعقل، بل لم يزدهم الايمان بالمادة إلا إيماناً بالعقل . لقد جمعوا بينهما في إطار من الوحدة والتناسق لم يعرف من قبل ، وكان ذلك واضحاً في نهضة علوم المادة بينهم ، كالكيمياء والفلك والعلم الطبيعي والحيل والطب . . . الخ . نعم ، لقد كانت هناك تيارات أفلاطونية صوفية، ولكنها لم تستطيع القضاء على التيارات المادية، بل لقد ظل التعايش والتفاعل والحوار قائماً بينهما ، خلافاً لما كانت عليه الحال عند اليونان، حيث لم تنجح التيارات المناوئة لأفلاطون وأرسطو ان تعلن عن ذاتها إلا بشق النفس . وقد ظلت غريبة في عقر دارها ، فلم تؤثر ولم تتأثر، ولم تخلق الظروف الموضوعية المؤاتية لها ، كأنها نشاز مزعج في سمفونية رائعة .

لقد انكب العرب على علوم الأوائل دراسة وتمحيصاً ، وأقبلوا عليها بكل جوارحهم فلم يغادروا علماً إلا نقلوه الى لغتهم ولا فناً إلا رضخ للسانهم . وفي نهاية عصر الترجمة كان العلماء يقفون على قاعدة صلبة من علوم اليونان التي أضيف اليها جزء كبير لا يستهان به من علوم الهند وفارس . . منذ ذلك الوقت بدأوا يعتمدون على مصادرهم الخاصة، أي على العوامل الداخلية وعلى زخم الطاقات التي انطلقوا بها من بطن الجزيرة . لقد قام العلم عند العرب أولاً على شروح أرسطو وغيره ، ثم انصرفوا بعد ذلك الى دراسة العلم في الطبيعة ، وفضلوا ذلك على دراسته في بطون الكتب . وهذا تطور خطير في مفهوم العلم عندهم . فقد أدركوا في وقت مبكر جداً ان التجربة والملاحظة لا يعدلهما ألف كتاب. هذه الحقيقة التي أصبحت معروفة اليوم لم تكن كذلك في الدهر السالف . فقد ظل علماء القرون الوسطى يدورون في الحلقات المفرغة ألف سنة قبل أن يدركوها .

يعزو الناس في العادة الى بيكون قاعدة التجربة والملاحظة ، وهما

الأصل والأساس في كل بحث علمي حديث . بيد ان الواجب يقضي علينا اليوم أن نعترف بأن هذه القاعدة من مبتدعات العرب . وقد أورثت هذه الطريقة أعمالهم العلمية الوضوح والابداع الذي تميزت به منجزاتهم الطبية والطبيعية وقادتهم الى الكشف عن أمور وفقوا اليها في ثلاثة قرون أو أربعة توفيقاً لم يكتب مثله لليونان ولا لغيرهم في زمن أطول من زمنهم . فهذه الذخيرة من العلم التي انتقلت الى اليونان قبلهم دون أن يستخرجوا منها شيئاً ذا طائل وان أغنوها بالتأملات الفلسفية العميقة، فإن العرب نقلوها الى أخلافهم من بعدهم وقد أضافوا اليها ثمرات عقولهم وتجارب أيديهم . لقد كانوا علماء وجعلوا غيرهم علماء . وهذا حسبهم .

ان أكثر الذين عالجوا التراث العربي لم يعيروا العلم الطبيعي فيه حقه من الاهتمام. ولو فعلوا لوجدوا أشياء وأشياء ولاستيقنوا أن العرب لم يصلوا الى ما وصلوا اليه إلا بفضل منهجهم الجديد الذي طلعوا به على العالم وكان سمة بارزة من سمات تفكيرهم .

نحن لا ننكر وجود فريق آخر من المفكرين العرب ظلوا يعولون على المنطق والجدل الفلسفي لإثبات ما يريدون اثباته أو نفيه . ولكن ذلك لا أهمية له أبداً ، بل هو دليل صحة وعافية . ولئن دل على شيء فإنما يدل على تنوع الفكر العربي وخصبه . فهو لم يجمد على طراز واحد ونمط واحد في التفكير والنظر الى الأشياء . انه كالفكر الأوروبي اليوم ، فيه الدعوات المثالية التي ترفض الدعوات المادية ، والمذهب الحدسي الذي يعارض المذهب التجريبي ، والمذهب الحسي الذي يناوىء المذهب العقلي ، ونجد المذاهب الدينية الزميتة وهي تندد بالتحرر الديني والانجراف في تيار الالحاد ، بل نجد فيه أيضاً مذاهب الأخلاق والفضيلة في مواجهة الإباحية والجنس . وهكذا دواليك .

ان تصادم الأفكار وتلاطمها واصطراع هذه الأفكار فيما بينها ، لا يعيب الفكر الأوروبي في شيء ، بل هو أحد أمجاده ، انه فكر فعال نشيط منفتح على جميع الآفاق ، ومستعد لكل التحديات . ولولا هذه الفاعلية ، وهذا

الصراع ، وهذا التضاد لما كان فكراً عملاقاً .

وهذا التنوع نفسه نجد شبيهاً له في الفكر العربي الاسلامي الذي ازدحمت فيه ـ في عصوره الذهبية ـ جميع الاتجاهات والمدارس والنزعات ووجدت فيه تعبيراً لها . فهو لم يضق بمذهب واحد منها لأنه لم يخش واحداً منها بل اتسع لها جميعاً وقدم لها المتنفس والمناخ . ففي خضمه اصطرعت جميع الملل وتضاربت ، وفي أفيائه تعايشت وتجاورت وتحاورت . . ومع كل هذا ، فقد ظل على ايمانه بالتجربة والمادة والواقع المادي . بل اننا لنجد الفلاسفة التقليديين كالرازي وابن سينا وابن طفيل وابن رشد وغيرهم ، لم يتخلوا يوماً عن هذا الايمان . فهم رغم ذهابهم في متاهات العقل كل مذهب فقد ظلوا يحتفظون برشدهم مشدودين الى واقعهم ، وظلت التجربة عندهم أفضل من ألف كتاب . لقد أخذوا بالمعيارين معاً ـ معيار التجربة ومعيار المنطق ـ وكانوا يستعملونهما استعمالاً بارعاً ومقتصداً وبمعادلة دقيقة ، فما وقع في نطاق التجربة أخضعوه للتجربة ، وما خرج عن نطاقها اخضعوه للمنطق . بينما كان الأمر واحداً ـ أو كاد ـ عند أساتذتهم اليونان الذين كان العقل رائدهم في كل شيء . بل كثيراً ما كذبوا الحس والواقع ـ ومن ثم التجربة ـ حفاظاً على اسطورة انسجام العقل واتفاقه مع ذاته .

وبهذا المعنى نجد أن الفكر العربي الاسلامي لا يدين بعبقرياته ومواهب أبنائه لنفحات بعض النَّقَلة المحترفين الذين إنما قاموا بترجماتهم تكسباً للمال لا حباً للعلم . فمع تقديرنا العظيم لهؤلاء النَّقلَة والمترجمين وللخدمات الجلى التي أسدوها للعرب ، إلا أنه يجب ألا نذهب في هذا التقدير مذهباً شططاً فنجعل من العرب والمسلمين كمية مهملة ومن المترجمين عمالقة أفذاذاً ، كأن الفكر الاسلامي بين أيديهم مادة طيعة يشكلونها كما يشاؤون ويهوون . وكم كان أحرى بأولئك السريان ان يشكلوا انفسهم ويصلوا الى القمة التي وصل اليهم سادتهم ، بدلاً من أن يظلوا في السفح لا عمل لهم إلا رجع الصدى . فالسريان لم يبتكروا شيئاً من عند أنفسهم لأن كل ما ذكروه مأخوذ من الكتب اليونانية التي اختصروها أو شرحوها أو نقلوها، وكان أحدهم يندر أن يقبل على

الترجمة من تلقاء نفسه ، وانما كان في أكثر الأحيان يعمل بأمر من خليفة أو وزير أو أمير أو أحد أصحاب المال أو النفوذ. فهم مترجمون محترفون ونَقَلة مأجورون لا همَّ لهم إلا التكسب والنشَب .

لقد كان بعضهم أفذاذاً في النقل كحنين بن اسحاق مثلاً . ولكن حنيناً لم يخلق شيئاً خارج إطار النقل ، وجميع كتبه الخاصة هزيلة لا قيمة لها . إلا إذا استثنينا ثابت بن قرة الذي يدين بنبوغه للجو العلمي الذي أتاحه له العرب لا الى سريانيته الضيقة الهزيلة . فهو صاحب مواهب كانت ستظل كامنة مقبورة لولا أن اكتشفها المناخ العقلي العربي الاسلامي غير المتعصب وهو يكتشف مواهب بنيه ويفجر طاقاتها .

كلا، لم يكن العرب كمية مهملة بين أيدي السريان ، وإلا فكيف نفسر استقدام العرب لهؤلاء السريان وتشجيعهم إياهم وتسابقهم على اقتنائهم واغراهم لهم بالأجور العالية وإيفاد البعوث والسفارات للبحث عن الكتب في الأقبية والزوايا والسراديب وغياهب الكهوف، وانقاذها من الرطوبة والحشرات والديدان التي تتهددها يوماً بعد آخر وعقد المعاهدات لحيازتها ، وجعل الحصول عليها شرطاً لوقف القتال وجزءاً من غنائم الحرب ؟

فليت شعري ! علام يدل كل هذا ؟ أفلا يدل على أنه لا بد من أن ندخل في حسابنا ـ الى جانب السريان ـ أولئك الذين استقدموا هؤلاء السريان وأغروهم بالمال والجاه والمجد، للعمل معهم ونقل ما يمكن نقله من الكتب إلى لغتهم ؟ . أفلا يدل هذا على أن النَّقَلة انما كانوا أدوات مسخرة فقط لأغراض سادتهم ، وعلى أن الكتب التي نقلوها لا تمثل نزعاتهم هم وإنما تمثل نزعات هؤلاء السادة ونهمهم الى العلم والمعرفة، وسعيهم الى تحقيق الذات واجتراح المعجزات في تلك المرحلة التاريخية المشرقة والغنية بالمواهب والعبقريات ؟ فالسريان ـ لا العرب ـ هم الذين كانوا آلات طيعة ووسائل للتعبير عن الذات ، الذات الحية الأصيلة ، التي تتدفق بالقوة والنشاط وتجيش بالامكانيات والطاقات التي توشك أن تتفجر ، فتركب كل صعب ، وتذلل كل عقبة ، وتقضي على كل عائق ، وتنطلق كسيل العرم لا يقف في طريقه شيء .

ولنا شاهد على ذلك مما يجري أمامنا اليوم ويتكرر كل يوم ليثبت لنا أن المعرفة وحدها لا تكفي إذا لم تجد المناخ الملائم والتربة الصالحة ، واذا لم تجد الطاقات المشحونة والوعي الجياش وإرادة تحقيق الذات والرد على التحديات . هنالك ـ وهنالك فقط ـ يتم التفاعل وهنالك يحدث التلاقح والإخصاب . فها هو ذا العلم الأوروبي اليوم مترجم في كل مكان لا تكاد تخلو منه لغة من لغات الأرض . وهناك الاذاعات والصحف ووسائل الاعلام المختلفة التي تخترق الحدود والسدود، فضلاً عن المدارس والجامعات المنتشرة في العالم الثالث كله . لكن ذلك لم يكن كافياً لتحقيق التفاعل المطلوب وانجاب الفلاسفة والعلماء والقادة ورجال الفكر . فهؤلاء محصورون الآن في مناطق ضيقة جداً ليست شيئاً مذكوراً في حساب المعمور من الأرض . هناك يعمل العلم ، وهناك فقط يؤتي أُكُله ويينع ثمره ، هناك فقط تتفاعل العقول وتتلاقح الأذهان ، وهناك فقط يُصنع التاريخ . وليس هناك فحسب ، بل الآن فقط . بمعنى أن عقولاً قليلة جداً تختمر في هذه المرحلة ذاتها وهي مرحلة قصيرة جداً ليست شيئاً مذكوراً في عمر الزمن . تلك سنة التاريخ . وذلك دأبه فهو لا يستقر في مكان فريد يبقى فيه الدهر كله ، كما لا يشتعل في آن واحد في كل مكان . وإنما هو كثير التقلب والتجوال . لا يكاد يحل ببلد مدة من الزمن حتى يغادره الى غيره فالأيام دول بين الناس .

ولم يشذ العرب عن ذلك . فقد أتى عليهم حين من الدهر كان التاريخ فيه طوع بنانهم وكان صوتهم هو الصوت الوحيد الذي يجلجل في الآفاق . وقد بلغوا في ذلك مبلغاً عظيماً حتى إنه لا يكاد يأتي يوم الا تكشف لنا فيه أعمال البحث والتنقيب بين المخطوطات القديمة مأثرة جديدة من مآثرهم المطوية . ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو مكابر . فلا يجوز ان نتحامل على هؤلاء القوم لأغراض غير علمية وغير موضوعية أملاها الحقد والتشفي والتعصب الذميم .

وهكذا فإن الفكر العربي كان فكراً فذاً أضاف إضافة عظيمة الى الإرث الكبير الذي تلقاه من أساتذته اليونان خاصة والحضارات القديمة عامة . وهذه الاضافة مختلفة نوعاً لا كماً فقط . فنحن هنا لسنا بازاء إضافة حسابية بل بإزاء

بُعد جديد حملته تجربة العرب وهم يطلون على العالم بالفتوح والحضارة . فليس التراث الانساني قبل العرب نفسه بعدهم . وان الفرق بين التراثين لم يكن فرقاً عددياً فقط بل كان شيئاً أبعد من ذلك بكثير. فالتغير الذي طرأ على التراث الانساني كان ـ حقاً ـ شيئاً منقطع النظير في سرعته وعمقه وشموله وأبعاده في موازين تلك العصور . فقبل العرب كانت الأسطورة والمنطق يتنازعان تفسير العالم والحكم على نظام الأشياء . فكما أن اليونان جاءوا بالمنطق للحد من سلطة الأسطورة، كذلك جاء العرب بالتجربة للحد من سلطة المنطق والتخفيف من وطأته . وكما كان اليونان تلامذة المصريين والبابليين والهنود فأخذوا عنهم ثم تجاوزوهم الى آفاق لم تكن بالحسبان ، كذلك كان العرب أيضاً تلامذة اليونان والهنود والفرس وقد اغتذوا بأفكارهم ورضعوا من لبانهم ثم لم يلبثوا أن تجاوزوهم وحلقوا في عوالم جديدة . لقد انتقلوا من طور النقل الى طور الخلق بسرعة مذهلة . فإنهم ما كادوا يتدارسون الكتب المنقولة الى لغتهم ، حتى سعوا الى تحقيق مسائلها ومناقشتها والزيادة عليها ، فألّفوا وابتكروا حتى فاقوا أساتذتهم وصححوا لهم الأخطاء وأكملوا لهم كثيراً من الأبحاث المبتورة ، ثم جاءت التجربة تتويجاً لهذه الجهود وشاهداً على أصالة انتاجهم كمّاً ونوعاً وعلى المنجزات التاريخية التي حققوها للفكر والحضارة . وبهذه الصفات الضخمة غدت الأمة العربية وريثة الفكر الشرقي واليوناني ، والقَيِّمة ـ وحدها ـ على ذخائر الثقافة والفن ، والقوة الوحيدة الفاعلة في سير التاريخ ، والممثلة الحقيقية للحضارة الانسانية الرفيعة في العصور الوسطى كلها . فعظمت الحركة العقلية بين المسلمين واتسع نطاقها حتى شملت كل شيء من مظاهر الحياة تقريباً .

ولم يأت بعد هذه الحركة من مثيل لها في التاريخ إلا حركة النهضة العلمية في ايطاليا وأوروبا بعد سقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح مؤسس دولة بني عثمان .

والآن نتساءل كيف حصلت هذه النُّقلة ؟، وما الأسباب والعوامل التي أدت اليها ؟ .

ان اللقاح الخارجي وحده لا يكفي إذا لم تنضم اليه العوامل الداخلية العتيدة ، فكما أن الزراعة على الصخر أمر غير ممكن ، وكما ان البناء فوق الرمال لا سبيل الى تحقيقه ، فكذلك الترجمة إذا لم تجد الطاقات المشحونة والتلقائيات المتوثبة والقوى الفاعلة في التاريخ والحضارة ، وبعبارة أخرى ، إذا لم تجد العوامل الداخلية التي تشق لها الطريق وتفتح لها الأبواب ، فإنها (أي الترجمة) تظل عقيمة وتظل شيئاً دخيلاً مُقحماً من خارج لا فعل له ولا تأثير . إنها في هذه الحالة عنصر غريب سرعان ما يلفظه الجسم بل قد يتأذى به وينمو نمواً غير سوي ، كالدسم يؤذي الممعود ويلقي به الى التهلكة . فإذا رأينا إخصاباً بعد تلاقح ، وتفاعلاً بين العوامل الداخلية والخارجية في أمة من الأمم ، عرفنا أنها بدأت تقرع أبواب التاريخ وانها على موعد مع الأحداث .

فما هي العوامل الداخلية التي مكنت الترجمة من الفعل والتأثير في عصور الاشراق العربي الاسلامي وقذفت بالعرب الى أتون الأحداث ؟

لذلك قصة طويلة سنعرض هنا عرضاً مختصراً لأهم فصولها .

العوامل الداخلية لنشأة الفكر الاسلامي

قبل ان نتطرق الى كيفية تحول الجدل الديني الى اهتمام بالبحث العلمي والفلسفي في نطاق الفكر الاسلامي ، يجدر بنا ان نتطرق أولاً الى نشأة هذا الفكر والعوامل التي أدت الى ظهوره. فبالاضافة الى العامل الخارجي الذي ساعد على تكوين هذا الفكر ، هناك مجموعة أخرى من العوامل كانت تفعل فعلها في داخل الجزيرة العربية كان من شأنها بروز فكر جديد له هويته الخاصة ويتمتع بمجموعة من الخصائص والمقومات لولاها لم يكن للترجمة ان تؤتي ثمارها . وهذه العوامل جميعاً ترجع الى طبيعة الاسلام والقرآن والى التحديات والعوائق والانتصارات والانتكاسات التي صادفها الدين الجديد في مراحل الطريق والى التفسيرات والاجتهادات التي أدلى بها بنوه لفهم أصوله وتعاليمه وهكذا فالفكر العربي الاسلامي يدين عموماً لحركة محمد عليه السلام والى القرآن الكريم. فلولا هذه الحركة لما وجد الفكر العربي الاسلامي على النحو

الـذي وجد عليـه ولاتخذ التـاريـخ العـالمي مسـاراً آخـر من مئـات الآلاف من المسارات الممكنة التي هي أيضـاً وليدة الـظروف التاريخيـة والموضـوعية التي كانت تتفاعل في داخل الجزيرة العربية وخارجها . لـم تكن هذه الحركـة حركـة دينيـة فَقـط وإلا لكان لنـا مندوحـة عن ذكرهـا هنا وإنمـا هي ثورة اجتمـاعيـة وسياسية واقتصادية وروحية أيضاً .

إنهـا حركـة حضاريـة طبعت كل مـا ظهـر في العـالم الاسـلامي من آراء ونظريات ومذاهب بطابعهـا . وكما ان المحـراث الذي يشق الأرض يثيـر الغبار من حوله ويجعل عاليها سافلهـا ، كذلـك أثار الاسـلام عقول العـرب وافئدتهم وقلب أوضـاع المنطقـة رأساً على عقب. فاعتناق العـرب للاسـلام لا يـدل على القضاء على بعض العادات والأعراف التي كانت شائعة بينهم فحسب وانما يدل على أنه كان انقلاباً شاملاً لمُثُل الحياة التي كانت سائـدة من قبل، وتبدلاً عميقاً في المفـاهيم والغايـات وقيم الأشياء . فقـد كان ظهـور الاسلام حـدثاً عـالميـاً ضخمـاً ترتبت عليـه نتائـج عظيمـة لم تقف عند الحـدود الجغرافيـة للبلاد التي شهدت بوادره الأولى ، بل لقد تجاوزت هذه الحـدود الى ما وراءهـا واستمرت تفاعلاتها الفكرية والروحيـة تنتقل من بلد الى آخـر ، ومن أفق الى غيره ، ومن عصر الى سواه حتى فرضت نفسها على تـطور الحضارة العـالمية وأصبحت من أهم الظواهر الأساسية لتطور الحياة والمجتمع .

ومع أن النبي عليه السلام أمي لا يدري ما الكتاب ، فقـد خلَّف كتابـاً لا يـزال قسم كبير وعـظيم من أهل الأرض ينـظرون إليه على أنـه نبراس كـل علم وحكمة وفلسفة .

فالقرآن كتاب ديني مذهبي ، وأثـر أدبي رائع ، بلغ الـذروة من الفصاحـة والبيان. فالكلمات مرصـوفة فيـه رصفاً كـأنه السحـر الذي يجعلهـا تتجاوب في النفس تجاوب الأصداء في الوادي الفسيح . فتكشف عن آفـاق بعيدة كبـرى ، وتخلق في الفكر حماسـة تسمو بـه فوق هـذا العالم . فمـا في أسلوبه من قـوة ومتانة ، وما في تعبيره من القـدرة على ايصال المعـاني عن أقرب طـريق ، وما في تشبيهاته والصور التي يرسمها من وضوح ، وما في القصص التي يرويها من

دروس وعبر ، وما في سوره من إيقاع موسيقي آسر ، كل أولئك قد هز أمراء الفصاحة وأرباب البيان وغزا مشاعرهم ووصل الى المكامن العميقة في نفوسهم .

ان كل أية من القرآن موضوعة لغرض وتؤدي الى غاية. فهي إماأن تقرر عقيدة، وإما ان تسن قانوناً، واما ان تبشر بنصر، واما ان تحذر من عدو، واما ان تتفجر بحكمة، واما ان تمنع عادة، واما ان تدعو الى موعظة. . . وفيه صور شتى من المعاني المتجسدة والأمثال المضروبة ، والرموز المحيرة . فهو يصور البخل والشح والتهرب من زكاة الأموال ومؤامرة الأغنياء لأكل حقوق الفقراء ، صوراً جميلة معبرة أجمل ما يكون التعبير وأروع ما يكون المثل ، ويضعها في أطار من الترهيب والترغيب أوفى على الغاية في الوصف والتمثيل . وكذلك يصور المعاني تصويراً متجسداً متحركاً تنخلع له القلوب وترتاح له الأفئدة في فيلم سريع خاطف معبر بجبروت وعظمة .

وحسب القرآن فخراً ان اللغة العربية أصبحت به لغة حضارة وبه أيضاً استقبلت الأمة العربية عهداً جديداً في تاريخها الطويل . فقد تغلغلت لغة القرآن في أفكار الناس وعقائدهم ، وظل العالم المتمدن بعد الفتوحات الاسلامية يفكر بعقلية القرآن ويكتب بعلمه ويؤلف بلسانه، وكانت لغته أداة لكل ما نقل من علوم الفرس والهند واليونان .

هذا والقرآن ليس كتاباً علمياً أو فلسفياً. فلم يكن العلم بمعناه المألوف من أهدافه ولم تكن الفلسفة من قضاياه ، وانما قضيته الأساسية أن يحرر عقل الانسان وتفكيره ويحطم الأغلال المتراكمة الموروثة عن الأجيال الماضية التي شغلت العقل عن تفكيره والقلب عن احساسه والوجدان عن معاناته .فهو يخاطب العقل ويدعوه الى التأمل والتفكير ، كما يخاطب القلب والضمير والوجدان ، ويهز المشاعر والاحساس هزاً لا يصفه لسان ولا يقوم به بيان . لقد جاء القرآن ينبه العقل من سباته ويدعوه الى التفكير في خلق السموات والأرض والايمان بإله واحد فاعل خالق مختار .

أجل ان القرآن يقدس العقل الحر والتفكير الجريء ، وينعي على

التقاليد الجامدة والمعتقدات الموروثة العفنة . فقد أنكر على القوم محاكاتهم آباءهم بلا علم ولا هدى ولا كتاب مبين، ودعاهم الى مُثُله وقيمه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن وجعل ذلك لهم طريقاً ومنهجاً . وكم أشاد القرآن بالحكمة ولفت أنظارهم الى أحداث العالم وحثهم على التفكير فيها . فلقد أكدَّ القرآن وحدة الله وكرامة الانسان وقوة عقله وسلطانه على جميع الموجودات . فالخطاب في القرآن إنما يتجه الى عقل الانسان حراً طليقاً من سلطان الهياكل والمحاريب وسلطان كهانها وسدنتها . وكل أولئك من شأنه أن ينمي في الفرد الاحساس بالمسؤولية ويفتح لضميره منفذاً واسعاً الى الألوهية وأن يرفع كل حجْر عن وجدانه وتفكيره ويقيم له صومعة في أعماق نفسه لا حدود لها غير حدود الكون بما وسع من سموات وأرضين .

وإذا لم يكن القرآن كتاباً علمياً أو مؤلفاً فلسفياً فليس معنى ذلك أنه لم يكن ذا أثر فعال في التفكير العلمي والفلسفي عند أتباعه . فالقرآن ليس فيه نظرية محددة واضحة في المادة والفلك والحياة كالتي نجدها في أبحاث علماء اليوم ، كما أننا لا نجد فيه نظريات فلسفية في طبيعة الله وأصل الكون وصلابة الحياة . . على نحو ما نجد في كتب الفلسفة ، لكنه يحتوي في الوقت نفسه على طائفة من الأفكار والآراء في الله والمادة والفلك والكون والحياة ان لم تكن علمية فلسفية بالمعنى الاصطلاحي ، فمن الممكن جداً ان توجه الفكر العلمي والفلسفي وجهة معينة خاصة إذا توفرت له بعض العوامل والظروف المساعدة. ومنذئذٍ فإن كل مفكر ، وكل عالم أو فيلسوف، سيعكف على استنطاق القرآن الكريم ونصوصه وسيحسب حساباً للقرآن في كل ما يقول ويكتب ويفكر . . وكان كل غواص يخرج منه بدر جديد . ومن هنا فإن القرآن سيكون منطلقاً لحركات شتى . فهو بمثابة المولد الكهربائي الذي يضخ الحركة والنشاط . لقد كان العمود الفقري للأمة الاسلامية كلها ، فكل عناية المسلمين انما كانت متجهة إليه استقراء وعلماً وتطبيقاً .

فقد درسوه جملة جملة ، وكلمة كلمة ، وفي بعض الأحيان حرفاً حرفاً ، بغيرة وتقوى وورع لا نظير له بين المنقبين في النصوص الدينية ، فأعد هذا

العمل عقولهم لتحليلات المناطقة وبراهين الفلاسفة ومنهجية رجال البحث العلمي، وفي ظله نشأت العلوم العربية الاسلامية والبحوث الكونية، ومن أجله قامت وانتصبت . فقد شغلت البحوث والدراسات القرآنية العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، وكانت علوم القرآن أولى التآليف في الاسلام . فعنه صدرت كل فرقة ، وفي سبيل فهمه قام كل مذهب . انه كالدوحة تفرعت عليها الفروع وامتدت الأغصان، أو كالشمس دارت من حولها الأفلاك .

والقرآن لم يُفهم فهماً جيداً لدى العرب جميعاً برغم أنه قد جاء بلغتهم . إذ يشترط فيمن يتصدى لتفسيره أشياء كثيرة لا تتوفر لكل انسان . فأولا يجب التمكن في اللغة وآدابها ومعرفة عادات العرب في أقوالهم وأشعارهم معرفة واسعة . كذلك يجب معرفة ما يسمى بأسباب النزول أي المناسبات التي وردت فيها الآيات والأسباب التي دعت اليها ، إذ أن القرآن نزل منجَّماً على حد التعبير الاسلامي، أي على دفعات استمرت ثلاثاً وعشرين سنة هي عمر الدعوة الاسلامية . ويشترط أيضاً فيمن يريد تفسير القرآن معرفة الناسخ والمنسوخ ، ففي القرآن آيات تُقرأ ولا يجوز العمل بها لأنها منسوخة، وآيات أخرى ناسخة أبطلتها .

ومما يزيد في صعوبة فهم القرآن أخيراً أن فيه نوعين من الآيات آيات بيِّنات، وأُخر متشابهات. آيات يفيد ظاهرها الجبر وأخرى تفيد الاختيار. كذلك نجد فيه آيات تؤكد التنزيه المطلق لله ، وفي مقابلتها آيات أخرى ربما تشعر بالتشبيه والتجسيم .

وليس لنا أن نأسف لوجود هذه الصعوبات وأمثالها في القرآن . بل ان الأمر على العكس من ذلك فيجب علينا في نظري ان نغتبط بها أشد الاغتباط . فلقد كانت في الحقيقة نعمة على التفكير الاسلامي ، لأنها بتحديها العقول والافهام ستكون منطلقاً لتيارات ومذاهب في الفكر والرأي والاجتهاد لا حصر لها . إنها تربة خصبة مؤاتية جداً للخلق والابتكار ، لأن العقل أشد ما ينشط في الصعوبات والمعضلات والغوامض ، ولا سيما إذا كان ذلك في مجتمع صحي سليم فكيف إذا كان الأمر متعلقاً بنصوص لها صفة القداسة في نظر أصحابها .

وهكـذا سيكون للقـرآن تأثيـر وأي تأثيـر في توجيـه التفكيـر في بـلاد الاسـلام، وسيكـون منطلقـاً لحركـات عقلية جـديدة هي وليـدة القرآن والتفكيـر في القرآن وازالة ما عسى أن يكون فيه من غموض وابهام ، لا سيمـا وهو بحكم العقيـدة الاسـلامية كـلام الله لا يأتيـه الباطـل من بين يديه ولا من خلفه. وهذه الحركات العقلية الجديدة ستكون مـدينة أولاً وقبـل كل شيء لا لليـونان ولا للسـريان ولا لمترجمين محترفين ـ بل لانتفاضة محمد عليه السلام ، ولهذه الانتفاضة وحدها وما نتج منهـا من مواقف وتحـديات . فـالأمم انما تنمـو من باطن كشـأن الكائن الحي ، لا كالبلوريات والأجسام الجامدة التي إنما تتكون بالتراكم والترسب من خارج .

ان العرب ينفردون بميزة لم تتوفر لغيرهم هي أن يقـظتهم القوميـة اقترنت بـرسالـة دينية ، ولعـل الأدق أن نقول : كـانت هـذه الـرسـالـة تعبيـراً عن تلك اليقـظة . فالإسـلام بحق خير مفصـح عن يقـظة العـرب ونهضتهم . لقـد جـاء بلغتهم، ولبى حاجات بيئتهم، ووحد شخصيتهم، واصطبغ بعبقريتهم، وامتـزج بتاريخهم، ودمج فيهم اللفظ بالشعور والفكر، والتأمل بالعمل. فهو خلاصة مـا في الشخصيـة العربيـة من قيم ومُثُل ، ومـا تصبو اليـه من آمـال وأحـلام ، ومـا يشغلها من هموم وهواجس ، وما تتطلع اليه من وسائل وغايات .

أجـل لقد كـان العرب في القـرن السادس الميـلادي على أبـواب نهضـة عقلية دائبة نجد طلائعها في حركة الحنفاء الذين لم يكونوا في مستوى تطلعاتها فتهافتوا الواحد بعد الآخر. لقد كانـوا يبحثون عن بـطل يأخـذ بأيـديهم ويوحـد كلمتهم ويهديهم سواء السبيل .

كما كان النبي عليه السلام يبشر برسالة جديدة رائدة يبحث عن حَمَلَة لها وقياديين يشاركونه في أعبائها، وحواريين يموتون في سبيلها. فكـأنما جـاء على موعد مع الأحداث .

لقد وجد العرب البطل المنشود ووجد النبي حملة رسالته . ولقـد استطاع في جيل واحد من الزمان أن ينتصر في مائة معركة ، وفي قرن واحـد ان ينشيء

دولة عظمى، وأن يبقى الى يومنا هذا قوة فاعلة مؤثرة في سير الأحداث وتوجيه قوى التاريخ. وان في هذا الانتصار المذهل لَعظمة لا تقل عما نجده في قصص الملاحم وصُناع الخوارق.

ولو تجرد المرء من كل هوى مع الاسلام أو عليه، ونظر الى الأمور نظراً موضوعياً خالصاً، لأدرك ان الاسلام كان مبعث نهضة فكرية عظيمة شاركت في تجربة البشر العقلية والحضارية مشاركة إيجابية فعالة وأسهمت في تطوير الوجدان الانساني في الشرق والغرب، فصار نتاجها جزءاً لا يتجزأ من تراث الفكر العالمي وتاريخ العطاء الانساني قاطبة. وكذلك لو تجرد المرء من كل هوى مع الاسلام أو عليه لتحقق أن العصر الذي ظهرت فيه هذه الثورة كان من أغنى عصور التاريخ في شرف النفس والضمير وفي المشاعر الحية المخلصة. فلا يجوز لأحد أن يتحدث عن الرقي الانساني دون أن يذكر الاسلام، بينما هو يذكر الحضارات الاغريقية والرومانية واليهودية والمسيحية والبوذية أيضاً، ويقف عند ذلك فإذا تحدث عن الاسلام فإنما يتحدث حينئذٍ عن النكاح والطلاق وتعدد الزوجات وما الى ذلك من الأحاديث التي لا يدل التعلق بها إلا على السطحية والضحالة فضلاً عن سوء النية والتنفيس عن الأحقاد والضغائن.

*

ومن الدين الى التفلسف إن هي إلا خطوة واحدة. فالدين أياً كان لا يخلو من بذور التفكير الميتافيزيقي، أو قل هو من صميم العملية الميتافيزيقية، أو ـ وفق التعبير الجميل لاشنغلز في كتابة (انحلال الغرب 2 /278) ـ « إنما الدين ميتافيزيقا معاشة ».

فالفلسفة دائماً تنشأ في أحضان الدين، أو على أثر الايمان بالدين، على ما يذكر « دركيم » في كتابه (الصور الأولية للحياة الدينية)، وكما أثبت ذلك أيضاً يسبرز في الفصل الأخير من الجزء الأول من كتابه (فلسفة). ويؤيد ذلك ما نراه من أن الفلاسفة في الطور الأول من أطوار فلسفتهم إنما يستعملون المصطلحات الدينية ويتكلمون لغة الدين (أو التصوف). وقد كتب برغسون صفحاتٌ رائعة في هذا الموضوع في كتابه القيم (ينبوعا الأخلاق والدين).

والواقع ان الحدود غير واضحة بين الفلسفة والدين بل ان هناك تداخلاً مستمراً بينهما ، حتى ليذهب أحد فلاسفة الحضارة في أيامنا هذه الى : « ان التمييز بين النظرة الكونية الدينية وبين النظرة الكونية الفلسفية تمييز سطحي . فالنظرة الكونية الدينية التي تنشد فهم نفسها فكرياً تصبح فلسفية كما هي الحال عند الصينيين والهنود . كما أن النظرة الكونية الفلسفية ، إذا كانت عميقة حقاً ، تتخذ طابعاً دينياً (البرت أشفيتسر : فلسفة الحضارة ص 139-140). ويعبر اشفيتسر عن ذلك على وجه آخر عندما يربط بين الدين والأخلاق والفلسفة فيقول : « ان في كل عبقرية دينية يحيا مفكر أخلاقي ، وكل أخلاقي يتفلسف بعمق حقاً هو صاحب دين على نحو آخر » (المصدر السابق ص 133) .

يضاف الى ذلك أن كثيراً مما يعد في عصر من العصور تابعاً للفلسفة قد يعد في عصر آخر تابعاً للدين . والعكس صحيح أيضاً . فعقيدة الخلود التي هي حقيقة فلسفية عند أفلاطون مثلاً إنما تمتُّ الى الدين وحقائق الايمان عند الغزالي ، بل ان فكرة الألوهية التي هي محور التفكير الفلسفي لم تكن في الأصل سوى فكرة دينية . ويذهب كثيرون الى أن الأساطير الدينية والخرافات السحرية وأعمال الخوارق كانت الأصل في نشأة التفكير الفلسفي .

وتاريخ الفلسفة نفسه شاهد على ما بين الفلسفة والدين من وشائج وروابط لا انفصام لها . فأولاً نجد أن فلاسفة كثيرين قاموا من بين رجال الدين (أو علماء اللاهوت) فلم يكونوا مفكرين منغلقين على أنفسهم يحترفون مهنة التفكير النظري وحده ، بل لقد كانوا منفتحين على جوانب أخرى من النشاط الحضاري . ثم ان كبار الفلاسفة كأفلاطون وأفلوطين والفارابي وابن سينا والغزالي وكنط . . الخ . يعمدون الى ما حققه الوعي الديني للانسانية من ضروب التقدم فيقدُّونها أفكاراً وخواطر ويجعلون منها صرحاً عقلياً شامخ البنيان . وأخيراً ، لقد كان النزوع الديني في أكثر الأحيان ـ ان لم يكن دائماً ـ متسلطاً على النزوع الميتافيزيقي لدى الانسان جاثماً فوقه ، فكان من نتيجة ذلك ان ظل هذا النزوع أسيراً لبعض المعتقدات الدينية الشعبية الراسخة ،

يسعى دائماً للتحرر منها والاستقلال بذاته ما استطاع الى ذلك سبيلاً . ومع ذلك فإن القطيعة غير ممكنة بين الفلسفة والدين وان فلسفة الدين لا تزال حتى يومنا هذا جزءاً لا ينفصل عن التفكير الفلسفي العام، ولنا في برغسون وشيلر وسنتيانا وكيرك غارد وغابرييل مارسيل وغيرهم أكبر شاهد وأعظم برهان .

ثم ان ملكات الانسان الشعورية واللاشعورية مترابطة متماسكة يفتقر بعضها الى بعض ولا يغني بعضها عن بعض ، وهي تتآزر جميعاً للقيام بالعمل الواحد وتتجند للوصول الى هدف واحد، حتى إن كل فاعلية يقوم بها الانسان تحتاج الى نشاطه كله ، لا فرق في ذلك بين مجال الدين أو التفلسف وميدان الأخلاق أو التصوف ، وسواء تعلق الأمر بالعلم أو الأدب أو الفن . فالانسان وحدة كلية يشارك كله في سيرورات عملية التفلسف والشعر والتخيل والانفعال والمحاكمات العقلية والمنطقية . والانسان كله هو الذي يفكر ويتدين ويتفلسف ويتخيل ويبدع . الانسان كله هو صاحب العملية النفسية والفكرية والدينية والفنية . فالتفلسف مثلاً يحتاج الى جهد واع وغير واع أيضاً . فهو يحتاج الى طاقات عقلية ووجدانية وإرادة تهدف إلى غاية محددة متأثرة بظروف المجتمع وأوضاعه والمرحلة التاريخية والحضارية التي يظهر فيها . انه لا يرى النور إلا بفعل الطاقة الهائلة التي تتفجر على الساحة النفسية تسخر جميع القدرات الكامنة فيها لخدمة عملية التفلسف وإنضاج فعلها . وكذلك لا بد من أن تتضامن جميع قوى النفس في عملية الانسحاق الديني وخدمة أغراضه وغاياته . فالانسان لكي يدرك أقل ملامح الوجود ويفهم أحقر الموجودات يجب أن يتوافر له - على تفاوت في ذلك - خيال الشاعر ، وايمان النبي ، وتجربة العالم ، وتجرد الراهب وانضباط الجندي ، وشجاعة المناضل ، وارادة الأخلاقي ، وتأمل الفيلسوف ودقة المنطقي وتحليل الرياضي ، وإلهام المتصوف ، واخلاص العاشق ، ودأب المتعبد ، وخضوع المطيع ، وحساسية الشاعر والفنان . . . الخ .

ففي الانسان فاعلية مستمرة من التنظيم تشمل مجالات الشعور وما تحت الشعور وتسهم في كل وجه من وجوه النشاط الانساني عقلياً كان أو غير عقلي ، إسهاماً يوجه فاعلياته الأخرى. وهذه الفاعلية الناشطة تتأثر بمشاغلنا

واهتماماتنا واستعداداتنا . فتجنح بنا الى هذه الجهة أو تلك تبعاً لما يثيرنا أو وفقاً لما نُهيأ له ، حتى ليخيل الينا أن النشاط الواحد لا يحتاج منا الى أكثر من عامل واحد والضغط على زر واحد ، وما درينا أن عوامل متعددة وأزراراً كثيرة اشتركت في الفاعلية الواحدة . لكن هذا الاشتراك لم يكن على مستوى واحد ، ولا عمق واحد ، ولا على درجة واحدة من التركيز والنضج . فكان بعضها أظهر من بعض ، وبعضها الآخر أخفى من بعض ، وبعضها فيما بين ذلك حتى تشابه الأمر علينا ، فاستولى علينا المظهر دون المخبر ، وبهرنا الضوء فلم نر الظل ، واستهوانا المركز دون الحواشي ، وحسبنا التعقيد غاية في البساطة .

وهكذا ، فالوعي الديني لا يختلف في نشأته عن الوعي العقلي ، حتى إن كل لحظة من لحظات التدين العميق تهز الانسان كله وتتحدى جميع طاقاته . فكلاهما ينبثق من ينبوع واحد ، ويغتذي بمعايير المعرفة وقيم الحقيقة اغتذاءه بنوازع القلب وأخيلة الروح ، ثم يتخذ بعد ذلك مظاهر شتى ، منها ما هو ديني ، ومنها ما هو أخلاقي ، ومنها ما هو عقلي ، ومنها ما هو جمالي فني ، كالحديقة الواحدة مختلفة الألوان طيبة الثمرات ، عظيمة الجنى تؤتي أكلها كل حين .

يخلص معنا من كل هذا ان جميع إمكانيات الفلسفة والعلم كانت متوفرة للعرب قبيل اتصالهم بأي لقاح أجنبي ، ومن ثم نجد ان عقلية جديدة ، وحضارة جديدة على الأبواب . فاللقاح الأجنبي لا يؤتي أُكله في أرض موات . فهذا نبيهم قد انطلق انطلاقته ، وهذه جزيرتهم قد انتفضت وهذا كتابهم فيه من الصعوبات ما يتحدى عقولهم ، وهذا دينهم يوفر المناخ الملائم لخمائر التفكير ، فمنطق الأشياء يقتضي أن تشهد شبه الجزيرة العربية حركة فكرية لا كالحركات وحدثاً تاريخياً لا كالأحداث ، وانقلاباً شاملاً من المعايير والمثل والأهداف قل ان تجود بمثله الآباد .

مسألة الخلافة وأثرها في قيام التفكير الاسلامي

توفي النبي عليه السلام ولم يستخلف أحداً من بعده ، فَمَن عساه أن يخلفه ويحفظ البناء الذي أقامه ؟

سؤال هام جداً لا بد من الاجابة عنه فوراً لئلا ينهار الصرح وتغرق السفينة في الأعاصير الهوجاء . فالخليفة إمام المسلمين ورئيسهم وراعيهم وربان سفينتهم وقائد مسيرتهم، إنه يجمع في شخصيته السلطتين الدينية والزمنية في آن واحد . لذلك ستكون الاجابة عن هذا السؤال معقدة وستتضارب فيها الآراء وتتعارض المذاهب والاجتهادات وستتباين الأغراض من حولها وستختلف النيات .

سؤال يطرح أول مرة في مجتمع صحي سليم اكتملت له جميع عناصر النمو يريد منذ الآن أن يستأنف السير وحده بعد رحيل قائده . ان الصدمة قوية حقاً ، ولكن لا خطر على الدعوة ما دام النبي قد أرسى قواعد المجتمع الجديد وهيأ الأشخاص الذين سيخلفونه . فقد انجبت الدعوة كثيراً من هؤلاء الأشخاص .

ان المشكلات إذا ثارت في المجتمع الصحي السليم كان فيها تنشيط له ودفع لعجلته وشحذ لمواهب أفراده وتفجير لطاقاتهم . وهذا كله إيذان بمولد عقلية جديدة ستتمخض عنها الأحداث .

فالمشكلات في هذه الحالة دليل المجتمع الصحي ، إنها نبض الحياة فيه ، وكلما اشتد إلحاحها اشتد نبض الحياة في أصحابها . أجل ، ان البيئة الخصبة بالمشكلات هي في الوقت نفسه وبالمقدار ذاته خصبة بالتفكير . نحن لا ننكر ان المشكلات التي ثارت في المجتمع الاسلامي الأول كان لها طابع ديني وسياسي فقد جرَّت اليها خلافات حول الامام وشروط الامامة ومن هو أحق بها وأهلها الخ . لكن هذا لا أهمية له ، وإنما الذي له كل الأهمية ان كل خلاف من هذا القبيل من شأنه أن يجر المختلفين فيه إلى محاولة كل فريق تصويب رأيه بجذب نصوص العقيدة إليه وتأويلها بحسب فهمه إياها . وهذه الخلافات وإن أعطاها الباحث الطبيعة الدينية السياسية فهي من وجهة نظر مؤرخ الحياة العقلية ذات أثر كبير في تغيير مجرى التفكير على تعدد صوره وتباين أغراضه ، لأن من المتعذر وضع حد لآثار الحوادث وقصرها على بعض نواحي الحياة دون

بعض . والأوصاف التى تعطى للأحداث بأنها دينية أو عقلية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية ، إنما الغرض منها تنظيم البحوث وتسهيل معالجتها . والزمان كفيل بعد ذلك بنخلها وتنقيتها وتفريغها شيئاً فشيئاً من مضمونها الديني وملابساتها السياسية والاجتماعية قدر الامكان ، فيتبقى من كل ذلك شذور كشذور الذهب تنمو وتنمو على قانون خاص ومنطق مرسوم . ماذا أقول ؟ إن المضمون الديني والسياسي الكثيف لمشكلة الخلافة والامامة وما أعقبها من مشكلات أخرى ارتبطت بها إنما هو الدليل القاطع على أصالة الفكر العربي الاسلامي وعلى أنه وليد بيئته ونتيجة حتمية منطقية للجدل الديني السياسي الذي تفجر في العصور الاسلامية الأولى وظل يتطور ويتخفف من شحناته الدينية والسياسية وذلك بقوته الذاتية وبماتسرَّب اليه من روافد خارجية وعناصر لم يتوقف عن طلبها والبحث عنها في جميع مظانها مدفوعاً بتلقائية غنية خصبة تحدوها إرادة واعية تصارع طبيعة متمردة قاسية . لقد كان كل ذلك بين يديه أداة لتحقيق ذاته وإعطاء معنى لوجوده . ان الجدل الديني هو الأب الشرعي للجدل العقلي الذي نشأ بعد ذلك . والتفكير في المسائل الشرعية هو الذي هيأ المسلمين فيما بعد للأعمال الذهنية والنظر في العلوم الطبيعية وأورثهم العقلية المنهجية المنسقة التي تعالج الأمور بنظرة كلية شاملة ، وما ذلك إلا لكثرة معاناة أصحابها للتفكير في مسائل الفقه وأقضيته وقياساته . فمن السذاجة ان يقال إن الدراسات الفقهية المعقدة غريبة عن العمل العقلي والتفكير المنهجي والنظر في العلوم والمعارف ، أو إنها تحتاج الى دأب أدنى منها وجهد أقل مؤونة .

حسبنا الآن هذا الاستطراد ولنعد الى ما كنا فيه فنقول :

عندما توفي النبي عليه السلام اشتد النزاع حول من يكون خلَفاً له، حتى إن وحدة الأمة أصبحت في خطر . فقال الأنصار للمهاجرين : « منا أمير ومنكم أمير » واتفقوا على رئيسهم سعد بن عبادة الأنصاري . وفي الحال حضر أبو بكر وعمر سقيفة بني ساعدة استدراكاً لفتنة لا تُعرف عقباها . وقبل أن يبدأ الأنصار

مبايعتهم لسعد مد أبو بكر يده الى عمر فبايعه الناس وسكنت الفتنة بأعجوبة . ولما أحس أبو بكر بدنو أجله أوصى بالخلافة لعمر بن الخطاب . والمعلوم أنه لم يحدث في عهد أبي بكر وعمر شيء ذو بال يفجر الصراع العقلي الذي سنحرص هنا على تتبع مساره . فكل شيء كان يجري على ما يرام ، فلم تثر مشكلات ومنازعات تطلق زناد الفكر . لكن هذا الوضع بدأ يتغير في عهد عثمان . فبعد ان اتفق المسلمون « على بيعة عثمان رضي الله عنه وانتظم الأمر واستمرت الدعوة في زمانه وكثرت الفتوح وامتلأ بيت المال وعاش الخَلق على أحسن خُلق وعملهم بأبسط يد » (الشهر ستاني 26/1) ثارت الفتنة في البلاد لأن أقاربه من بني أمية استأثروا بالحكم والسلطان ، فركبوا المهالك وجاروا على المسلمين وأخذت عليه أحداث سببها كلها بنو أمية ، ولم تسكن هذه الفتنة بعد ذلك (المصدر نفسه) .

هذه بعض المشكلات التي ثارت في مجتمع صحي سليم بدأ يقرع أبواب التاريخ . يضاف الى ذلك تلك الصدمة التي أحدثها مصرع عثمان في مشاعر المسلمين ، مما كان من شأنه أن يشحن الطاقات ويفجر المواهب .

وهناك قسط آخر من المشكلات تهز المجتمع الجديد من القواعد وتتوالى سراعاً بما يكفي لقيام المدارس في مذاهب الفكر والعقيدة . لقد كانت الهزات التي تحدثها المشكلات قبل الآن أقل من أن تضع الفكر الاسلامي في طريق أصحاب التيارات والمدارس ، وأما الآن فإن الهزات ستعقبها هزات وسنرى المشكلات تترى لتفجر طاقات كانت كامنة حتى عهد قريب ، كالنار وقعت على هشيم يابس .

والحق أن المدارس الفكرية في الاسلام تدين لعلي بن أبي طالب وعهده بدين كبير .

ان حال التوتر وعدم الاستقرار التي كان يتسم بهما المجتمع الاسلامي في زمان علي ـ وهو مجتمع صحي سليم كما أسلفنا ـ كانا من العوامل الحاسمة التي وضعت المسلمين في طريق قادة الفكر وأصحاب المذاهب وجعلت منهم

أمة في الطليعة . فالمرحلة التي تسلم فيها زمام الأمور كانت من أخطر المراحل التي مر بها المسلمون في عصورهم الأولى . ولولا أن المجتمع الذي ثارت فيه هذه المشكلات مجتمع صحي سليم تواكبه ثلة مخلصة من قادة الرأي لأطيح به سريعاً ، غير ان المشكلات التي ثارت بدلاً من أن تطيح به آنذاك كانت من عوامل بنائه .

التحكيم يعجل في نمو الفكر الاسلامي

ففي زمان علي كان خروج طلحة والزبير الى مكة ، ثم حمل عائشة الى البصرة، ثم نصب القتال معه ويعرف ذلك بحرب الجمل. فأما طلحة والزبير فقد رجعا وتابا ، وأما عائشة فكانت محمولة على ما فعلت ثم تابت بعد ذلك ورجعت . ولكن الخلاف الأكبر الذي كانت له ذيول ومضاعفات لا حصر لها إنما هو الخلاف بين علي ومعاوية وما نتج عنه في معركة صفين ومخالفة الخوارج وحملهم علياً على التحكيم ومغادرة عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري .

لم يجن عليٌّ من هذا التحكيم إلا الشوك والعلقم ، فبه فقد طائفة من خاصة أتباعه : فهو بحكم الشرع أمير المؤمنين فكيف يقبل بالتحكيم ؟ ان مجرد قبوله به يثير الشك في شرعيته ، وبذلك فقد حقه في خلافة المسلمين . وهؤلاء المنشقون الذين خرجوا عليه بعد أن كانوا أشد الناس إخلاصاً له وبراً به هم الخوارج ، ويقال لهم النواصب جمع ناصبي ، وهو الغالي في بغض علي ابن أبي طالب ومناصبته العداء . وهم أول فرقة في الاسلام .

وللخوارج أهمية كبيرة جداً في تطور الفكر الاسلامي برغم ما يؤخذ عليهم من تصديع وحدة المسلمين . وهم طوائف كثيرة تختلف فيما بينها في بعض التفاصيل، لكن يجمعهم القول في التبري من عثمان وعلي، ويقدمون ذلك على كل طاعة، ولا يصححون المناكحات إلا على ذلك ، ويكفرون أصحاب الكبائر ويرون الخروج على الامام إذا خالف السنة حقاً وواجباً .

لقد كانت حركة الخوارج حركة فطرية بدوية تتميز بالتطرف والتصلب في

العقيدة واعلان الرأي بصراحة والدفاع عنه بقوة لا هوادة فيها ، فقد اظهروا في الدفاع عن آرائهم بسالة نادرة لا تتجلى إلا في أزمنة وضاءة تتميز بالتضحية والفداء في سبيل ما يرون أنه الحق .

وعلى نقيض الخوارج كان الشيعة وهم أصحاب علي وشيعته الذين ظلوا مخلصين له حتى بعد موقعة صفين، والذين لم يزدهم سفك دمه إلا تعلقاً به . لقد قالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية أما جلياً وأما خفياً ، وأكدوا ان الإمامة لا يجوز أن تخرج من أولاده بعده . فالإمامة عندهم ليست قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم ، بل هي قضية أصولية ، إنها أمر لا يجوز للرسل عليهم السلام إغفاله وإهماله ولا تفويضه الى العامة وإرساله ، كما يقول الشهر ستاني (الملل والنحل 1 /146) .

وهم كالخوارج طوائف كثيرة يجمعهم القول بوجوب تعيين الإمام والنص عليه ، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً، عن الكبائر والصغائر (المصدر السابق) .

وعلى كل حال نجد أن حركة التشيع مضادة في أكثر صورها لحركة الخوارج . فالتصلب في الرأي الذي يتسم به موقف الخوارج يقابله مرونة عند الشيعة . ومن هذه الناحية فإن حركة التشيع أرقى نوعاً ما من حركة الخوارج الجامدين لأنها أكثر واقعية وأكثر ذكاء لقولها بالتقية ، أي مدارة أولي الأمر ، والعمل في الخفاء على تقويض حكمهم . ولذلك رسخت في نفوس كثيرة وفي بلدان واسعة. وخلافاً للخوارج الذين لا يجيزون انتقال الامامة بالوراثة بل يقولون بامكان الاستغناء عنها ـ وبذلك يذهبون بالديمقراطية الى أبعد مدى ـ نجد الشيعة ينادون بإمامة بيروقراطية أساسها الحق الإلهي الذي هو لآل البيت . وبهم تستحيل المقاومة العلنية التي كان يبديها الخوارج إلى مقاومة سرية ، وفقاً لمبدأ التقية الذي يندد به الخوارج ويستحلون دم القائلين به .

يتبين مما تقدم ان الخوارج والشيعة على طرفي نقيض أو يكادان يكونا كذلك فمنطق الحوادث يقتضي ظهور فرقة ثالثة تتخذ موقفاً وسطاً ويكون لها

شبه بكليهما . هذه هي فرقة المرجئة . فإذا كان الخوارج يوحدون بين الايمان القلبي والعمل بالجوارح لا فرق في ذلك بين الكبائر والصغائر فالمرجئة يفصلون بينهما، إذ يقولون إن الأصل في الدين إنما هو الايمان لا العمل. فمن آمن بالله ورسوله ثم اقترف ذنباً ، كبيراً كان أو صغيراً ، أو ترك فريضة أو قصَّر في عبادة، ظل مؤمناً. فالايمان إنما هو المعرفة بالله وبرسله وبجميع ما جاء به من عند الله ، وإن ما سوى هذه المعرفة من الإقرار باللسان والعمل بالجوارح فليس بإيمان . فلا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة (انظر مقالات الاسلامين للأشعري 197/1 والملل 139/1 وما بعدها) .

وهناك فرقة أخيرة تمخضت عنها أحداث السياسة تشبه المرجئة والخوارج والشيعة وتأخذ من كل منها بطرف ، وبذلك تسد الثغرة بين الفرق الثلاث أو تكاد ، وتتقارب جملة الآراء فيها . إذ يبدو ان تصلب الخوارج وتساهل المرجئة أحدثا توتراً في بعض النفوس ، مما كان سبباً في ظهور مذهب اعتزل أصحابه قول الخوارج وقول المرجئة ، هذا هو مذهب المعتزلة الأولى أسلاف المعتزلة المتأخرة ، معتزلة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ومن جاء بعدهما . فالمعتزلة الأولى اعتزل أصحابها عن علي وامتنعوا عن محاربته والمحاربة معه بعد دخولهم بيعته والرضى به، فسموا المعتزلة وصاروا أسلاف المعتزلة إلى آخر الدهر كما يقول النوبختي في كتابه (فرق الشيعة)، قالوا: لا يحل قتال علي ولا القتال معه . وبذلك اعتزلوا الفتنة ولزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة (انظر فجر الاسلام ص 290) .

وهكذا نرى كيف أن طائفة من الأفكار والنظريات لا عهد لبادية العرب بها قد تمخضت عنها مسألتان دينيتان سياسيتان. فالشرارة الأولى إنما انطلقت عند بحث مسألة الخلافة، والشرارة الثانية عندما لجأ علي ومعاوية الى التحكيم . ولا بد أن تجد كل نظرية من هذه النظريات وكل فكرة من هذه الأفكار نصيراً يؤيدها أو معارضاً ينقضها أو محايداً لا يبالي بها ولا يتخذ أي موقف منها . وبتلاقح هذه النظريات والأفكار التي إنما نبتت في بطن الصحراء والتي تتميز بفجاجة البدو وبساطة عقولهم ، وما أعقب ذلك من محاولة كل

فريق تأييد وجهة نظره هو أو معارضة وجهة نظر خصمه معتمداً على الكتاب والسنة ، أقول بذلك بدأت تتكون النواة الأولى للفكر الاسلامي .

طغيان بني أمية يعطي زخماً جديداً للفكر الاسلامي

وسيتمخض الدين والسياسة عن مشكلات أخرى لكن ذلك سيكون في هذه المرة خارج بادية العرب .

فقد كان بنو أمية يعلمون أن دولتهم لا يرضى عنها كثير من المؤمنين برغم ما كان للأمويين من فضل على الإسلام في توسيع رقعته . ولم يكونوا يجهلون أنهم في نظر كثير من رعاياهم قد وصلوا الى السلطة بالخديعة والغدر والقهر وغير ذلك من الوسائل التي لا يقرها الدين . هذه مشكلة هامة تواجههم الآن وتحتاج الى حل سريع وإلا اطيح بهم . فليطلبوا سنداً من الكتاب والسنة إن كان ذلك ممكناً ، لأن المجتمع ديني والحساسيات الدينية لا تزال جياشة لها الغلبة والسلطان . فلو أمكن تسخير القرآن لمصالح الحكم إذن لاستطاعوا إمساك الأمة بالعنان وصرفها عن الشغب عليهم . وهذا ما فعلوه وهمسوا بذلك الى بعض أعوانهم من قادة الرأي الذين توسموا فيهم القدرة والاستعداد لتولي هذه المهمة . فنقب هؤلاء عما في القرآن الكريم من آيات ربما تُشعر بالجبر ليستغلوها في الدفاع عن الحكم الأموي . فالله قدَّر أزلاً ان تصل أسرة بني أمية الى الحكم ، وهو الذي قضى أن يبدو من هذه الأسرة ما نرى من أعمال الظلم والعسف والقهر والطغيان فلا حيلة لأحد في تجنب قضاء الله ، وما قُدِّر، يكون. جفت الأقلام وطويت الصحف ـ فليس في الامكان أبدع مما كان .

ولم تعدم هذه الدعوى مفكرين وشعراء وعمالاً جندوا أنفسهم لمناصرتها والمنافحة عنها وتهيئة العقول والأفئدة لقبول فكرة الجبر التي كانت دعامة حكم الأمويين ، اما اقتناعاً بها وتصديقاً لها واما ممالاة للسلطات ورجال الحكم . ومهما تكن النيات والطوايا فيمكن القول ان جهم بن صفوان كان في مقدمة المنظرين للجبرية في بواكيرها الأولى . فباستغلاله لبعض الآيات التي يفيد ظاهرها الجبر لم يترك للإنسان قدرة على أفعاله . فالانسان في نظره لا يستطيع شيئاً البتة، إنه

كـريشة في مهب الرياح. فليس لـه قدرة ولا إرادة ولا اختيـار ، لأن أفعالـه كلها مخلوقة لله كأي شيء آخـر . إننا إذ نسنـد الى الإنسان أفعـال ذاته فـإنما يكـون ذلك منا على سبيل المجاز لا الحقيقة ، وشأننا في هذا كشأننا عندما نسنـد الى الأشياء أفعالاً ليست لهـا ارادة فيها ، فنقـول مثلاً اثمـرت الشجرة وجـرى الماء وأمطرت السماء وزالت الشمس الخ . وإنما فعل ذلك بالشجرة والمـاء والسماء والشمس الله سبحانه وتعالى ، إلا أنه خلق للانسان قوة كان بها الفعل وخلق له ارادة الفعل واختياراً له ينفرد به ، كما خلق له طولاً ولوناً ينفرد بهما . فلا خالق إلا الله فإذا جعلنا الإنسان خالقاً لأفعاله أشركنا بالله إلهـاً آخر وقلنـا بخالقَيْن في الكون ، تعالى الله عن ذلـك علواً كبيراً وأمـا الآيات التي ربمـا تُشعر بـالاختيار فيجب تأويلها .

وكان جهم أيضاً ينتحـل الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر ، ويقول إن الجنة والنار تفنيـان ، وان الايمان هو المعرفة بـالله فقط ، والكفر هـو الجهل بـه فقط (أنظر مقالات الاسلاميين 1 /312 والملل 1 /68 ـ 87) .

ان السبب النظري الظاهر الذي حمل جهم بن صفوان على القول بالجبر انما هو عقيدة التوحيد وحساسية الإسلام الشديدة لكل ما يعارض التوحيد . وإن عقيـدة التوحيـد هذه نفسهـا ستجره أيضـاً الى إنكار الصفـات الإلهية من سمـع وبصر وكلام و . . ما دامت تُشعر بالتعدد في ذات الله فهو عند جهم شرك .

فـإذا قلنا ان لله صفـات دل ذلك على شيئين على الأقـل : ذات الله أولاً وصفاته ثانياً. والصفات فيما بينها متعددة هي أيضاً. فالسمع غير البصر وهو غير القـدرة ، وغيـر الإرادة وهلم جـراً . وبمـا أن القـرآن صـريـح في دلالتـه على وحدانية الله فمن الضروري إنكار الصفات والتوحيد بينها وبين الـذات . وفضلاً عن ذلـك لا يجوز ان يـوصف الباري تعـالى بصفة يـوصف بها خلقـه لأن ذلك يقضي تشبيهاً (الملل 1|86-87).

لذلك إذا وجدنا في القرآن آيات تثبت الصفات لله تعالى يجب تأويلها بما يتفق وعقيدة التوحيد المطلق ولا يتعارض والتنزيه الالهي ومن ثم يجب صرفهـا

على المجاز. فكما أننا ننسب الى الأشياء ـ من باب الضرورة اللفظية ـ أفعالاً ليست لها فكذلك القرآن ينسب الى الله ـ من باب الضرورة اللفظية أيضاً ـ صفات انسانية لتقريبه إلى أذهان البشر ، إذ لا يجوز أبداً حملها على ظاهرها . فاللغة لها مقتضيات وأحكام تمنع ـ في كثير من الأحيان ـ من أخذ الألفاظ بمعانيها الحرفية .

ولكن المسلمين لم يكونوا أنعاماً يسوقهم الراعي بما يهوى ويشتهي ، بل لقد تجرأ كثير من أرباب الرأي على تكذيب هذه الدعاوى والرد على أصحابها بالكتاب والسنة أولاً وبالحجة والمنطق ثانياً. وعلى كل حال نجد أن آراء جهم بن صفوان لم تستطع ان تجتذب إليها جميع المسلمين ، كشأن كل دعوى في المجتمعات الإنسانية تجد دائماً من يناصرها ومن يعارضها على درجات مختلفة ، وما من دعوة في التاريخ انعقد عليها إجماع قط . هذه هي طبيعة الفكر في كل زمان ومكان . فإذا وجدت الجهمية من يتحمس لها ويدافع عنها فقد هب كثير من قادة الرأي والنظر لمقاومتها وأبدوا في الرد عليها نشاطاً كبيراً ومما حملهم على الرد أنها دعوة صريحة الى ابطال التكاليف الشرعية وحث على الكسل والتوكل والركون الى القدر ، فضلاً عن أنها فتحت الباب واسعاً أمام تأويل القرآن وتحميل الآيات فوق طاقتها ، هذا الى ما ذكرنا من أنها تأييد مباشر للقمع الأموي وممالأة الحكام ، كما أنها أخيراً تنسب الظلم إلى الله . وقد تصدت لها فرقة القدرية، وهي جماعة تنكر على رجال السلطة دعواهم، وتعتمد هي أيضاً على أدلة من الكتاب والسنة فضلاً عن دلائل العقل والمنطق. والقدرية حركة داخلية صرف يقتضيها منطق الأشياء وجدل الأحداث ، إذ لا يُعقل ان يقف المسلمون جميعاً على اختلاف طبقاتهم مكتوفي الأيدي أمام طغيان الحكام دون أن يبدوا معارضة ما ، نظرية على الأقل، ودون ان يتخذوا موقفاً من مواكب الأفكار التي تبرز على المسرح أمامهم، وهي كما قلنا أفكار لا يمكن أن ينعقد عليها إجماع أبداً، ولكن ذلك لا يمنع أن تتغذى المقاومة ـ ولا سيما وقد خرجت المعركة من بادية العرب ـ بخبرات الأمم الأخرى وما تراكم لديها من تجارب ومكتسبات في بلاد الشام وأرض العراق .

وهكذا نشأت الحركة القدرية في العالم الاسلامي أول مرة ، وكان لها مؤيدون كثيرون أبرزهم معبد الجهني وغيلان الدمشقي. وحجتهم في ذلك أن عدل الله يقتضي أن يكون الإنسان مختاراً في أفعاله ، إذا كان سيثيبه عليها في الدار الآخرة ، وإلا بطل التكليف ونُسب الظلم الى الله . وكما وجدت الجهمية من يعارض ما فيها من جبر كذلك وجدت من يعارض ما فيها من تنزيه وما تدعو اليه من تعطيل للصفات الإلهية . إنها الصفاتية التي تثبت الصفات لله تعالى ، فوقع غلاتها في هوة التجسيم والتشبيه . فهم ينادون بفهم نصوص القرآن فهماً حرفياً لا يعبأ بالضرورات اللفظية وأحكامها . فالله له يد يمسك بها وعرش يستوي عليه، ومن ثم له صفات كصفات الانسان .

وبين هؤلاء وأولئك يقف السلف الذين « يسلكون طريق السلامة». فقالوا نؤمن بما ورد في الكتاب والسنة ولا نتعرض للتأويل بعد أن نعلم قطعاً أن الله عز وجل لا يشبه شيئاً من المخلوقات وأن كل ما يتمثل في الوهم فإنه خالقه ومقدره . وكانوا يحترزون عن التشبيه إلى غاية أن قالوا من حرك يده عند قراءة قوله تعالى « خلقت بيدي » وأشار بأصبعه عند روايته «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » وجب قطع يده وقلع اصبعه (الملل 1 / 104. انظر أيضاً: 1 / 92 ـ 93 ومقالات الاسلاميين 1 /320 ـ 325) .

ذابت القدرية وجانب نفي الصفات من الجهمية في فرقة المعتزلة المتأخرة التي ستتمخض عنها الأحداث قريباً، ولم يعد لها وجود مستقل . وكثيراً ما تسمى المعتزلة باسم (القدرية) إما لنفيهم القدر السابق وإما لأنهم أثبتوا للإنسان قدرة على الفعل والترك .

وهكذا نرى أن عقيدة الجبر كانت سبباً في عقيدة الاختيار ، ونظرية نفي الصفات اقتضت ظهور نظرية إثبات الصفات ، ونظرية التنزيه استتبعت قيام نظرية التشبيه . وهكذا برز الخوارج والشيعة والمرجئة والمعتزلة من قبل ، أي ان كل ذلك إنما حصل بضرورات داخلية بحت كان عنصر الاقتباس فيها قليلاً أو منعدماً . وعلى كل حال ان هذه المشكلات والمعضلات قد أثارت عقول المسلمين وأفئدتهم قروناً طويلة . فلولم تكن مشكلاتهم هم ، ولولم تكن نابعة من

أعماق وجودهم ومن مقتضيات أحوالهم إذن لما كانوا تحمسوا لها ولما استفرغوا غاية الجهد والوكد في حلها .

نعم ان بعض هذه الحركات قد تبدو لنا اليوم ـ ونحن ننظر اليها من مسافات زمانية ومكانية بعيدة ـ حركات أقرب الى أن تكون ساذجة وبدائية . ولكن لا بأس . فحسبها أنها كانت أساساً صالحاً للنشاط الذي لم يكد يشتد ساعده حتى وجدنا أنفسنا أول مرة أمام حركة عقلية جدية حاولت أن تفيد من جميع الأدوات العلمية والفلسفية الميسورة في ذلك العصر . وانتهى الأمر بظهور ثلة من العلماء والفلاسفة العظام الذين كانوا غرة في جبين العصور الوسطى كلها . لقد انتفض المارد الجبار واتخذ طريقه الى الشمس .

فإذا كان للدين تلك الأهمية التي أسلفنا القول فيها ، وإذا كان الاسلام قد هيأ للعرب الحوافز التي لا بد منها لتفجير العقول بالطاقة الكافية لوضعهم في طريق البحث العلمي والتفكير الفلسفي ، وإذا كان القرآن فيه من الصعوبات ما يتحدى التفكير العادي فضلاً عن التفكير الذي ينزع به الفضول منازع الشطط ، وإذا كانت الخلافات والمنازعات التي أعقبت موت النبي عليه السلام قد أثارت من المشكلات ما لا حصر له ، منها الديني ومنها العقلي ومنها الاقتصادي ومنها السياسي والاخلاقي والعسكري . . . وأخيراً إذا كان الاجتهاد في الرأي وطلب العلم والتفكير في خلق السموات والأرض فريضة على كل مسلم ومسلمة ـ أقول إذا كان الحدث العظيم الذي تمخض عنه شبه الجزيرة العربية في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للميلاد مشحوناً بكل هذه الطاقات ، فلا نستغربنَّ تلك الانتفاضة العظيمة التي نقلت العرب من جزيرتهم وهزت أقطار آسية وأوروبا وافريقية .

وهكذا فإن الإسلام قبل أن ينجب علماءه وفلاسفته أنجب عدداً من الحركات الفكرية التي وضعت ـ برغم الصبغة الدينية السياسية التي نشأت عليها ـ أساساً صالحاً للنشاط العقلي الخالص الذي سيقوم به الباحثون عن الحقيقة فيما بعد ، لقد انبثق الفكر الاسلامي وانتعش فتكونت النواة التي سوف تنمو

نمواً ذاتياً بغير لقاح أجنبي . فكيف إذا جاءها اللقاح ؟

والخلاصة ان التفكير العربي الاسلامي قد تكوّن بانطلاقة محمد بن عبد الله ثم جاء الجدل الديني والعقائدي ليزيد هذه الانطلاقة قوة ودفقاً، وكان كل يوم يشهد بروز مشاكل جديدة تحتاج الى حل سريع . فوضعت لهذه المشاكل حلول مختلفة على ضوء الكتاب والسنة . وازداد ضغط الظروف والأحوال المستجدة لتأجيج النار وزيادتها اشتعالاً .

وهكذا وجدت نواة للفكر الاسلامي جعلت تنمو وتنمو لا بالترسب من خارج كما هي الحال في البلوريات بل بتلقائية من الداخل كما ينمو الكائن الحي وبطروء مشكلات تنبجس من صميم الجماعة الاسلامية الناشئة ومن أحوال الجماعة ومن طريقة تفكير المسلمين وتصورهم لله والانسان والعالم .

نحن لا ننكر أن المذاهب والآراء التي تمخضت عنها هذه المنازعات لم يكن الباعث عليها بادىء ذي بدء نظرياً معرفياً، بل كان رائدها ـ وهذا ما لا نمل من تكراره ـ الدين أولاً وأغراض السياسة ثانياً. ولكن لا ضَيْر عليها في ذلك ولا حرج لأنها ستتطور قريباً الى منازعات نظرية على يد المتكلمين بعد أن أوجد الجدل الديني السياسي الأساس والقاعدة لهذا التطور الذي سيبلغ غاية مداه على يد العلماء والفلاسفة الاسلاميين .

لقد أصبح في متناول المفكرين المسلمين الآن ثروة لا يستهان بها من المصطلحات والأفكار الجديدة التي إنما نبتت في بيئتهم : كالجبر والاختيار، والتنزيه والتشبيه، والوصف والتعطيل. . كذلك ظهرت لأول مرة بين المسلمين فكرة المعنى الحرفي والمعنى التأويلي لألفاظ القرآن، كما بحثت لأول مرة أيضاً شروط الخلافة والإمامة ودرجات الايمان وصلة الايمان بالأعمال ، والحق الالهي لآل البيت وتجريدهم من هذا الحق . . الى غير ذلك من بحوث وموضوعات لا عهد لبادية العرب بها ، ولا يخفى أوجه الشبه بينها وبين البحث العلمي والفلسفي .

والآن وقد تكونت نواة التفكير عند العرب ، أي وُجد الأساس العلمي

والقاعدة الفكرية لتطور الحياة العقلية عند المسلمين وبعد أن أحس هؤلاء بأوجه النقص والفجاجة في طرق معالجتهم للمشكلات والقضـايا المطروحة ، إذ لم تكن هـذه المعالجـة تحمـل حتى الآن طـابـع العلم الخـالص والبحث المنـظم والتفكير العميق القائم على النـظر العقلي وصياغـة المفاهيم ـ كيف لا ولم يكن لـديهم منهج عـام للبحث ولا مقياس واحـد يتعرف منـه اليقين، بل كـان معظم تفكيرهم قائمـاً على النصوص وتفسيـرها ، كمـا كان عـامل الشخصيـة الفرديـة عندهم المؤثر الأكبر في تكييف الآراء واصدار الأحكام ـ أقول الآن وقـد تكونت نواة التفكير عند العرب وأحسـوا ما فيهـا من نقص وفجاجـة ، فمن الطبيعي أن يعملوا على سـد النقص وتشذيب الفجـاجة . وعلى الجملة لقـد كان تفكيـرهـم مـرتبطاً بـالنصوص ومحصـوراً في نطاقهـا لا يتـطلع الى مـا وراء ذلـك ، ولكن سيأتي زمان ـ ولن يكون بعيداً ـ يتطور فيه هذا التفكير وسيتحول من دائرة التفكير الفردي المرتبط بالنصوص الى تفكير منهجي يتعمق في درس القضايـا في ذاتها فلا يرجع الى النصوص إلا لتكون سنداً للنظر العقلي وشاهـداً على صحة هـذا النظر ، وسيأتي بعد ذلك زمان يتطور فيـه التفكير ويتحـرر من وصايـة النصوص لينطلق في أجواء بعيدة جداً عن هذه النصوص ، باحثاً منقبـاً معتمداً على قـوته الذاتية لا هم له إلا الوصول الى الحقيقة والبحث عنها في جميع مظانها .

لقد خطا المسلمـون الخطوة الأولى في هـذا الطريق وحـدهم ، ولا بأس بعد ذلك أن يطلبوا العون من غيرهم ليقطعوا أشواطاً أخرى في الطريق الذي لا يرون له من نهاية ، لذلك فقد راحوا يتطلعون الى آفاق أوسع ليكملوا معـارفهم ويتعلموا من الشعوب التي هي أعرق منهم في العلم والحضارة وأرسخ قدماً في طريق البحث ومنهج التفكير فضلاً عن المادة الغزيرة .

والآن كيف تمت النُقلة ؟ وكيف حصـل العبـور من الجـدل الـديني الى اهتمام بالبحث العلمي والفلسفي ؟ لم يكن للعرب قبل الاسلام شخصية عقلية واعية بالمعنى الصحيح ومن ثم لم تكن عندهم نـواة للتفكير المدروس المنظم. فلما جاء الاسـلام طرأت تغيـرات عميقة على شبـه الجزيـرة العربيـة والمنطقـة

المحيطة بها ، فاستتبع ذلك نشوء مجتمع جديد له حاجات وهموم ومشكلات وآمال وأهداف وقيم ومثل جديدة. وبذلك فقد اتيحت فرص للتفكير وإجهاد القرائح لا عهد للعرب بها من قبل. فالأمر كله إذن مرهون بالنواة التي تكونت وبحاجة هذه النواة الى الاكتمال والنضج ، ولا يكون ذلك إلا باستمرار التغذي وطلب الرِّفد ومواصلة الجهد في البحث عن الحقيقة والاخلاص لها والصدق في سبيل الوصول اليها . يجب الإبقاء على الدوافع النبيلة والمثل الرفيعة التي رافقت تكوين النواة وعلى الآمال الجياشة التي تحركها وتبث الحياة فيها .

ان الخطوة الأولى دائماً أصعب الخطوات وقد خطا العرب هذه الخطوة وانطلقوا في المغامرة الكبرى ، وما تبقى بعد ذلك فإنما هو مسألة زمان ودأب واستمرار. فالزيت الذي يضمن للشعلة أن تستمر وللجذوة أن تبقى ليس كله في حوزة العرب فلا بد ان يستوردوه من خارج بلادهم . فلا غرابة بعد ذلك ان يندفعوا في طلب العلم والتماسه في كل أفق ومورد . لقد كانت نفوسهم غرثى عطشى لا يروي ظمأها إلا العلم ولا يسد رمقها إلا المعرفة ، حتى إذا خرجوا من عقر دارهم واخترقوا الآفاق وفتحوا البلاد والامصار ، بدأوا يغترفون من ثقافات هذه البلاد ويستقون من مناهلها. ها هم أولاء الآن وجهاً لوجه مع العالم الجديد الزاخر بالصور والأحداث والأفكار والحضارات وأمامهم مئات المفكرين والباحثين والمثقفين وألوان من الناس والامزجة والمواقف والخبرات لقد خرج المارد الجبار من القمقم ليصنع التاريخ ويتولى بنفسه قيادة الأحداث.

ان الجدل الديني في المجتمع الصحي السليم كان بداية التحرك للمغامرة الكبرى . قبل ان تنطلق السفينة الى حيث تريد كان لا بد من ان تقلع وتغادر المرسى لتمخر عباب اليم وسط العواصف والأعاصير. وليس الاقلاع عملية سهلة ، ولا سيما إذا كان الماء عند الشاطىء ضحلاً وكان الطريق الى أعالي البحار مليئاً بالصخور والخلجان والشعاب المرجانية . فالاقلاع يحتاج الى مجموعة من الخطوات ليست في طاقة كل انسان ، كما ان السير في أعالي البحار يحتاج الى مجموعة أخرى من الخطوات لا بد منها للإبقاء على توازن السفينة وقيادتها في اللج لقد أقلع العرب الآن بالسفينة وانطلقوا يشقون طريقهم وسط

عباب اليم . ان الجدل الديني غطاء لاهتمامات كبيرة تشغل المسلمين لم تكن تشغلهم من قبل . أجل ان الجدل الديني في هذه الحالة يخفي تحته صراعاً داخلياً يحرك الشخصية ويثير كوامنها، وينعكس في حركات ظاهرية يمكن قراءتها قراءة متروية لاستنطاق مكامن الصمت في هذه الحركات التي لا تقول كل شيء ، وللتوصل الى رؤية الحركة الباطنية في مجراها الحقيقي الذي تتوارى فيه القوى الفاعلة والدوافع الأساسية .

ان الجدل الديني قبل أن يتحول الى اهتمام بالعلوم والفلسفة يجب أن تتوفر له بعض الصفات التي رأينا طرفاً منها . فإذا أردنا استنطاق هذا الجدل في مرحلته تلك ونقبنا فيه وحللناه الى عناصره الأولى وجدنا تحت الغطاء الديني الكثيف مجموعة من القيم والمثل كان على رأسها طلب الحكمة والبحث عن الحقيقة والشغف بالوصول اليها . وقد فعل العرب ذلك بتصميم أكيد وعزيمة قوية والتزام كلي .

وآية ذلك ما أبدوه من حماسة للمعرفة تجاوبت أصداؤها في طول البلاد وعرضها . لقد وجدوا في هذا الجدل فرصتهم الذهبية للتعبير عن الذات والتنفيس عما يصطرع فيها من دوافع ويؤودها من ضغوط وطاقات مشحونة على شفا الانفجار . ولا أدل على ذلك من العدد الكبير من المدارس الفكرية التي ظهرت قبل أن ينقضي القرن الأول للهجرة . لقد كان كل شيء ينتظر الشرارة وكانت الشرارة الأولى هي مشكلة الخلافة. حتى اذا اندلعت هذه الشرارة برزت أربع مدارس في الرأي دفعة واحدة . وعندما اندلعت الشرارة الثانية وهي معركة صفين وما أعقبها من مشكلات وأزمات برزت مدارس أخرى تفاعل بعضها ببعض واصطرع بعضها ببعض . والرأي كان يجر الرأي ، والفكرة تشحذ بالفكرة . لقد تكونت النواة . لقد أقلعت السفينة بأمان وغادرت الصخور والخلجان ويمكنها الآن أن تذهب الى حيث تشاء .

*

لقد شغف العرب بالعلم والمعرفة شغفاً لا نظير له إلا في عصور

التطورات التاريخية الكبرى . وقد ظهر ذلك واضحاً جلياً فيما بعد في تنافس الحكام والولاة والوزراء والخلفاء في إعلاء مقام العلم والعلماء وبسط اليد في الانفاق على بيوت العلم ومساعدة الفقراء في طلبه . واعظم ما يذكر لهم في هذا المجال الأثر الكبير الذي قامت به الكتب الأجنبية في حروب تلك العصور والطريقة التي جُلبت بها . فقد كانت المخطوطات الاغريقية على رأس تعويضات الحرب التي خاضها الخلفاء مع الروم ، فكان هؤلاء عقب المعارك التي هزمهم المسلمون فيها ـ كعمورية مثلاً ـ يسعدون بتسليم ما عندهم من مخطوطات والتخلص منها بقدر ما سعد العرب بالظفر بهذه المخطوطات وقراءتها وتحصيل المتعة والفكرة التي تنطوي عليها ، هذا على الرغم من أن أولي الأمر في القسطنطينية كانوا يضنون بها على طوائف السريان في الشرق ويعدونها من الكنوز الثمينة التي لا يجوز التفريط فيها . وكثرت بعثات بغداد وقرطبة الى بلاد الروم . لقد كانت هذه بعثات حضارية فريدة في التاريخ . فقد حرصت على شراء مخطوطات الاغريق بأي ثمن والتنقيب عما اختفى منها في الأقبية والسراديب وانقاذ ما كان منها مهدداً بالتلف والفناء وأصابت تلك البعثات من النجاح ما فاق كل تقدير .

يضاف الى ذلك ان الدين ـ كل دين ـ في مراحله الأولى اندفاع وحماسة وعواطف جياشة ، لكنه في المرحلة الثانية يقل الجيشان العاطفي فيه ليحل محله الهدوء والتفكير المنهجي ، وهو يتخفف من شحناته الحماسية كلما تقدم به الزمن ويتبلور بمضي الوقت في صيغ من التحرك الواعي المدروس الذي يتشعب في اتجاهات ومواقف تتفاوت في نصيبها من الدفء الديني والبرود المنطقي . وأما المرحلة الثالثة فهي طقوس وشعائر ورسوم جامدة فقدت روحها ولب لبابها .

وهكذا فإن الاسلام في مرحلته الثانية كان منطلقاً لمدارس وأفكار منها العلمي ومنها الصوفي ومنها الفلسفي . وقد تدخلت الحاجات العملية للتعجيل ببعض هذه الحركات دون بعض وتغليب بعضها على بعض . وما هي إلا أن تخففت من هذه الحاجات واستغنت عن أطيافها المادية وانتهت الى معارف

تُطلب لذاتها بعد أن كانت تُطلب سنداً للدين وحاجات الايمان أو لتحقيق منفعة دنيوية عاجلة . فنجد مثلاً أن العرب ـ بعد التوسع في الفتوح ووفرة الخراج واستفحال الحضارة ـ احتاجوا الى علوم تسهل عليهم القيام بفروضهم الدينية التي تعتمد على الحساب والتقويم والتوقيت وتساعدهم على تنظيم شؤونهم المالية وضبط حساباتهم ، ومن هنا أقبلوا على دراسة الرياضة والهيئة لضبط الزكاة ومعرفة الأهلة وتحديد القبلة وأوقات الصلاة . ويدخل في هذا الباب أيضاً حاجتهم الى علاجات جديدة ، غير علاجات البادية البسيطة بعد ان ترهلت أجسامهم وفشت فيهم أمراض الحضر نتيجة لانغماسهم في الترف وتهالكم على المآكل الدسمة التي اتقنها الفرس والروم .

كما ان العرب عندما خرجوا من عالمهم الضحل إلى العالم الكبير، وهو عالم غني بالأفكار والمعاني ، وهبُّوا ليصنعوا عالمهم الجديد ونهضتهم الفذة، أحسوا بالحاجة الى أساس نظري للدين يساعدهم في الدعوة الى الاسلام والدفاع عنه أمام المخالفين والمنكرين الذين هم أكثر ثقافة من العرب وأعرق منهم في العلم والحضارة . فلا بد لهم والحالة هذه من اصطناع وسائل هؤلاء المخالفين والمنكرين في الرد عليهم وعلى الخصوم والمبتدعة من المشاركين لهم في الملة . فقد كان الجدل الديني والعقائدي على أشده بين المسلمين بعضهم مع بعض وبينهم وبين المشركين وأهل الكتاب . فكان لا بد من الاطلاع على الفلسفة اليونانية ليتثقفوا بها وعلى المنطق اليوناني ليسترشدوا به في تنظيم الحجج وترتيب البراهين ويكونوا أكفاء لأهل الكتاب علماً وثقافة واستخداماً لأساليب الحجاج والمجادلة . فالجدل الديني الذي كان عصب هذه الحركة وجد في ثروته الجديدة من المخطوطات بغيته وضالته المنشودة .

لقد قوي فيهم الآن المنطق والرياضة والطب والفلك . واقتادتهم هذه العلوم الى علوم أخرى كالكيمياء والجغرافية والتاريخ . . فدرسوها جميعاً وأمعنوا النظر والفكرة فيها . لقد شقت هذه العلوم قنوات لها في عقول المسلمين وفتحت أذهانهم على آفاق مجهولة لديهم . وكان بينهم الموهوب ومن هو دون ذلك . وتفاعل ذلك كله بعضه ببعض وكان لقاح وكان إخصاب .

فأما متوسطو الذكاء فقد جمدوا ووقفوا من هذه العلوم عند الحاجات العملية واكتفوا بالقراءة والشرح والتعليق والاغراب في الحواشي دون أن يضيفوا اليها شيئاً ذا بال . لقد مسهم العلم من السطح دون أن يتغلغل في الأعماق كأنه عابر سبيل . لقد اصطنعوا العلم للحذلقة والتفاخر والتباهي بمعرفة علوم الأوائل وفي أحسن الحالات للدفاع عن موقف ديني . ذلك مبلغهم من العلم. وأما أصحاب الفطرة الفائقة فقد كان العلم عندهم مواقف حية ومناهج فكرية وتربية خلقية وضبطاً للذات واقتحاماً للمجهول . لقد وقر العلم في نفوسهم وامتزج بمهجهم واختلط بشغاف قلوبهم، وأصبح عشقاً للمعرفة وحباً للحقيقة ومتعة للروح تجردت من أي حاجة عملية وابتذال مادي رخيص . أما أثره فيهم فلم يكن سوى تأجيج نار بدأت تلتهم قلوبهم وفكرهم .

وبطبيعة الحال لم يكن ذلك على نطاق فردي . فلو قامت هذه الحركة على أكتاف بعض الآحاد لأخفقت ولقضي عليها في المهد . فالحركات التاريخية الكبرى لا تستمر على مجهود شخص واحد أو بضعة أشخاص، بل لابد لها من جهاز كامل من المواهب والآلات والأدوات ، لا بد لها من أجيال متعاقبة من العلماء والنظار والمفكرين من أصحاب الخيال الواسع والعقل المبدع والبصيرة النافذة والتعليل الصحيح والأيدي الخبيرة والأنامل الطيعة الدقيقة ، والقرائح الرياضية الخصبة . وكذلك لا تستمر الدول الحقيقية العتيدة معتمدةً على الأفراد وعلى إرادات الأفراد وحدهم، ما لم تكن دولاً من الكرتون ، بل تفرز جهازها الكامل من المفكرين والعلماء والحكام والمؤسسات العلمية والخلايا الاجتماعية ودور الثقافة والرعاية والخدمات العامة ، فتخلقها خلقاً وتنجبها إنجاباً من محض مادتها وصميم نسيجها ، بقوتها الذاتية وروحها الباطن وتلقائيتها الفعالة لتأخذ بناصيتها في أوقات الشدة والرخاء وتسدد خطاها وتهديها سواء السبيل . فالعلوم مرآة صادقة تعكس الوجه الحضاري لأي أمة من الأمم ونصيبها من الرقي والتخلف . ولا يمكن أن تقوم نهضة علمية إلا في أمة ذات قيم حضارية . فلولا نهضة العرب وتقدمهم في جميع الميادين لما انجبوا ذلك العدد الضخم من الفلاسفة ، والعلماء والأطباء والقادة في عصور الازدهار

الاسلامي ، ولما تفتحت تلك المواهب والعبقريات التي كانت غرة في جبين الاسلام . وهذه المواهب والعبقريات قد خلقت لنفسها الجو والمتنفَّس وشقت الدروب والقنوات ، ونسجت الحياة والمصير ، في حركة متجددة دائمة من الأخذ والعطاء والتبادل لم تتوقف إلا عندما بدأ ذلك المد العظيم ينحسر من جميع جوانبه ، فانطوى ذلك البساط وذهب العلم والعلماء .

ولنأخذ علماً كعلم الفلك مثلاً . فقد بذل العرب جهوداً جبارة لإقامته علماً استقرائياً مستقلاً عن التنجيم يستند الى الملاحظة الحسية ويصطنع الأرصاد لتعليل حركات الأجرام السماوية وتفسير الظواهر الفلكية ، كل ذلك تم برغم امكانياتهم المتواضعة وظروف العمل الصعبة والاغلال التي كانت تكبل هذا العلم وتتعثر بها خطواته. بل ان العرب عندما لم تتوافر لهم الامكانات المطلوبة، عمدوا الى خلق هذه الامكانات من ذوب عقولهم وعصارة أذهانهم وأعصابهم . وذللوا كل ما وسعهم تذليله من صعوبات وعقبات ما كان أكثرها في تلك العصور ! فهم لم يسلموا بالقدماء أوصياء عليهم وان نهلوا منهم ما نهلوا . فقد عدَّلوا ما أخذوه ونقحوه وعارضوه وانتقدوه وخالفوه وتوسعوا فيه وخلقوا خلقاً جديداً وابتكروا محدثاً، وادى التقدم في الفلك الرصدي على أيديهم الى آفاق جديدة رحبة. وما ينطبق على علم الفلك ينطبق أيضاً على علم الطب والكيمياء والرياضة والعلم الطبيعي والجغرافية والتاريخ والاجتماع . . ولم يكن ذلك ليتوافر لولا أنهم كانوا في مستوى الحدث الأكبر ولولا أنهم كانوا أكفاء للمسؤولية التاريخية الضخمة التي ووجهوا بها فجندوا لهذه العلوم جميعاً العقول والقرائح والخبرات، ورصدوا لها الأموال والهبات، واخترعوا لبعضها شتى الأجهزة والآلات .

والخلاصة ان وراء الطريق الذي كان العرب رواداً فيه تلك الصفات السرمدية التي مكنتهم من أن يكونوا في يوم من الأيام منائر تشق حجب الظلام وان يمروا في هذه الأرض مرور الغمامات الخيرة فوق الفيافي والقفار، تهطل ثم تهطل ثم تمضي ، تاركة وراءها الرياض والمروج، مخلِّفة الرواء والسقيا لقوم جياع عطاش تاعسين . فالعرب لم يصلوا الى ما وصلوا اليه إلا بفضل إخلاصهم

للمعـرفـة وشغفهم بـالعلم ، وتعلقهم بـالحق والخيـر والجمـال . لقـد تخـطوا الحاجات العملية فأصبح العلم عندهم متعة بعد أن كان سلعة، وغاية بعد أن كان وسيلة ، وخبزاً يومياً بعد أن كان تسلية وقتية . لقد انفصل العلم عن العمل فأصبح يطلب لذاته بعد أن كان يطلب لغيره . وعندما يصل الايمان بالعلم الى هذا المستوى الرفيع من النضج والجدية والرصانة، وعندما يستولي على صاحبه ويستهويه الى هذا المدى فارتقب يوم يأتي بالمعجزات .

وبذلك لم تكن أرض الخلافة تلك الامبراطورية الفسيحة التي تمتد من الخليج إلى المحيط بقدر ما كانت تلك القيمة الانسانية الحضارية التي ظلت عبر القرون والدهور نموذجاً للإشعاع العقلي والسمو الروحي وصيغة فريدة فذة للتعايش والتسامح والتكافل سبقت جميع الصيغ المماثلة المعروفة الى اليوم .

الاهتمام بالبحـث الفلسفـي

والآن بعد ان فرغنا ـ أو كدنا ـ من رسم الخطوط العـريضة لعمليـة تحول الجدل الديني الى اهتمـام بالبحث العلمي ، هلم الى رسم الخـطوط العريضـة لعملية أخرى مـوازية لهـا انتهت بتحول هـذا الجدل نفسـه الى اهتمام بـالبحث الفلسفي . والعمليتان متشابهتان ومتكاملتان في رأينا . فما قلناه عن كيفية تحول الجدل الديني الى اهتمام بالبحث العلمي ينطبق هو أيضاً بعد شيء من التعديل على مـا سنقولـه الآن عن تحول هـذا الجـدل الى اهتمـام بـالبحث الفلسفي . فالمنطلقات واحدة والخلاف انما ينجم عن التـركيز على بعض التفـاصيل أكثـر من بعضها الآخر تبعاً للظروف وقرائن التفكير .

فالجدل الديني في رأينا هو الذي وضع الفكر العربي وهو في إبـان تطوره العـاصف في مجـرى التفكيـر العلمي والفلسفي في آن واحـد . أجـل ان هـذا الجدل لم يبـق جدلاً بحتاً بل لقد طرأت عليـه تطورات كثيـرة غيرت معـالمه . وإذا أردنا الدقة قلنا ان الجدل الديني طـاقة قـابلة للتحول الى صـور أخرى من الطاقة بإجراء بعض التعـديلات عليها. فقسم من هذه الـطاقة ظـل جدلاً يخـدم

أغراض الدين والايمان . وقسم آخر بتطوره الذاتي وباللقاح الخارجي تحول الى اهتمام بالبحث العلمي واللغوي . . الخ وهناك قسم ثالث ظل يتطور ويتخفف من غلوائه الدينية وشحناته العاطفية ليتخذ في نهاية المطاف صورة البحث العقلي الهادىء الرصين، لقد أصبح ـ بحكم دوافعه الداخلية وبروافد خارجية لم يتوقف يوماً عن طلبها والسعي اليها ـ نظريات فلسفية في الله والكون والانسان والمصير .

وأول تطور طرأ على هذا الجدل تحوله الى ما يعرف بعلم الكلام . فعلم الكلام فلسفة دينية غايتها الدفاع عن العقائد الايمانية بأدلة عقلية، والرد على المبتدعة والمخالفين والمنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة .

فعلم الكلام بدأ جدلاً في العقائد ولكنه جدل اعتباطي غير منهجي ، وقد ظلت مواد هذا الجدل تتراكم وتتفاعل ببعضها بعضاً وبروافد جاءتها من خارج من غير نسق أو نظام وبقيت متعثرة مفككة مشتتة لا تنتظمها وحدة تأليفية تجعل منها علماً مستقلاً قائماً بذاته حتى جاء عصر المأمون . هنالك بدأت تبرز أولى طلائع الفكر الفلسفي الذي بدأ يستقل عن علم الكلام ، وكان الكندي أول مظهر لحركة الاستقلال هذه . ففي القرن الثالث كان علم الكلام قد بلغ درجة عالية من النضج على يد المعتزلة ، ان منهجهم في البحث والنظر كان يتسم بظاهرة الامعان في استقصاء الفكرة الواحدة، وتقليبها من جميع وجوهها والتغلغل فيها الى أقصى إمكانياتها، وشق أبعاد جديدة لها واكتشاف ما يمكن أن تنطوي عليه من عناصر عقلية ومواد فكرية تساعدهم على صياغة وجهة نظرهم في الله والكون والحياة والمصير فما من مسألة كانت تطرحها حركة الحياة في المجتمع إلا تصدى المعتزلة لمعالجتها وتحليلها وعرضها على ميزان العقل والالتزام بحكمته والاهتداء بنوره وإيجاد اللُّحمة بين الموقف الديني والموقف الميتافيزيقي . فصرفوا كثيراً من الآيات عن معانيها الظاهرة الى معان أخرى يقرها العقل، وأنكروا الاحاديث التي لا تستقيم مع معيار العقل. وقد اكسبوا الاسلام معارك مظفرة ، وأتاحوا له فرصاً ذهبية للدفاع عن الذات والصمود في وجه

الحملات التي ما انفكت تُشن عليه في كل صعيد . وظلوا في كثير من الأحيان منسجمين ومنهجهم الفكري المتماسك، وان اخفقوا في بعض الحالات الأخرى في تأويل بعض الآيات فحمَّلوها فوق ما تحتمل ومضوا في هذا السبيل الى آخر المدى ، بل لقد نفذوا الى جوهر عملية التفكير وطرقوا بذلك أبواب الفلسفة واقتحموا معاقلها، وكانوا يفعلون ذلك بالتزام كلي وبتجرد مطلق. لقد كان رائدهم أولاً دعم الموقف الديني بأقصى ما يمكن من الالتزام العقلي وإغناء المنقول بآفاق المعقول ثانياً ولكن سرعان ما تخطوا ذلك الى رحاب الفلسفة ومعاقل الميتافيزيقا .

وقد كانت العلوم مزدهرة في بغداد آنذاك، وحيث يزدهر العلم تزدهر الفلسفة . فالفلسفة لم تظهر في بلاد الاسلام إلا بعد ان اكتملت النواة وبعد ان نضجت البذور الفكرية وبعد ان وجد الأساس النظري والقاعدة العقلية التي سيقوم عليها البناء. وجاءت الظروف الموضوعية والأحداث التاريخية والتطور الحضاري لتعجل بهذه المسيرة وتصب في المجرى الكبير الذي شقه الفكر العربي الناشيء لنفسه . لقد نمت البذور في حضانة الحياة العربية الاسلامية وبدأت تؤتي أُكُلها وتعطي ثمارها في القرن الثالث وتتبلور فلسفة خصبة . لقد استقام الفكر العربي واتخذ طريق تطوره العاصف. وجاءت ظاهرة الفتح لتقدم الزاد والغذاء ولتعجل في تمازج العناصر الداخلية والخارجية وتقوي عملية التفاعل الثقافي والاجتماعي بين العرب والشعوب التي اتصل بها الاسلام . وكانت الفلسفة الاسلامية احدى ثمار هذه العملية . فجميع المسائل التي نجمت عن الشرارة الأولى والشرارة الثانية دخلت حلبة الصراع الديني السياسي أولاً ثم تحولت الى حلبة الصراع الفكري النظري بعد ذلك. فكل ظاهرة دينية وسياسية تنطوي على ظاهرة فكرية تبدأ جنيناً يظل ينمو وينمو حتى ينفض عنه جميع أغشيته ويخرج فكراً سوياً يمكن توجيهه بعد ذلك توجيهاً علمياً أو فلسفياً أو غير ذلك، بحسب مشارب الأشخاص الذين يتأثرون به واستعداداتهم ومقتضيات أحوالهم ومطالب بيئتهم وعصرهم .

فالناس متفاوتون في الذكاء والتفكير والمواهب والقدرة على مواجهة

المشكلات والأزمات والتحديات فإن الأكثرية الساحقة من الناس قوم عمليون لا يستهويهم التفكير النظري بل يجدون في الدين علاجاً لأزماتهم ، ويكتفون بما جاء فيه من حلول واجابات ترضي تطلعاتهم وتريحهم من عناء التفكير الشخصي والبحث الذاتي المستقل . فالله خلق السموات والأرض في ستة أيام وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . وفي الكون آيات وشواهد تدل على أنه خالق هذا العالم وعلته . والناس من آدم وآدم من تراب . والموت ليس نهاية للحياة بل هو مدخل الى حياة أخرى يجد فيها الانسان ما قدمت يداه إن خيراً فخير وان شراً فشر . لقد كفاهم الدين مؤونة التفكير في هذه الأمور فعلام إعنات الذهن ؟ هؤلاء الناس موجودون دائماً لا يخلو منهم زمان ولا مكان . انهم مادة الانسانية وعنصرها الغالب . فالنصوص المقدسة لم تترك مسألة من هذه المسائل دون أن تجيب عنها . وكفى الله المؤمنين القتال . والحق ان الدين قد قام بوظيفة حيوية هامة في حياة هؤلاء الناس وإلا لأضناهم القلق وتأكلتهم الأزمات . لكن هناك قلة ضئيلة من الناس لا يرتوون بما جاءت به النصوص المقدسة بل يطلبون المزيد والمزيد ، ويتطلعون الى ما وراء هذه النصوص والى الأسس النظرية التي تنطلق منها والآفاق البعيدة التي تتراءى خلفها ، حيث يعمل العقل حراً طليقاً معتمداً على مصادره الذاتية . إنه يفضل المحاولة واحتمال الخطأ على التقليد الآلي . انها روح المغامرة تشعل بعض النفوس وتزج بها في مآزق تجد هذه النفوس غاية المتعة والمنى في مواجهتها وحيدة بلا حجْر عليها ولا عون يأتيها من مصدر آخر غير ما يتدفق فيها من قوى وطاقات . ولا عليها بعد ذلك ان تخطىء أو تصيب . فليست العبرة في احتمال الخطأ والصواب بقدر ما هي إثارة الأسئلة ومحاولة الاجابة عنها .

وقد أنجب العرب عدداً لا يستهان به من هؤلاء الأفذاذ القلائل الذين لا يشفي غليلهم ظاهر النصوص بل يريدون ان ينفذوا الى أعماق هذه النصوص، ولا سيما في عصر التطور الثقافي العاصف الذي بدأ يجتاح العرب والمسلمين منذ القرن الثالث للهجرة . فهم لا يكتفون بالمنطلقات الايمانية دون ان يضعوا لها الأسس النظرية . وهم يقبلونها أو يرفضونها بقرار شخصي

يستخرجونه من معين نفوسهم ومن مجموعة المعارف الفلسفية التي تتدفق عليهم من مختلف المصادر التي كانت متاحة لعصرهم ومجتمعهم آنذاك . انهم ملح الأرض ولا يزكو الطعام إلا بقليل من الملح . إنهم شذور الذهب بين ركام من الطين والتراب. إنما الدين للعامة، هذا ما يقول به الفلاسفة الاسلام دائماً أو هذا لسان حالهم على الأقل . أما هم ـ الخاصة ـ فلهم مناهجهم في البحث والنظر . فهؤلاء الذين سموا بأنفسهم فوق مستوى من العامة واستنكفوا عن فهم النصوص كما تفهمها العامة وكانت لهم مدرستهم وطريقة تفكيرهم ، هم طلائع التفكير الفلسفي في الاسلام . لقد مضى عهد الايمان الساذج ، وجاء طور البحث والنظر وإضفاء الصبغة العلمية والفلسفية على قضايا الدين والايمان . فالفلسفة إنما تنطلق من منطقها الخاص لا من منطق المسلمات الدينية وان كانت العافية كل العافية في هذه المسلمات. ولكن ما العمل إذا كانت المغامرة هي عصب التفكير الفلسفي ؟ ليس من الجائز بعد الآن قبول النصوص بمدلولها الحرفي . إن العامة بحكم تكوينهم العقلي وعجزهم عن الغوص على المعاني الخفية وراء هذه النصوص ليسوا حجة في الدين بل لابد من الشك في مدى ما فهموه من النصوص ومراجعة النظر فيها والتأمل في جميع الوجوه المحتملة للوصول الى ضرب من اليقين يزيل كل شك ويدفع كل شبهة ، وسواء رضي العامة باجتهادات الخاصة أو لم يرضوا فالقافلة يجب أن تمضي وليكن بعد ذلك ما يكون . لقد اشتد الصراع بين الفريقين ، فريق أهل المنقول وفريق أهل المعقول في نطاق فهم آيات القرآن أول الأمر وظل يشتد حتى خرج الى نطاقه الأوسع الكبير ، وتطور الى صراع فكري شامل ، وكل فريق من هذين الفريقين ليس موحد الرأى والاتجاه . فالفريق الذي اسميناه فريق العامة ينطوي على أفرقاء صغرى مختلفة فيما بينها يجمعها الالتزام بالتقليد والعداء لكل تفكير مستقل ، ويدخل في هذا الباب المحدِّثون والفقهاء والحشوية والظاهرية واضرابهم . كما ان فريق الخاصة يجمع رجاله احتقار التقليد والالتزام بالرأي والاجتهاد ، والعداء لكل تحجر نصي ضيق . ويدخل في هذا الفريق علماء الكلام ولا سيما المعتزلة والفلاسفة ـ والصوفية وجميع أهل الرأي وأرباب النظر والاجتهاد .

ليس المهم في تكوين الفيلسوف ان يقف من الدين موقف الخصومة

والعداء ، بل ان تتوافر لـه الموهبـة العقلية والاستقـلال في الرأي وان تكـون له آفـاق فكريـة رائدة. فـإذا انضم إلى ذلك، المنـاخ الطيب والتشجيـع الصحيـح والروافد الخارجية وأوقات الفراغ وما الى ذلك من الظروف الموضوعية، فـلابد لهذه الموهبة من ان تنمو وتتعاظم، لا بد لهذا الاستقلال في الرأي من أن يفتح لصاحبه معاقل جديدة ولا بد لهذه الآفاق من ان تتسع وتترامى . ماذا أقول ؟ ان الموهبة قد تكون أحياناً أقوى من الظروف المـوضوعيـة وكثيراً مـا تشق طريقهـا بين الصخور والأشواك كمـا حصل للفـارابي الذي يقـال : انه كـان ناطـوراً في بستـان في دمشق وكـان دائم الاشتغـال بـالفلسفـة وكـان من الفقـر بحيث كـان يستضيء في الليل بالقنديل الذي للحارس، ثم عظم شأنه بعد ذلـك كما يقـول ابن أبي أصيبعة . وهذه الـرواية لا تقلل من قـدره فقد كـان اكليانت الفيلسـوف الرواقي سقَّاء يوزع الماء في البسـاتين وفي ضواحي أثينـا وكان اسبينـوزا يعيش من صنعة الساعات في هولندا . وهكذا كان اكثر الفلاسفة والعلمـاء والمفكرين في كـل جيل . المـوهبة تـأتي أولاً وهي تتولى البـاقي حتى لـو لم تتـوافـر لهـا الـظروف التاريخيـة والموضـوعية ، فكيف إذا تـوافرت هـذه الـظروف ؟ العبـرة بالموهبة فإن وجدت الظروف الموضوعيـة فذاك وإلا خلقتهـا لا أقول من العـدم بل بتحين الفرص التي لا بد من ان يجد فيهـا أصحاب الفـطرة الفائقـة مواطىء لأقـدامهم ومواقـع ينطلقـون منها الى الأعمـال الكبيرة ، بينمـا سـائـر النـاس لا يقدرون على شيء وكم من فرصـة تفوتهم في ركب الحيـاة فيمرون عليهـا وهم غافلون .



هناك مشكلات كثيرة كانت تحتدم في ساحة الصراع الفكري في بلاد الاسلام وكان كل مستطيع يدلي بدلوه، وكانت الحلول تختلف باختلاف الرجال واقدارهم وقدراتهم، وبهم تظل النار مشتعلة والصراع محتدماً حامي الوطيس. فكـل حل من هذه الحلول هو وقـود جديـد يثير من المشكـلات والأزمات بقـدر رغبته في التخفيف منهـا . الجميع يشـاركون في الصـراع كالكـرة يتقاذفهـا الفريقـان في

الملعب الواحد فتحرك بها العقل العربي كله تُصعِّد به وتُصوِّب وتُمخضه مخض القُرَب. وكانت حصيلة ذلك مذاهب دينية وعقلية انطلقت بالفكر العربي في مجرى تطوره العاصف نحو التفكير الفلسفي. فالأفكار الجديدة التي ظهرت في ظروف الصراع الديني والسياسي كانت وليدة هذه الظروف، غير أنها لم تذهب بزوال ظروفها بل ظلت باقية وقتاً يطول أو يقصر تعيش حياتها الخاصة وتشق لها قنوات وقنوات في أجيال قادمة من أصحاب القرائح والعبقريات. إن مهمتها لم تنقض بانقضاء المرحلة التاريخية التي تمخضت عنها عصور الاسلام الأولى بل لقد نمت بعد ذلك واتسع نطاقها.

وللوقوف على طبيعة هذه الحركة التي إنما انطلقت من أحشاء الاسلام، نُفرِّق في الدين ـ كل دين ـ بين نوعين من المسائل مسائل ليس لها أي كثافة ميتافيزيقية كالطلاق والنكاح والوضوء مثلاً ومسائل ذات كثافة ميتافيزيقية تختلف من مسألة الى أخرى كالتوحيد والعدل والخلود فلا يتطور في اتجاه الميتافيزيقا إلا ما فيه قابلية للتطور، أما ما قعدت به الهمة عن بلوغ الغاية فإنه يظل رهين واقع العمل وحبيس الحاجات العابرة لصيقا بها لا يبغي عنها فكاكاً. وهكذا فالمسائل ذات الكثافة الميتافيزيقية هي وحدها التي ستنمو في أحشاء التفكير الفلسفي الاسلامي وستسوفي جميع أبعادها الميتافيزيقية وتعيش حياتها الخاصة بعيدة عن أجواء الدين وصخب السياسة، وستتولد عنها مسائل أخرى تتفتح براعمها تباعاً في إبان الحركة العقلية وتندمج في نسيجها الذي ما انفك ينمو ويتعاظم ليصبح في نهاية المطاف ذلك التراث العتيد الذي يعبر عن أفكار فلاسفة الاسلام وتطلعاتهم العقلية والروحية في الحياة وبعد الممات. فالمسائل الدينية ذات الكثافة الميتافيزيقية قد انطلقت من عقالها وأصبحت مسائل فلسفية من الطراز الأول. وما زال المنهج العقلي يعمل فيها تهذيباً وتشذيباً وتمحيصاً وإضافة وحذفاً ونسخاً حتى جعل منها لبنات في بناء الصرح الذي ظل ينمو ويتطاول بقرائح مفكري الاسلام وفلاسفته وبما استرفدوه من أساتذتهم اليونان وآثارهم التي وصلت اليهم. ولنلاحظ مرة أخرى ان التشذيب والتهذيب والتمحيص والبناء أمور لم يقم بها سوى أفراد قلائل من أصحاب الفطرة

الفائقة . فالمسألة مسألتهم ، وهي انما تعنيهم وحدهم دون شرائح المجتمع الأخرى التي لا ناقة لها فيها ولا بعير .

لقد تحول الصراع السياسي الى صراع عقلي ، وخرجت المسائل الدينية ذات الكثافة الميتافيزيقية من إطارها التقليدي المتحفظ الى أجواء الفلسفة وآفاقها الواسعة ، وكان ذلك على أيدي المتكلمين أولاً ، ثم انطلقت من أيدي هؤلاء الى أيدي الفلاسفة الذين أوغلوا بها بعيداً في عوالم فكرية معقدة وبنوا منها صروحاً يلوذ بها أحرار الفكر والمعتقد . لقد تخلى علم الكلام للفلسفة عن المواقع التي اكتسبها واسلم لها زمام قيادة التطور العقلي عند المسلمين . فالمتكلمون بجناحيهم المعتزلي والأشعري كافحوا كفاحاً مستمراً للوصول الى صيغة عقلية للايديولوجية الاسلامية . لقد كان هاجسهم الأول إرساء التوحيد على قاعدة صلبة من التنزيه الالهي والتسامي بالذات الإلهية . والفرق بين المعتزلة والأشاعرة في هذا الباب إنما ينحصر في درجة الالتزام بالخط الميتافيزيقي على حساب الايمان والعكس صحيح . ومن هنا يظهر التناقض والاضطراب في المنطق الداخلي في معالجة بعض الموضوعات المهمة المشتركة بين الفريقين .

والخلاصة . لقد أصبح كل شيء معداً لنضج التفكير وإنجاب المذاهب الفلسفية . فهذه المذاهب كما قلنا لا تتطور إلا على أيدي أشخاص مهيئين لها . فالفكرة الواحدة يتلقفها أشخاص متعددون ثم لا تلبث ان تظهر على أيديهم في مظاهر تختلف باختلاف ثقافة كل منهم واستعداداته ومشاغله وهمومه وعصره وما يموج فيه من فلسفات وعقائد ، كالنبات يُسقى بماء واحد فيخرج لنا ثمراً مختلفاً ألوانه . فهي لا تكاد تخرج من مصانع السياسة أو تتمخض عنها الخلافات الدينية والمنازعات العقائدية حتى تصطدم بأنماط شتى من التفكير والعقليات فيها الزمِّيت والمترخص، فيها المقلد والمجتهد، فيها العبقري والعادي . . وكل نمط من هذه الأنماط على درجات مختلفة من الظلال والألوان والوجوه تنجذب لأشياء معينة في الفكرة المطروحة ولا تنجذب لأخرى، وتهزها حوافز فيها لا تهزها غيرها . ومن هنا نجد ان تناول الفيلسوف لهذه الفكرة غير

تناول الفقيه ، وهذان يختلفان عن تناول المتكلم أو الأصولي أو المتصوف لها الخ . . فكل واحد من هؤلاء يمحص الفكرة على منواله الخاص ويدفع بها الى غيره ليعاود النظر فيها ثانية ويضيف اليها عناصر ومواد من ذوب أعصابه وعصارة أفكاره. وهكذا تبدأ الفكرة دينية سياسية وتنتهي بفكرة أخلاقية أو فقهية أو صوفية أو فلسفية . بل ان الفكرة في نهاية المطاف قد تعود كرة أخرى فتتحول الفكرة الفلسفية الى فكرة صوفية والعكس صحيح ، وقد يعيد الفقيه والمتكلم فيها النظر ويخضعانها لتطورات وعمليات جديدة وهلم جرا .

المهم أن الجدل الديني والسياسي لا يبقى على حاله بل تطرأ عليه نطورات وأحداث توجهه وجهات لم تكن في الحسبان . وهكذا يتطور الانقسام الديني الى انقسام في المواقف الفكرية من القضايا المطروحة ، ومن هنا تنشأ المذاهب والنظريات ومواكب الأفكار والفلسفات التي تقتحم أجواء المعتزلة فتنجب العلاف والنّظام، وتصطدم بالأشاعرة فتنجب الباقلاني والامام الجويني . لقد برزت ظاهرة التفكير الفلسفي واقتحمت كل مجال في تفكير المعتزلة والأشاعرة ـ برغم ما بينهما من تباين واختلاف وعدم تخلي كل منهما عن مواقفه الدينية الرئيسة، بل لقد عززت الفلسفة العقلية الميتافيزقية هذه المواقف وزادتها زخماً ورسوخاً. وهذه الأفكار التي انجبت العلاف والنظام والأشعري والامام الغزالي وأمثالهم هي التي ستنجب الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد . . فالجسور بين العقل والنقل قد اقيمت قبل هؤلاء بزمن طويل عند المعتزلة والأشاعرة. لقد قطعت المسافة بينهما الآن ولم تعد الفلسفة إلا على خطوات قريبة .

*

أنا لا أزعم ان الفلاسفة العرب قد خلقوا مادتهم الفلسفية من العدم ، فكل ما أقوله ان الشرارة الأولى والشرارة الثانية كانتا التحدي الكبير الذي فتق الأذهان وفجر الطاقات وفتح المنافذ لتلقي الأفكار الجديدة وتمكينها من الاندماج والتفاعل في أمة جديدة ناشئة بدأت تعي ذاتها وتشق طريقها وتصنع

تاريخها، وبعبارة أخرى في مجتمع صحي سليم، يمكن للترجمة منذ الآن ان تؤتي فيه ثمارها. لقد وجدت الحوافز التي تُمكّن الترجمة من الفعل والتأثير في البنية الداخلية للفكر الاسلامي وشق القنوات فيها لتلقي نفحات الفكر الخارجي الذي كانت جميع الأبواب موصدة دونه . لقد أشرعت الأبواب الآن وفتحت النوافذ ودخل ضوء الشمس بعد ليل طويل . لقد تفتحت أذهان كانت حتى الآن مغلقة ووعت قلوب كانت غلفاً، فوُلدت أفكار ونبتت علوم ونشأت مذاهب فجة أولاً ثم أخذت تنضج بعد ذلك وتتعمق بتلقائيتها الذاتية وبما وصل الى عقول المسلمين وأذهانهم من المعارف والمناهج والفلسفات التي ظلت تتعرض لعمليات مستمرة من الصهر والتحويل تجعلها قادرة على ان تندمج في صميم الحركة العقلية الصاعدة، وتكون تعبيراً عن الذات في صراعها مع اللا ذات وأداة لإثبات الذات وفرض الذات على الواقع الجديد المعقد الذي تعيشه هذه الذات وتتلقى آثاره وترد على تحدياته ، وتكون من ثم منطلقاً لفكر اسلامي جديد وفلسفه إسلامية جديدة بدت طلائعها في الأفق. فلولا ما تفتح من أبواب ولولا ما زال من غواش كانت على العرب قبل الاسلام فحجبت عنهم الرؤية ومنعت تسرب الضوء اليهم، إذن لما استطاعت جميع كتب الأرض أن تنفذ اثارها اليهم ، وللبثوا في كهفهم الى يوم يبعثون .

الفصـــل الثـامن

بعض الايجابيات في تصور علم النفس عند ابن سينا*

أيها السيدات والسادة

شغل موضوع النفس الباحثين والمفكرين طوال العصور القديمة ، بل منذ بزغ فكر الانسان وبدأ يعي ذاته . فالانسان منذ نشأته تواق الى معرفـة ذاته جـاد في تفهمها ، ولا يزال حتى اليوم لا يدخر وسعه في إدراك كنهها والوقـوف على أمرها . وإذا كان علم النفس قد خطا اليوم خطوات واسعة نسبيـاً في سبر بعض أغوار النفس، فإنه مع ذلك لا يزال يدور في إطار الـظاهرة النفسيـة، أما النفس في ذاتها فهي لا تزال من تراث الميتافيـزيقا يجـول فيها الفـلاسفة ويصـولون ، بفكر فضفاض وحرية لا حدود لها إلا بعض الضوابط المنطقيـة التي تختلف من فيلسوف الى آخر . ولـذلك ففي تـاريخ علم النفس مـا يلخص تاريـخ الفلسفة بأسرها .

وليس غرضنا هنا التأريخ لعلم النفس وتتبّع نشأته حتى الوقت الحاضـر ، بل سنقتصر على دراسة هذا العلم عند ابن سينا دراسة موجـزة تكتفي بالأصـول العامة دون الخوض في التفاصيل . ولن يفوتنا في دراستنا الموجزة هذه ان نربط آراء ابن سيناء بالمفكرين الذين تقدموه من اليـونان والمسلمين ، وأولـئك الذين جـاءوا بعده من المسلمين والمسيحيين . وسنحـرص أخيراً على إبـراز الـطابـع

---

* نص الكلمة التي ألقاها المؤلف في المؤتمر السنوي العاشر لتاريخ العلوم عند العـرب . جامعـة حلب 22-23-24 نيسان (أبريل) 1986.

العلمي الايجابي لبعض آراء ابن سينا في النفس والربط بينها وبين علم النفس الحديث .

*

قلنا ان موضوع النفس كان هاجس الكثير من الباحثين على اختلافهم ، وكان الشرق هو الرائد والطليعة في هذا الميدان. فالفكر الشرقي القديم يدور في معظمه على النفس في أصلها وجوهرها وعلاقتها بالبدن وخلودها ووسائل تهذيبها وتطهيرها والسمو بها الى مصدرها الأول ومقصدها الأسنى . فقدماء المصريين كانوا يقولون بخلود الروح ، وتدل على ذلك اهراماتهم فضلاً عما وصل الينا من آثارهم المكتوبة وبخاصة (كتاب الموتى) . ولا يقل الهنود اهتماماً بالنفس عن المصريين . فللنفس عندهم مقام معلوم . فقد اهتموا بأصلها ومنشئها ومصيرها وتناسخها بعد الموت. وان كتاب البيروني (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) مليء بالشواهد والادلة على ذلك . فقد سافر الى الهند في القرن الرابع الهجري واتصل بملوكها وعلمائها وعاش بين ظهرانيهم وتكلم لغتهم الأصلية (السنسكريتية) ، فهو خبير محنك يدوّن مشاهداته بنفسه ، وليس سامعٌ كراءٍ .

وقد عالج اليونان النفس وتناولوها بالبحث والدرس وكانت لهم فيها آراء ومذاهب . فكان منهم الماديون الذين قالوا ان النفس جسم كسائر الأجسام المحسوسة (ديمقريطس) ، وكان منهم الروحيون الذين قالوا بل النفس قوة روحية إلّهية لا شبه لها بين الاجسام الفانية هبطت الى البدن من العالم الأعلى (أفلاطون) . وكان بين هؤلاء وأولئك من جعلها مزاجاً بين الجسم والروح (ثاوفرسطس واسترابون)، أو صورة للجسم (أرسطو وأتباعه) أو بخاراً حاراً (زينون الرواقي) . وترك لنا هؤلاء على اختلاف نزعاتهم وتعدّد مشاربهم آثاراً هامة أغنت تاريخ علم النفس وكان لها أصداء عظيمة في الفكر العربي والاسلامي .

وجاء الاسلام بطائفة أخرى من الأفكار الخاصة بالنفس والحياة الآخرة ، وهي أفكار يغلب عليها الطابع العملي، إذ ترمي الى الموعظة واستخلاص العبرة . فعندما خلق الله آدم نفخ فيه من روحه وأمر الملائكة ان يقعوا له

ساجدين . فالروح (أو النفس) هي من أمر الله . إنها سر استأثر الله بعلمه لا يعرفه إلا هو (ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ، ويحذر القرآن من شهوات النفس وأهوائها ويحث على مقاومتها ، ويمتدح ما يسميه (النفس اللّوامة) التي تضبط صاحبها وتردعه عن ارتكاب الرذائل والموبقات . بل يقسم الله به (لا اقسم بيوم القيامة ، ولا اقسم بالنفس اللوامة) ،كما يشيد بالنفس التي تحققت بتمام الرضى والاطمئنان وهي (النفس المطمئنة) ، ويبشرها الجنة (يا أيتُها النفس المطمئنة إرجعي الى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي ادخلي جنتي) ، وهو الذي (يتوفّى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمًّى) والنفوس جميعاً مردّها الى الله الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو قادر على أن يعيدها بعد أن خلقها أول مرة (وهو أهون عليه) .

هذه إشارات سريعة عابرة الى ما جاء في القرآن الكريم من أمر النفس وأصلها ومصيرها . ومهما قيل في القيمة العلمية والفلسفية لهذه الاشارات وأمثالها فإنها ستكون حافزاً للمسلمين على تحليلها وتعميقها للوصول الى ما يمكن الوصول اليه من أمرها .

والتقحت هذه الآراء والعقائد وأمثالها بما انتقل الى أفكار المسلمين من آراء ومذاهب في النفس ، وتمَّ التفاعل بينها . وأخذ المسلمون منذئذٍ يتوسعون في هذا الموضوع ويتعمّقون فيه . ونتج عن ذلك أقوال وأفكار تتفاوت في النضج والعمق والأصالة والشمول ، يغلب على بعضها المادية ، وينزع بعضها الآخر الى الروحانية . فهناك من أنكر النفس جملة وقال إنها جسم أو عَرَض لجسم ، وهناك من أثبتها وقال بروحانيتها واستقلالها عن البدن . ومنهم من قال ان النفس مزاج وتأليف بين الطبائع الأربع ، ومنهم من توسط بين ذلك وجمع بين الأقوال المتعارضة . واصطرعت الأفكار بالأفكار ولم ينعقد الاجماع لرأي أو مذاهب، بل لقد وجد الخصوم في كل رأي مطعناً، وفي كل مذهب مأخذاً.

وقد مرّت هذه الأفكار والآراء والأقوال بمرحلتين . ففي المرحلة الأولى كانت خواطر متفرقة وأقوالاً متناثرة وملاحظات سريعة تفتقر الى التركيز وروح

البحث والاستقصاء . ولكنها قفزت في المرحلة الثانية الى مرتبة النضج والبحث المنظم والنظرية العلمية والفلسفية . وليس غرضنا في هذه العجالة ان نغوص في هذا اللج ، فحسبنا من المرحلة الأولى ما ذكرنا ولنكتفِ من المرحلة الثانية بعَلَم من أعلامها وجهذ من كبار جهابذتها . انه الشيخ الرئيس أبو علي ابن سينا . فقد كان هذا الفيلسوف العملاق إمام فلاسفة الاسلام في دراسة النفس الانسانية وسيدهم حتى لم يترك لهم في هذا الباب زيادة لمستزيد أو كاد . فهو أول فيلسوف مسلم اهتمّ بها اهتماماً لا نجد له مثيلاً لدى أحد من الفلاسفة السابقين أغارقة أو عرباً، حتى إننا لا نكاد نجد كتاباً من كتبه يخلو من ذكر النفس وقواها والبرهنة على وجودها وخلودها وبيان طبيعتها . وغني عن البيان أن ابن سينا حين تصدى لموضوع النفس الانسانية ، فإنه لم يكن يكتب في فراغ ، فقد كان وراءه تراث فلسفي وديني ضخم في النفس وأصلها ومصيرها رأينا بعض ملامحه . وكان الكندي ثم الفارابي قد حددا لأوّل مرة معالم علم النفس الاسلامي وبيّنا موضوعه ورسما حدوده وأبعاده ، دون أن يرويا ظمأ أو يشفيا غليلا . فاستوعب ابن سينا كل ذلك وعليه بنى ومنه استمد عمله مضموناً وشكلاً . ولكن الفضل إنما يرجع اليه في النهاية في إبداع بناء متكامل مما اختاره من هذه العناصر . فلئن كان قد أخذ كثيراً من آرائه الفلسفية عن أفلاطون وارسطو والكندي والفارابي، فليس ثمة من شك في أن النتائج التي قد وصل اليها تختلف عن نتائجهم اختلافاً بيّناً ، سواء من حيث التحليل والتدقيق ، أو من حيث الاستقصاء والعمق ، أو من حيث الاتساع والشمول ، أو من حيث الغرض والغاية .

مفهوم العلم عند اليونان و (عند أهل زماننا اليوم) : قبل ان نبحث علم النفس عند ابن سينا نرى لزاماً علينا أولاً أن نعطي لمحة عن مفهوم العلم عند اليونان لما لهذا المفهوم من التأثير القوي في الفكر العربي الاسلامي بعامة وفكر ابن سينا بخاصة. كيف لا وقد كان لليونان تأثير هائل في تكييف تصوّرات المسلمين وتشكيل آرائهم في العلم والفلسفة ، وقد انعكس ذلك كله في ميادين مختلفة من النشاط الفكري والديني في الاسلام .

فأفلاطون يستعمل كلمة (علم) بمعانٍ متعددة ولكنه في تصنيفه لدرجات المعرفة فإنه يقصر هذه الكلمة على معنى العلم الأعلى وهو التفكير البرهاني والمعرفة الكاملة[1] . . . غير ان أرسطو يستعمل هذه الكلمة بمعنى أوسع . فهو يقول بعدّة علوم، بمعنى يقترب من نواحٍ عدة من المعنى الذي نجده عند المحدثين ، وهي علوم غير كاملة . أما العلم الحقيقي ، العلم الجدير بهذا الاسم فهو علم العلل والمبادىء ، لأن بها ومنها تُعرف سائر الأشياء المعروفة لا العكس[2] ، هذا هو العلم اليقيني . فلا علم إلا عندما نعرف أن الأشياء لا يمكن أن تكون على غير الوجه الذي عرفناه ، فالعلم إنما هو العلم الضروري والأزلي . وهذا العلم لا يتأتى بحسب أرسطو إلا بالمنهج العقلي والتأمل الفلسفي . وهو مهما اتّجه الى الناحية التجريبية واقترب من الواقع فإنه يظل مطبوعاً بالعبقرية النظرية الفذة التي هي سمة العلم اليوناني وطابعه المميز . فحتى العلم الطبيعي الذي هو الصق العلوم بالأشياء المادية كان عند اليونان علماً فلسفياً غائياً ، قوامه الانتقال من العام الى الخاص ، من الجزئي الى الكلي، في حركة منطقية مطّرِدة تتصاغر فيها الأشياء وتضمحل لتتعاظم الماهيات وتتوطد ، حتى ينتهي بها الأمر الى عالم من العقول والمجردات لا أثر فيه لشوائب المادة ومعاطبها ، عالم جميل ساحر لا حكم فيه إلا للمنطق ولا مطلب له إلا اتفاق الفكر مع ذاته . فالعقل أساس المادة ، والشيء إنما يُعرف بتجاوز المحسوس الى المعقول والبحث عن العلل الأولى والمبادىء الأساسية التي تكمن وراء الأشياء .

ولكن العلم في الوقت الحاضر غير هذا . إنه لا يأتلف وهذه الصورة المنطقية الجميلة الراكدة التي لا تعبأ إلا بانسجام الفكر مع ذاته ولا يهمها في شيء صراع الموجودات وتنازعها وما فيها من قبح وفوضى وسوء تدبير . ولنأخذ العلم الطبيعي مثلاً : فالعلم الطبيعي في مفهومه الحديث يختلف عن العلم القديم في المنهج والموضوع والغاية . فمنهج العلم القديم كان منهجاً قياسياً ،

---

(1) La lande (André): Vocabulaire technique et eritique de la Philosophie p. 955-56.

(2) Ibid, 956.

ومنهج العلم الحديث استقرائي ، وموضوع العلم القديم الجسم من جهة ما يلحقه من عوارض الحركة والنقلة . وموضوع العلم الحديث دراسة ظواهر الأشياء واكتشاف القوانين وشبكة العلاقات التي تربط بينها ، وغاية العلم القديم تطهير النفس بالمعرفة والسمو بها الى عالم العقول المفارقة والمبادىء العالية . اما غاية العلم الحديث فهي تسخير المعرفة لأغراض الحياة والتقدم ولزيادة رفاهية الانسان . .

فنحن لا نجد في العلوم الطبيعية اليوم جدلاً فلسفياً كالذي كنا نراه في علوم الأوائل . إننا لا نجد فيه مثلاً بحثاً عن الغائية ولا تعلقاً بالمنطق ولا سعياً وراء تطهير النفس من أدران المادة الخسيسة وشوائبها المنحطة ، ولا إخضاعاً للأشياء لقانون عدم التناقض وانسجام الفكر مع ذاته ، بل كثيراً ما يتكشف العلم اليوم عن أشياء تتحدّى المنطق وقوانين الفكر الذي لا يفهم شيئاً مما تمخّضت عنه المعادلات الرياضية وقوانين الأعداد .

لقد أصبح العلم اليوم أكثر تواضعاً وأقل طموحاً ـ إذا جاز التعبير ـ من ذي قبل وأشد لُحمة والتصاقاً بالمادة ، هذه المخلوقة الآثمة اللعينة التي أعلن الفلاسفة الأوائل براءتهم منها . أجل لقد أصبح أمسّ بحياة الانسان من العلم القديم . إنه يُعدُّه للحياة في هذا العالم والتأثير فيه والتفاعل معه وتسخيره لأغراضه وحاجاته ، بعد ان كان العلم القديم يُعدُّه لعالم آخر غير هذا العالم ويهيئه للحياة فيه ، فأضحى لا يبتغي داراً غير تلك الدار ، وتعلّق بأشباح وآمال إن تكن قد أشبعت بعض حاجاته النفسية فإنها قد افقدته فاعليته وشلّت حركته ومنّته الأماني .

مفهوم العلم عند العرب : إذا كان العلم اليوناني على ما رأينا وإذا كان العلم الحديث هذه سماته ، فما هي ملامح العلم العربي ؟ وما هي مقوماته ؟ واين عساه يقف بين هذين العلمين ؟ ان العلم العربي تلتقي فيه خصائص العلم القديم والعلم الحديث فهو في طور وسط بينهما . لقد كان يجتاز مرحلة انتقال من الطريقة القديمة في البحث الى الطريقة الحديثة التي استقر عليها منذ بداية عصر النهضة في أوروبا . ولم يكن ممكناً أن يحصل ذلك طفرة وعلى غير

انتظار . وهذا ما يُفسّر لنا وجود التأمل الفلسفي في تراث العرب العلمي الى جانب المنهج التجريبي ، واعتماد البحث على النظر العقلي المجرّد الى جانب أخذه بالواقع العيني المحسوس . فاليونان أورثوا العرب طريقتهم التجريدية ونظرهم العقلي وتأملاتهم الفلسفية الرائعة . فأخذ العرب ذلك كله واستوعبوه وتوّسعوا فيه ، لكنهم أضافوا اليه ما ينفصل به العرب عن اليونان وهو اختبار معارفهم وإخضاعها للتجربة .

فالعرب هم الذين اكتشفوا المنهج التجريبي . انهم أول من أوجد طريقة التجربة والملاحظة ووضعوا لها القواعد والأصول ، فخلقوا بذلك علم الطبيعة التجريبي في مفهومه العلمي الحديث ، ووصلوا به الى مستوى لائق لم يخطر لليونان على بال ، بل الى مستوى لو أدركه اليونان لأدانوه من فورهم ولحكموا عليه بالخزي والعار ، لأنه يفسد المبادىء الشريفة التي يجب أن تظل بمنأى عن المادة الخسيسة وادرانها وحقارتها ، وأن تبقى في عالمها السامي موضوعاً للتأمل والنظر ومُتعةً للعقول والأذهان .

لقد كفر اليونان بالمادة وأشادوا بالعقل وعالم العقل ، إلّا قليلاً منهم لم ينجحوا في تغيير ما هو عميق وأصيل في الفكر اليوناني . ورغم ان أرسطو أكثر واقعية من أفلاطون فإنهما يتساويان في توكيد التنافر بين المادة والعقل ولم يفلحا قط في توثيق العرى بينهما برباط من الألفة والانسجام .

أما العرب فقد آمنوا بالمادة دون أن يكفروا بالعقل ، بل لم يزدهم الايمان بالمادة إلا إيماناً بالعقل . لقد جمعوا بينهما في إطار من الوحدة والتناسق لم يُعرف من قبل ، وكان ذلك واضحاً في نهضة علوم المادة بينهم كالكيمياء والفلك والعلم الطبيعي والحيل والطب وغيرها . . . نعم لقد كانت هناك تيارات أفلاطونية صوفية ، ولكنها لم تستطع القضاء على التيارات المادية ، بل لقد ظل التعايش والتفاعل والحوار بينهما قائماً ، خلافاً لما كان عليه الحال عند اليونان حيث لم تنجح التيارات المناوئة لأفلاطون وارسطو ان تعلن عن ذاتها إلّا بشق النفس . فقد ظلت غريبة في عقر دارها فلم تؤثر ولم تتأثر ولم تتفاعل ، كأنها نشاز في سمفونية رائعة .

لذلك كـان من الطبيعي والحـالة هـذه ان يلتقي في مفهوم العلم عند ابن سينا عامة وعلم النفس خاصة المعنيان القـديم والحديث . فهـو في جانب منـه علم تـأملي منطقي أسـاسه المبـادىء الأولى والبحث عن الماهيـات والغايات، وغرضه الوصول الى اعتقاد يقيني بصدد الأصول التي تكون عليهـا الموجـودات والتي لا يتعلق وجودها بفعل الانسان ، بـل المقصود منهـا حصول رأي فقط . (أقسـام العلوم العقلية صفحـة 105)، وبذلك يتمكن المـرء من تـزكيـة نفسـه بانطباع صورة المعلوم فيهـا من دون أن يتجاوز العلم الى العمـل . فإذا تجـاوز ذلك كان علماً عملياً .

ومع جنوح ابن سينا الى المفهوم اليوناني من العلم فإننا نجـد لديـه أيضاً تطلعات تقربه من المفهوم الحديث . فقـد بحث في منهجه العلوم التي تـطرّق اليها في مطلع عرضه للفلسفة الطبيعية . ففي معالجته للعلوم الطبيعية الخاصـة نراه يعمل على ابتكار أسلوب منطقي جديد لصيـاغة تعـريفات تتصـل بالمنهـج التجريبي ولاتخاذ القياس الأرسطاليسي وسيلة لاستنتـاج المعرفـة لا من طبيعة الكلي الـذي لا يحدُّه زمـان ولا مكـان كمـا هـو الشـأن في الفلسفـات العَقليـة التقليدية بل ـ وهذا هو لبّ الطريقـة العلمية الحـديثة ـ من طبيعـة الجزئي ، من المادة المحسوسة الموجودة في الزمان والمكان . فعمد الى الحد الأوسط الذي يمثّـل العلة الميتافيـزيقية في القيـاس الارسطاليسي العقيم وجعـل منـه بحكم نزعته العلمية الواضحة حدّاً تجريبياً وبذلك سخّره لأغراض علم استقرائـي منتج .

فهناك إذن تطور في الحياة العقلية ، لإبن سينا كما تـلاحظ بمنتهى سداد الرأي الآنسة غـواشـون المتخصصة في فلسفة الشيخ الرئيس[1]. فـإلى جانب كونه فيلسوفاً راسخ القدم فهو أيضاً عالم له شغف بالدراسات التجريبية وحرص على استخدام المنهج العلمي في بحوثه .

وهكذا ، فبعد ان كانت العلة الميتافيزيقية هي العامل الحاسم الأول عند

---

(1) أنظر كلمتها (بالفرنسية) في الكتاب الذهبي للمهرجان الألفي لذكرى ابن سينا من صفحة 41-58 والملخص بالعربية ، صفحة 246 .

أرسطو أصبحت العلة التجريبية هي هذا العامل عند ابن سينا وأصبح اليقين مبنياً على الوقائع الممكنة المحسوسة بعد ان كان قائماً على الماهية الضرورية المعقولة . لقد فتح ابن سينا بذلك العمل الفذ الباب على مصراعيه ليقين خصب مليء بالمفاجآت والعناصر الجديدة وتخلى عن يقين عقيم فارغ فضفاض لا يغني من الحق شيئاً .

ويزداد منطق ابن سينا قرباً من الفكر الحديث في نص من نصوص القانون[1] يذكر فيه سبع قواعد ينبغي مراعاتها لاستخلاص قوى الأدوية من طريق التجربة الطبية ، منها ثلاث تسمى في مناهج البحث الحديثة طريقة الاتفاق Concordance وطريقة الاختلاف Différence وطريقة التغيرات المصاحبة Variations concomittantes .

علم النفس عند ابن سينا: في جو مشبع بالعقيدة الدينية، وأفق مليء بالأفكار الأفلاطونية ـ الارسطاليسية والتطلعات التجريبية التي تشق طريقها على استحياء، في هذا الجو يمكننا ان نبحث علم النفس عند ابن سينا . فعلم النفس عنده لا يخلو من نزعة تجريبية نسبية تأثر فيها بالأفكار الطبية والملاحظات الفسيولوجية التي وصلت اليه من القدماء . وقد قلنا في وصف هذه النزعة التجريبية بأنها نسبية كيلا نغلو كثيراً في تقديرها . فإبن سينا فيلسوف أكثر منه عالماً ، وبالتالي فإن للتجربة عنده حدوداً يفرضها إيمانه المطلق بالعقل النظري وقدرته على معرفة حقائق الأشياء والوصول الى كنهها . فمهما كان إيمانه بالتجربة فإن هذا الايمان يظل هاجسه المنطق والاهتمامات النظرية . فالتجربة مجرد عامل مساعد للتأمل العقلي ولكن هذا التأمل أسمى وأشرف وأكبر من ان تقوده التجربة وتملي عليه خطوته . فابن سينا يربأ بالعقل ان يخضع لمغريات التجربة إلا على سبيل الاستئناس والاستذكار . فالتجربة شر لا بد منه . هكذا كان تصور القوم ـ أو فريق كبير منهم على الأقل ـ للعلاقة بين العقل والتجربة . وهذا يرجع الى

(1) صفحة 115-116 من قانونه، طبعة روما سنة 1593 ، نقلاً عن كلمة غواشون في الكتاب الذهبي السالف الذكر ، صفحة 55-56.

تراث قديم انتقل الى العرب من الإغريق ، فآمنت طائفة وكفرت طائفة ، وظهرت بين الطائفتين آراء ونظريات يختلف حظ كل منها من هذه الطائفة أو تلك . وعلى كل حال ، هذه هي المرة الأولى التي ينشب فيها الصراع ويحتدم فيها الصدام بين التأمل الفلسفي والتجربة الحسية بمثل هذه الحدّة . ومما له دلالته ان ساحة الصراع كانت العالم العربي الاسلامي . فالعقل الانساني كان يعيش آنذاك مرحلة انتقال من التأمل المنطقي الى العلم المنهجي ، وقد اختار الساحة العربية الاسلامية لتحقيق هذا الانتقال . لكن الصراع لم يُحسم نهائياً إلا في عصر النهضة الأوروبية .

هذا وعلم النفس عند ابن سينا متّصل بالعلم الطبيعي وبعلم ما وراء الطبيعة . فهو جزء من العلم الطبيعي لأن موضوعه هو النفس والجسم من حيث هما عنصران لجوهر واحد يتّحدان فيه اتّحاد الصورة بالهيولى . فبين الجسم والنفس وحدة كاملة ما دام الاتصال بينهما قائماً . وليست النفس والبدن في هذه الحالة إلا وجهين فقط لشيء واحد . وهذا هو مذهب أرسطو أيضاً . لكن البحث في النفس الانسانية عند ابن سينا هو أدخل بما بعد الطبيعة منه بالعلم الطبيعي ، وهذا ما يختلف به ابن سينا عن أرسطو .

لذلك يمكن تقسيم علم النفس عند إبن سينا الى قسمين : (أولاً) علم النفس الطبيعي (ثانياً) علم النفس الميتافيزيقي .

أولاً ـ علم النفس الطبيعي

وإذا كان ابن سينا يتفّق مع أرسطو في أن علم النفس جزء من العلم الطبيعي فليس معنى ذلك تبعية إبن سينا لأرسطو تبعية مطلقة ، بل لقد كان أرسطو واليونان عامة منهلاً من المناهل التي نهل منها إبن سينا ثم جاءت عبقريته السامقة فعدّلت في هذه المناهل ما عدلت وأضافت اليها ما أضافت وحذفت ما حذفت ، فإذا نحن أمام شخصية جديدة غير شخصية أرسطو وأفلاطون وسواهما. نحن هنا أمام ابن سينا وابن سينا فقط. نحن هنا حقاً أمام شخصية حرة تعي ذاتها وتعي مصادرها فتأخذ بمقدار وتدع بمقدار، حفاظاً

على استقلالها وتأميناً لحرية حركتها . وإذا كـان هذا الاستقـلال بادي الـوضوح في علم النفس الطبيعي عند إبن سينا فهو أظهر في علم النفس الميتافيزيقي كما سنرى .

ويشتمـل علم النفس الطبيعي عنـد إبن سينا على دراسـة القـوى النفسيـة وأنواعها ، وهي إما نباتية أو حيوانية أو انسانية . فالقـوى النباتيـة تختص بالنمـو والتغذي وتوليد المثل، وهي اليوم من اختصاص علوم أخـرى انتزعتهـا من علم النفس القديم وأهمها البيولوجيا والفسيولوجيا اللتـان اختلطتا عنـد القدمـاء بعلم النفس . وأما القوى الحيوانية أو الحسية أو الحاسة فتتناول الحواس المختلفة ما ظهـر منها ومـا بطن . وأخيـراً القوى العـاقلة أو الناطقـة وتقـع على تخـوم علم النفس الميتافيزيقي بل وتختلط به وتنفذ الى أعماقه مما سنبحث بعد قليل . أما الآن فسنقصر حديثنا على القوى الحاسّة لنـرى إسهام ابن سينـا العظيم ، حيث يُعيد النظر فيما سُبق اليه من أفكـار ومذاهب ، فيعمـد الى تصحيحها وتنقيحهـا وترجيح بعضها على بعض حتى ليقترب بها كثيراً من علم النفس الحديث .

ويبدو ان ابن سينا في دراسته للاحساس عند الانسان على الأقل لا يتناول الاحسـاس الصرف بـل إن الاحسـاس عنـده مصحـوب دائمـاً بعمليـة عقليـة . فالإحساس « هو قبول صورة الشيء [المحسوس] مجردة من مادته فيتصور بهـا الحـاس »[1] ويسمى ذلك في مصـطلح علـم النفس الحـديث بـالادراك الحسي Perception وهو غير الاحساس المحض Sensation فنحن هنا بإزاء إدراك عقلي دعامته الحس . فالمحسوسات كلها « تتـأدّى صورهـا الى آلات الحس وتنطبـع فيها فتدركها القوى الحاسّة »[2] .

والاحساس لا بد ان تتوافر له ثلاثة عوامـل يتفق علم النفس الحديث مـع ابن سينا في عاملين اثنين منها . وهذه العوامل هي : (أ) المحسـوس الخارجي « الـذي يتشبـح في الحس شبحـه » أو المنبـه بحسب اصـطلاحنـا اليـوم

---

(1) الشفاء 297/1 (طبعة حجر بطهران سنة 1303 هـ) .

(2) النجاة 261 ، (مصر 1331) .

(ب)الانفعال الذي يصحب عملية الاحساس أو التنبه. (ج) الوسط وهو ما يتجاهله علماء النفس في أيامنا بطبيعة الحال . هذا ، والحواس ظاهرة وباطنة . والحواس الظاهرة خمس فلنتحدّث عن كل واحدة منها على انفراد :

(1) حاسة اللمس

وهي أول الحواس . فالحيوان حيوان لكونه حساساً . ولذلك كانت حاسة اللمس حاصلة لكل حيوان ، يدرك بها تأثير الأشياء وما ينفعه منها وما يضره ، فينزع الى ما يتوسّم فيه المنفعة واللذّة ويهرب مما يتوسّم فيه الضرر والألم[1] وهذه الحاسة تختلف عن الحواس الأخرى في أن لها موضوعات عدة مختلفة بالجنس ، بينما تحس كل حاسة من الحواس الأخرى موضوعاً واحداً . فهذه الحاسة هي مجموعة من حواس يعدها إبن سينا جنساً له أنواع « ويشبه أن تكون قوى اللمس قوى كثيرة كل واحدة تختص بمضادة، فيكون ما يدرك به المضادة التي بين الثقيل والخفيف غير الذي يدرك به المضادة التي بين الحار والبارد، فإن هذه أفعال أولية للحس يجب أن يكون لكل جنس منها قوة خاصة ، إلا أن هذه القوى لما انتشرت في جميع الآلات بالسوية ظُنت قوة واحدة »[2] . وقد أيّد علم النفس الحديث هذا الرأي وثبت ان اللمس حاسة مركبة وان لها أعضاء تحس الحرارة وأخرى تحس البرودة ، وأخرى تحس المقاومة والصلابة ، وغيرها تحس الألم واللذة .

(2) حاسة الذوق

إن الغذاء ضروري للكائنات الحية ، لأنها باقية ما بقيت تتغذّى . ومن هنا أهمية الذوق في حفظ حياة الكائن الحي . لأن وظيفة الذوق هي تشهية الغذاء ، والتمييز بين ما يُستساغ وما لا يُستساغ ، فيُقبل الحيوان تبعاً لذلك على الطعام أو يعافه . ولذلك يأتي الذوق بعد اللمس من حيث هو طليعة للنفس

---

(1) أنظر ابن سينا كتاب النفس ، صفحة 24 (من أجزاء كتاب الشفاء) .

(2) المصدر السابق صفحة 73 ، قد بحث ذلك في الشفاء والنجاة أيضاً .

مـرتبة لحفظ حيـاة الحيوان .

هذا وعضو حاسة الذوق في رأي ابن سينا هو نهايات الأعصاب المنتشـرة في طبقة اللسان الـظاهرة[1] . وهـذا هـو نفس مـا يذهب اليه العلم الحديث . ويُعدّ ابن سينا أقرب الى العلم الحديث في هذه المسألة من جميع القدماء .

فقـد ذهب القميرن وديـوجين الأبولـوني الى أن اللسان ، بفضـل حرارتـه ورطوبته وكثـرة مسامـه ، يذيب الـطعوم المختلفـة ويحملها الى المـخ بواسـطة القنوات المتفرّعة اليه من اللسان ، غير أنهما كانا يجهلان طبيعـة هذه القنـوات التي تنتقل خلالها التأثيرات الحسية عموماً ، وكانا يخلطان بينها وبين الربـاطات الليفية التي تربط العضلات والعظام . وقد ذهب كل من أفـلاطون وأرسـطو الى أن الاحساس الذوقي ينتقل خلال الأوعيـة أو العروق المتفـرعة من اللسـان الى القلب . فهما لم يستطيعا التمييز بين الأعصاب الحسية وبين الأوعية الدموية .

(3) حاسـة الشـــم

وهي في نظر ابن سينا أضعف في تمييـز موضـوعاتهـا من حاستي الـذوق واللمس . فالانسان لا يقبل الروائح قبولاً قوياً حيت يحدث في خياله منها مثـل ثابتة كما يحصل للملموسات والمطعومات بل يكاد أن تكون رسوم الروائـح في نفسـه رسومـاً ضعيفة[2] لكن العلم الحـديث لا يوافق ابن سينـا على أن حاسـة الشم أضعف من الحواس الأخرى بل هي حاسة قويـة بل هي أقـوى من الذوق إذ هي تستطيع التمييز بين أنواع كثيرة من الروائح .

(4) حاسـة السمـــع

قبـل أن يتكلم ابن سينا على السمـع يبدأ ببيـان ماهيـة الصـوت وحقيقتـه فيقول : إن الصوت ليس أمـراً قائم الذات موجوداً ثابت الوجـود ، يجوز فيـه ما يجوز في البياض والسواد والشكل من أحكام الثبات . . بل الصوت بين واضـح من أمره أنه أمـر يحدث ، وإنـه ليس يحدث إلا عن قلع أو قـرع . . . ولا تجد

---

(1) القانون 27/1 طبعة روما سنة 1653 .

(2) كتاب النفس لإبن سينا صفحة 77 .

أيضاً مع كل قرع صوتاً ، فإن قرعت جسماً كالصوف بقرعٍ ليِّن جداً لم تحس صوتاً ، بل يجب أن يكون للجسم الذي تقرعه مقاومة ما ، وان يكون للحركة التي للمقروع به الى المقروع عنف صارم، فهناك يحسّ. . .[1] فالصوت إذن لا يحدث عن كل الأجسام وإنما يحدث فقط عن الأجسام المصقولة والصلبة . وهو يحدث بين الأجسام بالقرع أو بالقلع .

فالصوت إذن شيء عارض وليس شيئاً قائماً بذاته . إنه يتولد في الخارج من طريق الحركة التي يحدثها في الهواء عند الاصطدام أو التفريق، فينتج عن ذلك تموجات إذا انتهت الى صماخ الاذن ـ حيث يوجد تجويف فيه هواء راكد يتموج بتموج ما ينتهي اليه ، ووراءه كالجدار مفروش عليه العصب الحاس للصوت ـ أحس بالصوت .

وهذا الرأي الذي يقول به ابن سينا في تفسير الصوت لا يرفضه العلم الحديث وإن كان قول ابن سينا أقل منه دقة وعمقاً نظراً الى تقدم وسائل البحث في الوقت الحاضر .

(5) حاسة البصر

يفسر القميون وامبيذوقليس وأفلاطون الإبصار بصدور شعاع من العين يلتقي المرئيات فتحدث الرؤية . وحجتهم في ذلك ان الحواس الأخرى تدرك محسوساتها بالملامسة حيث يحدث تماس بينها وبين المحسوسات . فقد لاحظوا ان جميع الحواس مجوفة استعداداً لتلقّي آثار المحسوس إلا البصر فإنه مكور ليقدح بالأشعة الى الخارج. ولذلك فإن العين هي العضو الوحيد الذي يدرك محسوسه من بعيد لا على سبيل التّماسّ . وهناك من ينفي عن العين القدرة على الإبصار (ولعله ديمقريطس) ويثبت هذه القدرة للقوة المتصورة بانطباع صور المرئيات فيها. وأما أرسطو فإن تفسيره لعملية الرؤية أقرب الى تفسيرنا اليوم، وإن ظل رأيه لا يخلو من بعض التعسّف. إذ يقول بانطباع صور المرئيات في الرطوبة الجليدية من العين ، إذ أن لون المرئي يثير الواسطة المشفة (الوسط الشفّاف) التي تؤثر في العين فتحدث الرؤية . فارسطو إذن

---

(1) ابن سينا ـ كتاب النفس ، صفحة 81-82 .

يعزو الى الوسط الشفاف : (الهواء مثلاً) قوة إيجابية لا يتم الإبصار إلا بها[1] . وهكذا فقد ذهب ارسطو الى منتصف الطريق في تفسير عملية الرؤية . ولما جاء إبن سينا فقد أكمل الطريق وحده ، ولعله كان متأثراً في ذلك بابن الهيثم لأنهما كانا متعاصرين . فهو في استعراضه لآراء القدماء ومناقشتها في مختلف كتبه يرفض الآراء السابقة لأرسطو كما يرفض قول هذا الأخير بالوسط المشف. فرسوم الأشياء وأشباحها تنفذ مباشرة الى العين بعد أن تمر بهذا الوسط . فالوسط مجرد مكان تنفذ فيه الأشعة واللون الى العين دون أن يكون له أي فعل إيجابي[2] .

وهناك الى جانب هذه الحواس الظاهرة حواس أخرى باطنة هي :

(1) الحس المشترك

ويسميه ابن سينا أحياناً فنطاسيا[3] وهو قوة تستطيع التفرقة بين الألوان والأصوات وإدراك المحسوسات المشتركة، كالحركة والسكون والعدد والشكل والمقدار . ووجهة نظر ابن سينا في ذلك ان المحسوسات المختلفة يجب أن تجتمع عند قوة واحدة تستطيع الحكم عليها والتمييز بينها . وقد لاحظ علماء النفس في الوقت الحاضر أهمية ذلك في اكتساب المعرفة وتحصيلها . فوليم جيمس مثلاً يقول ان التمييز بين الأشياء وإضافة بعضها الى بعض أمران ضروريان لزيادة معرفتنا بهذه الأشياء[4] فالحياة مستحيلة لو لم يكن من الممكن التمييز بين المحسوسات المختلفة والمقارنة بينها . ورغم أن أرسطو كان يقول بالحس المشترك قبل ابن سينا إلا أنه كان يرى أن صورة المحسوسات تُحفَظ في أعضاء الحس الظاهرة وتظل باقية فيها حتى بعد انتهاء الاحساس وزوال المحسوس ، وأما ابن سينا فيؤكد ان هذه الصور تحفظها المصوّرة في الدماغ ، إذ لا يوجد عند أرسطو عضو داخلي لحفظ الصور الحسية الظاهرة . فهو لا يؤمن بوجود حاسة سادسة غير الحواس الخمس الظاهرة .

(1) الشفاء ، 224/1 و 228/1 .

(2) الشفاء 224/1 و 228/1.

(3) النجاة ، صفحة 163 .

(4) James (W): Text Book of Psychology London p. 244

نعم إنه يقول ان القلب هو عضو الحس المشترك أو مركزه ، لكن ذلك لا يعني ان الحس المشترك حس خاص له عضو خاص، وإنم ذلك يعني ان القلب عضو النفس الحاسة أو مركزها . وهذه النفس لها وظائف خاصة غير الوظائف التي تقوم بها الحواس الظاهرة ؛ فضلاً عن ان إبن سينا لا ينظر الى الحس المشترك على أنه مبدأ النفس الحاسة ، ولكنه ينظر اليه على أنه حس خاص مستقل عن الحواس الظاهرة الأخرى وعن مجموع النفس الحاسة ، هذا إلى أنه لا يجعل للقلب تلك الأهمية النفسية التي يجعلها له أرسطو، بل هو ينقل الوظائف النفسية جميعاً إلى شبكة الأعصاب والدماغ، وهذا شيء إيجابي في علم النفس السينوي وان لم يكن دقيقاً في تحديد مراكز الوظائف النفسية في الدماغ .

(2) المخيّلة

ومن الوظائف النفسية التي تعرّض لها إبن سينا ووصل فيها الى نتائج تخطّى فيها القدماء ووافق فيها آراء علماء النفس المحدثين ، المخيلة أو وظيفة التخيل . فالتخيّل عند أرسطو مثلاً هو إحساس ضعيف أو انفعال أو حركة ناتجة عن وصول الانفعالات الحسية الى الحس المشترك ، ففي تعريفه للتخيل يهتم بإبراز العلاقة بين التخيل والاحساس أكثر منه بإبراز الطبيعة الخاصة بوظيفة التخيل ، وهي التفريق والجمع بين الصور والمعاني تمهيداً لعمليات التفكير والابتكار وهذا بالضبط ما يهتم به إبن سينا ولذلك يسميها متخيلة بالقياس الى الحيوان ، أما بالنسبة الى الإنسان فهي مفكرة . ومن شأنها تركيب بعض ما في الخيال مع بعض وفصْل بعضه عن بعض بحسب الاختيار[1]. وقد أشار الفارابي قبل ابن سينا الى وظيفتي الجمع والتفريق هاتين إشارة عابرة في كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) و (فصوص الحكم) ولكنه لم يبلغ مستوى إبن سينا في الشرح والتوضيح والبيان . فنحن لا نجد عنده دراسة ضافية مفصلة لوظائف التخيل كما نجد عند ابن سينا . إن وظيفتي الجمع والتفريق اللتين يقول بهما ابن سينا هما من صميم علم النفس الحديث . فهذا روستان Roustan في

---

(1) الشفاء 291/1 . أنظر أيضاً النجاة ، صفحة 286 ، ومبحث في القوى النفسانية ، صفحة 51.

كتـابه (علم النفس) يؤكـد ان التخيّل المبتكـر يتضمن وظيفتين مختلفتين همـا التفـريق Dissociation والجمـع أو الضم Association[1] ويقـول ريبـو Ribot أيضـاً : « إن التخيل لـه وظيفتان أسـاسيتان ، الأولى سـالبـة وتمهيـديـة ، وهي التفريق . والأخرى موجبة ومركبة وهي الجمع والضـم »[2] .

وكما سبق ابن سينا روستان وريبو في القـول بالجمـع والتفريق فقـد سبق غالتون وشاركوت في القول باختلاف قوة التخيّـل من شخص الى آخر . فبعض النـاس يكون أكثـر استعادة للصـور البصريـة والبعض الآخر أقـدر على استعادة الصـور السمعية وهكـذا . وبذلـك يمكن تصنيف التخيل أصنـافاً عـدة : تخيل بصري وتخيل سمعي وتخيل ذوقي وتخيل شمّي وتخيل لمسي[3] هذا هـو رأي غالتون وشاركوت . وهذا رأي ابن سينا أيضاً . واليك قـوله بـالحرف الـواحد : « وهـذه القوة إنمـا تكون قـوية إذا كـان الانسـان قـادراً على جـودة حفظ صـور المحسـوسات ، مثـل الأشكال والنقـوش والحلو والمذوقـات والأصوات والنغم وغيرها . فإن من الناس من يكون له في هذا الباب قـوة تامـة حتى ان الفاضـل من المهندسين ينظر في الشكل نظرة واحدة فيرسم في نفسه صورتـه وحروفـه ، وتُفضي المسألة الى آخـرها ، مستغنيـاً عن معاودة النـظر في الشكل . وكـذلك حـال قـوم بـالقيـاس الى النغم ، وحـال قـوم بـالقيـاس الى المـذوقـات وغيـر ذلك »[4] .

وقد درس ابن سينا أيضاً ظاهرة الابتكار وقـال إنها تـابعة للتخيـل ووظيفة من وظائفه ، إذ لا يقتصر أمر التخيل على استعادة الصور القديمة ، بل هو يقوم أيضاً بخلق صور جديدة لا عهد للحس بها . والحق ان تحليل ابن سينا لوظيفة الابتكـار تحليل علمي دقيق تحس وأنت تقـرؤه انك أمـام كتاب في علم النفس الحديث . فالتخيّل المبتكر عند إبن سينا له وظيفتان : هما التفريق بين الصـور

---

(1) Roustan : Psychologie, Paris, 1925,p. 307

(2) أنظر له : Essai sur l'imagination créatrice, Paris, 1926,p.13

(3) Galton: Enquiries in Human Faculty. p 83-114

(4) ابن سينا ، القانون 284/3.

والمعاني وإعادة تأليفها من جديد تأليفاً لا وجود له في عالم الحس[1].

كما بحث إبن سينا أيضاً مسألة ما إذا كان التخيّل المبتكر يبتكر بالفعل صوراً جديدة ويخلقها من العدم، والى أي مدى يكون التخيل مبتكراً. وقد وصل في ذلك الى نتائج قريبة جداً من النتائج التي وصل اليها علماء النفس اليوم. فالابتكار عنده يرجع في الأغلب الى نشاط التخيّل في عمليات التفريق والجمع بين الصور والمعاني المُدرَكة بالحس. وهذا لعمري شديد الشبه بما يقول به علم النفس الحديث. فالابتكار الذي يُنسَب الى التخيل ليس خلقاً لصور جديدة لم يدركها الحس من قبل، بل هو إعادة تنظيم للصور التي اكتسبها الحس من قبل والجمع بينها على أنماط وهيئات جديدة مختلفة. فالابتكار بحسب إبن سينا راجع الى نشاط التخيّل في عمليات الجمع والتفريق بين الصور والمعاني المُدرَكة بالحس، وإن كان إبن سينا يقول أيضاً بمصدر مهم آخر للابتكار ينفرد به وحده ولا يشاركه فيه علم النفس اليوم أبداً وهو الوحي والإلهام، فإن حدث في النوم كان رؤيا. فابن سينا يظل ربيب القرون الوسطى لم يستطع التخلص من آثارها، فمهما تحرّر منها فلا بد ان يعود اليها. إنه فيلسوف مسلم مخلص لدينه وتراثه، مخلص للفلسفة التي لا يشك لحظة واحدة في حقيقتها، ومن هنا اهتمامه بالتوفيق بينها وبين نظرية النبوة التي هي ركن أساسي من أركان الاسلام.

ثانياً ـ علم النفس الميتافيزيقي

وهو يبحث في النفس ووجودها وماهيتها وخلودها وعلاقتها بالبدن، ولا يهمنا من هذه الأبواب سوى وجود النفس وطرف من علاقتها بالبدن، ففيهما نجد إبن سينا في خضم علم النفس الحديث، وأما سائر الأبواب الأخرى فهي تمت الى تراث القرون الوسطى وتأملاتها الميتافيزيقية العميقة.

1 ـ علاقة النفس بالبدن:

وليس غرضنا الآن أن نخوض في مشكلة العلاقة بين النفس والبدن

---

(1) ابن سينا، الشفاء، 291/1، 333/1، والنجاة صفحة 266.

والصـراع بينهما من الـوجهة الميتـافيزيقيـة بـل سنكتفي بنبـذة قصيـرة عن هـذا الصـراع من وجهة نـظر الطب النفسي والعقلي، وهي وجهـة إهتم بها كثيـر من الباحثين الاسلاميين قبل ابن سينا وبعـده. فعلى الرغم من أن العـرب قد تلقّـوا التـراث التأملي الفلسفي من اليـونان فـالتحم بكتابـاتهم وأفكارهم ، فقـد كانت هنـاك محـاولات جـادة قـام بهـا بعضهم ممن أراد أن يفهم بعض المشكـلات السلوكية على وجه علمي دلّ على فهم واحترام للروح العلمي وحاجات البحث العلمي .

ولظروف تتعلق بغياب الـدراسات الجـادة للمخطوطـات الاسلاميـة، فقد يكون من المفيد هنا أن أشير الى بعض عنـاوين هذه المخـطوطات لكي يلمس مدى قربها من الروح العلمي :

كتاب في (الملاخوليا) لأحمد بن أبي الأشعث .
مقال في مرض (المرقية)[1] لسعيد بن أبي بشر .
مقال في (فقدان الذاكرة) لأبي جعفر الجزار .
(الرسالة الشافية في أدوية النسيان) لاسحق بن حنين .
مقال في (الملاخوليا) لاسحق بن عمران .
(من علل اختـلاف الناس في أخـلاقهم وسيرهم وشهـواتهم واختيارهم) لقسطا بن لوقا .

إن التاريخ الإسلامي يزخر بكثير من أمثـال هذه المخـطوطات المجهـولة والتي لا يبدو ـ على حد علمنا ـ ما يدل على اهتمام بالكشف عنها وتحقيقها في مشروعات شاملة ، سواء من قِبل العلماء المتخصصين أو الحكومات العربية .

وأنت إن أنعمت النظر في مجرد عناوين هذه المخـطوطات وكثيـر غيرهـا لن تستطيع ان تكتم إعجابك بأولئك الذين خطر لهم مجرد تأليفها والخوض في لججها . وفي أخذة هذا الاعجاب ستدهش بمدى قربها من موضوعـات يتطرق اليهـا العلماء المحـدثون في مجـالات بحوث الشخصيـة والعلاج النفسي وعلم

---

(1) أي توهم المرض .

النفس الفسيولوجي وعلم النفس الاجتماعي . وإننا لنحتاج بالطبع الى نظرة أكثر تعمقاً وأكثر اعتماداً على الدراسة الجادة للإلمام بمحتواها وتحليلها في ضوء المناهج والنظريات الحديثة .

ولإبن سينا على الخصوص لمحات ذكية ومحاولات بارعة للخروج من الاطار التأملي الفلسفي الى مجال الممارسة والتطبيق ، وبالتالي الابداع في علاج بعض الأمراض النفسية والعقلية . فهو كما يقول بريت Brett حجة في الطب كما ان أعماله هي موسوعة في علم الانسان .

وقد قدم ابن سينا وكتب كتابات قيمة لعلاج بعض الاضطرابات النفسية والعقلية من شأنها ان تجعله من الأطباء النفسيين الأوائل في تاريخ المعرفة البشرية ، إذ يجد المُطّلع على كتابات الشيخ الرئيس إشارات متعددة الى الأمراض النفسية والعقلية ، بل إنه يُخصّص أقساماً مستقلّة من كتبه لأمراض متعددة كالقلق والهستيريا والسوداوية (الاكتئاب) وفقدان الذاكرة والقوة الجنسية (الباه) . ويبدو انه لم يكتف بوصف هذه الأمراض بل قام بمحاولات جادة صادقة لعلاجها . وان بعض ما يرويه في كتبه في هذا المضمار ليدل على تنبّه عبقري مبكر من جانبه لبعض الحقائق الهامّة في دراسة الأمراض النفسية والعقلية بربطها بالتغيرات الفسيولوجية ، كما في القصة التالية التي ننقلها عن كولمان[1] .

مريض بالسوداوية (اكتئاب أو هستيريا) كانت تتملكه الهواجس بأنه قد تحول الى بقرة . لذلك أصبح مصدراً دائماً لفزع أبيه الأمير وازعاج المحيطين به ، وذلك لخوفه الدائم وخواره المستمر كالبقرة ، وإصراره على أن يذبحوه ليغتذوا بلحمه . وكان من نتيجة ذلك ان امتنع عن الطعام ونقص وزنه وهزل هزالاً شديداً .

وعندما دُعي إبن سينا لعلاج هذا المريض أرسل قبل مشاهدته إياه

---

(1) Coleman (y.c) and Broen (w) Abnormal Psychology and Modern Life, Glenvew, S Cott, Foresman, 1976, 3/68.

من يبلغه بأن الجزار قادم اليه توّاً لتحقيق رغبته في الذبح . وبعد قليل دخل إبن سينا على المريض وبيده مدية وهو يسأل : اين البقرة التي تريدون ذبحها ؟ فانبعث من المريض خوار كالبقرة ليدلّ على موقعه . وبناء على أوامر من ابن سينا طُرِح المريض أرضاً واوثقت قدماه ويداه . وشمرّ ابن سينا عن ساعديه وشهر مديته استعداداً لذبح المريض . ولكنه سرعان ما أشاح بوجهه عن المريض فجأة والقى بمديته جانباً وهو يقول : « إنها بقرة هزيلة عجفاء ليس الآن أوان ذبحها بل يجب تغذيتها أولاً حتى تسمن وعندئذٍ يمكن ذبحها » . وعند ذلك أقبل الشاب المريض على التهام الطعام بشهية واضحة . ثم أخذ يستعيد قوتّه تدريجياً ويتخلص من الهاجس الذي كان متسلّطاً عليه حتى شفي من مرضه .

لقد كان هدف إبن سينا إقناع مريضه بالأكل أولاً ، فلعلّه يُشفى من اكتئابه إذا نال كفايته من الطعام . فقد تنبه بمنتهى سداد الرأي لأهمية الصحة النفسية في حياة المريض .

يذكر جيمس كولمان أن الانصاف العلمي يقتضي الاشارة الى أن من بين جميع حضارات العصور الوسطى لم يكن هناك غير العرب يستطيع تطوير بعض الأفكار العلمية عن الأمراض العقلية . فقد نشأت أول مصحّة عقلية في بغداد سنة 792 هجرية وتبعها بعد ذلك إنشاء مصحات نفسية أخرى في دمشق وبعض المناطق والبلدان العربية والاسلامية . وفي هذه المستشفيات كان المرضى النفسيون يتلقون معاملة إنسانية في وقت كان المتطببون المشعوذون في الدول المسيحية يحرقون هؤلاء البؤساء أو يوثقونهم بالسلاسل في الأقبية المهجورة المظلمة حتى الموت[1]. أو ينهالون عليهم بالضرب لطرد الأرواح الشريرة من أجسادهم . فالعرب هم أول من أنشأ المستشفيات في التاريخ . وأول من تبنّى بعض الأفكار العلمية الايجابية لعلاج الأمراض النفسية والعقلية .

---

(1) بيرت (سيريل) : كيف يعمل العقل ، ترجمة محمد خلف الله أحمد . القاهرة ، 1965 ، صفحة 132 .

وينوّه العلماء كثيراً بالشيخ الرئيس ويعدّونه علامة مشرقة في تاريخ العلاج النفسي الطبي بخاصة والرعاية الصحية بعامة .

2 ـ وجود النفس

إن منهج ابن سينا في البحث يحتّم عليه أن يبدأ أولاً وقبل كل شيء بإثبات النفس وإثبات وجودها . لأن « من رام وصف شيء من الأشياء قبل أن يتقدم فيثبت أولاً أنيته فهو معدود عند الحكماء ممن زاغ عن محجة الايضاح » . وهناك خمسة أدلّة يثبت بها إبن سينا وجود النفس يهمنا منها ثلاثة فقط لطابعها العلمي الحديث وهذه الأدلّة يمكن تسميتها بدليل الأنية ووحدة الذات، ودليل الديمومة واتصال الحياة الوجدانية ودليل الهويّ في الهواء أو الخلاء .

أ ـ **دليل الأنية ووحدة الذات** : إن النفس رغم تعدد قواها وتنوع أفعالها تظل واحدة . فإذا أقبلت على العلوم سُمي فعلها علماً وسُميت بحسبه عقلاً نظرياً . وإذا ما أقبلت على قهر القوى الذميمة سُمي فعلها سياسة وسُميت بحسبه عقلاً عملياً . وفي هذا دلالة صريحة على وحدة النفس والترابط الكامل بين قواها المتعددة حتى لكأنها تسعى إلى غرض واحد وتسير نحو غاية واحدة .

النفس هي ما يشير إليه الإنسان حين يقول « أنا » . فعندما يقول الانسان أنا مشيت وأنا أكلت فإنه لا يقصد حركة رجليه أو فيه ، بل يقصد ذاته كلها . فمهما تنوعت أحوالنا النفسية واختلفت فإنها تصدر جميعاً من شخصية واحدة وقوة واحدة توفّق بين المختلف وتوحد بين المتعدد. ولولا هذه القوة لتضاربت الأحوال النفسية واختلّ نظامها ، وما النفس من آثارها إلا بمثابة الحس المشترك من المحسوسات المختلفة ، كلاهما يلم الشعث . ويجمع الشمل ويبعث على النظام . وهذا الذي يلم الشعث ويجمع الشمل ويشير اليه الانسان بقوله « أنا » ليس شيئاً آخر غير النفس[1]. وهذا الدليل يشير الى فكرة الشخصية أو الأنا أو وحدة الظواهر النفسية بلغة علم النفس الحديث . فالأنا (أو النفس) هي التي تعمل على تكامل الوظائف النفسانية وهي التي توحّدها وتربط بينها . وهذه

---

(1) رسالة في معرفة النفس الناطقة ، صفحة 10/9 ، الشفاء 362/1 .

الفكـرة هي من الجدة والثبـوت والذيـوع والانتشـار اليـوم بحيث لا تحتـاج الى فضل بيان .

ب ـ دليل الديمومة واتصال الحياة الـوجدانيـة : يقارن إبن سينـا في هذا الدليل بين البدن الذي يظل عرضـة للتغيير والتبّـدل والتحلّل والانتقاص ، وبين النفس الثابتة المستمرة في ديمومتها واتصال نبض الشعور فيها . فالانسان يشعر بذاته شعوراً واضحاً يقينياً لا يعرف التوقف أو الانقطاع، بحيث يعي ذاته هو في الزمان الماضي والحاضر، بينما لم يبق جـزء من بدنـه دون تبدّل أو تحلل ، وإلاّ لما اضطر الى الاغتذاء لتعويض ما فُقِد منه . يقول ابن سينا :

« تأمّل أيها العاقل في أنك اليوم في نفسك هو الذي كان موجوداً جميع عمرك ، حتى انك تتذكر كثيراً مما جرى من أحوالك . فأنت إذن ثابت مستمر لا شك في ذلك ، وبدنك وأجزاؤه ليس ثابتاً مستمراً ، بل هو أبداً في التحلّل والانتقاص ، ولهذا لو حُبس عن الانسان الغذاء مدة قليلة نزل وانتقص قريب من ربع وزنه ، وأنت تعلم بقاء ذاتك في هذه السنة بل جميع عمرك . فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة »[1] .

ومعنى ذلـك أن الشعـور أشبـه بـالـوادي أو بـالتيـار يهـدر دون انقـطاع . إنه ديمومة متّصلة لا تهدأ، أو زمان حي لا تقف نبضاته إلا بالموت. نعم إن إبن سينا لم يستعمل كلمة (تيار) أو (ديمـومة) ولكن هـذا هو مؤدّى كـلامه. فليست العبرة بالألفاظ ، إنما العبرة بمعاني الألفاظ . وفكرة (الديمومـة) أو التيار عنـد استعمـالها في وصف الشعـور هي أيضاً من الأفكـار الحديثـة في علم النفس . ولعـلَّ أول من نادى بهـا في الوقت الحـاضر هنـري برغسـون في فـرنسـا ووليم جيمس في اميركا .

ج ـ دليل الهُويّ في الهواء أو الخلاء. وأخيراً يستدل إبن سينا على وجود

---

(1) رسالة في معرفة النفس الناطقة ، صفحة 9 . ويذكر الدكتور الفندي الـذي حقق هذه الرسالـة ونشرها ، ان هذا البرهان ليس له نظير صريح في كتب ابن سينا الأخرى ، مما يؤكد أهمية تلك الرسالة .

النفس ببرهان طريف مستحيل تجريبياً ولكنه يدل على سعة خيال صاحبه وقوة ابتكاره ليؤكد لنا أن الإنسان لا يغفل عن وجود ذاته ولو غفل عن كل شيء . لذلك نرى ان ابن سينا يبدأ النمط الثالث من (الاشارات) ليثبت ان أول الادراكات وأوضحها هو إدراك الإنسان نفسه فيقول : إرجع إلى نفسك وتأمل هل إذا كنت صحيحاً بحيث تفطن للشيء فطنة صحيحة ، هل تغفل عن وجود ذاتك ولا تثبت نفسك ؟ ما عندي ان هذا يكون للمستبصر . حتى ان النائم في نومه، والسكران في سكره لا يعزب ذاته عن ذاته وان لم يثبت تمثله لذاته في ذكره. ولو توهمت أنْ ذاتك قد خُلقت أول خلقها صحيحة العقل والهيأة ، وفُرض انها على جملة من الوضع والهيأة (بحيث) لا تبصر أجزاؤها ولا تتلامس أعضاؤها ، بل هي منفرجة ومعلقة لحظة ما في هواء طلق وجدتها قد غفلت عن كل شيء إلا عن ثبوت إنيّتها[1] . . فهو يفترض شخصاً كأنه خُلِق دفعة وخلق كاملاً ، ولكنه حُجب بصره عن مشاهدة الخارجات ، وخُلق يهوي هوياً لا يصدمه فيه قوام الهواء صدماً يحوج الى ان يحس ، وفُرّق بين أعضائه فلم تتلاق ولم تتماسّ ، هذا الشخص لا يشك في إثباته لذاته موجوداً دون ان يثبت مع ذلك طرفاً من أعضائه ولا باطناً من أحشائه ولا قلباً ولا دماغاً ولا شيئاً من الأشياء من خارج . فكل ما يفعل إنما هو أنه يثبت ذاته من غير ان يثبت لها طولاً ولا عرضاً ولا عمقاً . فللإنسان اذن مبدأ آخر غير بدنه لم ينتج القول به عن الحواس ولا من قِبل الجسم ، بل هو صادر عن أصل آخر مغاير للجسم هو النفس . فالإنسان يستطيع ان يتجرّد من كل شيء إلاّ من شعوره بذاته التي يدركها حدسياً إدراكاً لا يشك فيه لحظة ، على عكس الحقائق الأخرى التي لا تصل إليه إلاّ بالواسطة ومن طريق معقد طويل غير حدسي وغير مباشر.

أنا لا أزعم أبداً ان علم النفس الحديث يُقر ابن سينا على القول بالنفس الانسانية . فعلم النفس اليوم يبحث كل ما يتعلق بالنفس ما عدا النفس . انه

---

(1) الإشارات والتنبيهات ، بتحقيق الدكتور سليمان دنيا ، القسم الثاني ، صفحة 319-320 . والشفاء 281/1 .

كما يقول هوفمان : « علم نفس بلا نفس » أي انه لا يخوض أبداً في الجانب الميتافيزيقي من النفس كما يفعل إبن سينا الذي بحث النفس في جانبها الميتافيزيقي والعلمي . فالجانب الميتافيزيقي فإن علم النفس الحديث يرفض الخوض فيه ولكنه يقبل جميع أقوال إبن سينا المتعلقة بالنفس في جانبها العلمي . فتحليلات إبن سينا للإدراك الحسي والمخيلة والإبداع وتصوّره للمرض النفسي ووحدة الظواهر النفسية والديمومة أو التيار النفسي - كل أولئك يلتقي فيه إبن سينا كثيراً مع علماء النفس في الوقت الحاضر . كما ان تحليله للأنا وتفرقته بين الأنا (أو الانية بحسب اصطلاحه) والجسم هما عمدة ديكارت في تفرقته المشهورة بين الفكر والامتداد . وهنا يكمن سبق ابن سينا وهنا موطن عبقريته . وهكذا يمهد ابن سينا لديكارت ويمد أبا الفلسفة الحديثة ببذور والكوغيتو Gogito ergo sum (أنا أفكر فإذن أنا موجود) واليقين الأول الذي ينبني عليه كل يقين[1]. ويكفي أن نسوق نصاً من (التأملات) لديكارت لنتبين مقدار التقاء الفلسفة الديكارتية مع الفلسفة السينوية في هذا المقام . يقول ديكارت :

« قد أستطيع أن افترض أن لا جسم لي ولا مكان أحل فيه ، ولكني لا أستطيع لهذا أن افترض أني غير موجود . بل على العكس ينتج قطعاً - بوضوح - من شكّي في حقيقة الأشياء أني موجود قد عرفت إذن أني جوهر ، ذاته وطبيعته التفكير ، ولا يحتاج في وجوده إلى مكان ولا يخضع لشيء مادي . وعلى هذه الصورة فإن (الأنا) أو النفس التي هي أساس ما أنا عليه ، متميزة تمام التميُّز من الجسم ، بل هي أيسر معرفة منه ، حتى في حال انعدامه لا

---

(1) كتب المستشرق الايطالي فولارني في مجلة اسلاميكا - Islamica - المجلد الثالث سنة 1922 فصلاً عنوانه « ابن سينا والكوغيتو الديكارتي » Aviema et il cogito يذكر أوجه الشبه بين الفيلسوفين وأثر الحواس والمخيلة عندهما ، لكنه يستبعد أن يكون ديكارت قد قرأ ابن سينا رأساً لقلة المطبوعات وعدم تداولها آنذاك ، ويرجح أن يكون ديكارت قد قرأه من طريق غليوم الاوفرني Guillame d'Auvergne رجح الدكتور مدكور أن يكون ديكارت قد عرف ابن سينا في ثنايا مؤلفات روجر بيكون . هذا فضلاً عن أن (الشفاء) تُرجم الى اللاتينية وطُبع عدة مرات في البندقية في النصف =

تكفُ هي أن توجد مع كل خصائصها[1] » .

لقد كان ديكارت هنا ينطق بلسان إبن سينا إذن ولكن في قالب جديد وحلّة قشيبة . ولا حرج عليه في ذلك ، بل هنا تكمن عبقريته . فليست العبرة بالنقل والاقتباس وإنما العبرة بما يفعل الشخص المبدع بمضمون هذا النقل وهذا الاقتباس . هنا تظهر القرائح وهنا تتجلّى العبقريات[2] .

= الأول من القرن السادس عشر . وقد ظهرت آخر طبعة منه عام 1546 ، أي قبل ميلاد ديكارت بخمسين سنة . أنظر الدكتور مدكور (في الفلسفة الاسلامية منهج تطبيقه) صفحة 191-194 وانظر أيضاً (بين انية ابن سينا وكوجيتو ديكارت) للدكتور عثمان امين ، مجلة الثقافة العدد 691 مارس 1952 صفحة 22-25.

(1) ترجمة النص عن (التأملات) للدكتور مدكور في المصدر السابق له صفحة 190-191. مع تعديل النص الثاني .

(2) انظر كتابنا أصالة الفكر العربي الفصل الثاني .

الفصــل التـاسع

انطلاقة العقل بين اللاتين وبين أجدادنا العرب*

سيداتي وسادتي

ليس من الممكن الوقوف على طبيعة العقل اللاتيني وموقفه من العلم في القرون الوسطى دون المرور بالسلطات الدينية التي جعلت من نفسها القيّم الشرعي على شؤون الفكر وكانت حجر عثرة في طريق أي بحث علمي . وإلى ذلك يرجع تكوين محاكم التفتيش Inquisition لتحرق وتقتل وتشرّد باسم الدين كل من نزعت به النفس الى جديد في العلم، وكل من كشف عن حقيقة من حقائق الطبيعة . أما العقل العربي آنذاك فمن الممكن اقتناصه بسرعة دون الرجوع الى أي سلطة دينية ، رغم أن العربي لا يقل تديناً عن نظيره اللاتيني ، إذ لم يعرف الاسلام ـ في عصور ازدهاره على الأقل ـ ذلك الحَجْر على العقول كما عرفته المسيحية الغربية في عصور ازدهارها . لقد كان العصر الذهبي للاسلام ـ أي عصر قوة الاسلام ـ عصراً ذهبياً أيضاً للعلم والفكر، بل ان عصور الانحطاط السياسي في الاسلام كانت عصور ازدهار علمي ، بينما نجد العكس في أوروبا اللاتينية . فكلما استقوت السلطات الدينية هناك ـ ولا أقول كلما استقوى الدين ، فالدين براء من كثير من تصرفات رجال الدين ـ ازدادت تحكماً في العقول وبطشاً بالأبدان . وبهذا المعنى فإن عصر أزدهار الكنيسة في

---

* نص الكلمة التي ألقاها المؤلف في الندوة العالمية الرابعة لتاريخ العلوم عند العرب . معهد التراث العلمي العربي جامعة حلب بتاريخ 21-26 نيسان ابريل 1987.

أوروبا اللاتينية كان عصر هيمنة على العقول وتسلط على الأذهان ومصادرة للحريات والمبادرات وتصفية للأجساد بالقتل والحرق والتمثيل بالجسم حياً وميتاً .

ولم يتنفس رجال العلم الصعداء إلا بعد صراع طويل أُنهكت فيه السلطات الدينية وفقدت الكثير من مواقعها التي طفق رجال العلم يحتلونها الواحد بعد الآخر حتى سقطت جميعاً أو كادت في بداية عصر النهضة . ومنذ الآن ستنشط الحركة العلمية في أوروبا ، وسينطلق الركب حثيثاً لا يلوي على شيء ، فلن يعوقه بعد اليوم عائق ولن يكيد له كائد .

ولننتقل الآن من الحكم العام ولندخل في التفاصيل لنرى الشواهد التي يقدمها لنا كلا الفريقين . لنبدأ أولاً بموقف اللاتين من العلم والعقل ثم نُثَنِّي بعد ذلك بموقف العرب وأثرهم في الحركة العلمية ونهضة العلم .

1 ـ موقف اللاتين من العلم والعقل

لم تبلغ الخصومة بين العلم واللاهوت من الشدة ما بلغت في القرون الوسطى اللاتينية . فإنك لا تعثر في تاريخ الأديان كلها على تاريخ يشابه تاريخ الكنيسة في قيامها في وجه العلم أزماناً طوالاً بل قروناً متعاقبة . والسبب في ذلك أنه قامت لدى اللاهوتيين اللاتين فكرة ثابتة سيطرت على أذهانهم جميعاً وهي أن العلم لا يجوز مطلقاً ان يبشر بما يخالف أقل مخالفة ظاهر ما جاءت به الأسفار المقدسة والمتون ورسائل الحواريين ، كما يقول اندرو ديكسون وايت في كتابه (بين الدين والعلم) ص 19 .

لقد نظرت الكنيسة الى علم الفلك مثلاً خلال العصور الأولى نظرة القانع بأنه من الأشياء البائرة ، اعتماداً على حكمة وردت في التوراة مؤداها ان الأرض والسموات لا بد ان تزول سراعاً وانه سوف تكون سموات جديدة وأرض جديدة (الإصحاح الخامس والستون من سفر أشعيا) . فلماذا إذن إعنات النفس في درس السموات والأرض ما دامتا ستتبدلان عاجلاً أم آجلاً؟ . ثم إن الأجرام السموية كائنات حية لها أرواح وإلا لما ورد في التوراة انها تُغني معاً !

هـذا ، ومعتقد الكنيسـة في السماء مبني على مـا جاء في التـوراة من ان السماء قبة صلبة القوام رُكبت فوق الأرض ، وان الأجرام السموية أضواء معلقة فيهـا . حتى لقد أعلن القـديس فيلا ستريوس «إن إنكـار القـول بـأن الله يجلب الأجرام السموية من خزائنه كل ليلة ليعلقها في السماء ، هـرطقة صـريحة ! ». بل لقد أكد ان أي قول مضاد لهذا فيـه إنكار للعقيـدة الكاثـوليكية (بين الـدين والعلم) ص 32 . وكـان القديس ايـزيـدور يقـول بأنه : منذ خـطيئـة آدم قَلَّت الأضواء التي تنبعث من الشمس والقمر ، وأكد بناء على نصوص من سفر أشعيا ان الانسان متى خلص من أكدار هذه الخطيئة ، فإن الشمس والقمر سوف تعود اليهما أضواؤهما التي فقداهما بخطيئة الانسان ! (بين الدين والعلم) ص 33 .

كلكم قد سمعتم بغير شـك بالثـورة الكوبـرنيقية . لقـد كانت ثـورة على نـظرية بـطلميوس القـديمة التي كـانت تقول ان الأرض هي مـركـز العـالم وان الشمس والقمر يدوران من حولها ، لكن كـوبرنيقـوس (المتوفى سنـة 1543) قلب هـذا النـظام رأسـاً على عقب وقـال ان الشمس ، لا الأرض ، هي مـركـز العالم . هذا ما يسمى بالثورة الكوبرنيقية . لكن كوبرنيقوس لم يعلن ثورته هذه فور انبثاقها له . إنه لم يجرؤ على ذلك خوفـاً من زبانيـة محاكم التفتيش ، بـل لقـد ظلت جاثمـة في صدره أكثـر من ثلاثين سنـة قبل ان يـرى الأجواء مـلائمة لإعلانها في كتابه (حركات الاجرام السمويـة) ، كما لم يجـرؤ بطريـق الأوْلى على ارسال الكتاب إلى روما خشية أن تصـادره السلطات الدينيـة . وكذلـك لم يستطع إرسال الكتـاب إلى ويتنبرغ Wittenburg قـاعدة البـروتستانت الـذين لم يكونوا أقل عداء للعلم من زعماء الكاثـوليكية كمـا سنرى في حينـه (بين الدين والعلم) ص 45 . وبعـد لأي وتـردد وصعـوبـات كثيـرة طُبـع الكتـاب . وفي 24 / 5 / 1543 وصلت أول نسخـة منه الى حيث كـان الشيخ العـلامة الفـذ على فـراش الموت يُحتضَـر ! لقد نجـا المسكين ببدنـه من أولئك « الأتقيـاء » الذين كانوا سيـذيقونـه ألوان العـذاب لو لم تختـطفه المنيـة من أيديهم . واكتفـوا بأن يُنحت على قبـره هذا الـدعاء الـذي لا يخلو من دلالة ! « اللهم إني لا أسـألك غفراناً كمـا غفرت لبـولس ، ولا إحسانـاً كما احسنت إلى بـطرس ، ولكن إنما

أسألك ان تنعم علي كما انعمت على اللص وهو معلق فوق صليب الإعدام ولم يشيروا بكلمة واحدة إلى اكتشافه العظم (بين الدين والعلم) صفحة 46 .

ووقع الكتاب العملاق في يد غـاليليو (المتـوفَّى سنة 1642) وهـو أيضاً من عمالقة الفكـر الأوروبي على تخوم العصـر الحديث بـل ومن صناع العصـر الحديث . فتلقفه في الحال وآمن به وأخذ يذيعه بل لقـد مضى يبرهن على انـه الحق الذي لا شبهة فيه، مستعيناً بمنظاره الجديد الذي كـان لم يكد يفـرغ من اختـراعـه بعـد . فمنعـوه من تـدريس علم الفلك أو منـاقشتـه بحسب قـواعــد كوبرنيقـوس ، كما حـظروا كل كتـاب يبشر بـدوران الأرض (بين الدين والعلم ص 48) . وهكذا أصبحت قراءة كتاب كوبرنيقوس إثماً لا يوازيه عقاب سـوى اللعنة الأبدية ! ومع ان المبشر اليسوعي جوزيف أكوستا J.Acosta قد هدم كثيراً من القواعد التي كان يقوم عليها علما الفلك والجغرافيا في ذلـك الزمـان ، فقد حارب مذهب كـوبرنيقـوس ، بل أعلن بـلا رهبة ولا حيـاء أنه رأى بعيني رأسـه القـطبين اللذين تدور عليهمـا السموات كمـا تدور الـرحى على قطبيهـا ! (بين الـدين والعلم ص 48) كما ان بـطرس أبيان P.Apian ـ وكـان رياضيـاً عـظيمـاً واستاذاً في علم الفلك ـ لم يجرؤ على الـدفاع عن كـوبرنيقـوس . فهو مـوظف مطيع لقوانين كنيسة الله أمين على تقاليدها ومن أول واجباته تلقين مبادىء العلم السلمي ، ويقصـد بذلـك عدم الخـروج بالعلم عمـا ينص عليه ظـاهر الكتـاب المقـدس كما فسـره آباء الكنيسـة . ومضى هذا العـلاّمة الكبيـر على عهده في تلقين علم الفلك القديم .

*

ولم يكن البـروتستانت بـأقل من الكـاثوليـك حمـاسـة في مقـاومـة العلم واضطهاد أهله . فجميـع فروع الكنيسـة البروتستـانتية ، من لـوثريين وكلفـانيين وانغليكانيين . . ، قد تضافروا على محاربة المذهب الكويرنيقي . وانضم اليهم المتطهرون ـ البيوريتان ـ واقتفوا خطواتهم لا حجة لهم سوى المشاهدة المباشرة وظـواهـر النصـوص ومقـطوعـات من مـزاميـر داود، وأمْـرُ يـوشـع للشمس ـ لا

للأرض ـ ان تقف . وكان كثير من أساتذة الجامعات يحلفون بالله جهد أيْمانهم ليكفرنَّ بمذهب كوبرنيقوس ولا يؤمنُنَّ به . بل لقد مُنع الأساتذة البروتستانت من أن يلقنوا لتلاميذهم شيئاً مما يكشف التلسكوب ، هذا الجهاز اللعين الذي إنما جاء ابتغاء الفتنة وليغوي الناس ويضلهم عن سواء السبيل . إنه رجس من عمل الشيطان ، وان الشيطان للانسان عدو مبين ! وظل صدى هذه الحملة يتردد حتى السنوات الأخيرة من القرن الماضي . حتى لقد وَصل التعصب بالبروتستانتية الحديثة الى حد طرد الكثير من أساتذة الجامعات الخاضعة لسيطرتها في الولايات الأمريكية المتحدة . بل إن الجامعة الامريكية في بيروت لم تَنْجُ هي أيضاً من حملة الطرد والمطاردة هذه (بين الدين والعلم) ص 56 انظر أيضاً ص 88-95.

لم تستطع البروتستانتية ان تؤيد العلم ، لأنها أقامت صرحها على كتاب مقدس معصوم عن الخطأ.. فرفض لوثر فلك كوبرنيقوس لأن التوراة تحدثت عن وقوف الشمس بأمر يوشع لا عن وقوف الأرض « الساكنة » بطبيعتها ، كما رفض العقل لأنه ينزع بصاحبه الى الكفر . أما ملانكتون فكان ميالاً الى العلم لكن روحه السمحة طغت عليها طبيعة استاذه القوية وهيمنت عليها لوثرية ضيقة الأفق بعد موت لوثر . أما كالفن فلم يكن به كبير تقدير للعلم . يبقى نوكس فهو من هذه الناحية لا في العير ولا في النفير (قصة الحضارة 27 /115 و 171) .

*

والحق أن الكنيسة الكاثولوليكية لم تناوىء النظرية الجديدة ما دامت هذه النظرية تعرض ذاتها على أنها مجرد فرض يخامر الأذهان (قصة الحضارة 138/27) لكن النظرية الجديدة لم تتوقف مع ذلك عن الذيوع والانتشار وكانت كل يوم تكسب المزيد من الأنصار . والويل لمن يتحدث عنها أمام أي مرجع ديني أو مسؤول كنسي . ووقع المحذور على مسمع من البابا نفسه . فقد زل اللسان مرة أمام قداسته بالفيلسوف الايطالي جيوردانو برونو (المتوفى سنة 1600) فتحدث المسكين عنها وأفاض ظناً منه أن صاحب القداسة سيتلقاها بصدر رحب ، وكانت القاضية . فحوصر في مدينة البندقية وقُبض عليه وأودع

أحد سجون محكمة التفتيش بروما ستة أعوام ثم أُخرج من السجن ليُحرق حياً (بين الدين والعلم ص 56) لم تمض ستة أعوام على استشهاد برونو في سبيل العلم حتى جاء غاليليو بدليل جديد يؤيد به مذهب كوبرنيقوس . فقد قيل لكوبرنيقوس قبل أن يموت بأعوام : لو كانت نظريتك صحيحة حقاً لكان من الممكن رؤية أوجه كوكب الزُهرة كما نرى أوجه القمر . فأجابهم إنكم على حق، هذا كل ما في جعبتي الآن ولا بد أن يثبت ذلك في يوم من الأيام . وقد أثبتت الأيام بالفعل نبوءة كوبرنيقوس وكان ذلك سنة 1611 أي بعد 61 سنة من وفاته ، وذلك عندما أظهر منظار غاليليو ـ رغم رداءته ـ أوجه الزُهرة لأعين الناظرين (بين الدين والعلم ص 57) .

ولكن أحداً لا يريد ان يرى ولا أن يسمع . فقد كان على الدراسات العلمية والعقلية ان تحارب من أجل الحصول على التربة والهواء في غابة من الخرافة والتعصب والتخلف والسحر والشعوذة والخوارق وقراءة الكف والقوى الخفية ، وحيث لم يكن الأمراء والحكام يجسرون على القيام بحملة أو واقعة أو رحلة أو تشييد بناء إلا بعد استشارة المنجمين . وسكنت العفاريت في كل مكان وبخاصة في مخدع الانسان . وينسب اليها بعض الرجال ما يُسلب منهم بالليل كما نسب اليها بعض النساء ما يصيبهن من حمل في غير أوانه . واجمع رجال الدين على أن هذه الكائنات الخبيثة لها وجود حقيقي . وكانت كتب السحر من أروج الكتب في ذلك العصر . ولقد عُذب أحد الأساقفة وجُلد وأُلقي به في النار بعد ان اعترف بأنه أحرق تمثالاً من الشمع للبابا يوحنا الثاني والعشرين آملاً ان يلقى البابا مصير تمثال الشمع كما يقول فن السحر ، كما أمر هذا البابا نفسه بقتل عدد من الأشخاص لأنهم قد دبروا اغتياله مستعينين بالشياطين ! ودفع إدوارد الثالث مبلغاً باهظاً من المال للحصول على قارورة كان على يقين من أنها من مخلفات القديس بطرس ، كما عُرضت على شارل الخامس ملك فرنسا قارورة قيل إنها تحوي بعض دم المسيح (قصة الحضارة 121-113/23) .

في هذا الجو جاهد العلم وجاهد غاليليو وفي هذا الجو لوحق واضطُهد

وعُـذب . وقامت أول حملة على غـاليليـو سنـة 1610 عنـدمـا أعلن ان منـظاره استطاع ان يكشف للعين عن أقمار المشتري، وبذلك خرجت نظرية كوبرنيقوس عن حيـز الفرض والتخمين لتصبـح حقيقة علمية ثـابتـة . ورفضـوا الاستعـانـة بـالمنظار كمـا ذكرنـا لأن النظر من خـلاله كفـر . وإذا قبل بعضهم النـظر ورأى الأقمار بالفعل ، أنكرها على اساس أنهـا أوهام وخيـالات من عمل الشيـطان ! (بين الـدين والعلم ص 61) إن اعظم بـرهان على كـذب نظريـة كوبـرنيقوس وقوف الشمس للنبي يوشع ! وظل منظار غاليليو يجوب أنحاء السماء فـاكتشف ـ ويا لهول ما اكتشف ـ اكتشف جبالاً ووديانا على القمر ! وهذا مخـالف لما جـاء في سفر التكوين من أن القمر ضوء عظيم ! .

ليس من الجـائز أبـداً النظر الى السمـاء . جـاء في الكتـاب المقـدس : « أيها الجليليون ، ما بالكم واقفين تنظرون الى السماء ! » . فهذا نص صريـح على تحريـم النظر الى السماء ! وإذا كان المنظار الذي وظيفته النظر الى السماء من عمـل الشيطان «فـإن علم الهندسـة رجس من عمل الشيـطان أيضاً! هـذا ما أعلنه الأب كاتشيني Cacchini مستنداً الى الآية المذكورة، فخلعت عليه الكنيسة حُلل الشرف بأن رفعت منزلته وكالت له عبارات الإطراء والمـديح والثنـاء (بين الدين والعلم ص 63) .

وصـدر الأمر لغـاليليو بـالإقلاع عن آرائـه السابقـة وعدم تلقينهـا لأحـد أو نشرها أو الدفاع عنها ، فاستسلم المسكين لقضـاء القوة . وكـان محظوراً عليـه أيضـاً حق الدفـاع عن النفس . ولم يقتصر الأمـر على هـذا ، بـل إن السلطات الدينية ، وقد عجزت عن وقف انتشار الأفكار الجديدة قـطعت عن غاليليـو راتبه في جامعة بيزا . ويبدو ان كل ذلك لم يكن كافياً في أعين زبـانية الفكر، فصدر اليه الأمر السامي بأن يعلن جاثياً على ركبتيه براءته من النظريـة الجديـدة ولعنها وعدم مشايعتها والاعتراف بهرطقة الاعتقـاد بها . ثم أعيـد إلى السجن ، وبعد هـذا الاعتراف ضـرب الأرض بقدمـه قائـلاً : « ولكنهـا تـدور » ! (بين الـدين والعلم ص 79 / 80) .

وصدرت الكتب تلو الكتب «للرد » على نظرية كوبرنيقوس . وتتراوح هذه

الردود بين التسفيه والسباب وبين الحجاج السخيف المتهافت . فالأب اليسوعي ملشوار انخوفر Malchoir Enchofer مثلاً يخرج علينا بهذا الحكم الغريب : « ان القول بحركة الأرض أخس جميع الهرطقات واكبرها إثماً وأقذعها قذفاً ، وأشدها في الدين قدحاً . وان ثبات الأرض معتقد مقدس ثلاثاً : فإن البرهنة على فناء النفس وإنكار خلودها ونفي وجود الله وانكار التجسد (كل اولئك) أشياء يمكن التسامح فيها قبل التسامح في البرهنة على حركة الأرض » ! (بين الدين والعلم ص 73) . ولعل من اطرف الحجج التي وردت في معرض الرد على غاليليو تلك التي أدلى بها اسكيبيوتشيارمونتي Scipio Chiarmonti لا فُضَّ فوه: للحيوانات التي تتحرك أطراف، أما الأرض فليس لها أطراف ولا عضلات، ولذلك فهي لا تتحرك . إنها الملائكة تحرك زحل والمريخ والشمس وغيرها في دورتها . فلو كانت الأرض تدور إذن لأُوكِل ذلك الى مَلَك في مركزها يدفعها الى الحركة، ولكن لا يأوي في مركز الأرض سوى الشياطين، فلابد أن يكون شيطاناً ذلك الذي يعطي قوة الحركة للأرض (بين الدين والعلم ص 84) .

وسار كل شيء وكأن السلطات الدينية قد كسبت المعركة . وابتهج رجالها حين ظنوا انهم اقتلعوا جذور المذهب الجديد من النفوس وحين أدرجوا في (الفهرست Index) ـ أي الكتب المحظور قراءتها ـ خير ما تفتقت عنه العقول والقرائح حتى ذلك العهد . ولم تتوقف حركة اضطهاد العلماء والمفكرين وتحقيرهم وإلصاق التهم بهم . فعُذب كامبانيلا وقضى في السجن 27 عاماً ، كما اضطُهد كبلر وسُجن هو أيضاً وذاق الوان البؤس والحرمان، واتُّهم بأنه يحاول ان يرمي مملكة المسيح في أحضان الفوضى بتخيلاته الفاسدة ، وهوجم نيوتن وسُفهت آراؤه وصُبت عليه اللعنات لأنه أنزل العناية عن عرشها ، وبقي طوال حياته يُنظر إليه بالريبة والحذر (بين الدين والعلم 99 ـ 103) . وظل الأمر على هذه الحال الى ان جلس على كرسي بطرس رجل مستنير هو البابا بنيديكت الرابع عشر الذي أخذ يبحث الأمر بنفسه ، وذلك سنة 1757 . فقرر مجمع الفهرست سراً ان الكنيسة لا تعارض في انتشار مبادىء كوبرنيقوس وتناوُل المؤمنين لها بالدرس والتمحيص . هذا أول الغيث . كما صدر سنة

1820 قرار من مجمع وزراء الفاتيكان المقدس بتلقين مذهب كوبرنيقوس وتعليمه على أساس أنه حق ثابت ، وعزز البابا بيوس السابع هذا القرار . وبعد 15 سنة من هذا القرار ، أي سنة 1835 حُذفت من قائمة الكتب المحظورة أسماء الكتب التي كانت تبرهن على حركة الأرض (بين الدين والعلم 102 ـ 105) . ثم أخذت السلطات الدينية أمام ضغط الحقائق العلمية تتراجع وتتنصل من قراراتها السابقة بمختلف الحجج والمعاذير الواهية ، وانحوا باللائمة على الكرادلة وأعضاء محكمة التفتيش ومجمع الفهرست . هؤلاء هم المسؤولون لا البابا المعصوم عن الخطأ ، هذا رغم ان جميع قرارات الاتهام لا تصبح نافذة إلا مقرونة بتوقيعه المقدس (انظر بين الدين والعلم 108 ـ 116) .

وكما لم يستتب الأمر لنظرية حركة الأرض إلا بعد نزاع وصراع ، كذلك الحال في نظرية كروية الأرض ، وان كانت المقاومة أقل شراسة في هذه المرة لأن العقول بدأت تتمرس بالحقائق العلمية الصارخة .

فكل حقيقة جديدة تُكتشف تهيء الأجواء لحقيقة جديدة أخرى ، وكل ثورة في العلم والفكر تمهد السبيل لثورة أكبر . ومع ذلك وُجد من يعارض نظرية كروية الأرض وكان البروتستانت على رأس المعارضين . فإن لوثر وميلانكتون وكالفن قاوموا هذه النظرية وشنّعوا عليها حتى الرمق الأخير حتى إن زوينغلي Zwingli على الرغم مما خُصَّ به من سعة الفكر ، قد رفض النظرية الجديدة بعناد لمخالفتها لنصوص الكتاب المقدس . فهذه النظرية فضلاً عن أنها تخالف الحس الظاهر والكتاب المنزَّل تنطوي على استنتاج خطير فوجئت به الدوائر الكهنوتية من شأنه أن يهدد أساساً من أسس العقيدة ، أو هذا على الأقل ما بدأ لقصيري النظر لأول وهلة . فإذا كانت الأرض كروية ، فما حكم سكانها الذين يقطنون في الجهة المقابلة من الأرض ، أي للجهة التي نقطن فيها نحن ؟ من هنا نشأت فكرة الانتيبود Antipode والتي كان لها أنصار كثيرون في العالَمَيْن اليوناني والروماني . ووصلت هذه الفكرة الى الكنيسة الرومانية المقدسة فتساءل لكتينيوس Lactance من رجال القرن الثالث وأوائل القرن الرابع :

هل يوجد انسان عنده ذرة من العقل يصدق أن على سطح الأرض بشراً مـواطىء أقدامهم أعلى من رؤوسهم ؟ وان المزروعـات والأشجار تنمـو الى أسفل ؟ وان المـطر والجليـد يصيب سـطح الأرض من تحت الى فـوق ؟ مـا هـذا إلا غـايـة الاحـالة ! وهبَّ آبـاء الكنيسـة الآخـرون يعـارضـون هـذه الفكـرة وعلى رأسهم القديس أوغسطين (المتـوفى سنة 430) . فمـع أنه أبـدى بعض العطف على الاعتقاد بكروية الأرض فقد هاجم فكرة الأنتيبـود لأن التوراة لا تـذكر شيئاً عن سلالة بشرية من أبناء آدم تعيش في الجهة المقابلة من الأرض . فالله الرحيم لا يسمـح للناس أن يعيشـوا في تلك الجهة رأفـة بهم وإلا فكيف يتسنى لهم رؤية المسيح عند عودته آخر الزمان ؟ (بين الدين والعلم = 151) . كما ان المزمور 19 يقول عن المبشرين بالإنجيل « وفي كل الأرض خرج منطقهم، وإلى أقاصي المسكونة كلماتهم». وها هو بولص الرسول يؤكد هذه الآية الكريمة في رسالتـه الى الرومانيين قائلاً : « بلى إلى كـل الأرض خرج صـوتهم وإلى أقاصي المسكـونة أقوالهم » . وينتهي القديس أوغسطين إلى القول بأن هؤلاء المبشرين ما داموا لم يصلوا الى مقر الأنتيبود ليكرزوا بالإنجيل المقدس ، فلا يمكن لبشر أن يكون موجوداً هناك . وكل من يقول بالأنتيبود فإنما يفتري الكذب على مزامير داود وعلى رسالة بولص ، ومن ثم على الروح المقدس الذي أوحى بذلك (بين الدين والعلم 152) .
وجاء بروقوبيوس Procope الغزي (من رجال القرن السادس) بحجة جديدة يؤيد بها حجة أوغسطين وهي أنه لوكان على الجهة المقابلة من الأرض بشر أمثالنا لوجب أن يذهب المسيح إليهم وأن يُصلب هناك مرة أخرى في سبيل خلاصهم (بين الدين والعلم 153) . ومع أن القديس بونيفاس (675 ـ 754) كان رجلاً راجح العقل فإنه لم يتردد لحظة في التنديد بهرطقة الأنتيبود ، إذ لا يمكن وجود بشر على الأرض لا تبلغهم رسالة الخلاص المسيحية ، وطلب من البابا زخاري (أو زكريا) Zacharie أن يؤازره في نقض مذهب الأنتيبود . ولم يخيب البابا رجاءه فأعلن من فوره أن هذا المذهب « عريق في الضلال أصيل في الإجرام » [والعياذ بالله تعالى] (بين الدين والعلم 155) .

حتى الآن كان المسؤولون يكتفون بالتنديد « السلمي » بـالانتيبود وتسفيـه

القائلين بها، إذ لم تكن محاكم التفتيش قد اشتد ساعدها بعد. لكن الأمر لن يستمر كذلك طويلاً. ففي أوائل القرن الرابع عشر رأت السلطات الإكليريكية في إيطاليا ان قراراتها لم تعد مجدية في ردع الناس وزجرهم عن الاعتقادات الضالة الآخذة في الانتشار. فالضرورة تقضي بأن يعمد أولو الأمر إلى آلات التعذيب لوقف التيار الآثم بعد ان اشتد ساعد محاكم التفتيش بعون الله تعالى. يجب استئصال الفساد من شأفته. ولم يفلت بطرس البانو P.Albano ـ وكان طبيباً مشهوراً يقول بالانتيبود ـ من محكمة التفتيش إلا لأن الوفاة قد أدركته قبل وصول قبضتها إليه. وفي سنة 1327 طرد شيكو داسكولي Cecco d'Ascoli من جامعة كولونيا وكان استاذاً مرموقاً فيها ثم أحرق حياً لا لشيء إلا لأنه استغل منصبه في الجامعة لتعليم مذهب الانتيبود وإفساد عقائد الشباب. كما اتهم أيضاً بأنه ساحر وبأنه يعلم الناس السحر (بين الدين والعلم 156). وعندما أعلن كولومبوس اكتشافه للعالم الجديد أهانه اسقف سيوتا Seuta في البرتغال وازدراه. كما حاربه طليعة علماء اسبانيا في ذلك الزمان وواجهوه بتلك النصوص المعروفة من مزامير داود ورسائل القديس بولص و « براهين » القديس أوغسطين. غير ان العلم قد انتصر انتصاراً ساحقاً سنة 1519 عندما قام ماجلان بسياحته حول العالم. وبذلك أثبت ان الأرض كروية لأنه دار من حولها. ففكرة الانتيبود إذن فكرة صحيحة لأن مرافقيه قد رأوا بأعينهم أولئك الخلائق الذين يعيشون هناك واحتكوا بهم وتحدثوا اليهم بلا واسطة ولا حجاب. ومع ذلك فإن الحرب لم تنته. فإن كثيراً ممن تحجرت عقولهم ظلوا طوال قرنين من الزمان ينكرون هذه الحقيقة.

هكذا كان دأبهم دائماً : معارضة كل حركة علمية جديدة وكل اكتشاف جديد باسم الدين والدين منهم براء. وبهذه العقلية الجاهلة المتحجرة استقبلوا كتاب (أصل الأنواع) وأعلنوا الحرب على صاحبه داروين وذلك في أواخر القرن الماضي وبدايات القرن الحالي. وإذا كانت حملات التعذيب والتحريق والتنكيل قد مضى عهدها، فقد استمرت حملات السباب والإقذاع والتقريع والتشنيع والبذاءة والطرد من الوظيفة. ففي كلية التثليث بكمبردج رفض هيوول

Whewell الملقب بالحكيم الكلي الحكمة ان توضع نسخة من كتاب (أصل الأنواع) في مكتبة الكلية . كما ان الدكتور « لي » Dr lee وفي سنة 1885 وصف دارون وأتباعه بأنهم «مبشرو البلاليع القذرة» قال توماس كارليل في حق دارون «إنه رسول عبادة قذرة» واستغاث. د. لينغ Laing عندما دفن دارون في كنيسة وستمنستر وفيها مقبرة ملوك بريطانيا وعظمائها فقال ان ذلك « برهان على أن انكلترا لم تصبح بعد بلداً نصرانياً . وأضاف : إن وضعه هناك كان تدنيساً ، وإن هذا الشرف لم يحظ به دارون إلا لأنه كان « الزعيم الذي قام بنشر المذهب الهزلي في نشوء الأنواع وتسلسل الانسان عن القردة » . وقال أحد محرري مجلة The christian بأن المعركة يجب أن تحتدم ليرى الناس أي الفريقين [الفريق الديني والفريق العلمي] في جانب الله وأيهما في جانب القردة والشياطين » ! حقاً لقد انتهى عصر قطع الأعناق لكن بقي عصر قطع الأرزاق ، والدليل على ذلك إقدام السلطات الدينية المهيمنة على التعليم في أمريكا على طرد جميع الأساتذة التقدميين في جامعات أمريكا وفي الجامعة الأمريكية ببيروت وذلك لانضوائهم تحت لواء دارون أو لأنهم ايَّدوا آراء تقوم على اساس نظرية دارون (بين الدين والعلم 309-311).

وإذا كانت البروتستانتية الأمريكية لا تتورع عن طرد العلماء الأكْفاء لاشتباهها في عقيدتهم الدينية فاحرى بالكاثوليكية الاسبانية المعروفة بتشددها ان تحذو حذو البروتستانتية في هذا المضمار . لذلك لم يكن غريباً أن تطرد الدكتور شيل اي مارانغو Chil y Marango ـ وهو اسباني من رجال المستعمرات المشتغلين بالعلم ـ لا لأنه يقول بنظرية دارون ، وإذن لهانت المصيبة بل لأن المسكين قد لخص هذه النظرية في مقدمة كتاب له عن جزر الكناري ذكر فيه بعض البراهين المؤيدة لها مما عثر عليه في هذه الجزر . ففزعت السلطات الدينية من هول الدلائل الجديدة التي تكاد تفقأ العين تأييداً للنظرية ، واعلنت ان ما جاء في الكتاب خطأ فادح بعيد عن التقوى . فصدرت الأوامر الى جميع الذين يقتنون الكتاب بتسليمه للسلطات الدينية . كما طرد المؤلف من حظيرة الكنيسة مشيَّعاً باللعنة والحرمان . (بين الدين والعلم 311) .

ورغم ان الكثيرين ظنوا ان الحملة على العقل والعلم والعلماء

والمفكـرين قد انتهت أو أوشكت على الانتهـاء ، فقد أعلن ولبـر فورس أسقف أوكسفـورد، وكان معـدوداً من رعاة الكنيسـة الانغليكانية، أن دارون قـد أجـرم أشنع جريمة حين حاول ان يحـدد فعل الله في فعـل الخلق (بين الدين والعلم 162) . وإذ لم يتمكن من حضـور احدى جلسـات الجمعية البـريطانيـة لتقدم العلوم بسبب مرضه ، حمد الله في خطبة ألقاها بعد ذلك لأنه ليس متحـدراً من نسل القردة . فردّ عليه هكسلي . لو خُيرت لفضلتُ ان اكون من نسل قرد دنيء على أن يكون أبي رجلاً من البشر يستخدم معلومـاته ومعـارفه وقـوته الخـطابية في تحقير أولئك الذين يُفنون أعمارهم الطيبـة في سبيل البحث عن الحقيقـة. وفي خطاب القاه الكردينالماننع Manning أمام أعضاء الأكاديمية ، هوجم المذهب الطبيعي الجديد ورُمي بالتجـديف ووُصف بأنـه « فلسفة وحشيـة إذ تقضي عقلاً بعدم وجود الله ، وبأن القرد هـو أبونـا آدم » (بين الدين والعلم 283) وسفهت جـريدة تـابعة للكنيسـة الانغليكانيـة نظريـة التطور لأنهـا تناقض نصـوص العهد القديم والجديد . فإذا كنا جميعاً قروداً وأصدافاً وبزاة نشأنا من جرثومـة أصلية واحـدة فهل يمكن ان يكـون من قبيل الخـطأ قول القـديس بولس العـظيم بـأن الأبـدان مختلفة ، وتأكيده أن أبـدان الآدميين غير أبـدان البهائم والـوحوش وان أبدان هذين غير أبدان الأسماك والطيور ؟ (بين الدين والعلم 293) وفي سنـة 1873 نرى (مجلة الدين الشهـرية) التي صـدرت في بوسـطن، تزفّ الى قـرائها الكرام « بشرى هامة ، وهي أن الدكتور بـر Burr قد استـطاع بعون الله وتـوفيقه « أن ينقض » نظرية التطور وأنه أخمد أنفاسها و « رمى بها الى الكـلاب » (بين الـدين والفلسفـة 315). ووصفت (اللنـدن تايمـز) كتـاب (تسلسـل الأنـواع) لدارون بأنه عبارة عن نظرية وهمية مليئة بقضـايا لا أسـاس لها وأبحـاث لعينة ، وتـأملات لا نتيجـة لها سـوى تفكيـك إلفـة العقـل . كمـا ان الـدكتـور دفـولت Duffulit أعلن من جـامعـة بـرنستـون بـأمـريكـا الحـرب على دارون ونـظريتـه الكـافرة ، وهـدد في مجلة الجـامعـة بـأن الـذين يقبلون نتـائـج هـذه النـظريـة سيُحشرون يوم القيامة مع أولئك الذين لم يعرفوا الله في هذه الحياة ولم يطيعـوا أوامر إنجيله كما نزل على ابنه (بين الدين والعلم 300).

*

وإذا كان هذا هو موقف السلطات الدينية في امريكا فهل يمكن ان يكون موقف هذه السلطات في أوروبا ذات التقاليد الكاثوليكية العريقة أقل حماسة واندفاعاً في مهاجمة دارون والتنديد به ؟ لذلك لم يكن غريباً قول بيمان Bayman في مجلة (عالم الكثلكة) : لنا الحق أن نعتقد ان دارون ليس سوى بوم ينطق باسم تلك الفئة الكافرة المجدفة التي ليس لها من غرض إلا القضاء على فكرة وجود الله (بين الدين والعلم 295) وقال المونسينيور سيغور Ségur الذي أصابته الهستيريا عند ذكر دارون « ان هذه المذاهب المرذولة لا يؤيدها إلا أحط النزعات وأسفل المشاعر . فأبوها الكبر ، وأمها قذارة النفس . . مذاهب ما خرجت إلا من جهنم ولن تعود إلا اليها ، ومعها تلك المخلوقات الغليظة التي لا تعلوها حمرة الخجل عندما تعلن تلك المذاهب وتدافع عنها» (بين الدين والعلم 296) ودعا روجمون Rougemont في سويسرة الى القيام بحملة صليبية جديدة للقضاء على هذا المذهب الآثم المفسد واستئصال شأفته . غير ان أسخف ما جاء عن الكنيسة الرومانية المقدسة رد الدكتور قسطنطين جيمس الحكيم الكاثوليكي الفرنسي في كتابه (الداروينية او الانسان القردي) الذي نشره بباريس سنة 1877 والذي قذف فيه كتاب دارون بكل أنواع الاحتقار . وقال ان كتاباً كهذا لا يمكن ان يكون أكثر من أضحوكة كبيرة . وأثنى البابا بيوس التاسع المعصوم عن الخطأ على كتاب الدكتور قسطنطين الذي تقصّى فيه عقيدة الزيغ الدارويني . وندد قداسته بهذه النظرية التي جردت الانسان من انسانيته وانزلته منزلة السوائم غير العاقلة . ان الفسق والفساد والزيغ عن جادة الدين . . . كل أولئك يجب نقضه بالعلم الصحيح كما فعل الدكتور قسطنطين . هكذا تكون الكتب وإلا فلا ، لا . ثم شكره البابا ومنحه البركة الرسولية ، كما منحه أيضاً رتبة من سيامة القديس سلفستر البابوية . حتى ان أسقف باريس هنّأه على ذلك وأكد له ان أحداً غيره لم يفز بمثل هذا العطف السامي !! واقترح عليه ان يعمل على إعداد طبعة جديدة للكتاب ينظر فيها نظرة أعمق في حقيقة الصلة بين سفر التكوين ومستكشفات العلم الحديث . ولم يخيب الدكتور قسطنطين آمال الأسقف . فكتب طبعة جديدة بعد ان عرض عليه

تجارب الطبع أولاً . وظهر الكتاب في سنة 1882 في حلة قشيبة وعنوان طويل لا تخفى دلالته (موسى ودارون : رجل التكوين مقارناً بالرجل القردي . أو التربية الدينية بإزاء التربية الالحادية). ولا غرو بعد ذلك ان نرى الأسقف يعانق مؤلف الكتاب « العظيم » شاكراً إياه باسم العلم والدين معاً هذا الانجاز الفذ ، قائلاً له وهو يتهلل فرحاً لقد حصلنا أخيراً [بعون الله تعالى] على كتاب نستطيع ان نضعه بين أيدي الناشئة آمنين مطمئنين (بين الدين والعلم 298 و 300) .

على ان هذه الصور العدائية كانت آخر صور الحُمَّى التي انتابت النظرية اللاهوتية . وتوقف النزاع الكبير أخيراً بين جامعات أوروبا وامريكا وبين النظريات الجدية وكسب العلم المعركة . حتى إن أحد المتعصبين للمذهب الكاثوليكي الروماني المقدس من رجال المدرسة الانكليزية وهو المحترم مستر روبرتس Rev. Mr Roberts أعلن بلا مواربة ولا التواء ان الوقت قد حان للاعتراف بالحقيقة . فالبابوات كانوا كلهم على خطأ في محاربتهم لغاليليو واستخدامهم معتقد العصمة البابوية ذريعةً لتحريم الكتب التي تبرهن على حركة الأرض (بين الدين والعلم 118) وأيده في ذلك سان جورج ميڤارت St. G.Mivart وهو كاثوليكي نابه . فكتب مقالاً اعترف فيه بسلامة موقف روبرتس معلناً أن الله قد ابتلى البابا والكنيسة بالوقوع في الخطأ الفاحش في حكمهم على نظرية كوبرنيقوس ليُذكِّرهم بأن العلم شيء والدين شيء آخر . ففي حكمهم هذا قد تدخلوا فيما لا يعنيهم . لأن القوامة على الحقائق العلمية متروكة للعلماء وحدهم ولا شأن لرجال الدين بها . ولأول مرة في التاريخ أعلن رئيس اساقفة منشستر المحترم ويلسون ـ وذلك سنة 1892 ـ قبوله للمذهب الداروني ، دون أن ينسى المطالبة بمواصلة البحث للتوفيق بينه وبين العقيدة الدينية . وقد أسهم هو بنصيبه في هذا السبيل معتمداً على بيانه وتفيهقه (بين الدين والعلم 312) وبدأت منذئذٍ محاولات التوفيق بين الدين والعلم ووضع القواعد والأصول لهذا التوفيق . وذلك ممكن لمن تمرس بالجدل والمهارة في تأويل النصوص وتحميلها فوق ما تحتمل ،في ضوء تلك الحكمة الخلاصية

التي تنسب الى الكردينال بارونيوس Baronius الذي قال : «ليس من شأن الإنجيل المقدس أن يعرّف الناس حركات الأفلاك كيف تسير ، بل من شأنه أن يعلمهم كيف يسيرون الى الملكوت السماوي » . أما الذين اضطهدوا رجال العلم وطاردوهم وأحرقوهم أحياء ومثّلوا بجثثهم أمواتاً فمن الممكن تبرئة ساحتهم بالكلام المنمق الفضفاض والحماسيات المزخرفة والجمل الخطابية التي تنضح بالرياء والنفاق . ورحم الله الضحايا !!!

ومما تُحمد عليه الكنيسةالكاثوليكية ان البابا الثالث عشر (المتوفّى سنة 1903) أحدث تغييراً كبيراً في قوانين مكتبة الڤاتيكان . فبعد أن كان الاطلاع على المستندات القديمة محظوراً إلاّ على بعض المحظوظين من رجال الاكليروس ، سمح هذا البابا الحر المستنير بالاطلاع على هذه المستندات ومناقشتها مناقشة حرة. لقد ولّت أيام المونسنيور ماريني السوداء وعفت آثارها. ان مكتبة الفاتيكان بما تنطوي عليه من المادة التاريخية الثمينة قد فتحت أبوابها للباحثين من الكاثوليك والبروتستانت بل لقد أُعطي هذا الحق لجميع رواد المكتبة على اختلاف نزعاتهم الدينية والمذهبية (بين الدين والعلم 124 ـ 125) .

وهكذا بدأت جامعات أوروبا وأميركا تبحث النظريات العلمية الجديدة بلا تشنج ولا عُقد ولا حساسيات ، وأكب رجالها على البحث الموضوعي بما يستحق من العناية والتقدير دون نظر الى انعكاساته الدينية أو أبعاده الايديولوجية . فلا وصاية بعد اليوم على العلم والبحث العلمي ولا سلطة خارج سلطة رجال العلم . لقد أدبر عهد وأقبل عهد . ولن تتوقف المسيرة حتى يمحق ماحق ما سكان هذه الأرض . ومن يعش يره .

2 ـ موقف العرب من العلم والعقل

لقد قدمت حتى الآن صورة معبرة دقيقة أو تكاد لما كان عليه حال العقل والعلم في أوروبا اللاتينية منذ ابتداء العصور الوسطى حتى مشارف العصر الحديث . فالعصور الوسطى هي عصور الايمان والوعي الديني وتدفق العبقريات الدينية حتى لقد بلغ المد الديني أقصاه ليعقبه انحسار كبير . لقد

اكتسح المد الساح وآن له أن يُخلي الساح . من احتل موقعاً ناضل عنه وجاهد دونه . فالمسألة بالنسبة اليه هي مسألة حياة أو موت . فهو باق ما دام ثابتاً في موقعه متشبثاً به وإلا فالفناء والهلاك . وهذا ما يفسر تلك الهستيريا التي أبدتها السلطات الدينية بإزاء المخالفين والمبتدعين والتي أخذت تتزايد كلما اقتربنا من العصر الحديث . فالقتل والحرق والسِّجن . . . كلها وسائل تريد بها المؤسسة الدينية إثبات وجودها والاحتفاظ بمواقعها التي بدأت تتساقط الواحد بعد الآخر .

ولكن العرب لم يعرفوا هذه الهستيريا الدينية وإن عرفوا بعضها وبنوع مخفف جداً . فالاضطهادات الدينية تكاد تكون مجهولة في العالم العربي باستثناء بعض الحالات الشاذة التي أبداها الخوارج ، وإلا فهي اضطهادات سياسية وصراع على الحكم ونزاع على السلطة . فالعربي لم يضطهد المخالف له في الدين والعقيدة إلا إذا اشتم منه معارضة سياسية . وأما الدين فإنهم كانوا يتصرفون فيه على أساس ان الدين لله و « للبيت رب يحميه » . والسبب في ذلك في نظري يعود الى ان الأوروبيين كانوا دائماً محشورين في آخر بقاع العالم القديم في زقاق طويل إذا صح التعبير يُطل عل بحر الروم جنوباً ثم ينقفل على نفسه شمالاً وغرباً وينتهي ببحر الظلمات . هنالك نهاية العالم . إنهم وحدهم في مركز العالم وان بدا أنهم على حافة العالم . أما العرب فلهم شأن آخر يجعل موقفهم من الآخرين أكثر تعقيداً ، إذ تتداخل فيه عوالم مختلفة : لقد كان اللاتين هُم العالم . وأما العرب فقد كانوا جزءاً من العالم . ومن اللاتين انطلقت المركزية الأوروبية ومن العرب انطلقت المشاعية أو تعدد المراكز في العالم. فاللاتيني لا يعرف إلا الديانة المسيحية. بل لا يعرف إلا نمطاً واحداً من الديانة المسيحية وهو الكاثوليكية. ومن هنا توحيدهم بين المسلمين وبين الوثنيين الكفار . وجاء احتلال العرب للأندلس ليصب الزيت على النار . ومن هنا أيضاً كراهيتهم لليهود المجرمين الذين صلبوا المسيح . إن اللاتيني لا يتصور أبداً ديناً غير الكاثوليكية، وعليه تقع أعباء رسالة تنصير العالم لتُحقق له الخلاص ولو بالقوة المسلحة . وقد أخذت محاكم التفتيش ذلك على عاتقها وقامت به خير قيام . ولا يزال اللاتيني الحديث بعد

ان استتبع الانغلوساكسون والبرابرة وجرفهم معه بحكم وحدة الدين قبل انشقاق عصر الاصلاح . ـ أقول لا يزال اللاتيني الحديث كسلفه القديم يحمل في احدى يديه الصليب ويحمل الخنجر في اليد الأخرى . فالتبشير والإستعمار يسيران جنباً إلى جنب. لقد كان اللاتيني يعيش بين إرهابين إرهاب الكنيسة وارهاب الخطيئة الأصلية ، أو قل ارهاب القوة والأمر الواقع وارهاب فساد الطبيعة البشرية، وهم يريدوننا اليوم لنعيش بين إرهابين أيضاً: إرهاب الإستعمار والجنس الأبيض وإرهاب فساد طبيعة الأجناس الأخرى .

هذا هو حال اللاتيني في القرون الوسطى ، وأما العربي فله حال آخر . فحتى وهو في جزيرته النائية عن العالم كان لا يفتح عينيه إلا على الخلافات الدينية والمذهبية . فهو منذ أن يدب الوعي فيه يجد نفسه محاطاً بأديان مختلفة وعقائد متباينة . فلكل قبيلة آلهتها وأصنامها. وهناك النصرانية بشيعها المختلفة، وهناك اليهودية. وهو رغم عزلته لم تنقطع صلته بالعالم المجاور الذي يموج بالملل والنِّحَل والمذاهب والأديان والمعتقدات . . . فالتعدد جزء من نسيجه الثقافي . ثم جاء الاسلام فزكّى فيه التعددية وأعطاها دماً جديداً . فالاسلام يعترف بالأديان جميعاً ويقرها جميعاً بما في ذلك الأديان الوثنية «لكلٍ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة . . . فاستبقوا الخيرات » (قرآن كريم 5 /48) فالأديان مجعولة من قِبَل الله « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم » (11 /118) . فالعالم بالنسبة إلى العربي عالم مفتوح لا حدود له . ولكنه مُغلق من جميع الجهات أمام اللاتيني . لقد انفسح الأفق أمام قوم وضاق أمام قوم ، هل يستويان ؟

لقد انتقلنا الآن الى عالم آخر مختلف اختلافاً تاماً عما رأينا في العالم اللاتيني . انه عالم يقدس العقل ويؤمن بالعقل ويموج بالعقل . عالم أقام بنيانه على العقل وأقام للعقل صروحاً هي التي انطلقت بالعرب انطلاقتهم المظفرة، وقفزت بهم من ضحضاح الجهل والجاهلية الى آفاق العلم والعقلانية . لقد كانوا يتسكعون على هامش التاريخ ، فإذا هم بين عشية وضحاها في بؤرة التاريخ . ولم يكن ذلك إلا بالعقل والايمان بالعقل . فالأمم والدول

والحضـارات لا تقوم على غيـر صروح العقـل . فلم يُعرف في تـاريـخ العـرب الطويل محكمة كمحكمة التفتيش التي عرفتها أوروبا اللاتينيـة ، ولـم يحصـل ان حوكم مفكر أو عالم عربي بسبب رأيه المخالف لأصل من أصول الـدين . نعم هناك حالات قليلة نـادرة من الإرهاب الفكـري والقمع العقلي الـظالم . ولكنها فورات يقودها الجهال والحمقى (كـالخوارج والحنـابلة مثلاً) ولم تكن سيـاسة مرسومة للدولة ونظام الحكم ، إلا إذا كان للرأي الجـديد والفكـر المبدع أبعـاد سياسية خـطرة تهدد السلطات الحـاكمة . هنـالك تثـور الثوائـر وهنالـك يتحرك الجالس على الكرسي الوثير . هنالك فقط يتخـذ الدين ذريعـة لضرب صـاحب الرأي الجديـد . لقد كـانوا أوصيـاء على الدين فقط عنـدما يكـون الدين مـطية للحكم وليقُل بعد ذلك القائلون ما شاء لهم القول مهما كان مخالفـاً للدين ، ما دام الحاكم المتسلط لا يشتم رائحة تمـرد أو عصيان. إنـه يريـد إِبِلَهُ لا الدفـاع عن البيت الحرام، فللبيت رب يحميه كما قال أبو طالب لأبـرهة ملخصـاً لعقلية الحاكم العربي[1] .

ولعل هناك حالة واحدة فقط تنقض ما أقول ، وهي مسـألة خلق القـرآن . فقـد كـان المـأمـون يقـول إن القـرآن مـخلوق وينفـي أن يكـون كـلام الله أزلياً قديماً . هذه كانت عقيدة المعتزلة التي اقتنع المأمون بها فأراد فرضهـا على المسلمين، وعمد الى اضطهاد المنكرين لهـا وهم أئمة القـوم ووجوههم. وحتى هذه المسألة التي تُعد مأخذاً كبيـراً على المعتزلـة لم تحدث إلا انتصـاراً للعقل على اللاعقل ، انتصاراً للفكر التقدمي على الفكـر الرجعي . وهـذا مما يُشرِّف المعتزلة وان كان لا يُشرِّفهم أبداً فرض عقيدتهم بالقوة . ولكن الـرجعية الزمِّيتـة كـانت عاجـزة عن فهم أبعاد مسـألة خلق القـرآن واستيعابهـا كـاملة . فـلاذت بصاحب الكـرسي الـوثيـر ، وهـو رجـل عسكـري لا في العيـر ولا في

---

(1) عبارة تنسب على ما أذكر إلى أبي طالب جد النبي عليه السلام، قالها لأبرهة عندما استاق له إبلاً فيما استاق لأهل مكة في أثناء غزوه لها . فقدِم لمقابلة القائـد الجشي للمطالبـة بإبله ولم يهتـم بأمر مكة . لذلك ازدراه أبرهة . فقال له أبو طالب عبارته المشهورة : « للبيت رب يحميـه ، أما الابل فأنا ربها » ! وهي عبارة تدل على طبيعة العقل العربي في العصر الجاهلي وهو عقل مادي تجاري جلِف لا يدخل الدين في اهتماماته الأساسية .

النفير ، وأعني بـه الخليفـة المتوكـل على الله . فخشي على كـرسيـه وركب المـوجة قبـل ان تطيح به واستـولى على عرشه ينكل بـالمعتزلـة حكام الأمس ويفسـح في المجال لأهـل السنة ليكـونوا هم حكـام اليوم . ومنـذ ذلـك الحين ضعف شـأن المعتزلـة وأخذت الـدولة تتـرنح ويـدب الانحلال في أوصـالها . فالمتوكل لم يستطع الوصول الى مستوى المأمون الذي أراد التوفيق بين مصلحة الحكم ومصلحة العقل، وكان من القوة والثقة بالنفس بحيث فرض سلطان العقل عـلى الحـكم . لـقـد أراد أن يـأتي العقـل أولاً والـحكم ثـانيـاً، عـلى طـريقة المعتـزلة «العقـل قبل ورود الشـرع» «الحكم للعقل قبـل النقـل» (انـظر كتـابنا: من الفلسفـة اليونـانية الى الفلسفـة الاسلاميـة 631-635). ولكن خلفاءه منـذ المتوكـل غلّبوا الحكم على العقـل. فبدأت أركـان الـدولـة تميـد من تحت أقدامهم . إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل هام من أصول المعتـزلة الخمسة، فمن واجب المأمون ـ وهو أمير المؤمنين ـ أن يفرض على المؤمنين ما هـو في مصلحتهم بل الأصلح لهم . فقـد أداه اجتهـاده الى أن الأمـة مـا دامت تأخذ بشريعة العقل وما دام رائدها العقل ، فهي دولة قوية متقدمة ناجحة مسددة الخـطى . فـإذا انحــرفت عن الجـادة ، جـادة العقل، انتكست ونكصت على عقبيها . وهذا ما حدث من بعده . إنه يريد ان يرتفع بـالمؤمنين الى مستواه هـو لا أن يهبط الى مستواهم. ولكن أبوا إلاَّ أن تنتصر الغرائـز والمطامـع والأهواء. لقد كان المعتزلة في عصر المأمـون هم ايديولوجيي الـدولة والمخـططين لها ، بحيث تكـون التجسيد العملي السيـاسي الاجتماعي للمعقـول الـديني العـربي الاسلامي . وكانت هذه النزعـة متجلية في جميـع أعمالهم وأبحـاثهم . فكانـوا يسيرون وراء البرهان الى النهاية ويُثيرون أصعب المشاكل وأعقـدها ويتعـرضون لحلها . فإذا وصلوا الى نتائج قد تبدو مخـالفة لمـا ورد في آيات القـرآن تأولـوا هذه الآيات على مقتضى منـاهجهم في ضوء مـا وصـلوا اليه من نتـائج . حتى الحـديث نفسه يُعـرض على العقل ليُحكم بصحتـه أو وضعـه . كمـا ان صحـة العقـائد الـدينيّة تُعـرض هي أيضاً على العقـل وتُفسَّر تفسيـراً عقلياً ويُحتـج لها احتجاجاً عقلياً (انظر مثلاً ضحى الاسلام لأحمـد أمين ـ الجزء الثـالث الفصل الأول) . ولا غرو في ذلك ، فهم الورثة التـاريخيون لليـونان وعلوم الأوائـل .

فقد استطاعوا الوغول في صميم الموروث العقلي اليوناني واستيعابه دون سائر الفرق الاسلامية الأخرى . وكان لذلك نتائج هائلة في الفكر العربي الاسلامي ، وذلك من خلال مشاداتهم الكلامية مع أهل السُنة وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى . فاقتحموا منطق ارسطو وتبنوا قواعده واخترقوا النسيج الثقافي الديني بمفاهيم وتصورات وبنظام معرفي جديد كان من نتائجه ظهور فلاسفة الاسلام ونهضة العلوم التجريبية على أيدي أولئك الذين خرجوا لتوهم من الصحراء .

أجل لقد قرر المعتزلة سلطان العقل وبالغوا فيه ومضوا في ذلك الى غاية المدى . فلا حدود للعقل إلا براهينه ، ولا زلل ولا خطأ متى صح البرهان . فلنستعمل البرهان في أدق الأمور وأصعبها واعقدها وأشدها شكيمة ومراساً ، ففي استطاعة العقل الوصول الى الحق فيها . هذا هو منهج المعتزلة وهذا هو دستورهم في الفكر والعمل . فلا غرو بعد ذلك إذن أن يعود اليهم الفضل الأول في وضع الأسس الأولى لعلم الكلام وعلم البلاغة وعلم الجدل والمناظرة ، وان يكونوا هم رواد الروح العلمي القائم على الشك والتجربة والملاحظة ، حتى تراكم لهم من ذلك تراث كبير يتجلى خاصة في كتابات النظام والجاحظ وتلاميذهما الأقربين والأبعدين . كما أنهم كانوا المنفذ الأول الذي دخل منه فلاسفة المسلمين الى الفلسفة اليونانية ، لأن المعتزلة كانوا أول من استعان بالفلسفة اليونانية دون ان تسترقّهم أو تطغى على تفكيرهم ، بحيث يقفون أمامها مكتوفي الأيدي وقد شُلَّت عقولهم وضعف تمحيصهم وفقدوا حس النقد والقدرة على الحكم والتمييز . لقد كانت الفلسفة بين أيديهم وسيلة ولم تكن غاية ، كانت أداة للعمل يُسخرونها لأغراضهم ولم يكن تحصيلها قط غرضاً مطلوباً لذاته يجور على كل ما عداه ، ويستبد بصاحبه فيعمى ولا يرى إلا إياه . لقد أخذوا بمقدار وتركوا بمقدار ، كدأب الباحث الحر المختار .

وهكذا فلم يكن نشاط المعتزلة إذن محصوراً في علوم الدين وحدها بل لقد شمل علوم الدين والدنيا ، علوم العقل والنقل ، علوم الطبيعة وما بعد الطبيعة . وبفضلهم أصبح العقل العربي في العصر العباسي الأول عقلاً متفلسفاً كما أصبح عقلاً علمياً ، لا من حيث فهمه وفقهه لعلوم الأوائل فقط ،

بل كذلك من حيث اسهامه فيها وإضافته علوماً جديدة لم يسمع بها الأوائل، على نحو ما أضاف الخوارزمي والبيروني وابن الهيثم وابن النفيس وابن خلدون مثلاً . كذلك أظهر العقل العربي نضجه العلمي واستعداده لوضع العلوم منذ القرن الثاني للهجرة في ميادين لا شأن لها أبداً بعلوم الأوائل وإنما هي ترجع الى الخصوصية التاريخية والثقافية للعرب كما نرى ذلك في علوم اللغة. هذه هي طبيعة العقل إذا أومض في مكان تفجر في كل مكان ومنح أصحابه ومريديه ومن يلوذ بهم أو ينتسب اليهم الصولة والدولة والطاقة والقوة ، والسداد والرشاد ، فلن يضلوا بعد أبداً . فمن ملك العقل ملك العالم .

*

وما كان المعتزلة ليقفوا هذا الموقف الايجابي من العقل لو لم يجدوا في الاسلام الأرضية الثابتة للتحرك والعمل ولولا أنه أعطاهم الضوء الأخضر للسير في الطريق الصعب غير وجلين ولا هيابين . واني لاستميحكم العذر إذا أنا اقحمت الاسلام في هذه المسألة ، أي مسألة موقف العربي من العقل ، كما اقحمت المسيحية من قبل لمعرفة موقف اللاتيني منه . فأنا لا يمكنني معرفة موقف أي منهما دون الرجوع الى الاطار المرجعي الديني لكل منهما ، لأن الدين في القرون الوسطى جزء لا ينفصل عن النسيج الثقافي للفرد مسلماً كان أو مسيحياً. فأنا لا استطيع أن أعرف موقف العرب من العقل دون أن أربط هذا الموقف بالاسلام والقرآن ، كما لا استطيع معرفة الموقف اللاتيني دون أن أربطه بالمسيحية والكتب المقدسة، إذ لم يكن لأي منهما موقف مستقل عن الدين . فكلاهما صنعه الدين وكلاهما كان قريب العهد بالدين وكلاهما كان لا يحسن النظر الى الأمور نظراً مستقلاً عن الدين . وإذا كان لأحدهما أو كليهما موقف ما قبل الاسلام والمسيحية فمن المتعذر اليوم استخلاصه والوصول اليه بدقة .

ان موقف الاسلام من العقل واضح لا يحتمل اللبس أو التأويل . فهو لا يفتُرُ عن الدعوة الى العقل والتمسك بالعقل والأخذ بأحكام العقل وتحرير العقل من شوائب التقليد . وكم نعى القرآن على العرب الذين ناوأوه تحجرهم وجمودهم ووصفهم بأنهم قوم لا يعقلون ولا يفقهون ، وكم نعى على العرب

أيضـاً تقليدهم لأبـائهم وقولهم « إنّـا وجدنـا آباءنـا على أمـة وإنّـا على آثـارهم مهتدون » (قرآن كـريم 43 / 22) فردَّ عليهم متعجبـاً : « أو لو كـان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » ؟ (2 / 170) .

ولا أدل على اهتمام القرآن بالعقل وعملية التعقل من أن الآيات التي ورد فيها الفعل عَقَلَ بلغ عددها الخمسين آية نذكر منها مثلاً : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » (2 / 224 و 24 / 61) « وله اختلاف الليـل والنهار أفـلا تعقلون » (23 / 80) . « أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله . أفلا تعقلون » ؟ (21 / 67) . وشبَّه الذين لا يطيعون عقـولهم بالانعـام فقال عنهم إنهم « صم بكم عمي فهم لا يعقلون » (2 / 171) ! وقوله : « لهم قلوب لا يعقلون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام، بل هم أضل، أولئك هم الغـافلون» (179/7) . إن الآيات التي ورد فيهـا الفعل (فكًّـر و تفكَّر) بلغ عددهـا ثماني عشـرة آية تـذكر منهـا مثلاً « قـل هل يستـوي الأعمى والبصير . أفلا تتفكرون » ؟ (6/ 50) « الذين يذكرون الله قياماً وقعـوداً وعلى جنـوبهم ويتفكرون في خلق السمـوات والأرض . ربنـا مـا خلقت هـذا بـاطـلاً سبحـانك فقنـا عذاب النـار » (3 / 191) ووردت كلمة (ألبـاب) ست عشرة مـرة ، من ذلك مثلاً: « إن في خلق السموات والأرض واختـلاف الليل والنهـار لآيـات لأولي الألبـاب» (3|190) وقس على ذلـك الأفعـال (نَـظَر) و (ابْصـر) و (تـدبر) و (ذكـر) و (عَلِمَ) ومشتقاتهـا التي تكرر ورودهـا كثيراً في القـرآن وكلهـا تفيد معنـى التفكيـر والتأمـل والبحث (انظر المعجم المفهـرس لألفـاظ القرآن الكريم حيث تجد تعداداً دقيقاً لجميع هذه الألفاظ ومشتقاتها التي وردت في القرآن) .

ففي القرآن إهابة دائمة بالعقل والاحتكام الى العقل ودعوة ملحة صـريحة الى النظر والتأمل والتفكير في خلق السموات والأرض . بل لقد سمعت حديثـاً روي عن النبي عليه السلام يقول فيه « تفكير ساعة خير من عبـادة ألف سنة » . وحتى لو كان هذا الحديث موضوعاً فإنه يدل على قوة التوجه العقلي الذي طبع به القرآن فـريقاً من أحـرار الفكر العرب فجعلهم لا يجدون أي حـرج في وضع

الأحاديث التي تشيد بالعقل على لسان النبي شحذاً لأذهان إخوانهم واستحثاثاً لهم على التأمل والنظر . لقد وجدوا في القرآن الأساس والنواة والتربة ، فاندفعوا في الطريق الممهد المرسوم . إنهم لم يشقوا طريقاً جديداً بل مضوا في طريق قديم .

وعلى كل حال. إن هذا الالحاح الشديد على العقل والاحتكام الى العقل ، وهذه الدعوة الى التفكير والتدبر والنظر في خلق السموات والأرض ، شيء جديد بل بدعة جديدة في تاريخ القرون الوسطى وفي زمان احتضار الفلسفة اليونانية . بل يمكن القول إنه ثورة في تاريخ الأديان . لأن الأديان قبل الاسلام كانت أديان خوارق وخرافات وأساطير . الاحتكام الى العقل والاحتكام الى الأساطير ، هل يستويان ؟ هذا هو الجديد في القرآن . لقد انتهى عهد الأسطورة وجاء عهد العقل والاحتكام الى العقل ومن هنا رفض الاسلام المعجزات والخوارق . وكل ما ينسب الى النبي من معجزات وخوارق فإنما هي من صنع الخيال الشعبي .

فالقرآن إذن لا يمنع العقل من البحث والنظر واكتشاف المجهول، والسير وراء العلم وإخضاع الحياة للعلم والعقل الى آخر المدى . ولم يخرج المعتزلة عن الدين باحتكامهم الى العقل والسير وراءه . ولذلك انكروا الخرافات والأوهام والأحاديث التي لا تتفق والعقل ، ولم يؤمنوا بظهور الجن ، وقالوا بخلق القرآن ، ومع ذلك فالرأي قد اتفق على إسلامهم .

فلا غرو بعد ذلك ان يبدي العرب قدراً كبيراً من التسامح والمرونة بإزاء أصحاب الديانات الأخرى ، حتى الديانات غير الكتابية كانت مشمولة بالتسامح العربي أيضاً . بل حتى الالحاد والزندقة قد شملهما التسامح العربي كما سنرى بعد قليل . فما التسامح سوى الوجه الآخر للعقل في تعامله مع الخصوم والمخالفين . فلا يتزمت ولا يتعصب إلا قصيرو النظر ضيقو الأفق فكلما اتسع عقل المرء زاد تسامحه . فكيف إذا كان هذا التسامح جزءاً من العقيدة الدينية ؟

ولا أدل على ما اتسم به التاريخ العربي من تسامح من ظهور ما لا يقل عن مئة فرقة من الفرق الدينية ، ما بين سنتي 800 - 1100 ميلادية ، وهو أمر

قاطع في دلالته على مرونة وحيوية وانفتاح . إنـه وحده كـاف لينفي ما يُتهم بـه العرب من انغلاق وتحجر وتعصب وعجز عن التعاطي مع المخـالفين في الرأي والفكر . فإذا أضفنا الى ذلك إقبالهم على ترجمة كـل ما وصلت اليـه أيديم من آثار الأمم السالفة واستقدامهم مـا لـم تصل اليـه أيديهم بكـل الوسـائل المتـاحة لهم ، بالمال ، بـالحرب ، بـالمعاهـدات ، بالـدبلوماسيـة بالـوعود ، بالإغراء، بالاعفاء من الالتزامات المالية ـ إذا أضفنا ذلك كله عـرفنا عـظمة القـوم . هناك نهم شديد الى المعرفة ، ولا بد من إشباع هذا النهم ، ولا يشبعه مثلُ كتاب . يجب الحصول على الكتاب بأي ثمن ولو كان في آخر المعمور من الأرض الكتاب.

أجل لقد كان العالم العربي والاسلامي يموج بالفرق والمذاهب والعقـائد والخلافات . . . ولئن كان ذلك يضر بالوحدة الدينية والسياسية، فإنه وقود للفكر وإذكـاء له وتنشيط دائم لحـركته وآليـات العمل فيـه . فكـان هنـاك فِـرق السُنـة والشيعـة والخوارج والمـرجئة ، وكـان هناك المعتـزلة والأشـاعرة والمـاتـريـديـة والحشوية والظاهرية والصوفية ، وكان هناك أصحاب الرأي وكان هناك أصحاب الحـديث ، وكان هنـاك أصحاب العقـول وكان هنـاك أصحاب القلوب ، وكـان هناك الفلاسفـة النظريـون وكان هنـاك الفقهاء والمحـدّثون والمفسـرون ، وكان هناك المؤرخون والجغـرافيون والـرحالـة وعلماء اللغـة وأمراء البيـان . . . وكان هناك المسلمون والنصارى واليهود والمـانويـون والصابـئون والزرادشتيـون ، بل كان هناك الدهريون والملاحـدة والزنـادقة . لقـد كان هنـاك كل ذلـك وأكثر من ذلك . وكان الجدال سجالاً بينهم . لقـد كان جـدالاً « سليماً » بـلا محارق ولا محـاكم تفتيش ولا آلات تعذيب ولا اضـطهادات دينيـة أو مذهبيـة ، رغم قرب عهدهم بالإسلام وغيرتهم عليه وتعلقهم به وشـدتهم في المنافحـة عنه والجهـاد في سبيله . إنهم لم يفلسفوا الحرية الفكرية ولكنهم عاشـوها ، ولم يبحثـوا في حق إبداء الرأي ويضعوا فيه النظريات والقواعد ، ولكنهم مارسوه سلوكاً وعقيدة ومنهج حياة . ولكن خطأهم الأكبر أنهم قصروا ذلك على الـدين . فلو توسعـوا في حرية الفكـر وحقوق الـرأي فطبقـوها على السيـاسة لكـان لهم شأن آخـر ، ولكنهم لم يفعلوا فتركوا صاحب السلطان ينفرد بالأمر وحده وينفرد بالحكم دون

سائر المسلمين، ويكبحهم عن التطاول للمساهمة معه والمشاركة في السلطة، ويمضي في اصطناع الرجال واتخاذ الموالي والاستكثار من ذلك بجدع الأنوف وكمِّ الأفواه وقمع المخالفين والمتمردين. لقد كان شرَّ قومه بدلاً من أن يكون أسوة قومه، لا همَّ له إلا اكتساب المجد وجباية المال والتوسعة على صنائعه وحاشيته والكرم على بطانته، واصطناع أخدان السوء وإدرار أرزاقهم وتقليدهم جليل الأعمال والولايات، ولا يزال كذلك حتى يستنزف البلاد ويهلك الحرث والنسل والعباد .

لقد فهم أسلافنا رسالة الفكر فقهاً للدين ونصرةً للعقيدة وسبراً لأغوار الكون ومعرفةً لحقائق الأشياء وبحثاً في الطبيعة وما بعد الطبيعة، وتدبيراً لأمور الحياة وما بعد الممات . لقد برعوا في النظر والبحث ولكنهم اخفقوا في اتخاذ الأُهبة والحذر ، وردع السلطان قبل استفحال الخطر . نعم لقد ردعوا وبكّتوا وزجروا، ولكنه زجر الخاشع الباكي، وتبكيت اللوام الشاكي، لا ردع المُنظِّر المحلل العميق البصير الزاكي. وهذا ما يفسر لنا ضعف الفكر السياسي في تراثنا والضحالة التي تواجه بها مسألة السلطة. فإن أكثر تراثنا في هذا الباب تقريع ونصائح ومواعظ وحكم وأقوال مأثورة وقصص الأنبياء وسير الملوك والحكام يراد بها العبرة والأسوة والحض على الفضائل ومكارم الأخلاق ، هذا بينما نجد غنى يلفت النظر في نواحي الفكر الأخرى التي لا تمس السياسة . فالحكم القائم على القهر والغلبة يحدث انفصاماً بين الحاكم والمحكوم فيتخذ الفكر مسارب غير المسارب ويشق له قنوات غير القنوات ، وإلا انفجر في ثورات وفتن وأحداث لا تُبقي ولا تذر .

المهم أن سماحة العرب وتسامحهم بإزاء المخالفين لهم في الفكر والرأي والعقيدة لم يكن له نظير في تاريخ القرون الوسطى كلها ، ولا مثيل له إلا في الديمقراطيات الغربية اليوم . ونعني بالتسامح التسامح الديني وهو أن يكون لكل فرد في الأمة حق في أن يعتقد ما يراه حقاً وان يكون له الحرية في تأدية شعائر دينه كما يشاء ، وان يكون أهل الأديان المختلفة أمام قوانين الدولة سواء . فإذا نظرنا الى الاسلام في ضوء هذا التعريف وجدنا أنه من حيث مبادئه

وتعاليمه وتطبيقاته أرقى الأديان السماوية في تحقيق هذه المبادىء . وقد كان لعقيدة القضاء والقدر أثر كبير في هذا التسامح : فلو شاء الله لخلق الناس أمة واحدة ، ولكنه لم يشأ فلا تتدخلوا فيما لا يعنيكم ولا تحاولوا المستحيل . فاختلاف الأديان أمر حصل بعلم الله وبإذنه . وهو سنة من سنن الكون والحياة ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ـ إلا من رحم ربك ـ ولذلك خلقهم (قرآن كريم 11 / 118) فالاختلاف في أساس الخلق ، في أساس التكوين الانساني ، هذا ما يميز الانسان من الحيوان والنبات والأشياء ، فهناك دين واحد إذا صح التعبير ، ونظام واحد وقوانين واحدة وحتمية واحدة تسري على الكائنات جميعاً إلا الانسان . فالكون مليء بالحيوانات والنباتات والجمادات التي تقول «نعم» . فهي مطيعة لربها لا تخالف عن أمره . أما الانسان فهو الكائن الوحيد الذي انتفض في هذا الكون ليقول « لا » أو « دعني أفكر في الأمر » . وهذا ثمن ما يتمتع به من عقل . فإما أن تكون إنساناً وبالتالي يكون لك رأي وموقف ، وإما أن تكون أي شيء آخر بلا رأي ولا موقف . كل ما في الكون يخضع ويذعن إلا الإنسان فإنه يفعل ما يبدو له . الكون مليء بالحصى والحجارة والحديد والحمير والبغال ، ولكن الإنسان شيء نادر الوجود . ولذلك اختاره الله وحده ليكون خليفة له في الأرض « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » (قرآن كريم 30/2). أرأيتَ الى هذا التكريم العظيم ؟ نعم إن القرآن لم يقل كل ذلك تصريحاً ، ولكننا نجده بين السطور تلميحاً . إنه يخاطب الجماهير العريضة . وأما الفلاسفة فتكفيهم الإشارات اللطيفة المتناثرة هنا وهناك في القرآن . « إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » (72/23) . فالأمانة هي العقل ، وقد اختار اللّه الإنسان وحده من دون سائر الموجودات جميعاً ليختصه بأمانته . لذلك لا يجوز حمل الناس على الايمان بالقوة والإكراه ومعاملتهم معاملة الحيوان الذي لا يملك إلا الاذعان والخضوع . فلكل انسان عقيدته التي اقتنع بها فلا يتخلى عنها بسهولة « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » (48/5) . « لا إكراه

في الدين قد تبين الرشد من الغي » (256/2) ويظهر أن النبي عليه السلام حاول إكراه المشركين على الايمان محبة لهم وغيرة عليهم ، فعاتبه القرآن على ذلك بقوله : « أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » (99/10) . حتى ان القرآن نصح أتباعه إذا دخلوا في جدال مع اليهود أو النصارى بأن يجادلوهم بالحسنى « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقالوا آمنا بالذي أنزل الينا واليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» (29 46).

فلا غرابة بعد ذلك أن يبدي العرب قدراً كبيراً من التسامح والمرونة لأصحاب الديانات الأخرى . وحتى الديانات غير الكتابية كانت مشمولة بالتسامح أيضاً. بل حتى الإلحاد والزندقة قد شملهما التسامح . فابن الراوندي ـ وهو من أشهر ملاحدة القرن الثالث للهجرة وكان في الأصل معتزلياً ثم انشق عن المعتزلة ـ إن ابن الراوندي هذا أنكر النبوات والمعجزات وأنكر إعجاز القرآن وسخر من الملائكة الذين أنزلهم الله في يوم بدر لنصرة النبي ، وتساءل كيف لم يقتلوا زيادة على سبعين رجلاً بينما بلغ عددهم الخمسة آلاف ؟ (من تاريخ الالحاد في الاسلام 93) كما تساءل اين كانت الملائكة يوم أُحُد لما توارى النبي بين القتلى فزعاً ، وما بالهم لم ينصروه في ذلك المقام ؟ على حد قول إبن الراوندي . وكذلك اتهم إبن الراوندي النبي بأنه أتى من الأوامر والتكاليف بما كان منافراً للمعقول كالصلاة وغسل الجنابة ورمي الجمرات في الحج ، والطواف حول بيت لا يسمع ولا يبصر، والعدْو بين حجرين (أي الركن والمقام) لا ينفعان ولا يضران (المصدر السابق 101) . بل ان ابن الراوندي قد شتم النبي (ع) ونسبه الى الكذب وطعن في القرآن وقال ان فيه تناقضاً وفيه أخطاء لغوية . . . وقال إننا نجد في كلام أكثم بن صيفي أحسن من « إنا أعطيناك الكوثر » 101، 110، 113، 120). وطعن في آيات الأنبياء كابراهيم وموسى وعيسى ومحمد، فقال إنها مخاريق وان الذين جاءوا بها سحرة ممخرقون (111) وسخر إبن الراوندي أيضاً من وصف الجنة كما ورد في القرآن ، فقال ان أنهار اللبن ، وهو الحليب ، لا يكاد يشتهيه إلا الجائع ، وأما العسل فلا يُطلب صرفاً ، والزنجبيل ليس من لذيذ الأشربة ، والسُّندس يُفرش ولا يُلبس . وكذلك الاستبرق الغليظ من الديباج . فقال : ومن تخيل أنه في الجنة يلبس

هذا الغليظ ويشرب الحليب والزنجيل صار كعروس الأكراد والنبط (133) . وكان ابن الراوندي وأبو عيسى محمد بن هرون الوراق الملحد أيضاً يترامبان بكتاب (الزمرد) ويدعي كل واحد منهما على الآخر انه تصنيفه، لكنهما كانا يتوافقان على الطعن في القرآن (112) .

وهناك شخصية أخرى غير هذين تعد من أكبر الشخصيات التي عرفتها الحياة الفكرية العربية على مر عصورها ونعني بها أبا بكر بن زكريا الرازي. لقد كانت نظرية النبوة محور نقد الرازي للأديان . فالرازي كان لا يؤمن بالنبوة وكان نقده لها يقوم على اعتبارات عقلية وأخرى تاريخية . ففي كتابه (مخاريق الأنبياء) يبين الاختلاف بين الأنبياء وكيف أدى هذا الخلاف ـ الذي يصل أحياناً الى حد التناقض ـ الى النزاع بين أصحابها . ولئن دل ذلك على شيء فإنما يدل على بطلان النبوة (207) لأن النبوة لها مصدر واحد وهو الله . فالواجب ان يكون القول الصادر عن الله واحداً . وإلا نسبنا التناقض والاختلاط الى الله نفسه. ويقول الرازي أيضاً ان أهل الشرائع أخذوا الدين عن رؤسائهم بالتقليد، ودفعوا النظر والبحث عن الأصول، وشددوا فيه ونهوا عنه، ورووا عن رؤسائهم أخباراً توجب عليهم ترك النظر وتكفير من خالف هذه الأخبار . فإذا سُئلوا عن الدليل استطاروا غضباً وهدروا دم من يطالبهم بذلك ونهوا عن النظر، وحرّضوا على قتل مخالفيهم . وقال ان الانقياد لرجال الدين جاء من طول الإلف لمذهبهم ومر الأيام والعادة واغترارهم بلحى التيوس المتصدرين في المجالس (211-212). والرازي ـ كابن الراوندي ـ يرفض القول باعجاز القرآن ويقول انه مليء بالتناقض وأساطير الأولين ، ولا توجد فيه فائدة . ويأخذ على القرآن إسهابه وتطويله وتكراره، ثم يهاجمه من حيث الفصاحة والبلاغة ويقول ان في كلام البلغاء ما هو أشكل منه سجعاً ، أي أنضج وأكثر موسيقية . ويقول أيضاً ان الكتب العلمية أكثر فائدة ونفعاً من القرآن والكتب الدينية الأخرى ، ومع ذلك فالرازي ـ كابن الراوندي ـ لا ينكر وجود الله . وهما من هذه الناحية يشبهان ڤولتير : فجميعهم مؤمنون بالله وجميعهم كافرون بالأنبياء والأديان وجميعهم متشائمون يرون الشر في الوجود أكثر من الخير

(216 ـ 218) . وهذا ينطبق على جميع ملاحدة الاسلام الآخرين .

تُرى كيف قابل العقل العربي هذه الاعتراضات التي أصابته في قدس أقداسه (القرآن والنبي) وسخرت من عقائده ونسبتها الى الإلف والعادة والايحاء لا الوحي وتنزيل السماء ؟ هل عرفت العصور القديمة والعُصور الوسطى بل العصور الحديثة نقداً للأديان في عصر عبقرية الأديان ، أعنف من هذا النقد؟ لقد كان رد العرب سريعاً وحاسماً وقوياً حتى انقطع دابر الزنادقة الملحدين أو كاد، فلم نسمع بعد عصر الرازي بملاحدة كبار من معدن الرازي بل سنسمع بفلاسفة كبار وعلماء كبار . أجل لم يتأخر رد أجدادنا العرب على موجة الإلحاد، ولكنهم إنما ردوا بالعقل والمنطق والروية لا بالمحارق وآلات التعذيب التي فُتنت بها وافتنَّت فيها محاكم التفتيش في شتى أنحاء أوروبا اللاتينية . لم يردوا بالسيف بل ردوا بالقلم، وفي هذا الباب تدخل كتابات المعتزلة الذين قاموا بجهود كبيرة للرد على الزنادقة والملاحدة . كما تولى أبو حاتم الرازي والاسماعيلية الرد على أبي بكر الرازي ، هذا فضلاً عن علماء أهل السنة كابن الجوزي وابن عقيل والبلخي والسرخسي . ولم يتفق المسلمون من سُنة وشيعة على شيء اتفاقهم على رد غائلة الالحاد . جيوش من الأقلام جندت لإعلان الحرب على الالحاد، ولكن عسكرياً واحداً لم يدخل هذه الحرب. فعلام يدل هذا ؟ بل لقد وضع الفارابي نظرية في النبوة لا عهد لليونان بها جعلها أساساً هاماً من أسس فلسفته وجزءاً لا ينفصل من عملية اتصال العالم الأعلى بالعالم الأسفل . كما كانت مظهراً من مظاهر التوفيق بين الحكمة والشريعة . وقد تأثر بها ابن سينا وتوسع فيها وزادها قوة ووضوحاً ومنه انتشرت في الآفاق .

إن ايمان الزنادقة والملحدين بالعقل لا حدود له ، ولولا الايمان بالعقل ما انكروا النبوات وما طعنوا فيها . قال ابن الراوندي زاعماً أنه قول البراهمة : « ان البراهمة يقولون إنه قد ثبت عندنا وعند خصومنا أن العقل أعظم نعم الله سبحانه على خلقه ، وأنه هو الذي يُعرف به الرب ونعمه ، ومن أجله صحَّ الأمر والنهي ، والترغيب والترهيب . فإن كان الرسول يأتي مؤكداً لما فيه من

التحسين والتقبيح والاطلاق والحظر فساقط عنا النظر في حجته وإجابة دعوتـه . إذ قـد غُنينا بمـا في العقل عنـه ، والارسال على هـذا الوجـه خـطأ . وان كـان بخلاف ما في العقـل من التحسين والتقبيح والاطـلاق والحظر ، فحينئـذٍ يسقط عنا الأقـرار بنبوتـه » (80) . وعن هذا الإيمان بالعقل أيضاً صـدر الـرازي في إنكاره للنبوات والرسالات . فقد أثنى على العقل في كتابه (الطب الروحـاني) وأشاد به بلهجة « لا نكاد نجـد لها مثيـلاً عند كبـار العقليين في كل العصـور ، حتى في العصر الحديث . فالفلاسفة اليونانيون كانوا مع الايمان بسلطان العقل يتركون مجالاً للوحي والالهام بل لنوع من النبوة، كما يظهر لدى أفلاطـون. فكأن الرازي إذن قد ذرَّف على أستاذه وزاد فكلاهما كان يشايع أفلاطون. وفي العصر الحـديث لا تـزال فكـرة الـلامعقـول لهـا دورهـا الكبيـر في معـظم المـذاهب الفلسفيـة » كما يقـول الدكتـور عبد الـرحمن بـدوي (203) قـال الـرازي في مستهل كتابه المذكور : «إن البارىء عز اسمه انما أعطانـا العقل لننـال ونبلغ به من المنافع العاجلة والآجلة غايـة ما في جـوهر مِثْلنـا نيله . وإنه أعظم نِعم الله عنـدنا وأنفـع الأشيـاء لنـا . . . وبـالعقـل أدركنـا جميـع مـا ينفعنـا ويـطيب بـه عيشنا . . . وبه أدركنا الأمور الغامضة . . . وبه وصلنا الى معرفة البارىء . وإذا كان هذا مقداره . . . فحقيق علينا ان لا نحطه عن رتبته ولا ننزله عن درجتـه ، ولا نجعله ـ وهو الحاكم ـ محكوماً عليه، ولا ـ وهو الزمام ـ مـزمومـاً، ولا ـ وهو المتبوع ـ تابعاً ، بل نرجع في الأمور اليه ونعتبرها به . . . فنُمضيها على امضائه ونـوقفها على إيقـافـه» (نقلاً عن المصـدر السـابق صفحـة 202) فـإذا كـان إبن الراوندي قد بنى على مثل هذا الايمان بـالعقل إبـطاله للنبـوة فهذا مـا رمى اليه الرازي أيضاً في العبارة التي نقلناها عنه ، لا سيمـا وهو يـزيد في توكيد مناقب العقل ، فلا يكتفي بأن ينسب اليه مـا يتصل بـالأخلاق كمـا فعل ابن الـراوندي قبله ، بل يضيف اليه أيضـاً ما يتصل بالمسائل الإلهية فيقول إننا « به وصلنا الى معرفة البارىء عز اسمه » . وهذا يقطع بأن النبـوة لا ضرورة لهـا ما دمنـا نعرف بالعقل كل شيء سواء كان في ميدان الأخلاق أو في ميدان الإلٓهيات . فإذا كان العقل عند إبن الراوندي مرجعاً في مسائل الأخلاق أي المسائـل العملية ، فقـد أصبح عند الرازي مرجعاً في كل شيء ، أي في المسـائل النـظرية والعمليـة .

وجدير بالذكر أن حملة إبن الراوندي والرازي لم تكن مقصورة على الإسلام وحده أو على دين معين دون آخر ، وإنما كانا يناهضان فكرة الدين بذاتها ويريانها مخالفة للعقل وان العقل يغْني عنها غَناء تاماً .

وهكذا اعتاد العرب منذ فجر تاريخهم على التعايش مع المخالفين والمبتدعين والمؤمنين والكافرين دون ان يجدوا في ذلك حرجاً أو غضاضة . لقد كان التسامح طابع حياتهم . فهناك أقوال مأثورة بعضها منسوب الى النبي نفسه وكلها تدعو الى التسامح والتقليل من أهمية الخلاف في الرأي في علاقات الناس بعضهم مع بعض . ولعل أشهر هذه الأقوال قول النبي عليه السلام : « اختلاف أمتي رحمة » . وكان هذا سبباً في سعة الصدر بين أهل المذاهب الاسلامية المختلفة من حنفية وشافعية ومالكية وحنابلة . من ذلك ما رُوي عن الشافعي قوله : « مذهبي صواب يحتمل الخطأ ، ومذهب غيري خطأ يحتمل الصواب » . (يوم الاسلام لأحمد امين ص 181) وهو قول لطيف يدل على مدى تسامح صاحبه . وكانت القاعدة العامة بينهم انه مهما اختلف المسلمون في المذاهب والآراء والأقوال فيما هو محل للاجتهاد والنظر فلا يصح تكفير أحدهم . كان ذلك أيام ازدهار حضارتنا . لكن عندما أقفل باب الاجتهاد انقلب الوضع رأساً على عقب ، فتشدد الناس في دينهم وافقدوه عناصر التحول وقووا فيه عناصر الثبات ، فتحجرت العقول وشُحنت النفوس بالتعصب وغلب أصحاد 59مصالح والمآرب فالتسامح عدو كل مفسد مستغل دساس . وتفككت أوصال الدولة وأصبحت الدولة دويلات . ان الدين بطبيعته بؤرة للتعصب وتربة خصبة للتحجر وضيق الأفق ، لأنه في نظر أتباعه هو الدين الحق والطريق الوحيد إلى الخلاص والنجاة . فكل دين آخر سواه باطل يؤدي الى الهلاك الأبدي . وقد تغلب الإسلام على هذه النظرة الضيقة منذ أول الطريق ، ونجح في ذلك نجاحاً منقطع النظير ما دامت مقاليد الأمور بيده ، وعندما كان العرب في أوج حضارتهم . لكن خلَف من بعدهم خلْف أضاعوا المجد والحضارة . لقد غُلب الإسلام على أمره فانقسمت الدولة ودخلت في عصور الانحطاط وساد التعصب والتمزق والهوى .

*

تُتَّهم العقلية العربية بأنها عقلية قدرية مستسلمة لا تؤمن بالنشاط والحركة والعمل . وإني لأتساءل : كيف يمكن تشييد حضارة كالحضارة العربية على الاستسلام والركود وتفويض الأمر كله الى قضاء الله وقدَره ؟ ان السرعة الفائقة التي تحول بها العرب من البداوة الى الحضارة والانتقال المذهل من ضحضاح شبه الجزيرة الى آفاق العالم المعمور ، والقوة السياسية والعسكرية الهائلة التي اسقطت الدولتين العظميين وغزت أوروبا في عقر دارها ، ان كل أولئك لا يمكن لعقلية قدرية مستسلمة راكدة ان تصنعه . وإذا كان فينا نحن العرب من يؤمن بالقَدر فإن فينا أيضاً من يؤمن بالحرية ، والمعتزلة أكبر برهان على ذلك . فالمتصفح لتاريخ الفكر العربي لا يرى أنه فكر أحادي الجانب ، بل يراه فكراً خصباً متنوعاً تعايشت فيه شتى المذاهب والمنازع والتوجهات وكان بينها تفاعل وتلاقح واصطراع . فهناك القائلون بالجبر ، وهناك القائلون بالحرية ، وهناك القائلون بالكسب ، وكل حزب بما لديهم فرحون . وهل نجا التاريخ اللاتيني الوسيط أو الأوروبي الحديث من عقيدة القدَر ؟ فالقديس أوغسطين مثلاً - أعظم آباء الكنيسة في عصر الآباء - كان يؤمن بالقدَر . فالله عنده هو الفاعل الحقيقي ، وأفعالُنا جميعاً كانت في علمه تعالى ، وقد وُجدت في الفعل الواحد الأول ، ومن الفعل الواحد الأول خرجت الكائنات . فالله هو مصدر الحقيقة والله هو مصدر الأخلاق (الأفعال) . وعندما أراد اوغسطين التوفيق بين الفعل الأول والارادة الحرة المستقلة تعثر كما تعثر غيره ووقع في تناقض كبير كما وقع الكثيرون غيره . وهذا غوتشالك Gotteschalk يكرر ما قاله أوغسطين بل هو اكثر قدَرية بل أكثر جبرية منه (انظر عنهما مثلاً تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط ليوسف كرم صفحة 37 وفلسفة العصور الوسطى للدكتور عبد الرحمن بدوي صفحة 35 و 49 والفلسفة الوسيطية لأدوار جونو صفحة 55) . ولماذا نذهب بعيداً ؟ ان البروتستانتية نفسها عقيدة قدرية ، وهذه القدرية لم تمنع بريطانيا وامريكا من ان تكون كل منهما دولة عظمى . وهكذا العرب ، وان كان العرب أسرع نضوجاً وأطول عمراً واكثر انسانية . فالدين - أيّ دين - هو بطبيعته قدري ، ولا بد له بالضرورة من ان ينتج بعض الافرازات القدرية

والجبرية التي تختلف باختلاف الأديان ويتفاوت تأثيرها بتفاوت العصور والظروف والقرائح والعبقريات .

*

وأخيراً أود التعليق هنا على صفة الغيبية والأسطورية والسحر واللاعقلانية التي ما يفتأ الفكر العربي يوصف بها حتى لبدا للكثيرين أنها صفة بنيوية جوهرية فيه ومقوم من مقوماته الأساسية. انا لا أنكر أن الكثير من ممارساتنا وتصرفاتنا اليوم اسطورية لا عقلانية ، ولعلها كانت كذلك بالأمس ولكن الى حد ما ، وهذا أمر طبيعي إذا ظل محصوراً في نطاق معين لأنه ملح الفكر والحضارة لا يمكن الاستغناء عنه بوجه من الوجوه . لأن الدين ـ أيَّ دين ـ هو بطبيعته تكوينه كابح للعقل إذ هو يُهيب دائماً بسلطة أخرى غير سلطة العقل . ولذلك قالوا ان الدين يبدأ حيث ينتهي العقل . كما ان الدين لا قيام له بلا أسطورة ، فالأسطورة بُعد اساسي جوهري فيه . فالدين بلا اسطورة يمكن أن يكون كل شيء إلا أن يكون ديناً . كما في الدين أيضاً عناصر تقاوم الأسطورة .

والدين فيه كذلك عناصر ثبات تقعد به عن الحركة والتطور ، وعناصر تحول تقاوم الثبات والجمود ، والحرب سجال بينهما في الدين الواحد والقبيل الواحد ، بل والشخص الواحد ، ويتميز الناس بعضهم من بعض بمدى تغلب هذه العناصر أو تلك على العناصر المقابلة لها. فترى هذا زميتاً جامداً متحجراً، وترى ذلك مترخصاً جامحاً منطلقاً ، كأنما هذا يريد تجميد الزمان وتوحيد المكان ، وذاك يسابق متغيرات الزمان والمكان . وبين الفريقين درجات وظلال وألوان . والإسلام دين كسائر الأديان . وقد تجلى ذلك فيه بأفصح لسان وأوضح بيان ، إذ فتح باب الإجتهاد على مصراعيه لأصحاب الرأي والجرأة والجَنان ، للحدِّ من سلطة الحرف والنص وموجة الإيمان ، وهكذا انتفض العقل العربي وثار بعد طول انتفاض وثوران . لكن أُغلق باب الإجتهاد أخيراً فيا ضيعة العقل والعلم والعرفان .

ان العرب مسلمون قبل ان يكونوا أي شيء آخر ، والاسلام هو الذي قذف بهم في الآفاق . انه مجدهم وأملهم وخلاصهم حتى لقد اختلط بدمهم

واخترق اللحم والعظم والكينونة في صميم وجودهم ، ولكن ذلك لا يعني أبداً ان العقل العربي عقل اسطوري وان الاسطورة من صفاته الأساسية . لقد انبثق الفلاسفة اليونان من أعماق البيئة السحرية الأسطورية وليس في ذلك ما يعيبهم . كما كان الفكر اللاتيني في مرحلة من مراحل حياته فكراً لا عقلانياً حتى لقد ظن الظانون انه لا أمل من شفائه . وفجأة خرج المارد الجبار من القمقم . فالدليل على ان اللاعقلانية ليست صفة بنيوية رئيسة في الفكر اللاتيني ، حاضرهُ الأوروبيُّ الخلاق . كما ان الدليل على ان اللاعقلانية ليست صفة بنيوية رئيسة في الفكر العربي الحديث ، ماضيه المتألق الخلاق . فالماضي دليل فريق والحاضر دليل فريق ، والماضي أشبه بالحاضر من الماء بالماء . فما كان ممكناً في الماضي ممكن في الحاضر . لقد كان أمام العقل اللاتيني عثرات خارجية أي غير بنيوية أقالها بعد قرون من المحاولة والخطأ . كما كانت أمام العرب عثرات خارجية أيضاً ولكنهم أقالوها بسرعة البرق . فلا تصدقوا ما يقوله الأعداء والغربان والمرجفون والأصدقاء الجاهلون ، فإنما هي عثرات خارجية في طريقنا يمكن إقالتها بالمحاولة والخطأ والتخطيط والتصميم والعزم والارادة ، ولنا في أجدادنا العرب أسوة حسنة . وليس معنى ذلك أن هؤلاء لم يعرفوا اللاعقلانية . لقد عرفوها كما عرفتها سائر الشعوب المتقدمة . لقد عرفوها بمقدار طبيعي معقول لم يمنعهم من الاشتغال بالعلم والفلسفة والاضطلاع بالحكم والحضور الكلي بقوة وفعالية في جميع شؤون الحياة . فأنا لا أفهم كيف يمكن بالسحر والغيبية قيام حضارة عظيمة كحضارة العرب اقتحموا بها قوى التاريخ وفتحوا بها أبواب التاريخ ؟ كيف يمكن بالأسطورة، باللاعقلانية تحقيق نهضة فذة عارمة انتقلت برعاء الإبل الى مراكز الحضارة والاشعاع لتجعل منهم صناعاً للحضارة ومركزاً للإشعاع ؟ كيف يمكن ان نتصور ان يكون إنجاز كهذا الانجاز العظيم مؤسساً على الايمان بالخوارق ؟ والحق ، ان العقلانية واللاعقلانية ، والاسطورية والواقعية ، والغيبية والحضورية . . . صفات عارضة تطرأ على الأمم والشعوب في بعض مراحل حياتها دون بعض تبعاً لما يحيط بها من ظروف وملابسات وتحديات داخلية وخارجية. والواقع ان الأوضاع الإجتماعية والظروف الداخلية التي تمر بها البلاد

العربية اليوم هي السبب الأكبر فيما نعاني من أسطورية وغيبية نشأ عنها الجهل والتخلف والتحجر والفقر والمرض . فانكفأ العربي على ذاته وفَقَد الشعور بالوجود الحي النابض، والحوافز المتدفقة والمشكلات المتجددة، والتحديات الخلاقة التي تحدث التوتر فتدفع الفكر الى التأمل والنظر والبحث عن الحلول والجدة .

*

يتهموننا بالاسطورية وهل بريء الغرب ، بل هل برئت امريكا زعيمة العالم الغربي كله ، هل برئت من الأسطورية ؟ كثيرون يعتقدون ، واليهود يتبجحون ، ان نجاح الصهيونية يعود الى المواهب السياسية والدبلوماسية « الخارقة » لليهود ، ويندر ان تُعزى قصة نجاح الصهيونية الى غير اليهود . ان هذا التفسير لقوة اسرائيل والصهيونية تفسير سطحي ساذج . فما كانت مواهب زعماء الصهيونية ـ مهما بلغوا من العبقرية السياسية والدبلوماسية ـ لتؤتي ثمارها لولا البروتستانتية بفرقها المختلفة . فما كان للغربي الصهيوني في الولايات المتحدة ان يبلغ ما بلغ من القوة والنفوذ لو لم يكن يعمل في بيئة بروتستانتية تؤمن ان العمل لتحقيق دولة اسرائيل هو في نفس الوقت خدمة للتوراة وتحقيق لنبؤات التوراة . ان البروتستانت على يقين من ان العناية الإلٓهية قد أرسلتهم لإنهاض اسرائيل من كبوتها . إنهم مجنَّدون لخدمة أغراض الله ، ومن هذه الأغراض تحقيق دولة اسرائيل . فالبروتستانتية في نظر أصحابها بعث عبري أو يهودي يؤمن باسطورة الشعب المختار والارتباط السرمدي الدائم بين الشعب المختار والأرض المقدسة التي وعد الله اليهود بها . وهم يترقبون عودة المسيح ليضع حداً لتشرد اليهود في الوقت المناسب لإقامة وطنه الى الأبد . وبقدر ما كانت حركة الاصلاح الديني إضعافاً للكنيسة الكاثوليكية ، فقد كانت تعزيزاً ودعماً لليهودية ، بل حركة انقاذ لشعب الله المختار الذي يبحث عن وطن بعد طول شتات . (الصهيونية غير اليهودية 25 . انظر أيضاً 79 ـ 81 والأرقام التالية في المتن هنا فلا داعي لتكرار إسمه مرة أخرى) .

كلكم سمعتم بوعد بلفور . ومن هو بلفور هذا ؟ هو ارثر جيمس بلفور وزير الخارجية البريطانية عندما كان لويد جورج رئيساً للوزارة . وكلاهما

مسيحي متصهين . فقد نشأ بلفور وترعرع في أحضان التقاليد البروتستانتية الاسكتلندية بكل ما تحمله من حب للعهد القديم وإيمان شديد بعودة اليهود الى فلسطين عودة تزف البشرى بقرب عودة المسيح المنتظر (160) وكان يرى أن التاريخ « أداة لتنفيذ هدف سماوي وفي عهده وعهد رئيسه الذي لا يقل عنه صهيونية تغلغلت الصهيونية البروتستانتية في أعماق دوائر القرار البريطاني(162).

كما ان الرئيس الامريكي ولسون الذي رفض في مؤتمر باريس للسلام حق الحصول على الأراضي بالقوة ونادى بمبدأ حق تقرير المصير للشعوب - ان الرئيس ولسون هذا كانت له ميول صهيونية هي جزء من تراثه الثقافي والديني . فقد نشأ هو أيضاً على التعاليم البروتستانتية الاميركية التي كانت ولا تزال تؤمن بالاسطورة الصهيونية ، أي بعودة اليهود الى صهيون رمز القدس . وكان يسعده أن يكون له دور في إعادة اليهود الى «أرضهم» وإعادة الأرض الى أصحابها . وكانت قراراته في هذه الناحية نابعة من مشاعره الذاتية الشخصية لا من اعتبارات السياسة الواقعية (190) .

كما ان الرئيس ترومان كان منحازاً الى الصهيونية قبل ان يتولى الرئاسة . فخلفيته المعمدانية وتربيته كانتا تُلحّان على عودة اليهود الى صهيون . فقد كان أعضاء المؤتمر المعمداني الجنوبي أشد الناس حماسة للصهيونية ، وكانوا يعتقدون ان إقامة دولة اسرائيل برهان واضح على تحقيق النبؤات التوراتية . ولا يقتصر ذلك على أعضاء المؤتمر المعمداني الجنوبي هذا، بل ان معظم أعضاء الكونغرس الأمريكي نفسه كان لديهم قبل إنشاء دولة إسرائيل إيمان راسخ بصحة الهدف الصهيوني « التاريخي » ، وكانوا يعتقدون ان لليهود حقاً « تاريخياً » في أرض فلسطين . وكانت هذه الفكرة عن « الحق التاريخي » مبنية على أسس توراتية (221) .

ان بلفور ولويد وأعضاء المؤتمر المعمداني وأعضاء الكونغرس الأمريكي وترومان وويلسون وكثيرين غيرهم ليسوا من العامة ولا من رجال الاكليروس . وإنما هم أناس مثقفون وخريجو جامعات عريقة وفيهم القادة والرادة . لكن كل ذلك لم يغير شيئاً في توجهاتهم الاسطورية والغيبية . ومتى ؟ في أواسط القرن العشرين . في أرقى دولتين من دول العالم الحر ، ثم جاءت الأطماع السياسية

والقوة العسكرية لتحقيق نبوءآت وأساطير يربأ رجل العلم بنفسه أن يتحدث عنها فضلاً عن أن يفرضها على الآخرين . أنا أفهم ان يؤمن الانسان بالأسطورة أو لا يؤمن فهذا من حقه ، أما ان يجعل الأسطورة أساساً للحكم وبناء الدول وصنع القرار السياسي ، فهذا أمر يصعب تصديقه ، لا سيما إذا صدر عن دولة عظمى !! للمؤمن الحق في أن يؤمن بما يريد ، لكن ان يبني صروحاً في الهواء ويُلزم الآخرين بها بالقوة ، فهذا غير مقبول ، لا سيما إذا صدر عن زعيمة العالم الحر وداعية حقوق الانسان ومركز اشعاع العقلانية في العالم المتحضر !!

وإلا فما معنى هذا الاستشهاد بالتوراة والإحالة على التوراة وإقحام التوراة في قضايا الدول والأمم ؟ أليس في هذا إغراق في الغيبية والأسطورية يصدر عن أرقى دول العالم المتحضر ؟ لو صدر هذا الكلام عن أي سياسي عربي لتناقلته جميع وكالات الأنباء للطعن في العرب والتشنيع عليهم والسخرية منهم وإضافة صفحة سوداء جديدة الى تاريخهم . ما بال الكثير من أبنائنا الذين أغرقوا الأسواق بكتاباتهم المهوّلة التي تتحدث عن « بنية » العقل العربي و « طبيعة » العقل العربي و « تكوين » العقل العربي ، وما الى ذلك من التعابير المتحاملة القلقة الخالية التي يسهمون بها من حيث يدرون أو لا يدرون في حملة التشهير بالعرب والتجني على العرب وتاريخ العرب ـ أقول ما بال هؤلاء لا ينبسون بكلمة واحدة عن الأسطورية والغيبية واللامعقولية المتغلغلة في صميم الفكر الغربي ؟ أم لعلهم يرون في هذه الأسطورية والغيبية واللامعقولية عنواناً للرقي والتقدم ، ودليلاً على سلامة « بنية » العقل الغربي ، و «طبيعة » العقل العربي و « تكوين » العقل الغربي ؟

الغيبية هي الغيبية ، شرقية كانت أم غربية . فلا يُغير منها شيئاً أن تلبس الطربوش أو ان تلبس القبعة ، ان تكون غنية أو فقيرة ، متقدمة أو متخلفة . المهم أنها غيبية اسطورية ، ان الغيبية الأوروبية والأميركية غيبية عن أعين المراقبين والمحللين والنقاد . أما غيبيتنا فهي غيبية مكشوفة تكاد تفقأ العين . فإذا كانت القوة والرقي والتقدم والرفا ـ إذا كان كل أولئك ـ يحجب جميع العيوب سواء على نطاق الفرد أو الجماعة فإن التخلف والفقر والجهل يُضخم العيوب والنقائص حتى ليجعل من الهنات الهينات جبالاً راسيات !!

الفصـــل العاشـر

العلـم الطبيعي بين اليونان والعرب*

أيها السيدات والسادة

سأتحدث اليكم أولاً عن العلم الـطبيعي عند اليـونان ثم أُثنيّ بعـد ذلك بالكلام على العلم الطبيعي عند العرب .

أولاً : العلم الطبيعي عند اليونـان

كان الانسان اليوناني في العصور الأولى كأي انسان بدائي آخر يعيش في مواجهة الطبيعة وعلى احتكـاك مباشـر بها ، فكـان جمالهـا يسحر بصـره وكانت عظمتها تبهره. كان يستمتع بالضوء أكثر مما نستمتع به نحن في هذه الأيام، وكان يخشى الليل خشية لا نكاد نتصورها . وعندما كان يرى عودة « ضيـاء السموات المقدس »[1] كان يشعر بالـرضى والعرفـان بالجميـل . لقد كـانت حياتـه تحت رحمـة الطبيعـة الغاشمـة ، فكان ينتـظر السحاب المحسن الـذي يتـوقف عليـه محصوله ، ويصيبه الهلع عند هبوب عاصفـة هوجـاء لا تُبقي ولا تذر ، فتقضي على الزرع والضرع وتطيح بجهود الآباء والأبناء . لقد كان يشعر في كـل لحظة بضعفه وبقوة ما يحيط به من أشياء وظواهر وأفاعيـل ، وكان يحس على الـدوام

(*) الكلمة التي ألقاها المؤلف في المؤتمر السنوي الثالث عشر لتاريخ العلوم عند العرب المنعقد في 16-17-18 أيار (مايو) 1989 في جامعة حلب ـ سوريا.

(1) سوفوكليس ـ انتيغونة البيت 879 ، نقلاً عن فوستيل دي كولانج : المدينة العتيقة ص 159 .

بمزيج من مشاعر التبجيل والاحترام والمحبة والفزع والخضوع والعبودية نحو طبيعة لا ترحم !

في ذلك الوقت المبكر لم يستطع الإنسان الأول ـ يونانياً كان أو غير يوناني ـ الوصول الى إدراك إله واحد مدبر للكون، إذ لم تكن لديه عندئذٍ فكرة واضحة عن الكون . لقد كان الكون الواحد في إحساسه وشعوره أكواناً وعوالم متعددة لكل واحد منها إلهه المدبر . إنه لم يكن يعلم أن الأرض والشمس والقمر والكواكب أجزاء من مجموع واحد يهيمن عليه كائن واحد . لقد كان العالم في نظره مجموعة مشوشة من القوى المتنافسة التي يصطرع بعضها مع بعض في حرب لا تنتهي . ولما كان حكمه على الأشياء الخارجية مشتقاً من طبيعة تكوينه وتصوره لذاته ، وكان يشعر في نفسه بأنه شخص حر ، فقد رأى كذلك في كل جزء من الخليقة في الأرض والسماء أشخاصاً يشبهون شخصه هو ، فنسب اليهم الفكر والارادة والعزم والتصميم . ولما كان يشعر بأنهم أقوياء وبأنه خاضع لسيطرتهم فقد اعترف بتبعيته لهم ، وتضرع إليهم وإليهم توجه بالدعاء والعبادة . إنهم آلهته القادرون على كل شيء وبأيديهم زمام أمره ومفتاح حياته وسعادته[1] .

ان العناصر الأولى لديانة الطبيعة هذه قديمة جداً ، وقد احتاجت الى وقت طويل لكي تثبت في صورة واضحة المعالم . وهي لم تظهر جملة واحدة ولم تخرج تامة الخلق والتكوين من عقل رجل واحد ، بل اشتركت فيها عقليات مختلفة وعصور متباينة . فكانت كل عقلية تصنع آلهتها على صورتها ومثالها . وكان هناك تنوع كبير في القوى والآلهة يفوق الحصر ، لكن العناصر التي يمكن تأليهها تظل محدودة العدد . إنها الشمس التي تخصب الزرع ، والأرض التي تغذي النسل ، والسحاب الذي يرضي فيفيض على الأرض النعمة والرخاء ، أو يغضب فيصيبها بالنقمة والبلاء . . . تلك هي القوى الرئيسة التي اتُخذت آلهة . وأطلقت على هذه الآلهة في بلاد اليونان أسماء مختلفة نكتفي منها ببعض الأسماء التي سميت بها الشمس مثلاً . هنا يسمونها هرقليدس

---

(1) المصدر السابق صفحة 160-161.

(المجيد) ، وهناك فويبوس Phoebos (الساطع) وفي مكان آخر أبولون (طارد الليل أو طارد السوء) . هذا يطلق عليها اسم (الكائن الأعلى) هيبريون Hyperion وذاك يطلق عليها اسم (المغيث) الكسيكاكوس Alexicacos وهلم جرا[1] ومع الزمن لم تتبين المجموعات البشرية التي اطلقت هذه الأسماء المختلفة على الكوكب الساطع أنها إنما تعبد إلّهاً واحداً وان هذه الألفاظ لم تكن سوى نعوت وصفات لهذا الإله الواحد .

وكانت هذه الآلهة تتصف بأحط الصفات البشرية . فقد كانت آلهة حاسدة سريعة الغضب لا مودة عندها ولا عطف يغري بحبها ، ويطيب لها دائماً ان تحارب الانسان وتُلحق به الأذى . إنها لم تكن تحب الانسان كما لم يكن يحبها الانسان . لقد كان يؤمن بوجودها مكرهاً لا مخلصاً ، وكم كان يتمنى لو أنها كانت غير موجودة . لقد كان دائماً وجلاً منها ويخشى ان تغدر به في أي وقت من الأوقات . لقد كان أكبر مخاوفه أن يحيق به غضب هذه الكائنات الخفية ، فكان شغله الشاغل طوال حياته ان يعمل على تهدئة ثائرتها بالأدعية والقرابين والتعاويذ . لقد كان القوم يعتقدون ان كل حادث فهو حتماً من الآلهة وأنه إنما يكشف عن ارادة الآلهة ، وكان عندهم ميل شديد ساذج الى تصديق ما يُروى لهم من قصص وأساطير ، والى إيثار العجائب والايمان المطلق بقدرة الآلهة في كل مكان ، آلهة قاهرة سريعة الغضب سيئة النية فاسدة الطوية تتربص بهم الدوائر ولا تترك لهم أي حرية في العمل والتحرك[2] . هذا هو سلوكها بإزاء الانسان ، وهذا هو أيضاً سلوكها بعضها بإزاء بعض . ولذلك فهي في نزاع دائم وشقاق مستمر .

فهذه الديانة التي أسست المجتمع اليوناني القديم وحكمته أمداً طويلاً ، وسمت النفس الانسانية أيضاً بميسمها وطبعتها بطابعها . وهي بفضل تعاليمها وسُننها جعلت للاغريقي طريقة خاصة في التفكير والعمل ، وعادات وتقاليد

---

(1) المصدر السابق صفحة 161-162 .

(2) المصدر السابق صفحة 237 ,228 ,233 ,296.

عقلية لم يستطع التخلص منها إلا بعد زمن طويل . وأول من تنبه الى ذلك في العالم القديم على حد ما وصل الى علمنا الفيلسوف الايلي اكزينوفانس (القرن السادس قبل الميلاد) فقال : إن الناس هم الذين اصطنعوا الآلهة وأضافوا اليها عواطفهم وصورتهم وهيئتهم . فالأحباش يقولون عن آلهتهم إنهم سود الأبدان فُطس الأنوف ، ويقول أهل تراقية ان آلهتهم زرق العيون حُمر الشعور ، ولو استطاعت الثيران والخيل لصورت الآلهة على مثالها . وقد وصفهم هوميروس وهزيود بما هو عند الناس موضع تحقير وملامة . إنما الله إله واحد ، وهو أعظم الموجودات السماوية والأرضية ، ليس مركَّباً على هيئتنا ولا يفكر مثل تفكيرنا ، وهو ثابت لا يتحرك . علمٌ كلُّه فكرٌ كلُّه ، بصر كله ، سمعٌ كلُّه ، يحرك الكل بقوة عقله بلا عناء [1] . وهذا أعظم ما قيل في التوحيد والتنزيه الإلهيين قبل سقراط . وقد أمعن ارسطو (384 - 322 ق . م) في هذا الاتجاه التصحيحي لعقيدة الالوهية حتى أوفى على الغاية .

من هنا نشأت بالتدريج الفلسفة الطبيعية أو الميتافيزيقية . من الوهم والأسطورة ولدت الحقيقة ، ومن الشعر والخيال خرج العلم والتاريخ . فلم يكن هناك حدود واضحة بين الخيال الشعري والعلم الوضعي ، بل غالباً ما كانا يتداخلان ويختلطان ، وكان للوحي الشعري أثره في ميدان العلم . لقد كانت فكرة الطبيعة وعبادة الطبيعة شيئاً واحداً في أذهان القوم لا تمييز بينها، وما زالت هذه العبادة تتغير وتتبدل ، وما زالت سيطرة الإنسان على الطبيعة تزيد وتتسع حتى بزغت العلوم والفلسفات . فالعلم الطبيعي لم ينشأ جملة واحدة ، بل لم يكن عند اليونان حتى في عصر النهضة والازدهار ما يسمى اليوم بالعلم الطبيعي . وكل ما كان عندهم فلسفة طبيعية ، وكان السحر والمشاعر والأساطير تطغى على تصورهم للأشياء والظواهر ، بحيث كان من المتعذر تكوين علم طبيعي منفصل عنها . فالجاذبية تعبر عن خوف الطبيعة من الفراغ ، وظاهرة المد والجزر ترجع الى نوع من التعاطف الكوني أساسُه العقل الإلهي في العالم

---

(1) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية صفحة 36 .

كله . والنجوم آلهة ذات هيئات علوية وطباع بشرية ، وهي كالآلهة تؤثر في أحداث هذا العالم وحياة البشر . فالترابط بين الكائنات يفسره القدماء بوجود تعاطف وتنافر بين الموجودات ينتج عنهما تأثير العالم الأعلى في العالم الأسفل[1].

إن العلم الطبيعي اليوناني كان وليد الفلسفة اليونانية، وليد ذلك التحدي الجريء للأقاصيص الأسطورية ، ذلك الحب القوي للبحث الذي ظل عدة قرون يجمع بين العلم والفلسفة في مغامرات البحث والتنقيب . ولعله لم يشهد العالم قبل اليونان رجالاً يفحصون عن الطبيعة بمثل دأبهم ودقتهم وبمثل ولعهم بها وإقبالهم عليها وحبهم إياها . وقد دفعهم تشوقهم وتطلعهم لمعرفة كل شيء وكل حقيقة إلى أن يجعلوا الفلسفة أعظم مغامرة قام بها العقل اليوناني . لقد كانت مغامرة يختلط فيها الوهم بالحقيقة والأسطورة بالواقع . ثم أخذ هذا الاختلاط يضعف مع الزمن ، وكانت نُقلة نوعية عظيمة حاسمة انحسرت فيها الأسطورة عن الحقيقة وانشق فيها الوهم عن الواقع بشبه المخاض ، فخرجت فكراً سوياً . ولا أستطيع أن استفيض في هذه النُقلة وأن اتتبع خطواتها ، فهي موضوع كتاب بكامله سيصدر لي قريباً بعنوان (الفلسفة قبل عصر الفلسفة) .

فنحن نشهد في بواكير التفكير اليوناني قبل سقراط محاولات حثيثة جادة لفهم الطبيعة فهماً علمياً معقولاً . فقد كان الفلاسفة الطبيعيون الأوائل يلاحظون الظواهر التي تحدث أمامهم ثم يحاولون إيجاد تفسير طبيعي صرف لها، من غير أن يلقوا بالا لتدخل عوامل غامضة أو خارقة للطبيعة كما كانوا يفعلون في مرحلة التفكير الأسطوري. لقد اجتازوا الآن هذه المرحلة وأصبح العقل وحده عمدتهم . وبهذه الانتفاضة الجديدة ، وبرفضهم تدخل السحر والاسطورة والقوى الغيبية ، فقد خطوا خطوة جريئة حاسمة نحو العلم ، وانشأوا بداية منهج وضعي لتفسير الظواهر الطبيعية . فالماء والهواء والنار والتراب لا الآلهة هي التي تفعل في الأشياء وهي التي تتألف منها جميع الأشياء . وحتى الروح فقد تكونت هي

(1) محمد عبد الرحمن مرحبا : المرجع في تاريخ العلوم عند العرب صفحة 159 .

أيضاً من الأشياء والعناصر . وهذه العناصر موجودة وجوداً طبيعياً وليد الاتفاق والصدفة العمياء ، لا نتيجة أي تدبير سابق أو ارادة عليا . وان الأجرام التي جاءت بعد ذلك في الترتيب ـ الأرض ، والشمس ، والقمر، والنجوم ـ انما خلقت من هذه العناصر أيضاً ، تحركها قوة ذاتية عمياء كامنة فيها وفقاً لعلاقات معينة تربط بينها . على هذا النحو إنما قامت السموات والأرض وما بينهما وجميع أنواع الحيوان والنبات . وبفعل هذه العناصر ومن هذه العناصر أيضاً حدثت النفوس والعقول والأرواح . وهكذا أيضاً ظهر الانسان . إنه فانٍ ومن أصل فانٍ . فكل شيء إنما يتألف من المادة والى المادة يصير[1] .

وكانت لهم آراء جريئة سبقوا بها عصرهم لم تفقد قيمتها بتقدم الأيام إلا من حيث التفاصيل الجزئية لا من حيث الروح العامة ، بل هي من صميم التفكير العلمي في الوقت الحاضر . من ذلك مثلاً قول أحدهم وهو انكسيمُندر (611 ـ 547 ق . م) بنظرية التطور ، فضلاً عن تفسيره لنشأة الحياة تفسيراً طبيعياً بحتاً. فالأرض كانت كتلة طينية رطبة أكبر مما هي الآن، ولما وقع عليها فعل الشمس فارت العناصر الرطبة التي في جوفها فتبخر جزء منها ليُكوِّن طبقات الهواء، وخرج من جزء آخر منها فقاقيع، فنشأت الكائنات الحية . وقد كانت هذه الكائنات في أول أمرها منحطة ، ثم سارت في طريق التطور ، ومنها خرج الانسان . وقد كان الانسان أولاً سمكة تعيش في الماء ، ثم انحسر الماء بفعل التبخر فاضطرت الأسماك الى ان توفق بينها وبين البيئة الجديدة . فتبدلت زعانفها على مر الزمن أرجلاً وأيدياً تدب بها على سطح اليابسة . وما زالت تترقى وتتطور حتى برزت منها جميع الأنواع المعروفة ومنها الانسان . وهكذا نلمح في نظرية انكسيمندر بذور نظرية دارون[2] .

ومن هذه الآراء أيضاً رأيُ أنكسيمنس المتوفى حوالي (سنة 480 ق . م) الذي رد جميع الأشياء الى أصل واحد وهو الهواء ، وفسر اختلاف الأشياء

---

(1) المصدر السابق صفحة 147-148 .

(2) انظر د. أحمد فؤاد الاهواني : فجر الفلسفة اليونانية، صفحة 62-63، يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية صفحة 16-17 .

بعضها عن بعض بالتخلخل والتكثف . فالأشياء إنما هي هـواء مضغوط تختلف كثافته من عنصـر الى آخـر . ويعبـر عن ذلـك في المصطلح العلمي الحـديث بالقول ان جميع العناصر تعود الى عنصر واحد هـو الهيدروجين ، وهـو العنصر الأساسي في الكون ، وزنه الذري واحـد ، وهو هـواء بحسب التعبير القـديم ، وغاز بحسب التعبير الحديث ، وما اختلاف العناصر بعضها عن بعض إلا نتيجة لاختلافها في الوزن الذري . فجميع الذرات هي تكرار لذرة الهيـدروجين عدداً من المرات .

فالوزن الذري للاوكسيجين مثلاً هو 16، أي إن 16 ذرة هيدروجين يتألف منهـا ذرة واحـدة هي ذرة الأوكسيجين وهكـذا سـائـر العنـاصــر . وبمـا أن ذرة الهيدروجين هي هواء فإن الهواء هو أصل جميع الأشياء .

ويأتي بعد ذلك المدرسة الذرية ، فالطبيعة إنما تعمل بـأجسام دقيقـة هي من الصغر والضآلة بحيث لا سبيل الى رويتها ، تلك هي الذرات مفردها ذرة ، وهي التي يسميهـا العرب أيضـاً الجوهـر الفرد والجـزء الـذي لا يتجـزأ ، وهي تـرجمة حـرفية للكلمـة اليونـانية اتـوموس . فـالكـون إنمـا يتـألف من الـذرات والخلاء . والخلاء عنـد أصحاب هـذه المدرسـة لا نهايـة له في الـذرع كما لا نهـاية للذرات في العـدد أيضـاً . ان جميـع الأشيـاء متشـابهـة من حيث طبيعـة الـذرات وشكلها وترتيبها ، كمـا ان الذرات أبـدية سـرمديـة متماسكـة لا تقبل الانقسام أو التغيير ، إلا أنها بحركتها الدائمة في الخلاء ، وباندمـاج بعضها في بعض وتنوع تجمعاتها، تكونت عنها كل ظواهر العـالم المادي المـرئي. وحتى الإدراك يمكن تفسيره أيضاً بهذه النظرية . فكل شيء في هـذا العالم لا يخـرج عن أن يكـون في حقيقة أمـره ترتيبـاً من الـذرات وتجمعـاً بين الـذرات التي لا تختلف فيما بينها من حيث المـادة ، وان جميع الصفـات التي نعزوهـا الى هذا التـرتيب والـذرات (الألــوان والـطعــوم ، والأصـوات والــروائح والصفــات المسيـة . . .) ليست صفات لـلأجسام في ذاتهـا وإنما هي نتيجـة تـأثير هـذه الاجسام في أعضاء الحس فينا . وقد اعلنت المدرسة الـذرية لأول مـرة مذهب بقاء المادة وعـدم فنائهـا ، ومذهب سيـادة القانـون على جميع مـا في الكون .

فـالضرورة العميـاء هي التي بيدهـا جميع الأشيـاء مـا كـان ومـا هـو كـائن ومـا سيكون[1] .

وهـاك رأياً آخر يعبر عن هذه الفترة المشرقة من تاريخ اليونان ويـدل على فكر علمي ثاقب وبعد نظر عميق تخلص من كل أثر غيبي خارق للطبيعة . فقـد تساءل انكساغـوراس (500 - 428 ق . م) عن السبب في تقدم الانسان على الحيـوان . انه لم يفسـر ذلك بـأسباب ميتـافريقيـة مثاليـة وعوامـل غيبية خـارقة للطبيعة لا معنى لها ، بل لقد أهاب بالمادة وحدهـا وبالعـوامل المـادية صـرفاً . فسبب هذا التفوق إنما يعود الى ملكية اليدين . فـالحيوان المحـروم من اليدين (والأصابع الرشيقة ولا سيما الابهام) لا يستطيع معالجة الأشيـاء معالجـة مرنـة حـرة[2] . وأما الانسـان فهو الكـائن الوحيـد الذي يتصف بـالعقل والـذكاء لأنـه الكائن الوحيد الذي يتمتع بيدين رشيقتين وأصابع دقيقة تمكنه من إعادة الأشياء وتركيبهـا من جـديـد ، واختـراع أشكـال جـديـدة منهـا . وهكـذا فـإن مـأثـرة انكساغوراس العظيمة تكمن في انه لم يفسر الفيـزيقي بالميتـافيزيقي ، اليـدين بالعقل بل على العكس من ذلك لقد فسر الميتافيزيقي بالفيزيقي أي فسر العقل باليدين لا العكس هنا يبدأ التفسير العلمي للأشياء .

وهكـذا فقد شهـد القرنـان السادس والخـامس قبل الميـلاد ، أي الفتـرة المعروفة بعصر ما قبل سقراط أو العصر البطولي للعلم، بزوغ فجر جديد يتميـز بنمـو الفكر المجـرد نمواً مـطرداً حثيثـاً لا يلوي على شيء . لقـد انتهى عصـر التفسير بالدين والأسطورة أو كاد واقبل عصـر العلم والعقل أو كـاد . لقد كـانت هنـاك حركـة واعية من التفكيـر الحر أخـذت تشع من بـلاد اليـونـان الى أقـطار أخرى . حقاً ان هذه الحركة لم تنتشر بعـد في كل مكـان على سطح الأرض ، فـالمعركـة لم تتـوقف بعـد ، ونتيجتهـا مشكـوك فيهـا . فمـا زالت المعجـزات والعجائب ـ والقرن الواحد والعشرون على الأبواب ـ أساس التفكير عند طوائف

(1) أنظر يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص 49-53 وأحمد فؤاد الأهواني فجر الفلسفة اليونانية صفحة 207-228 .

(2) أنظر يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية صفحة 56 .

كثيرة من العالم ، دون ان نستثني العالم المتقدم، وقد فصلنا ذلك في كتابنا (الفلسفة قبل عصر الفلسفة) الذي هو الآن تحت الطبع . لكن الطريق أصبح موطّئاً أمام الرواد ، وما على الشعوب الأخرى إلا ان تقتدي باليونان وتتخذهم أسوة لها . وهذا ما سيفعله العرب في بغداد وقرطبة بعد حين .

وقد يظن ظان ان هذه الإنجازات العظيمة وكثيراً غيرها مشابهة لها قد حققها الأغارقة بعد تجارب مريرة وملاحظات مضنية . كلا انما توصلوا اليها بالكثير من الحدس والتأمل ، والقليل من الملاحظة والتجربة . هنا تكمن عبقرية اليونان وهنا أيضاً موطن الضعف في فكر اليونان ، وهنا بالتالي تنكشف مسؤولية اليونان عن تخلف الحركة العلمية عشرات القرون . فاليوناني القح يثق بالعقل ويؤمن بقدرة العقل إيماناً لا حدود له . فالعقل في نظره قادر على معرفة كل شيء وصاحبه قابع في برجه العاجي دون ان يلوث يديه أو يدنسهما بادران المادة الخسيسة . المادة انحطاط وسفالة ونذالة لا تليق باليوناني الأصيل الذي يجب أن يربأ بنفسه عن أي احتكاك بها أو الرجوع اليها ، إنما يليق به التأمل والنظر والتفكير . لقد كان العمل اليدوي الذي هو عماد التجربة العلمية اليوم من شأن العبيد لا من شأن الرجال الأحرار . هكذا كان يعتقد كبار فلاسفة اليونان القدامى ، دون المغمورين الذين هم أقل شهرة ومنزلة . فالبرابرة والعبيد وحدهم هم الذين يرتضون الانحدار الى مستوى الأعمال اليدوية ، وأما اليوناني الحر العريق فيكتفي بعقله ولا يهيب إلا بعقله ولا سند له في هذه العالم إلا سند عقله . فإذا أردت ان تعرف الحر من العبد والاغريقي من البربري ، فانظر أيهما أكثر اعتماداً على العقل وأيهما أشد اختلاطاً بالمادة . . .

ولمعرفة مدى ازدراء اليوناني للعمل اليدوي يكفي ان نستطلع رأي ثلاثة أقطاب اغريق في هذا الموضوع أحدهم قائد سياسي عظيم هو برقليس والأخران فيلسوفان عملاقان هما أفلاطون وأرسطو .

1 ـ فإذا قرأنا سيرة رجل الدولة الأثيني العظيم برقليس Périclès (499-429 ق. م) التي كتبها أفلوطرخس رأينا العجب العجاب. إن ازدهار الفنون كان الجانب المتألق لعصر برقليس، فإليه يرجع الكثير من الفضل في

روعة الفن الراقي في زمانه . وقد كان راعياً لفيدياس وغيره من كبار الفنانين اليونانيين . لكن هاك ما يقوله أفلوطرخس على لسان رجل الدولة العظيم :

« إن الاعجاب بالشيء لا يقود دائماً الى تقليده ، بل على العكس . فبينما نكون [نحن معشر اليونان] مفتونين بالعمل ، إذا بنا غالباً نزدري صاحبه . وهكذا فمع أننا نبتهج بالعطور وباللون البنفسجي فإننا لا نتورع أن ننظر الى صناع العطور والصناعيين [الآخرين] على أنهم ميكانيكيون منحطون . . . وإذا ما انجرف الإنسان في الأعمال الميكانيكية الذليلة ، فإن عكوفه عليها دليل على أنه لم ينتبه الى الدراسات الراقية . فما من شاب شريف الأصل كريم المحتد يتمنى ان يكون هو فيدياس عندما يرى تمثال جوبيتر في بيزا . . . أو أن يكون هو أناكريون أو فيليتاس، رغم إعجابه بشعرهما. فعلى الرغم من ان العمل قد يكون جيداً فإن ذلك لا يستلزم بالضرورة احترام صاحبه »[1] .

يا لسخرية القدر! إن الفنانين الذين صنعوا مجد أثينا الخالدة قد باءوا باحتقار الأثينيين. لقد كان جزاؤهم الازدراء وعدم المبالاة. لقد بخسهم حقهم شعب عظيم طالما علّم الناس احترام الحقوق ، لا لشيء إلا لأنهم لم ينقطعوا للدراسات الشريفة الراقية .

ويزيد اكسينوفون (355 ـ 427 ق . م) هذا الأمر وضوحاً عندما يقول « ان الحِرَف التي تسمى فنوناً آلية تحمل وصمة اجتماعية وتُعدُّ حقاً أعمالاً غير مشرفة في مدننا ، وذلك لأن هذه الفنون تُشوه أبدان من يشتغلون بها وأبدان كل من يقع بصره عليهم، وذلك لإرغامها إياهم على حياة القعود، والمعيشة داخل الجدران، وعلى قضاء اليوم بأكمله بجوار النار في بعض الأحوال . وهذا الانحلال البدني ينتج عنه انحلال روحي أيضاً . وفضلاً عن ذلك لا يجد العاملون في هذه المهن الوقت اللازم لأداء واجبات الصداقة أو

---

(1) نقلاً عن فيليب فرانك : فلسفة العلم ص 50.

واجباتهم من حيث هم مواطنون . ويترتب على ذلك ، النظرُ اليهم على أنهم أصحاب رديئون ومواطنون رديئون . ولا يسمح القانون للمواطن في بعض المدن ، ولا سيما في المدن المحاربة باحتراف مهنة آلية »[1].

2 ـ لقد كان أفلاطون (429 ـ 347 ق . م) من عمالقة الفكر اليوناني ، وكان يعارض هو أيضاً كل دعوة الى الاتصال بالمادة والتعامل معها. وقد وجَّه نقداً شديداً للعلماء الذين دنسوا الهندسة بالتطبيقات العملية. لقد عيرهم أفلاطون وأعلن سخطه عليهم ، لأنهم أفسدوا الهندسة ولم يحترموا تميزها من غيرها ، عندما انحدروا بها من عالمها العقلي الشريف الى العالم المادي الخسيس . فإن كل من يستخدم الآلات والأدوات الميكانيكية في الهندسة لا بد ان يستخدم المادة ، وهذه تحتاج الى كثير من المعالجة اليدوية ، وهنا الطامَّة الكبرى[2] لقد كان أفلاطون يطلب من الفلكيين أن يتفكروا في السموات لا ان يضيعوا وقتهم في رصدها ، وكان يثور على كل بادرة تمس قدسية الكواكب . إنه لم يقبل أبداً تعاليم الفلاسفة الطبيعيين القدماء الذين كانوا يقولون ـ ويا لهول ما يقولون ! ـ ان الشمس والقمر والنجوم كتل من المادة الصلبة ، كالصخور التي على سطح الأرض سواء بسواء . وهكذا كان أفلاطون عدواً للعلم القائم على الملاحظة والتجربة . فالطريق الصحيح إلى معرفة الأشياء ـ كما يقول في محاورة (فيدون) وهو يشرح مذهبه في خلود النفس ـ إنما يكون بالتصفية والتنقية والتحرر من الجسد ، وبذلك يكون أكثر اقتراباً من المعرفة الحقيقية . بل هو في نزاعه مع الفلاسفة الطبيعيين السابقين على سقراط يحمل على مجرد استخدام الحواس أداة للمعرفة والاكتفاء بها وحدها دون العقل ويدعو بقوة إلى استبعاد وسائل تفسير الظواهر الطبيعية بالطرق المادية . يجب أن نتجنب الاتصال بالمادة إلا ما كان في غاية الضرورة ، وأن نظل متحررين من الجسد الى أن يحررنا الله منه بالموت . وبذلك يكون الطريق الصوفي هو الطريق

---

(1) نقلاً عن فارنتون : العلم الاغريقي 33/1 .

(2) نقلاً عن فيليب فرانك : فلسفة العلم ص 51 .

القويم لفهم الأشياء . فالتصوف والمجاهدة والرياضات النفسية هي وسائل المعرفة في نظر أفلاطون ، أي إن تجنب العالم والابتعاد عنه هو الطريق إلى معرفته ! ومن هنا فإن أفلاطون لم يضف شيئاً الى العلم بل لقد جنى عليه وأعاق سيره وتقدمه . لقد أنجب أفلاطون رياضيين كثيرين ، ولكنه لم يكن هو رياضياً فذاً ، فقد كانت إسهاماته في الرياضيات فلسفية أكثر منها رياضية . لقد كان من الممكن ان يسدي خدمات جليلة إلى العلم وإلى الحركة العلمية في عصره ، ولكنه لم يفعل ، وذلك لأن ما كان يبهره في الرياضيات إنما هي تلك الحقائق الرياضية الخالدة التي لا تعتمد على التجربة ، أعدى أعدائه، ألا فلتخسأ التجربة وتبًّا لها من وسيلة ! ولذلك فقد نظر شزراً إلى كل ما كان منها على صلة بالمادة ـ مصدر كل شر وفساد ـ من قريب أو بعيد . فهو في (الجمهورية) يحمل على الأشكال الهندسية المرئية العلمية ويُشيد بالأشكال الهندسية المطلقة : المثلث المطلق والمربع المطلق والدائرة المطلقة . . . وقد بلغ من عدائه للهندسة الحسية العلمية أنه كان يعد مجرد تكوين الأشكال أمراً يتنافى وأصول الدراسة الصحيحة[1].

لقد انجب اليونان علماء فطاحل ومخترعين عظماء بالمعنى الذي لهاتين الكلمتين اليوم ، وذلك في العصر السابق على سقراط مثل أيدوكس وارخيتاس ، لكن الكثيرين هبوا لمعارضتهم ، وعلى رأسهم افلاطون والفيثاغوريون والاورفيون وأشباههم من أصحاب الاتجاهات الدينية والصوفية والعقائد السرية ، وقاموا بمحاولات حثيثة لإرجاع القوى الغيبية والعوامل الخارقة للطبيعة الى عرشها . ونجحوا في ذلك نجاحاً منقطع النظير . فالتقاليد الفلسفية الراسخة كانت أقوى من أن تزعزعها هذه البراهين العلمية التي اجتُثَّت من أصولها . لقد قتلوا الوليد في المهد . وهكذا ضاعت سدى جهود مضنية لفهم العالم فهماً مادياً سليماً . فكثيراً ما فشلت النظريات العلمية في الذيوع

---

(1) أنظر سارطون تاريخ العلم الجزء الثالث الفصل السابع .

والانتشار لا لشيء إلا لأنها لم تستطع ان تندمج في الدين والعقائد ، وفيما هو أصيل وعريق من التوجهات والمنازع . فما دام اليونان القدامى يحتقرون العمل اليدوي ، وما داموا ينظرون الى الأبحاث التجريبية في الميكانيكا والفيزياء على أنها عمل يحط من قدر الرجل الحر ويحول بينه وبين الدراسات الشريفة ، فلا أمل يُرجى منهم في تحقيق الوحدة الوثيقة بين البحث العلمي والتطبيق العملي . ولن يتم ذلك قبل ان تتعزز مكانة العمل الصناعي على نطاق محلي ضيق عند العرب أولاً ، ثم على الصعيد العالمي بعد ذلك بقرون على أثر الثورة الصناعية الكبرى في أوروبا .

ان افلاطون لم يكن يؤمن بإمكان وجود علم للطبيعة بمعناه اليوم ، بل لقد حمل على أي محاولة لإنشاء مثل هذا العلم، ولم يفهم أبداً الدور الذي يمكن ان يقوم به العلم التطبيقي في تحسين حال الانسانية . ولذلك قصر اهتمامه على المسائل السياسية واللاهوتية والميتافيزيقية . ان مؤلفاته مليئة بالعبقرية السياسية والميتافيزيقية ولكنها - يا أسفي ! - خالية من العلم الطبيعي ، بل لعل الأدق ان نقول إنها قد الحقت بالعلم الطبيعي أفدح الأضرار ، وحتى هذه العبقرية السياسية ليست سياسية بقدر ما هي ميتافيزيقية، إنها أحلام ورؤى طوباوية ليس لها من السياسة إلا الاسم .

والعلم الطبيعي الوحيد الذي نجده عند أفلاطون هو الصق بالميتافيزيقية منه بالعلم أيضاً ، وقد عرض لعلم الطبيعة الميتافيزيقي هذا في محاورة (طيماوس) التي يقدم لنا فيها صورة عن خلق العالم كما يفهمه هو . ففي هذه المحاورة يؤكد أفلاطون ان عالم الظواهر ما هو إلا صورة للعالم الأبدي المثالي وان السبب في خلق عالمنا المحسوس والمتغير على منوال العالم الأبدي المثالي إنما هو خيرية الله تعالى وسُموه . وبعبارة أخرى ان المسألة الأساسية في هذه المحاورة هي فكرة القصد الآلهي والغائية الآلهية . فالعالم واحد وشكله كروي كامل التكور لأن الكرة أفضل الأشكال ، وله نفس كالأجسام الانسانية سواء بسواء . وهذه النفس توجهها قوى قدسية وفق القانون الخلقي للكون . والغاية التي من أجلها أنعم الله على الانسان بالنظر والسمع إنما هي

تمكينه من ان يتعلم القانون والنظام من الفلك والموسيقى وان يطبق ذلك على حياته الخاصة .

وفوق ذلك إن أفلاطون قد سلب الانسان كل قدرة على الخلق والابداع . فهو لم يعتقد قط ان الانسان قادر بقوته الذاتية على أي شيء ، ان عليه ان ينتظر حتى يبدع الله فيه مثال هذا الشيء أو قالبه . فالنجار لا يمكنه صنع سرير إلا إذا سدد عين العقل في مثال السرير الذي صنعه الله في الأزل ، وان أولئك اليونان الذين تُنسب اليهم بعض الاختراعات قد سرقوا براءة الاختراع من الله ، فتباً لهم وسحقاً ! فالاختراع فيه افتيات على الحقوق الإلّهية وفيه جرأة وقحة ما كان أجمل بالانسان ان يربأ بنفسه عنها ليكون جديراً باسم الانسان[1] .

أجل ، ان افلاطون عدو لدود للعلم ، وقد ورث ذلك من أستاذه سقراط ولكنه ذرَّف عليه . ثم أورث هذه العداوة لتلميذه ارسطو من بعده . والغريب ان عمالقة الفكر اليوناني قد جنوا أكبر الجناية على العلم اليوناني . فيا لسخرية الأقدار ! ان افلاطون رجل زِمِّيت محافظ ، فهو لا يطيق أبداً سماع أي رأي جريء فيه خروج على التقاليد الدينية والميتافيزيقية في عصره . ولذلك فهو يسخر من انكسيمندر الذي قال ان الانسان أصله سمكة ، فيؤكد افلاطون العكس ويقول ان السمك اصله انسان لا عقل له على الاطلاق ، وان الأغبياء ـ كانكسيمندر ـ إذا كانوا قد مُسخوا أسماكاً فإن غيره من بلهاء المتفلسفين قد مُسخوا طيوراً . فالطيور إنما نشأت من تغير في الشكل حدث للرجال الخاملين قليلي الذكاء ممن لم يفتهم التأمل في الأشياء التي في العالم الأعلى ، ولكنهم لغبائهم اعتقدوا ان اكثر الشواهد مدعاة للثقة إنما هي شواهد الحس ولا سيما حاسة البصر . وهكذا فبدلاً من أن يقول افلاطون بالتطور قال بالتدهور المطرد ، وعلى أساس هذا التدهور يفسر وجود المراة والحيوانات من

---

(1) أنظر بنيامين فارنتون العلم اليوناني صفحة 126/1 .

الانسان . فالـرجال الـذين خلقوا في المـاضي وكانـوا يتصفون بـالجبن والخور أعيدت ولادتهم نساء في الجيل التالي ، كما ان أولئك الـذين يجهلون الفلسفة ولم يتأملـوا العالم الأعلى قـد مُسخوا حيـوانات تمشي على أربـع[1] ! وإذا كان يحمد الله على شيء فإنه يحمده لأنه وُلد ذكراً ولـم يولد امرأة[2] ! !

والخلاصة ان العلم الطبيعي لا وجود له عند أفـلاطون. إنـه كلمة لا معنى لها في فلسفته ، وما ذلك إلا لأنه لا وجود للعالم الطبيعي . فإن ما يسمى بهـذا الاسم إنمـا هو ظل للعـالم الحقيقي ، عـالم المثـل والصـور العقليـة الخـالـدة المطلقة ، ومتى كان الظل يُغْني عن الأصل ؟ فلا علم للظلال والأشبـاح ، إنما العلم للحقائق الثابتة والمدركات الكلية أو المثل .

فالمثل هي معاييرنـا الدائمـة ، وبحصول صـورها في العقـل يحصل لنـا العلم الطبيعي الحقيقي ، فهي الموضـوع الحقيقي للعلم . إنها الأسس الأولى للعالم ولا أساس لها ، وهي جوهر الأشياء ولا جـوهر وراءهـا ، وهي مطلقـة لا ترتبط بزمان ولا مكان ولا يحدها زمان ولا مكان . وهي عـامة ، فمثـال الانسان ليس هـذا الانسان أو ذاك ، ليس هـذا الانسان الجزئي الخـاص الفـاني ، بـل مثاله الحقيقة الكلية العـامة لكـل إنسان. وهي حقيقـة غير مـادية بـل هي معان مجردة ، والأشياء المادية إنما تتشبه بها . وكل مثال وحدة لا تتجزأ وإنما يتعـدد الأفراد في عالم الظلال والأشباح ، وهي أبدية سـرمديـة كاملة لا يعـروها تغيـر أو فسـاد أو فناء، وهي مصـدر المعرفـة الحقيقيـة للوجـود بقـدر مـا هي مصـدر للوجود[3] .

3 ـ ورغـم ان أرسـطو (384 ـ 322 ق . م) يُعـد هـو وافـلاطـون على طـرفي نقيض فإنـه لم يستطع ان يتجـرد من أفلاطـونيته في جـوانب كثيـرة من فلسفته ، وعلى وجه الخصوص في مذهبه في العلم الطبيعي الذي يهمنا هنـا .

---

(1) المصدر السابق صفحة 141 .

(2) ول ديورانت مباهج الفلسفة 200/1 .

(3) محمد عبد الرحمن مرحبا : من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الإسلامية ص 129-130 .

فهو في تفسيره للعالَم لا يقل عن أفلاطون ازدراءً بـالمادة المحسـوسة لعنـة الله عليها. إنه كأفلاطون لا ينظر الى هذا العالَم على أنه عَالَم واحد بل هـو يقسمه إلى عالَمين اثنين عالَم ما فوق فلك القمر ، عالَم الأشياء الخالدة التي لا بدايـة لهـا ولا نهـايـة وهـو العـالَم الالهي ، عـالَم السمـوات العلى ، عـالَم الحقيقـة السرمديـة التي لا تتغير ولا تتبـدل ـ وعالَم مـا تحت فلك القمر ، عـالَم الكون والفسـاد ، أي عالَمنـا الأرضي المحسوس ، عـالَم التغير والتبـدل حيث تتـولـد الأشياء وتتحلل . الأول تنجذب فيه الأشياء الى أصلها في السماء لأنها روحانية شريفة ، والثاني تنجذب فيه الأشياء الى معـدنها في مـركز الأرض لأنهـا ماديـة ثقيلة . العالَم الأول جدير بالتكريم والتعظيم ، إذ هو عالَم قُدسي سام لا تدركه الأبصار ولا تصل إليه الألحاظ ، إنه موضوع للعبادة والتأمل أكثر منه مـوضوعـاً للدراسة العلمية . وخلافاً لعالَمنا الأرضي الذي يتكون من العناصر الأربعة الماء والهواء والنار والتراب ، فإن العالَم السماوي يتكون من العنصر الخـامس ، وهو عنصـر يختلف في مادتـه عن أي مادة أخـرى تـوجـد في عـالمنـا الأرضي وهـو الأثـير. وكـما تختلف المـادة التي تتكـون منهـا السـماء في هـذا التصـور عن مـادة الأرض ، كـذلك تختلف قـوانين الحركـة فيهما . فهنـاك الميكانيكـا السماويـة والميكانيكا الأرضيـة ، ولكل منهمـا قوانينـه ونواميسـه . ولم تستعد الميكـانيكا سيـطرتها على السمـاء حتى جـاء نيـوتن الـذي جمـع بين هـذين الضـربين من الميكانيكا في ميكانيكا واحدة وأخضعها لقوانين واحدة[1] .

وهو كأفـلاطون ـ يؤمن بـالغائيـة وفلسفة القصـد الإلّهي ، لا يكاد يختلف عنـه في شيء . والسماء كـرة ، لأن الكرة هي الشكـل الكامـل ، وهي تتحـرك حركة دائرية لأن هذه الحركة هي الحركـة الأبدية السرمـدية ، كيف لا وهي لا بداية لها ولا نهاية .

ان ارسطو فيما يبدو يختلف عن أفلاطون في علم النفس . فهو في كتـابه (في النفس) يقـدم تحليـلاً بـارعـاً لـلأسـاس الفسيـولـوجي لحـركـات النفس المختلفة ، كالتخيل والذاكرة والحلم والعواطف . ولعل أعظم مـأثرة تُسجَّـل له

---

(1) المصدر السابق صفحة 175-176 .

في هذا الباب هي الحاقه علم النفس بالعلم الطبيعي وجعله إياه فرعاً له ، بعد أن كان جزءاً لا ينفصل عن ميتافيزيقا أفلاطون وأساساً من أسسها . لكن أرسطو سرعان ما عادت اليه أفلاطونيته في علم النفس أيضاً . فقد أثبت في معرض بحثه العلم الإلّهي والمنطق أنه إلى جانب التفكير في الأشياء، هناك التفكير في الفكر . وهذا التفكير ليس له مضمون مادي ، وإنما مضمونه صوري بحت ، وهذه هي أعلى صور رياضة العقل عنده،وهي الطريق إلى الخلود ،وعلى قدر ما يمارس الإنسان هذه الرياضة يكون خالداً . فعند التفكير في الفكر يتصل الجزء الخالد من الإنسان بكل ما هو خالد . إن هذا الجزء من النفس الذي يفكر في الفكر لا يموت أبداً .

ان النفس عند ارسطو صورة للبدن . فإذا كان من غير الممكن للصورة ان تفارق المادة ، كذلك من غير الممكن ان تفارق النفس البدن او ان توجد منفصلة عنه . فالنفس ليست زائراً غريباً سُجن مؤقتاً في الجسد كما يقول افلاطون - إنها والجسد وجهان لكائنٍ حي واحد. وكذلك العقل ليس شيئاً متميزاً قائماً بذاته مستقلاً عن نشاط الحواس أو مبايناً لها ، وإنما هو جزء لا ينفصل عن العملية الحية كلها. ومع ذلك فإن أرسطو عندما يتحدث عن العقل الفعال فإنه يصفه بصفات تميزه من جميع قوى النفس وجميع الأشياء المادية المحسوسة . إذ يقول إنه مفارق ، أي غير ممتزج بمادة وليس له عضو يقوم فيها، وإنه وحده لا يفنى بفناء البدن لأنه خالد دائم . ان ارسطو مضطرب غاية الاضطراب في تصوره لهذا العقل ، وقد أحدث ذلك بلبلة كبيرة سواء عند شراحه اليونان أو العرب[1] .

كذلك تنتفض فيه افلاطونيته عندما يعالج علم الحياة الذي وقف عليه السنوات الاثنتي عشرة الأخيرة من حياته . فقد سبق ان أشرنا الى رأي انكساغوراس العظيم القائل بأن ملكية اليدين هي التي جعلت الانسان اكثر الحيوانات ذكاء . فبدلاً من ان يتبنى ارسطو هذا الرأي وينافح عنه نراه يقول بلا

---

(1) المصدر السابق صفحة 183-184 .

التواء ولا مواربة ان طبيعة الانسان وجوهره قُدسيان ، وان التفكير واستعمال الذكاء هما خاصيتان ينفرد بهما كل ما هو قُدْسي شريف . لقد قال انكساغوراس ان ملكية اليدين هي التي جعلت الانسان اذكى الحيوانات . لكن ارسطو تأبى عليه افلاطونيته إلا ان يرفض هذا القول ويؤكد انه إذا كانت للإنسان يدان فما ذلك إلا لأنه أذكى الحيوانات . فإنما الأيدي أداة، والطبيعة - كالانسان الذكي - إنما توزع الأدوات على من يستحقها ويستخدمها على الوجه الصحيح ! فالمعقول - بحسب ارسطو - إعطاء عازف المزمار العبقري مزماراً لا إعطاء المهارة في العزف لمن اقتنى مزماراً . فالطبيعة إنما تسعى دائماً الى الأفضل وانما تفعل الأفضل . وعلى ذلك فليس الانسان حكيماً لأن له يدين بل له يدان لأنه حكيم[1]. وهذا ما يؤكده في كتابه (أجزاء الحيوان) . إنه يبني أحكامه على بادي الرأي المشترك دون أن يجرؤ على الخروج عليه . ففي الخروج على بادي الرأي صعوبات ليس في طاقة كل انسان احتمالها حتى ولو كان أرسطو . هنا يظهر الفارق الكبير بين أرسطو المحافظ الزميت وبين انكساغوراس المتحرر العظيم .

وارسطو لا يقل عن افلاطون احتقاراً للفنون العملية وازدراء للآلات الميكانيكية التي كانت عنوان عبقرية ارخيتاس الصقلي . وهو يقول انه يجدر بالناس ان يقدموا هذه الآلات لأولادهم ليتسلوا بها ويكفوا عن تحطيم الأدوات المنزلية! والناس في نظره طبقتان وإحدى هاتين الطبقتين متخلفة عن الأخرى بالفطرة تخلفاً كبيراً كتخلف الجسد عن الروح ، والبهيمة عن الإنسان . إنها طبقة العبيد ، والخضوع الذليل هو ما يصلح لهم . إن كل مبلغ العبد الطبيعي من العقل هو أن يفهم الصواب دون أن يكون حائزاً عليه، هنا يكمن الفرق الكبير بين العبد وبين البهيمة إذ هي لا تفهم الصواب ولا تخضع له . هذا كل ما بينهما من خلاف[2] والغريب ان ارسطو أيضاً يلحق المرأة بالعبيد . فقد وضع المرأة في مرتبة متخلفة من النمو وفسر وجودها بأنه نتيجة إخفاق الطبيعة في أن

---

(1) فارنتون : العلم الاغريقي 153-154/1 .

(2) فيليب فرانك : فلسفة العلم صفحة 50 .

تصنع رجلاً . فالمرأة إنما تتعلق بطبقة العبيد من حيث تبعيتها الطبيعية وعدم قدرتها على المشاركة في الأمور العامة(1) .

إن الفيزياء عند أرسطو هي ما يسميه اليونان فوزيكوس Phusikos من Phusis التي تُترجم عادة بكلمة (طبيعة) وإن كانت هذه الكلمة لم تكن تدل على المعنى الذي يستفاد من علم الطبيعة اليوم . فكلمة فوسيز Phusis كانت عند اليونان ترتبط بفكرة النمو ، وكان من الممكن أن يقول الإنسان ان من « طبيعة » ثمرة المشمش مثلاً أن تنمو شجرة مشمش . وفي هذه الحالة يكون الانسان مستخدماً الكلمة بالمعنى الأرسططاليسي. إن « طبيعة » الشيء عند أرسطو هي غايته التي يسعى لها وهو ينمو . فالغائية هي جزء لا ينفصل عن مفهوم «الطبيعة» عنده. ثم إن علم الطبيعة كما يتصوره أرسطو لا يأتلف بحال من الأحوال مع المعنى الذي نفهمه الآن من الكلمة من جانب آخر أيضاً غير الجانب الذي ذكرنا . فهو لا يتعرض لأي ظاهرة من الظواهر التي تدخل في موضوعات هذا العلم اليوم . فمثلاً نحن لا نجد بين مباحث العلم الطبيعي الأرسططاليسي بحثاً في الضوء والحرارة أو الصوت وغير ذلك من الموضوعات التي يدور عليها العلم الطبيعي في هذه الأيام . فإن كل ما يهتم به العلم الطبيعي عن أرسطو إنما ينحصر في الجسم من جهة ما يلحقه من عوارض الحركة والتغيير والنُقلة . وليته كان يقتصر على الجسم والحركة والتغيير بالمعنى المادي ، ولكنه إنما يتناولها في الغالب من وجهة نظر ميتافيزيقية صرف ، فيغوص في معان وتصورات ومفاهيم لا يخطر لأي فيزيائي اليوم أن يتطرق إليها كالله وقدم العالم والزمان والمكان الخ . . .

فلم يخرج ارسطو عن كونه فيلسوفاً ، واليونان من الشعوب القليلة في العالم التي تقدم العقل على الحس والنظر على العمل. هنا تكمن عبقرية الفكر اليوناني . إنها تتجلى في التأمل النظري والمنطق الاستدلالي . إن هذا العقل الذي ظهرت روائعه وأعظم آثاره في فلسفتي افلاطون وارسطو من جهة

---

(1) ول ديورانت : مباهج الفلسفة 1/200-199 .

اولى وفي العلم الرياضي المجرد والهندسة النظرية من جهة أخرى كان بطبعه ونشأته عقلاً تأملياً استنباطياً قياسياً، فلم يهتد إلى الطريق الوحيد إلى الاكتشاف والتقدم ، طريق المنهج التجريبي المنظم ، هذا المنهج الذي سيرسم خطوطه الأساسية الفلاسفة والعلماء العرب أولاً ، ثم علماء عصر النهضة في أوروبا في أعقابهم . أجل الفكر الاغريقي يقوم على افتراضات يكفي ان يقبلها المنطق وان تناقضت مع الواقع ، وعلى أساس هذه الافتراضات تنشأ ـ من طريق التسلسل المنطقي ـ آراء منطقية غير واقعية دون ان يخطر لليونان على بال تجربة ما انتهوا إليه من نتائج إلا في حالات نادرة جداً، وذلك لاقتناعهم بالتطابق التام بين المنطق والواقع . من ذلك مثلاً قولهم بالطبائع الأربع وبناؤهم الفكر الطبي كله على هذا الأساس الوهمي . فهناك طائفة ممن كتبوا في الطب القديم يتخذون أساساً لأبحاثهم ومناقشاتهم فرضاً قد تعسفوا في اختياره كالحار والبارد والرطب واليابس ، وبذلك يقللون من عدد أسباب الأمراض والوفيات بين الناس . يجب أن يُعنى الإنسان في الطب أو غيره لا بوضع النظريات الفلسفية بل بالتجربة والملاحظة والتفكير المنطقي معاً. ان النظرية يجب أن تكون مبنية على الحقائق والوقائع والمشاهدات لا ان تكتفي بالحدس والتأمل والتفكير . . . هذا ما لم يدركه اليونان في العصر الكلاسيكي الذهبي ، عصر سقراط وأفلاطون وارسطو . انه الاستعلاء اليوناني بطبيعة الحال والازدراء اليوناني لكل ممارسة عملية وراء هذا التعسف وسوء الحكم . فاليوناني الأصيل إنما شأنه التأمل لا العمل ، والمنطق لا التطبيق . ولكن التأمل والمنطق وحدهما لا يغنيان من الحق شيئاً . إنهما مضللان ولا ثمرة لهما إلا ما يشبعان في النفوس من غرور وكبرياء . وكما قال الدكتور جونز في القرن الماضي في تعليقه على كتاب (الأوبئة) لمؤلف يوناني قديم مجهول : بينما أخذت الفكرة التي تعزو المرض الى عامل ديني تختفي عند القدماء تدريجياً ظهر عنصر مزعج آخر مثله يناوىء تقدم الطب القائم على العلم وبدأ يثبت وجوده : إذ حلت الفلسفة محل الدين وأخذت الفلسفة الاغريقية تنشد تجانس المظاهر الطبيعية المتعددة . وأدت الرغبة في إيجاد هذا التجانس الى التكهن والتخمين وإهمال

الحقيقية الواقعة ، في محاولة لوضع نظرية شاملة . ان الدافع الذي جعل طاليس يعلن ان جميع الأشياء أصلها من الماء قد حدا بكاتب أحد مقالات مجموعة الكتب المنسوبة الى ابقراط الى إعلان ان الأمراض كلها إنما سببها الهواء، أي إن الفلاسفة قد حاولوا تفسير الطبيعة « وعيونهم مغمضة » على حد تعبير دارمبرغ . ولم يكن في هذه المحاولة شذوذ من جانب الإغريق. فالعقل الإنساني معتاد على تمرين مثير هو عبور الفجوات وثباً إذا لم يستطع اجتيازها مشياً على الأقدام . إنه يتجاهلها حتى لكأنها غير موجودة . وقد أسرف اليونان في هذا الاتجاه الى حد الشطط[1] .

وهكذا فالعلم الطبيعي عند افلاطون والى حد بعيد عند ارسطو هو أداة منطقية أكبر همها التركيب الذهني للعالم اكثر منها السيطرة عليه . لذلك كان الشغل الشاغل لأفلاطون وارسطو وهاجسهما فهم العالم كما هو ولم يهتما يوماً بتغييره . ففي المنطق وحده إنما تنمو المعرفة وفي التأمل والحدس غنى عن كل تغيير .

نعم لقد استخدم الاغريق التفكير المنطقي حيث كان يجب استخدام الطرق العلمية . لكن ذلك ليس معناه ان نبخس هؤلاء الاغريق الذين كانت أعينهم مغمضة ، حقاً من حقوقهم التاريخية . فقد تركوا شيئاً آخر مفتوحاً على مصراعيه وهو عقولهم . ومع ان إغماض العيون قد أخّر نمو العلم ، فإن تفتح العقول قد أدى الى انجازات هائلة في الرياضة والمنطق . كما ان الفلسفة التأملية التي هي عنوان عبقرية اليونان لا يجوز التنكر لها الى حد الكفر بها وبأصحابها . كفى المرء نبلاً ان تُعد معايبه . إنها لا تخلو من المثالب ، ولكن عطاءها الكبير لا يجحده إلا مكابر . إنها ام العلوم وصرخة العقل في وجه اللاعقل . فلو لم يكن لها من المزايا إلا هذا الايمان الراسخ بالعقل فناهيك به نفعاً . هل تطلبون منها معجزة ؟؟ يكفيها فخراً أنها استطاعت ان تبذر بذور الشك في الاسطورة حتى تهاوت قلاع الاسطورة وزالت دولة الاسطورة .

ورغم الارهاب الفكري ـ إذا صح التعبير ـ الذي نشره أفلاطون وارسطو

---

(1) أنظر كيتو : الاغريق صفحة242-249

على العقـول والأذهان في عصـرهما والعصـور التي تلته ، ورغم الـطوق الـذي ضـرباه على العلم التجـريبي ، فقد استـطاع بعض أفذاذ اليـونـان الشجعان أن يفكوا الطوق ويفلتوا من الحصار ليخرجوا الى الهواء الطلق ، يفكـروا لأنفسـهم لا ليتـولى الأوصيـاء التفكيـر عنهم . ففي أعمـال هؤلاء « الخــوارج » العـاقين وامثـالهم لا نزال ـ وسنـظل ـ نتنفس نسيم العقل الهـادىء الرصين وعبيـر الفكر الممنهج المدعوم بالتجربة والمـلاحظة . ولعـل أرخميدس (287 ـ 212 ق . م) أشهـر هؤلاء في العصر القـديم. فقد كـان مثالاً حيـاً لرجـل العلم بـالمعنى الحـديث للكلمة ، وهَبَ نفسه للعلم والمعـرفة ونـذرها لهيكـل الحقيقة ، حتى كان أحد سدنته ، وكثيراً ما كان يهمل طعامه وشرابه والعناية بجسمـه لكي يتتبع نتائج نظرية رياضية جديدة أو يرسم بالزيت أشكالاً على جسمـه أو على الرمـاد في الموقد، أو على الـرمل الـذي اعتاد علمـاء الهندسـة أن يبسطوه على أرض منازلهم . فإن ما كان يهمه ويُعنى به أشد العناية وتلذ له دراسته على الدوام هـو العلم البحت يتخـذه مفتاحـاً لفهم الكون وسبـر أغـواره . ولم يكن ارخميـدس يكتب للطلاب ، بل للعلماء المتخصصين ، ينقل اليهم بعبارات قصيرة جامعـة النتائج العويصة التي استخلصها من بحوثـه . وقد افتتن كـل من جاء بعـده من الأقدمين بما تمتـاز به رسـائله العلمية من ابتكـار وعمق ووضوح . وقـد وصفها افلوطرخس بقوله «ليس من المستطاع ان نجد في الهندسة كلها مسـائل أصعب وأعوص ، ورروحاً أبسط وأوضح مما احتوته هذه الرسائل. ومن النـاس من يعزو هـذا الى عبقريتـه الفطريـة ، ومنهم من يظن ان هـذه الصحف السهلة الميسرة كانت ثمرة كدح وجهود لا يصدقها العقل »[1]

ومعنى هذا انه كان هناك في العصور اليونانية القديمة (قبل سقراط) ثُلة من الرجال الذين فهموا الطريقة العلمية واتبعوها ، ولكن هذه الطريقة لم تجد قابلية في الثقافة اليونانية . فلم يتردد لها صدى ولا كان لها أثر يذكر في تكوين العقل اليوناني . إنها لم تجد لها معنى ولا تاريخاً ولن تجد ذلك إلا داخل ثقافة أخرى

---

(1) ول ديورانت : قصة الحضارة 140/8.

مباشرة لها هي الثقافة العربية الاسلامية ثم الثقافة الأوروبية بعد ذلك . ولكي ندرك مدى غربة ارخميدس وارخيتاس واتباعهما ، وما اصطنعوه من مناهج وأساليب في البحث والنظر داخل الثقافة اليونانية ، يكفي ان نقارن بين الصمت المطبق الذي احيطوا به بين أهلهم وعشيرتهم وبين الأصداء الواسعة المكتسحة التي ستكون لهم عند بني موسى بن شاكر وابن الهيثم وابن النفيس وابن البيطار. . . هذا إذا سمع هؤلاء بها، وإذا لم يسمعوا ـ وهو الأرجح ـ كانوا هم صانعي مادتهم، وتلك مأثرة أكاد أقول ما سبقهم إليها أحد من العالمين، لقد قمع أفلاطون وأرسطو علم أوديكس وأرخيتاس وأشياعها وسيقمعان علم أرخميدس وتلاميذه . لقد رأى هؤلاء طريق الحقيقة في البحث العلمي التجريبي ، وأما أفلاطون فقد رآها في تأمل المُثل ، كما رآها ارسطو في المنطق الصوري التجريدي . أجل لقد قمع ارسطو علم اوديكس وروحه العلمية النقدية العقلانية ، إيماناً بقدسية العقل الحدسي التأمل المعصوم عن الخطأ وقدرته وحده على اختراق الكون والوصول الى حقائق الأشياء . لقد كان اوديكس وارخيتاس وارخميدس غرباء في صميم الثقافة التي انجبتهم ، وأما افلاطون وارسطو ورهطهما فقد كانوا حاضرين فيها حضوراً طاغياً مهيمناً على الصدور بقوة واصرار على مدى تاريخها ، فإذا ذُكرت لم يُذكر غير افلاطون وارسطو والسائرين في ركاب افلاطون وارسطو .

وحسب العرب فخراً ان العلوم الطبيعية التي كانت عند اليونان دراسات ميتافيزيقية تقوم على منهج عقلي تأملي استنباطي ، تحولت على أيدي العرب الى دراسات علمية تقوم على منهج تجريبي استقرائي دون ان يفرّطوا في حقوق العقل والايمان بالعقل ، بل لم يزدهم المنهج التجريبي إلا إمعاناً في الايمان بالعقل ورسوخاً في إعمال العقل والاعتماد على العقل . وبقدر ما استخدم الاغريق التفكير المنطقي منهجاً لاكتشاف الحقيقة انكب العرب على الملاحظة والتجربة واصطنعوا مناهج البحث العلمي دون ان يتخلوا عن المنطق والتفكير المنطقي .

والخلاصة ان الفكر اليوناني منذ سقراط ، فكر غير صالح لإقامة علم

الطبيعة بالمعنى الحديث للكلمة . وإذا توصل افلاطون أو ارسطو الى بعض الحقائق في هذا الميدان فإنما قد توصل اليها في غالب الأحيان بعقله لا بيده . فلا يخلو أن نجد في كتب هذين ورهطهما أقوالاً ونظريات لم تفقد اهميتها العلمية في الوقت الحاضر . لكن يجب ألا يغيب عن أذهاننا قط انها إنما هي مجرد تخمينات ، وانهم انما توصلوا اليها في إطار عام من النظر والاستدلال دون ان يستندوا إلا في حالات قليلة الى ما يمكن ان نعده بحق دليلاً علمياً . ولو أخذ المرء مجموعة النظريات « العلمية » التي أتى بها بعض هؤلاء الفلاسفة في سياق تفسيرهم الشامل للعالم لرأينا ان كل نظرية صحيحة يوجد بازائها في الوقت ذاته عشرات النظريات الخاطئة .

*

ان مثل هذه المواقف هي التي جعلت المنهج التجريبي السابق على سقراط ـ مهما كان ازدهاره ووعوده في أول الأمر ـ يُهجر طوال اكثر من الفي عام . فالتقاليد التي أدت الى هذا الازدهار سرعان ما تبددت أمام الزحف الافلاطوني ـ الارسطاليسي الأكثر انسجاماً مع الطبيعة اليونانية والأصدق تعبيراً عنها . وهكذا ففيما كان العصر البطولي للعلم يزداد تألقاً على أيدي الفلاسفة الطبيعيين الأولين حصلت ردة قاسية عادت بالفكر العلمي أجيالاً الى الوراء . ولولا هذه الردة لكُنا اليوم نطوف بين الكواكب والنجوم ولَما تخلَّف عصر الفضاء حتى أواخر القرن العشرين . أجل لقد حقق التقدم العلمي قبل سقراط خطوات رائعة لم يُكتب لها ان تستمر وإلا لكانت الدنيا غير الدنيا ولتبدل الناس غير الناس . ومن مهازل الزمن ان يتولى كِبْرَ هذه الرِدة عملاقان كبيران من عمالقة اليونان ، بل من عمالقة العالم قاطبة هما افلاطون وارسطو اللذان تتجسد فيهما الطبيعة اليونانية بكل مزاياها وعيوبها ، والتي تتلخص في هاتين الكلمتين : الايمان بالعقل والكفر بالمادة. فاقتدت العصور اللاحقة بقدوتهما وأورثا القرون الوسطى بل شطراً كبيراً من عصر النهضة الجدل والعقم وعبادة الأسماء الكبيرة . فكان يكفي أن يُنسب الى أحدهما هذا الرأي أو ذاك أمام النخبة الواعية حتى تنحني رؤوسهم ويخرُّوا للأذقان سُجَّداً ! لقد قال (الحكيم) ! وما على الآخرين إلا

ان يصمتوا . فإذا كان هذا هو شأن النخبة فما ظنك بمن دونهم ؟؟ لقد سارت جميع العقول في ركابهما إلا من رحم بك وقليل ما هم ! وإذا ما تصدى أحد للرد عليهما أوسعوه نقداً وتجريحاً وتقريعاً . نعم لقد انتفض أصحاب العقول الرشيدة وتحدوا سلطة (المعلم) و (الحكيم) ولكن على من تقرأ مزاميرك يا داوود ؟ من ذا يصيخ اليه السمع في هذا الضجيج العالي ؟ لقد طغى صوتهما على كل صوت ، فإذا أنت لا تسمع إلا هُما ، وما دونهما فهمس وحفيف لا يكاد يدركه السمع . لقد سطع نجمها حتى طغى على خيوط الضوء الصغيرة التي كانت تنتشر هنا وهناك لتنير عبثاً بعض الطريق . فالبرق الخُلَّب قد أعشى العيون وذهب بالأبصار .

ثانياً ـ العلم الطبيعي عند العرب

ان الانسان في أكثر أحواله وغالب أمره لا يبحث عن الواقع ولا يهتم بدراسته إلا إذا دُفع الى ذلك دفعاً ، وإلا فهو ساج غافل تشغله اللحظة التي هو فيها . انه يكتفي بالصور المشوشة والومضات الشاحبة التي ترد اليه . حسبُه ان يعيش ويضمن لنفسه وعياله حياة هنيئة ومستقبلاً مأموناً وليكن بعد ذلك الطوفان . فإذا ما فكر وتدبر فإن تفكيره محصور في هذا النطاق لا يغادره قيد أنملة . هذا هو حال أوساط الناس في كل زمان ومكان، لكن هناك نخبة لا يطيقون حياة القطيع، لقد خُلقوا ليكونوا رعاة.

والرعاة قلة في جميع الأمم ولكنها قلة تُغْني عن الألوف المؤلفة ، فليس بالعدد والكم يتقدم التاريخ ويُصنع التاريخ . ان هذه القلة هي أداة التاريخ وبها يفعل التاريخ . إنها تُنفذ ارادة التاريخ ، وان كانت تستطيع أحياناً ان تعرقل هي ـ لا القطيع ـ ارادة التاريخ . ان لبعض الأفراد قوة لا تُحدُّ يستطيعون بها ان يفرضوا إرادتهم على التاريخ . ومن هؤلاء الأفراد سقراط وبوذا والمسيح ومحمد وعمر ومعاوية والمأمون والفارابي وابن الهيثم والبيروني وابن خلدون ونيوتن وباستور وكوخ ولاقوازيية ولينين وماو وآينشتين وبرتراند رسل وماكس بلانك ولوي دي بروي . . . على تفاوت أقدارهم واختلاف أفاعيلهم واتجاهات

تفكيرهم ومناهج حياتهم .

لقد كان نصيب العرب كبيراً من هؤلاء الرعاة الذين رفضوا حياة القطيع . لقد كان فيهم قادة سياسيون وعسكريون عظام وعلماء فطاحل وفلاسفة مبرّزون . . . والعلماء هم الذين يعنوننا هنا فقد ندبوا أنفسهم للبحث والنظر ، وكان لهم إسهام كبير في جميع ميادين المعرفة .

لقد كان للعرب ثلاث مآثر يذكرها لهم العلم والحضارة . فقد انقذوا التراث اليوناني من الضياع والنسيان عندما كانت الحضارة اليونانية في طور الاحتضار .

وقد بدأ هذا الانقاذ في سوريا ، وتحديداً في دمشق ، بعد خمس وخمسين سنة من وفاة النبي عليه السلام ، وذلك في عهد بني أمية . فالخيبة التي مُني بها خالد بن يزيد عندما اضطر الى التخلي عن سدة الخلافة دفعت به الى أحضان العلم ، ومن هنا انطلق العلم العربي .

ولكن العرب لم يقنعوا بجمع التراث اليوناني وترجمته ونقله الى الغرب اللاتيني ، بل لقد أبدعوا هم أنفسهم آثاراً علمية جليلة ، وكانت لهم إضافات نوعية هامة سبقوا بها العلماء الأوروبيين . ومع تقديرهم لليونان فقد شق الكثيرون منهم عصا الطاعة على اليونان حفاظاً على استقلالهم وحرية تفكيرهم . ولا يمكننا هنا بطبيعة الحال استعراض جميع هؤلاء المنشقين الذين تجلت عبقريتهم في تصحيح المعلمين اليونان وتجاوزهم في البحث والنظر ، ولكننا نخص بالذكر اثنين من العلماء وهما إبن النفيس وإبن البيطار . الأول مكتشف الدورة الدموية الصغرى الذي فتح الطريق ـ بإقدامه على تصحيح بعض نظريات جالينوس ـ أمام روح علمي متحرر من الاعتقادات الدوغماطية . والثاني ابن البيطار العالم الكبير الذي بزَّ دسقوريدس وصحح أخطاءه وأبى أن يكتب شيئاً دون أن يكون مبنياً على التجربة الشخصية وقابلاً بالتالي للتحقق من صحته .

وهذا يسوقنا للكلام على مأثرة العرب الثالثة في التاريخ العلم والحضارة . لقد أبوا إلا ان يكونوا أمناء على التراث القديم وان يضيفوا إليه

الكثيـر من ذَوْب عقولهم وعصـارة ادمغتهم وأعصابهم ، وأن يهبـوا العالم الأداة الفعالة التي مكنتـه من تحقيق هذه الاضافات وإنجازها على خير وجه ممكن . إنها المنهج التجريبي الذي طلعوا به على العالم ليخرجـوه من ظلمات التفكيـر العقيم المشلول ، التفكيـر بلا أداة ولا متنفس . واشـرقت الأرض بنور التفكيـر الخصب المبدع ، ووضُع الكتاب العلمي ، وجيء بالباحثين والدارسين من كل صوب وحدب . لقد أدبر عهد وأقبل عهد وكان العرب سادة العهد .

إن السمة الغالبة على الذهن اليوناني هي كما قلنا، أكثرمن مرة، الحدس والتأمل والنظر العقلي . لقد كان يرى أن الإنسان الحر لا يليق به العمل اليدوي الشاق والحقيق بالازدراء . لقد اندفع نحو سماء الأفكار الكلية العامـة واستحقر كل جزئي محسوس . أما الذهن العربي فكان يؤثر بتواضع كبيـر أن يتتبع مسـار التجربة والملاحظة المتكررة ، وان يتقدم بصبـر وتؤدة من الجزئي الى الكلي ، وهذا هو المنهج الاستقرائي . فقد اكتشف العرب في وقت مبكـر جداً سـذاجة الأقدمين الذين أرادوا تفسير الظواهر المعقدة بالحدس والمنطق دون ان يستيقنوا واقعها بل حتى دون التبصر في خصائصها وميزاتها الأسـاسية. ولـذلك يمكن ـ إن لم يكن ينبغي ـ النظر الى العرب على أنهم هم مخترعو التجربة بالمعنى الدقيق للكلمة . فهم المبدعون الحقيقيون لمناهج البحث العلمي التجريبي ، وبالتالي للعلم الـوضعي . وعلى هذا النحـو أبدعـوا البصريـات والـطبيعيـات والكيميـاء التجريبية والـطب والفلك وعلم طبقـات الأرض . وكـان لهم قـدم راسخـة في الجغرافيا الفلكية وحساب المثلثات ، وخدموا علم الجغرافية من طريق الـرحلة ومشاهدة البـلاد والعباد ، وهـو ما يُعـرف بالمسـالك والممـالك ، وقـدموا لعلم الملاحة وعلوم البحار أعظم الفوائد وأهم الاكتشافات .

أما كيـف كان ذلك فإن حساب المثلثات ، وهو علم وثيق الصلة بالملاحة والفلك وتحديد المسافات وما الى ذلك ، هو العلم الذي وضع البتاني مبادئه ، وحقق على يد أبي الوفاء وثبات هائلة عام 980 م. فقد تمكن من الوصـول الى معادلات هامة كان لها أثر كبير في تقدم علم الفلك . وقـد أضاف نصيـر الدين الطوسي عام 1274 م مـا عرف بـاسم حساب المثلثـات الكريـة ، وهو إضـافة

منقطعة النظير . وقد كانت التحقيقات العربية في قياس طول البلاد وعرضها أقرب إلى الصحة من تحقيقات الجغرافيين اليونان . وأدق مثال على ذلك ان موضع طنجة بالنسبة الى الاسكندرية وفقاً لحساب بطلميوس يختلف اختلافاً كبيراً عن الحقيقة . فبينما أخطأ هذا الأخير بمقدار 19 درجة في طول بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) مثلاً فإن خطأ العرب لم يتجاوز درجة واحدة .

وهكذا فقد تطورت العلوم الطبيعية شأنها في ذلك شأن العلوم الرياضية التي حققوا فيها إنجازات رائعة . لذلك يصح النظر إليهم على أنهم هم المؤسسون الحقيقيون للعلوم الطبيعية في مفهومها الحديث[1] .

وعلى كل حال ان التجربة في دراسة الكيمياء والعلوم الطبيعية كانت من أبرز مآثر العرب . وهذا تطور واضح لا جدال فيه يعارض الفروض اليونانية الغامضة . إذ كانت الأسس العلمية التي أرسى قواعدها العرب ـ وبتعبير أدق نخبة متميزة منهم لها طراز خاص في التفكير ـ رفض أي شيء ما لم تدعمه الملاحظة الدقيقة أو تثبته التجربة الشخصية ، كما يقول هولميارد بحق في كتابه (صانعو الكيمياء) [2] .

فقد كان همهم الرؤية النافذة والواضحة للأشياء . إن هذا لهو البداهة بعينها في العصر الحاضر ، ولكن لم يكن الأمر كذلك في القرون الوسطى ، يوم كانت الانتلجنسيا الأوروبية المترعرعة في رحاب اللاهوت المسيحي والمستغرقة في تأمل ما وراء الطبيعة ، تربأ بنفسها عن القاء نظرة واحدة على الوقائع المحسوسة اللعينة . فهي ما كانت لتبالي بالطبيعة العينية للأشياء إلا بدالة الله والنفس وفي إطار العقيدة والايمان ، والا بقدر ما تنم هذه الطبيعة عما هو مفارق وغيبي ، ولم تكن ترى فيها سوى ذريعةٍ لحكمة ونقطة انطلاق لموعظة وأخلاق . انها لم تكن تهتم بالطبيعة في ذاتها ولذاتها . فالطبيعة رجس من عمل الشيطان .

هذا هو حال انسان القرون الوسطى اللاتيني بل النخبة الواعية فيها . لكن العكس هو الصحيح بالنسبة الى الانسان العربي في تلك القرون ، بل

---

(1) سديو : تاريخ العرب العام صفحة 439 .

(2) Holmyard: **Makers of chemistry** p.6.

حـال النخبة الـواعية فيهـا أيضاً ، وهـو فحص الأشيـاء بعيـداً عن نـطاق الـدين والعقيدة ، وعدم إصدار حكم نهائي إلا إذا كان مبنياً على الملاحظة والتجربة . لقـد كان البـاحـث العربي يقسـو كل القسـوة على أولئـك المتعصبين من رجـال الدين المتعالين والمتعالمين الذين يتعبدون النصوص ويتمسكـون بسلطة الكتب ويستغنـون بالعقيـدة عن البحث والنظر . فـإنما مـرام العلماء العـرب هو إدراك الأشياء الموجودة وكما هي موجودة فعلاً بصرف النـظر عن الحكمة من وجـودها وأغراض الله الكامنة وراء خلقه لها . لقد كان الباحث العـربي الحق لا يثق بما هو مكتوب ومقرر ، انه إنما يثق بما يراه بأم عينه . وكان في ملاحظاته وتجاربـه يبـدي من الاصرار والعنـاد والصبر على الانتـظام والمتابعـة بقدر مـا كان يبـديه علماء الفلك في رصد حركات الاجرام السماوية وتعقب مسارهـا . فهو مؤسس لرؤية جديدة للعالم ورائد للعلم الأوروبي العتيد . وبهذه الصفة فقد كان فاتحة سلالة كاملة من المفكرين اللاتين ظلوا بمعزل عن الاسكولائية وحركة الاصلاح المتشبثة ـ بعناد ـ بسلطة الكتب ، ووقعوا بدرجات متفاوتـة تحت التأثيـر العربي عبـر بصريـات ابن الهيثم التجريبيـة ونبـاتـات ابن البيطار وفلكيـات البـطروجي والصوفي وجملة المعارف العربية المختلفة .

ليس المنهـج العلمي عملاً بسيـطاً إلا في عرضـه الأدبي ، بل هـو شيء غريب علّى الانسان . وهـو يقتضي من صاحبـه ان لم نقل استعـدادات خاصـة فعلى الأقـل إرادة حازمـة ورغبة في التغييـر يحدوهـا عقل مبـدع لا يقنع بما هو كـائن ، بل يسعى دائمـاً لتحقيق نماذج جـديدة تـرضي هواجسـه هو وتـطلعاتـه الخلاقة . ان غرضه الذي يعلن انه يتمسك به تقـديم وضع مبتكر يحترم عقليـة الانسان ويفجر طاقاتـه ولا يتردى بـه في ذلك الجمـود أو تلك السخافـات التي تتعلق بها الجماهير .

ان هذه الرؤية الجديدة للعالَم التي حُرم منها اليونان كانت ميزة قلة نـادرة من الباحثين العرب ومنعطفاً هاماً في تاريخ الحضارة الانسانية. فلا مجال لأحد ان ينكـر انه بـإدخال التجـربة والمشـاهدات الـدقيقة أضفى العـرب على العلم الـطبيعي أصالـة البحث العلمي ، فكانـوا أول من حقق هذا الإنجـاز العظيم .

فهم الذين اسسوا هذا العلم كما ذكرنا آنفاً وهم الذين جعلوه علماً تجريبياً إنهم هم الذين خلّصوا دراساته من الميتافيزيقا والتصوف والغموض والرمزية ، واصطنعوا منها علماً استقرائياً سليماً يعتمد على الملاحظة الحسية والتجربة العلمية . وقد استخدموا الموازين والمكاييل وغيرها من الأجهزة تحقيقاً للدقة والضبط. لقد كانت وثبة جريئة واعية غيرت الكثير من الأسس والمعايير ، وتطوراً واضحاً لا جدال فيه يعارض الفروض اليونانية الغامضة . ولا يقدح في ذلك أبداً وجود تيارات افلاطونية صوفية مناوئة فإن هذه التيارات لم تستطع حتى في عصور الانحطاط القضاء على التيارات المادية بل لقد ظل التعايش والتفاعل والحوار قائماً بينهما ، خلافاً لما كان عليه الحال عند اليونان حيث لم تنجح التيارات المادية في الاعلان عن ذاتها إلا بشق النفس . فالعلم العربي تلتقي فيه خصائص العلم القديم والعلم الحديث فهو في طور وسط بينهما . لقد كان يجتاز مرحلة انتقال جذرية من الطريقة القديمة في البحث الى الطريقة الحديثة التي استقر عليها منذ بداية عصر النهضة في أوروبا ، ولم يكن ممكناً ان يحصل ذلك طفرة وعلى غير انتظار . وهذا ما يفسر لنا وجود التأمل الفلسفي في تراث العرب الى جانب المنهج التجريبي ، واعتماد البحث على النظر العقلي الى جانب أخذه بالواقع العيني المحسوس . فاليونان أورثوا العرب طريقتهم التجريدية ونظرهم العقلي وتأملاتهم الفلسفية الرائعة ، فأخذ العرب ذلك كله وفهموه وتوسعوا فيه ولكنهم أضافوا اليه ما ينفصل به العرب عن اليونان وهو اختبار معارفهم وإخضاعها للتجربة . فالعرب هم الذين اكتشفوا مزايا المنهج العلمي ووضعوا له القواعد والأصول ، فخلقوا بذلك علم الطبيعة التجريبي في مفهومه العلمي ، ووصلوا به الى مستوى لائق لم يخطر لليونان على بال، بل الى مستوى لو أدركه اليونان لدانوه بالإسفاف والهرطقة ولندّدوا به وبأصحابه ، ولحكموا عليه بالخزي والعار ، وما ذلك إلا لأنه يفسد المبادىء الشريفة التي يجب ان تظل بمنأى عن المادة الحسية وأدرانها وحقارتها ، وان تبقى في عالمها السامي موضوعاً للتأمل والنظر ومتعة للعقول والأذهان .

ان العلم الطبيعي ينطوي على موضوعات متعددة يتجلى إبداع العرب في

كثير منها. فقد برعوا في بحوث الثقل النوعي والصوت والبوصلة، قام أحدهم وهو عباس بن فرناس من علماء الأندلس بتجارب للطيران . ولولا أنه ذهب شهيد تجاربه لاستمر في أبحاثه في هذا الميدان ولأفاد الكثير من أخطائه . لقد كان أيضاً صاحب اختراعات وتوليدات : صنع آلة لحسبان الزمن تسمى المنقانة[1] كما يقول صاحب (نفح الطيب) . والعرب هم الذين خرجوا بالكيمياء من دائرة الخرافة الى العلم ، وخلّصوها من أوهام السحر والشعوذة وعلوم الأسرار . فمنذ الطور الأول لانشغالهم بها وانجراف بعضهم في أسطورة تحويل المعادن الخسيسة الى معادن شريفة وحجر الفلاسفة واكسير الحياة برزت فيهم ملامح من العبقرية جعلت من الكيمياء علماً عربياً، كما كانت علوم الجبر والضوء والتاريخ علوماً عربية أيضاً . ولا ننس أيضاً إنجازاتهم الفذة من علم الهيئة وصناعة الآلات الفلكية ، فضلاً عن علم الطب والصيدلة والموسيقى . ففي جميع هذه العلوم كانت لهم خطوات رائدة لا ينكرها إلّا مكابر. لكن عبقريتهم الخارقة ظهرت من بحوث الإبصار ، وان أعظم باحثيهم في هذا المضمار هو إبن الهيثم فهو مثال العالم الرصين الذي لا يستفيد علمه من بطون الكتب بل من الطبيعة وواقع الأشياء . فهو يقول في مقدمة كتابه (في الشكوك على بطلميوس) ما يلي « الحق مطلوب لذاته ، وكل مطلوب لذاته فليس يَعْني طالبه غير وجوده ووجود الحق صعب . والطريق وعر ، والحقائق منغمسة في الشبهات . وحسنُ الظن بالعلماء في طباع جميع الناس . فالناظر في كتب العلماء إذا استرسل مع طبعه وجعل غرضه فهم ما ذكروه وغاية ما ذكروه وغاية ما أوردوه حصلت الحقائق عنده ، وهي المعاني التي قصدوا اليها والغايات التي أشاروا اليها. **وما عصم الله العلماء من الزلل ، ولا حمى علمهم من التقصير والخلل** . ولو كان ذلك لما اختُلف في شيء من

(1) هكذا ضبطها المقّري : نفح الطب 374/3 دار صادر بيروت . وهذه الكلمة في نظري من خطأ النساخ وهي فيما أرى تحريف للكلمة ميقاتة من الوقت والميقات فهي آلة لتحديد الوقت . أما المنقانة التي أوردها المقّري فلا وجه لها في العربية اشتقاقاً ولفظاً كما لا يصح أن تكون كلمة أعجمية لأن واضعها عربي اشتق لها إسماً عربياً . فلو كانت من اختراع الأعاجم لاشتقوا لها إسماً من لغتهم .

العلوم ، ولا تفرقت اراؤهم في شيء من العلوم ، ولا تفرقت آراؤهم في شيء من حقائق الأمور . والوجوب بخلاف ذلك. فطالب الحق ليس هو الناظر في كتب المتقدمين المسترسل فيهم ، المتوقف فيما يفهمه عنهم، [إنما هو] المتبع الحجة والبرهان لا [الذي يجري وراء] قول القائل الذي هو مثله إنسان ، المخصوص في جِبِلَّته بضروب الخلل والنقصان . والواجب على الناظر في كتب العلوم إذا كان غرضه معرفة الحقائق أن يجعل نفسه خصماً لكل ما ينظر فيه، ويجيل فكره في متنه وفي جميع حواشيه، ويتهم أيضاً نفسه عند خصامه ، فلا يتحامل على غيره ولا يتسامح فيه فإنه إذا سلك هذه الطريقة انكشفت له الحقائق وظهر ما عساه وقع في كلام من تقدمه من التقصير والشُبه »[1] .

في هذا النص تحذير واضح من عبادة الأسماء والاغترار ببريق أصحابها، رغم أن جميع الناس يؤخذون بهذه الأسماء. فالعلماء غير معصومين من الزلل، والخلل يتطرق الى علمهم كما يتطرق الى علم الآخرين . والدليل على ذلك اختلاف آرائهم في المسألة الواحدة . وهذا تشكيك في فلسفة افلاطون وارسطو وتعريض باتباعهما العرب الذين يجرون وراء كل ناعق . فطالب الحق ليس هو الذي ينظر في كتب الأوائل معتمداً على ما تأتي به النصوص ليتضمخ بها وينال بركتها ، إنما هو الذي يعتمد على نفسه ويثق بنفسه ويتفكر فيما يقبل ويذر . . . الكتاب مُتَّهم حتى تثبت فائدته . فالذي رائده الحقيقة ولا يشغله إلا الحقيقة يسعى لها مواجهة لا مواربة ، ويقتحمها بذاته في جميع مظانها لا بغيره . إنه خصم لكل ما ينظر فيه حتى يتبين حقيقته . بل يجب ان يتهم نفسه هو أيضاً عند خصومته . فقد يكون متحاملاً على ما يقرأ . فإذا التزم ذلك انكشفت له الحقائق وعرف موطن الضعف في كلام القدماء الذين وقرت أسماؤهم في النفوس ورسخت في الأذهان حتى بلغت حد التقديس . وهذه الملاحظة تذكرني بعبارة مشهورة للغزالي يقول فيها « لا تعرف الحق بالرجال أعرف الحق

(1) مقالة للحسن بن الهيثم(في الشكوك على بطلميوس) طبع القاهرة صفحة 3-4 .

تعرف أهله » كما تـذكرني هـذه العبارة أيضـاً بسخريـة ابن خلدون من العكوف على كتـب ابن سينا وابن رشـد وبعثرة أوراقهـا والتوثق من بـراهينها ، التمـاساً للسعادة ، دون ان يدري من يفعل ذلك أنـه إنما يستكثـر من الموانـع عنها[1] .

ولا تقتصر صفات رجـل العلم الحق على ذلك بـل لقد أضـاف اليها ابن الهيثم صفات أخرى بعضها يتصل بالمنهج وطريقة البحث العلمي وبعضها يتصل بشخصيـة البـاحث والمقـومـات الخلقيـة لمن نـدب نفســه للعلم والبحث عن الحقيقة . لقد أراد ابن الهيثم ان يفسر كيفية الإبصـار تفسيراً جـديداً يتجـاوز به الخلاف المستفحل بين النظريات اليونانية المتضاربة في الموضـوع والتي كانت يتقـاسمها مـذهبان أحـدهما ذائـع مشهور يقـول بـانـطلاق شعـاع من العين الى الأشياء وبذلك يتم الإبصار ، ومذهب مبتور غامض يقول بانتشار صور المرئيات وانتقـالهـا الى العين . فقــرر ابن الهيثم ان يفصـل في هــذا الخـلاف بفحص المـذهبين فحصاً نقـدياً علميـاً ، وفي ذلك يقـول : « ولما كـان ذلك كـذلك ، وكانت حقيقة هذا المعنى مع اطراد الخلاف بين أهل النظر المتحققين بـالبحث عنـه على طول الـدهر ملتبسـة ، وكيفية الإبصـار غير متيقنـة ، رأينا ان نصـرف الاهتمام الى هذا المعنى بغاية الامكان ، ونخلص العناية به ، ونوقع الجـد في البحث عن حقيقته ، ونستأنف النظر في مبادئه ومقدمـاته ، ونبتـدىء في البحث باستقراء الموجودات وتصفـح أحوال المبصـرات ، وتمييز خـواص الجزئيـات ، ونلتقط ما يخص البصر في حال الإبصار وما هو مطرد لا يتغير ، وظاهر لا يشتبه من كيفية الاحساس ، ثم نتـرقى في البحث والمقاييس على التـدريج والتـرتيب مع انتقاء المقدمات والتحفظ في النتائج ، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريـه ونتصفحه استعمال العدل ، لا اتباع الهوى ، ونتحرى في سائر ما نميزه وننقـده طلب الحق لا الميل مع الآراء »[2] وكانت النتيجة التي تـوصل اليهـا ابن الهيثم بهذا المنهج السديد وهذا الالتزام الرشيد نتيجـة رائعة لا تختلف في شيء عمـا نقـول به اليـوم ، وهي ان الرؤيـة إنما تتم بـانعكاس صـور الأشياء (أو الأشعـة

---

(1) ابن خلدون المقدمة 1205/4 .

(2) مصطفى نظيف :الحسن بن الهيثم . بحوثه وكشوفه البصرية صفحة 35 .

الصادرة عن الأشياء) على حدقة العين على شكل مخروط قاعدته الجسم المرئي وراسه عين الرائي .

استئناف النظر في المبادىء والمقدمات ، الاستقراء ، التصفح ، تمييز خواص الجزئيات ، السير بالتدرج في البحث والمقاييس ، والتحفظ في النتائج ، وطلب الحق وتجنب التعصب للآراء ، توخياً للدقة وتحقيقاً للموضوعية بالتجرد والبعد عن الهوى دون تأثر برأي أو عاطفة سابقة ، ناهيك بما تقدم من عدم التأثر بالأسماء الكبيرة ، واستقاء الحقيقة العلمية من الطبيعة لا من بطون الكتب ـ تلك هي الأسس التي قام عليها العلم الحديث في أوروبا ، وتلك هي أيضاً وبنفس المقدار الأسس التي تقوم عليها بصريات ابن الهيثم . فابن الهيثم لا يقبل النظرية إلا بعد سلسلة طويلة من الخطوات تثبت صحتها . وفي حال عدم ثبوتها بعد تكرار المشاهدة فإنه لا يتردد أبداً في التخلي عنها من فوره . هل تصدق ان هذه المنهجية وهذا الضمير العلمي قد رفع عقيرتهما وحمل لواءهما باحث عربي مسلم في أعالي القرون الوسطى ؟ أما أنا فكدت ألا أصدق لولا ان النصوص تفحمني ولا تدع لي أي خيار آخر . فصدق أو لا تصدق ، فأنت بالخيار ، ان كنت قادراً على الاختيار .

وفي ذروة العبقرية العربية في نظرية الرؤية عند ابن الهيثم تقسيمه الرؤية بقسمين : رؤية طبيعية للأجسام المادية الماثلة أمام عين الرائي ، ثم إدراك نفسي يحصل في العقل من التمييز بين المرئيات ومن القياس بينها وقياس بعضها على بعض . وقد عرض ابن الهيثم لهذه النظرية في المقالة الثانية من كتابه (المناظر) . فعملية الإبصار ليست مجرد عملية فسيولوجية ميكانيكية تلقائية ، إنها أيضاً عملية نفسية عقلية : فالإبصار مصحوب دائماً بالمعرفة . هناك حكم يتضمن استنتاجاً قد يكون سريعاً وقد يكون بطيئاً ، تبعاً لأن يكون الإبصار متعلقاً بشيء معروف من قبل أو أن يكون مرئياً للمرة الأولى ففي الإبصار تحليل وتذكر وتأمل ومقارنة واستنباط وما الى ذلك من العمليات النفسية التي ترافق ظاهرة الرؤية . فإن « الانسان مطبوع على الإدراك بالامارات » ، هذا ما يقوله ابن الهيثم . فالانسان مطبوع على ان يحكم على المرئي حسب

معرفته السابقة به أو بنوعه ، وقبل ان يستوفي المعلومات الحسية الواردة من المرئي نفسه . فصورة الشيء تبدأ بإبصاره للمرة الأولى ، وتزداد حقيقةً بتكرار إبصاره لاحقاً . هناك أمارات يعتمد عليها الرائي لتمييز هذا الجزئي المتشخص من ذاك ، أو هذا النوع المعقول من ذاك . ويقول ابن الهيثم ان إدراك الشخص أصعب على البصر من إدراك النوع ، لأن تمييز الأنواع من بعضها أسهل غالباً من التمييز فيما بين أفراد النوع الواحد . ثم إن اكتشاف ابن الهيثم لظاهرة الادراك بالأمارة على جانب كبير من الأهمية ، لأنه يلقي ضوءاً على كيفية إدراك الكلي ، وهي ناحية يكتنفها غموض شديد في فلسفة ارسطو والارسطاليسيين في المعرفة، غموض كان في نتائجه السلبية الضارة عدم تقدير أهمية الادراك الحسي في تكوين المعرفة تقديراً صحيحاً . ونجد في (مجلة تاريخ العلوم العربية) الصادرة عن معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ـ سوريا ـ تحليلاً وافياً للجانب النفسي من عملية الادراك البصري عند ابن الهيثم[1] فلا داعي لتكراره هنا .

والخلاصة ان ابن الهيثم ـ فضلاً عن إسهاماته العظيمة في علم البصريات ـ قد أسدى الى نظرية الرؤية خدمتين اثنتين على الأقل : فهو أولاً قد أبطل نظرية الرؤية القديمة وهي النظرية التي تقول بخروج شعاع من العين يقع على المرئيات فتحدث الرؤية . فإنما الرؤية عند ابن الهيثم ينبغي تفسيرها بورود أشعة الضوء من المرئي الى العين . وهو ثانياً قد أضاف الى عملية الرؤية الحسية بطانة نفسية وبُعداً عقلياً فاعلاً . فالرؤية عنده ليست بصرية فقط ، إنها عملية منطقية أيضاً . وهي لذلك تتطلب التركيز الذهني في أثناء المشاهدة لترتيب المعلومات الحسية الواردة وتصنيفها في صور عقلية قياسية ، وهذا يتم بالمقارنة والتمييز بين الانطباعات الحسية الجديدة والمعرفة السابقة المخزونة في الذاكرة .

إن هذه المنهجية العلمية التي كان ابن الهيثم نموذجاً رائعاً لها ليست شيئاً دخيلاً طارئاً على العرب . بل لها تاريخ طويل وتراث عريق وتقاليد راسخة

---

(1) المجلد الخامس العددان 1و 2 سنة 1981 .

في أذهانهم ونسيج تفكيرهم . فقد ظهرت بواكيرها الأولى في عصر التدوين ، وبتعبير أدق عند بدء جمع الأحاديث النبوية وتدوينها[1] ، وذلك إنجاز من أعظم انجازات العرب التي طلعوا بها على العلم والحضارة . فقد استدعى جمع الحديث وتدوينه أقصى درجات الحرص على تحقيق النصوص ، حتى لقد كان المحدِّث يشد الرحال من العراق الى اليمن أو من بلاد الشام الى الهند ليستوثق من صحة حديث سمعه عن النبي . لقد أفضى هذا الى وضع أسس تحقيق النصوص والأسانيد والوثائق ، وان تحقيق الوثائق هذا اسماه العرب (علم الشروط) ، ومن ذلك جاءت كلمة Charter وهذا الحرص على تحقيق النصوص والأسانيد أرسى قواعد الأمانة العلمية التي هي ركن جوهري هام من أركان المنهج العلمي، هذا بالإضافة إلى ما استتبع من تحقيق سيرة الرسول والغزوات والفتوحات ،مما كان باكورة الانتاج التاريخي من العصر العباسي . وهذه الأمانة العلمية ظل الكتاب والعلماء يتحلون بها الى أن فقدوها في سني التقهقر والانحطاط . فإنه عندما تدهور السلطان السياسي للمسلمين ولحقه الكسل والخمول ، تأخر الفكر العربي بدوره وضعف بالتالي الإنتاج التاريخي الأصيل . وعندما ذوت الحضارة العربية ذوت معها العقلية العلمية والأمانة العلّمية وذهب الزخم الذي اتسمت به عصور الازدهار إلا في الحالات الاستثنائية النادرة ، وشاع التصوف والعقلية الصوفية الاتكالية .

*

يعتقد الغربيون أن مخاض عصر النهضة قد بدأ في ايطاليا ، وهذا غير دقيق. فإن بدء حمل الجنين كان في إسبانيا إبان القرن الثاني عشر، وكان ذلك في مدرسة الترجمة بمدينة طليطلة، حيث نُقلت الكتب العربية إلى اللاتينية. فإن أثر هذه النقول في تلقيح الأفكار أمر لا يمكن إنكاره ، وذلك على نحو ما نرى لدى روجر بيكون (المتوفى سنة 1292 أو 1294) الذي وضع موسوعة لعلوم عصره بعنوان Opus majus (العمل الكبير) ، وفيه يتجلى تأثره بالمؤلفين

(1) بل ان جمع الحديث هو امتداد لجمع القرآن ، هذا إذا لم نقل انهما قد بدآ معاً في مطلع القرن الأول للهجرة .

العرب عامة وبمؤلفات ابن الهيثم في علـم البصريات خاصة ، وهو أول من نبـه الأوروبين الى أهميـة المنهج التجـريبي . وفي نسبـة المنهـج العلمي هـذا الى بيكون والزعم بأنه هو مبتكر لعدد من الحقائق في علم الضوء شطط كبير . هذا مـا استقر عليـه رأي المحققين الغـربيين في تـاريـخ العلم والحضـارة العـربيـة والفلسفة الاسلامية، وعلى رأسهم أوبَـرُوَغْ وسارطون وهَلْ وميلي[1] فإن روجـر بيكون الذي يعده الغرب رسول مبدأ التجربة لم يبتكر هذا المبدأ وإنما تلقاه من اساتذته العرب في مدارس الأندلس؛ فكان دخولـه إلى أوروبا مـدعاة قلق كبيـر انجلى عن صراع مرير بين العلم والدين وانجلى هـذا الصراع عن انتصـار مبدأ التجربة .

غيـر أن روجر الـذي كان أحـد صناع العلم بمنهجـه التجريبي كـان أيضاً وبالمقدار ذاته وربما أكثر من ذلك أحد مخربيه والقاضي على جميع منجزاتـه ! فالعنصر البنّـاء الايجابي قـد تلقاه بغيـر شك من أسـاتذتـه العرب وبخـاصة ابن الهيثم ، ولكنه خان ابن الهيثم ولم يرع أمانته بالعنصر السلبي الهدام الذي تلقاه من بيئته وعصره . أنا لا أنكر ان بيكون كان ذا فكـر مشبوب لا يهـدأ له أوار ولا يُلقي زمـامـه لمُـروِّض ، ولكن رواسب الجهـل والتـاريـخ قـد أفسـدت العقـل المخصب الممـراع[2] . وحسبـه انـه كـان فـرنسيسكـانيـا افـلاطـوني النـزعـة والمشـرب ، مشـرع الأبـواب أمـام الأسـاطيـر والخـوارق . ولـو كان دومنيكـياً ارسططاليسيا لهان أمره . لقد طعن بلا هوادة في جهل «الفـلاسفة البـاريسيين» وندد بغرورهم ، وعلى الأخص بإهمالهم وتهاونهم في دراسة الرياضيات وعلوم الطبيعة ، ولكنه كان يقول بالنجوم ومعرفة الطوالع والنوايا . وكان يرى في البابـا كلمنسوس الرابع ، البابا الذي تنبأت به النجوم لتهتدي به الأرض وسكانهـا الى المسيحية[3] . ان اتحاد المعرفة الصوفية الاشراقية والمعـرفة العلميـة التجريبيـة

---

(1) أنظر د . عمر فروخ (تاريخ العلوم عند العرب) ص 370 ، حيث تجد ثبتاً بالمصادر التي أعربوا فيها عن هذا الرأي .

(2) إميل برييه : تاريخ الفلسفة ـ العصر الوسيط والنهضة ص 207-208 .

(3) المصدر السابق ص 211 .

« هـو الذي يحـدد معالم شخصية بيكـون ، وهـو اتحـاد لا تفسيـر لـه إذا كـان المقصـود المنهج التجـريبي كما يُفهم اليوم . ولكنـه لم يكن هـو المقصـود في الـواقـع ، فلسنـا نجـد لـدى بيكـون أي منهـج محـدد لا لإجـراء تجـارب ولا لاستخلاص قوانين منها »[1] كتلك التي نجدها عند ابن الهيثم مثلاً .

« فإن كلمة تجربة ، Experimentum ترتبط ارتباطـاً وثيقاً ـ لـدى رجل من القـرن الثالث عشـر ـ بأفكـار ما عـادت توحي بهـا الينا [اليـوم] . فـالمجـرب Expert لدى بيكون هو في الجوهر من يعرف ان يجيد ويستخدم قوى خفية يجهلها سائر البشر . فهو الخيميائي الذي يصطنع اكسير الحياة وحجر الفلاسفـة ، وهو المنجم الـذي يعرف قـدرات النجوم ، وهـو الساحـر الذي يعرف التعاويـذ التي تتحكم في إرادة الناس . ان صورة الكون التي تقدمها التجربة مباينة جداً لتلك التي تقـدمهـا طبيعيـات الفيلسـوف. فهـذه الأخيـرة تستنبط الـظواهـر الـطبيعيـة من خـواص العناصـر الأربعة [المـاء والهواء والنـار والتراب] ، وأمـا التجربـة فتطلع بطرائقهـا وأساليبهـا على قوى خفيـة ليس من الممكن إرجاعهـا الى قوى العناصر [. . . وهكذا] فإنه حينما يتحدث عن العلم التجريبي ، فإنما يـذهب به القصد إذن الى علم سري ومتوارث ، قوامه معـرفة القـوى الخفية ومـا تتيحه هذه المعرفة للمجرب من قدرة على التحكم في الناس والأشياء. إن عالم هؤلاء المجربين هو في جوهره العالم عينه الـذي كان وصفـه افلوطين [في موسـوعته الفلسفية (التساعات)] أي هو مجموعة من قوى متشابكة متصالبـة ، ومن رقى وتعـاويذ سحـرية وقـوى صادرة عن النجـوم يخضع لهـا الإنسان على غيـر علم منه . . . [وعلى هذا] فقد كان بيكون يولي ملاحظة الوقائـع قدراً من الأهميـة أقل بكثير مما يوليه لاستكشاف الأسرار والوقائع العجيبة التي يتناقلها المجربـون من جيل الى آخر »[2] .

ويقابل التجـربة الخـارجية في مجـال الطبيعيـات ـ إذا صح إطـلاق كلمة

---

(1) المصدر السابق .

(2) المصدر السابق صفحة 221-222. . .

تجربة عليها ـ التجربة الباطنية في مجال الروحانيات ، اي الاشراقات التي تحل على الحنفاء والأنبياء . وهذه التجربة هي بدورها تجربة سرية في أعلى درجاتها . « ففوق الفضائل وهبات الروح القدس وسلام الرب هناك الانخطافات على اختلاف أنواعها ، وكل انخطاف منها يتأدى ـ على طريقته ـ الى رؤية أشياء ما أبيح للانسان ان يجهر بها »[1] انها ترجع الى العالم اللدني المضنون به على غير أهله . فمن اطلع على هذه الأسرار فقد انكشفت له الحقائق وانهتكت عن أبصار نفسه سجوف سدف الجهل ، وعرف ما كان وما يكون وما سوف يكون ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون !!!

---

(1) المصدر السابق صفحة 212 .

خاتمة الكتاب

إن أول ما ينبغي لرجل العلم هو أن يبني أحكامه على حقائق موضوعية ثابتة محددة ، وأن يحترز من الصيغ العامة الفضفاضة والشطحات التي تفتقر الى الدقة والضبط ، وبخاصة عندما يتصدى لدراسة الشعوب الغريبة البعيدة عنه والاطلاع على أخلاقها وعاداتها وطباعها ونفسياتها . فإذا قيل لنا مثلاً إن هذا الشعب أو ذاك يتصف بالسرقة أو الغدر أو الغش أو الكبرياء أو القسوة أو الأنانية أو البخل . . . أو على العكس ، إنه شعب أمين يرعى العهد ، رقيق القلب ، شيمته التواضع والكرم ، يحترم ملكية الآخرين ويحب الغرباء . . . فكل هذه تعابير فضفاضة لا تعني شيئاً ، إذ لا تتوافر فيها المقارنات والاحصاءآت والملاحظات الدقيقة ، ولا يمكن التحقق منها بسهولة ويسر . ولذلك فلا تصلح للاستخدام العلمي .

ومن المؤسف حقاً أن كثيراً مما لدينا حتى الآن من نظريات فيما يسمى بطبائع الشعوب ـ وهي تسمية خاطئة رغم ما فيها من إغراء كبير ـ إنما هي نظريات من هذا القبيل يعوزها الكثير من الروح العلمي . فإن عدداً لا يستهان به من المفكرين والفلاسفة قد عالجوا هذا الموضوع بسذاجة غريبة ، ولم يدركوا ما تنطوي عليه أبحاثهم من انزلاق ووعورة بل وحماقة . فكتب أحدهم(1) يقول : « إن عيوب الانكليزي تنبع من صفاته الحسنة . فاستقلاله

---

(1) هو الفيلسوف الفرنسي الفريد فوييه Fouillée الذي كان له شغف كبير بتحديد الصفات المميزة للشعوب الأوروبية فوضع كتابه المشهور : **Esquisses psychologiques des peuples euro-Péens.**

يعرضه للأنانية ، وإيمانه بذاته ينزع به الى حياة العزلة ، وروح الأصالة فيه تدفع به الى التطرف ، وإيجابيته تحفزه على تقديس القوة وازدراء الضعف » .
وأما الألماني فإنه « رغم ما يتصف به من وحشية في الطبع فهو مستعد للشفقة ، غير أنه خال من النزعة الفطرية إلى حب المجتمع، وهي النزعة التي ينفرد بها الفرنسي. إنه يميل غالباً الى أن يكتفي بذاته، وهو يندفع إلى أي عمل يراه ذا أهمية خاصة ، أو الى أي مبدأ خلقي أو فلسفي أو ديني يهيمن على تفكيره ».

فليت شعري ! كيف يمكن التحقق من أمثال هذه العبارات العامة والصيغ المجردة ؟ فحين يقول فوبيه إن الانكليزي « عرضة للأنانية نتيجة لشعوره بالاستقلال » فهل الإنكليزي وحده هو كذلك حقاً ؟ أم ان هذه الصفة العامة تنطبق على كل إنسان يحس باستقلال ذاته ويربأ بها عن مخالطة الآخرين ، سواء كان انكليزياً أو غير إنكليزي ؟ وهل كل انكليزي هو بهذه الصفة ؟ وكيف نتحقق من ذلك ؟ وعندما يقول فوبيه إن الألماني « يميل » الى كذا وكذا ، فما حقيقة هذا الميل ؟ وما درجته ؟ وهل يختص به الألماني وحده دون سائر عباد الله الآخرين لا يشاركه فيه أحد ؟ إن مثل هذه التوكيدات لا يقتصر أمرها على أنها إنما تعبر عن وجهة نظر ذاتية، بل إنه ليعوزها، فضلاً عن ذلك، الكثير من المشاهدات والوقائع والمقارنات والبيانات الإحصائية وغير ذلك من وسائل التوثيق والدراسة العلمية الأكاديمية الرصينة ، وإلاّ فما قيمة الرأي لا تثبته الوقائع ولا تدعمه الحجج والأسانيد ، فكان جمحة خيال أو سانحة خاطر ؟

وقد حذا حذو الفلاسفة بعض علماء الجغرافيا البشرية ، فأصدر أحكاماً مبتسرة متسرعة على سكان بعض المناطق التي درسها : فوصف شعباً بالكبرياء والأَنَفَة والحميَّة ، وآخر بالضغينة والقسوة ، وثالثاً بالبشاشة والكرم واللطف الخ . . . فعلى أي أساس أصدر هذه الأحكام ؟ إذا كان الأساس هو الملاحظة الشخصية ـ كما زعم بعضهم ـ فما هي القواعد التي اتُّبعت في هذه الملاحظة ؟ وإذا كان مستنده أقوال من خالطه من الأفراد والجماعات فما باله لم يخضع هذه الأقوال للمقارنات والاحصاءآت والدراسات الميدانية وغير ذلك من وسائل التمحيص العلمي ؟

فإذا انتقلنا الى علماء التاريخ فلن نجدهم أسعد حالاً من الفلاسفة وعلماء الجغرافيا : شطحات من الخيال ، وصف شعري لطبائع الشعوب ـ أو ما يسمى كذلك ـ دونما تحرٍ للدقة أو مناقشةٍ للوثائق والتزام بالروح العلمي الصحيح . فمنهم من يجنح الى تأصيل روح الشر الكامنة عند بعض الشعوب بالرجوع الى قصة قابيل وهابيل . ومنهم من يسم شعباً بالتوحش والتعطش الى سفك الدماء ، لا مستند له سوى بعض حوادث القتل الفردية التي وقعت في ظروف خاصة يحدث مثلها في كل زمان ومكان . ومنهم . . . ومنهم . . . ومنهم . . .

ومما يزيد في تهافت هذه النظريات أخيراً ـ إن صح انها نظريات حقاً ـ أنها إنما تعتمد في أساسها على حكم تقويمي عام يجعل بعض الأجناس البشرية أدنى من بعض . فضلاً عن أن هذا الحكم يستند الى تقدير شخصي مزاجي للشعوب لا معنى له في موازين العلم الكمي الموضوعي . إنه حكم مُبْهَم يفتقر الى الوضوح وتحديد المراد . فعندما يقال إن هذا الجنس « أدنى » من ذاك ، أو إن هذا « أعلى » من ذلك ، فقد كان ينبغي على الأقل أن يقال إنه « أدنى » أو « أعلى » في مسألة كذا أو كذا ، لا إطلاقاً : وذلك لأن ما هو « أدنى » في أمر ما قد يكون هو نفسه « أعلى » في أمر آخر .

إن التفرقة بين الشعوب وتقسيمها الى « أعلى » و « أدنى » عمل مثير للاشمئزاز لا يستند إلى أي أساس علمي ، تمارسه من وقت إلى آخر جميع الجيوب التي تقول بإيديولوجيا التفرقة العنصرية . فجميع شعوب العالم قادرون على إبداع قيم ثقافية وحضارية ، وإن مقدار إسهامهم في الفكر العالمي والثقافة العالمية لا يحدده لون الجلد أو شكل الجمجمة أو وزن الدماغ ، وإنما تحدده ظروف حياتهم الإجتماعية وخصائص تطورهم التاريخي . فالفلسفة العنصرية فلسفة مدمرة تتخذ من العلم قناعاً لأغراضها الشريرة . إنها فلسفة هجومية توسعية تضرب جذورها في الحركة الصليبية والمذاهب الإستشراقية التي أمدت الفكر الإمبريالي بروافدها المتعددة . وإذا عرفنا أن الإستشراق هو في الأصل حركة صليبية يراد بها تزوير حقيقة الأمة العربية ، أدركنا خطورة هذه الفلسفة في عملية التزوير الكبرى للتاريخ العربي ولمكانة العرب بين الشعوب .

أجل ، إن الفكر الإستشراقي كان رائده في الأساس إثبات مقولة عنصرية وقحة مؤداها أن الغرب متفوق بطبيعته ، وأن الشرق ـ ممثلاً بالعرب خاصة ـ منحط متخلف بطبيعته أيضاً . فكل تفوق فإنما مصدره الجنس الأوروبي الأبيض ، ففيه قوى خلاقة فعَّالة تميزه من بقية الأجناس هي سر تفوقه ووصوله الى أعلى الدرجات في التاريخ والحضارة ، وهو وحده جدير بفهم جهود المبدعين من ذويه، وقادر على إدراك القيم وفهمها وتقديرها والإفادة منها. وفي ذلك دعوة مقنَّعة لثيمة الى تقبل الإستعمار على أساس أنه في حقيقة أمره ظاهرة حضارية أو رسالة إنسانية ، يتوخى الغرب منها تمدين شعوب الشرق والتخفيف من توحشهم ومن وطأة التخلف الكامن فيهم بحكم الطبع والفطرة . فالغرب وحده مؤهَّل لهذه الرسالة بحكم تفوقه الطبيعي على جميع الأمم والشعوب !! هذا هو قدره وهذا قدرها ، ولا أمل في تغيير ولا تبديل . جفت الأقلام، وطُويت الصحف .

كلا ، ليس في التاريخ شعوب مختارة لها صفات خارقة وأخرى محرومة من المواهب والطاقات ، فما يقال عن تمايز الشعوب في العقليات والمشاعر والأذواق تمايزاً فطرياً إنما هو حديث خرافة أوحت به العواطف والأهواء والمصالح . . . أما ما نشاهد من اختلاف في أساليب الفكر وفي فهم الأمور فليس مرده الى الدم ، بل إلى البيئات الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية الثقافية ـ فما أكثر الأكاذيب وحملات التخرص والافتراء في مواسم التحدي يُستدرج اليها الأغرار وضعفاء العقول ، لإسكات أصوات تريد ان ترتفع ، وكبت دوافع تتطلع الى القمم ولا ترضى دون القمم .

إن الشعوب تتدرج وتتطور ، وتعلو وتهبط ، وتتقلب في مسار التاريخ وعلى مدار الزمن ، بما يتهيأ لها من فُرص الحياة وما يؤاتيها من حظوظ وظروف وأحوال من التجاور المكاني والتَّماسّ الحضاري ، وما يُطرحَ فيها من مشاكل ومعضلات ، ويلحُّ عليها من حاجات وضرورات مادية وروحية ، وما ينشأ فيها من مواقف ويتفجر من طاقات. وبحسب قدرة هذه الشعوب على التحدي أو رد التحدي ودفع الغائلة والتكيف للظروف والأحوال تكيفاً ملائماً أو غير ملائم ،

تتحـدَّد درجاتهـا وأقـدارهـا ومـراتبهـا في سلم التـطور . فكـل أولئك يؤثـر في مسارها ، فيرفع هذا الشعب الى القمة ، ويهبط بـذاك الى الحضيض ، ويطبـع هذا الشعب أو ذاك بمزاج نفسي خاص وتكوين عقلي معين يبقى مـا بقيت هذه الظروف والأحوال ، ويتغير بتغيرها ويزول بزوالها .

فلا صحة إطلاقاً لما يُسمى بمزاج الأمـة أو طبيعتها . وقـد تنبه الى ذلـك العلامة إبن خلدون منذ أكثر من خمسة قرون ، فأحرى بعلمـاء القرن العشـرين أن يتخلصوا من هذه الفكرة الجوفاء. وقد تخلصوا منها فعـلاً إلا شرذمـة قليلة . وسـادت نظريـة ابن خلدون . فهي نظريـة ديناميـة واقعيـة أقـرب الى العلم من نظرية الطباع الاستـاتيكية التقليـدية التي لا يـريد الـزِّميتون المتمسكـون بأذيـال المـاضي التخلي عنها . إن إبن خلدون يـربط بين المـزاج والمنـاخ والاقتصـاد ونظام الحكم والبداوة والحضارة، فهو وليد هذه المتغيـرات جميعاً. فمـا نسميه بمزاج الأمة هو في نظر إبن خلدون نتيجة لوسائل الإنتاج المستعملة فيها وعوائد حياتها. ولا غرو في ذلك ، «فإن الإنسان ابن عـوائده ومـألوفـه ، لا ابن طبيعته ومـزاجه » . فـابن خلدون إذن ينكر الـطبيعة والمـزاج ، أي الماهيـة المـلازمـة للانسان في جميـع أطوار حيـاته ، مهمـا اختلفت أحوالـه وظروفه وبيئاتـه ودرجة تطوره . فالانسان هو صانع ماهيته ووجوده . أي إن إبن خلدون يقول بالتطبع لا بالطبع . انه يعارض علم الطبائع Caractérologie الذي ليس له من العلمية إلا الاسم ، حتى لكدت أقول إنه من مخلفات القرون الأولى . فلا مزاج ولا طبيعة للأفراد والشعوب . فهذا المزاج وهذه الطبيعة ـ أو ما يسمى كذلـك ـ ليسا أمـراً نهائياً ثابتاً لا يتغير ولا يتبدل . وإنما هما نتيجـة عوامـل مختلفة إذا تبـدلت عند أمة ما ، تبدلت نظمها الإجتماعية وعوائد حياتها ، وبالتالي تغير مُزاجها السـابق وتغيرت طبيعتها وحلَّ محلهما مـزاج آخر وطبيعـة أخرى . وقـد قال ابن خلدون فعلاً ان « الجيل الـواحد تختلف أحـواله في ذلـك باختـلاف الأعصار . فكلمـا نزلوا الأرياف وتفتقوا النعيم وألفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم نقص من شجـاعتهم بمقـدار مـا نقص من تـوحشهم[1] وبداوتهم . واعتبـر ذلـك في

(1) التوحش في مصطلح ابن خلدون الحياة خارج المدن .

الحيوانات العُجم بدواجن الظباء والبقر الوحشية والحُمُر إذا زال توحشها بمخالطة الآدميين وأخصب عيشها ، كيف يختلف حالها في الانتهاض والشدة ، حتى مشيتُها وحسن أديمها. وكذلك الآدمي المتوحش إذا آنس وألف ، وسببه أن تكوُّن السجايا والطبائع إنما هو عن المألوفات والعوائد » « وأصله ان الانسان إبن عوائده ومألوفه ، لا إبن طبيعته ومزاجه . فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقاً وملكة وعادة تنزَّل منزلة الطبيعة والجِبلَّة »[1].

ليست العبرة بالأجسام والألوان والاشكال، إنما العبرة بالأفكار التي تحرك هذه الأجسام وتنقلها من دنيا التراب إلى آفاق المعاني ، وتقفز بها من عالم الأعيان الى عالم الأذهان. الأجسام هي مطايا الأفكار ، وبالأفكار إنما يتعين وجود الإنسان ويصبح له معنى وغاية . وبعد أن كان وحْلاً وطيناً في قرار الأرض ، أو مُضغة في أفواه الآكلين ، أو هشيماً تذروه الرياح ، غدا فكراً يرود الموارد ويُصلح مسيرة الأشياء . لقد أصبح له معنى بعد أن لم يكن له معنى . ثم يعود الى ديدان الأرض كأن لم يَغْنَ بالأمس .

*

أجل، إن تقسيم الأمم وفق سلم عقلي تتفاوت فيه مراتبها وأقدارها هو عمل غير علمي فضلاً عن أنه غير أخلاقي . تلك هي الأكذوبة الكبرى . فأنا لا أعرف أمة لا تستطيع إنجاب الرجال . عبقريات كثيرة برزت في المجتمعات المتطورة ، ثم أجدبت وانطفأت شعلتها عند رجوعها إلى مواطنها الأصلية في العالم الثالث . لا بد للعبقرية من مناخ ومن جو اجتماعي وشروط موضوعية تساعد على الخلق والإبداع - وباصطلاحنا - لابد من أن تنضم الى أحدى الشبكات السِّيْكوسوسيودينامية العاملة .

إن جيلنا الحاضر يشهد بعض الفصول الختامية - نظرياً فقط ، لا ممارسةً

---

(1) أنظر كتابينا : من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية صفحة 827 وجديد في مقدمة ابن خلدون صفحة 107-108 و 179-181 .

وتطبيقاً ، لأن الاستعمار هو الاستعمار ، ولن يتخلى عن مواقعه لمجرد حفنة من النظريات العلمية لا تعنيه في قليل ولا كثير - أقول إن جيلنا الحاضر يشهد الفصول الختامية لاندحار الأسس العلمية للدعاوى العنصرية . لقد حطم العلم اسطورة « الغريزة العرقية » التي تثير الضغائن وتستفز المشاعر وتوغر الصدور . . . لقد انصبت القنوات كلها اليوم في مجرى وحدة العقل والنفس والشعور في جميع الأقوام والأجناس . وها هي ذي كرامة الإنسان التي اثخنتها الجروح ، وأدمتها القروح ، تخرج من المعركة مرفوعة الرأس ناصعة الجبين . . . فالإنسان أخو الإنسان ، أحب أم كره . هذا هو المغزى الكبير الذي يتمخض عنه العلم في الوقت الحاضر .

ولكن هل يسمع ذلك أصحاب القرار من رجال السياسة والعسكريين ، أم إن على قلوبهم أكنَّةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ؟

وعلى كل حال ، إن التفوق العقلي لا شأن له أبداً بخطوط الطول والعرض ، كما لا مدخل له في قضايا الجنس والشكل واللون . فها هنا مقولتان لا علاقة بينهما ، إحداهما حضارية والأخرى بيولوجية . إنهما إحداهما عن الأخرى مستقلتان ، وبينهما برزخ لا يبغيان ، وكل محاولة للربط بينهما افتعال وافتيات على حقوق الانسان .

*

يزعم ابن خلدون « أن حَمَلَة العلم في الإسلام أكثرهم من الأعاجم ». وهذا الحكم سطحي جداً وغير دقيق ، فضلاً عن أنه غير علمي ، ولعله منقوض بالإحصاء وبتتبع كتب التراجم والطبقات . ومن العجيب أن يصدر عن ابن خلدون حكم متسرع فطير من هذا القبيل . فقد استُغل كثيراً وكان منطلقاً لمواقف وحملات وتشنجات حاقدة اتخذت من رصيد الرجل وسمعته العلمية الكبيرة مظلة لها . حتى إن كثيراً من الباحثين العرب أنفسهم صدقوا هذه الأسطورة ونشروا الأراجيف من حولها .

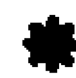
إن هـذا القول مَثَل على النظرة العـابرة العُجلى والحكم غيـر السديـد .
نحن لا ننكر أن كثيرين من مفكري الإسلام قد تحدروا من أصـل غير عـربي ، ولكن المسألة لا تُحل أبداً بمثـل هذه البسـاطة ، ولا يصح مناقشتهـا على هذا المستـوى من الضحالـة والسطحيـة ، اللهم ما لم يكن ذلـك تغـطيـة لأغـراض وأهواء معروفة . فهناك أعماق كان من الواجب التنقيب فيها ، وهناك آفاق وأبعاد كان من الضروري إدراكها والوصول اليها ، وهناك دراسات وأبحـاث كان لا بـد من القيام بها ، قبل إصدار مثـل هذه الأحكـام على الفكر العـربي الاسلامي ، هـذا إذا اريد لهـا ان تكون أحكـاماً نـاضجة رصينـة لهـا معنى . إن المقـولات البيولوجية (فطرة ، طبـع ، وراثة ، عِـرق ، سلالـة ، لون . . .) قـد اجتذبت إليها العقول والأذهان فترة من الـوقت كانت العلوم الاجتمـاعية والانسـانية فيهـا تحبو في طفولتها ، أما وإن هذه العلوم اليوم قد استقام عـودها وانتصبت قـامتها فلا معنى لتجاهلها بعد الآن ، ولا فائدة في استمرار التعامل بعملة قديمة فقدت قيمتها ، فتهافت عليها هواة جمـع التحف والآثار . لقـد مضى عهد المقـولات البيولوجية - إلا بمقدار - وفقدت ما كان لها من إغراء وفتنة لا حدود لهما ، فـلا يتشبث بهـا بعد اليـوم إلا أحـد اثنين : عـالم منشق متعصب لا يـزال يعيش في القـرن الماضي يتعـامى عن الحقيقة ليبلغ حـاجة في صـدره ، أو دَعِيّ جـاهـل متشنج يعلم ظاهراً من العلم، فبهره الضوء ولم يستطع أن يتقـدم خطوة واحـدة الى الامام ، فوقف في مكـانه لا يبـدي حراكـاً . ومع أنـه لا يرى شيئـاً بعد أن أعشى بصره ، لـم يتوقف لسانه عن الثرثرة والدعاوى العريضة .

ليس في الأمر أعاجم أو غير أعاجم ، وإنما هناك ظـروف وأحوال قـذفت الى الصدارة العقلية بأعداد كثيرة من الأعاجم في بعض الأحيان ، وبأعداد كثيرة أخرى مماثلة لها أيضاً من العرب في بعض الأحيان الأخـرى . لقد كـانت هناك فترات ومواسم - ولا سيمـا في أوقات الفتـوحات الكبـرى - كان يكثـر فيها عـدد العلماء الأعاجم ، دون أن يعني ذلك اقتصار العلم عليهم وحدهم ، كما كـانت هناك أيضاً فترات ومواسم أخـرى اتسمت بكثرة العلمـاء العرب ، دون ان يعني ذلك اقتصار العلم عليهم وحدهم . فالعـرب والعجم كانـا يتزاحمـان الى مركـز

الصـدارة العلميـة ، لكن نسبـة هؤلاء الى أولئـك كـانت تـزيـد أو تنقص تبعـاً للظروف التـاريخية والمـوضوعيـة التي كانت تحيط بكـل منهمـا ولم يكن ذلـك راجعـاً ـ أبداً ـ إلى اسبـاب عنصرية تتصل بـطبيعة هـذا الفـريق أو ذاك . ففي عصور الفتح الأولى ، وعنـدما كـان العرب في إبـان قوتهم وعنفـوان مجدهم ، برزت مواهبهم في مغانم الفتح وجني ثماره وفي تثبيت أقدامهم في البـلاد التي دخلت في حـوزتهم ، فـانصـرفـوا إلى أعمـال السلطان من إدارة الملك وقيـادة الجند وجباية الأموال التي أخـذت تتدفق على خـزائن الدولـة ، هذا فضـلاً عن استغراقهم في الدعوة الى الدين الجديد وحمـل رسالتـه . لقد تفتقت قـرائحهم في هذه الميادين وزهدوا بغيرها ، فانجبوا فيها أبطالاً ميامين وقادة عظامـاً كانـوا في مستوى الأحداث . ثم من قال إن أعمال السياسة والقيادة والدفاع لا تتطلب جهداً كبيراً من النشـاط الفكري والتـركيز العقلي ؟ وهكـذا هجروا ـ أو هجـرت أعداد كبيرة منهم على الأقل ـ مجالات الحياة الأخرى ، وبتعبيـر أدق اضطرتهم الظروف الى عدم الاهتمـام بها ، من علم وفلسفـة ومن و . . كأنمـا ليس في الدنيا إلا مغـانم الفتح وجبـاية الأمـوال وحمايـة البيضة ! وهكـذا نفـذ الأعـاجم أفواجاً الى الساحات الخالية والمجاهل غير المطروقة ، ساحات العلم والفكر ، ومجاهل الفلسفة والمعقولات ، لا سيما وقد كانوا مهيأين لذلك أكثر من العرب في بداية نهضتهم، لعراقة أصولهم الحضارية ـ لا العرقية ـ ولانتماءاتهم الفكرية العميقة قبل الاسـلام . يضاف الى ذلـك ان ممارستهم لـلأعمال العقليـة ـ بعد هزيمتهم العسكرية على أيدي العـرب ـ كانت متنفسهم الـوحيد لإبـراز مواهبهم وإظهـار تفوقهم الحضـاري في الدهـر الخالي على هؤلاء الفـاتحين « الأغرار » رعاء الشاة والإبـل الذين كـانوا لهم تبعـاً في يوم من الأيـام . وها هـم الآن ـ يـا للوقـاحة ! ـ يتـطاولـون على مُلك كسـرى وقيصـر ، فيثلُّون العـروش ويـدكـون الصروح ويرثون الأرض ومن عليها . فكأن لسان حالهم يقول : ها أنتم أولاء تهزموننا عسكرياً ، فهيًّا الى الحرب العلمية والمعركة الحضارية لنعلم أي الفريقين أحق بالبقاء !

هذا ما كان من أمر العرب أيام قوتهم . لكن عندما ضعف أمرهم وانخضدت

شوكتهم وأخذت الأرض تميد تحت أقدامهم ، ومقاليد الحكم تفلت من أيديهم لم يروا بُدّاً من الاشتغال بالعلم والاجتهاد فيه وملازمة أهله ، حتى بزُّوا الأعاجم وظهروا عليهم ، فبرزت عبقريات وقرائح عربية أمعنت في شؤون العلم والفكر وبلغت فيهما كل مبلغ ، دون ان يعني ذلك ان عصر الفتح أطفأ جذوة الروح العلمي عند العرب أو منع الأعاجم من التفوق في مواهب الحكم والسلطان ، بل لقد كان هناك تعايش بين الوجهتين في جميع العصور وإن كانت إحداهما أغلب من الأخرى في عصر دون آخر . وعلى ذلك فإن كثرة العلماء والمفكرين الأعاجم عند انصراف العرب الى أعمال الدولة والسلطان لا ترجع الى أسباب عنصرية تتصل بطبيعة العرب والعجم ، وإنما هي تعود الى ظروف وعوامل تاريخية لا شأن لها أبداً باللون والجنس وبكل ما يمت إلى أسطورة تفوق بعض الأجناس على بعض . وفي طليعة هذه الظروف والعوامل خلو الساحة وازدحامها ببعض الأعمال دون بعض والرغبة في التعويض عن فقدان السلطان بشرف العلم. واقتحم الساحة القادرون من الفريقين ليتبؤوا منها حيث يشاؤون. ويحث كل منهم عن مكان خال في هذه الساحة لينطلق منه الى العمل والقيام بنصيبه منه . المهم أن الساحة ظلت مكتظة بالمواهب مشحونة بالطاقات . فالبحث عن مكان خال في هذه الساحة كان مطلب الفريقين . وهو عندما يقترن بالموهبة حافز على الخلق والإبداع وهو الطريق الى المجد والكمال . بل لا يبحث عن هذا المكان إلا من كان أهلاً له ، إلى أي جنس انتمى ، ومهما كان لون بشرته وأصل سلالته وفئة دمه وطول قامته . . . وكانت الساحة أشبه بالسوق تشتد فيها الحاجة الى بعض البضائع دون بعض تبعاً للمواسم والمصالح والأزمان . وكانت السوق مكتظة بالباعة والمبتاعين يتزاحمون في المناكب . وكانت حاجات السوق هي التي تنظم حركة السوق وترتب البضائع والمتبضعين وتنسق بين العرض والطلب . هناك إذن عاملان أساسيان يتحكمان في هذه السوق: تقلب السوق، والمواهب التي تبحث عن مكان لها في هذه السوق، وهما مستقلان عن الأصل والانتماء واللون والجنس . . . فكل أولئك بضاعة مزجاة لا مكان لها في هذه السوق .



فليس بضائر الفارابي أن يكون من أصل تركي ، وإبن سينا والغزالي من أصل فارسي ، وإبن الصائغ من أصل إفرنجي . . . ما داموا قد نشأوا في جو الإسلام وتكلموا العربية . كما ان إثبات الأعجمية لأصولهم لن يضيف إليهم مجداً جديداً بعدما بلغوا أقصى ما كانوا يتوقعون من حظوظ المجد وأقاموا لأنفسهم في مجتمعهم الجديد صرحاً شامخاً من الذكر والفخر . إن دماء هؤلاء وأمثالهم وإن لم تكن عربية ، فإن عقولهم قد تكونت تكويناً عربياً إسلامياً . وهذا التكوين العقلي أهم لأمثالهم من التكوين الجسمي والأصول البيولوجية التي تحدروا منها . ومن منحهم هذا التكوين ؟ أليسوا هم العرب الذين دمجوهم في تيار جارف من لغة القرآن وتعاليم الاسلام ؟ أليسوا هم الذين هيأوا لهم الجو وأتاحوا لهم الفرصة ؟ وهل لولا العرب كان يمكن لهؤلاء الأعاجم أن يبلغوا ما بلغوا وأن يحققوا من الإنجازات العظيمة ما حققوا ؟ فَدَيْنُهُم للعرب أكبر جداً من دَيْن العرب لهم لأنه دَيْن أذهان بينما دَيْن العرب لهم إنما هو دَيْن أعيان . فلولا العرب ما برزت مواهب هؤلاء الأعاجم ولظلوا يعيشون حياتهم البيولوجية القاحلة التي كانوا يعيشونها قبل فتوح العرب ، هذا إذا أصررنا على استعمال كلمتي (عرب) و (أعاجم) والتفرقة بينهما ، وهي تفرقة مفتعلة غير علمية أثارها من أثارها لحاجة في نفسه ووجد في إبن خلدون الحجة والذريعة . فلولم يشرها إبن خلدون لأثارها الطاعنون في العرب الذين لا عمل لهم إلا تسقط السقطات والتنقيب عن العيوب والنقائص والتشكيك في قوم خرجوا على كسرى وقيصر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، وقالوا نحن أحق بحكم انفسنا وأجدر .

إن الرازي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن باجة وغيرهم وإن تحدروا من أصول شتى وجنسيات مختلفة ، فإنهم جميعاً عرب باللغة المنطوقة ، والفُرص المتاحة ، والهوية الحضارية ، والشخصية الثقافية ، ما داموا قد نشأوا في جو الاسلام وعاشوا في مناخه ، وتشبعوا قيمه ، وتكلموا لغته ، وأفادوا من الفُرص والامكانات التي قدمها لهم . لقد كانوا عرباً بالإحساس والعقل والروح والمصير والآمال والآلام ، وكانوا رسلاً للثقافة العربية والفكر العربي والحضارة العربية . ماذا أقول ؟ إن الإسلام نفسه وليد العبقرية العربية ويدين بأعظم منجزاته للعبقرية العربية . وبرغم ما تسرب إليه من العناصر الأجنبية وكل ما

خضع له من التيارات والروافد الخارجية ـ هدّامة كانت أو بنّاءة ـ فإنه يظل عطاء عربياً وأثراً فذّاً من آثار الانتفاضة العربية وإشراقة رائعة من الإشراقات العربية . ولا أدري ماذا كان سينتظر الإسلام لولا أن تبناه العرب ودانوا بـه واستُشهدوا في سبيله ، ولولا أن اضطلعوا بأعبائه ومسؤولياته ، وتولوا نشره في الآفاق ، وجعلوا منـه ديناً عـالمياً ، وملكـاً أرضياً ، وملكـوتاً سمـاوياً ، وذلـك بسرعـة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً من قبل ولا من بعد .

يضاف الى ذلك أن الإسلام ليس ديناً فقط ، ليس مجـرد عبادة أو عـلاقة بين العبد والرب ، انه دين وحضارة :

دين ارتفع بمشاعر بنيه الى أجـواز السماء ، وحلّق بهم الى سـدة العرش وجنة الخُلد ومُلك لا يبلى .

وحضارة لم تعترض سبيـل العلم والفكر ، بـل لقد أيـدته وشجعت عليـه وكانت مركزاً هاماً من مراكز إشعاعه . ولم تحارب الفلسفة ، بل لقـد جدَّت في طلبها والبحث عنها في جميع مظانّها ، واتسع صـدرها لشتى الآراء والمـذاهب والمِلل والنِّحل حتى إنه لا يمكن لمن يتحدث عن الرقي الإنساني ونهضة العلم والفكر ألا يذكر الإسلام ديناً وحضارة ، وألا يشيد بالقيم والمثـل التي دعا اليهـا والتي كـانت من أسباب تـوسعه وانتشـاره بين أقوام وجـدوا فيه الملجـأ والحِمى والملاذ .

ان كلمة عرب التي تكاد تقترن دائماً بكلمة (إسلام) لا تعني فقط أولئك الـذين تحدروا من أصـل عربي فقط ، وإلا فمـا أضيق العرب والعـروبة . إنهـا تشمل أيضاً جميع الذين خضعوا للسيادة العربية أو شاركوا فيهـا واستعملوا اللغة العربية للكتابة والتعبير ، سواء دانوا بالإسلام أو حاربوه وناصبوه العداء . فجوهر العروبة ليس جغرافياً أو عرقياً بيولوجياً ، وإنما هـو إجتماعي وثقـافي . العروبـة لغـة وتراث وعقيدة وتاريـخ طويـل . . . العروبـة ليست العبرة فيهـا بالمضمـون العرقي واللغوي ، إنما العبرة فيها بالمضمـون الحضاري ، ليست العـروبة مجـرد

انتساب الى جنس بعينه بقدر ما هي اشتراك في تجارب تاريخية وعقلية وروحية واحدة ، إشتراك في آمال وآلام وهموم واحدة ، في أفراح وأتراح واحدة . فقد جمعت العربية أقواماً مختلفي الأديان والأجناس والعقائد والمشارب والأفكار ، فصهرتهم في بوتقتها حتى صاروا جميعاً بعد أن كانوا شتى ، صاروا عرباً بالقومية والثقافة والحضارة والولاء ، بعد أن كانوا أعراباً وألْسنةً ومنازع وقوميات . فهي لم تكن وسيلة تعبير وكفى ، لقد كانت أيضاً وسيلة تفكير وتغيير . فقوالب التفكير عند من يتكلم العربية هي غيرها عند من يتكلم الفارسية أو اليونانية أو الانكليزية مثلاً . ولذلك فإن هدم اللغة العربية فيه تقويض لمفاهيم الإسلام ، وفيه تقويض أيضاً للتاريخ العربي وللفكر العربي قديمه وحديثه .

فليس الذي يُكوِّن الأمة إذن ويربط أجزاءها ويوجهها الى غايتها هو هبوطها من سلالة معينة أو من أصل قومي خاص ، وإنما الذي يفعل ذلك تكلمها بلسان واحد ينتظم فيه الشعور الواحد والأمل الواحد والألم الواحد والهدف والولاء والتطلع والمستقبل الواحد . . . فلو وضعتَ أخوين شقيقين في قطرين متباعدين يتكلم كل منهما بلسان غير لسان الآخر ، وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر ، وتباين قصد ، وتباعد تفكير ، ثم عمدت الى سوري ومصري ينطقان باللسان العربي ، ورأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب ، لو فعلت ذلك لرأيت العجب العجاب ، ولأدركت بالتجربة والمشاهدة الفرق العظيم بين الدم واللغة في توحيد الأمم وصهر الشعوب والقوميات .

هذا ما تفعله اللغة ـ كل لغة ـ في حياة الأمم والشعوب ، وهذا ما فعلته في حياة العرب والمسلمين ، بل إن ما فعلته العربية ، لهو أكبر مما فعلته أي لغة في التاريخ . فقد كانت عامل ربط وتوحيد بين شعوب وقوميات امتد إليها الإسلام كانت قبله متباعدة متنافرة . لقد كانت العربية من أمضى الأسلحة التي حطمت الحواجز بين الأقوام والأجناس وساعدت على انتشار النفوذ العربي وتوكيد الهوية العربية ، فضلاً عن المشاركة الوجدانية والتأثير العقلي والديني ولو لم يكن لها من أثر إلاَّ تعريب منطقة بكاملها كانت خليطاً متبايناً من الألسنة

واللغات واللهجات فطاردتها جميعاً ، وتعقبتها جميعاً ، حتى دحرتها جميعاً ـ أقول لو لم يكن لها غير هذا الأثر فناهيك به شاهداً على عظمة هذه اللغة العملاقة التي تبدلت بطرفة عين من لغة السيف والنخل والبعير ، إلى لغة القلم والفلسفة والعلم الغزير ، من لغة محلية ضيقة مقصورة على بضعة آلاف من البدو الأميين ، إلى لغة عالمية تلهج بها الملايين ، ولا يعرف العالم المتحضر آنذاك أداة للتعبير غيرها ولا يرضى لنفسه لساناً دونها ! وبكلمة واحدة : انتقلت من لغة البداوة الى لغة الحضارة . وبينما لم تصمد اللغة اللاتينية للّهجات المحلية التي أشرأبت بأعناقها لتستقل عن اللغة ـ الأم وتثمر اللغات الأوروبية الحديثة ، فإن اللغة العربية ، قد امتصت جميع اللغات ـ لا اللهجات وحدها ـ التي انتشرت في المنطقة الممتدة من الخليج الى المحيط واحتلت مكان الصدارة فيها . أرأيت الى هذه المعجزة الفذة ! فجميع الذين دخلوا في الإسلام وأصبحت العربية لغتهم ، والولاء لحضارتها موقفهم ، ومناخها غذاء لهم ـ جميع هؤلاء بصرف النظر عن أصولهم العرقية ومواريثهم الحضارية . فمن لم يكن عربياً فقد تعرب . لقد ربطتهم اللغة بعرى لا انفصام لها من المشاعر والأحاسيس والآمال والأماني والمصير المشترك . لقد فتنتهم وكانت مهوى أفئدتهم ، حتى قال قائلهم : « والله لأن أُهجى بالعربية أحبُّ اليَّ من أن أُمدح بالفارسية » !

وصفوة القول ، إن العروبة ليست عرقاً ولا نَسباً ، وإنما هي لغة وآداب وتاريخ وتكوين نفسي وولاء ، وذلك كله إنما يُكتسب اكتساباً ، وليس أمره مرهوناً بالتوارث المحكوم بنقاء الدم وصفاء الأصل واتصال شجرة الأنساب . وقد نتج عن ذلك كله حضارة مزدهرة يانعة تزاوج فيها الدين والعلم والفلسفة والأدب ، والتحم فيها العربي والفارسي والرومي والمصري والهندي . . . وتولت قيادة العالم المتحضر قروناً طويلة وعصوراً مديدة وأحقاباً متجددة متعاقبة .

*

وهكذا فإذا لم يكن المفكرون الذين أنجبتهم بلاد الإسلام أو اجتذبتهم إليها فعملوا فيها وشاركوا في آمالها وآلامها ، واضطلعوا بمسؤوليات الحكم والبناء فيها ـ أقول إذا لم يكونوا من العرب الأقحاح فقد أثَّروا في تطور العربية وتأثروا بها وتفاعلوا وإياها بواسطة لغة العرب وبلسان العرب . فهم ـ مهما كانت أعراقهم الأصلية، أبناء العربية وجنودها، وأدوات التطور والبناء فيها: بها كانوا يفكرون ويبحثون ويؤلفون ، واليها روحياً وعقلياً ينتمون . وإذا ذكرهم التاريخ فإنما يذكرهم لا بأنسابهم العرقية ، بل بثقافتهم العربية ، وهويتهم الاسلامية ، وانتمائهم الحضاري العربي الاسلامي .

وعلى ذلك فإن عبقريات الإسلام إنما تدين بتفتُّقها وإشراقها لا لاعتبارات عنصرية أو بيولوجية ضيقة ، بل هي تدين بذلك ـ وتدين فقط ـ لملابسات وظروف إجتماعية ثقافية حضارية عامة كانت متوافرة للعرب دون غيرهم في مرحلة معينة من تاريخهم . إنها إنما تدين للحضارة الإسلامية التي قد نشأ فيها أصحاب هذه العبقريات وتفتحت فيها براعمهم ، للمواقف التي اتخذوها من هذه الحضارة ، للقيم الباطنة التي تتضمنها ، للمهمات التي وُسدت اليهم فيها ، للمسؤوليات والتبعات التي اضطلعوا بها وهم يعيشون هذه الحضارة ، للدلالات التي كانت لها في نفوسهم ووجداناتهم، للآمال التي كانوا يسعون الى تحقيقها فيها ، للدموع التي سالت من مآقيهم خوفاً عليها ، للأحزان والآلام والتضحيات التي عانوها وهم يضعون لبناتها ، للدماء التي سفكوها دفاعاً عنها ، للأرواح التي أزهقوها حفاظاً عليها ، للمثل الأعلى الذي استهواهم فيها ومَلَك عليهم قلوبهم ومشاعرهم وهم يتفيأون ظلها ، بل ـ ماذا أقول ؟ ـ للضغائن والأحقاد التي اشتعلت في قلوب الذين ماتوا بغيظهم بنجاح حركتها وانتظام أمرها ، فما انفكوا منذئذٍ يُعملون معاولهم فيها ، فأتوا من فنون الرأي والفكر بكل جديد وطريف ما كان لهم أن يأتوا بمثله لولا عداؤهم للإسلام وخصومتهم له . إن هؤلاء جميعاً إذا لم يكونوا عرباً في أنسابهم وأعراقهم ، فقد أصبحوا عرباً بالتعرب والانتماء العربي الجديد. فقد استخدموا العربية أداة للتعبير والتغيير ، ولغة للكتابة والتأليف ، كما خدموا اللغة العربية والفكرة العربية

والأدب العربي، وكانوا رواداً من رواد العربية في ظل الاسلام ومناخه الفذ الفريد.

وكما لا شأن للأصول العرقية والبيولوجية بالتفوق العقلي كذلك لا شأن للأصول الدينية والايديولوجية بذلك. وهكذا فإن أصحاب العبقريات الذين برزت مواهبهم في بلاد الاسلام ـ سواء كانوا مسلمين أو لم يكونوا ـ إنما يدينون بعبقرياتهم لا الى تكوينهم النصراني أو اليهودي أو الوثني . . . الخ بل إلى الجذوة التي اتقدت مع الاسلام، والتي في وهجها إنما نشأوا وترعرعوا . لقد نضجوا ونبغوا وانتجوا في رعاية الحكم العربي وفي سماحة الدين الجديد وفي الفُرص النادرة التي أتاح لهم العمل فيها . هذا فضلاً عن أنهم كتبوا ثمرات قرائحهم بلغة العرب، وبلسان العرب دافعوا عنها وناقشوها وحاوروا فيها . وبذلك فهم ليسوا سوى عطاء البيئة العربية التي عاشوا في رفدها، ووجه ناضر متألق من وجوه الحضارة العربية الاسلامية التي تغذوا بلبانها. وإلاَّ فليت شعري ! كيف عسانا نعلل عدم ظهور هذا الحشد الهائل، وهذه الجيوش الجرارة، من الفلاسفة والعلماء والمفكرين الذين يقال لنا دائماً إنهم من أصل نصراني أو يهودي أو صابئي أو زرادشتي . . . أقول كيف عسانا نعلل عدم ظهورهم في بلادهم الأصلية قبل أن تطأها أقدام العرب، وقبل أن يتصلوا بالفاتحين العرب، أعني قبل أن ينتموا الى عالمهم الجديد، وباصطلاحنا الفني، إلى شبكة الإثارة السِّيْكوسوسيودينامية التي امتدت فروعها وترامت بامتداد الاسلام واتساع رقعته ؟ ما بال هذا الفتيل لم يشتعل إلاَّ بعد أن مسَّته شرارة الاسلام ؟ ما بال هذه الأزهار لم تتفتح براعمها إلاَّ مع أنسام ربيع الاسلام ؟ ما بال هذه الأثمار لم تَيْنَعْ إلا عندما طلعت عليها شمس الاسلام ومنحتها الدفء والحرارة ؟ ما بال هذه القرائح لم تتفتق وهذه الطاقات لم تتفجر إلا مع إشراقة الاسلام أو عندما هبت عليها رياح الاسلام، وعندما اتصلت بمركز الإشعاع ـ الأم الذي توهج مع الاسلام، أي بالشبكة الأصلية التي تتولد فيها الطاقات وتُشحن فيها القوى ؟ بربك ! ألا يدل ذلك على قوة التفاعل السِّيْكوسوسيودينامِيكي الذي ترتفع وتيرته أو تنخفض تبعاً لقربه أو بعده عن مناطق الضغط العالي المنتشرة في ديار الإسلام، والمتصلة بعضها ببعض بشبكة لم تتوقف عن ضخ الطاقة إلاَّ في عصور انحطاط دولة الاسلام ؟ لا

إبداع إلا بالانضمام إلى هذه الشبكة وتأمين الإتصال السريع بإحدى قنواتها والاسترفاد برفدها . فلا وربك لا تنبثق الآراء ولا تتفجر الأفكار ولا تنشأ المدارس ولا توضع المذاهب ، ولا تُسن القوانين والشرائع ، إلا حيث تتعبأ القوى وينتصب سُلَّم الإثارة والسَّيْكوسوسيودينامية التي تسدُّ الفجوات وتقرب المسافات بين الآراء المتباعدة ، وتحدُّ من الانقسامات وتستوعب التناقضات ، فإذا استفرغت جميع الامكانات وأتت بالآيات البينات ، توقفت المضخات وانقطعت الإمدادات ، وجفَّت العقول والأقلام والكلمات والاجتهادات ، وبدأت التمزقات والانهيارات وقال القائلون رحم الله عهداً مضى بل مات !

*

أجل ، إني أعد جميع هؤلاء الذين أنجبهم الاسلام في عصور ازدهاره نتاجاً عربياً اسلامياً، حتى ولو لم يكونوا عرباً أقحاحاً، وحتى لو لم يعتنق بعضهم الاسلام ، بل حتى لو ندد هذا البعض بالاسلام وخاصمه وكاد له وأعلن الحرب عليه . إذ ـ كما ذكرت اكثر من مرة ـ ليست العبرة بالأصل العربي بقدر ما هي بالمناخ الفكري والحضاري . وكذلك ليست العبرة باعتناق الإسلام بقدر ما هي باعتناق لغته والتنفس في جوه ، والتنقل في أرضه ، وتبادل الفكر والرأي في وهجه وتحت شمسه وسمائه، والمشاركة في المسؤوليات والأعباء والمغانم والمغارم التي تتفاعل في ظله وتحت رحابه ، أي ان العبرة كل العبرة هي بالانضمام الى شبكة التعبئة السَّيْكوسوسيودينامية التي جاشت بجيشان الإسلام ، وسُلَّم الإثارة السَّيْكوسوسيودينامية التي انتصبت مع مجيء الإسلام وتطاولت بتطاول دوحة الاسلام واستفحلت باستفحال حضارة الاسلام واشتداد العواصف والأنواء التي أخذت تهدد الاسلام .

*

حذار الأحكام الغالية المسرفة في التعميم. فإنه ليس من اليسير في مجال

العلوم الانسانية أن يقال على وجه التحديد إن فلاناً كان أول من نادى بكذا قبل فلان وان هذه الفكرة تعود الى فلان دون فلان . إذ ينبغي لنا في مثل هذه الأحوال قبل أن نقطع فيها برأي ان نحسب حساباً لوحدة الفكر وتوارد الخواطر ، وبالتالي لإمكان وقوع التشابه بين باحث وآخر دون ان يأخذ أحدهما عن الآخر . فكما أنه ليس بين العلوم علم واحد يصح ان يقال على وجه القطع إنه نشأ وتكوَّن جملةً واحدةً، وإنما تضافرت عليه جهود كثيرة متلاحقة، كذلك ليس من الضروري ان يكون لكل فكرة أصل واحد صدرت عنه . فلا مانع أبداً من تعدد المصادر ، أي لا مانع ان تكون هذه الفكرة نتيجة مساع كثيرة وليدة نفثات متباينة اتحدت جميعاً لإخراجها الى النور . فضلاً عما في القول بالأصل الواحد من إنكار لإمكان توارد الأفكار والخواطر على أكثر من شخص واحد ـ وهو شيء ثابت تاريخياً ـ ومِنْ رَفض لفاعلية العقل وسَوْرته وتلقائيته الواعية المستقلة ، ومن محو للخصائص الفردية للأشخاص .

فهناك عند كثير من الباحثين في الفكر العربي غلو وشطط في تلمس الأشباه والنظائر مع الافتقار الى الأسانيد المكتوبة أو الشفوية للدلالة على حصول تأثير وتأثر متبادلين . إن فكرة التأثير والتأثر هذه هي كما نعلم أساس كل بحث علمي دقيق جدير بهذا الاسم ، ولكنها من أخطر المزالق في يد الباحث الذي يستعملها عشوائياً وكيفما اتفق عندما يتصدى لدراسة التيارات الفكرية والنظريات العلمية والفلسفية . فإن الفكر الإنساني في محاولة الوصول إلى الحقيقة لا يخضع لقانون العلة والمعلول خضوع المادة الجامدة . فلا يكفي ظهور فكرة من الأفكار في فلسفة ما ، ثم ظهور هذه الفكرة نفسها أو ما يشابهها في فلسفة أخرى أو نظام فكري آخر، للحكم بأنَّ الثانية متأثرة بالأولى، إلا إذا وُجِدَت دلائل وقرائن مستمدة من الصلة التاريخية بين الفلسفتين، وهذا أمر لا تسمح به المناهج الموضوعية في حالتها الراهنة، فضلاً عن أنه كثيراً ما تظل هناك فروق جوهرية بين الفلسفتين اللتين يقال إن إحداهما مأخوذة عن الأخرى ، أو على الأقل متأثرة بها . والرأي عندي أن قضية انتقال أفكار فلسفية من نظام فكري الى نظام آخر ، هي أعقد من أن تكون مجرد عملية مقارنة

نصوص . فإن وجود قرابة بين طائفتين من الأفكار لا تدل دائماً على وجود تـأثير وتأثر . ولـذلك يجب على البـاحث هنا أن يشيـر إلى الظروف التي يجـري فيها اللقاء الفكري ، وأن يبرهن على احتمال انتقال فكرة ما من فلسفة ما إلى فلسفة أخرى . ولذلك كان من الضروري أن تؤخذ أقوال هؤلاء الذين يتلمسون الأشباه والنـظائر بـأشد الحـذر ، لأن مجرد هـذا التلمس في ذاته ينـطوي على التسليم بوجود علاقة تأثير وتأثر . ومن هنا تشتد الرغبة في إثبـات هذه العـلاقة على أي وجه اتفق ، ومن هنا بالتالي الافتعال والاقتسار وتحميل النصوص مـا لا تطيق . وهنا تدخل النوايا والطوايا ، ويتسرب التزوير والتزييف للخروج من هذا التشابـه العـارض بـأحكـام ونـظريـات وتـأويـلات لا وجـود لهـا إلا في أخيلة هؤلاء « البـاحثين » الـذين وقعـوا في هـذا التشـابـه على صيـد ثمين ، دون أن يثبتـوا بالوثائق الكتابية أو النقول الشفـوية الصحيحـة أن « المتَّهَم » المسكين قد اطلع ضرورةً على آراء من يقال إنه أثَّر فيه وعرفـه ونقل عنـه . أما أن يقفـز البـاحث ـ الذي يحمل في ذهنه أفكاراً مبيَّتة يريد إثباتها كيفما اتفق ـ من مجرد التشابه إلى توكيـد عملية التأثير والتـأثر ، فهـذا ليس من أخلاق العلمـاء ، إنه أمـر يجافي التحقيق الدقيق والمنهج العلمي السليم ..

إن حكمة الحياة قد انتقلت عبر العصور من فم الى فم انتقالاً لا يُعرف له بداية ولا نهاية ، وقد وصل الى السامعين من أكثر من طريق . وفي أحيان كثيرة قد سنحت الحكمة الواحدة لنفـوس متعددة كـلٍ على حدة، فـاومضت لهم بما يشبه النفث في الروع ، وانثالت عليهم بالمعاني والأفكار التي تتشـابه وتتقـارب قليـلاً أو كثيراً . هذا هو الإلهام الـذي يبرق لعـدد قليل من الأفـراد يعيشون في بلاد وأجواء مختلفة . لذلك فإن مؤرخي العلوم والحضارات قد بـدأوا منذ وقت قريب يُقرون بإمكان قيام أفكار متشابهة في دوائـر فكريـة متباعـدة ، وذلك تبعـاً لنـظريتهم المعـروفـة بنـظريـة التـطور المتـلاقي The theory of convergent evolution ذلك بأن كشوفاً علميـة كثيرة ـ متـطابقة أو متشابهة ـ قـد وصل اليهـا باحثون مختلفون في أماكن متفرقة في وقت واحد. والتفسير الذي يؤخذ به اليوم يتلخص في أن انتهاء مذهبين أو أكثر إلى نتيجة واحـدة أو نتيجتين متشابهتين أو

متقاربتين لا يعني دائماً أن أحدهما قد أخذ عن الآخر ، بل قد يعني أيضاً ان صاحبي هذين المذهبين قد خضعا لظروف وأحكام نفسية واجتماعية و . . . واحدة أو متشابهة، لذلك لا بد أن يفضيا إلى نتيجة واحدة او إلى نتيجتين متشابهتين أو متقاربتين ، ما دام الفكر واحداً وقوانين عمله واحدة في كل زمان ومكان، وهي لا تختلف إلا في الفروع والتفاصيل دون الأصول والجوهر. وقد حدث ذلك في الماضي . فقد كان هناك ماضٍ مشترك من المعضلات والمشاكل والصعوبات ، فعمد الرواد الأوائل إلى إيجاد حلول واحدة أو متقاربة لها ، على بُعد الشقة بينهم في الزمان والمكان . كيف لا والفكر الانساني واحد والظروف التي استقوا منها المعلومات واحدة أو متقاربة ، والضروريات الحياتية التي واجهوها واستمدوا منها إلهامهم واحدة أو متقاربة ؟[1] بل ثمة حالة ثقافية دينامية يدخل فيها العلم نفسه مع رصيده من النظريات شريكاً فاعلاً ومتفاعلاً فيها. فقد استطاع والد بولياي Bolyai عالم الرياضة المشهور، أن يعبر عن ذلك في خطابه الى إبنه يحثه فيه على نشر بحوثه ، ولم يكن يعلم أن غاوس Gauss قد سبقه إليها . فهو يقول له : « إن كثيراً من الأمور يأتي أوانها معاً ، حيث تحصل في وقت واحد في أماكن متفرقة ، كما تتفتح أكمام البنفسج في كل الجنبات إبان الربيع»[2]. كذلك أشار دارون في مقدمة كتابه (أصل الأنواع) إلى أنه في الفترة الواقعة بين العامين 1794 و 1795 قد ارتسمت فكرة تطور الأنواع في وقت واحد في أذهان كل من غوته في ألمانيا وسانت هيلار في فرنسا ، وجده إرازموس دارون في انكلترا . كما تلقى دارون نفسه رسالة من وولاس سنة 1858 وجد فيها موجزاً كاملاً لنظريته التي لم تكن قد نُشرت بعد في الانتخاب الطبيعي على أساس أنه هو السبب الرئيس في تطور الأنواع[3]. كما أن الأوكسيجن الذي يُنسب اكتشافه الى لافوازييه الفرنسي قد اكتشفه أيضاً بريستلي الانكليزي وشيل Scheel الألماني. وفي المجال الطبي، يُصرُّ الألمان على

---

(1) أنظر سارطون : تاريخ العلم 65/1 .

(2) د . صلاح قنصوه : فلسفة العلم صفحة 85-86 .

(3) المصدر السابق صفحة 86 .

تسميـة المرض النـاجم عن الإفراط في نشـاط الغدة الـدرقية بـاسم (داء بـازدو Basedow) ، أمـا المصادر الإنكليـزية فـإنها تسميـه (مرض غـريڤز Graves) لاعتقادها أن غريڤز هذا كان أول من وصفـه . لقد كـان البعض يتهم ليبنتز بـأنه انتحـل لنفسه وضـع (حساب الـلامتناهيـات في الصغر) بـدلاً من نيوتن الـذي يظهر أنه قد أجرى اكتشافه سنة 1666 . ولكنه لم ينشره إلا سنـة 1692 ، غير أن ليبنتز قد نشر اكتشافه في (حساب التفاضل) سنـة 1684 و (التكامـل) في سنة 1686 . وليس ثمة من شك في أن نيوتن كان أول من اكتشف ذلـك ، وأن ليبنتز قد توصل إلى اكتشافه مستقلاً عنه وأنه قـد سبق نيوتن إلى نشـر اكتشافـه ، وأن طريقة ليبنتز في (الرموز) ثبت أنها أفضل من طريقة نيوتن[1] .

فهناك صعوبـة إذن في بعض الأحيان في تحـديد أسبقيـة هذا الاكتشـاف العلمي أو ذاك ، كمـا ان كثيراً من الاكتشـافـات الأخـرى قـد حصلت في وقت واحد وعلى نحو مستقل ، كما حدث في الرياضيات مثـلاً حين اكتشف كل من ديكارت وفيرما الهندسة التحليلية ، وحين اكتشف الهنـدسة غيـر الأوقليديـة كل من لوباتشڤسكي وبولييه وغـاوس ؛ وفي الفيزياء حين اكتشف كل من سنيلـيوس Snelluis وديكـارت قوانين انعكـاس الضوء ؛ وفـاراداي وهنري Henry قـانـون الحث الكهربائي . كما ان قانون بقاء الطاقة ورد ضمنيـاً أو شُرح شرحاً عابراً سريعاً في أعمـال العـديـد من العلمـاء، كـأمثـال غـروف Grove وفـاراداي وكـارنـو ولـومونـوسوف Lomonosov ومـائير Mayer وجـول Joule وهلمهولتـز . . . ومن الممكن إيـراد أسمـاء أخـرى كثيـرة من هـذه الأمثلة . فـالقـائمـة لا تنتهي ، أو تكاد[2] .

وهكـذا فعملية تـوارد الأفكـار والخـواطـر ليست مقصـورة على زمن دون آخر . فإذا كـانت تحصل اليـوم فقد حصلت في المـاضي ضرورةً . فـالماضي

---

(1) ول ديورانت : **قصة الحضارة** 34|164.

(2) فلاديمير كورغانوف وجان كلود كورغانوف : **البحث العلمي** صفحة 93-94 .

أشبه بالحاضر من الماء بالماء كما يقول إبن خلدون .



فمن ضروب التشكيك في الفكر العربي ما يعمد إليه المرجفون من آن إلى آخر من إثارة الجلبة واللغط كثيراً حول أمرٍ رأينا أنه يحصل دائماً في تاريخ الأفكار . فإذا وقعوا علىٍ أي تشابه بين التراث اليوناني ـ اليهودي ـ المسيحي وبين انجازات العرب بادروا من فورهم الى اتهام هؤلاء بالسطو على الأوائل، بلا تدبر ولا تحقيق ولا تدقيق . لقد وقعوا على صيد ثمين فليستغلوه إلى أقصى حد ممكن . إنهم علماء منهجيون في بعض الحقول والميادين ، ومزيفون مزاجيون في بعضها الآخر . وحتى لو ثبتت علاقة التأثير والتأثر بين العرب والقدماء ، فما وجه الغرابة في ذلك ؟

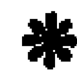
نعم ان علوم العرب لها أصول مختلفة ومصادر متعددة ، منها اليوناني ومنها الهندي ، ومنها الفارسي . . . بها تأثروا وعليها اعتمدوا ، ومن لبناتها بنوا صرح علومهم ورفعوا قواعده . ولا تثريب عليهم في ذلك . فَمَنْ الذي لم يتتلمذ على من سبقه ويقتفِ أثر من تقدمه ؟ جميع الشعوب دائنة ومدينة يُمد بعضُها بعضاً ويتلقى بعضها من بعض . وشعلة المعرفة لا بد ان تنتقل من قوم الى قوم ، لأن من المتعذر إشعالها كلما انطفأت . إن تبادل الأفكار والآراء بالاقتباس والاستعارة والنقل ليس جريمة أو إثماً أو عملاً غير خلقي . إنه أمر طبيعي يحصل كل يوم ولا يخلو منه بلد أو حضارة . فالإنسان إجتماعي تعاوني ، ولا سيما في عمله العقلي الذي هو عنوان مجده، وإن لعمله دائماً ينابيع يستقي منها وأصولاً يبني عليها ، دون أن يستلزم ذلك دائماً استرقاقاً وعبودية . إن الآثار الفكرية ليست وليدة يوم أو شهر أو سنة ، ولا هي مقتصرة على شعب دون آخر . فهي تتوالى ببطء وتنمو في مخيلة الشعوب على آماد متطاولة وأجيال متعاقبة ، وتنتقل من صورة إلى أخرى وإن لم يفطن لها التاريخ . إن الفكرة الواحدة يتلقفها أشخاص متعددون ثم لا تلبث أن تظهر على أيديهم في مظاهر مختلفة ، لأنها عندما تنتقل من شخص إلى آخر ومن

بيئة الى أخرى فإنما تدخل في نظام فكري جديد وعلاقات جديدة ، من شأنها ان تثير تفاعلات سيكوسوسيودينامية جديدة لا تثيرها في موطنها الأصلي . وهي في هذه الحال لم تعُد ملكاً لأصحابها الأولين ، بل لقد أصبحت حقاً مشاعاً يمكن لكل أحد أن يستمتع بخيراته ويتخذ منه منطلقاً لأفكار جديدة تناسب روحه وتلبي حاجاته، وتخفف من الضغط والتوتر في نفسه .

أجل ، لقد اغترف العرب من جميع الثقافات التي اتصلوا بها وتمثلوها حتى أتت أُكُلَها وأثمرت ثمرات طيبة يانعة . وهذا تطور هام سواء للعرب أو للثقافات التي استقوا منها . إذْ بُعثت هذه الثقافات من جديد ـ ولا سيما الثقافة اليونانية ـ وانتعشت أيّما انتعاش بعد أن كانت على شفا حفرة من الذبول والانقراض . لقد بثَّ فيها المسلمون الحياة ومنحوها فرصة جديدة للبقاء . لقد خلدوها حتى طاولت الزمن وتحدَّت بفضلهم العصور والدهور، ولم تكن لتبلغ هذا المبلغ على أيديهم لولا أنها استصفت معائشهم وكدائحهم ورَشْح جباههم وذوب قلوبهم وأعصابهم . لقد منحتهم ثروتها العقلية الفذة وزادها العلمي الرصين ، فأجزلوا لها العطاء ، وجاء العطاء بعد العطاء !!

لقد فتحوا جميع الأبواب لتلقي شتى الثقافات والحضارات دون أن يجدوا في ذلك أي غضاضة ، ما داموا واثقين بقدرتهم على هضمها واستيعابها . فليس المهم في تاريخ الأفكار اليوم تحليلها بما يشبه التحليل الكيماوي لمعرفة مصادرها والموارد التي نهلت منها . إن هذه الطريقة « الكيماوية » في معالجة الأفكار والمذاهب القديمة ـ إذا كان لها أنصارها في القرن الماضي وصدر هذا القرن ـ قد فقدت كل أهميتها اليوم وأصبحت طريقة بالية عفَّى عليها الزمن وتجاوزتها النظريات العلمية الحديثة. إذ لابد للحضارات من ان يستعير بعضها من بعض ويأخذ بعضها من بعض ، وبذلك تحيا وتنمو وتتطور وتواصل المسير . فالتفاعل بين الحضارات أمر ضروري لازب ، لازم لكيانها ولا قوام لها إلاّ به . إن الحضارات التي لا تتعاور الآراء والأفكار والمذاهب ، ولا تتبادلها بعضها مع بعض ، لا وجود لها إلا في البلاد النائية المتخلفة التي تسمى في العادة ببلاد المياه الراكدة ، وهي البلاد التي لم تهب عليها رياح التطور ، بل ظلت قابعة في عقر دارها وغلقت من دونها الأبواب كحضارة سكان

استـراليا الأصليين ومن نسـج على منوالهم من الأقـوام والقبـائـل المنعـزلـة عن العالم المعمور . إن الطريقة العلمية الجديدة في نظرتها الى الأفكار المستعـارة لا تعالجها كيماوياً ـ إذا جاز التعبير ـ وإنما هي تعالجها حضارياً ، أي بمعرفة ما فعله الشخص المبـدع بهـذه الأفكـار ومـا لم يفعله ، وأي النتـائـج استخلصهـا منها ، وكيف استخدمها في تطوير حياته ومجتمعه ومـواجهة الأوضـاع والمواقف الـطارئة ، وكيف صـاغ بها نـظرته الى الكـون والحياة والـوجود . . . وقـد كـان العـرب أفذاذاً في هـذا الباب : فقـد طـوروا العلوم القـديمـة ، وأنشـأوا علومـاً جديدة ، وصنعوا حضارة زاهرة ظلت مناراتها تُفري ظلام العصور دهراً طويلاً ، وكـانت مركـز إشعاع تهـوي إليه عقـول عطشى ، ونفـوس غرثى ، وأفئـدة قلقة مضطربة ملتاعة جوعـى . . .



هذه نتيجة طبيعية لعملية الأخـذ والعطاء، (عمليـة السيلان الحضـاري). فالتأثير والتأثر ، والأخذ والعطاء ، وتبادل الأفكـار والآراء ، ليست أبداً عمليـات بسيطة . إنها ليست مجـرد إضافـات كمية ، بـل هي عمليات معقـدة ينتج عنهـا تحولات نوعية هامة ، وتزداد هذه التحولات نوعية كلما ازدادت عمقاً وتعقيداً ، ولا سيمـا في المجتمـع الصحي السليم، وهـو مجتمـع فتيٌّ نـاشيء بلغ جهـاز الهضم والتمثيل مبلغاً عظيماً من النضج والكمال . هذا ما يؤكده منطق الحضارات وتاريخ الحركات الثورية وقوانين السُّيْكوسوسيوديناميكا مجتمعة . فإن حضارة ما ، إذا تأثرت بأخرى وأخذت عنها بعض عناصرها، فهذه العناصر لا تبقى على حالتها الأولى ، بل تتكيف بحسب متطلبات الحضارة الآخذة وأوضاعها وتاريخها . وقصة الحضارات في اتصالها بعضها ببعض ، وتفاعلها وتبادل العناصر والمؤثرات فيما بينها ، مليئة بالشواهد على ذلك .

«فـالعرب مثـلاً أخذوا عن اليـونـان الكثيـر من العلم والفلسفـة ، ورفعـوا أفـلاطون وأرسـطو الى أعلى مراتب الاعتبـار والتقـديـر . ولكن العلم اليونانـي

والفلسفة اليونانية لم يظلا في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة على ما كانا عليه في إيونيا وأثينا والإسكندرية وانطاكية ، بل تكيفا لاتجاهات الحضارة العربية وروحها الشاملة . . . » ويضيف الدكتور قسطنطين زريق الذي نقلنا عنه هذا النص، في كلامه على الحضارات وهي تتلاقى وتتسرب آثار بعضها الى البعض الآخر قائلاً: « فإذا هذه الآثار تحمل مفاهيم تختلف عن المفاهيم الأصلية ، وإذا هذه المفاهيم المختلفة تتفاعل في داخل الحضارة الواحدة، وإذا نتاج هذا التفاعل يتنوع بتنوع حالة الحضارة وقدرة أبنائها على الخلق والإبداع . فمتى كانت الحضارة حية ناشطة ، كما كانت الحضارة العربية في إبان نهضتها ، جاء هذا التفاعل مدعاة للنمو والإثمار ، فنجد المفاهيم اليونانية مثلاً تلتقي المفاهيم الإسلامية الأصلية ، وتتطعم الواحدة منها بالأخرى ، فتنشأ عن هذا التطعيم المتبادل غراس قوية زاهية مثمرة فلسفةً وكلاماً وتصوفاً وفناً وما الى ذلك »[1] .

إن المجتمع المريض ـ كالجسم المريض ـ يلفظ ما يلتهمه كما هو ، دون أن يمتزج بدمه وعروقه. إنه لا يسيغه أبداً. وأما المجتمع الصحي السلمي فإنه يحيل ما يتناوله من غذاء ، خلايا جديدة لا تختلف أي اختلاف عن خلاياه الأصلية ، بحيث يكاد يكون من المستحيل تعرف أصل الغذاء ومصدره . فإذا كان اطلاع المسلمين ـ إبان الحضارة العربية ـ على الفلسفة اليونانية مثلاً لم يؤثر في سلامة عقديتهم وقوتها ، بل لقد زادها قوة ومناعة ، فلا يرجع ذلك فقط الى أنهم أحسنوا الاختيار بين ما ينقلون وما لا ينقلون ، بل هو الموقف النفسي الصلب الذي واجهوا به قيم الحضارة الوافدة التي بدأت تغزوهم وتغذوهم . فقد كان لقاء العرب لهذه الحضارة كفيلاً أن يطيح بهم لولا قوة شخصيتهم التي استمدت كيانها من القرآن ومن الدين الجديد الذي انبثق في شبه الجزيرة وكان مهوى القلوب والأفئدة فيها ، وكذلك لولا ان المجتمع الصحي السليم تزيده الأزمات رسوخاً، بينما هي نفسها تزيد المجتمع المريض تفسخاً وضياعاً . حقاً لقد كان اصطداماً عنيفاً ، ومع ذلك فقد أثمر ثمراً طيباً كان من آثاره حدوث

---

(1) قسطنطين زريق : **في معركة الحضارة** : صفحة 121-122 ، 140 .

انقلاب فكري وثقافي وإجتماعي منقطع النظير في تاريخ الحضارات الانسانية قد يفوق في عمقه وسرعته واتساع مداه الإنقلاب الذي أحدثته النهضة في أوروبا القرن الخامس عشر .

فقد كان لالتقاء الحضارات وخلفياتها الثقافة والإيديولوجية في هذه المنطقة من العالم القديم أثر قوي فعَّال في إذكاء حركة الأفكار وتنقيتها ، وتوليد المذاهب والفلسفات منها ، وفتح آفاق جديدة للمعرفة . وساعد على ذلك ان الإسلام لم يكن مغلقاً أمام الأفكار الوافدة التي أخذت تخترقه من الخارج ، وإن قامت محاولات يائسة متعصبة حمقاء لسد جميع منافذه والحؤول بينه وبين قوى التطور والحضارة لم يكتب لها النجاح . فضلاً عن ان المجتمع العربي الإسلامي نفسه لم يكن مجتمعاً تحيط به القلاع والأسوار والسدود ، وإنما كان مجتمعاً منفتحاً مشرع الأبواب ، واثقاً بنفسه وبالقوى الباطنة التي تحمي كيانه ، ولا سيما بعد أن انطلق من أسر الصحراء واقتحم العالم الواسع الفسيح ، فدخل كل شيء إلى ساحته عارياً . فاختار المسلمون ما اختاروا ولفظوا ما لفظوا ، بتلقائية خلاقة مبدعة ، ثم شادوا الصرح العظيم ، واندفع العملاق الجديد كَسَيْلِ العَرِمِ يحطم القيود والسدود ليبني ذاته ويؤكد وجوده .

لقد قيل الكثير عن هذا العملاق العربي ومدى ما يتمتع به من أصالة ، ونعى عليه الناعون والناعقون تقبله للمؤثرات الخارجية واعتماده الكبير عليها كأنما هو بِدْع من البشر . ولست أرى أمعن في الخطأ وأبعد عن الصواب من محاولة فهمه بأسباب خارجية صرف ، وانتحال شتى الذرائع وفنون الحيلة والمكر لإخراجه من اللعبة الحضارية وسيناريو الأحداث ولتجريده من كل أصالة أو ابتكار ، وجعله مجرد مرآة عاكسة للصور والأضواء ، لا فضل له فيها ولا قِبل له بدفعها . إنه يعكس الضوء وهيهات أن يصنعه !! إن فهم الرجل العظيم من القشرة الخارجية فقط لحرمانه من شهادة الأصالة وبراعة الخلق والإبداع ، إشباعاً لهوى متَّبع ، أو تعبيراً عن أحقاد دفينة ، إن هذا عمل غير علمي وسلوك يتسم بالحمق وعدم المسؤولية ، فضلاً عما فيه من تشويه لهذا الرجل العظيم وتفريط في إنسانيته ، وبخس للطاقات والإمكانات التي يزخر بها . فإذا أردنا أن نفهم

أي مفكر فلنفهمه من الداخل ، من الينبوع الثّر الأصيل الصافي ، أي من حيث هو نبض وإشعاع ، من حيث هو كينونة فاعلة متحركة وتلقائية فياضة متفجرة ، من حيث هو إنسان ، له مشاكله وهواجسه وهمومه التي تختلف من شخص إلى آخر ، ومن وقت إلى آخر ، لا من حيث هو صورة جامدة أو صيغة محفوظة ، أو قالب على غير قَدٍّ صاحبه ينطبق على جميع الأفراد والأشخاص . هذا ما قلناه دائماً وهذا ما لا ندع فرصة تفوتنا دون تكراره ولو بعث في النفس سيلاً من السأم والملل . فشؤون الفكر فوق حساسيات النفس ، وحقائق العلم يجب أن يراعى في تقريرها إثباتها في الأذهان دون اعتبار لذيولها في الوجدان .

فلا حرج على المفكر ان يستعير ويقتبس ويمعن في الملاحظة والبحث والاستقصاء ليظفر بالذخائر والنفائس ، دون ان يُرمى من أجل ذلك بنقص الأصالة وعدم الأمانة ، أو يُتهم بالانتهاب والسرقة والإغارة على آثار الآخرين . ليست العناصر المستعارة هي بيت القصيد ، إنما بيت القصيد كيف تناول المادة التي استعارها ، وكيف أفاد منها وأنماها وزاد عليها أو أنقص منها ، وأضاف من عنده ما يفيدها عمقاً وفاعلية . وما دام بعيداً عن التقصير في التسامي بها والتصرف في روحها ، وما دامت قد خرجت من يده غير ما دخلت ، فلا سبيل لنا إلى إنكار أصالته وتجريحه والنيل من أدائه .

إن المؤثرات الخارجية تهجم على الانسان من المهد الى اللحد . فهو غارق فيها الى أخمص قدميه تنهال عليه من كل مكان . فهو ما إن يخرج من بطن أمه حتى تبدأ هذه المؤثرات تلفحه وتنصبُّ عليه عرف أم لم يعرف، هذا واقع كل شخص منا . فالفرد الذي لا يتأثر بما يجري في الخارج لا مكان له في هذا العالم ، مهما كان مبلغه من استحصاد العزم وقوة الشكيمة والثقة بالنفس والسيطرة على الذات. فليت شعري ! ماذا عساه يتبقّى لنا بعد كل هذا الذي يهجم علينا آناء الليل وأطراف النهار ، إلا القليل من الجهد والإرادة والتفكير ؟ ولو طُلب الى أحد أن يقدم بياناً بكل ما هو مدين به للسابقين والمعاصرين ، إذن لم يكد يبقى له شيء !

وهذه التأثيرات تتلاحق وتستمر ولا تتوقف حتى الموت ، دون ان يعبأ بها سواد الناس أو يعيروها انتباهاً . لكن يظل هناك بعض الأفراد النادرين الذين يستطيعون التحكم في هذه التأثيرات وضبطها وتوجيهها وصنع أشياء جديدة هامة منها . فالأولون يعيشون على هامش التاريخ . إنهم يكتفون بصنع الأشياء العادية والضرورية وتوليد الأفكار البسيطة وتقليد بعضهم بعضاً في ذلك . وأما الآخرون فيعيشون في البؤرة أو على مقربة من البؤرة ، وهم يتميزون من عامة الناس بالقدرة على صنع الأشياء الخارقة ذات التعقيد العالي وتوليد الأفكار العظيمة ، وهم لا يعتمدون كثيراً على تقليد نماذج غيرهم ، بل يقُدُّون نماذجهم من وحي عقولهم وذوب قلوبهم وجهد أعصابهم ، وينسج الأولون على منوالهم . هذه الفئة القليلة هي التي تصنع التأثيرات ، ومنها تنطلق التأثيرات ، وإن كانت هي أيضاً تتلقى التأثيرات ولا تستغني عن التأثيرات. ولكن شتان بين التلقي الايجابي المنتج والتلقي السلبي العقيم ، شتان بين التلقي الذي يجعل من الحبة ألف حبة والتلقي الذي لا يكاد يحتفظ بالحبة . هؤلاء يؤْثرون السلامة والعافية ينتظرون اريحيات الكرام وهبَات الكرام وما يجود به عليهم الرجال الكرام في موائد الكرام . والكرام هم أصحاب الزمام . هؤلاء ينجرفون بالأحداث يتخلّفون عن الأحداث، وأولئك يمتطون موجة الأحداث ، ولا يفترون عن ضخ الأحداث والهيمنة على الأحداث وبين أيديهم تهدر وتتفجر الأحداث ، واليهم تسعى صاغرة الأحداث ، ومن صياصيهم يشرفون على الأحداث . فإنما الناس فريقان إثنان ، وبينهما برزخ لا يبغيان . وفي كل برزخ درجات وظلال وألوان ، لا يحصيها عدد ولا حسبان ولا تحيط بها مدارك الإنسان، ويطَّرِدُ ذلك حتى تمتلىء الفجوات ويتقارب البرزخان !

وبينما الأكثرون يتسكعون في ضحضاح الأقلين يتلقون وإياهم تأثيرات واحدة ويخضعون لعوامل واحدة ، فإن الأقلين يقفزون من هذه العوامل والمؤثرات الى عالم من المعاني والرموز وشبكة من العلاقات المعقدة والصيغ المجردة يستمدون منها الوحي والإلهام، والقدرة على التصرف في الأشياء وإبداع نماذج جديدة من الأشياء . إنهم أصحاب القمم ، وأما الأكثرون فلا قرار لهم

إلا في السفوح يتراكمون فيها أكداساً فوق أكداس ينتظرون هبة من هنـا ونزاً من هناك ، وما يجود عليهم به من فضله هذا أو ذاك .

*

إن الفنان الصادق المطبوع يستعير ويقتبس ويمعن في الملاحـظة والبحث والتقصي ليظفر بالذخائر والنفائس ، ويستغل جميع قواه الفكـرية والعـاطفية في تنظيمها وتنسيقها وإعطائها صيغاً وأشكالاً مختلفة . وهـو يستعين على ذلك بمـا يستخلصـه من التقاليـد المرعيـة والآداب الغالبـة . . . فالانسـان لم يصنع دينـه وعقائده وتقاليد مجتمعـه ومفاهيمـه الأخلاقيـة ، وانما هـو يستمد ذلـك كله من اتجاهات عصره ومكنونات بيئته . وهو يضيف الى هذه المادة المتجمعة عنـاصر ذاتيـة تتفاوت في قـوتها وأصـالتها وقـدرتها على التعبيـر عن تطلعـات الحـاضـر واختراق آفاق المستقبل . وهذا لا يضيره في شيء ما دامت المـادة التي اقتبسها لم تخرج من بين يديه كما كـانت عندمـا دخلت عالمـه ، وما دام لم يقَصِّـر في تطويعها وتعديلها وتصحيح ما قد يكون فيها من أخطاء وانحرافات ، واستكمـال ما قد ينقصها من المزايـا والمحاسن . فهـوميـروس مثـلاً الذي كـان يُظن حتى القرن الثامن عشـر الميلادي أنـه قد بلغ قمـة الشعر معتمـداً على ينابيـع الذات وحدها دون أن يـطلع على أدب غيره ممن سبقـه ، قد أثبت المتخصصـون في الأدب اليوناني أنه كان ملماً بالقصص والأسـاطير التي تنـاولت حصار طـراودة ، وأنه كان يعـرف جميع الأحـداث المتصلة بالتـاريخ البـطولي لبلاده . فقصصـه الشعرية عن الأبطال مأخـوذة عن الأشعار التي تقـدمت عصره . ومـع ذلك فـإن أحـداً لا يشك في أصـالة هـوميروس وقـدرته الفـذة على الخلق والبناء وتـوليـد الصور الجديدة الرائعة . وما ينـطبق على هوميـروس ينطبق على غيـره من كبار الشعـراء . فشكسبير لم يبتكـر موضـوعات روايـاتـه ، وإنمـا هـو استمـدهـا من الشعراء والكُتَّاب الذين سبقوه ثم أضفى عليها خياله المجنَّح العظيم . وكذلـك موليير الشاعر والمؤلف المسرحي الفرنسي ، فإنه لم يكف عن الاستعـارة طوال حياته، وهو لا ينكر ذلك ، بل يؤكده حتى لقد قال : « إني لا أعفُّ عن أخذ ما

أفيد منه حيثما وجدته » فقد أخذ ملهياته من مؤلفين سبقوه ، كما ان الشخصيات الواردة في رواياته والمواقف والأحداث منقولة عنهم ، لكن نقد المجتمع الذي يتخلل كلمات أبطال الروايات في مختلف المواقف مستمد من تفكيره هو وينم عن قدرة عظيمة على النقد . وهكذا فإن عبقريته كعبقرية شكسبير - إنما تكمن في قدرته على معرفة ذوق أهل عصره وما يخالج صدورهم ويجول في نفوسهم . وهذا ينطبق أيضاً على شعراء العرب القدامى والمحدثين وجميع شعراء الدنيا وجميع المبدعين في كل العصور . فينابيع الذات هيهات أن تغْني عن المادة والمعطيات والقوالب التي تستمدها من خارج الذات وتعطيها الشكل والصورة والأداء .

إن الآثار التاريخية تدخل الآذان بلا استئذان، وتتلقفها الأذهان في كل حين وآن ، لكن لا يحصيها ولا يتفطن لها إلا الآحاد من بني الإنسان . فكل ما نستطيعه أو ندركه في هذا الشان ، هو ما نبذله من جهد واع أو نتوجه إليه بالإرادة أو نعبر عنه باللسان ، والتأثير والتأثر بعد ذلك محصور فيما يوافق الاستعداد والتكوين والجَنان ، وقد أشار الى ذلك غوته الشاعر الالماني العظيم الفنان ، في حديثه المثير عن الأصالة يوم 12 / 5/ 1825 مع ايكرمان .

« يتحدث الناس دائماً عن الأصالة ، ولكن ما الذي يقصدونه بها ؟ فنحن حينما نولد سرعان ما تبدأ الدنيا تأثيرها فينا ، ويظل هذا التأثير مستمراً حتى النهاية. تُرى، ماذا عسانا بعد ذلك أن ننسُب إلى أنفسنا من كسب غير الجهد المبذول والقوة والإرادة ؟ ولو كان في وسعي أن أقدم بياناً بكل ما أنا مدين به لِلسابقين العظماء والمعاصرين ، إذن لما بقي لي سوى جزء يسير في الميزان » ويضيف غوته إلى هذا الحديث : « المهم هو أن مَنْ عليَّ أن أتعلم منه لا بد أن تكون طبيعته ملائمة لطبيعتي . وأضرب على ذلك مثلاً بالشاعر كالدرن . فمع أنه شاعر عظيم ، ورغم إعجابي الشديد به ، لم يكن له أي تأثير حسن أو سيء في نفسي »[1] .

---

(1) أنظر : أحاديث جوته مع أكرمان . الترجمة العربية : نقلا عن علي أدهم في كتابه : صور أدبية صفحة 67-69 .

ولا ينحصر ذلك في ميدان الفن ، بل يسري أيضاً على الفلسفة وعلى كل عمل عظيم عملاق ! إذ تلتقي فيه عناصر خارجية وأخرى تفرزها الذات ، ليخرج من ذلك كله مزاج جديد تستطيع العوامل الشخصية فيه تمثيل الكثير مما تسلل اليه من خارج وهضمه جيداً حتى لَيفقد جميع معالمه الأصلية . هنا مناط العبقرية وهنا يكمن سرها !

ان الفيلسوف الحق هو الذي يصنع فلسفته بنفسه، وكذلك كل صاحب نظرية خلاقة وكل صاحب مذهب مبدع . لا تصدقوا العكس أبداً . فهو لا يجلس على أريكته هادئاً صامتاً ليتلقى توجيه سلفه ووحيه ، ويُحمل على تياره مستسلماً خاضعاً ليس له من الأمر شيء . كلا ، له الخَلْق والأمر وله كل شيء ، فهو يُعمل عقله وقلبه وأعصابه في فهم أغراض سلفه وسبر أغواره لتجاوزه والقفز فوق عالمه ولسان حاله يقول :

إني وان كنت الأخيرَ زمانُه   لآتٍ بما لم يستطعْه الأوائلُ !!

لكن مؤرخي الأفكار التقليديين لا يشاطرونه هذه المشاعر الفياضة وهذه الدعاوى العريضة . فهم إذ يكتفون ـ كدأبهم دائماً وبصلف كبير ـ بالنظر الى المظهر الخارجي للبناء ، دون المخْبَر الداخلي البنّاء ، يرقصون طرباً وقد عثروا على الأسباب الموجبة لتوجيه تهمة الانتحال إليه ، بعد أن اطلعوا على التقارير وأدلة الإثبات التي رفعتها شرطة « كيماويي » الأفكار وخبراؤها إلى المراجع المختصة . وبكل ثقة بالنفس وإيمان بالذات يجردون صاحبنا من جميع حقوقه وامتيازاته ، ويعلنون على رؤوس الأشهاد : نحن على علم بمصدر فلسفته وبالمواد الأولية التي أنشأ منها مذهبه . وإننا نعرف أيضاً كيف تم البناء . يا للجريمة النكراء . لقد جاء شيئاً إداً ، ان جعل لليونان نداً . خذوه فغلّوه ، ثم الجحيم صلّوه ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه . إنه كان لا يؤتمن على آثار غيره ، بل لقد كان ينتحلها لنفسه ، فيأخذُ كلمةً من هنا وعبارة من هنا ، فيجمعها ويقول إنما مؤلفُها أنا !!!

وهكذا لا يهنأ لمؤرخنا المحترم بال حتى يجرد هذا الفيلسوف أو المفكر

العربي المسكين من جميع حقوقه في مذهبه نزولاً عند رغبة الزبانية . ويتنافس المؤرخون الآخرون في طعن الضحية بحرابهم والتمثيل بها ، وسلب كل درٍ ثمين من جيوبها ، عبرةً لكل من تسول له نفسه الأمارة بالسوء أن يحذو حذوها أو ينهج نهجها ، ونكالاً من زبانية لا تأخذهم في « الحق » لومة لائم . والمؤرخ المؤرخ هو ذلك الذي يطعن أكثر من أخيه ويمضي في المُثلة الى شوط أبعد مما ذهب فيه . وكلما كانت قوة الرؤية في مجهره أكبر ، والدقائق التي يطل عليها منه أضخم ، كان ذلك أدعى الى تصفيق الرفاق ، وإعجابهم بمنهجه « العلمي » الدقيق . وهنا تدخل الأطماع والحزازات وحب الظهور ، وهنا تكشر الأنياب ، ويظهر التشفي والتعصب ، وتتغلب الضغائن والأحقاد ، و ـ الأنكى من ذلك ! ـ عليها مسوح العلم الأكاديمي الموضوعي . وويل للضحية إذا كانت من ملة غير ملة أخينا النقادة المحترم ، ومن مجتمع غير مجتمعه ، وكانت تنتمي الى عصر غير عصره . هنا الطامّة الكبرى والداهية الدهيا !! فالحكم مبرم ، والأحكام المبرمة لا رجعة فيها .

*

ولله درُّ الفيلسوف الفرنسي الكبير هنري برغسون ، إذ يتصدى لهذه المسألة التي تورط فيها كثير من مؤرخي الأفكار « الرسميين » ، فيعالجها باقتناصته الباطنة ومنطقه الساحر الأخاذ ، وبروح التعاطف والمشاركة التي اتسم بها مذهبه . فلا يفهم العظيم إلاّ عظيم مثله، كما رأينا في فصل سابق، يحياه ويعانيه ويستنطقه ويعقد الحوار معه . وهيهات لغيره ان يفعل . فأنّى للضفدع ان يطاول الأسد ؟!

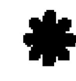
فبرغسون يرى ان في كل فلسفة رؤية أصيلة يمضي القارىء اليها مباشرة ، وبذلك يتمكن من رؤية الشعاع المركزي الذي يضيء جوانب المذهب كله . ومن ثم فإن المؤرخ التقليدي الزمِّيت يخطىء عندما يركِّب المذهب الفلسفي ـ أياً كان ـ من تصورات أشلاء مستهلكة مصنوعة من قبل . إنها تصورات قديمة مضى عهدها لا تصلح لتفسير ما في المذهب الجديد من

نبرات وظلال وألوان ومعان ودلالات تتشابه على العين غير المدرَّبة . لقد دارت في الأذهان كثيراً ولاكتها جميع الأفواه ففقدت خصوصيتها وتوقف نبضها . إن هذه التصورات المتحجرة من شأنها ان تفسد على المؤرخ الكفء الإتجاه نحو الرؤية المولدة لهذه التصورات ، نحو الشعاع المركزي الذي منه يمكن معاينتها في دفقها الغض الأصيل . وهو يخطىء أيضاً عندما يرد مذهباً فلسفياً ما الى مذهب واحد أو أكثر ، مدعياً ان هذا المذهب معروف فيما سبق من المذاهب تبعاً للقول المأثور. «لا جديد تحت الشمس». أو عندما يفترض أن الجنس الأوروبي بعامة والشعب اليوناني بخاصة مطبوع على الخلق والإبداع وإنجاز الأعمال الخارقة ، وما الى ذلك من الأساطير والدعاوى الفارغة التي لا سند لها من علم أو حقيقة . فإنما المذهب كلٌ عضوي واحد تتداخل أجزاؤه فيما بينها كما تتداخل أجزاء الكائن الحي . فكما أن في كل جرثومة حية فكرة موجِّهة خالقة ـ والتعبير لكلود برنار ـ يخضع لها الكائن الحي في تطوره ، كذلك في كل مذهب فلسفي فكرة موجِّهة تدفع الفيلسوف من طور الى طور ، حتى تهيء له الصورة الفلسفية الأخيرة التي استقر عليها في نهاية المطاف وهذه الصورة فريدة في نوعها ، ولا سبيل الى ردها الى صور أخرى .

وبعبارة أخرى،لكل مذهب ـ فلسفي أو غير فلسفي ـ مظهر خارجي قد يشترك فيه قليلاً أو كثيراً مع بعض المذاهب الأخرى ، لكن له أيضاً نقطة داخلية مركزية هي جوهر المذهب وهي أساسه وهي روحه ، وهي هي التي إنما يجب البحث عنها بعد قراءة المذهب وإعادة قراءته من جديد ، كيما نستقر، نحن معاشر الذين ننظر اليه من خارج ، في فكر الفيلسوف وننفذ الى أعماقه ، بدلاً من الدوران على مظهره الخارجي الذي لا يُغني من مذهبه الحقيقي شيئاً . وهذه النقطة هي التي ما فتىء الفيلسوف طوال حياته يرغب في أن يكشفها لنا ويميط اللثام عنها فهو يكتب ويكتب ، ثم يعاود الكتابة من جديد عساه يصل الى التعبير الدقيق عنها ، وكثيراً ما يخفق في هذا السبيل ، فكلما نزع عنها حجاباً وجد تحته حجاباً . لقد تكاثرت الحجب والأغشية حتى ليكاد يقضي عمره كله ولا همَّ له ولا هاجس إلا كشف ما يرين على هذه الفكرة الموجِّهة

البسيطة من أغشية وغواش ، وإيجاد الانسجام والتناسق بينها وبين الوسائل التي في متناوله التعبير عنها .

وهكـذا ، فليس أمعن في الخطأ من فهـم المـذهب بطائفـة من المفاهيم الممضـوغة والتصـورات المصنوعـة من قبل ، بينمـا كان من الضـروري تمزيق الحجب التي تحيط بالتصورات والمضي قُدماً الى باطن المذهب للوصـول الى البؤرة أو النقطة المركزية التي جهد الفيلسوف في إظهـارها والتي بهـا إنما ننفـذ الى عالمه ونقتحم أجواءه ، وإلاَّ رجعنا بخُفَّيْ حنين . ومعنى ذلك أن برغسـون يـدعونـا الى ان نُقبـل على دراسـة الفيلسـوف بـروح من التعـاطف والمشـاركـة الوجدانية ، إلى أن نقتنصه من باطن بأن نعانيه ونحياه ، وبهذا الـطريق وحده ، طـريق الاقتناصـة من باطن Saisie de l'intérieur نستـطيع ان ننفـذ الى الرؤيـة البسيــطة الـواعيــة التي تكمن وراء التصــورات ، فنقف من ثمَّ على الاتجــاه الأصلي الـذي انبثقت منه فلسفتـه ومذهبـه في الكون والحيـاة والمصيـر . ومـا جميـع كتابـات الفيلسوف وتصـانيفه ومؤلفـاته إلا محـاولات دائبة لصيـاغة هـذه الرؤية وعرضها في حلة قشيبة وصيغة مقبـولة ، وهـو قد ينجـح في التعبير عنهـا لكنه قد يخفق أيضاً ، فيكون بذلك قد زاد مذهبه تعقيداً[1] .



فالفيلسوف وصاحب المذهب والطريقة ، ليس صخرة صماء تجري عليها أحكام الضرورة العمياء . إنه إنســان ، بل هـو إنسان أكثـر من كل إنسان . يكاد زيته يضيء ولو لـم تمسسه نار، بل هو قُدَّة من نار ملتهبة متفجرة، إنه شواظ من الإرادة والـوعي والحساسيـة . إنه صـاحب شخصية متمـردة ووعي ثائـر وتفكير مستقل ورؤية جديدة مشبوبة، وهـو يصبو الى التعبيـر عن ذاته بمختلف أشكـال التعبير ، وإلى فرض وجـوده بشتى الصور والأوضـاع ليثير الأذهـان من حولـه ،

---

(1) أنظر د . مراد وهبة :: المذهب في فلسفة برجسـون . وخاصـة الفصل الثـاني والثالث والـرابع . فهذه الفصول الثلاثة كانت عمدتنا هنا ، وان كنا قد تصرفنا قليلاً تصرفاً يقتضيه المقام .

ويحرك العقول والمدارك ويمدها بالطاقة اللازمة لإحداث التغيير المطلوب والتفجير الفكري الثوري المنتظر .

في كل وقت توجد حركة فلسفية ، فلا يخلو منها زمان أبداً . لكن الفيلسوف الحق لا ينقاد لهذه الحركة بسهولة ، بل هو يداور ويناور ويهادن ويحاور . ولئن حاولت فرض شروطها عليه ، فإن إرادته تظل قادرة على مناقشة تلك الشروط أو نقضها . ولا يكف عن ذلك حتى يملي هو شروطه عليها ، وحتى تقدم له هي أيضاً بعض التنازلات . لقد صاغته واخترقت كيانه ولكن بعد ان نفذ اليها مشروعه . لقد تمت الصفقة برضى الفريقين . هذا إذا كان مفكراً مبدعاً لا نسخة جديدة من كتاب قديم .

العملاق لا يقدر عليه إلا عملاق مثله، الفيلسوف الكبير لا يدركه قزم صغير حتى ولو حفظ جميع كتبه وشرحها كلمةً كلمة . لقد أقحم نفسه عليه دون أن يستوعبه أو يسمو الى مقامه . كثيرون تصدوا لفلسفة أفلاطون وأرسطو والأفلاطونية المحدثة ، ولكن عملاقاً واحداً منهم فقط كان الفارابي ، وعملاقاً آخر كان ابن سينا ... الخ فشتان بين شارح وشارح ، شارح كان نسخة من كتاب ، وشارح كان مشروعاً لكتاب . هل يستوي الكتاب والكتاب ؟!

إن الجو العقلي المحيط بالفيلسوف لابد أن يترك آثاره في هذا الفيلسوف ويساعد على تشكيلته وصياغته بما يتلاءم وطبيعة هذا الجو وصبه في القوالب المناسبة . لكن ذلك كله لا يمنع أن الفيلسوف يظل عاملاً هاماً في الحركة الفلسفية التي يحمله تيارها . فهو في كل كلمة يكتبها ، وفي كل فكرة تسنح له ، إنما يضيف الى هذه الحركة نفثة من نفثاته، فيها الكثير من روحه وقدس أقداس كينونته ، ولكنها ليست مجرد إضافة كمية ، وإنما هي تحول نوعي ، إنما هي إعادة تنظيم القديم في ضوء الجديد واطلالة متجددة عليه . إنها إثراء له وإغناء لمضمونه وتوسيع لآفاقه . إنها قفزة في المطلق تتلوها قفزات .

إن المشاكل التي يتصدى لها الفيلسوف ويهتم بإيجاد حل لها إنما هي دائماً تلك المشاكل التي تثار في عصره ، أو على الأقل تلك التي يستشفها هو

بقوة بصيرته مما يلوح وراء الأفق أو تموج به أحداث متوقعة ، ولكنه يتصدى لها على طريقته الخاصة ، وهي طريقة يحسبها الجاهل ترفاً عقلياً ممعناً في التجريد والبعد عن الواقع العيني، بينما ترى فيها العين النافذة البصيرة، تفاعلات وصراعات ومخاضات وإشارات وتنبيهات ودلالات ورموزاً فيها الكثير من نفثات صاحبها وجوهر وجوده لكن هذه النفثات هي أيضاً نفثات جيلها وبيئتها . فهي كالمرآة لا تعكس فقط صورة الشخص الذي يقف أمامها ، إنها تعكس أيضاً ما يحيط به وما يجري من حوله ويدور في دائرته . وبهذا التبادل بينه وبين عصره ، بحيث لا ندري أين ينتهي هو وأين يبدأ عصره ، أصبح الفصل بينهما متعذراً . فالفصل هو في الحقيقة شيء مفتعل يفرضه الإحساس السطحي الساذج وبادي الرأي المشترك والواقعية البسيطة . وهذه مقولة أساسية من مقولات السّيْكوسوسيوديناميكا التي تقول بجمعانية الفرد وفردانية المجتمع . فلا فصل ولا انفصال بل اتصال وتواصل ، ولكن يأبى بادي الرأي إلا أن يضع الحدود والسدود بين عالم الإنسان والعالم المحيط بالإنسان. ففي حكمه إن التفرقة بينهما هيهات أن تحتاج الى فضل بيان ، فهي من الوضوح في الحس والعقل والجنان ، بحيث لا يمكن التشكيك فيها بأي لسان .

كما ان العلم الذي يستخدمه الفيلسوف لحل مشاكل زمانه هو بطبيعة الحال علم زمانه . لذلك كان لا بد أن نعثر في آثاره على كثير من الآراء والأفكار التي ترجع الى معاصريه وأسلافه . وقد يكون هو شاعراً بهذه الآراء والأفكار متنبهاً لها ، وقد تصبح جزءاً من تراثه دون أن يدري بها أو يعي أمرها . لقد انزلقت الى الأعماق على حين غرة منه فاختلطت بالنسيج والأمشاج حتى ضاعت معالمها . المهم أن آثاره ليست بنات أفكاره هو- وحده - ، وإنما هي نتاج جيل كامل من الأفكار تفاعلت في ذهن فيلسوفنا الذي كان ثمرة يانعة من ثمراتها ، كما انها هي امتداد له وتموج لكيانه ووجوده . إن القضايا التي يعرضها تشفُّ دائماً عن الأسئلة السابقة عليه أو المعاصرة له . وكيف يكون الأمر غير ذلك والإنسان لا يتأتى له أن يعالج الجديد ويشرحه ويعبر عما فيه ، يضع له حلولاً واقتراحات إلاّ معتمداً على القديم وإلاّ مستخدماً لمشاكل قد

أثيرت من قبل وحلول عولجت بها في عصره أو في العصور السابقة ؟ وبالتالي لا بد أن يستخدم العلم والأدب والفلسفة والتراث العقلي كله بحسب منطق العصر ومفاهيمه . هذه هي المادة الخام التي يجد نفسه مضطراً إلى استخدامها ليخلع على فكره صورة مفهومة ولاستيلادها معاني جديدة لم تكن لتظهر لولا سلفها القديم الراحل . إنها الجنين الذي عاش في أحشاء القديم وتغذى بما ينتقل إليه منه ، بحيث إنه عندما اكتمل نموه انشق عنه وخرج بشبه المخاض بشراً سوياً .

*

وخلاصة القول ، لا يخلو مذهب من المذاهب من عدد لا يحصى من أوجه الشبه بغيره من المذاهب ، بل لقد تكون وجوه الشبه هذه قوية الى حد يفقأ العين ، ومع ذلك لا يعدو هذا أن يكون مظهراً خارجياً بحتاً . أما أساس المذهب وجوهره ولبُّ لبابه فشيء آخر لا ينفذ اليه أسلوب التحليل « الكيماوي » ، أسلوب تمزيق المذهب خِرَقاً وقصاصات تفقد كل قيمتها عندما تُنزع من عالمها . ولكي نفهم أساس المذهب وننفذ الى روحه ونغوص في أعماقه ، لا بد ان نعيش مع صاحبه طويلاً ، ونحاوره ونشاطره - بنوع من الحدس الباطن والمعاناة الحية - الأفكار والمشاعر التي إنما تثيره وتجذب اهتمامه . وبعبارة أخرى ، يجب أن نحياه لنقترب ما أمكن من النقطة المركزية التي توجه أفكاره والتي قد نذر نفسه لإيضاحها والتعبير عنها وفضِّ مكنوناتها ، والإفصاح عما تبشر به من معنى أصيل ومن كل جديد وطريف . فكل أجزاء المذهب تتلاقى في هذه النقطة المركزية ، موجَّهة بها ، منعطفة إليها . فتراها يتداخل بعضها في بعض أو يلتف بعضها حول بعض ، ويأخذ بعضها بأعناق بعض ، وينصهر بعضها في بعض ، بحسب أوضاع هذه النقطة ومقتضياتها الآنية والمستقبلية ، وحاجاتها العاجلة والآجلة .

دعوا الفيلسوف في همومه وهواجسه . فما يشغله لا يشغلنا ، وما يثيره لا يثيرنا ، والأشياء التي يكون لها معنى عنده قد لا يكون لها أي معنى عندنا ولا

تحرك ساكناً فينا . إنه أسير عالمه الخاص الذي لاينفك ينسجه في كل لحظة ونحن عنه لاهون . انه يسعى بيننا بجسمه وحسه ، ولكن مسافات شاسعة تفصلنا عنه . إن نقطة واحدة تؤرقه وتنغّص عليه حياته وتستغرق كيانه ووجوده . فكل اسم يذكره فإنما هو عنها يُكنّي ، وكل دار ينـدبها فإنما دارها يعني . إذا كتب فإنما عنها يكتب ، وإذا دَوَّن شيئاً فإنما فيها يُدوِّن . ثم هو يكتب ويكتب ، ويعيد الكتابة والتدوين لعله يكون أحسن تعبيراً وأفصح بياناً . وهكذا تتصرم حياته بين التعبير وإجادة التعبير ، ولا همَّ له إلا توضيح هذه النقطة والتزام الفكرة فيها ، والعكوف عليها بكُنه الهمة ، والتماس الوسائل الكفيلة بنقلها الى الآخرين وإقناعهم بها واجتذابهم اليها ، بأفصح لسان وأوفى بيان .

تلك هي خلاصة نظرة برغسون الى الرؤية الباطنة للفيلسوف ، وهي نظرة صائبة جداً حبَّذا لو رجع إليها مؤرخو الفلسفة وساروا على منهاجها . ولو فعلوا لأنصفوا الفلاسفة ، ولوصلوا الى نتائج جديدة هامة في دراساتهم وأبحاثهم بعيداً عن علاقة التأثير والتأثر ومنطق الفعل والانفعال ، وبالتالي لما ألقوا الأحكام جزافاً ذات اليمين وذات الشمال . فالنظر الى الفيلسوف من خارج وبطريقة التحليل « الكيماوي » للأفكار كما لو كان شيئاً من الأشياء ، فيه افتيات عليه وفيه تضليل ، فضلاً عن أن الدارس له على هذا المنوال لن يظفر إلا بالفتات وسقط المتاع .

*

فمن العبث إذن أن نرهق أنفسنا في تعقب أصول هذا الفيلسوف العربي الإسلامي أو ذاك ، أو هذا المتكلم أو هذا المتصوف أو ذاك ، ونحللها الى عناصرها الأولى كما يفعل علماء الكيمياء ، أو أن نقتنص النظائر والأشباه كيفما اتفق ، لنقفز من ذلك كله الى مصادر خارجية صرف ، وعندئذٍ فلن نقع إلاَّ على فسيفساء ومزق وأشلاء من هنا وهناك ، ولكننا لن نعثر أبداً وراء هذه الفسيفساء والمِزق والأشلاء على ما يسمى بالكندي أو الفارابي أو إبن سينا ، بل سنعثر على أفلاطون وأرسطو وأفلوطين . . في عالم غير عالمهم أُقحموا فيه

زوراً وبهتاناً إقحاماً لا رأي لهم فيه ولا حيلة لهم في دفعه ، كأنما طلبنا شيئاً فأعطينا شيئاً آخر . أين الكندي والفارابي وابن سينا عندما نتصدى لدراسة الكندي والفارابي وإبن سينا ؟ لا أثر لهم في هذا البحر المتلاطم من أمواج الفلاسفة اليونان ، هذا مع أنهم شغلوا زمانهم ومكانهم ، وخلقوا تيارات ومدارس في الفكر والرأي كانت لها نتائج حاسمه في تغيير عقلية المسلمين ـ أو النخبة الطليعية فيهم ـ وتبديل نظرتهم إلى الكون والحياة والمصير . لقد كان الفلاسفة العرب أنفسهم ينتسبون إلى اليونان ويشيدون باليونان ويستعملون أدوات اليونان حتى لقد «توقع » اليونان أن يجدوا في تلاميذهم العرب اتباعاً فوجدوا ابتداعاً ، « وانتظروا » منهم مجرد الرواية ففوجئوا بالدراية . فيا للعقوق ويا للنكران ! إن أصحاب التحليل « الكيماوي » للأفكار عاجزون عن فهم الدور الذي تقوم به عقلية هذا الفيلسوف أو ذاك في البحث والاستقصاء ، وما يثور فيه من عواصف ويُحركه من هموم واهتمامات ، ويشغله من تطلعات هي التي هجست لليونان من قبله ، ثم هجست للعرب ، وستهجس في عصر النهضة الأوروبية لغيرهم . إنها لا تهجس إلا للقادة والرادة والعظماء الذين تجود بهم الأزمان . هؤلاء هم ـ يونانيين كانوا أم عرباً أم أوروبيين ـ هم ذخر كل زمان ومكان ، وهم وحدهم الذين يصنعون الزمان والمكان . هؤلاء هم العمالقة النادرون بين ركام الأقزام . هذا الشغف بالمعرفة ، هذا التطلع الى المجهول ، هو المعدن الثمين الذي صنع اليونان ، وهو الذي صنع في أعقابهم العُربان ، وهو العامل الأساسي في كل إنجاز عظيم وكل حركة تغيير كبيرة في التاريخ القديم والوسطوي والحديث . ولكن أنَّى لأصحاب التحليل « الكيماوي » للأفكار أن يستوعبوا هذه الأبعاد . ذلك مبلغهم من العلم ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا !

فليس من الجائز أبداً والحالة هذه إهمال شخصية الفرد . فهو ـ لا النظائر والأشباه ـ مناط الحكم والتقويم . إنه كما قلنا مراراً يأتي أولاً ، والمصادر الخارجية تأتي بعد ذلك. وهذه المصادر ينبغي ألا تؤخذ إلاَّ في خطوطها العامة لا في تفاصيلها وجزئياتها ، وذلك بقدر ما يتعلق الأمر بالعمالقة الذين

يفتتون الصخر ويصهرون الحجر ويستخرجون منه لبناً سائغاً للشاربين . أما الأقزام فلا شأن لنا بهم في هذه الدراسة . فما ينقلونه يشف بوضوح عن مصادره وأصوله . إنهم مقلدون تافهون لا يخلو منهم زمان ولا مكان .

*

لقد كان الفيلسوف العربي يبحث عن أداة يحقق بها وجوده ويصنع بها عالمه . فوقع على اليونان ، فتأدَّاهم ، فنعم المتأدّي ونعمت الأداة ! أجل ، حتى الفلاسفة اليونان ـ وما أدراك ما اليونان ، في سالف العصر والأوان ـ كانوا وسيلته الوحيدة لتفجير ذاته والتعبير عن مكنونات ذاته وأغراض ذاته . كل علم فهو مستباح له في سبيل ان يغني وجوده ويستكمل بقية ذاته ، ثم يشع بعد ذلك خارج ذاته . لم يقدح له إلا ما قدح لليونان من قبله ، وهذا الذي قدح له هو الذي قدح لليونان ، وهو الذي سيصنعه كما صنع اليونان ، وإن اختلفت الصنعة بين صنعة العرب وصنعة اليونان ، لاختلاف العرب عن اليونان ، اختلافاً تقتضيه ظروف الزمان والمكان .

ثم إنه إذا كان المفكرون الإسلاميون قد استقوا مذاهبهم ونظرياتهم أو بعضها أو جُلَّها من ينابيع اليونان والفرس والهنود وغيرهم ، إلا أن تفاصيل هذه المذاهب والنظريات هي من عمل المفكرين المسلمين أنفسهم . كما ان النتائج التي استخلصوها منها والأهداف التي كانوا يرمون اليها من ورائها ما جالت أبداً في أذهان أصحاب تلك المذاهب الأولين كلا ولا خطرت لهم على بال . فإن من يمعن النظر في المبادىء العامة والتعابير والمصطلحات يجد اتفاقاً شديداً بين أرسطو وابن رشد أو بين أفلاطون والفارابي . لكن من يتغلغل الى الأعماق وينظر في الغايات يجد اختلافاً كبيراً بين الفيلسوف اليوناني وتلميذه العربي . إن معرفة الغايات في تاريخ المذاهب الفلسفية وفهم معانيها عند أصحابها وتتبع النتائج التي وصلوا اليها ، كل أولئك لا يقل أهمية وخطراً عن معرفة الوسائل المؤدية اليها . وحسبنا أن نقول في هذا الصدد إن فلاسفة الإسلام بالرغم من تأثرهم بالأوائل واعتمادهم عليهم في كثير من وجوه تفكيرهم ، فقد استطاعوا

ان يبنـوا صـروحـاً فلسفيـة لا تخلو من بعض النقص ، ولكنهـا على كـل حـال صروح هندسيـة متسقـة البنـاء جميلة الصنع منسقـة التركيب ، تـدل على الدأب الـطويـل ، والتفكيـر العميق والبحث المتـواصـل والنفس التـواقـة إلى معـرفـة المجهول ، والادراك الشامل لمعاني الأشياء .

إن ما أسهم به العرب في ميدان الإنتاج الفلسفي وإن بدا قميئاً بالقيـاس الى ما أسهموا به في ميادين الحياة العقلية الأخـرى ـ كالعلم الـطبيعي والكيمياء والفلك والجبر والحساب الخ ـ إلا أنه على كل حال ثـروة لا يستهان بهـا . فقد أتـوا بأشيـاء جـديـدة وتمخضت أذهـانهم عن أمـور لا عهـد لليـونـان بهـا ، أو لم تكن لها عند هؤلاء نفس الأهميـة التي ستكون لهـا عند أولئـك . نذكـر منها على سبيل المثال نـظريتهم في الممكن والواجب ، والعلم الإلهي ، والشـك ، والسببيـة ، والارادة ، والقـدرة ، والخلق من العـدم أو الحـدوث ، والنبـوة ، ووحدة الوجود ، ووحدة الشهود ، . . . وبعد أن كان الله علة غائيـة عند أرسـطو أصبح علة فاعلة عند الفلاسفة المسلمين له وظيفـة وعمل وهي تحقيق الممكن أو إعطاء الهوية للماهية . وكذلك بعد أن كان الله والعالم منفصلين عند المعلم الأول لا تأثير لأحـدهما في الآخـر ، إذا هما في غـاية الاتصـال والتفاعـل على أيـدي الفـارابي وإبن سينـا . وبعـد ان كـان الله لا يعلم إلاَّ ذاتـه عنـد الحكيم اليـوناني ، اذا بـه يعلم كـل شيء ولا تخفى عليـه خـافيـة ، لمجـرد انـه عـالم بذاته . . . لقد كان هاجس الفلاسفة الإسلاميين الأول وأكبر همهم وهم يضعون ما يضعون من نظريات ، رأب الصدع بين العقل والنقل ، وتحقيق التقارب بين الفلسفة والدين . لقد آمنوا بكليهما فكان لزاماً عليهم التوفيق بينهما . هـذه هي المشكلة الكبيـرة والمعادلـة الصعبـة التي واجهتهم بعـد أن قـذف بهم الاسـلام خارج شبه الجزيرة ورأوا ما رأوا من أصناف الحقائق وتعدد وجهات النظر . لقد كانت عملية التوفيق عفوية مرتجلة أول عهدهم بالتـوفيق إذا صح التعبيـر . فقد كانوا يسيرون على غير هدى ، بلا قواعد ولا أصول حتى جاء إبن رشـد فوضـع نظرية قائمة برأسها بيَّن فيها أسس التوفيق وقواعده وجعل ذلك في كتابين خصَّ أحدهما بالقسم النظري وهو (فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعـة من الاتصال) وخصَّ الآخر بـالقسم التطبيقي وهـو (الكشف عن مناهـج الأدلة في

عقائد الملة) . فكأن الفلسفة الإسلامية قد حققت غايتها في هذين الكتابين فتعثرت مسيرتها بعد ذلك حتى أعياها المسير . وأخيراً نجد بين ذخائر العرب التي ينفردون بها عن اليونان ، بل بين منجزاتهم التي لم تبلغها أحلام اليونان ، فلسفة التاريخ وعلم العمران (علم الاجتماع) . فهل كل هذا الذي جاء به العرب من سقط المتاع والمجون ؟ مالكم كيف تحكمون ؟ إن جميع هذه النظريات وكثيراً غيرها قد خالف العرب بها أساتذتهم اليونان وإن استعملوا فيها أدوات اليونان . لقد كان تصورهم للألوهية وتحليلهم للعدل والتوحيد من منجزاتهم العظيمة في تاريخ الفلسفة الإلهية والأديان ، وبذلك فقد أغنوا علوم الدين وعلوم الفلسفة بثروة بها لا يستهان !

لقد كان بين أيديهم مادة دينية غزيرة مصدرها القرآن ، وتراث فلسفي ضخم سعوا إليه رجالاً وعلى كل ضامر ، وبذلوا في سبيل الحصول عليه كل رخيص وغال ، وتحملوا في طريقه كل عنت وعسر . فتمثلوه على نحو خاص ، يمليه عليهم دينهم الجديد ، واستخدموه في إنشاء وجهة نظرهم في الله والكون والحياة والمصير ، حتى دخل في نظام تفكيرهم ، واكتمل بحسب أصول عقيدتهم وحاجات بيئتهم الاجتماعية والعقلية ، وأصبح غذاء نافعاً يجد فيه كل طالب ما لذَّ وطاب .

إن الفلسفة الاسلامية رغم اعتمادها على الفلسفة اليونانية ، ومع أنها تسير في تيار الفكر اليوناني فقد جاءت لتحل مجموعة من المشكلات عرف اليونان بعضها ولم يعرفوا بعضها الآخر، كما أنها علاوة على ذلك عُنيت بمعالجة عدد من القضايا نبتت في جو الاسلام ، وفي زمن اختلفت فيه المثل والقيم والمسؤوليات والآمال عما كانت عليه في أيام اليونان كل أولئك من شأنه أن يغذو الشجرة الباسقة الجديدة ويرفع لها شاهق البنيان. إنها شجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعُها في السماء . ولكنه فرع ليس له شكل هندسي منتظم . فترى بعض الأغصان باسقاً متطاولاً له ظل ظليل وثمر مبارك ، وبعضها قميئاً قليل الجني هو كل ما تسمح به حياة الشجرة والزمان الذي عاشت فيه

الشجرة ، والغذاء الذي وصل الى الشجرة ، غير أن جميع الأغصان على تفاوتها تُسقى بماء واحد وتنتظمها دورة حياة واحدة ، وتخدم غرضاً واحداً .

إن الحياة العقلية في الاسلام فيها أروع الشخصيات وأجلُّ الأسماء التي عرفها الفكر الانساني ، كما فيها أيضاً من هم دون ذلك ، وفيها من هم بين ذلك وذلك . والحق إن عباقرة الاسلام لم يُبرِّزوا في ميدان الفلسفة الميتافيزيقية كما برَّزوا في ميادين الحياة العقلية الأخرى ، ولم تتفتق قرائحهم في أصل الكون والحياة والوجود ، كما تفتقت في اكتشاف قوانين الكون والحياة والوجود . ومن هنا نهضة العلم وتقدمه على أيديهم . كما اهتموا أيضاً بتذليل صعاب الكون والحياة والوجود ، وتسخير كل شيء لمصالح شعوبهم وخدمة المثل والقيم التي كانوا يؤمنون بها . وهذا الاكتشاف ، وهذا التذليل ، وهذا التسخير ، وهذه الخدمة ، كل أولئك لا يجري على هامش الحياة العقلية ، وإنما هو منها في الصميم ، إذ لا تقل درجة التركيز والتجريد والانتباه فيها عنها في الفلسفة الخالصة . فالحياة العقلية ليست وقفاً على الفلسفة وحدها . كل ما هنالك ان الحياة تتطلب هذا وذاك ، ولا تستغني عن هذا وذاك ، ولكن بدرجات متفاوتة . فالتنوع ضروري في حياة الأمم والشعوب ، وإنما ظروف المكان والزمان والحضارة والمرحلة التاريخية والأوضاع السياسية والحاجات الروحية والاقتصادية هي الي تُفرِّق بين الأمم والشعوب فتُغلِّب ظلالاً على أخرى وتعطي للحياة مزاجاً تنفرد به برهة دون أخرى. فإذا تغيرت هذه الأوضاع وتغير الزمن ، تغيرت الظلال وتغير المزاج ، وبالتالي اختلف النتاج . وعلى كل حال ، ان ما أعطاه العرب والمسلمون في عصورهم الذهبية كان القدر الذي يجب ان يعطى ولا يمكن أن يعطى آنذاك سواه ، فإذا كان عطاء فهو كل ما يمكن من عطاء ، وإذا لم يكن عطاء فلا سبيل الى العطاء . ويختلف العطاء باختلاف الفصول والمواسم ولا يكون كيفما اتفق العطاء . فالعطاء موقوت وموزون ومقسوم ، وهذا هو قانون العطاء . العطاء ثمر ، والثمر يينع بالسقاية والفلاحة والتربة والمطر ، وكل ذلك إنما يكون بقدر ، فإذا اختل الميزان تغير الثمر .

ومعنى ذلك ان الأمم لا تثبت على مزاج واحد لأن أوضاع الحياة جميعاً في تغير مستمر. وليس هناك شعوب مجتباة مختارة بالفطرة وأخرى منبوذة متخلفة بالفطرة، فالكل واحد في الأصل، وإنما هي ظروف وأحوال وصدف من التجاور المكاني والاتفاق الزماني والتماس الحضاري ، والمشاكل الداخلية والحاجات المادية والمقاصد الروحية . . . تعمل جميعاً فترفع هذه الأمة الى القمة ، وتهبط بتلك الى الحضيض ، وتطبع هذا الشعب أو ذاك بمزاج نفسي خاص وتكوين عقلي معين. فإذا انتهت هذه الظروف والأحوال تبدل المزاج غير المزاج والتكوين غير التكوين . ولا أدل على ذلك من الاختلاف الجذري الكبير بين يونان اليوم ويونان الأمس ، حتى لكأن هؤلاء ليسوا أجداد أولئك . إنهما شعبان مختلفان ، بينهما برزخ لا يبغيان ، وان جمعهما الاسم المشترك والأرض والتاريخ والمكان، لكن كل ذلك ليس بذي شان، فالتاريخ غير الجغرافيا، هذه ثابتة وذاك متقلب متذبذب حيران ، فالأمم لا تصنعها الثوابت إنما يصنعها المتغيرات في معادلات الزمان .

*

ثم ان الفلسفات الكبيرة وليدة التحولات الكبيرة التي تطرح مشكلات كبيرة . فقد جاءت الفلسفة اليونانية بعد تحولات كبيرة طرأت على بلاد اليونان فطرحت مشكلات كبيرة كانت المشكلة الميتافيزيقية مأساتها الأخيرة [1] . لقد كانت المسمار الأخير في نعش الفكر اليوناني والحضارة اليونانية. وقد تصدى اليونان لهذه المشكلة وأدلى كل منهم بدلوه بين الدلاء منشدين نشيد الموت على إيقاع الضربات التي أخذت تنهال على الجريح. لم يكن لليونان سوابق في ميدان الميتافيزيقا ، كلا ولم يكونوا مسبوقين في هذا الميدان ، فلم يجدوا بُداً من أن يصنعوا مادتهم بأنفسهم ، وقد فعلوا أو جادوا وبلغوا الغاية في الجودة والإجادة. لقد كانت المشاكل الميتافيزيقية تترى فاستوفى اليونان

(1) وقد توسعنا في هذه المسألة في الجزء الثاني من كتابنا المرجع في تاريخ الأخلاق . والكتاب تحت الطبع هو وكتب أخرى تنتظر انفراج الأزمة اللبنانية .

جميع الحلول المقدَّرة لها ، وزيادة ! ومضى اليونان وجاء العرب في أعقابهم بعد تحولات كبيرة طرأت على شبه الجزيرة ، وكان الإسلام هو العامل الأكبر في تفجير هذه التحولات . وأخذت المشكلات تترى على الساحة العربية ، وجاءت الحلول في أعقابها ، وهي مشكلات وحلول دينية تشريعية لا تخلو أحياناً من الأبعاد الميتافيزيقية . فأما ما كانوا مسبوقين فيه ـ وأكثره ذو طابع ميتافيزيقي ـ فقد استعاروا مادته ممن سبقوهم وسخَّروا هذه المادة لحاجاتهم وأغراض مجتمعهم وعصرهم ، بعد أن غيَّروا فيها وبدَّلوا ، وقدَّموا وأخَّروا ، وأضافوا وحذفوا ، بحسب مقتضيات الأحوال وظروف الزمان والمكان والتاريخ والجغرافيا . هذا ما كانوا مسبوقين فيه . وأما ما لم يكونوا مسبوقين فيه أو لم يكن السبق فيه كافياً ، فقد صنعوا مادته بأنفسهم بقدر عدم السبق . وبعبارة أخرى ، في كل دين قضايا ذات كثافة ميتافيزيقية بطبيعتها وتحتمل التنمية الميتافيزيقية إذا صح التعبير، كفكرة الله والنفس والنبوة والأصل والمصير . . . وإلى جانب هذه القضايا قضايا أخرى فقيرة في مضمونها الميتافيزيقي أو خالية منه كالفرائض الدينية والتكاليف الشرعية من وضوء وغسل ونكاح وطلاق . . . فإذا طبقنا ذلك على الاسلام رأينا العرب وهم يواجهون القضايا ذات الكثافة الميتافيزيقية يزيدونها كثافة ويتوسعون فيها ، ويدفعون بها الى أقصى غاياتها ، مستأنسين في ذلك بطبيعة الحال بما عند اليونان من مادة ميتافيزيقية من شأنها أن تساعدهم في إغناء مادتهم هم وادخالها في البنية الدينية والإيديولوجية للإسلام . وقد تجلى ذلك في علم الكلام أولاً والفلسفة الاسلامية بعد ذلك . وأما القضايا الأخرى الضحلة ميتافيزيقياً فقد نشأت على أطرافها علوم نظرية وعملية متعددة ، وهي علوم إسلامية خالصة . وأكثر علوم الدين واللغة من هذا القبيل كالفقه وأصول الفقه ، والحديث ومصطلح الحديث والتفسير والصرف والنحو والبلاغة والبيان . . . ومن هذه العلوم الدينية اللاميتافيزيقية انطلق العرب إلى علوم أخرى لا ميتافيزيقية أيضاً ولكنها دنيوية هذه المرة . (وقد عرضت لشيء من ذلك في مكان آخر من هذا الكتاب)[1] لا سيما وانهم لم يجدوا في

(1) أنظر الفصل السابع .

القرآن حرجاً من الاندفاع في هذ السبيل بل رأوا فيه حافزاً قوياً على تحصيل العلم وتكريم أهله . وهكذا فإذا لم يكن العرب قد صنعوا كل مادتهم في ميدان الميتافيزيقا المسدود أمامهم لأنهم كانوا مسبوقين فيه، فقد اندفعوا كالسيل في الميادين الأخرى المفتوحة التي لم يكونوا مسبوقين فيها أو كانوا مسبوقين سبقاً لاغناء فيه ، ليصنعوا مادتهم كلها أو جُلها . هنا تجلت عبقريتهم السامقة حيث حرية الحركة أكبر وفُرص النجاح أكثر سنوحاً . لقد كان هم العرب الأول ـ شعروا أو لم يشعروا ـ سد الفجوة الكبرى الفاغرة أمامهم . لقد وجدوا فراغاً فأحسوا الحاجة الى ملئه ، كما ردموا حُفراً صغيرة صادفتهم هنا وهناك في أثناء الطريق . وهكذا نبغ العرب نبوغاً كاملاً أو شبه كامل فيما لم يُسبقوا فيه ونبوغاً نسبياً فيما دون ذلك . فالعقل ـ بحسب قوانين السَّيْكوسوسيودِيناميكا ـ إنما يعمل دائماً على ردم الحفر وسد الفجوات ورفع الأنقاض أولاً وقبل كل شيء ، فإذا فرغ من ذلك عمد إلى بناء الصروح فوق هذه الحفر المردومة والفجوات المسدودة وتعليتها والارتفاع بها إلى حيث تبلغ طاقته وتتسع له إمكانيات العمل وظروفه ومتطلباته . وهكذا يجد فائض العقل ـ في عصور التحول الكبرى خاصة ـ منافذ كثيرة تمتص طاقاته وتفجر شحناته وتبلغ به أسمى غاياته .

بل لقد فعل العرب شيئاً مثل ذلك في ميدان الفلسفة اليونانية نفسها ، وبخاصة فلسفة أرسطو ، فهذه الفلسفة ليست فلسفة كاملة ، بل هي مليئة بالثغرات والفجوات والنقائص . أي فيها نواحٍ كثيرة مفتوحة لم يطرقها اليونان وبالتالي يمكن غزوها من قبل العرب . هنا ستتجلى عبقريتهم أيضاً كما تجلت في جميع الميادين المفتوحة الأخرى وبالمقدار ذاته أيضاً. ولا بأس أن أعيد هنا ما ذكرته في كتابي (من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية)[1] نقلاً عن المستشرق الألماني هورتن Horten كما أورده المغفور له الأستاذ العلامة

---

(1) صفحة 358 .

مصطفى عبد الرازق في كتابه (تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية)[1] .

يقـول هورتن في فصـل عقده عن الفلسفـة الإسلاميـة في دائرة المعـارف الاسلامية بعنوان فلسفة Falsafa .

« ولتقدير ما للفلسفة الإسلامية من الشأن يجب البدء ببيان ما في مـذهب أرسطو من النقص . فلا نظير لأرسـطو في ضبط المعاني الجزئية، غيـر أنه لم ينجـح في وضع نسق شـامل للعـالم كله منـظوراً إليـه من خـلال صـورة ذهنيـة واحدة . فهو لم يردّ جملة العالم إلى مبدأ واحد ، إنمـا هي إثنينية تتقـابل فيهـا الهيولى القديمة مع الله . وهذا المذهب الأرسطاليسي فيه عناصر علمية نظريـة ممحصة ، لكن النزوع القـوي فيه الى الاعتمـاد على ما في الـوجود الخـارجي وحـده يشوبهـا ويعطلهـا : أنّى جاءت الصـور إذا كان الله عقـلاً صرفـاً ليس له إرادة ؟ وهو يحرك العالم من حيث هو معشـوق لا من حيث هو علة فـاعلة ؟ ثم هو يجهل الجزئيات ؟ ذلك مذهب في الألوهية ليس بفلسفي » .

لقـد حام هـورتن حول المـاء ومـا ورد المـاء وروداً يشفي الغليـل . لقـد لـمس جوهر الفكر العربي الاسلامي لمساً خفيفاً دون ان يستطيع الوغـول فيه . ولو أسعفته السّيْكوسوسيوديناميكا لمضى الى نهاية الشوط . ليست عنـده نظريـة يبني عليها أحكامه وإنما عنده طفرات من فلتات الطبع وخطرات الفكر السديدة تكونت لديه بحكم اشتغاله الطويل بالفكر الاسلامي .

فهـورتن إذن يأخـذ على أرسطو أنـه لم يستطع رد جملة العـالم إلى علة واحدة ، ما دامت الهيولى القديمـة موجـودة مع الله . ففي الكـون علتان إذن : الله والهيولى (أو المادة) . كما انه لم يستطع وضع نظرية واحدة شاملة تنصهـر فيها جميع الجزئيات في العالم وتضيع معالمها في كـلٍ أكبر منهـا . كذلـك لم يستطع تفسير حقيقة صلة الله بالعالم وكيف يؤثر فيه إذا كان مجـرد علة غائيـة . ثم هو يجهل ما يجري في هذا العالم من أمور وحوادث جزئية . هذه هي جملة

---

(1) صفحة 23-24 وقد دخلت تعديلات طفيفة على الترجمة دون المس بالمعنى .

المآخذ التي يأخذها هورتن على أرسطو . ويمكن ان نضيف إليها أيضاً إضافات أخرى تسير في نفس الاتجاه: فأرسطو ترك في مذهبه نقاطاً كثيرة معلقة دون أن يتصدى لحلها ، كما ان في مذهبه نقاطاً غامضة حيناً ومتعارضة بعضها مع بعض حيناً آخر ، وهو لم يكلف نفسه مؤونة توضيحها أو إزالة ما فيها من تناقض . وأخيراً إن مذهب أرسطو معارض للإسلام في كثير من جوانبه ، كما ان في الإسلام قضايا كثيرة لا يقرها أرسطو . فكل أولئك عوامل للإثارة السيكوسوسيودينامية من شأنها تعبئة الطاقات وتجييش الامكانات وتقوية الحوافز[1] . إذ في هذه النقاط جميعاً ستتفجر عبقرية فلاسفة الاسلام ، وسنشهد معركة حامية الوطيس تنشب بين مختلف التيارات الفكرية العربية الاسلامية نتج عنها سد جميع الثغرات في فلسفة أرسطو وجلاء كل غامض فيها والبتّ في كل ما تركه معلقاً بلا حل ، وإحكام الصلة بين الله والعالم ، وتحويل الله من علة غائية الى علة فاعلة ، وجعله محيطاً بكل شيء علماً ، وصهر الجزئيات جميعاً من نظرة واحدة شاملة تستغرق كل شيء ، وأخيراً تقريب أرسطو في الاسلام وتقريب الاسلام من أرسطو ، والتوفيق بينهما بإدخال تغييرات ـ تتفاوت في العمق والقوة والأصالة ـ في قضايا الفلسفة الأساسية والفرعية من شأنها تقريب مسافة الخُلف بين الفلسفة والدين وإزالة ما بينهما من جفاء ، بل وبإضافة قضايا جديدة إلى الفلسفة قال بها الدين وجهلتها الفلسفة ، كل ذلك بأدوات الفلسفة نفسها وبروح فلسفي وتفكير فلسفي لا أثر فيه لنزوة أو هوى أو عاطفة ، بحيث إنه لو بُعث أرسطو حياً لاستغاث من استخدام فلسفته من قِبل أخلص تلاميذه والمعجبين به من العرب للوصول الى نتائج لا يقرها هو ولا يؤمن بها ، بل ويذهب في معارضتها الى حد الشطط !

وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن العرب قد إقتصروا على أرسطو وحده ، بل معناه أنهم بنوا على قواعده وفي مخطط تفكيره ، مع تدارك ما فيه من نقص وتصحيح ما فيه من أخطاء كما مر معنا . فقد أخذوا من أرسطو

(1) أنظر القانون الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس من قوانين الإثارة السّيكوسوسيودينامية من كتابنا الفكر العربي في مخاضه الكبير صفحة 126-137 .

منطقه وطبيعته ومعظم أقواله فيما بعد الطبيعة، ثم أكملوه بمثالية أفلاطون. كما أخذوا من مذاهب يونانية أخرى غير مذهب أرسطو وأفلاطون ، ثم ضموا الى ذلك عناصر شرقية غير يونانية أصلاً . ثم تناولت ذلك كله يدُ صَنَاعٌ استخدمته في حل مشاكلها وبناء وجهة نظرها ، وتفسير بعض القضايا التي نبتت في جو الإسلام وفي زمن اختلفت فيه المُثل والقيم والآمال والمسؤوليات عما كانت عليه لدى اليونان .

*

ومن حق المرء ان يسأل ويلحف في السؤال مرة أخرى : لماذا لم يتمكن العرب من صنع ميتافيزيقا كاملة خاصة بهم ، بل اكتفوا برتق الفتوق وسد الشقوق وإصلاح ذات البين ؟ أوَ ليس ذلك لقصورٍ فيهم وعجز عن مطاولة اليونان ؟ هل السبق مانع من الابتكار ؟ ليس في الأمر عجز وقصور واقتدار وموهبة ، كما يقول السطحيون من مستشرقين وعرب سئمتُ والله ترداد أقوالهم ، وإنما الأمر شيء غير ذلك وأعقد من ذلك . فللعمل شروط أهمها العثور على صانع يعمل ، وعلى مكان يصلح للعمل . فإذا انعدم أحدهما لم يتحقق العمل . لقد وُجد الصُناع العرب ، ولكن إيتني بمكان شاغر يعملون فيه . فاليونان قد سبقوا العرب الى احتلال المكان الذي كان على هؤلاء أن يعملوا فيه فذهبوا الى مكان آخر . فلِمَ التزاحم على مكان واحد والأمكنة كثير ومجالات العمل أكثر ؟ ولا صحة أبداً لمقولة العجز والقصور عند العرب والاقتدار والموهبة عند اليونان. فها هم العرب قد صنعوا علم الكلام وما ضاقوا به ذرعاً ، وهو ميتافيزيقا إسلامية تتفاوت في خلوصها وأصالتها وتختلف الشحنة اليونانية فيها من متكلم الى آخر . هذا من الجهة الأولى، ومن جهة ثانية فإن الإطار العام للفكر الانساني لم يشهد تخلخلاً بنيوياً عميقاً يقتضي إحداث تغيير شامل في الأفق العقلي للإنسانية قاطبة . فالمجتمع البشري كله ، سواء على الساحة اليونانية أو الساحة العربية أو في أي مكان آخر في العالم ، هو على العموم مجتمع يقوم على الزراعة أو على حياة البداوة ، أي إن كل تحرك فيه فإنما يتم بعضلات الإنسان أو الحيوان . رتابة في رتابة عمرها كعمر الإنسان أو

تكاد . وقد استطاع اليونان أن يعبروا عن هذا المجتمع العضلي الرتيب أصدق تعبير وأن يستخلصوا منه كل ما يتضمنه أو يشتمل عليه من إمكانات وقوى ميتافيزيقية كامنة . هذه هي ميزة اليونان في العصور القديمة . ولكنهم لم يستطيعوا أن يُدخلوا أي تغيير يُذكر في هذا الإطار ، بل لم يخطر لهم ذلك على بال . لقد كفروا بكل تغيير فحسبهم التفسير ، ففي التفسير مندوحة عن التغيير . ليس في الإمكان أبدع مما كان . لا خيار إلاّ في الاستقرار ، ففي الاستقرار نعم القرار !

هذا ما كان من أمر اليونان وهذا ما كان أيضاً من أمر العرب . لقد كان اليونان فرسان الميدان فعلام الزيادة عليهم أو النقصان ، لقد أحاطوا بكل شيء علماً ، وكانوا يعشقون الحكمة ويحبونها حباً جماً . لقد أوتوا من كل شيء نصيباً، وبلغوا فيه مبلغاً عجيباً، هيهات لأحد أن يطاولهم أو يدانيهم أو يكون عليهم رقيباً . فطوبى لهم وللأجيال من بعدهم ثم طوبى !!

لقد كان العرب هم الورثة المباشرين لليونان ، وبذلك فقد وصلت إليهم الفلسفة طرية ندية تعبق بأنفاس أصحابها قبل أن يتداولها المتداولون ويستهلكها المستهلكون. لقد عرفوها غضةً بضة لم يجف لها عرق أو يتضعضع لها ركن. لم يكن الوقت قد حان بعد ليضيق المرء بها ذرعاً أو يشعر بما فيها من جدب وعقم ، وإن استطاع بعضهم ـ كالغزالي وابن خلدون مثلاً في أواخر عصور الفلسفة الاسلامية ، وهذا له دلالته، أقول وإن استطاع بعضهم المراهنة على هذا العقم وتأكيده بغير تعمق يذكر . لقد كانت لا تزال تحتفظ بإغرائها وفتنتها لم تفقد منهما شيئاً يُذكر ، فأقبلوا عليها واتّعدوا الوعود الواعدة لتكونُنَّ الاسوة والقدوة ، ولتُحققُنَّ الأمل والرجاء . إنها الدليل على الحقيقة والرهان عليها رهان على الحقيقة . لقد استغرق اليونان جميع الحلول وقالوا كل ما يمكن أن يقال لم يغادروا منه شيئاً ، حتى لم يتركوا زيادة لمستزيد .

قلنا إن التفسير غلب على التغيير في بلاد اليونان، وإنه إذا كان من تغيير فهو نوع من الاصلاح الداخلي ظل محصوراً في بلاد اليونان وما حولها ، أي أن التغيير ظل محلياً . وهكذا الإسلام أيضاً . فقد ظل التحول فيه محصوراً بالعرب

والمسلمين وإن تطايرت منه شرارات استطاعت أن تخترق الحدود . ومهما يكن من أمر هذه الشرارات فإن التغيير الأكبر ظل داخل الحدود . فهو تغيير محلي أيضاً . فالمجتمع القبلي في كليهما ظل المجتمع القبلي ، وكذلك المجتمع الزراعي . إن أي تغيير من هـذين التغييرين لم يستطـع تجاوز الحـدود إلاّ قليلاً ، أي لم يستطع أن يعم العالم بأسره ، فهو تغيير محلي أيضاً ، ولذلك كانت الفلسفة الميتافيزيقية القديمة على قدّهما وصالحة لكليهما على حد سواء : لليونـان الذين أنجبوها ، وللعرب الذين تبنّوها ، بل وللفلاسفة اللاتين أيضاً الذين ورثوها عن العرب . لقد ابتعدت عن مصدرها كثيراً وتداولتها الأيدي كثيراً . لقد وصلت إليهم منهكة منزوفة ، ولكن بالحقن والمسكنات استطاع القوم هناك أن يطيلوا حياتها بعض الوقت وأن يمدوا لها في الأجل .

هكذا كان حال الفلسفة في حلها وترحالها . رتابة في رتابة وسأم قاتل . وفي نهاية الترحال بدا التذمر والتسخط . لقد استُهلكت واستُهلكت حتى لم يبق في القوس مزع ، لقد آن لها أن تُلفظ وتُنبذ نبذ النواة . يجب شق هذه الرتابة وانظر بعد ذلك كيف تخرج الفلسفات من القمقم ، كطيور كانت محصورة في قفص فانفتح الباب فجأة فانطلقت لا تلوي على شيء . هكذا كان حال الفلسفة يوم كانت العضلات وحدها هي أداة التغيير . فارتقب يوم يُفك أسارها . يومئذ تُحدِّث أخبارها ، بأن المجتمع الصناعي الآلي ـ الذي قام على أنقاض المجتمع العضلي ـ أوحى لها . يومئذ يتهتك الستر وتبوح بالسر بل بكل أسـرارها . يـومئذ تخرج الفلسفات سراعاً لكلٍ لونُها ومزاجُها وشعارُها . فعلى قدِّ التغيير يكون التفلسف ويكون النظر والتنظير .

ألم أقل لكم إن العقل يعمل دائماً على سد الفجوات ورأب الصدوع ؟ ففي عصر النهضة اتسع الخرق على الراقع . فالتغيير هنا تغيير شامل حدث على النطاق الانساني كله ليعم البشرية جمعاء . لكن الأمور مرهونة بأوقاتها . لقد طال عهد الفلسفة القديمة حتى زكمت الأنوف واصطكت الأسماع ، وجفت الأقلاع والقرائح إلى أن بلغ السيل الزبى . ولكن الأنوف تستطيع أن تحتمل المزيد ، وكذلك الأسماع والأقلام والقرائح . فحتى في صميم عصر النهضة ظـل الحنين

إلى الفلسفة القديمة قوياً. فرغم ثورة ديكارت على هذه الفلسفة وإعلانه النكير عليها فإنه لم يستطع التخلص منها نهائياً . وكذلك تلاميذه من بعده ، بل لا نزال حتى الآن نحتفظ بالكثير من مقولاتها ، وما ذلك إلا لأنها فلسفة الواقعية الساذجة وبادي الرأي المشترك . وهذا هو مصدر سلطانها علينا . لكنها على كل حال فلسفة قد انتهى منذ زمن طويل أمرهـا، رغم ما تبـدي من مقاومـة للحفاظ على مواقعها . غير أن الزمان ليس زمانها ، فلقد مضى عهد قطافها وآن لها أن ترحل وفي رَحْلها متاعُها وجميع أثقالها . فليت شعري ! إلى متى نظل مأسورين لها ، كأنها غادة حسناء وقعنا في شراكها ؟ فيا عجباً من ضعفنا وسلطانها !! . .

وبعبارة أخرى نلخص بها ما تقدم بقولنا إن العقل إنما يعمل ـ بالمعنى السَّيْكوسوسيودِيناميكي ـ عندما توجد المشكلة ، فإذا ما حُلت توقف عن العمل . لقد حل فلاسفة اليونان المشكلة الميتافيزيقية على خير ما يكون الحل ، فإن كلاً منهم قدم جزءاً من الحل . ولما أن اكتمل الحل توقف العقل اليوناني وجمد في مكانه لا يبدي حراكاً ، ولن تقوم له قائمة بعد اليوم ، ولن يمكنه بالتالي تقديم أي حل . فالحل مانع من الحل ، إنه يكبح نشاط الفكر ويشل إمكاناته ، أو على الأقل يضع غطاء على البصر فلا يرى ما يدور من حوله . أشياء كثيرة تصرفه عن الحل فتتراكم المشكلات التي تبقى بلا حل . إن اليونان منذ الآن في غفلة عن الحل ، هذا إذا طُرحت مشكلة ميتافيزيقية تتطلب الحل ، فكيف إذا لم تطرح بعـد أن استُفـرغت المشـاكـل واستُفـرغ كـل حـل. ولـو أمكن أن يضـاف إلى الفلسفة اليونانية حبة خردل لما قصَّر اليونان في ذلك وهم أربابه . وكل ما وسعهم الإسهام به بعد ذلك إنما هو الدوران في حلقة مفرغة من الشروح والتعليقات والحواشي واجترار أقوال السلف . تكرار ممل ورتابة قاتلة . وإذا كانت هناك من مشاكل تثار من وقت إلى آخر فهي مشاكل معيشية واقتصادية واجتماعية لا تجد الحل ، أو قل هي مشاكل النعش والجنازة والتعجيل بالدفن . فمن إكرام الميت التعجيل بدفنه ! لقد انتهت أثينا ، أعظم الله أجركم بأثينا !!

هكذا كانت الفلسفة اليونانية بعد أرسطو أو شيئاً قريباً من ذلك . لقد أصبحت الفلسفة بلا أفق هذا كل ما يسمح به المجتمع العضلي . لقد جمد الفكر

في مكانه فلن يكون بعد اليوم فكر . وإذا كان من فكر فهو فكر غير ميتافيزيقي بعد أن استنفدت الميتافيزيقا عند اليونان جميع أغراضها ووصلت إلى منتهى غاياتها . إن الفكر لا يتحرك كما قلنا إلا بطروء مشكلة جديدة . ولما كانت المشكلة الميتافيزيقية قد انتهت ، فإن مجال الفكر محصور منذ الآن في مجالات أخرى كالمجال الديني مثلاً إلى أن يتبدل المجتمع العضلي فيستأنف الفكر الميتافيزيقي نشاطه عندئذ . ولذلك فإنه عندما خرج العرب من قوقعتهم واندمجوا في العالم الكبير من حولهم كان لا بد من حدوث صدام فتفاعُل بين الدين الجديد والفلسفة القديمة . وكان التفاعل بقدر حجم المشكلة ، وهي بطبيعتها مشكلة محلية تهم المسلمين وحدهم ، فكان التفاعل محلياً وكانت الحلول محلية . ولذلك لم يطرأ تغير يُذكر على المشكلة الميتافيزيقية . فإن كل ما حدث محصور في إضفاء الصبغة الاسلامية على هذه المشكلة ، دون المس بجوهرها ، على تفاوت في ذلك بين هذا الفيلسوف أو ذاك أو هذا المتكلم أو ذاك . لقد جاء الاسلام وطرح المشكلة الدينية بجميع أبعادها وامتداداتها ، وحلّ المسلمون هذه المشكلة ، وبعبارة أدق واجه قادة الرأي فيهم هذه المشكلة وقدم كل منهم أو كل قادر على الحل جزءاً من الحل . ولما أن اكتمل الحل توقف العقل العربي وعجز عن تقديم المزيد من الحل . فإذا رأيتَ ثم رأيتَ بعد ذلك حلقة مفرغة من الشروح والحواشي والتعليقات واجترار أقوال السلف ، كما كان الحال عند اليونان من قبل ، بلا زيادة ولا نقصان . وهذا ما يعبَّر عنه في الاصطلاح الاسلامي بإقفال باب الاجتهاد . لقد جف النُسغ ونضب المعين . وليس الاجتهاد مخصوراً فقط في قضايا الفقه وأصول الدين وإن حصره المسلمين في ذلك . فالآلة كلها قد توقفت عن العمل ، وتوقف معها بطبيعة الحال النشاط الفلسفي . فلا إبداع بعد اليوم بأي وجه من الوجوه ، ما خلا بعض النزّ والرشح يتحلب هنا وهناك . لقد حُلّت المشكلة الدينية وانتهى أمرها ، هذا هو ، باختصار ، الحل السّيْكوسوسيوديناميكي لمشكلة الفلسفة الاسلامية . فليس عدم إنتاج فلسفة إسلامية أصيلة ناشئاً عن عجز العقل العربي عن إنتاج هذه الفلسفة ، بل لأن المشكلة الميتافيزيقية قد اكتمل حلها في المجتمع العضلي اليوناني فلا سبيل إلى استئناف الحل. ليس عدم طيراني ناشئاً عن عجزي عن الطيران، لأن

العجز معناه أن لدى الانسان الامكانية التامة للطيران. ولكن هذه الامكانية معطلة بالنسبة إليَّ أنا وحدي وأما الطيور فإنها قادرة على الطيران قدرتها على المشي . ولذلك فلا يصح أن يقال إن العرب عاجزون عن إنتاج فلسفة ميتافيزيقية أصيلة خاصة بهم إلا إذا ثبت أن غيرهم من أفراد المجتمعات العضلية كانوا قادرين على إنتاج مثل هذه الفلسفة . فإمكانية الانتاج مسلوبة عن الجميع كما أن إمكانية الطيران مسلوبة عن الجميع. والحال ان الفلسفة اليونانية قد اكتملت فأصبحت بلا أفق ، ولن يحدث بعد اليوم أي تجديد فيها إلا عندما ينفتح الأفق ، وبالثورة الصناعية الآلية انفتح الأفق . فلا عجز عند العرب ولا إعجاز عند اليونان . هذا ما تقضي به قوانين الإثارة السَّيْكوسوسيودينامية التي تسري على الناس جميعاً بلا أي تفرقة دينية أو عنصرية . . .

أي لم تكن المشكلة المطروحة بالنسبة إلى العرب المسلمين من الوجهة السَّيْكوسوسيودينامية على الأقل ـ هي حل المشكلة الميتافيزيقية ، وإلا لتجندت العقول لحلها كما تجندت لحل المشكلة الدينية فقد حُلت المشكلة الميتافيزيقية منذ عهد اليونان حتى لم يتركوا زيادة لمستزيد . وقد اعترف فلاسفة العرب أنفسهم بذلك فكانوا يكررون باستمرار أنهم تلاميذ لليونان وأنهم لا يَعْدون أن يكونوا شراحاً لأساتذتهم اليونان . حتى إنه، إذا اتفق لأحدهم أن يبتكر شيئاً فقد كان يبادر في الحال إلى إعلان براءته من مخالفة الأوائل وإلى الاعتراف بأن ما توصل إليه موجود بالقوة في فلسفة الأوائل ، وأن هذا ما يقصده المعلم الأول سيد الأوائل . ومعنى ذلك في التعبير السَّيْكوسوسيودينامیکي أن المشكلة الميتافيزيقية قد حُلت فعلام الخوض فيها مرة أخرى ؟ هذا هو لسان حال القوم . حتى إن كثيرين قد اعتقدوا ، وكنت واحداً منهم ـ أن هذه العبادة للنصوص القديمة ناشئة عن العجز أو عن عدم الثقة بالنفس على الأقل . ولم أقف على السبب الحقيقي ـ أو ما أزعم أنه كذلك ـ إلا منذ وقت قريب جداً ، وبعد المعاناة الطويلة لأصوَل التحليل السَّيْكوسوسيودينامیکي . لقد كان القوم يشعرون في قرارة نفوسهم أن القدماء قد فرغوا من المشكلة فمن العبث إضافة شيء جديد إلى ما قالوا . وغني عن البيان أن هذا الحكم ينطبق على الفلاسفة وحدهم ، أي على المؤمنين بالأوائل لا على الكافرين بهم، فهؤلاء لهم شأن آخر. إنهم

يـدخلون في إطـار القـانـونين السـابـع والثـامن من قـوانين الإثـارة السّيْكوسوسيودينامية[1].

وعلى كل حال ، إن المشكلة الحقيقية التي كانت مطروحة على الساحة العربية الاسلامية من أقصاها إلى أقصاها ، والتي زلزلت كيان المسلمين وقرَّحت عيونهم وأرَّقت حياتهم حتى لقد استغرقت عليهم كل أقطار وجودهم ـ أقول إن هذه المشكلة إنما هي المشكلة الدينية والمشكلة الدينية وحدها ، بجميع دقائقها وشعابها وكل امتداداتها وأبعادها. فأبدوا في حلها وفـك طلاسمهـا والغوص في لجحها وأعماقها ما لم يبده أي شعب آخر. أجل، لقد استغرقتهم المشكلة الدينية بقدر ما استغرقت المشكلة الميتافيزيقية اليونان . لقد تخصصوا في الـدين تخصص اليونان في الميتافيزيقا . فكل تخصـص في هذين الميدانين حكر عليهما ، لقد خالف العرب أرسطو وهم يحسبون أنهم إنما يسيرون في ركابه ويدورون في فلكه ويلتزمون خطه وطريقه . ولئن طُرحت المشكلة الميتافيزيقية بينهم فقد طُرحت جانبياً ، أي على أساس أنها هي أيضاً مشكلة دينية أو جزء من المشكلة الـدينية أو الـوجه الآخـر لهـا، أو قـل هي صـاحبـة الشـريعـة وأختهـا الرضيعة ، على حد تعبير ابن رشد أخلص فلاسفة الاسلام لأرسطو وأشدهم تقريعاً لمخالفيه وأحرصهم على تنقيته من الشوائب الغريبة . ومع ذلك فهو لم يستطع تصور ميتافيزيقاه خارج المشكلة الدينية . ولئن بدا من ابن سينا مثلاً بعض التشكيك في اليونان عندما شق العصا عليهم وقال متهكماً كلمته المشهورة: «كأن الله لم يخلق سواهم»، فما ذلـك لا ليزج بالمشكلة الميتافيزيقية في الدين مرة أخرى ويغرقها فيه . ولا فرق بين أن يكون هذا الدين هو الدين الاسلامي أو الدين الشرقي كما فعل في الحكمة المشرقية مثلاً ، وهي حكمة أفلاطونية أفلوطينية ظاهراً ، وحكمة دينية باطناً . ولعل هذا أحد أسباب نجاح أفلاطون وأفلوطين في العالم الاسلامي . فما من فيلسوف خدم المشكلة الدينية كما خدمها أفلاطون وأفلوطين، حتى إنه عندمـا تصدى ابن رشـد لتخليص المشكلة الميتافيزيقية من الأوهام الأفلاطونية الافلوطينية ، أي من الدين ، فقد أقحمها هو

---

(1) الفكر العربي في مخاضه الكبير صفحة 137-143 .

أيضا مرة أخرى في الدين عندما قال بالحقيقة الواحدة ذات الوجهين المختلفين ، فلا يمكن لأي واحد من الفلاسفة الاسلاميين تصور الحقيقة بغير الدين . وعلى أطراف المشكلة الدينية نشأت العلوم الدينية واللغوية . أرأيت كيف كان الدين في بلاد الاسلام المحور والأساس والمنطلق والغاية ، بقدر ما كانت الميتاغيزيقا في بلاد اليونان محور التفكير وأساسه . كل شيء إنما يدور عليها وإياها يقصد ، وإليها ينتهي ويؤول .

وبعبارة أخرى ، كل شيء عند اليونان إنما نما وترعرع على أطراف المشكلة الميتافيزيقية . وكل شيء عند العرب إنما نما وترعرع على أطراف المشكلة الدينية. اليونان قلّموا أظافر الله وحدّوا من نشاطه وفاعليته ليجعلوه منسجماً مع الميتافيزيقا، كما أن العرب قلّموا أظافر الميتافيزيقا لتكون منسجمة مع الله . الألوهية ثانوية عند اليونان ، وهي تدور في فلك الميتافيزيقا ، كما ان الميتافيزيقا ثانوية عند العرب وهي تدور في فلك الألوهية . هذه حكاية حال الموقفين ، وهنا يكمن الفرق بين العالَمَيْن .

لكن من هنا انطلقت الأراجيف والأضاليل ، ومن هنا انطلقت أسطورة تكوين العقل العربي وبنية العقل العربي ، وأساطير أخرى تفرق بين العرق السامي والعرق الآري ، وتخلط بين الوراثة البيولوجية والوراثة الاجتماعية [1] كأننا جنس آخر من البشر. لقد عقدتمونا والله يا مرضى الفِطَرْ، بحذلقتكم التي لا تقصدون بها وجه العلم والبحث والنظر ، بل تقصدون حب الظهور وتشقيق الشعر والثرثرة والسَّمَر ، والتلهي بالفقاقيع لمخالفة الأقران والعبث والهزر والهذر . تالله إنها لإحدى الكُبَر !!!

*

وزبدة القول ، لا عجز عند العرب كما ذكرنا ولا إعجاز عند اليونان . فكل

---

(1) عن أهمية المشكلة الأولى وما يتصل بها أنظر كتابنا الفكر العربي في مخاضه الكبير صفحة 165 والصفحات التالية .

ما في الأمر في نهاية التحليل السّيْكوسوسيوديناميكي للانتاج العقلي عند المسلمين أن المشكلة الميتافيزيقية قد اكتمل حلها في المجتمع العضلي اليوناني ، فجاء المسلمون وقاموا بعملية ترقيع وتجميل للدين مستعينين بشرائح وقطع تبديل اختاروها بعناية فائقة من الجسم اليوناني وزرعوها في الجسم الاسلامي . ونجح الزرع واعشوشب وامرع ، وهاج الثمر واصفًر وتنوع ، صنوان وغير صنوان نما وترعرع . يُسقى بماء واحد لكن بعضه أزكى طعاماً من بعض ، وبعضه أطيب مذاقاً من بعض وأفضل في الأُكل من بعض . ولكن هذا البعض وهذا البعض كلٌّ واحدٌ متكاملُ البعض والبعض ، كمثل البنيان يشد البعض فيه سائر البعض .

*

ولسائل أن يسأل ومن حقه أن يسأل : لماذا الميتافيزيقا لليونان والدين للعرب؟ أَوَلا يدلُّ ذلك على تفوق اليونان على العرب؟ وللإجابة عن هذا السؤال أكاد أقول إن الأمر يعود إلى مجرد الصدفة، كما تأكد ذلك في المقدمة لا إلى خصائص عرقية تكوينية طالما ابتُزَّت من قِبل أصحاب الأغراض والغايات. أجل الصدفة ولا شيء على الجملة غير الصدفة . فالمسألة أبسط من تقوُّل المتقولين وتعصب المتعصبين . إن أيًّا من الفريقين لم يختر مشكلته ، إنما الصدفة كان لها الاختيار وكان لها اتخاذ القرار . ثم جاءت الوراثة الاجتماعية لتثبيت القرار وتعميق جذور القرار . فإن من أهم معطيات السّيْكوسوسيوديناميكا أن المشكلة الأولى عامل هام في توجيه الطاقة السّيْكوسوسيودينامية وجهةً دون أخرى . إنها المشكلة ـ الأم التي عنها ستنبثق المشاكل الأخرى وبها سيتقرر مصيرها ، وهي التي ستمنحها هويتها وتضفي عليها خصوصيتها . وما تاريخ الجماعة سوى تاريخ الرحلة في عالم هذه المشكلة . فإذا أردت أن تتعرف الجماعة وتقف على دخيلتها فارحل داخل المشكلة ـ الأم التي إنما تطبع الجماعة بطابعها ، وعند الفراغ من حل هذه المشكلة ينفرط عقد الجماعة وتذهب ريحُها : فالمشكلة الأولى التي تصدى طاليس لحلها منذ صحوة الفكر اليوناني هي المشكلة الميتافيزيقية وكان يمكن لأي مشكلة أخرى أن تعرض له ، فبدا له أن يمعن فيها نظراً وتمحيصاً ، فأدلى بدلوه

بين الدلاء ، ووجدت هـذه المشكلة هوى عند بعض من طاب له أن يتحدث بها إليه ، كما لم تجد أي هوى عند البعض الآخر . فليس جميع اليونانيين ممن تستهويهم الميتافيزيقا ، كمـا ليسوا جميعـاً ممن ينفرون من الميتـافيزيقـا . فللميتافيزيقا أصدقاؤها وأعداؤها في كل أمة بل في كل بيت . والتف حول طاليس من استهواه كلام طاليس ، كما سخر من طاليس من لم يفهم طاليس أو لم ينسجم معه . وظل كلام طاليس يجتذب بعض الأفراد دون بعض . وأخذت الحلول تترى عند هذا الفريق المنجذب إليه . وتجندت قرائحهم جميعاً لمواجهة هذه المشكلة وفتح مغاليقها بحـرية لا يهـددها كـاهن جاهـل ولا يقمعها متسلط غاشم. وكان كـل فيلسوف لاحق يصحـح سلفه السـابق ويضيف إليه جـديداً أو يستدرك عليه بعض الأخطاء . وهكذا تمت الفلسفة اليونانية بالإضافة والحذف والتنقيح والتصحيح والتحليل والتعميق . . . لقداتفق فلاسفة اليونان واختلفوا ، واصطلحوا واختصموا ، وتباعـدوا وتقاربـوا . . . وقد كسبت الفلسفـةالكثير من هـذا الحـوار والصـدام ، واكتسب الفكـر اليـونـاني المـزيـد من الغنىوالثـراء والخصوبة ، وغير ذلك مما حقق له ولأصحابه مجداً أثيلا وملكاً كبيرا . . .

وطغت الميتافيزيقا على كل شيء . وهكذا ظل التجريد يقوى بالتجريد والتحليل ينمو بالتركيب ، والتركيب يغتذي بالتحليل ويشتد به ساعده حتى تكونت الفلسفة اليونانية وانتظم عقدها، وأصبحت عنـواناً على اليـونان وعـظمة اليونان . فلا تُذكر أثينا إلا وتـذكر معهـا الفلسفة ، ولا تـذكر الفلسفـة إلا ويقفز إلى الذهن اسم أثينا .

وهكذا فالتفكير اليوناني إنما كان رهناً بالشرارة الأولى التي أطلقها طاليس في عصر تحول كبير. هذا نفسه ما حدث للعرب أيضـاً ، لولا أن صحـوتهم قد اقترنت بالمشكلة الدينية كما اقترنت صحوة اليونان بالمشكلة الميتافيزيقية[1] .

*

قلنا إن كل ما توصل إليه اليونان من أفكار وأنظار كان الحد الأقصى لما

---

(1) تحدثنا عن هذين النوعين من الوراثة حديثاً طويلاً في الجزء الثاني من كتـابنا المـرجع في تـاريخ الأخلاق وهو تحت الطبع .

يمكن أن يتمخض عنه مجتمع العضلات من تفكير ميتافيزيقي حتى لم يترك زيادة لمستزيد. وهذا من أسباب توقف العرب عن إضافة أي عنصر جديد وهام إلى المسألة الميتافيزيقية ، هذا فضلاً عن أن المشكلة التي كانت مطروحة أمامهم لم تكن المشكلة الميتافيزيقية بل المشكلة الدينية . والمعلوم أن الفكر هو تفاعل مستمر بين الإنسان وواقعه . وهذا الواقع لم يتغير تغيراً جذرياً منذ عصر اليونان حتى عصر النهضة . إذ لم يطرأ على الموقف الانساني تبدل كبير يمس البشرية كلها لينتج عنه تبدل ميتافيزيقي هام . وإنما كل ما حدث تغيرات محلية صغيرة دون المستوى الانساني الشامل. ولذلك ظلت عاجزة عن فتح الأفق، وإن فتحت في الأذهان «أُفيقات» على قدِّ هذه التغييرات، لكن التغير الكبير لم يحصل. فالميتافيزيقا مشكلة إنسانية عامة وليست مشكلة محلية، إنها تمس القطاع الانساني كله لا أجزاء محدودة منه . فإذا أريد للأفق أن ينفتح فيجب أن يكون التغير كلياً شاملاً ، أي على النطاق العالمي كله . فإنه كلما تعمق التغيير وشمل قطاعات أكبر من البشر تعمق التفكير الميتافيزيقي وقفز قفزات نوعية أشمل وأكبر .

وأخيراً انفتح الأفق وحدث التغيير المرتقَب . لقد جاءت الآلة ـ وما أدراك ما الآلة ـ إيذاناً بالتغيير الشامل . المجتمع الصناعي ، أي مجتمع الآلة ، هو الذي وضع حداً لمجتمع العضلات . فارتقب يوم يأتي المجتمع الجديد بأروع الفلسفات ، وستتراكض الفلسفات في إثر الفلسفات وستتولد الفلسفات عن الفلسفات . فما دام قد انفتح الأفق ، فقد حق لفكر الانسان أن يخرج عن النسق ومنذ الآن سيبزغ فجر جديد وسيزداد الألق . وأشرقت الأرض بنور العلم والعرفان ، وكان زمان وجاء زمان . وهو ذا الانسان كلَّ يوم في شان !

لا فرق بين المجتمع اليوناني والمجتمع العربي الاسلامي من الناحية التي تهمنا هنا : كلاهما كان يقوم على عضلات الانسان والحيوان . فحيث تكون عضلات يكون جمود بعد أن استُهلكت فلسفة العضلات . ألا ترى إلى مجتمعات العالم الثالث اليوم كيف هي لا تزال تتخبط في بحران التخلف . إنها تتشبث بمجتمع العضلات لا تحيد ولا تريم . فإن أي تحرك سيكلفها كل الكيان الفكري الوهمي الذي عاشت عليه قروناً بعد قرون . فإذا ما نشدت الانعتاق

فالتفلسف ، فما عليها إلا أن تسرع الخطى للولوج في العصر الحاضر ثم تشق طريقها إلى المستقبل . وبعبارة أخرى يجب أن تدخل في عصر الآلة وعصر الصناعة الآلية . وحيث يكون مجتمع صناعي ترتفع وتيرة الزمان ويحسّ الانسان بوطأة الزمان . وما دام ينقصنا الاحساس بالزمان ، فلن نرى غير المزيد من الخذلان والحرمان ، نقص الشعور بالزمان داء عضال كثير التفشي بيننا . فاللحظة التي تمر بنا ثروة لا تُقدَّر بثمن . إنها قطعة من عمرنا تنفصل عنا إلى غير رجعة وتنفصل معها إمكانات وطاقات كان يمكن تفجيرها. لقد ذهبت الى الأبد هدراً ، وذهبت معها فُرص وآمال وتوقعات كان يمكن أن نجني الكثير منها . إن هذا الداء تعاني منه جميع شعوب العالم الثالث دون أي شعور بالتبعة أو إدراك لمدى الخسائر والأضرار التي تُلحقها بنفسها وبالأجيال من بعدها . فما لم نبادر إلى رأب الصدع استفحل الداء وعزّ الدواء واتسع الخرق على الراقع .

فإذا بقينا على هذه الحال فلا أمل في إيجاد فلسفة لنا ، وظلت فلسفة مجتمع عصر العضلات إليها تشدنا، يجب أن نبادر في الحال إلى تغيير فلسفتنا، إذا أردنا تغيير كياننا . قد تقول وما شأن الفلسفة هنا ، في هذه المحنة المزمنة من حياتنا ؟ الفلسفة هي منطلق التغيير فلا تغيير بلا فلسفة تقرر التغيير ، والتغيير يستتبع التغيير وكل تغيير فهو ينعكس على الفلسفة فترتفع وتيرة التغيير. مجتمع العضلات عدو كل فلسفة جديدة وعدو كل تغيير وإذا اتفق أن ظهرت فلسفة جديدة في عالم كعالمنا الثالثي يستعصي على التغيير ، فإنما هي حركة فردية عابرة تمخضت عنها نفحات هبّت من عالم التغيير بواسطة وسائل الإعلام الحديثة المتطورة فالتقطها بعض ذوي الحساسية المرهفة واستطاع بها أن يشق له قناة توصله بإحدى الشبكات السَّيْكوسوسيودينامية العاملة في الغرب وهو في عقر داره . لكن هذه الفلسفة التي ننشدها ونسعى إليها ستظل على كل حال فلسفة عقيمة إذا بقيت تدور في طاحونة عالمها الراكد المتخلف . فلا إنتاج إلا في عالم التغيير ، حيث شبكات الإثارة السَّيْكوسوسيودينامية تبث موجات التغيير ، والعماليق على أرجائها يضخّون كل يوم أفكار التغيير .

الآلة تخص الناس جميعاً وليس كذلك الاسلام مثلاً . ولذلك لم يستطع

هذا الأخير اختراق الأفق أو تمزيقه . فإنما ينفتح الأفق عند التغييرات الكبيرة وبدخول الآلة ميدان العمل فإن فضاء واسعاً قد انفسح أمام العقل واندفعت الأفكــار تــطوي العـصــور والأحقــاب لـتبـلغ المـقــام الأسمـى والمـقصـد الأسنى . . . . لقد انقشع الغمام في بلاد الغرب وانفرج ثغر الزمان . وهبَّت رياح التغيير في كل مكان ، تـدمر كل ما طال عليه العهد ورثٌ وهان ، ومــادت من تحتـه الأرض وتضعضع من الأركـان . وخرج النـاس سراعـاً من الليـل البهيم، يتساءلون ويتساءلون عن النبأ العظيم ! لقد انكشفت الغمة ، وانتفض الفكر بعد دهرٍ مديد كأنه الأبد ، حتى لظن الناس أن الهجوع سرمد ، فيا لهول المشهد الذي تفوق روعته كل مشهد !

لقد كان رائد المجتمع القديم والمجتمع الوسطوي معاً تفسير العالم ، لا فرق بين أن يكون هذا التفسير ميتافيزيقياً أو دينياً . كلاهما تفسير وتعليل في نطاقه . كانت مشاكل في المجتمعين ، وكان التعبير العقلي ـ أو العقلي الديني ـ بقدر هذه المشاكل . وكل مجتمع فهو قادر على مواجهة مشاكله وحلها والتعبير عنها ، هذا إذا صادفت عصر تحول كبير حيث تكون المشاكل نتيجة من نتائج التحول وعوامل فعالة من عوامل التحول ، بقدر ما هي في عصور الانهيار إفرازات سامة من شأنها توسيع الخرق وزيادة التصدع والتعجيل بالانهيار .

وعلى كل حال، لقد حل المجتمع القديم والمجتمع الوسطوي مشاكلهما كما ينبغي أن تُحل ، وبالقدر الذي ينبغي أن تحل ثم ركنا إلى اللاّ حل . فللحل أويقات سرعان ما تنتهي . فإذا ما أردت الحل ، فعجل بالحل قبل أن يفوتك الحل ! ودارت دورة الزمان واستنفد التفسير والتعليل أغراضهما . فأما المجتمع العربي الاسلامي فـظل يستهلك المستهلك حتى لكاد يهلك. وأمـا المجتمعات الأوروبية فتألبت على الموروث القديم كله وانتفضت عليه كما لم تنتفض أمة من قبل، وعلى يديها انتهى أو كاد عصر العضلات في مجتمعها على الأقل. وبقدر ما كان عصر العضلات يحرص على منطق التعليل والتفسير ، فإن عصر الآلة سيحرص منذ الآن على منطق التغيير والتبديل . فإنما المطلوب اليوم هو تغيير العالم بعد أن ولَّت مقولة تفسير العالم وانتهى أو كاد منطق تعليله .

لقد كانت الفلسفة القديمة والفلسفة الوسطوية بلا أفق ثم انفرج الأفق وأخذت الفلسفة تتطور ويعاد تكوينها على إيقاع المجتمع الصناعي مجتمع الجهاز الآلي الكبير ، لتقذف لنا كل يوم بجديد وها نحن أولاء نحصد في كل آن زرعاً مختلفاً ألوانه وأشكاله بجهدٍ أقل من ذي قبل وثمر أكثر وسرعة لا نظير لها في العصور السالفة . لقد خرَّ السقف فانكشف الفضاء وخرج المسجونون كأنهم جراد منتشر . وانقدح الزناد وهاجت العقول والتقت على أمر قد قُدِر ، وقال القائلون هذا سحْر مستمر ، وما هو سحر بل هي أحلام ورؤىً تراءت بِسَحَر ، ثم سرعان ما تحققت كلمحٍ بالبصر !

*

كـل ذلك ينفي عن العرب ما يراد إلصاقه بهم من جمود وتخلف فطريين فقد قامت في دار الاسلام حركات عظيمة وحدثت تغييرات عميقة لم تتوقف إلا في عصور الانحطاط والتخلف ، أي عندما تراخى التوتر السَّيْكوسوسيوديناميكي وانطفأت جذوته . أما قبل ذلك فقد كان الأمر غير ذلك فجمود الحياة العقلية عند العرب والمسلمين اليوم هو من آثار تلك الحقبة المظلمة من حياتنا وليس مرده إلى الاسلام أو إلى طبيعة العروبة كما يتقول المتقولون ويتخرص المتخرصون. إنه إنما يرجع إلى مجموعة من العوامل والظروف الخارجية التي تتداخـل وتتعارض وتتفاعل في عصور الانهيار تفاعلاً سلبياً مدمراً قد يكون من الممكن استدراكه وإلى حد ما قبل أن يتفاقم الخطب ويستفحل المرض . لكن ذلك غير ممكن عندما يتآكل الجسم ويذوي العود وتتساقط الأضلاع . والدليل على أن الاسلام لا شأن له بكل هذا الذي يُنسب إليه أن المجد العقلي والعلمي والسياسي والحضاري الذي تحقق للعرب في عصور التحول الكبير والذي كان وراء المد العظيم يمده بالمال والرجال والطاقة والتخطيط والتنظيم والآمال والرؤى والتطلعات ـ أقول إن هذا المجد إنما يدين به العرب للاسلام وقيمه ومُثله ، ولولا الاسلام للبثوا في كهفهم إلى يوم يبعثون . فالاسلام هو الذي قذف بهم في الآفاق وكان فرصتهم الذهبية الوحيدة لصنع المعجزات وبلوغ أقصى

الغايات . كما أن الجمود ليس من طبيعتهم ، بل هو شيء طارىء عليهم ، وإلا لما استطاع الاسلام أن يُفجِّر مواهبهم والطاقات الكامنة فيهم ، فلولا ما يذخرون به من كفاءآت وقدرات خارقة فلا الاسلام ولا ألف اسلام معه كان قادراً على أن يحرك فيهم ساكناً ، فما كان الاسلام يوماً ليحيي الموتى أو يُسمع من في القبور . بهذه القدرات والمواهب دخل العرب التاريخ ولووا عنق التاريخ وانحنى لهم التاريخ وسلس لهم قياد التاريخ ! وإلا فكيف عسانا نفسر تلك السرعة المذهلة التي امتطوا بها صهوة التاريخ وقبضوا بأيديهم على أعنة التاريخ ، عصراً بعد عصر كان من أزهى عصور التاريخ وأخصبها وأغناها بالقيم والطاقات التي تصنع التاريخ !

لقد اكتشف الاسلام المواهب المذخورة ، والطاقات المكبوتة التي تنتظر الشرارة، وجاءها في الوقت ذاته بهذه الشرارة، فانطلقت تحطم الحدود والسدود وتحرر العقول والنفوس والقلوب ، وتوحي إليها أن هُبّي من رقادك وانفضي عنك غبارك !! أنت سر الوجود ومناط كل موجود . حيَّ على الصلاح ، حيَّ على الفلاح، حيَّ على خير العمل، حيَّ على البحث والنظر والعلم والارادة والحسم والحزم فأنت الكل ، أنت الغاية ، أنت المنية والأمل . لا خلاص لك إلا بالتفكر والتفكير ولا نجاة لك إلا بالعلم والتعليم. تفكّري في خلق السموات والأرض، واسلكي كل فج واقتحمي كل معقل في طول البلاد والعرض، ولا تخشَيْ في الحق لومة لائم، إذا ضعفت الهمم أو خارت العزائم. واسلكي سبل العلم والفكر ذُللا ، بين الأهل والعشير والملا، حتى تكوني القدوة والأسوة والمثلَ، فالعلم هو المُعين وهو المَعين، وهو العاصم من الفناء والبلا، وهو العبادة والدين والنجاة من العمى ، فإنما يخشى الله من عبادة العلما . وانتهضت المواهب بعد أن قرّت طويلاً في مكامنها ، واستفاقت العقول وهبَّت من مهاجعها ، لقد سمعت النداء فأذعنت وأطاعت ، واستجابت للدعوة العظمى ، بالتلبية والتهليل والتكبير وما توانت . تلك هي انتفاضة حضارة « إقرأ » في بطن مكة أم القرى ، التي كانت نوراً أضاء الكائنات وغمر الذرى ، لتصنع الانسان الجديد خير الورى ، ولتوطِّىء الأكناف لمسيرة الفتح وتحشد القوى وتمهد الثرى . وجلجل صوتها في الآفاق وكان صوتاً جهيراً رصيناً ، فتحت به للعُرب

فتحاً مبيناً ، وانطلقت الحناجر تدعو للقادم الجديد بالتوفيق دنيا وديناً ، وارتفعت معها الأكف والألسن تلهج بالدعاء اللهم آمينَ !

بهذه الروح ساد القوم وبهـذه النفحات تفجـرت مواهبهم وانشحنت طاقاتهم ، وانكشفت أقدارهم وقدراتهم ، وبرز إلى السطح الكثير من الصفات والخلال والمزايا التي كانت حياة القاع كفيلة بالقضاء عليها . لقد انتفضت من السفح لتحتل القِمـة وتطل على المنخفضات والشطآن . ولكن القمم ليست بالمقام الآمن ولا بالمقام الدائم . فما وصل إلى القمة أحد إلاّ آذن بالحدور . ليس بعد القمة مطمع ، ثم تأتي رحلة العودة والرجوع القهقرى . فإذا كان السلف قد تألقوا يوماً بالعلم والفكر وكان نورهم يسعى بين أيديهم وبأيْمانهم حتى علوا علواً كبيراً وكانوا هدى وكتاباً منيراً ، فقد خَلَف من بعدهم خلْف أضاعوا القيم والفكر وكفروا بالكتاب واتبعوا الشهوات وما زالوا يلقون غيّاً . فأخطر المواقع ما علا من المواقع ، وكلما ارتفع المرء زاد احتمال السقوط ، فالارتفاع يؤذن بنقيضه الذي هو منا قاب قوسين أو أدنى . لابد أن يهوي من شاهق كل من تسول له نفسه اقتحامه لأنه في منزلق غير آمن فإذا أردت أن تكون رجلاً فعش في خطر ، فمن طلب المعالي اقتحم الخطر ، وإن كان يعلم أنه سيودي به يوماً اقتحام الخطر .

وهكـذا فإن الارتفـاع مظنـة السقوط، والسقـوط من عـلٍ قـانـون طبيعي يسري على جميع الأقوام والأجناس دون نظر إلى اللسان أو اللون أو العرق أو الدم أو النسب . ولو دامت القمم لأحدٍ ما استطاع أحد أن يرقى القمم . فالتخلف الذي نعاني منه اليوم إنما يرجع إذن إلى عوامل وظروف خارجية صرف لا حيلة لنا فيها ولا شأن للاسلام بها، كما لا دخـــل لطبيعـة العرب والمسلمين في أمرها. كيف لا وقد كان هؤلاء العرب أنفسهم يوماً من أصحاب القمم، وكان الإسلام هو الذي قذف بهم إلى هذه القمم ؟! فالتخلف إذن شيء طارىء وليس شيئاً بنيوياً، إنما هو صفة لهذا الطور التـاريخي الحتمي من حياتنـا. إنه النهـاية الطبيعيـة لكل وجود حضاري أنجز ما وعد وحقق ما هو معقود عليه من آمال ، وكان في مستوى الرسالة التي نُدب لها . إنه المحطة الأولى في طريق العودة إلى

حظيرة الوجود البيولوجي مصير الأولين والآخرين والناس أجمعين . فاعتبروا يا أولي الأبصار ويا أولي الفهم الرصين ! وبالتالي فهو ليس صفة رسيسة ملازمة للعرب وحدهم من دون سائر العالمين .

وبكلمة واحدة هذا هو مآل الشعوب ـ كل الشعوب ـ في نهاية تطورها ، وهكذا يكون هرمها وطروق الخلل عليها بعد أن استفرغت طاقتها وأوفت على الغاية في أدائها ، فأنّى لها الطاقة بعد ذلك أنّى لها ؟ فما ظنك بتلك الشعوب التي لم تنضج كلا ولم تبلغ مرتبتها ، بل بقيت حتى الآن تتسكع في القيعان والضحاضح سادرةً في غيِّها وضلالها ؟!

*

لسنا في الدرك الأسفل من الأمم ، بل نحن أمة كسائر الأمم ، يسري علينا ما يسري على غيرنا من الأمم ، ولكن ينقصنا النظر في تاريخنا مقروناً بتاريخ الأمم .

إن صورة تاريخنا في أنفسنا صورة مأساوية قاتمة ، يخترقها السواد من جميع أقطارها ويعشش فيها ، بحيث نظن أنها الصورة الوحيدة القاتمة في العالم ، ولكننا إذا نظرنا إليها في المنظور العام الشامل وجدناها دون ذلك سواداً وقتامة . إننا نقلق ونسخط ونتألم بل نحس بالعار عندما نطلع على أخبار المنازعات والانقسامات التي حدثت في ماضينا ، ولاسيما عندما نتتبع نتائج هذه الانقسامات والمنازعات الأليمة التي تقض كل مضجع ، ونقرأ كيفية تضاؤل سلطة الخلافة وتشتتها بين سلطات السلاطين والولاة وملوك الطوائف . ذكريات محزنة تثيرها فينا هذه الأخبار والحوادث التاريخية ، لأننا ننظر إليها في إطارها الضيق المحدود دون أن نكلف أنفسنا عناء البحث في التاريخ العام بحثاً شاملاً ، لنرى ما إذا كانت تلك الأحوال من الأمور التي تشذ فيها الأمة العربية عن سائر الأمم أو كانت من الأمور الطبيعية التي تستوي فيها جميع الأمم في أطوار معينة من تاريخها .

وهذه الاختلافات تدور في مجملها على محورين أساسيين هما المحور الديني والمحور السياسي ، وإن كانت هناك محاور أخرى أقل أهمية .

فأما الخلافات الدينية فإنها إذا ما قورنت بما حدث منها في أوروبا طوال

العصور الوسطى والنصف الأول من القرون الأخيرة ، وجدنا أن مثيلاتها في أوروبا لم تكن قط أقل تنوعاً من تلك التي نشبت في الوطن العربي ولا دونها عمقاً إن لم تكن أكثر منها تنوعاً وأشد عمقاً .

فإذا أحصينا المذاهب المختلفة التي نشأت في بلاد العرب منذ ظهور المسيحية في الفترة المذكورة واستعرضنا الانقسامات الدينية والمذهبية التي تفجرت بين الدول وبين الكنائس أولاً ثم بين الكنائس المختلفة بعضها مع بعض ثانياً، واستقصينا أخبار الحروب الأهلية الدولية التي نجمت عن هذه الانقسامات الدينية في شتى أرجاء البلاد الأوروبية ـ حتى في فرنسا التي تبدو الآن أشد زهداً في الشؤون الدينية من كثير من الدول الغربية ، وقلّبنا صحائف التاريخ التي دونت أعمال محاكم التفتيش وحياة مؤسسي المذاهب الدينية ـ أقول إذا فعلنا كل هذا وجدنا أنفسنا مضطرين الى التسليم بأن الانقسامات الدينية التي حدثت في تاريخنا هي بلا أي شك دون مثيلاتها في البلاد الأوروبية من حيث الاتساع والتنوع والعنف .

هذا من حيث الخلافات الدينية ، وأما الخلافات السياسية فأمرها يحتاج إلى بحث أكثر شمولاً وتفكير أشد عمقاً . ولنلاحظ أولاً أن توسع العرب بعد الاسلام كان مذهلاً . فقد انتشروا بسرعة خارقة في بقاع كثيرة من الأرض مترامية الأطراف تمتد في ثلاث قارات . ففتحوا في أثناء قرن واحد فقط من الزمان بلاداً أوسع بكثير مما فتحه الرومان طوال ثمانية قرون . فقد امتد سلطان العرب كما هو معلوم من سواحل الأطلسي إلى شواطىء نهر السند وسهول كشغر ، ومن سفوح جبال حملايا إلى جبال البرنس والألب ، ومن باب المندب إلى جبال القفقاس . فليت شعري ! أي دولة من الدول التي يذكرها التاريخ القديم والوسيط استطاعت أن تبسط سلطتها على هذه البقاع المتسعة الأكناف مدة تساوي تلك التي بسط العرب سلطتهم عليها دون أن تتعرض للانقسام والنزاع ؟

هذا فيما يخص الدول القديمة والوسطوية. فإذا انتقلنا إلى الدول الحديثة وتتبعنا أحوالها الماضية منذ القرون الوسطى حتى النصف الأول من القرون الأخيرة ، وصلنا إلى نتائج مشابهة .

فهذه فرنسا مثلاً . فالشائع أنها أسبق الدول الأوروبية إلى الوحدة السياسية الكاملة . ولكننا إذا استعرضنا أحوالها طوال القرون التي ذكرناها آنفاً وجدناها بعيدة عن الوحدة كل البعد . فقد كانت مسرحاً لشتى أنواع الخلافات والحروب . ونضرب مثلاً آخر بألمانيا . فقد كانت هذه الدولة منقسمة إلى أكثر من ثلاثمئة دولة ودويلة حتى أوائل القرن الماضي ، وكانت لا تزال منقسمة إلى تسع وثلاثين دولة منذ ثمانين عاماً فقط . إن اتحاد هذه الدول لم يتحقق إلا بعد جهود كبيرة وتضحيات عظيمة . وكم فشلت هذه الجهود وكم أجهضت محاولات الوحدة وانتكست !

إننا نكتفي دائماً بالنظر إلى تواريخ الشعوب الأخرى عن بُعد نظرةً إجمالية ، فندرك خطوطها الأساسية العامة ، دون أي تعمق في التفاصيل والجزئيات الفرعية . ولكننا عندما ننظر إلى تاريخنا ننظر إليه عكس هذه النظرة ، أي ننظر إليه عن قرب نظرة تفصيلية، فننقب فيه ونحقق وندقق لنطلع على كل صغيرة وكبيرة دون أن نهتم بخطوطه العامة الأساسية . أرأيت إلى الفرق بين النظرتين ! وهذا شيء طبيعي . فالأحداث أحداثنا وقد عشناها حدثاً حدثاً حتى نسينا ما يربط بين الحدث والحدث وحتى طغى علينا منطق الحدث وفاتنا ما يكمن وراء الحدث وشبكة العلاقات التي يتحدد فيها موقع الحدث . كما أن الحدث شيء مادي محسوس ، ونظام العلاقات معنى مجرد معقول ، والمحسوس أقرب مأخذاً من المعقول وأسهل تناولاً وأكثر إغراء .

إن النظر إلى الحدث من داخل الحدث غير النظر إليه من خارج . فالنظر إليه من الداخل يحجب الرؤية العلمية الصحيحة . إنه يُضيِّق فسحة النظر ويمنع المرء من أن يُطل على ما يدور خارجه كمن يحصر نظره في الوادي فلا يرى ما وراءه . لكننا كلما أمعنّا في الارتفاع رأينا المزيد من سلاسل الجبال وانكشفت لنا المنخفضات والسفوح والوديان والأنهار والقفار والبراري الشاسعة. وهكذا الحدث . فمن كان في قلب الحدث غير من يستشرفه من خارج إن لكل من هاتين النظرتين نكهتها وحلاوتها وعيوبها ونقائصها ، فإذا اجتمعتا معاً فقد حصل الكمال .

ونتيجة لذلك كله فإن تاريخ الدول الأوروبية يبدو لنا جبالاً مرتفعة شامخة تفرض نفسها على ساحة النظر لأننا نراه من خارج ومن بعيد ، متأثرين في ذلك أيضاً بنظر المؤلفين الأوروبيين الذين يهتمون بقانون الأحداث أكثر منهم بالشتات المبعثر للأحداث . وأما تاريخ البلاد العربية فيبدو لنا فسيفساء من المرتفعات والمنخفضات المشوشة والمعقدة لأننا ننظر إليها من الداخل وعن كتب متأثرين بنظر الإخباريين القدماء الذين يشدهم الحدث والإثارة التي ينطوي عليها الحدث ولا يلتفتون إلى الخيط الرفيع الذي يمتد بين الحدث والحدث . نحن في عصر العلم وقد آن لنا أن نتعلمن ونتخلى عن النظرة القديمة . فإذا فعلنا رأينا في تاريخنا شوامخ لا تقل عن ـ إن لم تكن تفوق ـ مثيلاتها في تاريخ الأوروبيين ، على الرغم مما فيها من وهاد ووديان . ثم هل يخلو تاريخ أوروبا من الوهاد والوديان ؟ بل إن الوهاد والوديان ألصق بالتاريخ الأوروبي منها بتاريخنا .

وقد لا أكون مغالياً إذا قلت إنه لا يوجد تاريخ أكثر تماسكاً وأشد ارتباطاً وأوثق وحدة كتاريخ العرب يراعي مُثله وقيمه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، رغم كل ما فيه من أنانيات وصراع على السلطة . وما علينا إلا أن نغير موقع الكاميرا حتى ينقلب المنظر من الضد إلى الضد . فنحن إذ نكتفي بما يطفو على السطح من أقذار السياسة ، ننسى التيار العميق الذي يحرك النهر . أنا لا أنكر أن تاريخنا ملطخ كثيراً بسواد النزاعات والخصومات ، مليء بالتمزقات التي لا تكاد تتصل قطعة منها بأخرى حتى تنقطع ثالثة في موضع آخر. ولكن هيهات أن يكون هذا وحده هو كل تاريخنا . إنه لا يعدو أن يكون الوجه المعتم منه ، إذ هناك وجه آخر مشرق وضاء يتدفق منه النور والحياة، إنه الوجه الثقافي الاجتماعي الديني اللغوي . فحسب الثقافة العربية فضلاً أنها لا تزال قادرة على أن تجمع بنسيجها المتين ما يقرب من 200 مليون عربي في مدى فكري واحد . وسواء كانت قاعدتها الضخمة العظيمة القرآن الكريم أو اللغة ، فإنها حتى الآن لم تفقد شيئاً من قدرتها على توحيد الناس بين مشرق ومغرب ، بل إن هذه القدرة آخذة في الازدياد يوماً بعد يوم. إنها في تجدد دائم كأنها في شرخ الشباب وهذا لعمري شيء لا يكاد يُصدَّق. فمطلب الوحدة السياسية لم يشتد يوماً كما يشتد في هذه الأيام . إنها لا تني تنسج اليوم ما خربته السياسة بالأمس كزوجة أوليس Ulysse

بطل الأوديسيا ، التي كانت تنقض في الليل ما نسجته في النهار وهي تنتظر قدوم زوجها من حرب طروادة دون أن تعيا أو يمسها لُغوب . فالمخطوط الذي كان يسافر من أقاصي مشرق العالم الاسلامي الى أقاصي المغرب لم يكن مجرد كتاب ينتقل من مكان إلى آخر انتقالاً طوبوغرافياً بقدر ما كان جزءاً من شبكة غير منظورة متصلة بالمركز ـ الأم الذي ينتصب فيه القرآن ، لتربط المشرق بالمغرب وتجعل منهما عالماً واحداً ، لقد كان الكتاب الذي يصدر هنا أو هناك في هذا العالم الفسيح المترامي الأطراف يعبر عن ثقافة واحدة ويحمل هموماً ومشاعر واحدة ويرد على تحديات واحدة، فكان من السهل جداً أن يجد استجابة واحـدة. ولذلك فإن كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه عندما انتقل من المغرب إلى المشرق وقرأه المشارقة قالوا كلمتهم المأثورة : هذه بضاعتنا رُدت إلينا .

وكـانت حركـة الهجرة نـاشـطة بين المشـرق والمغـرب ، فكـان العلمـاء ينتقلون شـرقاً وغـرباً بين أقصى الأنـدلس وأقصى الهند وبـلاد الترك ، وكـانـوا يجـدون في كل مكـان الترحيب والتشجيـع والعمل والـرزق والمثوى والمأوى والمـلاذ . فهذا ابن بـطوطة مثـلاً ـ وهو الـرحالـة المشهور ـ كـان يجد التكـريم اللائق به حيثما حلَّ ورحل . لقد عرف الجميع مقامه . فعمل قاضيـاً في دمشق وفي الهند وسرنـديب والصين ، دون أن يعترض عليـه أحد أو يقـول له لا مقـام لك هنا أيها الغريب فارجع . بل إن الحلاق العادي كان يغادر مصر إلى البصرة أو فاس ، فيجد من جماعة الحلاقين الرفد والمعونة ليستأنف العمل في مهنته ، وقد يعثرون له على الزوجة أيضاً ، كل ذلك يجري بروح من التضامن والتكافل لا تعرفه نقابات العمال في هذه الأيام . فلا شأن له ولا لهم بعـواصف السياسـة وأعاصيـرها التي تجرُّ النكبـات على أصحابها . وقد يكـون فريقـان يختصمان فيخطر تاجر ببضاعته بجوارهمـا فلا يمسهـا أحد بسـوء . فدنيـا السياسـة لأهلها يتنـابذون ويختصـون ، ودنيـا النـاس للنـاس تجمعهم وحـدة الثقـافـة والهـدف والمنافع العامة والمصير المشترك .

*

ورب متهكم يسأل : هل أتاك حديث اللؤم والغش والغدر ، وخيانات

الحكام ورجال السياسة ، وجرائمهم وعدوان بعضهم على بعض ، وظلم بعضهم لبعض ، ونهب بعضهم لأرزاق بعض ؟ ما تقول في كل هذا وأمثاله مما يلطخ تاريخنا ؟

أنا لا أرى في ذلك شيئاً عجيباً رغم تنديدي الشديد به . فما وجه الغرابة فيه وهو شيء راسخ في طبيعة الانسان ، في كل زمان ومكان ؟ وهل العرب في هذه الصفات الذميمة بِدع من البشر كأنما الناس من طينتين لا من طينة واحدة : طينتنا نحن وطينة الآخر : هذه قديسة سليمة طاهرة ، وتلك دنسة آثمة فاجرة ، ولا وسط بينهما يسدُّ الفجوة الفاغرة !

تُرى ! هلاّ اطلع هؤلاء الذين يزدرون تاريخهم بسبب هذه المفاسد على تواريخ الأمم الأخرى ؟ وأنا واثق بأنهم لو فعلوا لوجدوا تاريخنا إذا ما قيس بتاريخ الدول الأوروبية ، كثير الشبه بتاريخ القديسين . فما من أمة على وجه الأرض تستطيع الادعاء بأنها في تعاملها مع رعاياها فضلاً عن تعاملها مع رعايا الأمم الأخرى ، كانت طوال تاريخها أحفظ للعهد من العرب أو أكرم منهم خلقاً أو أقل منهم عدواناً على قدسية الانسان ـ أيّ إنسان ـ وانتهاكاً لحقوقه وامتهاناً لكرامته . وأكاد أقول إن القــوم هناك أشبه بوحوش ضارية عضّها الجـوع والعطش . أوَ نسيتم محاكم التفتيش وصكوك الغفران وبطش البابوات والإكليروس بشعوبهم ؟ أوَنسيتم الحروب الصليبية التي دمرت بلاد المسيحية قبل أن تدمر بلاد الاسلام ؟ أوَنسيتم تاريخ فرنسا الفريد في جرائمه وجنونه ودناءته ؟ أوَنسيتم الانكليزي أو الأسباني أو الروسي أو الايطالي . . . في حقارته ووحشيته ؟ إن تاريخ الدول الأوروبية مليء بالأحقاد والدسائس والفظائع وغير ذلك مما لم يعرفه العرب أو عرفوا بعضه على نطاق ضيق وأمسكوا عن بعض . قذارة الانسان واحدة في كل زمان ومكان ، طينته التي صُنع منها هي من طين الأرض ، بكل ما فيها من حقارة ودناءة ونقص وامتهان . فأوحالها ما تزال عالقة به تفسد وجدانه وتنخر في أعماق كيانه . ثم تأتي المبادىء والتعاليم الخلقية والدينية فتستدرك ما تستدرك وتدع ما تدع ، وهنا تختلف معادن الناس ومرباهم وأحكام النشأة والبيئة وتقاليد البلاد وأعرافها . ما وجه هذا التأثيم والتقريع للذات في الوقت الذي نتسامح فيه مع

الآخر ونتجاوز عن سيئاته . بل نلتمس له الاعذار ونضفي عليه كل صفات الكمال، كأنما هو ملاك ظاهر ونحن شيطان رجيم؟ إن الشعور بالنقص والـذنب والهوان يكاد يقتلنا، ومن هنا هذه الماسوشية الغريبة ـ إذا صح التعبير ـ التي تُشعرنا باللذة في جَلْد أجسادنا بالسياط صباح مساء ، ومن هنا أيضاً مطالبتنا لأنفسنا ظلماً بأن نكون وحدنا المثاليين ! التاريخ كله غابة واحدة فيها الذئب وفيها الحَمَل وفيها ما بينهما . بل إن التاريخ كله هو تاريخ العدوان ودفع العدوان والاستسلام للعدوان ، وتاريخ تهذيب العدوان بالكذب والبهتان . وفي هذه النقطة الأخيرة إنما يختلف الانسان عن الحيوان .

الطينة واحدة ولذلك فالتاريخ واحد ، تاريخنا وتاريخهم . فالعيب ليس في التاريخ وإنما العيب في معظم أولئك الذين كتبوا التاريخ ، أولئك الذين لم يكن رائدهم الوصول الى الحقيقة بقدر ما كان تحقيق أكبر قدر من الإثارة والديماغوجية ، فسجلوا العابر السياسي ، وهو الأقذار التي تطفو على السطح ، ولم يروا ، ولعلهم لم يستطيعوا ، تسجيل التيار العميق الذي لا يدركه البصر بل تدركه البصيرة . فهيهات أن يسبر الأغوار إلا أصحاب المواهب وكبار النظار . وقليل ما هم! إن عامة مؤرخينا كانوا يهتمون بالفسيفساء والأشكال الظاهرة دون أن يعيروا انتباههم للمعاني التي تكمن وراءها ؛ فيتحدثون عن صلاح الدين مثلاً ألف مرة ولا يقولون كلمة واحدة عن أزمته الاقتصادية ، ويحصون حروب الردّة وما تلاها دون أن يذكروا الانقلاب الاجتماعي الذي فجرها وكان المحرك الأساسي لها ، ويعرضون للمنصور والرشيد والبرامكة ، ولكنه عرض مجتزأ يهتم بجمع الطرائف والنوادر وتنقصه الرؤية الكلية الشاملة التي تربط بينهم وتحدد مواقعهم في إطار عصرهم وبيئتهم وحركة التاريخ التي تسيرهم .

إن التاريخ الحقيقي ليس تاريخ الخصومات والسيوف وسنابك الخيل . . فكل هذه أشباح عابرة ومظاهر يتعلق بها القُصاص والأخباريون والصبية الذين تبهرهم الزخارف السطحية على الجدران ، ولكنها لا تشفي غليل المؤرخ المحقق الذي يعمد إلى هيكل البناء التاريخي يستبطنه ويستنطقه ، إلى البنية الفكرية التي تغوص في الأعماق يستقرئها ويتتبع مسارها . إنه يتعامل مع أبنية

فكرية إنسانية يراها هي هي في كل زمان ومكان مهما تناءى الزمان عن الزمان أو تباعد المكان عن المكان . فأما الصبية فيتلهون بالزَبَد والغُثاء والحثالة ، وأما ما ينفع الناس فلا يدركه إلّا القلة النادرون في آحاد الناس . وكلاهما يستوي فيه جميع الناس . فالحثالات والأنجاس والأرجاس حظ مشترك لا يتفاوت فيه ناس عن ناس ، كما أن البنية الفكرية واحدة لا فضل فيها لناس على ناس . فكفاكم تشهيراً بالعرب من دون سائر الناس ، وتعظيماً للعجم حتى جعلتموهم خير الناس ، إن كنتم تنتمون حقاً وصدقاً إلى فصائل الناس !

*

وصفوة القول إن تاريخ العرب هو تاريخ أطوار متعددة وحالات متباينة مروا بها طوال عصورهم المختلفة ؛ فليس هناك إذن حكم مطلق عام يصح إصداره على العرب والمسلمين في جميع عهودهم المختلفة . ويقدم لنا التاريخ أمثلة لا تنتهي على شتى الأمم التي تقلبت في أطوار متعددة من القبض والبسط ، والغنى والفقر، والعلم والجهل، والازدهار والأفول، والحضارة والبداوة. . بل يمكن القول إن التاريخ هو من بعض الوجوه سجل حي لهذه التقلبات . فالإنكليز مثلاً ليسوا اليوم إنكليز القرون الأولى أو إنكليز القرون الوسطى ، كما ان عرب ما قبل الإسلام ليسوا هم أنفسهم عرب صدر الإسلام أو عرب هذه الأيام . نعم الأجسام هي الأجسام ، ولكن التاريخ ليس تاريخ الأجسام . فإنه لا تصنعه الأجسام وإنما تصنعه الأفكار التي تنبثق عن هذه الأجسام . بل إن التاريخ عندما يكون من صنع الأجسام يفقد تاريخيته ويصبح قصصاً وحكايات عن الذئاب والأفاعي والهوام. والأفكار تختلف بحسب أطوار الأمم ولا تبقى الأفكار كما هي وإن بقيت الأمم فلكل أمة أجل ولكل أجل كتاب ، وكل كتاب فيه الغث والرث وفيه اللُّباب . والكتاب الجيد حافل بالدروس والعبر لكن أحداً لا يعتبر ، بل ليست عنده الرغبة ولا الارادة لأن يعتبر !

فإذا لم يكن للعرب علم وفلسفة و . . . قبل الإسلام ، فلا يستتبع ذلك أبداً أن لن يكون لهم حظ منهما بعد ظهور الاسلام ، وإذا كانوا قمما في العلم والفكر والرأي في عصور الازدهار ، فلا يعني ذلك أبداً أيضاً أنهم لن يهبطوا إلى

السفح في عصور التدهور والانحطاط، وإن بقيت الأجسام في الحالين واحدة. فالقمة ليست مقاماً أبدياً لأحد ، إنما هي دُوْلة بين القادرين على ارتقاء القمم ، وسائر الناس يتسكعون في السفوح كالماعز والبقر والغنم !

إن العلوم والفنون والآداب . . وليدة مراحل اجتماعية وظروف تاريخية وأوضاع اقتصادية وحضارية معينة ، إنها لا ترجع أبداً الى اختلاف في تكوين الأجناس والأقوام ، أي إلى علاقات عرقية وعنصرية يقال إنها السبب في القدرة على إنجاز الأعمال العظيمة أو العجز عنها . لقد كان للعرب علم وفن وفلسفة وفنون وآداب ومناهج و . . . ثم لم يكن لهم بعد ذلك إلا ما يكون للمفلس من ذكريات المال والسلطان . فقد تقلبوا بين الحالين وتطوروا بالطورين ، وإن كان طور أقصر من طور، طور لم يكن شيئاً مذكوراً من عمر الدهر، وطور امتد واستطال كأنه الدهر. فقد كانوا لفترة قصيرة نسبياً مثالاً فذاً رائعاً للنشاط والفعالية والإشعاع حتى لقد ظن البعض أن من غير الممكن منافسة العرب أو التفوق عليهم. ولعلنا نذكر عبارة بترارك المشهورة التي قال فيها مخاطباً قومه: إنكم تتوهمون أنه لن ينبغ أحد بعد العرب . لقد نافسنا اليونان وتفوقنا عليهم ، ونافسنا كل الشعوب والأمم، ومع ذلك تقولون إننا لن ننافس العرب؟ تُرى! هل أصيبت عبقرية الإيطاليين بالعقم ؟

وظل أمر العرب كذلك حتى خانوا العهد ، ونكثوا الوعد ، وألقوا السلاح، وتقلبت بهم الرياح، فذلّوا بعد عز، وافتقروا بعد غنى وهووا بعد ارتفاع، وخوت ديارهم بعد بنيان ، فهلك العلم والعلماء ، وذهب الأعيان والاعلام والنجباء ، وولى الصدور والفحول وجميع المشيخة ، وسدوا كل منفذ للضوء وكل كوة وخَوْخة ، وانصرفوا إلى زيارة القبور والأضرحة ومقامات الأولياء والصالحين ، وغشيان المآتم والمناحات غادين ومظهرين ورائحين ، وقضاء الأوقات في الهمهمة والتمتمة وقراءة الأدعية والأوراد، والضرب على الصدور وقرع الطبول وقضاء السبحة في الخفاء وعلى رؤوس الاشهاد. لقد بارت تجارتهم وأصابها الكساد ، فأحيوها إمعاناً في التخلف والتدهور والفساد ، وقال قائلهم يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ، فصدق القوم وخاضوا حروب الجهل

والفقر والمرض وآستاقوا الى الهاوية العباد ، واندفع هؤلاء كالانعام وأسلسوا لهم القياد . ومنذئذ ونحن نعاني المذلة والخنوع ونلبس أثواب الحداد !!

لقد مضى السلف كأن لم يغنوا بالأمس ، وتخلف الخلف فلم يتسع لهم غير الرمس ، حتى لقيل فيهم شرُّ خلْف لخير سلْف . تلك أمة قد خلت وما ونت ، وهذه أمة قد ونت وما خلت . هذه حكاية حالهم فدوام الحال من المحال ، بكاء وعويل بعد مجد الأيام الطوال . نَوْحَة في إثْر نَوْحَة ، بعد أن ملأوا التاريخ بالنفحة تتلو النفحة ، فيا أسفي على أيام البهجة والفرحة !!



لقد كان الفكر العربي في عصور ازدهاره دائم التجدد والحركة والنشاط ، ولم يتوقف يوماً عن العطاء . وكان ذلك نتيجة حتمية للانفجار السَّيْكوسوسيودياميكي الذي دوَّى في القرن السابع للميلاد ، فحشد الطاقات ، وجنَّد الإمكانات وشحن النفوس للحدث العظيم . وهذا ما يفسر لنا ظهور ذلك العدد الهائل من القادة والرادة والعلماء والفلاسفة والمفكرين والشعراء والأدباء في عصور متقاربة . وعندما استنفدت هذه التعبئة التاريخية أغراضها واستفرغت جميع إمكاناتها ، نضبت العقول وضعفت الهمم ، وفترت العزائم وسقطت دواعي العمل . فأقفل باب الاجتهاد ، وغلبت الرواية على الدراية ، وكثر الحشو والتقليد، وفشا التحاور في الالفاظ والتقارع في أذناب المعاني. واشتد التمسك بالرسوم والطقوس وظواهر النصوص ، وشاع التزمت والتعصب ، ودب الفساد في كل شيء ، في الفكر والأخلاق ، في القول والعمل ، في العقل والقلب ، في الجسم والروح ، في الفرد والدولة وأسلوب الحكم . لقد تبدلت الحياة غير الحياة، والقوم غير القوم. بالتعبئة السَّيْكوسوسيودينامية غلبوا وسادوا وبتوقفها غُلبوا وسُوِّد عليهم. فالتوتر السَّيْكوسوسيوديناميكي هو في آن واحد نشاط عقلي، وامتداد سياسي ، وتوسع عسكري ، وتقدم إقتصادي ، وفتح علمي ، وإشعاع حضاري . . . فالسَّيْكوسوسيودينامية هي الفكر في جيشانه وثورانه . وبالفكر إنما تحيا الشعوب . فإذا خبا الفكر ، ذهبت المنعة ، وضعفت الشوكة ، وزال البأس ، واختلت الموازين ، وتضعضعت الأركان ، وانهارت القيم ، وانحطَّت

الغايات ، وشاع الفقر والجوع والمرض ، وأقبلت الدولة على الهرم . لقد غُلبت البلاد على أمرها فصارت في مُلك غيرها . الكل منوط بالفكر ، فإذا هوى الفكر هوى الكل . لقد قُضي الأمر . فللدول آجال كما للناس آجال . جفَّت الأقلام وطُويت الصحف. فإذا رأيتَ ثم رأيتَ بوماً ناعقاً، وخراباً بلقعاً، وغثاء تافهاً، وزبَداً راغياً ! إنها عصور الانحطاط ، وما أدراك ما عصور الانحطاط ! عصور التمزق والتفسخ وفك الرباط ، واستشراء الداء استشراءً بعيد النياط ، يقطع كل وشيجة بين الناس وكل قماط ومقاط .

ولم يكن العرب أول من غربت شمسهم ، بل لقد غربت قبلهم شُموس وانكدرت شموس بعد شموس ، وركبتهم بعد السعود الاوصابُ والنُّحوس ؛ كم بعد الشموخ ذلَّت رقابٌ وطأطأت رؤوس ، حتى وطئتهم الأقدام وهم أشلاء بين الرؤوس ! سبحان المعز المذل المهيمن القدوس !

أجل ، لقد مضت شعوب وأقوام أعرق من العرب وأرسخ منهم قدماً في العلم والحضارة . ولكن التاريخ لا يرحم أحداً قط . لقد أقسم ليضعنَّ كل من ارتفع ، وليُذلنَّ كلَّ من عزَّ ، وليحتنكنَّ كل من تطاول وامتدّ ، وليرثنّ الأرض ومن عليها . سُنَّة التاريخ في الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسُنَّة التاريخ تبديلاً ، ولن تجد لسُنة التاريخ تحويلا .

لقد كان اليونان أسوة في شرف الأصل وكرم المحتد وسمو المعدن والنِّجار ، أو هكذا يزعم النسَّابون العنصريون في بلاد الغرب . أين هم اليونان الآن ، وأي ميزة لهم اليوم على شعوب البلقان المجاورة لهم ؟ لقد مضى اليونان إلى غير رجعة وغابوا في لجة المجهول . لقد ذهبوا كما ذهب غيرهم ، ولم تُغْنِ عنهم فلسفتهم وفنونهم وآدابهم شيئاً . فخَلَف من بعدهم خلْف لا همَّ لهم إلاّ إطعام العيال ، والتماس الرزق الحرام والحلال ، وإيثار العافية والسلامة في العمل والفكر والمقال ، وبعد ذلك على الدنيا والسلام . فلا طُموح إلى الأسمى ، ولا مطمع في العالم الأعلى ، بل تكالب على عالم الحس والخساسة ، وزهد في عالم العقل وفي حقه المشروع في الرياسة . لقد تخلَّوا عن عالم المُثل وشروا به ثمناً قليلاً ، وأقبلوا على المادة ـ يا أسفي ! ـ يحتضنونها

وعلى الهيولى، يعتنقونها ويعضُّون عليها بالنواجذ ، وينفرون من الروح كأنها رجز الرواجز . لقد أعماهم العرضُ عن الجوهر ، واستغنوا عن المؤثر بمجرد الأثر ، واهتموا بشهوات البدن دون فضائل النفس ، فإنما الشهوات هي السبيل إلى القوة والبأس. وجرفهم - يا حسرة أفلاطون! - عالم الظلال بعيداً عن عالم المثال ، واعتدُّوه الأصل والجوهر والمآل . لقد مالوا عن المحجة الواضحة وضلوا سواء السبيل ، وهاموا في أودية الحس والهوى بالغداة والأصيل ، ولم يُغنْ عنهم أنهم أبناء أثينا ذوي المجد الأثيل ! .

حياة بيولوجية أو تكاد يعيشها اليونانيون منذ أجيال حتى هذه الأيام ، بعد أن تركوا حياة الاشعاع والحضارة التي كانوا ينفردون بها عن سائر الأنام ، عندما قطعوا العهد ليحفظُنَّ ميثاق الآباء والأجداد ، وليلتزمُنَّه وإلى الأبد بل إلى أبد الآباد، ولكنهم خانوا العهد والعهود، وغدوا لا يجمعهم باليونان القدماء إلا الاسم والدم والأرض والحدود ، بل لقد نقصت الأرض من أطرافها واهتزت أركانها فبئس الوجود ، وذاك لعمري هو الخسران فما جدوى الحياة وقد مضت الأسود . هيهات هيهات أن يغني الرماد عن الوقود ، فعندما يُكتفى بالاسم والدم والأرض فذاك هو الموت وذاك هو الركود !

وكما ذهب اليونان ذهب العرب ومضوا إلى حيث مضى الآخرون . لقد انتهوا سياسياً ولكنهم لم ينتهوا بيولوجياً. فلم يذوبوا في غيرهم من الأمم والشعوب كما ذابت أمم من قبلهم وإن ظلوا شراذم وفتاتاً وغثاء بين الأمم . لقد غربت شمسهم وأفل نجمهم ، ولكن دون أن يفقدوا قدرتهم على الاستمرار قليلاً في العطاء فضلاً عن البقاء: إذ مما يلفت النظر في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ما رأينا من مفارقة واضحة بين المنحدر السياسي والتصاعد العلمي والفلسفي . حتى إن من أبرز من أنجبتهم هذه الحضارة وأكثرهم إشعاعاً إنما ظهروا في عصور التراخي بل في وقت استفحال المرض وتفاقم البُحران . فالعواصف لم تنل سوى الاستقرار السياسي والأمني ، دون العطاء الفكري والاشعاع الحضاري الذي ظل يعزف قيثارته وحيداً ، وسط الصخب والضجيج المختلط بالعويل وصرير الأسنان . فقبل أن يهوي الأسد زَأَرَ زأرةً أو زأرتين وسقط مغشياً عليه لا يبدي حراكاً وبدأ ليل طويل !!

المصادر العربية

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

- إبن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) **المقدمة** . تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي . الطبعة الأولى لجنة البيان العربي (في أربعة أجزاء) القاهرة 1957-1962.
- إبن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد) **كتاب فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال** . دار المشرق المطبعة الكاثوليكية بيروت 1986.
- إبن سينا (أبو علي الحسين بن عبد الله) - **الشفاء** . طبعة حجر طهران . سنة 1303هـ .
- إبن سينا (أبو علي الحسين بن عبد الله) **النجاة** طبعة مصر 1333هـ .
- إبن سينا (أبو علي الحسين بن عبد الله) **القانون في الطب** . طبعة روما 1653 .
- إبن سينا (أبو علي الحسين بن عبد الله) **الإشارات والتنبيهات** . تحقيق د. سليمان دنيا . دار المعارف بمصر 1958-1965.
- أرنولد (سيرتوماس) **الدعوة إلى الاسلام** . الترجمة العربية . الطبعة الثانية ، القاهرة 1959 .
- أمين، أحمد: **ظهر الاسلام** . الجزء الثالث الطبعة الثانية ، القاهرة 1952 .

ـأمين، أحمد: **ضحى الإسلام**، الجـزء الثالث، الـطبعة الـرابعـة، القـاهـرة 1949.

ـ أمين أحمد: **يوم الإسلام**، القاهرة 1958.

ـ الأهواني (أحمد فؤاد) **فجر الفلسفة اليونانية**. الطبعة الأولى، القاهرة 1954.

ـ أوليري (د. لاسي) **علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب**. الترجمة العربية سلسلة 1000 كتاب. وزارة التعليم العالي، القاهرة 1962.

ـ بالنثيا (آنخل حنثالث) **تاريخ الفكر الأندلسي**. الترجمة العربية القاهرة 1955

د. بدوي، عبدالرحمن: **فلسفـة العصـور الـوسـطى**، القاهرة، 1962.

د. بـدوي عبـد الـرحمن: **من تاريخ الالحاد في الاسلام** القاهرة 1945.

ـ بربيه (اميل) **تاريخ الفلسفة**. الجزء الثالث الترجمة العربية، دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت 1983.

جويو، ادوار: **الفلسفة الوسيطية. ترجمـة د. علي زيعـور. بيـروت، الطبعة الثانية** 1989.

ـ ديورانت (ول) **قصة الحضارة**. الترجمة العربية. الأجزاء المذكورة في الحاشية.

ـ عبد الباقي، محمد فؤاد: **المعجم المفهرس لألفـاظ القرآن الكـريم. بيروت القاهرة** 1945.

ـ ديورانت (ول) **مباهج الفلسفة**. ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني. الكتاب الأول، مكتبة الانجلو المصرية 1957.

ـ روزنتال (فرانتز) **مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي**. بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ـ بيروت، نيويورك 1961

ـ زريق (قسطنطين) **في معركة الحضارة**. دار العلم للملايين، بيروت 1964

ـ سارطون (جورج) **تاريخ العلم**. الترجمة العربية الجزء الثالث. دار المعارف

بمصر 1961.
- سديو - **خلاصة تاريخ العرب العام** . دار الآثار ، بيروت سنة 1400هـ
- سعيدان (أحمد سليم) **مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الاسلام** . سلسلة عالم المعرفة رقم 131 . الكويت 1988.
- شحادة (عبد الكريم) **أضواء على الطبيب العربي والعالم الموسوعي عبد اللطيف البغدادي** . أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب . المنعقدة بجامعة حلب 5-12 نيسان 1976 . الجزء الأول 1977 صفحة 693-734 .
-الشريف، ريجينا: **الصهيونية غير اليهودية** ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز . سلسلة عالم المعرفة الكويت 1985.
- صبرة (عبد الحميد) **تاريخ العلوم عند العرب . أهدافه ومشكلاته** . أبحاث الندوة العالمية الأولى . مصدر مذكور سابقاً صفحة 95-97 .
- صليبا (جورج) **فلكي من دمشق يرد على هيئة بطلميوس** . مجلة تاريخ العلوم العربية . المجلد الرابع العدد الأول . جامعة حلب . معهد التراث العلمي العربي صفحة 3-17. 1980م .
- غارودي (روجيه) **حوار الحضارات** . الترجمة العربية ، سلسلة زدني علماً . منشورات عويدات عدد (1) بيروت 1978.
- الغزالي (أبو حامد) **المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال** . تحقيق د. جميل صليبا ود. كامل عياد . الطبعة السادسة . دمشق .1960
- فارنتون (بنيامين) **العلم الاغريقي** . الترجمة العربية . سلسلة الألف كتاب . الجزء الأول . مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1958.
- فرانك (فيليب) **فلسفة العلم** . الترجمة العربية المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 1983.
- قنصوه (صلاح) **فلسفة العلم** . دار التنوير للطباعة والنشر . بيروت 1983
- كرم (يوسف) **تاريخ الفلسفة اليونانية** . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة 1936 و 1946 .
- كورغانوف (فلادمير وجان كلود) **البحث العلمي** . الترجمة العربية سلسلة

زدني علماً . منشورات عويدات . بيروت 1983.
- كولانج (فوستيل دي) **المدينة العتيقة** . الترجمة العربية ، مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . بلا تاريخ .
- لاندو (روم) **الاسلام والعرب** . الترجمة العربية دار العلم للملايين . بيروت 1962.
- مرحبا (محمد عبد الرحمن) **من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الاسلامية** . منشورات عويدات . الطبعة الثالثة بيروت 1983.
- مرحبا (محمد عبد الرحمن) **الكندي** . منشورات عويدات ، بيروت 1984.
- مرحبا (محمد عبد الرحمن) **الجامع في تاريخ العلوم عند العرب** . منشورات عويدات بيروت 1988.
- مرحبا (محمد عبد الرحمن) **المرجع في تاريخ الأخلاق** . جرُّوس برس . طرابلس - لبنان 1988.
- مرحبا، محمد عبد الرحمن: **جديد في مقدمة ابن خلدون 1989 وأصالة الفكر العربي** 1982 ، منشورات عويدات - بيروت .
- المقَّري (الشيخ أحمد بن محمد) **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب** الجزء الثالث . دار صادر بيروت 1968.
- النشار (علي سامي) **نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام** . الجزء الأول . الطبعة الثالثة دار المعارف القاهرة 1965.
- نظيف (مصطفى) **الحسن بن الهيثم . بحوثه وكشوفه البصرية** .. مطبعة نوري . مصر 1942.
- هل (ي) **الحضارة العربية** . الترجمة العربية . سلسلة الألف كتاب . مكتبة الانجلو المصرية . القاهرة 1956.
- الهليس (يوسف) **علم الصوتيات عند العرب** . الندوة العالمية مصدر مذكور صفحة 464-491.
- هونكه (زيغريد) **شمس العرب تسطع على الغرب** . الترجمة العربية . منشورات المكتب التجاري بيروت 1964.

- وايت (اندرو ديكسون) بين الدين والعلم ترجمة اسماعيل مظهر 1930 مصر.
- وهبة (مراد) المذهب في فلسفة برغسون . مكتبة الدراسات الفلسفية . دار المعارف بمصر 1962.

المصادر الأجنبية

— Coleman (J.C) & Broen (W): **Abnormal Psychology & Modern Life.** Glenv w, Scott Foreman, 1976.
— **Encyclopédie de l'Islam**: Art. Kalam.
Goéchon
— Lalande (André): **Vocabulaire Technique et critique de la philosophie.** Art. Âme. P.U.S. 1951.
— Quadri (G): **La philosophie arabe dans l'Europe médiévale** (trd. de l'Italien) Payot, Paris, 1947.
— Renan (Ernest): **Histoire générale et système comparé des langues sémitiques. œuvres complètes**, Paris, 1925.
— Roustan: **Psycologie. Essai sur l'imagination créatrice** Paris, 1926.
— Sorokin (Pitrin): **Dynamiques sociales et Culturelles in: La socialogie au XXe siècle** P.96- 121. P.U.F. Paris, 1947.

الفهـــرس

كتب للمؤلف

لدى منشورات عويدات

- المسألة الفلسفية 1961.
- الانسان (ترجمة عن الفرنسية) لمؤلفه جان روستان 1965.
- مع الفلسفة اليونانية 1980.
- أصالة الفكر العربي 1982.
- آينشتين 1983.
- من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية 1983.
- الكندي 1984.
- الجامع في تاريخ العلوم عند العرب 1988.
- جديد في مقدمة ابن خلدون 1989.
- انتفاضة العقل العربي 1991.

لدى الآخرين

- الفكر العربي في مخاضه الكبير دار الجيل 1985.

المرجع في تاريخ الأخلاق جروس برس 1988.

منشورات عويدات 961/ 1994

MOHAMMED A. MARHABA

Professeur de philosophie

à l'Universite Libanaise

IMPULSION DE L'ESPRIT ARABE

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth- Paris

انتفاضة
العقل العربي

إن الفكرة الأساسية التي يدور عليها هذا الكتاب هي إبراز أهمية الانتفاضات والثورات والتحولات الكبرى في استحثاث خطى التاريخ والتعجيل بحركة التاريخ ، إنها المهماز الذي ينخس التاريخ ويلهب ظهر التاريخ . من هنا يبدأ التاريخ فهي المنطلق والمبدأ لكل تاريخ ، والسّيْكوسوسيوديناميكا هي نظرية تفجير التاريخ .

إن عصور التحول الكبرى هي عصور تفجر الأفكار واندلاع شرر الأفكار ، فالتاريخ إنما تصنعه الأفكار ، فلا إصلاح ولا تقدم ولا إبداع بلا أفكار . والأفراد هم صناع الأفكار . إنهم مراكز حيّة متحركة لبثّ الأفكار ، بل قُل هم مضخات لضخ الأفكار . والأفكار شحنات من الطاقة تنمو وتزيد وتتفجر بالاحتكاك والنقاش والحوار ، « فالعلم ينبت بين اثنين » كما يقول أجدادنا . كيف تفعل هذه الأفكار وكيف تؤثر وكيف تنبثق وتتوالد وما هي قوانين عملها ؟ ذلك هو موضوع السّيْكوسوسيوديناميكا .

هذا المفهوم الساخن للأفكار هو الذي يفسر ما يسمى بالمعجزة اليونانية ، وهو- بزعمي - يفسر أيضاً ما يمكن تسميته بالمعجزة العربية ، والمعجزة التي تمت في أعقاب الثورة الفرنسية ، هذا إذا كانت معجزة . عصور التحول هي عصور المعجزات والآيات البينات . محطات كبريات في التاريخ سبقتها وأعقبتها محطات أقامت شبكات للبثّ السّيْكوسوسيوديناميكي لم [illegible] آثارها في أفقها الضيق بل لقد اخترقت كل أفق وعمت آثارها العالم [illegible] بأسره . . .

